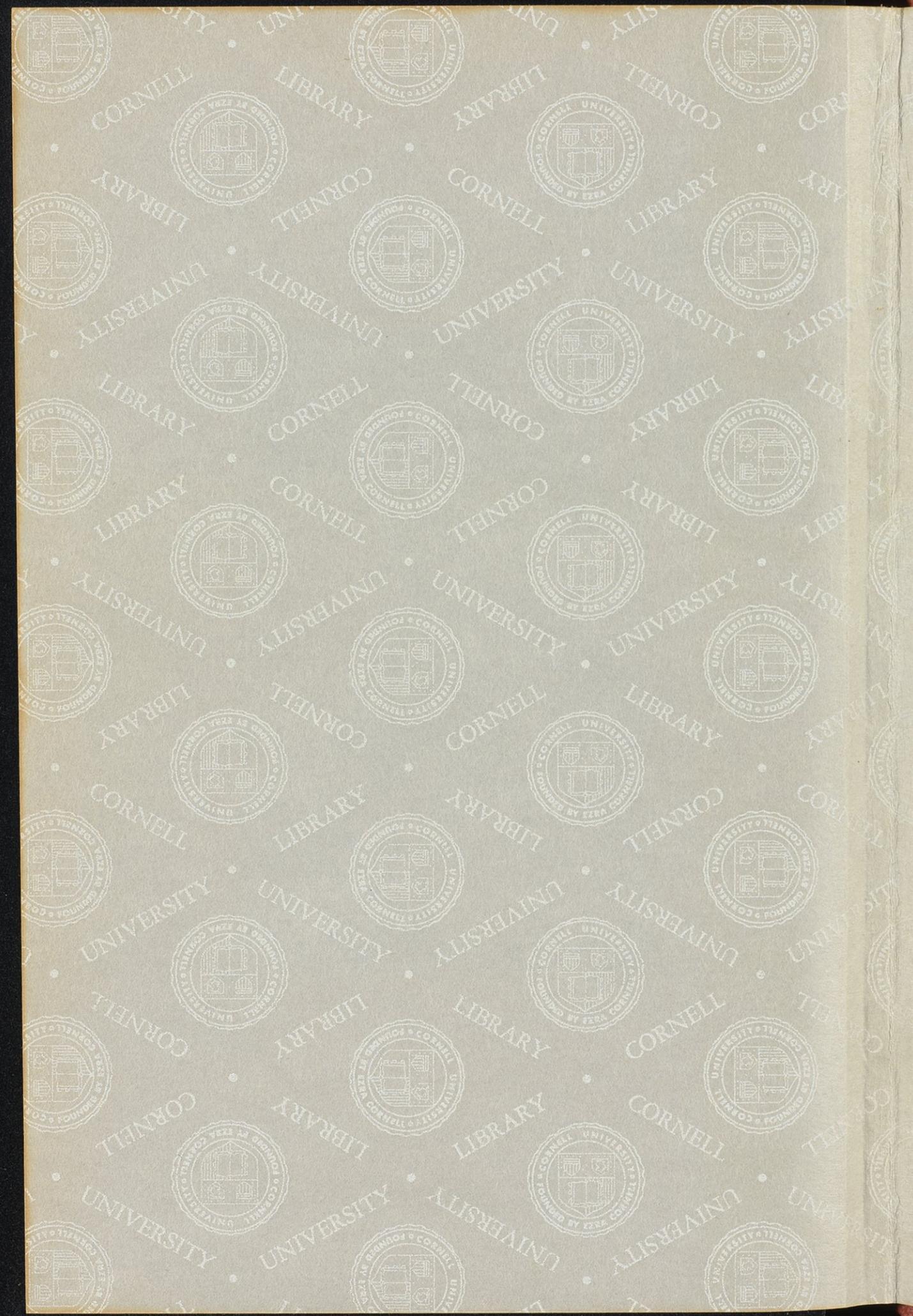
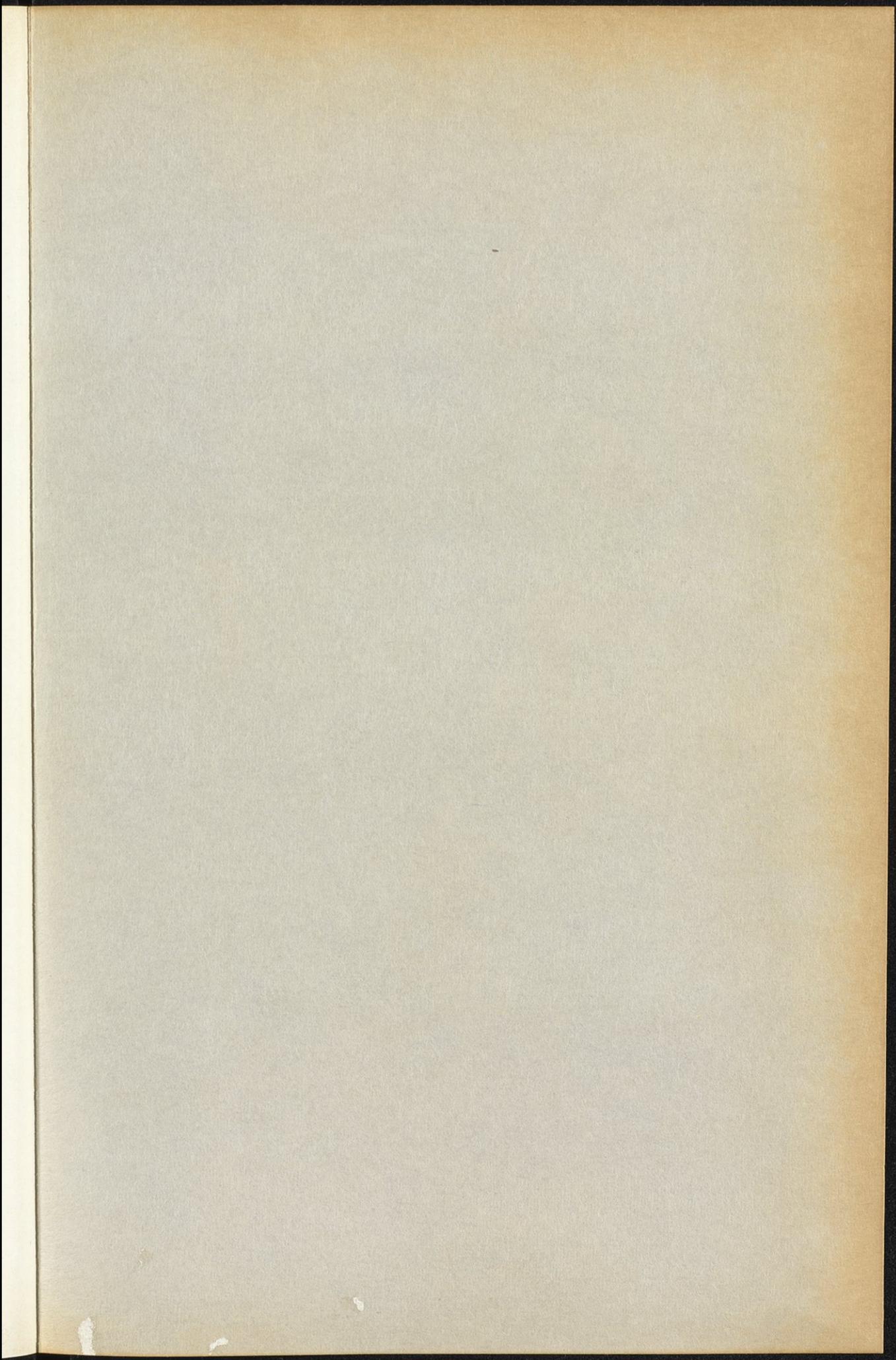


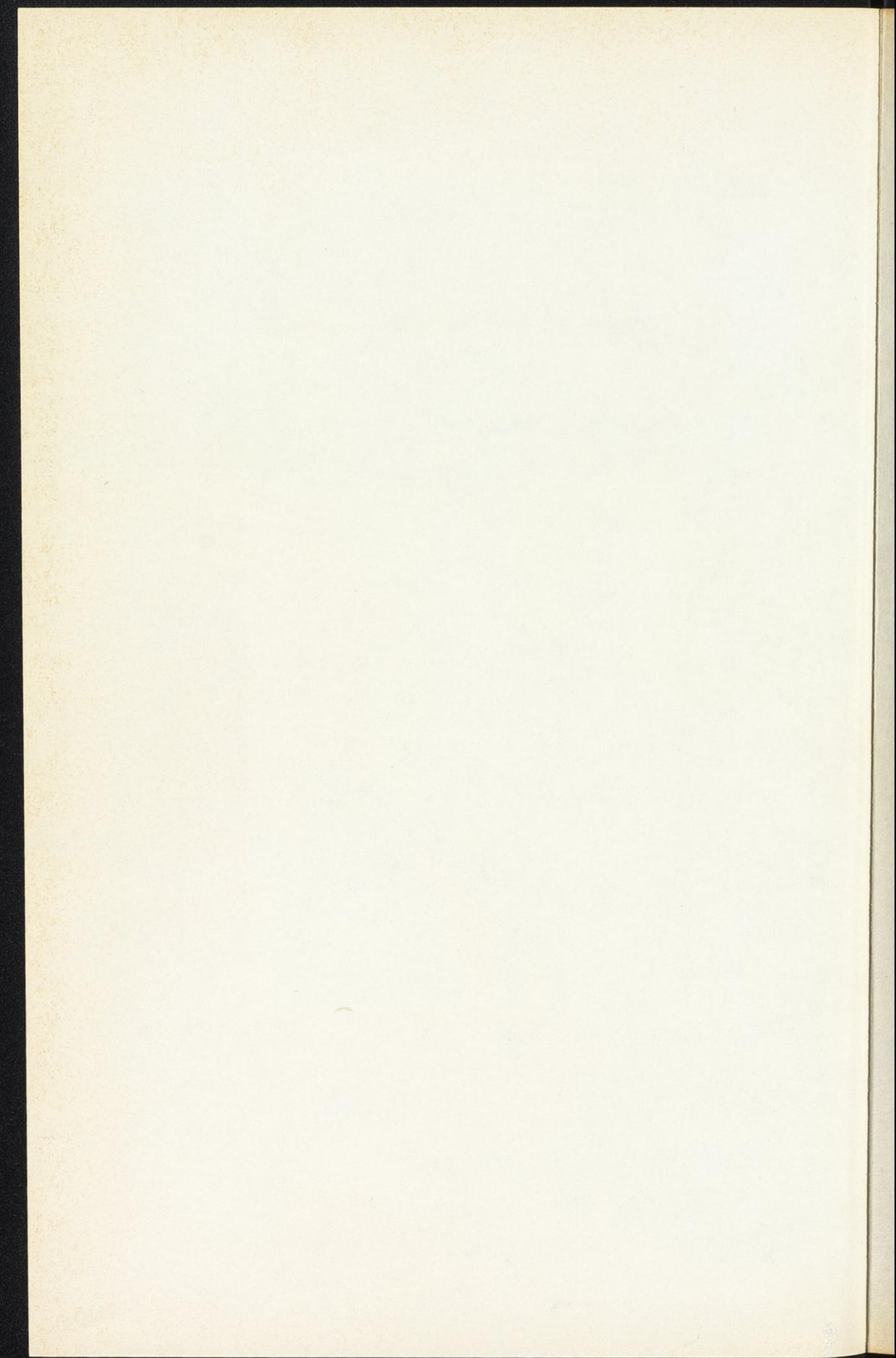
CR  
6010  
D6

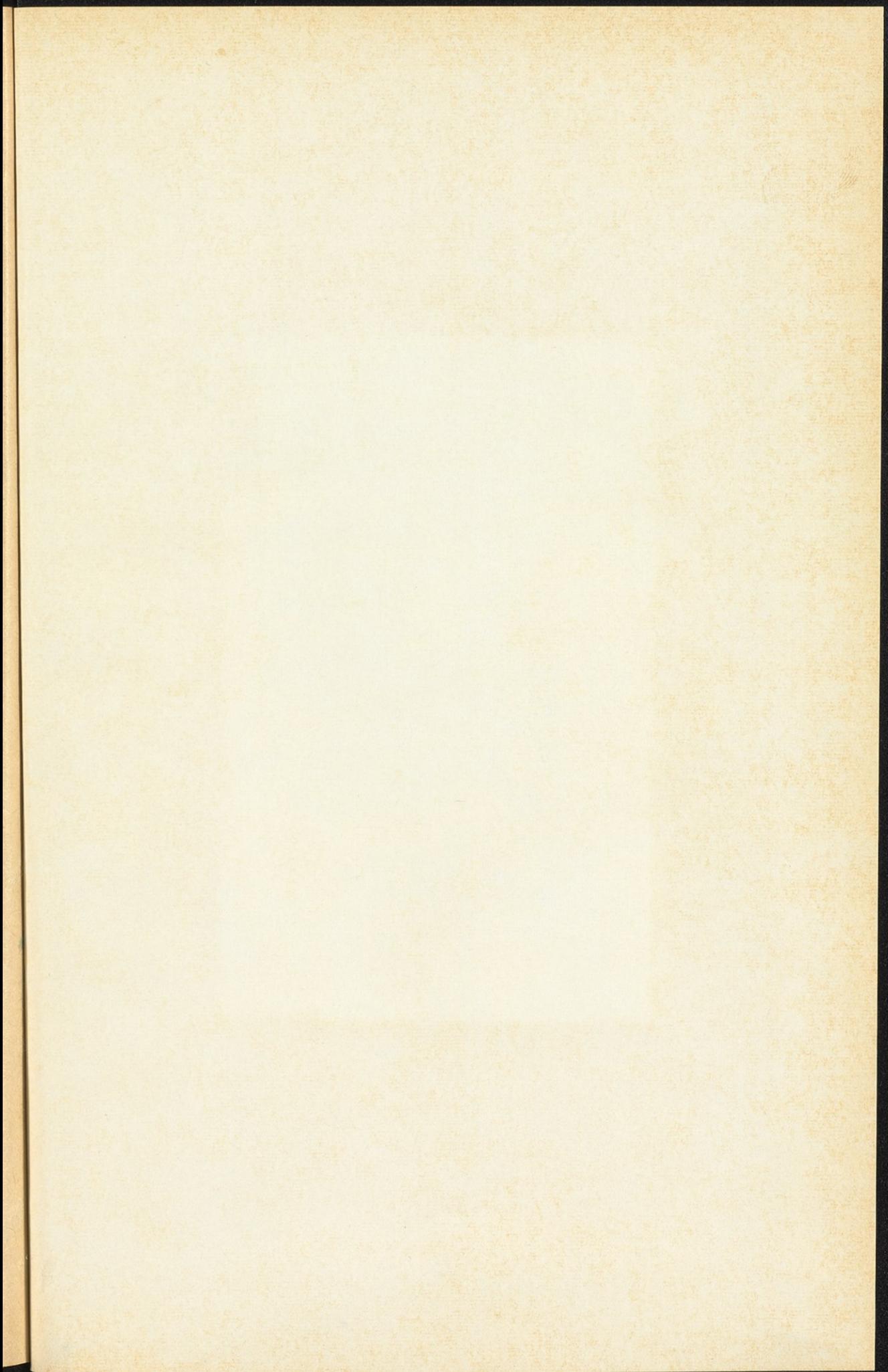
CORNELL  
UNIVERSITY  
LIBRARY











وزارة التربية والتعليم

# الفتوحه عند العرب

أو  
أحاديث الفروضية والمثل العليا

تأليف

عمر الدسوقي

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة

مطبوع ونشر

مكتبة نصبة مصر بالفيالة

١٨ شارع كامل صدق

C R  
6010  
J 61

B719831  
55  
S  
V.R.T.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينَ

## مُقَدَّمة

الأمة العربية اليوم في يقظة عقلية وسياسية لا ريب فيها ، وقد قضت  
رَدَحًا طويلاً من الزمن في غفلة تامة ، وجهل مطبق ، واستكانة غريبة  
للحوادث التي صُبِّت فوق رأسها تباعاً منذ أن مُزقت أوصال الدولة العباسية ،  
فغشتها من الهم ما غشياها ، وفقدت على توالي الأيام مقوّمات شخصيتها ،  
ونسيت ذلك الماضي المجيد الذي تألق في سماء التاريخ نوراً ساطعاً باهراً ،  
اهتدت به الإنسانية في مهيع التقدم والمدنية ، بعد أن كانت تتعرّى في حِندس  
الجهالة والبغى . وقد العرب الثقة بأنفسهم ، وشكوا في قدرتهم على استرجاع  
ذلك المجد .

أترابهم اليوم ، وهم في نشوء اليقظة يلتقطون إلى ذلك الماضي العريق ،  
والتراث التليد ؟ فيلتمسون منه زادًا يغذى مشاعرهم ، ويثبت إيمانهم  
بأنفسهم ، ويدعم شخصيتهم ، ويدفعهم إلى درج المجد دفعاً حميداً ، ويبرهم  
العزلة ، والقوة المعنوية ؟ حتى يقفوا أمام تيار الغرب الجارف ، فلا يكتسحهم  
في طيات أمواجه ، وتعود الأمة العربية مسيحة مشوهة لا هي بالعربية فيحترمها ،  
ولا هي بالغربيّة فيها ب لها ؟

للغرب مدينته المادية العتيدة ، شادها على العلم البحث ، ونسى في غمرة المادة كل ما تهدف له الإنسانية من مثل عليا نحو الخير والسعادة ، وانتصبت المادة وحشًا ضارياً عملاً ، بشع الخلقة محمد الأنبياء ، مُشرِّع البراثن ، يبسطش بكل الفضائل الجميلة ، ويفتك بقوى الخير فتكاً ذريعاً ، ويجر وراءه الإنسانية بيد غليظة أيدٍ جاسية إلى هوة سحيقة مالها من قرار .

لا يعرف إلا شرعة الغاب ، وقانون القهر والغلبة ، وسلطان البطش والظلم ؛  
فلا يرق ولا يعفو ، ولا يعدل ولا يحلم ، ولا يؤاسي ولا يسخو ، لا يغيث ملهوفاً  
في كربته ولا يقيل كائياً من عثرته . بل الويل للضعيف الذي لا يقوى على انتزاع  
الغلبة والظفر ، والذي لا يعرف الخداع والمداهنة ، والاحيطة والغية ؛ حتى يفلت  
من سطوة القاهرةين ، ونقمة العتاة الغاشمين .

أجل ! إن المدنية الغربية قد ذلت قوى الطبيعة للإنسان ، ومهدت له سبل الرفاهية والمتاعة ، فوطى الجو بساطاً مهداً ، وطوى المسافات البعيدة في لحظات ، وغاص في أعماق البحار ، وكشف عن الجرائم ، واخترع آلاف المخترعات . وهى إلى جانب هذا قد عنيت بالتنظيم والترتيب والتنسيق في كل شئون الحياة . عناية فائقة ، ولا يكابر في هذا ولا يتجحد إلا كل جاهل معاند .

شريعة الحياة ، واندلعت نيران الحروب فتدوّق حرها المحاربون والآمنون على السواء .

ولقد فتن بعض شبابنا بالألاعيب الحضارة الغربية ، ودعا دعوة منكرة إلى أن نقطع كل صلة لنا بالعرب وبالحضارة العربية ، وبالمثل التي قررتها ؛ لأنه لا يعرف إلا النذر اليسير عن حقيقة العقلية العربية ، وعنده كنه أخلاقهم ومثلهم العليا وحضارتهم ، ولأنه رأى الغرب قويًا بmadته غلاباً بالله ، يستعمر الأمم التي نسيت ماضيها ومجدها ، والتي لم تجاه في عالمه وتنسيقه وترتيبه ؛ ونسى أنه يعكوفه على نفایات الحضارة الأوروبية ، وقطعه كل صلة له بمضيه ، إنما يسعى للتهاكة ، وأنه يأخذ السموم التي فتكـت بهـذه الأمـ ، وأودـت بـمجتمعـهمـ ، وأذـهـبتـ منـ قـلـوبـهـمـ الحـمـيـةـ ، فـانـحـلتـ أـخـلـاقـهـمـ ، وـازـدـرـواـ كـلـ معـانـيـ النـخـوةـ وـالـشـرـفـ وـقـوـةـ الـكـفـاحـ ، وـداـسـواـ الفـضـائـلـ ، وـاستـهـانـواـ بـمعـانـيـ الـخـيـرـ . ولقد قدمـتـ لـنـاـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الـمـاضـيـةـ نـمـاذـجـ لـهـذـاـ الـانـهـيـارـ الـخـلـقـيـ : فـأـمـةـ متـوحـشـةـ لـاـ تـؤـمـنـ إـلـاـ بـالـبـطـشـ وـالـقـهـرـ ، كـأـنـهـ وـحـوشـ الغـابـ اـنـطـلـقـتـ منـ مـغـاـورـهـاـ تـفـتـكـ بـكـلـ مـنـ يـتـصـدـىـ لـهـاـ ، وـأـخـرىـ فـزـعـتـ ، وـتـمـلـكـ الرـعـبـ أـزـمـةـ فـؤـادـهـ ، وـلـمـ تـجـدـ لـهـاـ مـنـ أـخـلـاقـهـاـ عـاصـمـاـ يـدـرـأـ عـنـهـاـ عـادـيـةـ الشـرـ ، وـلـاـ حـصـنـاـ تـلـجـأـ إـلـيـهـ إـبـانـ الـحـنـةـ ، فـخـرـتـ صـاعـرةـ قـبـلـ أـنـ تـلـطمـ ، وـآثـرـتـ أـنـ تـحـفـظـ بـتـرـاثـهـ المـادـيـ عنـ أـنـ تـجـولـ جـوـلـاتـ صـادـقـاتـ فـيـ مـيـدانـ الشـرـفـ وـالـجـهـادـ ، فـكـانـتـ مـثـلاـ زـرـيـاـ لـلـتـدـهـورـ وـتـحـلـلـ الـأـخـلـاقـ . وـنـحـنـ الـيـوـمـ نـرـىـ الـعـجـبـ الـعـجـابـ مـنـ صـرـاعـ الـغـرـبـ وـالـمـادـيـ الـفـتـاكـةـ الـمـتـشـرـةـ بـيـنـ بـنـيـهـ ، وـضـلـالـهـ فـيـ الـوصـولـ إـلـىـ السـعـادـةـ ، بـوـسـعـيـهـ الـحـثـيثـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ مـدـنـيـتـهـ الـتـيـ بـنـاـهـاـ عـلـىـ الـمـادـةـ .

أَمَّا نحنُ العربُ فنملكُ ثروةً روحيةً جليلةً ، تَسْكُرُمُ فِي الإِلْتَسَانِ مُعْنَى  
الإِنسانية ، وَتَرْفُعُ فِي عَيْنِهِ قِيمُ الْفَضَائِلِ الْجَمِيلَةِ ، وَتَوْثِيقُ بَيْنِ بَنِي الإِنْسَانِ رَابِطَةٌ  
مِنَ الْأَخْوَةِ الصَّادِقَةِ ، وَتَقْيِيمُ مِيزَانَ الْمُعْدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ عَلَى أَسَاسِ  
مِنَ الرَّضَا وَالْتَّعَاوُنِ ، وَتَضُعُّ لِأَصْوَلِ الْمُشَكَّلَاتِ حَلْوًاً تَرْتَكِزُ عَلَى الْحَقِّ لَا عَلَى  
الْهَوَى . وَإِنْ مِنَ الْعَقُوقِ لِجَدَنَا وَدِينَنَا ، وَلِلإِنْسَانِيَّةِ أَلَّا تَنْقُدُمْ إِلَى الدِّينِ بِهَذِهِ  
الثَّرَوَةِ الرَّوْحِيَّةِ عَلَيْهَا تَهْتَدِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ .

إِنَّ أَقْوَمَ طَرِيقَ نَسْلَكُهُ ، وَنَحْنُ نُرِيُّ هَذِهِ الْفَنِّ الدَّامِيَّةِ هُوَ أَنْ نَقْتَبِسَ  
مِنْ عِلْمِ الْغَرْبِ وَمِدْنَيْتِهِ مَا يَكْنَنَا مِنْ أَنْ نُعِيشَ فِي بُلْهَنِيَّةِ وَرَفَاهِيَّةِ ، وَيُسَاعِدُنَا  
عَلَى دَرَءِ الْعَدُوَانِ ، وَصَدِّ نِزَوَاتِ الْطَّامِعِينَ الْمُعْتَدِينَ ؟ حَتَّى نُعِيشَ أَحْرَارًاً كَرَامًاً  
أَمْجَادًاً ، وَأَنْ نَسْتَعِيدَ مِنْ ماضِيَّ الْعَرَبِ الْجَمِيلِ ، وَإِنْسَانِيَّتِهِمُ الْخَيْرَ مَعْنَى الْفَضْلِيَّةِ  
وَالْخَيْرِ ، فَلَا تَنْسِيَنَا مَدْنِيَّةُ الْعَرَبِ الْمُشَلَّـ الْعَلِيَّـ الَّتِي يَحْبُّ أَنْ يَهْدِيَ لَهَا الْمُجَمَعُ  
الإِنْسَانِيِّ ، وَالَّتِي كَانَتْ طَابِعَ الْعَرَبِ أَيَّامَ تَارِيْخِهِمُ الْذَّهْبِيِّ .

وَتَجْدُدُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْيَوْمَ ، وَهِيَ فِي طَرِيقِ الْيِقْظَةِ الْعُقْلِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ  
عَوَائِقُ جَمَّةٍ تَعْتَرِضُ سَبِيلَهَا ، وَتَبْيَطُ عَزْمَهَا ، وَتَحَاوُلُ أَنْ تَشْتِيهَا عَنْ هَدْفَهَا ، بَلْ  
حَرَبًاً مَرَّةً قَاسِيَّةً ، تَعْتَمِدُ عَلَى الْغَدَرِ وَالْحِيلَةِ ، وَالْكَذْبِ وَالنَّفَاقِ ، وَالْقُوَّةِ  
وَالْقَهْرِ ؟ لِتَخْمِدَ هَذِهِ الْجَذْوَةُ الَّتِي اشْتَعَلَتْ بَعْدَ خَمْودِ ، وَتَقْفَى هَذَا التَّيَارُ الَّذِي  
تَدْفَقُ بَعْدَ رَكُودٍ ، وَتَرْزُلُ عَقِيْدَتَهَا فِي نَفْسِهَا ، وَتَظْهَرُ الْعَرَبُ بِمَظَاهِرِ الْأُمَّةِ  
المُفَكَّكَةِ الْمُنَحَّلَةِ الَّتِي لَا تَصْلِحُ لِلْوُجُودِ . حَرَبًاً يَشْتِهِ الْعَرَبُ الَّذِي اسْتَمْرَأَ  
مِنْهَا الدُّعَةُ وَالْطَّمَآنِيَّةُ إِلَى بَطْشِهِ وَعَدْوَانِهِ ، وَقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَظَلَّ أَمْدَأً غَيْرَ  
قَصِيرٍ يَخْدِعُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، وَيَسْتَرْفُ دُعْمَهَا لِيَسْمَنْ وَيَتَخْمِ . فَكَيْفَ يَتَيَّحُ لَهَا

اليوم أن تستكمل يقظتها ، وتقف على قدميها ، وتستعيد مجدها ؟  
وحرّباً يوقد أوارها اليهود الذين لفظتهم ديار الغرب بعد أن ضاقت بهم  
ذرّعاً ، وسمّت مكرهم وجشعهم ونفاقهم ، وكفراهم بالنعمـة ، ومكنتـهم  
من أرضنا يتخدون منها وطنـاً مزعـومـاً .

وحرّباً يهيجها ذـوـ الأثـرـةـ منـاـ ، الـذـينـ لاـ يـرـاعـونـ فـيـ أـمـتـهـنـ ضـمـيرـاًـ وـلـاـ رـحـمـةـ ،  
وـلـاـ يـنـظـرـونـ لـلـخـطـرـ الـحـدـقـ بـهـاـ مـنـ كـلـ صـوبـ ، فـيـسـعـونـ إـلـىـ الـجـدـ الزـافـ ،  
وـالـتـمـلـكـ الـبـغـيـضـ ، بـتـقـطـيـعـ أـوـصـالـ هـذـهـ الـأـمـةـ بـعـدـ أـنـ التـأـمـتـ ، وـالـتـمـكـنـ لـلـأـدـاءـ  
بـإـذـ كـاءـ نـارـ الـفـرـقـةـ بـيـنـ أـبـنـاءـ الـعـرـوـبـةـ ؟ـ جـرـيـاًـ وـرـاءـ شـهـوـةـ عـارـمـةـ لـاـ تـعـرـفـ لـلـعـقـلـ  
سـلـطـانـاًـ ، وـلـاـ تـقـدـرـ عـوـاقـبـ تـلـكـ النـزـوـةـ الطـائـشـةـ .

ولعل من خـيرـ ماـ يـقـدـمـ لـلـأـمـةـ الـعـرـبـيـةـ الـيـوـمـ هوـ بـعـضـ صـفـحـاتـ مـشـرـقـةـ مـجـيـدةـ  
مـنـ تـارـيـخـهاـ العـظـيمـ ، تـفـيـضـ بـالـخـيـرـ ، وـالـسـخـاءـ ، وـالـرـحـمـةـ ، وـالـعـدـلـ ، وـالـشـجـاعةـ ،  
وـالـرـفـقـ ، وـالـبـطـوـلـةـ ، وـالـوـفـاءـ ؟ـ فـتـعـرـفـ نـفـسـهـاـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـاـ ، وـتـسـتـمـدـ مـنـهـاـ القـوـةـ  
فـيـ كـفـاحـهـاـ الـمـرـيـرـ مـعـ عـدـاتـهـاـ الـعـادـرـينـ ، فـتـسـيـرـ بـخـطـىـ ثـابـتـةـ صـوبـ الـهـدـفـ الـمـشـودـ ؟ـ  
ولـلـعـلـ تـلـكـ الـفـضـائـلـ الـتـىـ تـكـمـنـ فـيـ قـرـاراتـ نـفـوسـنـاـ ، وـالـتـىـ تـحـلـ بـهـاـ أـسـلـافـنـاـ تـظـهـرـ  
مـرـةـ أـخـرىـ لـلـوـجـوـدـ ، فـيـرـىـ الـعـالـمـ وـجـهـاـ آخـرـ لـلـإـنـسـانـيـةـ ، غـيرـ ذـلـكـ الـوـجـهـ الـبـغـيـضـ  
الـذـىـ تـسيـطـرـ عـلـيـهـ الـمـادـةـ ، وـيـتـكـلـمـ بـلـغـةـ الـحـدـيدـ وـالـنـارـ .

هـذـاـ وـشـبـابـنـاـ يـسـمـعـ عـنـ ذـلـكـ الـمـاضـيـ الـمـجـيدـ ، وـلـاـ يـعـرـفـ كـيـفـ يـصـلـ إـلـيـهـ ،  
وـكـيـفـ يـتـمـثـلـهـ ، وـهـوـ مـطـمـورـ مـغـمـورـ فـيـ ثـنـيـاـ الـكـتـبـ الـقـدـيمـةـ ، قـدـ عـلـاهـ غـيـارـ  
الـقـرـونـ ، وـسـجـلـ بـلـغـةـ تـلـعـوـ عـنـ مـسـتـوـاهـ وـإـدـرـاكـهـ ، وـفـيـ صـورـةـ مـوجـزـةـ حـائـلةـ اللـوـنـ .  
وـهـيـهـاتـ أـنـ يـبـعـثـ مـثـلـ ذـلـكـ الـمـاضـيـ فـيـ نـفـسـهـ الـإـعـجـابـ ، وـيـدـفـعـهـ إـلـىـ التـقـلـيدـ  
وـالـاحـتـذـاءـ ، وـهـوـ عـلـىـ حـالـتـهـ تـلـكـ .

فإذا تقدمتاليوم إلى الشباب العربي بأحاديث القوة والفتواة والفروسيّة ،  
والمثل العليا عند أسلافه الأمجاد ، وأخذت هذه الصور الصغيرة الحائلة ،  
وكبرتها ، وجلوتها حتى تبدو واضحة السمات ، نِسْرَة زاهية ، فإنِّي ولا ريب  
أحق رغبة من رغباته ، وأضع بين يديه نماذج للإنسانية في أوج سموها  
النفسيّي ؛ لتكون له قدوة ، وللّئيم إيماناً راسخاً بأنه من قوم لهم في المجد  
والفضيلة باع طويلاً وقدم ثابتة .

ولعل بذلك أمهّم في خدمة الأدب العربي ، فأعرض بعض صفحاته  
عرضًا جديداً ، وألبس بعض صوره لباساً قشبياً ، وأزيل عنها صداً الدهر ،  
وحوادث الأيام ، محافظاً على سماتها وسماتها الطبيعية الصحيحة دون تزييد  
إلا ما يتضمنه سد الرتق ، وإيقاض اللون ، ويتطّلبه الفن .

ولعل بعض شبابنا الذين يهفون إلى استلهام الأدب الغربي بمحنه ورزایاه  
ونفایاته ، وسمومه ، ويعرضون عن استلهام الأدب العربي بعظمته وقوته  
وكبريائه ووضوحيه يرون أنهم حادوا عن الجادة ، وأنهم ظلموا الأدب العربي  
لجهلهم بذخائره ونفائسه ، واغتروا بالأدب الغربي ، وهو نتاج بيئة غير بيتتنا ،  
ومجتمع قد كثرت عليه وأوصابه ، وتعقدت مشكلاته وأدواؤه ونخرت فيه  
الآفات التي تصيب الأمم المتّرة ، المتكالبة على المادة ؛ أدب ولده الاضطراب  
النفسي ، والكبت ، والحرمان والضيق ، والظلمة — ظلمة الجو وظلمة الحياة —  
فباء سخفاً وهذيانا تمثل في تلك المدارس الأدبية الحديثة : من (واقعية)  
تنحدر إلى تصوير أحط الغرائز الدنيا في الإنسان ، إلى (رمزيّة) مبهمة غامضة  
لا يعرف المرء من ورائها فـ كـ رـ ة أو معنى ، ولا تعنى بمجتمع أو إنسان ، إلى

(سرالية) مخرفة تهذى بمخعبلات العقل الباطن ، وهو اجس اللاؤسى ، وتحتفل بأضغاث الأحلام ، وتنكر المنطق والعقل والشعور ، وأوضاع المجتمع والدين والفضيلة .

ولما كان الحديث عن الفتنة العربية يذكرنا بالفروسيّة الغربيّة إبان القرون الوسطى رأيت أن أعهد لهذه الصور الأدبية ، ونماذج الفتنة ، ببحث تاريخي يوضح معنى الفتنة عند العرب في جاهليتهم ، وكيف تغنى الشعراء بأخلاق الفتيان الأمجاد وفضائلهم ، وكيف أن هذا المجتمع البدائي كان فيه من التراحم والتعاون ، والأخذ بيد الضعيف والمنكوب والمكروب ما تتضاءل أمامه أرق مجتمعاتنا التي طفت عليها الماديات اليوم .

ثم كيف هذب الإسلام معانى الفتنة الجاهلية ، وأسبغ عليها من هديه ورونقه ، ثم كيف تطورت هذه الفتنة الإسلامية حتى صارت وقفاً على طبقة خاصة من الناس ، لهم تقاليدهم وتعاليمهم وزرיהם .

ووازنـت بين هذه الفتنة العربية ، وبين الفروسيّة الغربيّة ، واجهـدت في تعرف الصلة بينهما ، وإلى أي حد تأثر فرسان الغرب ، بتقاليـد الفتـنة العـربية .

أما صور الفتنة العربية ذاتها ، فقد وجدت منها في ثنايا كتب الأدب والتاريخ فيضاً زاخراً ، وحررت في أيها اختار وأيها أدع . فإن تركت بعض الصور الفتانية ، والنماذج الأخاذة ، والأمثلة القوية ؛ فذلك لأنـى لا أـستطيع في كتابي هذا استيعـاب كلـ ما تـحدث به الأدب والتـاريخ عنـ أسـلافـنا وـفـرسـانـهـمـ وأـبطـالـهـمـ .

على أن أحاديث هؤلاء الفرسان وأخبارهم ، ونواذر فتوتهم كانت مبعثرة في كتب شتى ، ولها روایات عدّة ، فاجتهدت أن أجمع شتات هذه الأخبار والأحاديث وأن أُلْفِي بينها حتى تخرج الصورة زاهية واضحة . ثم وضعتها في إطار جديد يحبها للقراء ، ألا وهو الإطار القصصي .

هذا جهد المقل أقدمه لشباب مصر بخاصة والعروبة بعامة ، أرجو أن يتحقق ما أصبو إليه والله الموفق للصواب .

عُمَر الدُّسُونِي

## معنى الفتوة

الفتوة في اللغة من الفتاء وهو الشباب . والفتى في الأصل الشاب ، فالفتوة هي القوة ؛ لأن الشباب مصدرها عادة ، وقد سمو الليل والنهر فتیان لقوتهما ، ومن أقوى من الليل والنهر في إذلال كل عزيز ، وإضعاف كل قوى ؟ ومن ذلك قول الشاعر :

ما لبث الفتیان أن عصفا به ولكل قفل يسرا مفتحا  
ومنه قول الآخر :

يا عَزْ هَل لَكَ فِي شِيخٍ فَتَّى أَبْدَاً      وَقَدْ يَكُون شَبَابٌ غَيْر فتیان  
أَى هَل لَكَ فِي شِيخٍ قَوْيَ الْمُنَّةَ ، سَلِيمُ الْجَسْمِ ، مَتِينُ الْبَنْيَانِ ، يَفْوَقُ  
بِقُوَّتِهِ بَعْضَ الشَّبَابِ ؟ وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْآخِرِ :

إِذَا عَاشَ الْفَتى مَائِتَيْنِ عَامًا      فَقَدْ ذَهَبَ الْلَّذَادَةُ وَالْفَتَاءُ  
وَاشتقاق الفتوة من الفتاء بمعنى الشباب تدل على أن الفتى لابد أن يكون  
قوياً شجاعاً ، فيه عزم ومضاء ، وهذه صفات الشباب ، ويقول الشيخ المسن :  
تَفَتَّيْتُ ، إذا تخلق بأخلاق الفتیان : من القوة الجسمية ، واحتمال المشاق ،  
والمهارة في الطعن بالرمح ، والضرب بالسيف ، قال الفِندُ الزَّمَانِي<sup>(١)</sup> وقد طعن  
بالرمح طعنة أودت برجلين :

أَيَا طَعْنَةً مَا شَيْخٌ كَبِيرٌ يَفِنُّ بِالِّيَّافِنِ<sup>(٢)</sup>

(١) الفند الزمانى : هو شهيل بن شيبان بن ربيعة بن زمان الحنفى من فرسان ربيعة  
وشعرائها المشهورين ، حضر حرب البسوس .

(٢) اليافن : الشيخ الهرم .

تقسِّم المأتم الأعلى عَلَى جَهْدٍ وَإعوالٍ<sup>(١)</sup>

تفَتَّتْ بِهَا إِذْ كَرِهَ الشَّكَةَ أَمْثَالِي<sup>(٢)</sup>

ولكن الفتوة تطورت إلى معانٍ أخرى غير القوة الجسمية ، فاستعملت  
بمعنى السخاء والكرم ، قال صاحب القاموس : الفتى : الشاب والسنخى  
الكريم ، والفتوة : السخاء والكرم .

وفسرها صاحب الأساس بأنها الحرية والكرم ، والحرية تعنى الشجاعة ،  
والقوة وإباء الضيم .

وقال القشيري<sup>(٣)</sup> : « أَصْلُ الفتوة أَنْ يَكُونُ الْعَبْدُ سَاعِيًّا أَبْدًا فِي أَمْرِ  
غَيْرِهِ ». ونقل عن الفضيل أنه قال : « الفتوة الصفع عن عثرات الإخوان »  
والحارث المخسي يقول : « الفتوة أَنْ تُنْصِفَ وَلَا تُنْصَفْ ». وقال  
غيره : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المخنة » .

وهكذا استعملت الفتوة في القوة المعنوية قياساً على القوة الجسمية .  
فالحرية والكرم والسعى في أمور الناس ، وقضاء حاجتهم ، وإاظنار  
النعمة وإسرار المخنة ، وأن ينصف المرء غيره ، وينكر نفسه ، كل هذه  
صفات الرجولة الكاملة . ولذلك قال القتبي<sup>(٤)</sup> : « لِيُسَ الْفَتِي بِعْنَى الشَّابِ  
وَالْحَدَثِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِعْنَى الْكَاملِ الْجَزُولِ مِنَ الرِّجَالِ ، يَدْلِيكُ عَلَى ذَلِكَ  
قول الشاعر :

(١) المأتم الأعلى : أى لا يرجى منها شفاء ، وأراد بالأعلى أنه قتل رئيسين .

(٢) الشكة : ما يليس من السلاح .

(٣) راجع الرسالة القشيرية .

(٤) لسان العرب .

إِنَّ الْفَتَىَ حَمَالُ كُلِّ مُلْمَةٍ لِيُسَّ الْفَتَىَ بِمُنْعَمٍ الصَّبِيَانَ.

ويؤيده قول عبد الرحمن بن حسان :

إِنَّ الْفَتَىَ لَقَىَ الْمَكَارِمَ وَالْعَلَاءَ لِيُسَّ الْفَتَىَ بِمُغْمَلِجَ الصَّبِيَانَ<sup>(١)</sup>

وقول شاعر الحماسة<sup>(٢)</sup> :

فَقَلْتَ لَهَا لَا تَنْكِرِينِي فَقَلَمَّا يَسُودُ الْفَتَىَ حَتَّى يَشِيبَ وَيَصْلَعَا

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرَبَ تَعْنِي بِالْفَتْوَةِ : الشَّجَاعَةُ ، وَالْإِيَّاثَارُ ، وَالسَّخَاءُ ، وَالْوَفَاءُ ، وَكَثِيرًا مِّنَ الصَّفَاتِ الْمَحِيَّةَ . وَالْفَتَىَ عِنْدَهُمْ هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي نَالَ السُّؤُدُ وَالشَّرْفَهُ بِخَلَالِهِ الْكَرِيمَةُ ، وَأَفْعَالِهِ الْعَظِيمَةُ ، وَيَقُولُ : هَذَا فَتَىُ الْحَىِّ أَى سَيِّدُهُ ، وَالْكَامِلُ الْجَزِيلُ مِنْ رِجَالِهِ ، قَالَ ابْنُ أَهْبَانَ الْفَقَعَسِيَّ يَرْثِي أَخَاهُ :

فَتَىُ الْحَىِّ ، إِنَّ تَلْقَاهُ فِي الْحَىِّ ، أَوْ يُرَىُ

إِذَا نَازَعَ الْقَوْمَ الْأَحَادِيثَ لَمْ يَكُنْ

طَوِيلُ نُجَادِ السَّيْفِ ، يَصْبِحُ بَطْنَهُ

أَى أَنَّهُ اتَّصَفَ بِالْفَتْوَةِ وَالرَّئَاسَةِ ، سَوَاءَ كَانَ فِي الْحَىِّ بَيْنَ قَوْمَهُ ، أَوْ خَارِجَ الْحَىِّ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ ، أَوْ فِي مَحْفَلِ مِنَ الْمَحَافِلِ ، وَمَشْهُدٌ مِّنَ الْمَشَاهِدِ ، حِيثُ يُوجَدُ الْأَشْرَافُ وَالرُّؤْسَاءُ ، فَهُوَ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَمَانَاتِ فَتَىٰ ، أَى سَيِّدٌ .

ثُمَّ وَضَعَ صِفَاتَهُ بِأَنَّهُ مَتَّهُدٌ غَيْرُ عَيْنِ اللِّسَانِ ، وَلَيْسَ بِهِ كَبَرٌ ، وَهُوَ

(١) المغلج : الَّذِي يَبْتَسِطُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، يَكُونُ مَرَةً سُخِيَاً وَآخَرَى كَزَا ، وَتَارَةً مَقْدِمَاً ، وَآخَرَى جَبَانَا . . . الخ .

(٢) الحماسة لأبي عام ج ١ ص ١١٧ .

(٣) أَى لَيْسَ عَيْنَا وَلَا مَتَكْبِرَا .

(٤) خَيْصَاً : جَائِعاً . وَجَادِيَهُ : طَالِبٌ جُودَهِ .

طويل القامة ، فارس ، يؤثر ضيفه على نفسه ، ويكرمه حتى يحمد زاده ،  
ويشكّره على قرائه ، ويزيل جائعاً .

وقال آخر من شعراء الحماسة :

ألا لا فتى بعد ابن ناشرة الفتى      ولا عُرْفَ إِلَّا قد تولى فَأَذْبَرَا  
أى ذهبت الفتوة والرئاسة بعد ابن ناشرة ، كما ذهب المعروف وأذبر .  
جوهم يدعون الفتى عند الشدائد ، وفي الملامات ؛ قال طرفة بن العبد .

إذا القومُ قالوا من فتى خللت أنتي      دُعِيتُ فلم أَكُسل ولم أَتَبَلَّدَ  
وقد وصف طرفة نفسه ، وعدد سجايده في قوله بعد ذلك :  
ولستُ بِحَلَالٍ التَّلَاعِ مخافَةً      ولكن متى يسترني القومُ أَرْفَدَ  
فهو كريم ، لا يلتجأ إلى مجاري الماء من رءوس الجبال ، خشية أن يراه  
خيف ، ولكن ينزل إلى الوادي ويرفد كل من طلب رفده :  
وإن تبغى في حَلْقةِ الْقَوْمِ تلقنِي      وإن تقتتنصني في الحوانين تصطد  
أى أنه من ذوى الرأى والمشورة ، ومن يطلب اللذة بشرب الماء  
في الحوانين ؛ ليسقى غيره كرمًا .

وينعت نفسه بعد ذلك بأنه فارس شجاع ، يأبى الضيم ، ويجهد الأعداء :  
وإن أَدْعَ في الْجَلَّ أَكْنَ من حماتها      وإن يأتوك الأعداء بالجهد أَجْهَدَ<sup>(١)</sup>  
إذا ابتدَرَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ وجدتني      منيغاً إذا سَلَّتْ بِقَائِمِه يَدِي<sup>(٢)</sup>

(١) الجل : الأمر العظيم الجليل ، وأكـنـ من حماتها : أى من يدفع ويقاتل .

(٢) ابـتـدرـ الـقـومـ : سارـعواـ . منـيـغاـ : لا يـوصـلـ إـلـيـهـ . بلـتـ بـقـائـمـهـ يـدـيـ : أـىـ ظـفـرتـ بـهـ  
يـدـيـ ، وـقـعـكـنـتـ مـنـ قـائـمـ السـيفـ وـمـقـبـضـهـ .

ويذكّرنا قول طرفة : « من فتى » بقول بشامة بن حزن التهشلي :  
 لو كان في الألف منا واحدٌ دفعوا (من فارس ؟) خالهم إياه يعنيونا  
 فهم يدعون الفارس في الملمات والشدائد ، كما يدعون الفتى ؛ فـ كأن الفتى  
 هو الفارس الشجاع ، وإن كان الفتى أعمّ معنى .

ومن الكلمات القريبة من الفتوة المروءة ، وهي كلمة تداوّلها العرب كثيراً ،  
 ولقد وضح البيروني <sup>(١)</sup> الفرق بين المروءة والفتوة بقوله : المروءة تقتصر على  
 الرجل في نفسه وذويه وحاله ، والفتوة تتعداه وإياها إلى غيره . والمرء لا يملك  
 إلا نفسه ، وقُنْيَتَهُ التي لا يُنَازع فيها أنها له ، فإذا احتمل مغامر الناس ،  
 وتحمل المشاق في إراحتهم ، ولم يضن بما أحلَ الله له ، وحرَّمه على من سواه ،  
 فهو الفتى الذي اشتهر بالقدرة عليها ، وعرف بالحلم ، والعفو ، والرزانة ،  
 والاحتمال ، والتعظيم بالتواضع ؛ ترق إلى العلياء وإن لم يكن من أهلها ،  
 وسوَّد باستحقاق لا عن خلود دار » .

ويؤيد قول البيروني من أن الفتى لا يحتاج إلى النسب العريق في وصوله  
 إلى السيادة والشرف قول ابن هرمة :

قد يدرك الشرف الفتى ورداوه خلق ، وجيب قميصه صرّقوع  
 وقال البيروني : وهذا حدّت الفتوة بأنها : « بشر مقبول ، ونائل مبذول ،  
 وعفافٌ معروف ، وأذى مكفوف » .

إذا المرء لم ينهض بنفسه إلى العلا فليس العظام الباليلات بمفخر

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفي سنة ٤٣٠ هـ في كتابه « الجماهر في معرفة الجواهر » طبعة حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٥ هـ ص ١٠ ، ١١ .

« وربما أفرط الفتى فتجاوز إفراط إيثار الغير على الملك إلى بذل النفس  
أنفة من تحمل العار ، أو دفعاً للظلم ، وحفظاً لحق الجوار ؛ إنما بالبسالة  
كل مدكورين في صعاليك العرب ، فنهم الذين فدوا أضيفهم والمستجيرين  
بهم بأنفسهم ، حتى إن فيهم من خرج به فعله إلى سخف أو جنون ، من  
حماية الجراد النازل حول خباءه ، وقتله دون صيدها . وإنما بالكرم والسماحة  
حاتم الطائى الذى غرر بنفسه في هيبة الرمح لخصمه ، وقد أشفي على الهالك ،  
وبلغت نفسه التراق ، فاحتلال باستيهابه الرمح ، فاستنكف حاتم عن ردّه  
ودفعه إليه ، وكعب بن مامدة الإيادى بإيثار القرىن بحصته من الماء المقسم  
بالحصى ؛ إذ قال : اسوق أخاك المزى ، فسقاها إياه ، حتى هلك هو عطشاً  
يجود بالنفس إن ضن الجواب بها      والجود بالنفس أقصى غاية الجود »  
وقال آخر :

وليس فتى الفتىان من راح واغتدى      لشرب صبور أو لشرب غبوق  
ولكن فتى الفتىان من راح واغتدى  
لضر عدو أو لنفع صديق

ومن هذا نرى أن الفتى أعم من الفارس ، وأن الفتوة كذلك أعم من  
الفروسية ، وأعم من المروءة ، فقد يكون الفارس شجاعاً ولكنه غير كريم ،  
أو يكون معهدياً ظالماً ، أو ترضاً طائشاً ، أو خيناً غادراً ، وليس كذلك الفتى  
عند العرب .

أما ذو المروءة فيتحلى بكثير من الصفات الحميدة ، ولكنه كما يقول  
البيروني : « تقتصر المروءة على الرجل في نفسه ، وذويه وحاله » .

وعلق البيروني على قول علي بن الجهم :

ولا عارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحُرْ نِعْمَةٌ وَلَكِنَّ عَارًّا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ  
بِقُولِهِ : «عَنِ الْأَوَّلِ الْفَتُوْةُ ، وَبِالْآخِيرِ الْمَرْوَةُ» فَالْحُرْ قَدْ تَزَوَّلُ عَنِ  
النِّعْمَةِ ، لَأَنَّهُ أَنْفَقَ مَالَهُ فِي سَبِيلِ سُواهُ ، وَآثَرَ غَيْرَهُ بِمَا مَلَكَتْ يَدَاهُ ؛ حَتَّىٰ عَادَ  
فَقِيرًا مَعْدُمًا ، فَلَا عَارٌ عَلَيْهِ حِينَذَاكَ ، وَلَكِنَّ الْعَارَ أَنْ تَنْخَرِزَ نَفْسَهُ وَيَصْلُ  
إِلَى الْابْتِدَالِ ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَظْهُرَ التَّعْفُفُ ، وَيَنْخُفُ الضَّيقَ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ  
مِنْ أَهْلِ الْمَرْوَةِ » .

وإن كانت المروءة قد أخذت أحياناً<sup>(١)</sup> بعض معانى الفتوة كما في  
قول بشار :

وَلَابْدُ مِنْ شَكْوَىٰ إِلَى ذِي مَرْوَةٍ يَوَاسِيكَ أَوْ يَسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ  
وَقَالَ الْجَرْجَانِيُّ فِي التَّعْرِيفَاتِ : الْمَرْوَةُ هِيَ قُوَّةُ النَّفْسِ ، مَبْدُأً لِصَدُورِ  
الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ عَنْهَا ، الْمُسْتَبْعَةُ لِلْمَدْحِ شَرْعًا وَعَقْلًا وَعِرْفًا .

وَقَالَ فِي التَّعْرِيفَاتِ عَنِ الْفَتُوْةِ : «الْفَتُوْةُ فِي الْلُّغَةِ : الْكَرْمُ وَالسَّخَاءُ ،  
وَفِي اسْطِلَاحِ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ أَنْ تَؤْثُرَ الْخَلْقُ عَلَى نَفْسِكَ بِالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» .

وَهُوَ يُشَيرُ إِلَى مَعْنَى الْفَتُوْةِ عِنْدَ الْمَتَصُوْفَةِ ، وَلَيْسَتْ هِيَ الْفَتُوْةُ عِنْدَ الْعَرَبِ  
فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهَا كَمَا سَنَدَ كَرْ فِيهَا بَعْدَ عِنْدَ تَطْوِيرِ مَعْنَى الْفَتُوْةِ فِي الإِسْلَامِ .

وَقَدْ رَأَى جُولَدْ تَسْهِيرَ فِي كِتَابِهِ «الْمَرْوَةُ وَالدِّينُ» : أَنَّ الْمَرْوَةَ عِنْدَ  
أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ تَقَابِلَ الدِّينِ فِي الإِسْلَامِ ، ثُمَّ قَامَتْ مَقَامَ مَبْدُأً مَعْنَوِيًّا  
تَدُورُ عَلَيْهِ الْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ ، مِنْ حِيثِ أَنَّهَا كَانَتْ تَجْمَعُ بَيْنَ السَّخَاءِ

(١) راجع بحثاً عن المروءة للدكتور بشر فارس في مباحث عربية ص ٦٣ .

والوفاء وحفظ الجوار ، والأخذ بالثار<sup>(١)</sup> .

فحوله تسهير يقرب معنى المروءة من معنى الفتوة ويجعلها شيئاً واحداً تقريباً ، وإن كانت لا تزال الفتوة على الرغم من هذا التقريب أعم . وتعريف ابن قتيبة للفتى بأنه الكامل الجزل من الرجال هو ما أراده العرب من هذه الكلمة قال أبو البهاء في يزيد بن مزيد الشيباني يرثيه :

نعم الفتى بُعْدَتْ به أخوانه يوم القيمع حوادث الأيام  
سهيل الفناء إذا حللت بيابه طلق اليدين مؤدب الخدام  
وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهم ذواو الأرحام  
وقالت الخنساء ترثي صخراً :

أمطعهمكم وحاملكم ترکتم لدى غبراء منهدم رجاهها  
ليبيك عليك قومك للعالى وللهيجاء إنك ما فتـهاها  
وقد مدح دريد بن الصمة يزيد بن عبد المدان بقوله :

إذا قارعوا عنـه لم يقرعوا وإن قدموه لـكبش نطح  
وإن حضر الناس لم يخزهم وإن وزنوه بـقرون نجـحـ  
فذاك فـهاها وذو فضلها وإن ناجـ بـفخار نـجـ  
وقال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة :

إن الذى جمع السماحة والنـجـ مـدةـ والـحـزمـ والـقوـىـ جـمعـاـ  
الأـلمـعـ الذى يـظـنـ بـكـ الـظـ نـ كـانـ قد رـأـىـ وقد سـمعـاـ  
وـالـخـلـفـ الـتـالـفـ الـمـرـازـ لـمـ يـمـعـ بـضـعـفـ وـلـمـ يـمـتـ طـبـعـاـ

والحق أن الفتوة تعنى الشمائل الآتية :

الشرف ، والسماء ، والشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والحلم ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والتواضع ، والعفو ، والرزانة ، وقوة الاحتمال .

وقد أخذت الكلمة الفتوة معانى جديدة في الإسلام ، وإن حافظت على المعنى العام لها في الجاهلية ، قال ابن عربى في الفتوحات المكية<sup>(١)</sup> : « الفتى : ما بين الثامنة عشرة والأربعين من العمر ، ويتصف بالقوه ، والأخلاق الحميده ، ويستخدم قوته في خدمة الله ، ونصرة الضعيف ، وليس له عدو ، ولكن له حсад ومنافسون » .

وقال في مكان آخر من الفتوحات المكية عند الكلام عن معرفة مقام الفتوة وأسراره .

إن الفتوة ما ينفك صاحبها مقدمًا عند رب الناس والناس  
إن الفتى من له الإيثار تحليه فحيث كان فمحمول على الراس  
ما إن تزلزله الأهواء بقوتها لكونه ثابتاً كالراسن الراسى  
لا حزن يحکمه ، لا خوف يشغله عن المكارم حال الحرب والباس  
فالفتوة عند المتصوفة قد زادت عن معناها الأصلى عند العرب ، واستخدمت في أغراض دينية ، وسنتى فيما بعد كيف تطورت في الإسلام  
إن شاء الله .

أما الفتى عند العرب فهو من كملت فيه صفات السيادة ، وأهله خلقه

(١) راجع الفصل ٤٢ من الفتوحات المكية عن الفتوة والفتىان .

لأن يكون زعيم قومه ، وملجأهم في كل ملة ، هو من أراد ذو الأصبع العدواني  
من ابنه أسيد أن يكون بوصاته له :

« أَنِّي جانب لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفوك ، وابسط لهم  
وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم ، كما  
تكرم كبارهم يكرملك كبارهم ، ويكتبر على مودتك صغارهم ، واسمح  
بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم  
ضيفك ، وأسرع النهضة في الصرىخ ، فإن لك أجيلا لا يعودوك ، وصن وجهك  
عن مسألة أحدٍ شيئاً ، ف بذلك يتم سؤددوك ». »



## الفتوة عند العرب

— ١ —

### نشأة الفتوة

نشأت الفتوة عند العرب نشأة طبيعية في الصحراء الشاسعة ، كما تنبت الأزهار البرية العَبِقة الشذا في مجرى السيل على سفح الجبل ؛ فالصحراء قد فرضت على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بـتقاليد لا يستطيعون عنها حِولاً ، حارت لهم على مـر السنين جِبْلَة وطبيعة وفطرة ، وصارت عنواناً لهم بين العالمين . ولا عجب فالصحراء : فضاء متسع رحيب ، يملأ جوانب النفس خشية ووربة ، وبحر من الرمال المختلفة الألوان لا ساحل له ، وجبال جرداً سامقة يرتد عنها البصر وهو حسيير ، وصخور صماء عاتية ، وشمس قوية محرقة تصب شـآبيب من شواطئ يتلألئ هـبـاً ، وريح زفوف ، وسيول متداقة ، وما عذب ، وظل كـريم .

فهذه الطبيعة الخشنة قد انعكست على نفس العربي قوة وصرامة وجـلـداً ، لا يرهبها ، ولا تتضعضع نفسه أمام جبروتها ، لا يخشى الليل ورعبته ، ولا يفرغ من السفر وشدة وقسوته ، وما هو إلا أن يعزز على أمر فلا يرده عن

عزيزته شيء مهما عظم :

إذا هـم هـاً لم يـرـ الـيـلـ عـمـةـ  
عليـهـ وـلـمـ تـصـعـبـ عـلـيـهـ المـراـكـبـ

جـلـيدـ كـرـيمـ خـيـمـ وـطـبـاعـهـ  
عـلـيـ خـيـرـ ماـتـنـىـ عـلـيـهـ الضـرـائـبـ<sup>(١)</sup>

(١) الخـيمـ : الطـبـيـعـةـ وـالـجـبـلـةـ ، وـالـضـرـائـبـ : الـطـبـائـعـ .

لم يكن العرب في الباادية يسكنون القصور المhausenة ، أو البيوت المسوّرة ،  
ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم ، أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا  
يقيمون في بيوت من الشعر والوبر تهزها الريح كلاما هبت ، ويجرفها السيل إذا  
تدفق ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم ، وأسنة رماحهم ، وليس لهم حمىًّا  
إلا ظهور خيولهم ، وإلا شجاعة قلوبهم ، وعظم نفوسهم .

يعيش العربي في خطر دائم في أحضان تلك الطبيعة القاسية ، تعصف  
الريح فتسفي الرمال ، وتقوض بيته ، وتُكفي قدره ، وتطفي ناره ؛ ويهدر  
السيل فيحتاج داره ، وينفر إبله . وتبخل السماء فيسح زاده ، ويهزّل نعمه ،  
ويهدده الجوع في حياته ؛ ويجوّع الوحش فلا يجد أمامه إلا النعم والإنسان  
يسكن بلحمها سعار بطنه .

ولذلك أرهفت حواس هذا العربي ، ونمّت نمواً عظيماً ، ولا ريب في أن  
نماء الحواس وقوتها ، وتأديتها وظيفتها الطبيعية على خير وجه ، يزيد في قوة  
العقل وحسن تصرفه ؛ لأن الحواس هي الطريق الذي تدلف منه المعلومات  
إلى العقل ، فإذا كانت مرهفة قوية ، غير بلدية أو مضطربة ، كان ما يصل  
إلى العقل صحيحاً واضحًا ، فأدّى عمله تاماً متقدناً ، وتحت نظرته إلى الأشياء ،  
وحكمه على الأمور ؛ وتفسد ببلاده الحواس واقباضها آلة العقل ، وتفسد بفساد  
العقل القدرة الإيجابية في الحياة ، وينقطع التصرف الإرادى الحكيم ، وتضيع  
صورة العدل في وزن الأشياء واستئمارها .

ومن البدهى أن الحالة النفسية وليدة الحالة الحسية ، وأن اضطراب الحس  
مفض إلى اضطراب أعمال الجسم : من التنفس والهضم والتمثيل ، والانتظام  
الجنسى ، مما يسوق الاضطراب فيه إلى الهالك والتحلل .

فسعة المجال في الصحراء أمام حواس الإنسان ضرورية لتربيته هذه الحواس ، والحواس السليمة النامية تؤدي إلى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية أداءً منتظراً لا اضطراب فيه ، كما تؤدي إلى وجود عقل سليم ، وحكم صحيح ، وحياة معتدلة .

لقد أفاد العرب من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدة ظاهرة في البصر تميزوا بها عن سواهم ، وقوه في السمع كادت تبلغ درجة الكمال ، وأما حاسة الشم فكانت موضع خارهم ، والفضل في قوه هذه الحاسة عندهم يعود لعرضهم المباشر للرياح فوق ظهور الإبل ، وعلى صهوات الخيل ، وفي ظلال الخيام التي لا تمنع الريح والنسيم عنهم .

إن ضيق المجال أمام الحواس لا يؤدي إلى إنهاك قوى الجسم وإضعافه فحسب ، بل يؤدي كذلك إلى التردى في مهواه الضعف العام في عصبه ومشاعره ومعقولاته ، بل وفي رزقه ، وينتهى به الأمر إلى الرضى بالذل ، وإلى العجز عن وقاية نفسه من الظلم<sup>(١)</sup> .

صار العربي في صحرائه يشم الخطر قبل قدومه ، ويعرف عن الطبيعة وأحوالها وتقلباتها ما لا يعرف كثير من الناس في حياتنا المتمدنة المتحضررة ، وهو لا يستسلم لهذه الطبيعة ، ويروح في نوم عميق ، وإلا صار فريسة لها أو لوحوش الفلاة .

ولقد عملته هذه الطبيعة الصبر والجلد والكفاح المر حتى صار كما يقول تأط شرّاً<sup>(٢)</sup> :

(١) راجع التصوف في نظر الإسلام لأحمد صبّى شومان ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) هو ثابت أبو زهير من بنى فهم ، اشتهر بسرعة عدوه وشدة فتكه ، وكان من الشعراء الصعاليك .

قليـلُ التشكـي لـمـهم يـصـيـبـه  
كـثـيرـ الـهـوى شـتـىـ النـوـىـ وـالـمـسـالـكـ  
يـظـلـ بـعـوـمـاـةـ وـيـعـورـىـ ظـهـورـ الـمـهـالـكـ<sup>(١)</sup>  
جـحـيـشاـ وـيـعـورـىـ ظـهـورـ الـمـهـالـكـ<sup>(١)</sup>  
وـيـعـلـ عـيـنـيـهـ رـيـئـةـ قـلـبـهـ<sup>(٢)</sup>  
إـلـىـ سـلـةـ مـنـ حـدـ أـخـلـ صـائـكـ<sup>(٢)</sup>  
أـوـ كـماـ يـقـولـ أـبـوـ كـبـيرـ الـهـذـلـيـ<sup>(٣)</sup> يـصـفـ تـأـبـطـ شـرـاـ :

فـإـذـاـ نـبـذـتـ لـهـ الحـصـاةـ رـأـيـتـهـ يـنـزـوـ لـوـقـعـتـهـ طـمـورـ الـأـخـيـلـ<sup>(٤)</sup>  
لـقـدـ أـكـسـبـتـهـ الصـحـراءـ أـخـلـاـقـاـ فـطـرـيـةـ عـالـيـةـ ،ـ وـالـفـطـرـةـ فـيـ إـلـيـانـ هـىـ الـخـيـرـ ،ـ  
وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ «ـ السـيـرـ تـيلـ »ـ :ـ «ـ مـنـ الجـلـىـ أـنـ النـاسـ فـيـ الـجـمـعـيـةـ الـبـدـائـىـ يـعـيشـونـ  
فـيـ مـسـتـوـيـ خـلـقـيـ عـالـيـ ،ـ وـهـذـاـ شـىـءـ يـسـتـرـعـىـ الـاتـتـبـاهـ ،ـ لـأـنـهـ يـبـيـنـ مـاـ يـسـمـىـ الـخـلـقـ  
الـفـطـرـىـ أـوـ الـخـلـقـ الـطـبـيـعـىـ ،ـ وـفـيـ هـذـاـ الـجـمـعـيـةـ لـأـنـىـ لـلـدـيـانـاتـ أـىـ تـأـثـيرـ أـخـلـاقـ  
قوـىـ كـمـاـ نـرـاهـ فـيـ الـجـمـعـاتـ الـمـتـحـضـرـةـ .ـ فـالـخـقـ الـذـىـ لـاـ مـرـيـةـ فـيـهـ أـنـ مـعـاـمـلـةـ  
بعـضـهـمـ لـبـعـضـ قـلـمـاـ تـأـثـرـ بـأـمـرـ سـمـاـوـىـ أـوـ خـوفـ مـنـ عـقـابـ إـلهـ<sup>(٥)</sup>ـ .ـ

إـنـ الـفـضـيـلـةـ لـاـ تـتـوـقـفـ عـلـىـ الـمـعـرـفـةـ ،ـ وـلـيـسـ هـىـ الـمـعـرـفـةـ كـمـاـ يـقـولـ سـقـراـطـ ،ـ  
وـلـكـنـ الـفـضـيـلـةـ الـحـقـةـ هـىـ الـعـمـلـ بـهـ ،ـ وـالـحـيـاةـ الـفـاضـلـةـ ذاتـهـ ؛ـ حـتـىـ لـقـدـ دـعـاـ فـلـاسـفـةـ  
الـقـرـنـ الـمـاضـىـ فـيـ أـورـوـبـاـ مـجـتمـعـهـمـ الـفـاسـدـةـ الـقـىـ لـوـثـهـ الـمـدـيـنـةـ إـلـىـ أـنـ يـتـخـذـوـنـ  
مـنـ «ـ الـبـدـائـىـ النـبـيلـ »ـ نـمـوذـجـاـ فـيـ الـأـخـلـقـ يـحـتـذـوـنـهـ<sup>(٦)</sup>ـ .ـ

(١) الـوـمـاـةـ :ـ الـفـازـةـ الـتـىـ لـاـ مـاءـ فـيـهـ ،ـ وـالـجـيـشـ :ـ الـمـنـفـرـ ،ـ وـيـعـورـىـ :ـ أـىـ يـركـبـ  
ظـهـرـ الـمـهـالـكـ .ـ

(٢) الـرـبـيـعـةـ :ـ الرـقـيـبـ ،ـ وـسـلـةـ :ـ مـرـةـ مـنـ سـلـ السـيفـ إـذـاـ جـرـدـهـ ،ـ وـالـأـخـلـقـ :ـ الـأـمـلـسـ ،ـ  
وـالـصـائـكـ :ـ الـقـاطـعـ ،ـ وـالـمعـنىـ :ـ إـنـ الـعـيـنـ رـقـيـبـ الـقـلـبـ ،ـ فـإـذـاـ كـرـهـتـ الـعـيـنـ شـيـئـاـ نـبـتـ الـقـلـبـ فـاستـلـ السـيفـ

(٣) هوـ عـامـرـ بـنـ حـلـيـسـ أـحـدـ بـنـ سـعـدـ هـذـيـلـ وـهـوـ شـاعـرـ مـخـضـرـمـ صـحـابـيـ .ـ

(٤) بـنـذـ لـهـ الـحـصـاهـ :ـ وـمـاـ بـهـ لـيـعـرـفـ مـقـدـارـ اـسـتـغـرـاقـهـ فـيـ نـوـمـهـ ،ـ وـطـمـورـ الـأـخـيـلـ :ـ  
أـىـ يـثـبـ كـمـاـ يـثـبـ الصـقـرـ .ـ

(٥) Anthropology. vol. II P. 135. by Sir E. B. Tylor

(٦) نفسـ المـرـجـعـ صـ ١٣٦ .ـ

إن الحياة في المجتمع البدائي ترينا بوضوح عجيب صدق النظرية المهمة التي يرتكز عليها علم الأخلاق ، وهي : أن السعادة والفضيلة يسيران معاً ، وفي الحق إن الفضيلة هي الطريق إلى السعادة<sup>(١)</sup> .

لقد خلعت الصحراء بقوانيئها الصارمة على العربي خلق الفتوة ، والفتواة مجموعة من الفضائل النفسية صُهرت في بوتقة الصحراء ، حتى صارت حلية نادرة الحبات ، تحلى بها هؤلاء العرب منذ عرفهم التاريخ . وسنبيين في الفقرات التالية سمات الفتوة كما عرفها العرب ، وكيف كانت أثراً من آثار ييشئون .

---

(١) نفس المرجع السابق .

## ٢ - الشجاعة

عاش العربي في الصحراء ، وهو في جهاد مستمر ، وكفاح طويل مرير ،  
محافظةً منه على حياته ؛ فليس بالصحراء من معالم الحياة إلا النذر اليسير ،  
وليس بها أنهار جارية ، أو وديان خصبة مبردة ، أو حدائق غناء ، إلا في  
أمسكنة قليلة تعتمد على الغيث ، وبعض العيون المتفجرة ؛ ولذلك اشتد حرصه  
على الماء ، وسعى في سبيله سعياً متواصلاً لا هوادة فيه ، واقتضى ذلك منه رحيل  
 دائم في فيافٍ واسعة ، يواجه مخاطرها في كل ثانية ، ويستقبل تغيرات الطبيعة  
أينما سار .

ومن يكُن مثل ذا عيال ومقترأً من المال يطرح نفسه كلّ مطرح  
لبيع عذرًا أو يصيب رغبةً ومبغٍ نفسٍ عذرها مثل منبع  
فامتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتناعًا تماماً ، وصار قلبه جلًّا لا يرهب ،  
ولا يفزع ، وصارت عنده مناعة ضد الضيم والتبلد ، لأنَّه إنْ كف عن السعي  
في سبيل الماء الذي هو قوام حياته هلك مسغبة وظمةً . لذلك عظمت قوى  
الكافح في العربي ، كما عظمت ثمرات هذه القوى في نفسه ، فصار من أصلح  
أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، وأروعهم قامة ، وألينهم عافية ، وأكثرهم  
احتمالاً لا يطاق من الشدائِد والمشقات . وقد جعله هذا الصبر الذي فرضته  
عليه الصحراء عِدلاً لعشرات من الناس من حيث الطاقة البشرية ، بل عدلاً  
لمئات من هؤلاء الذين يقتلهم ظاءً ساعة ، أو جوع يوم ، أو ضربة شمس  
تصيبهم بالهلاك وتقضى عليهم .

وأول ما تتطلبه الشجاعة من صفات : أن يكون الفتى قوى الجسم ، عظيم الصبر ، شديد الجلد . وهل مثل السعي الدائم في سبيل الرزق ، والرحلة المستمرة في الهواء الطلق ، وتحمل أشعة الشمس ، وتحمّل الحرzon ، وجوب القفار ، والركوب المستمر على ظهر الراحلة أو الجواد ، عوامل تصح بها الأجسام وتقوى ؟

يعيش العربي في الصحراء تغمره الشمس بضوئها النافذ إلى قرار بدنه ، وناهيك بالشمس شفاءً من كل مرض ، وغذاء لكل جسد . وشمس الصحراء زاهية قاسية تذيب رؤوس الصباب ، ولكن العرب اعتادوها ولا يموءوا بين شدتها وحياتهم ، وعرفوا أثراها العظيم في صحة أجسادهم حتى لقد سئل أحد الأعراب « كيف البدو فيكم ؟ » فقالوا : « نأكل الشمس وشرب الريح » وفي شدة أثر الشمس ووقع حرورها في الأجسام العربية يقول سعيد اليشكري

كُم قطعنا دون سالم مَهْمَهَا نازح الغور إذا الآل لمع<sup>(١)</sup>

فِي حَرُور ينضج اللحم بِهَا يأخذ السائر فيها كالصقع<sup>(٢)</sup>

ولا جدال كذلك في أن هواء الصحراء هو أصح هواء يعيش فيه إنسان ، ولقد كان العربي يعيش دوماً في هذا الهواء ليلاً ونهاراً ، فخباوه تتحقق فيه الرياح ، وهو في دأبه وكده في سبيل الحياة يستقبل الرياح أينما توجه ، والهواء للإنسان كالماء للسمك لا يستطيع العيش إلا به ، وإذا كان الهواء نقياً صافياً كان

(١) سعيد بن أبي كاهل اليشكري من شعراء ربيعة ، وهو مخضرم ، وكانت قصيدة هذه التي مطلعها :

بسطت رابعة الجبل لنا فوصلنا الجبل منها ما انتفع  
تسمى اليتيمة . الآل : السراب .

(٢) الصقع : حرارة تصيب الرأس .

أُنقى للدم ، وأجلب للقوة ، وأصح للجسم . وهل مثل هواء الصحراء التي لم تفسدـها المدنية بـمـصـانـعـها وزـحـمـتها هـوـاءـ؟

لقد توفـرـتـ للـعـربـيـ إذاـ عـوـاـمـلـ الصـحـةـ منـ شـمـسـ سـاطـعـةـ ، وـهـوـاءـ نـقـىـ ، وـعـمـلـ هوـ ، أوـ فـرـضـتـ عـلـيـهـ يـيـشـتـهـ عـوـاـمـلـ أـخـرـىـ سـاعـدـهـ عـلـىـ تـمـامـ الصـحـةـ وـكـالـ القـوـةـ ، خـجـلـ قـوـامـ غـذـائـهـ الـلـبـنـ ، وـالـلـبـنـ هوـ الـغـذـاءـ الـكـامـلـ الـذـيـ يـتـضـمـنـ كـلـ ماـ يـتـطـلـبـهـ الـجـسـمـ مـنـ الـعـنـاصـرـ الصـالـحةـ لـلـتـغـذـيـةـ ، وـفـيـ صـورـةـ يـسـهـلـ عـلـىـ الـجـسـمـ الـإـفـادـةـ مـنـهـ ، كـمـ أـنـهـ لـاـ يـتـرـكـ بـعـدـ هـضـمـهـ فـضـلـاتـ تـجـهـدـ الـكـلـىـ أـوـ تـزـيدـ حـمـوضـةـ الـجـسـمـ<sup>(١)</sup> ؛ وـكـانـ يـطـحـنـ الـحـبـوبـ بـالـرـحـىـ ، وـيـبـقـىـ مـعـهـاـ عـنـدـ صـنـعـ الـخـبـزـ قـشـورـهـاـ وـنـخـالـتـهـاـ ، وـهـذـاـ الـخـبـزـ هوـ أـصـحـ أـنـوـاعـ الـخـبـزـ دـوـنـ نـزـاعـ .

ولـمـ يـكـنـ الـعـربـيـ مـنـ يـفـرـطـ فـيـ الطـعـامـ أـوـ يـفـتـنـ فـيـ طـهـيـهـ أـوـ يـكـثـرـ مـنـ أـلوـانـهـ ؛ لأنـ يـيـشـتـهـ لـمـ تـكـنـ تـسـاعـدـهـ عـلـىـ ذـلـكـ لـوـ أـرـادـ . وـالـإـفـرـاطـ فـيـ الطـعـامـ ، وـكـثـرةـ أـلوـانـهـ ، وـالـافـتـنـاـنـ فـيـ طـهـيـهـ مـاـ يـجـلـبـ الـأـدـوـاءـ الـكـثـيرـ لـلـأـجـسـامـ .

وـنـحـنـ نـعـانـىـ فـيـ حـيـاتـنـاـ الـمـدـنـيـةـ الـيـوـمـ كـثـيرـاـ مـنـ الـأـمـرـاـضـ الـفـتـاكـةـ ؛ لأنـ أـطـعـمـتـنـاـ لـاـ تـسـيرـ عـلـىـ قـانـونـ الـفـطـرـةـ وـالـبـساطـةـ ، وـلـإـنـنـاـ عـنـيـنـاـ بـهـاـ أـكـثـرـ مـاـ يـحـبـ . حتىـ تـكـوـنـ شـهـيـةـ لـذـيـذـةـ ، وـإـنـ لـمـ تـكـنـ غـنـيـةـ بـعـنـاصـرـهـاـ الـمـفـيـدةـ .

وفـضـلـاـ عـنـ هـذـهـ الـعـوـاـمـلـ الـطـبـيـعـيـةـ الـتـىـ عـمـلـتـ عـلـىـ تـقـويـةـ جـسـدهـ ، فـقـدـ استـلـزـمـتـ الصـحـراءـ مـنـهـ أـنـ يـكـوـنـ قـوـىـ الـبـنـيـةـ ، أـيـدـىـ شـدـيدـ الـعـضـلـ مـفـتوـلـ السـاعـدـ ؛ لأنـ النـزـاعـ عـلـىـ الـمـرـعـىـ وـالـمـاءـ وـهـاـ قـوـامـ هـذـهـ الـحـيـاةـ ، كـانـ عـلـىـ أـشـدـهـ فـيـ تـلـكـ الـبـيـئـةـ الـتـىـ كـثـيرـاـ مـاـ بـخـلـلتـ فـيـهـاـ السـمـاءـ بـهـاـ . فـكـانـ يـدـفـعـهـ الـحـرـصـ عـلـىـ الـحـيـاةـ

(١) راجـعـ كـتـابـ الـأـغـذـيـةـ لـلـأـسـتـاذـ حـسـنـ عـبـدـ السـلـامـ .

هو وقومه ، والفارارُ من الموت جوعاً وظماً إلى الغارة على جيرانهم الذين أوتوا  
فضلاً من خير أو مرجى ؛ حتى لا تضار نعمهم فيهلكون بهلاكها . وقد  
يكونون عرضة لمن يغير عليهم طمعاً في مالهم ، إذا حزبه الضر ، وألهب  
معدته الجوع ، وخشي القناة والملائكة . وكانوا يبتغون الماء ، ويرتدون منابت  
العشب ؛ ليروعوا أنعامهم التي عليها بلاغهم في ريشهم وحموتهم ، وشبعهم ، فتنازعوا  
على المرعى وتدافعوا على النجعة ، ونشبت بينهم دواعي الخلاف التي كثيراً ما  
تنتهي بالاحتكمان للسيف . والاحتكمان للسيف يقتضي يداً قوية متينة التركيب ،  
وجسماً مفتولاً لا متهرلاً ولا هزيلاً ، وأصبح من دواعي فخارهم لكل هذه  
الأسباب الطبيعية والضرورية أن يكون الفتى :

فتي قدَّ قَدَّ السيف لا متسائلٌ ولا رَهْلٌ لِبَاتِه وأباجله<sup>(١)</sup>  
إذا جدَّ عَنْدَ الجد أرضاك جده وذو باطل إن شئت أرضاك باطله  
يسرك مظلوماً ويرضيك ظالماً وكلُّ الذي حملته فهو فاعله<sup>(٢)</sup>  
والشجاعة تقتضي أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم ، لا يتרדد ولا يتلوم ،  
وإلا قضى عليه تردد ، وتقاعسه ؛ فهو يناجز فرساناً شجاعاناً ، فلا بد أن يكون  
قوى الجنان نافذ الرأى ، ذا بصيرة في المآزرق .

إذا هم لم تردد عزيمته همه ولم يأت ما يأتى من الأمر هائيا  
إذا هم ألقى بين عينيه عزمته ونكَّ عن ذكر العوقب جانبها  
ولم يستشر في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبها

(١) الرهل : الاسترخاء ، واللبات : ج لبة وهي المنحر وحمل القلادة ، والأباجل : ج أبجل وهو عرق غليظ يكون في الفخذ والساقي .

(٢) أى يأخذ يدك إذا كنت مظلوماً ويرضيك بعانته لك أو النصيحة إذا كنت ظالماً .

أو يكون كما وصفه لقيط بن يعمر الإيادي :

لَا مُتْرَفًا إِنْ رَخْيَّ الْعِيشَ سَاعِدَهُ  
لَا يَطْعَمَ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَعْشَهُ  
مُسْهَدٌ النَّوْمُ تَعْنِيهِ أَمْرُكُمْ  
مَا انْفَكَ يَحْلِبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ  
فَلِيسَ يَشَغَلُهُ مَالٌ يُشَمَّرُهُ  
مُسْتَنْجِدًا يَتَحْدِى النَّاسَ كُلَّهُمْ لَوْ صَارُوهُ جَمِيعًا فِي الْوَغْنِ صَرَاعًا  
شُمْ إِنْهُ ذُو حِيلَةَ ، إِذْ جَدَّ الْجَدَ رَأْيَتَهُ يَعْتَمِدُ عَلَى قُوَّةِ سَاعِدَهُ ، كَمَا يَعْتَمِدُ  
عَلَى نَفَادِ بَصِيرَتِهِ ، وَحَسْنِ تَائِيَّةِ الْأَمْرَ ، يَعْرُفُ غَايَتِهِ ، وَيَتَحَقَّقُ مِنْ هَدْفِهِ  
دُونَ تَهُورٍ أَوْ تَبْلِدَ .

إِذَا مَرَءٌ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ حِدَّهُ  
وَلَكِنْ أَخُو الْحَزْمِ الَّذِي لَيْسَ نَازِلًا  
فَذَاكَ قَرِيبُ الدَّهْرِ مَا عَاشَ حُولُّ<sup>(١)</sup>  
إِنَّ الْحَيَاةَ فِي الصَّحْرَاءِ عُودَتِهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ فِي الشَّدَائِدِ وَأَنْ يَسْأَلَ  
نَفْسَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ : مَا نَصِيبِي مِنَ الْعَمَلِ فِيمَا عَرَضَ مِنَ الْأَمْرِ ؟ فَهُوَ يَلْقَى عَلَى  
نَفْسِهِ تَبْعَةً ثَقِيلَةً ، لَا يَتَوَكَّلُ أَوْ يَنْتَظِرُ مِنْ سَوَاهُ أَنْ يَبْدأُ الْعَمَلَ ، وَإِلَّا قُضِيَ عَلَيْهِ .  
كُلُّ قَتِيٍّ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ الْمَسْؤُلُ الْأَوَّلُ عَنْ شَئْوَنِ نَفْسِهِ وَعِشِيرَتِهِ وَقَبِيلَتِهِ فِي الْحَرْبِ ،  
وَفِي الرُّفَدِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ ، وَتَحْمِلُ الْدِيَاتِ ، وَفَضُّ الْخُصُومَاتِ . وَإِذَا بَلَغَ  
الْأَفْرَادُ فِي مُجَمَّعٍ مَا هَذَا الْقَدْرُ مِنَ الشَّعُورِ بِالتَّبْعَةِ زَرَّخَتْ حَيَاةُ الْجَمَّعِ بِجَلَائِلِ

(١) قَرِيبُ الدَّهْرِ : الْجَرْبُ لِلْأَمْرِ . الْحُولُ : الْبَصِيرُ ذُو الْحِيلَةِ . وَسَدَ مِنْهُ مَنْخِرٌ : أَى  
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ وَجَدَ لَهُ مَنْفَذًا آخَرَ بِحِيلَتِهِ .

الأعمال ، وتباري الأفراد في التجويد والإتقان ليتميز بعضهم عن بعض ؟ لأن مجرد العمل لم يعد ميزة . وهذه لعمري هي الحياة الصحيحة التي تفضي إليها صحة الأبدان والحواس والعقول . وعلى العكس من ذلك المجتمعات الحضارية التي يتواكل فيها الأفراد ، وينتظرون من سواهم البدء . وتنقلب الأعمال أماناً وأملاً ، وأحلاماً وخيالات وأوهاماً .

وإذا ضاقت عليه السبيل ، ولم يجد من الموت بُدًّا رأى من العار أن يفر ويولى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعِد إلى حيلته ودهائه أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة ، فلعل في ذلك نجاته ؛ لأنَّه لا يدرى إذا هرب كم بقي له من العمر :

ولم ندر إنْ جَضَنَا مِنَ الْمَوْتِ جَيْضَنَةً<sup>(٢)</sup> كَمِ الْعَمَرِ باقٍ وَالْمَدِي مُتَطَاوِلٌ<sup>(٣)</sup>  
إِذَا مَا ابْتَدَرْنَا مَأْزِقًا فَرَجَتْ لَنَا بِأَيْمَانِنَا بَيْضَ جَلَّتْهَا الصَّيَاقِلُ<sup>(٤)</sup>  
إِنَّهُمْ يَفْضَلُونَ الْمَوْتَ عَلَى الْعِيشَةِ الْذَلِيلَةِ ، وَالرَّضَا بِاللَّذِيمِ كَمَا قَالَ المَتَّمِسُ :  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ رَهْنَ مَنِيَّةَ صَرِيعَ لِعَافِ الطَّيْرِ ، أَوْ سُوفَ يُرْمَسُ  
فَلَا تَقْبَلُنَّ ضَيْبًا مُخَافَةً مَيْتَةَ وَمَوْتَنَّ بِهَا حَرَّاً وَجَلْدَكَ أَمْلَسُ  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا مَا رَأَوْا وَتَحْدَثُوا وَمَا الْعَجْزُ إِلَّا أَنْ يُضَامِنُوا فِي جِلْسَوْا  
وَفِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ يَتَمَثَّلُ قَانُونُ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَالنَّاسُ فِي مِيزَانِ الْحَقِّ : أَعْمَالُ  
صَالِحَةٍ يَرَوْنَهَا مِنْ أَنفُسِهِمْ فَيَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا ، وَيَفْخَرُونَ بِهَا ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعُو  
الْعَمَلَ الَّذِي يَفْخَرُونَ بِهِ ، وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ بِأَنَّهُ خَضَعُوا ، وَفَقَدُوا الْقَدْرَةَ  
عَلَى الْعَمَلِ ، وَجِلْسُوا لِلْلَّذِيمِ ، فَهَذَا هُوَ الْعَجْزُ .

(١) جَضَنَا : حَدَنَا عَنِ الْمَوْتِ .

(٢) الْبَيْضُ : السَّبُوفُ ، وَالصَّيَاقِلُ : جَصِيقُلُ وَهُوَ صَانِعُ السَّيْفِ .

إن الحياة جهاد ، وصراع وجلاد . ومن يغشاها موطنًا نفسه على القلبح والغلبة في معمتها أو الموت دون هدفه كان النجح حليفه ؛ والفوز نصيبه ؛ لأن الإنسان إذا لم يحب الموت وهو في معركة الحياة آثر السلامة ، وتجنب مواطن الظفر ، وسار بلا إرادة تبعاً لتلك المواطن وتلمسها ؛ وخروج المرء عن إرادته يدعوه إلى الخضوع لإرادة غيره من الذين يتمنى إرضاءهم ليحيا . وهذا الضغط على النفس هو الذي يجعل للمرء تقابلاً على وجهه فوق رغباته ، وينشئ له خزانة في أسفل عقله يُلقى فيها بحطام آماله ، ويقبر بها أمانية المكبوة .

ولما كانت نفس العربي سليمة قوية تبعاً لسلامة جوارحه ، وصحة حواسه ، ولم ت تعرض لما يفسد فطرتها كانت نفسها خيرة ؛ وخير يأتي إلا الظهور والوضوح ؛ ولذلك نرى الفتى العربي ينفر من الضغط على نفسه ، لأن الخير الذي فيه لا يقبله ، وبذلك يأتي الضيم ؛ لأن الضيم في آية صورة من صوره نوع من الضغط<sup>(١)</sup> ، وإياوه الضيم ونفوره من الذل جعله محباً للموت ، فخير له أن يموت شجاعاً من أن يعيش ذليلًا جباناً ، بلا إرادة . وعند ما يأتي الموت لا يجد له أمنية في الحياة إلا قد قضاها فلا يأسى على شيء في هذه الدنيا ، ولا يحرص على البقاء ، وبهذا صار قوياً عزيزاً .

فإني في الحرب الضروس موكلٌ  
بإقدام نفس ما أريد بقاءها  
متى يأتي هذا الموت لا تُلف حاجةٌ  
لنفسِي إلا قد قضيت قضاءها

(١) التصوف في نظر الإسلام لأحمد صبرى شومان ص ١٢٨ .

بل إنَّه يرى في إقدامه على الموت حياة ؛ لأنَّه سيدُّكَر بالخير إن مات ،  
أو ينتصر في المعركة إن عاش :

تأخرت أسبقي الحياة فلم أجد لنفسي حيَاً مثلَّ أنْ أتقدما  
فلسنا على الأعقاب تَدْمِي كلَّوْنَا تقطَّر الدَّمَا (١)

ويقول زيد الخيل :

أنا الفارس الحامي الحقيقة والذى  
لله المكرمات واللهى والمساشر (٢)  
وقومى رؤوس الناس ، والرأس قائد  
إذا الحرب شَبَّها الأكف المساير  
فلست إذا ما الموت حودر وردد  
إذا يخشي الحتف تهياً (٣)  
وأترع حوضاه وجحَّ ناظر (٤)  
ولكنى أغشى الحتف بصعدتى  
يُبَاعُدُنِي عنها من القبض ضامر (٥)  
ويقول دريد بن الصمة :

أبي القتل إلا آل صمة إبْرَاهِيم  
أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر  
وتقول الخنساء :

بَهِينُ النُّفُوسَ ، وَبَذَلَ النُّفُوسَ  
إن بيع النفوس رخيصة في ميدان القتال دفاعاً عن العرض ، أو ذوداً عن الحرمات  
هو أقصى ما تصل إليه النفس الإنسانية في شجاعتها ، وهو أكبر دليل على إيمان  
ثابت بصير النفس الإنسانية وتكريرها ، وفي ذلك يقول البرذع بن عدى :

(١) الأعقاب : ج عقب وهو مؤخر القدم ، والكلوم : ج كلام وهو الجرح .

(٢) الحقيقة : كل ما يدافع عنه . (٣) جح ناظره : شرد من الخوف .

(٤) القبض : إما وسط المعركة أو رئيس القوم ، وضامر : جواد مدرب ضامر .

(٥) الصعدة : قناة الرمح .

وأجعل مالى دون عرضي إنـه على الـوجـد والإـعدـام عـرض مـمـنـع  
وأصـبر نـفـسـى فـى الـكـرـيـهـةـ إـنـهـ لـدىـ كـلـ جـنـبـ مـسـتـقـرـ ومـصـرـعـ  
وـيـقـولـ أـبـوـ قـيسـ بـنـ الـأـسـلـ الـأـوـسـىـ :

لا تـأـلمـ القـتـلـ وـيـخـرـىـ بـهـ الـأـعـدـاءـ كـيـلـ الصـاعـ بـالـصـاعـ  
وـلـاـ بـدـعـ إـذـاـ وـصـلـ الـعـربـ فـىـ صـحـراـئـهـ إـلـىـ هـذـهـ الـمـنـزـلـةـ مـنـ الشـجـاعـةـ فـإـنـ  
طـبـيـعـةـ الـخـصـبـ وـالـرـخـاءـ ،ـ وـاعـتـدـالـ الـمـنـاخـ ،ـ وـيـسـرـ الـحـيـاةـ تـمـيـتـ فـىـ النـفـسـ  
الـإـنـسـانـيـةـ حـوـافـزـ الـكـفـاحـ وـالـنـضـالـ ،ـ فـتـمـوـتـ مـنـ وـرـاءـ ذـلـكـ كـثـيرـ مـنـ الـفـضـائلـ ،ـ  
وـيـصـبـحـ اـنـكـيـابـ الـنـاسـ عـلـىـ مـاـ تـحـتـ أـقـدـاهـمـ مـنـ لـذـاتـ الـقـوـتـ ،ـ وـمـنـعـ الـنـسـاءـ ،ـ  
وـمـاـ يـصـبـحـ التـهـالـكـ عـلـىـ صـيـانـةـ هـذـهـ الـلـذـاتـ وـالـمـتـعـ مـنـ شـهـوـةـ بـنـاءـ الـقـصـورـ ،ـ وـغـرسـ  
الـحـدـائـقـ ،ـ وـصـنـاعـةـ الـتـحـفـ ،ـ وـزـخـرـفـةـ الـأـوـانـيـ عـامـلـاـ مـنـ عـوـاـمـلـ الـحـرـصـ عـلـىـ  
الـحـيـاةـ ،ـ وـعـدـمـ الرـغـبـةـ فـىـ الـمـغـامـرـةـ وـالـخـاطـرـ ،ـ وـالـجـبـنـ عـنـ مـنـازـلـ الـأـبـطـالـ فـىـ  
مـيـادـينـ الـقـتـالـ .ـ

وـلـيـسـ كـذـلـكـ الـعـربـ فـىـ الصـحـراءـ ،ـ فـلـاـ مجـالـ لـلـاـكـتـنـازـ وـالـغـنـىـ الـمـفـرـطـ ،ـ  
وـلـيـسـ ثـمـةـ قـصـورـ وـدـورـ ،ـ وـإـنـماـهـىـ أـخـبـيـةـ تـطـوـىـ وـمـتـاعـ قـلـيلـ .ـ أـضـفـ إـلـىـ هـذـاـ  
إـيمـانـهـمـ —ـ مـنـ وـاقـعـ الـحـيـاةـ —ـ بـأـنـ الـأـجـلـ مـحـدـودـ ،ـ لـاـ يـغـنـىـ فـيـهـ حـذـرـ مـنـ قـدـرـ ،ـ  
وـلـاـ يـنـفـعـهـمـ تـقاـعـسـهـمـ فـىـ مـيـدانـ الـقـتـالـ شـيـئـاـ .ـ كـلـ هـذـاـ جـعـلـهـمـ يـتـخـذـونـ مـنـ  
الـلـوـتـ سـيـلـاـ لـلـحـيـاةـ ،ـ وـمـلـاـ قـلـوبـهـمـ شـبـاعـةـ فـاقـتـةـ وـاسـتـهـتـارـاـ بـالـخـاطـرـ .ـ وـلـعـلـ  
عـنـتـرـةـ قـدـ عـبـرـ عـنـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ أـجـمـلـ تـبـيـرـ وـأـمـهـ بـقـوـلـهـ :

بـكـرـتـ تـخـوـفـنـىـ الـحـتـوـفـ كـأـنـتـ أـصـبـحـتـ عـنـ غـرـضـ الـحـتـوـفـ بـمـعـزـلـ  
فـأـجـبـتـ إـنـ الـمـنـيـةـ مـنـهـلـ لـاـ بـدـ أـنـ أـسـقـىـ بـكـأسـ الـنـهـلـ

فأقْنَى حيَاءِكَ لَا أَبَالُكَ وَاعْلَمِي أَنِّي اصْرُؤ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلْ  
كَانُوا يَقْسِطُونَ عَلَى الْمَاءِ وَالْمَالِ وَالْغَنِيمَةِ ، وَالْقَتْلُ عَلَى الْمَاءِ وَالْغَنِيمَةِ قَانُون  
الْفَطْرَةِ فِي بَقَاءِ الْأَصْلَحِ ، وَكَانَتِ الْعَصَبَيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ شَدِيدَةٌ بَيْنَهُمْ ؛ حَتَّى لَا يَذْلُوا ،  
وَيَتَخَطَّفُهُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، وَتَسْبِحُ حَرْمَاتِهِمْ ، وَيَنْتَهُكُ حَمَاهِمَ<sup>(١)</sup> . وَلَقَدْ  
عَبَرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى عُمَرُ بْنُ بَرَاقَةَ بِقَوْلِهِ :

وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمُنْعَنْ بِالْقَنَا  
يَعْشُ ذَاغِنِي أَوْ تَخْتَرِمُهُ الْخَارِمِ  
وَكَنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتَهُمْ  
فَهُمْ أَنَا فِي ذَا يَاهْمَدَانَ ظَالِمُ  
مَقْتُ تَجْمُعُ الْقَلْبِ الذَّكِيرِ وَصَارَمَا  
وَأَنْفَاصًا حَمِيَا تَجْتَنِبُ الْمَظَالِمِ  
وَكَانَتْ كُلُّ مَعْرَكَةٍ تَسْتَبِعُ ثَارًا ، وَكُلُّ ثَارٍ يَلِدُ مَعْرَكَةً ، وَالثَّارُ كَانَ حَقُّ  
الْأَبْنَاءِ لِلآبَاءِ أَوْ حَقُّ الْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ، أَوْ الْمَرْءُ لِعَشِيرَتِهِ وَذُوِّيهِ ، أَوْ الْقَبْلِيَّةِ  
لِأَفْرَادِهَا الْمَدَافِعِينَ عَنْهَا حَتَّى لَا تَهَانَ وَتَسْتَدِلُّ وَتَسْتَأْصِلُ .

وَلَوْلَا الْحَرُوبُ عَلَى الْثَّارِ مَا اسْتَرْجَعَ الْمَهْرُومَ مَكَانَهُ مِنَ النَّصْرِ بَعْدَ الْهُزُيمَةِ ،  
وَمَا شَفِيَ الْمُوْتُورُ صَدْرُهُ مِنْ حَفِيقَةِ الْوَتَرِ ، وَمَا أَخَذَ الْوَافِونَ بِالْوَدِ حُقُوقَ  
الْذَاهِبِينَ مِنْ خَلَانِهِمْ وَحَلْفَاهُمْ وَإِخْوَهُمْ ، فَلَا تَذَهَّبُ الْجَنَاحِيَّةُ بِدُونِ  
عَصَاصَ (٢) .

وَلِذَلِكَ كَثُرَتِ الْحَرُوبُ بِهِمْ وَتَعَدَّتِ أَيَامُهُمْ ، وَفِي الْحَرُوبِ مَرَانُ عَلَى أَعْمَالِ  
الْفَتْوَةِ ، وَإِظْهَارُ مَرَازِيَا الشَّجَاعَانِ وَحَسْنَ بَلَائِهِمْ . لَقَدْ كَانُوا يَفْرَحُونَ بِالْمُطْهَوبِ  
وَالشَّدَائِدِ ؛ فِيهَا امْتِحَانٌ لِشَجَاعَتِهِمْ ، وَبِلَاءٌ لِمُقْدَرَتِهِمْ عَلَى مَقَارِعَةِ الْحَوَادِثِ

(١) النَّابِغَةُ الْذِيَّانِيُّ لِلْمَؤْلُفِ ص ٦٩ .

(٢) نَفْسُ الْمَرْجُمِ ص ٦٠ .

وصلاتهم للبقاء والسيادة ، وتنويه بذكرهم بين قومهم وسواهم ، وفيها عزة لهم ولقبيلتهم ، فيها بها الأعداء ، ولا يطمعون فيها . وفي الخطوب مغم عاجل »  
ومجد آجل ، فلا تعجب إذا سمعت شاعرهم يقول :

ما تعرني من خطوب ملهمة إلا تشرفي وتعظم شأني  
أو ما يقول الآخر :

وإذا حملت على السكريه لم أقل بعد العزيمة ليتنى لم أفعل  
كان الفتى العربي يقتسم الخطوب بقلب ثبت ، وشجاعة بالغة المدى »  
وائقاً من شجاعته وبأسه ودربته وحذكته في حميّا القتال ؛ إنه يعني من  
اقتحامه المكاره الحمد والصيت ، والبقاء في عزة وحرية :

إذا خام أقوام تقحمت عمرة يهاب حميّا الألد المداعس<sup>(١)</sup>  
لعمراً أبيكَ الخير إنِي خادم لضيقى ، وإنِي إن ركبت لفارس  
وإنِي لأشرى الحمد أبغى رباحه وأترك قرنى وهو خزيان ناعس  
ولا يعني اقتحامه الخطوب وحبه الموت تهوراً وطيشاً ، ولكنَه كان إلى  
شجاعته هذه حذراً يقطاً في ميدان القتال ، لا يستسلم لسلطان الغفلة ، وإذا  
أنهكه التعب ولعب بمحفونه النوم لا يخضع له خضوع من يترك أزمَّة أمره في  
يد المقادير والفرص ، ولكنَه يأخذ منه بحذر ، ويهدب من سنته حين يحمل  
الحد سوياً قويَاً :

وإذا يهُب من النمام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزملي<sup>(٢)</sup>

(١) خام : جبن ، وال عمرة : الشدة . وال حميّا : الشدة كذلك ، والألد : الشديد  
الخصوصة . المداعس : من الدعس وهو الطعن .

(٢) الرتوب : القيام والاتصاف ، وال زمل : الضعف .

ما إن يمس الأرض إلا منكب  
يَهُوي مخارِمها هُوي الأجدل<sup>(١)</sup>  
برَقت بُرق العارض المتهالِ  
صعبُ الكريهة لا يرام جنابه  
يحمي الصحاب إذا تكون كريهة  
إذا هبَّ من نومه رأيت رتبة وقيمه وانتسابه في استوائه وشدةه مثل  
كعب الساق ، لا لين فيه ولا ضعف ، كأنه الرمح الرديني صلابة ومتانة . إنه  
ينام نوماً عجيبةً فيمس الأرض بأحد منكبيه وبحرف ساقه ، لا يستغرق في نومه  
أو يستلقى على ظهره ، ثم هو غير سمين بل تراه مطويًا كأنه حمالة السيف :  
وإذا قذفت به في فجاج الأرض وطرقها الواسعة رأيته يهوي وينقض على  
جبالها كأنه الصقر القوى . وإذا نظرت إلى وجهه رأيته مشرقاً كأنه البرق  
الساطع ، لم تnel منه الصعاب أو تكشف من غربه الأسفار ، وهو في الحرب  
صعب المراس شديد الوطأة ، لا ينال جنابه أحد لمناعته ، وهو ماضي العزيمة  
كالسيف القاطع ، وهو عماد أصحابه يوم الوعى ، يذود عنهم لفطر شجاعته وقوته  
عزيزته ، ومتانة ساعده ، وخبرته بالحروب ، وتحمله التبعات ، وهو مأواهم إذا  
نزلوا ، يغدق عليهم من سيف يده ، وفضل كرمه .

ولم تكن البيئة الصحراوية وحدها هي التي أكسبتهم هذه الصفات  
الجميدة ، والشجاعة المثالية ، ولكن كان للأمهات العربيات فضل كبير في  
تنشئة أولادهن طلاقَ مجد ، وأمثالاً عالية في الشجاعة ، فالمرأة كانت تدرك

(١) مخارم : ج مخرم وهو منقطع أفق الجبل ، والأجدل : الصقر .

قيمة الشجاعة في هذه البيئة الوعرة ، وما يكتنفها وقبيلتها من أخطار تهددها في كل حين ، وهي تدرك كذلك قيمة الفتى الشجاع عند القبيلة ، وأنها تنتظره ليذود عنها ، ويدرأ كيد أعدائها ، ويكسب لها المجد والشرف ؟ فلا يُسبّي نساوها ويمتهن فتياتها ، ويستذل شيوخها ، ويهرم رجالها ، ولذلك كانت ترضعه من لبها صفات المجد ، وطلب السؤدد ، فينشأ والرجلة ملء إهابه والعزة تقىض من فواده ، والأئفة من الصغار والصغار ترسم على صفحات وجهه . كانت المرأة العربية ترقص ولدتها بأشعار ناصعة جميلة ، توحى له بالخير ، وتغريه بالمجد . استمع إلى « شيماء » ترقص محمدًا الكريم في بادية بنى سعد :

يارينا أبق لنا مهدا حتى أراه يافع \_\_\_\_\_ وأمردا  
شم أراه سيداً مسواً واكبت أعاديه معاً والحسدا  
وأعط \_\_\_\_\_ عزًا يدوم أبدا

واستمع إلى أم الفضل بنت الحارث ترقص ولدتها عبد الله بن العباس :  
شِكَلتُ نفسي وشِكَلتُ بكرى إن لم يسد فهراً وغير فهور  
بالحسب الباقي وبذل الوفر حتى يوارى في ضريح القبر  
 واستمع إلى هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ترقص ولدتها معاوية بقوتها :

إن بني معرق كريم محب في أهله حليم  
ليس بفحاش ولا لئيم ولا بطخور ولا سئوم (١)  
صخر بني فهير به زعيم لا يخلف الظن ولا يخيم (٢)

(١) الطخور : الضعف غير الجلد .

(٢) يخيم : يجبن . وصخر بني فهير : هو صخر بن حرب أبو سفيان والد معاوية .

وكانت «منفوسه» بنت زيد الخيل ترقص ولدها من دريد بن الصمة  
فتدعوه إلى التشبه بأبيه أو أخيها في الفروسية والبطولة . وكانت ترى أن أباها  
«زيد الخيل» أكبر من أن يدركه ابنها من دريد بن الصمة ، فكانت ترقصه  
وتقول له :

أشبه أخي أو أشبهن أباكـا      أما أبي فلن تنال ذاكـا  
تقصر عن منهـاله يداكـا  
وإذا كانت المرأة موتورة نشـأت ولدها تنشـئه طالب الثـاثـر ، ولقتـته منـذ  
حدـاثـته الأولى كـيف ينتـقم من أـعـدـائـه وأـعـدـاءـأـمـهـ وـعـشـيرـتـهـ ، وـهـاـ هـىـ ذـىـ «ـكـنـزـةـ  
الـمـنـقـرـيـةـ» تـغـذـىـ ولـدـهـاـ «ـشـمـلـةـ» أـفـاوـيـقـ الـوـتـرـ وـالـقـصـاصـ فـيـ قـوـهـاـ :

فـإـنـ يـكـ ظـنـيـ صـادـقـ وـهـوـ صـادـقـ بـشـمـلـةـ يـحـبسـهـمـ بـهـاـ مـحبـسـاـ أـزـلاـ<sup>(١)</sup>  
فـيـاـ شـمـلـ شـمـرـ وـاـطـلـبـ الـقـومـ بـالـذـىـ أـصـبـتـ ، وـلـاـ تـقـبـلـ قـصـاصـاـ وـلـاـ عـقـلاـ<sup>(٢)</sup>  
لـمـ يـكـنـ هـؤـلـاءـ النـسـوـةـ يـدـلـلـنـ أـوـلـادـهـنـ ذـلـكـ الدـلـالـ الذـىـ يـضـعـفـ  
شـخـصـيـتـهـمـ وـيـسـىـ إـلـىـ مـسـتـقـبـلـهـمـ ، بـلـ كـنـ يـدـفـعـنـ بـهـمـ إـلـىـ طـرـيقـ الشـرـفـ ،  
وـالـرـئـاسـةـ ، وـاحـتـدـاءـ آـثـارـ الـأـبـطـالـ ؟ وـلـذـلـكـ ظـهـرـ بـيـنـ الـعـرـبـ كـثـيرـ مـنـ الـفـتـيـانـ  
ذـوـيـ الـشـخـصـيـةـ الـقـوـيـةـ ، وـالـنـفـوـسـ الـمـعـدـةـ لـتـسـنـمـ ذـرـوـةـ الـمـحـدـ ، وـلـاـ أـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ  
مـنـ تـلـكـ الـشـخـصـيـاتـ الـعـظـيمـةـ الـبـاهـرـةـ الـتـىـ اـشـهـرـتـ فـيـ الإـسـلـامـ حـينـ دـانـتـ  
لـلـعـرـبـ دـوـلـ عـظـيمـةـ ، وـتـطـلـبـ الـحـكـمـ الـجـدـيدـ خـبـرـةـ وـمـهـارـةـ ، وـعـقـولاـ نـيـرـةـ ، فـتـجـلتـ  
تـلـكـ الـعـقـرـيـاتـ الـكـامـنـةـ ، وـظـهـرـتـ عـلـىـ مـسـرـحـ التـارـيـخـ مـتـأـلـقـةـ عـلـىـ غـيـرـ مـثالـ

(١) أـزـلاـ : شـدـيـداـ ، أـىـ أـنـهـ سـيـحـيطـ بـالـأـعـدـاءـ ، وـيـحـصـرـهـمـ وـيـشـأـرـهـمـ .

(٢) أـىـ لـاـ يـقـبـلـ الـدـيـةـ .

سبق في قيادة الجيوش ، والقضاء ، والخلافة ، والتنظيم المبتكر . ولا شك أن هذا كله يرجع إلى النشأة الأولى ، وإلى الحياة التي تشربتها نفوسهم في الحداثة : حياة تحمل منهم شخصيات بازرة ، فكثرة الرعاية والتدليل للأطفال في حداوهم تخرج شخصيات ضعيفة<sup>(١)</sup> ، وهذا ما لم يفعله نساء العرب مع أولادهن .

وما دعا إلى كثرة الشجعان بين العرب امتداح الرأى العام للشجاع القوى الذي يلبي النداء زميغاً إذا دُعى للنجدة ، أو كانت قبيلته أو عشيرته أو حلفاؤه في محنـة . وللرأى العام سلطان قوى يتآثر به الفرد ويتآثر به الجماعة . والعرب كانوا يمتدحون الشجاع ، ويهزّون بالجبان الهيبة الرعدية ، الذي يخيم عن الذود عن المحارم ، وينكص على عقبيه في حومة الوغى .

إذا فكر شخص ما في نفعه الخاص أو نفع جاره القريب دفعه الرأى العام ، والحرص على مصلحة المجموع إلى أن يبعد هذه المنفعة الخاصة ، وأن يضحي بماله أو بنفسه في سبيل الجميع ، إن القبيلة تستطيع مجتمعة أن تسحق الخسيس النذل الجبان ، وأن ترفع إلى أوج الشهرة والنهر هذا الذي غامر بحياته في سبيلها<sup>(٢)</sup> ، فأى فتى يحجم إذا كان لابد من الأقدام إلا من تبدل حسه ، وفسدت نفسه ، والعرب كانوا على النقيض من ذلك تهيئهم البيئة وتعدهم الأمهات ، ويدفعن الرأى العام لأن يكونوا نماذج خيالية في الشجاعة والاستهثار بالموت .

لقد اعتنى العرب — كما رأينا — بأجسامهم ، فاكتملت قوتهم ، وعظم

(1) Anthropology. by R. R. Marett, P. 237.

(2) Anthropology. by Sir E. B. Tylor. Kt, V, II, P. 137.

احمالم للخطوب والشدائد ، وتعودوا خوض الغمرات والمحن ، واستهانوا بالحرب والموت . وقد تطلبوا منهم المروب الكثيرة التي شبت بينهم أن يعنوا عنية خاصة بأدوات الظفر والقتال . وأول هذه العدد — بعد القوة الجسمانية — جواد أصيل ، يعرف كيف يصبر في المعركة ، والسيوف تقعقع وتلمع من حوله ، والسهام تصيب عليه ، ويعرف كيف يقدم ، ويشق حجب الغبار ، ويذكر بصاحبه ، لا يحفل أو يكتبو أو يرتد عن المعركة .

شديد مجتمع الكتفين طرف به أثر الأسنة كالعلوب<sup>(١)</sup>

ولهذا اعتزوا بالخيل ، وعرفوا لها منزلتها ، وعدوها بمثابة أولادهم ، وكان يهنيء بعضهم بعضاً إذا ولدت فرس ، ويختلفون بمقدم المهر المولود احتفالاً يدل على عظيم مكانتها في قلوبهم ، فحينما تضع الفرس ولیدها تجتمع الأسرة حولها ، وتستقبله بالصياح والتهليل وإمارات الفرح ؛ لأنه هبة من الله وبركة منه ، ثم يأخذه أحد أفراد الأسرة بين ذراعيه ، ويسير به مدة في موكب صاحب .

وبهذه الطريقة يتعود المهر منذ نشأته الأولى ألا يخاف شيئاً ، وأن يكون هادئاً وسط الميدان وقوعقة السلاح وجبلة الجيوش ، ثم يعود به إلى أمه ، وهنا يقول رب الأسرة اللهم اجعله مصدر سعادة وبركة وصحة لنا ، فيؤمن أفراد الأسرة على دعائه<sup>(٢)</sup> .

ولقد فضلها بعضهم على أولاده ، يجرون ولا تجرون . ولا بدع فهى التي تحمى الأسرة ، وتحلب لها الرزق ، وبها يدافع رب الأسرة عن عياله .

(١) البيت اضبعة العبسى . الطرف : الكرم من الخيل ، والعلوب ، تثلم السيف .

Général Daumas, Les chevaux du Sahara, P. 91, (٢)

مقدمة مكرمة علينا يجاع همال العيال ولا تجاع<sup>(١)</sup>  
ومما يدل على إعزازهم لخيولهم الأصيلة أنهم كانوا يضطرون بها أن يختلط  
نسبها بغير الأناث المعرفة في النسب ، بل يختارون لها إناثاً مشهورة معروفة  
بنجابتها .

وإن اختيار أنثى غير مناسبة لجود أصيل كتزوج رجل أبیض شريف  
من زنجية دمية<sup>(٢)</sup> .

ولا عجب فالخيل من أقوى عدد العربي وسط الصحراء ، وهى التي  
تجلب لهم الخير .

الخير ما طلعت شمسٌ وما غربت معلقٌ بنواصي الخيل معقود  
وهي معاقلهم التي يلجهنون إليها إذا جد الجد ، كما قال لييد :

معاقلنا التي نأوى إليها بناتُ الأعوجية والسيوف<sup>(٣)</sup>

ولذلك قال أخوه بنى عامر يحذر قومه من إهمالهم لخيولهم ، وعدم عنائهم  
بترويضها ، وإعدادها في كل آونة لخوض غمرات القتال :

بني عامر : مَاذَا أَرَى الْخَيْلَ أَصْبَحَتْ  
بِطَانًا ، وَبَعْضُ الْفَرْسِ لِلْخَيْلِ أَمْثَلْ  
لَأَنفُسِكُمْ وَالْمَوْتِ وَقْتِ مَوْجِلْ  
بَنِي عامر إن الخيول وقايةٌ  
أَهْيَنُوا لَهَا مَا تَكْرِمُونَ وَبَاشِرُوا  
صِيَاطِهَا ، وَالصُّونَ لِلْخَيْلِ أَمْثَلْ

(١) البيت لعبدة بن ربيعة التميمي وقد طلب منه أحد الملوك فرسه (سكاب)  
فنعه منه وقال قصيده المشهورة :

أَبَيْتُ اللَّعْنَ إِنْ (سَكَابَ) عَلَقَ نَفِيسَ لَا يَعَارَ وَلَا يَبَاعَ

Delard, L'Art équestre 1859.

(٢) الأعوجية : نسبة إلى أعوج جواد أصيل مشهور عند العرب .

متى تكرموها يكرم المرأة نفسه وكل امرئ من قومه حيث ينزل  
ومما يدل على عنادتهم بالخيل ، وإنزازهم لها تمييزها بأسماء ، كأنها أناس  
عاقلة ولا سيما العتاق منها ، وقد كان لزيد الخيل ستة جياد أشاد بها في شعره  
وهي : الهصّال ، والكميّت ، والورد ، وكامل ، ودوول ، ولاحق . ومن  
الخيول المشهورة أوج ، والوجيه ، وداحس ، والغبراء ، والنعامة وغيرها ،  
وقد ألف أكثر من كتاب في الخيول المنسوبة المشهورة ، وكانت كتب الخيل  
من أول ما ألف في العربية<sup>(١)</sup> .

وقد بلغ من معزتهم لها أنهم كانوا يذودون عنها في حومة الوعى ؛ لأنها  
تخوض بهم المعركة ، فإذا أصابها شيء ضعف الفارس . وقللت مناعته ، ولذا  
وجب عليه حمايتها .

أقيه بنفسي في الحروب وأتقى بهاديه إني للخيل وصول<sup>(٢)</sup>  
فهذا الفارس يرى في الجواد خليلاً له ، وأى خليل أصدق من هذا الذى  
يرافقه الموت دان ، والسيوف تقطر منها المنايا ، ويصبر معه على السراء ؛  
وينجيه من الأباء ، ويتبادر وإياه المنفعة على حد قول ضبيعة العبسى :

يقينى باللَّبانِ وَمَنْكِبِيهِ وأحميه بِمُطَرِّدِ الْكَعُوبِ<sup>(٣)</sup>

وأدفيه إذا هبت شمالٌ بليلٌ حَرَجَفٌ عند الغروب<sup>(٤)</sup>

(١) راجع كتاب نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد تأليف محمد باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائري ، وراجع كذلك مشاهير الجياد في الجاهلية والإسلام لأحمد زكي باشا وراجع بلوغ الأربع للألوسي الجزء الثاني ، والعقد الفريد ، والأغانى وغيرها

(٢) هادى الفرس : صدره وعنقه .

(٣) اللبان : الصدر ، ومطرد الكعوب : الرمح

(٤) الحرجف : الريح الباردة الشديدة المبوب ، والليل . المبلولة من الندى .

أو قول آخر :

أتقى ذونه النايا بنفسى وهو يغشى بنا صدور العوالى  
 فإذا مت كان ذاك تراثى وسخالاً محمودة من سخالى<sup>(١)</sup>  
 وكان الجواد يخوض المعركة كا يخوضها الفارس ، ويصبر على حرها ، إذا  
 كان أصيل العرق . يُثخن بالجراح فلا ينفر ، أو يلين ، كما وصفه  
 عنترة بقوله :

إذ لا أزال على رحالة ساجح نهد ، تعاوره السكماه مُكلم<sup>(٢)</sup>  
 ما زلت أرميهم بغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم  
 فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبرة وتحمّم<sup>(٣)</sup>  
 لو كان يدرى ما المحاورة اشتكتى ولكن لو علم الكلام مكتمى  
 بل كانوا يعودون الخيل أن تطا القتيل ، وتجهز عليه ، مثل فرس زيد  
 «الخيل الذى ظلع فى أثناء المعركة فأخذه بنو الصيادة فصلح عندهم فناشدتهم زيد  
 الخيل أن يردوه وقال لهم :

يا بنى الصيادة ردوا فرسى إنما يُفْعَل هذا بالدليل  
 لا تُذيلوه فإنى لم أكن يا بنى الصيادا لهرى بالدليل<sup>(٤)</sup>  
 عَوْدُوه كالذى عَوْدَتْه دَلَجَ الليل وإيطة القتيل<sup>(٥)</sup>

(١) السخال : ج سخالة وهي ولد الشاة .

(٢) الرحالة : سرج من جلد الشاة . نهد : غليظ ، تعاوره : هذا يطعنها مرة ، وذاك أخرى ، والسكماه : ج كمى وهو التام السلاح . ومكلم : به كلوم وجروح كثيرة .

(٣) ازور : مال ، ولبانه : صدره . (٤) أذاله : أهانه ولم يحسن القيام عليه .

(٥) انظر مهذب الأغانى ج ٢ ص ٧٩ .

ويقول زيد الخيل واصفًا إحدى غراته على بنى فزارة ، ومشيرًا إلى مقام  
به جواده في المعركة :

فما زلت أرميهم بغرّة وجهه وبالسيف حتى كُلَّ تحتي وبَلَدًا  
إذا شَكَ أطرافُ العوالى لِبَانَه أَقْدَمَهُ حتى يرى الموت أسوداً  
كانت الخيل جُنَاحُ الفرسان في حومة الوعنى ، يعدون بها ويكررون ،  
وتخيمهم من طعنات الرماح ، وحد الظبي . وإذا اشتدت المعركة وجمى  
وطيسها ، وضاق المعرك نزلوا عن الخيل ، وهم لا ينزلون عنها إلا إذا كانوا  
شجاعانًا واثقين من قوتهم وفتورهم ، وخبرتهم باستعمال السيوف ، فلا ينزل  
إلا أولو البأس والنجدة والشدة . استمع إلى ربيعة بن مقروم يصف فرسه في  
المعركة ، وكيف نزل عنه حين دُعى للنزول :

وإذا جرى منه الحميم رأيته يهوى بفارسه هُوَيَّ الأجدل<sup>(١)</sup>  
وإذا تعلل بالسياط جيادُهَا أعطاكِ ثائِبَهِ ولم يتعلل<sup>(٢)</sup>  
ودَعَوْا نَزَالَ فَكَنْتُ أَوَّلَ نَازِلَ وعلام أركبه إذا لم أنزل  
فهم لشجاعتهم لا يعتصمون بظهور الخيل ، بل حالم في القتال على الخيل  
حالم بدونها ، ومن أنس في نفسه الشجاعة والمقدرة على القتال وهو راجل  
نزل ، ومن رأى أنه في مأمن على ظهر جواده ، وأنه إن نزل لن يكون  
مفلجًا اعتمد به ، ولذلك كان من دواعي فخرهم أن ينزلوا عن الخيل حين  
تشتد المعركة ، ويلتحم الفريقان ، ويضيق المجال أمام الجياد حتى لا تستطيع

(١) الحميم : العرق ، وهو أيضًا الماء الحار . الأجدل : الصقر .

(٢) إذا كانت بعض الخيول تحتاج لأن تضرب بالسياط لجواده لأصالته يعطيه خير  
ما عنده من العدو دون حاجة إلى تعلله أو ضرب أو حث .

العدُو ، وفي هذا يفتخر المهلل بقوله :

لم يُطِيقُوا أَن يَنْزَلُوا فَنَزَلُنا وَأَخْوَ الْحَرْبِ مِنْ أَطْاقِ النَّزُولِ

ومدح النابغة بنى غسان بقوله :

إِذَا اسْتُرْزُلُوا عَنْهُنَّ لِلطَّعْنِ أَرْقَلُوا إِلَى الْمَوْتِ إِرْقَالِ الْجَمَالِ الْمَصَاعِبِ<sup>(١)</sup>

هكذا كانت الخيل عند العرب أصيلةً مُغْرِقةً ، متخَّيرةً ، قويةً ، متينةً

التركيب ، تلائم الفتى القوى الصلب ، الذي أعد نفسه مُجْمِيًّا الحروب  
وأوارها :

وَالْحَرْبُ لَا يَبْرُقُ لِجَاهِ مُحَمَّدٍ التَّخَيْلُ وَالْمِرَاحُ

إِلَّا الْفَتَى الصَّبَارُ فِي النَّجَادَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَاحُ<sup>(٢)</sup>

والكر بعد الفر إذ كرته التقدم والنطاح

ولذلك كانوا ينشئون الخيول تنسيئة خاصة :

تَمِيمٌ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمَلَ خَلْقَهُ قَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

ويحتاج الفتى لاستكمال عدة الغلبة والظفر بعد قوته الجسمية ، ومرانه على احتمال المشاق ، وخوض المكاره ، وبعد جواده الفاره المعرق السباقي ...  
إلى شَكَّةً تامة يعدها للنائبات : سيف عَضْبٌ ، ورمح لَدَنٌ ، ودرع سابعة ،  
ويضمة تلمع ، كما أعد عبد القيس بن خفاف البرجمي عدته حين قال :  
وأصبحت أعددت للنائبات عرضًا بريئًا وعصبيًا صقيلا<sup>(٤)</sup>

(١) أَرْقَلُوا : أسرعوا . والمصاعب : ج مصعب وهو الفحل من الإبل .

(٢) الْوَقَاحُ : الشديد الحافر .

(٣) فَلَوْنَاهُ : فطمئناه .

(٤) العَضْبُ : السيف القاطع ، وصقيلاً : مصقولاً لاما مجلاً .

ووْقَعَ لِسَانٍ كَحْدَ السَّنَانِ وَرَمَحًا طَوِيلَ الْقَنَاةِ عَسُولاً  
 وَسَابِغَةٌ مِنْ جِيَادِ الدُّرُوْزِ تَسْمَعُ لِلسيفِ فِيهَا صَلِيلًا  
 كَمَنَ الْغَدِيرِ رَهْتَهُ الدَّبُورُ يَجْرُّ الْمَدْجَحَ مِنْهَا الْفَضُولًا  
 وَقَدْ يَزِيدُ فِي عَدْتِهِ الْقَوْسَ وَالسَّهَامَ لِيَرْمِيَ بِهَا ، وَلَيَكُونَ كَامِلَ الشَّكَّةِ  
 مَحْتَاطًا لِكُلِّ مَا يُطْرَأُ عَلَيْهِ مُثْلِ حُسَيْنِ بْنِ سُبْحَيْحِ الضَّبِّيِّ حِينَ أَعْدَدَ نَفْسَهُ :  
 بُطْرِدَ لِدَنْ صَحَّاحٌ كَعْوَبَهُ وَذِي رَوْنَقٍ عَصْبٌ يَقُدُّ الْقَوَانِسَا  
 وَبِيَضَاءِ مِنْ نَسْجِ ابْنِ دَاؤِدَ نُثْرَةٌ تَخْيِرُهَا يَوْمَ الْلَقَاءِ الْمَلَائِكَةَ  
 وَحِرْمَيْهَةَ مَدْسُوبَةَ وَسَلَاجَمَ خَفَافٌ تَرَى عَنْ حَدِّهَا السُّمَّ قَالَ اسَا  
 فِعْدَتِهِ رَمَحٌ مَسْتَقِيمٌ لِدَنْ يَهْتَزُ فِي يَدِهِ ، صَحَّاحٌ كَعْوَبَهُ ، وَسِيفٌ لِهِ رَوْنَقُ  
 وَمَاءُ ، قَاطِعٌ بِتَارِيَقَدِ أَعْلَى الْخَوْذَاتِ ، وَدَرْعٌ بِيَضَاءِ عَرِيقَةِ فِي الْقَدْمِ مِنْ  
 نَسْجِ سَلِيمَانَ بْنِ دَاؤِدَ مَحْكَمَةِ النَّسْجِ حَتَّى تَرَدَ السَّهَامُ وَالظَّبَّيُّ ، وَقَدْ تَخْيِرَهَا يَوْمَ  
 الْلَقَاءِ مَلَبِسَهُ ؛ ثُمَّ قَوْسٌ مَتَخَذَةٌ مِنْ شَجَرِ الْحِرْمَمِ فَهِيَ مَتِينَةٌ نَادِرَةٌ ، وَهِيَ كَذَلِكَ  
 مَنْسُوبَةٌ مَعْرُوفَةُ الْأَصْلِ ، وَسَهَامٌ طَوَالٌ ، خَفَافٌ ، تَقْذِفُ السُّمَّ ، كَمَا وَصَفَهَا  
 سُوِيدُ الْيَشْكَرِيُّ بِقَوْلِهِ :

وَارْتَمِيَنَا وَالْأَعَادِيُّ شَهَدَ بَنْبَالٌ ذَاتُ سَمٍ قَدْ نَقَعَ  
 هَذِهِ كَانَتْ شِكَّةُ الْفَارَسِ وَعُدَّتِهِ كَمَا قَالَ زَيْدُ الْخَيلِ :

يَوْمَ لَامَالُ لِلْمُحَارِبِ فِي الْحَرَبِ بِسُوِيدِ نَصْرِ أَسْمَرِ عَسَالِ<sup>(١)</sup>

وَلَحَامٌ فِي رَأْسِ أَجْرَدَ كَالْجَذَّ عَطْوَالٌ وَأَيْضَنْ قَصَالِ<sup>(٢)</sup>

(١) الأَسْمَرُ : الرَّمَحُ . العَسَالُ : الَّذِي يَهْتَزُ يَصْفُهُ بِأَنَّهُ لِدَنْ حَتَّى لَا يَنْقَصِفُ .

(٢) أَجْرَدُ : قَصِيرُ الشِّعْرِ وَهِيَ مِنْ صَفَاتِ الْجَوْدَةِ فِي الْحَيْلَةِ . قَصَالُ : قَاطِعُ مِنْ صَفَاتِ السِّيفِ .

وِدِلَاصٌ كَالنَّهْيِ ذات فضول ذاك في حلبة الحوادث مالي<sup>(١)</sup>

أو كما قال مالك بن كعب الخزرجي الأزدي يصف عدته :

عَلَىٰ فَصْفَاضَةٍ كَالنَّهْيِ سَابِغَةٌ وصارم مثل لون الملح مصقول

وَلَدَنَةٌ فِي يَدِ سَمِرَاءِ تَقْلِبُهَا بَعَامِلٍ كَشَهَابٍ النَّارِ مَوْصُولٌ

أو عدة عمرو بن معد يكرب التي يقول فيها :

أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا بَغَةً وَعَدَاءً عَلَنْدِي<sup>(٢)</sup>

نَهْدًا وَذَا شُطَبٍ يَقُ دُّ الْبَيْضَ وَالْأَبْدَانَ قَدًا<sup>(٣)</sup>

ولعلك تخيل فتيان العرب وهم في سلاحهم هذا :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ فِي الْبَيْضِ وَالْحَلْقِ الدَّلَاصِ جَوْمٌ

وَقَدْ يَطُولُ لِبَسِهِمْ هَذِهِ الْعَدَةُ ، فَتَصَدَّأُ عَلَى أَجْسَادِهِمْ ، وَقَدْ تَكُونُ لَهُمْ

رَائِحةٌ كَرِيهَةٌ كَمَا وَصَفَهُمُ النَّابِغَةُ بِقُولِهِ :

سَهِيْكِينَ مِنْ صَدِّ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ السَّنَوَرِ جِنَّةُ الْبَقَارِ<sup>(٤)</sup>

وَالسُّمْكَةُ هِيَ الرَّائِحةُ الْكَرِيهَةُ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ اخْتِلاَطِ الْعَرَقِ بِالْحَدِيدِ

وَصَدَأِهِ ، وَالسَّنَوَرُ السَّلَاحُ التَّامُ . فَكَأَنَّهُمْ بِرَأْتِهِمْ هَذِهِ ، وَسَلَاحُهُمُ الْكَامِلُ

جِنَّةُ وَادِي الْبَقَارِ .

وَكَانَ الْعَرَبُ عَامَةً يَعْنُونَ بِالسَّلَاحِ ، وَيَحْبُّونَ اقْتِنَاءَهُ ، وَيَفْتَنُونَ فِي  
اَخْتِيَارِهِ . وَلَا عَجَبٌ فَإِنَّهُمْ فِي بَيْئَةٍ تَقْدِرُ السَّلَاحَ وَمَنْفَعَتِهِ ، فَفَضْلًا عَنْ أَنْهُمْ

(١) الدلاص : الدرع المنساء ، والنهي : الجدول . ذات فضول : سابغة .

(٢) علندي : غليظ شديد يصف جواده .

(٣) نهدا : ضخماً طويلاً . البيض : الخوذة ، والأبدان : الدروع .

(٤) البار : وادي اشتهر بأن الجن تسكنه .

عدتهم في الحروب ، فإنه جد ضروري لهم في الصيد ، وللصيد في جزيرة العرب منزلته فكثيراً ما يحتاجون إليه لغذائهم ، بل إن منهم من يعتمد عليه في معيشته : يصطادون الظباء وحمر الوحش ، والوعول البرية ، وبقر الوحش وغيرها . وما يدل على عظيم مكانة السلاح عندهم أنهم يقرنونها بأحب شيء لديهم وهو النساء ، ترى ذلك في تشبيهاتهم ، فالقوس إذا رنت وخرج عنها السهم ذكرتهم بالشكل المعولة كما يقول الشافعى :

إذا زَلَّ عنْهَا السَّهْم رَنَتْ كَأْنَهَا      مِرْزَأَةُ شَكْلِ تَرِنٌ وَتُغْوِلُ  
ونظرات المحبوبة تصمى كما تصمى السهام ، والرمح في لدونته وسمنته  
يشبه المحبوبة في عودها . حتى وصفوا المحبوبة بأن قدّها سمهري ، والسميري  
هو الرمح نسبة إلى سمهري صانع الرماح .  
أما السيوف فإذا لمعت فإنها تذكرهم بابتسامة الحببية كما قال عنترة :

وَلَقَدْ ذَكَرْتِكِ الرَّمَاح نَوَاهِلَ      مِنِي وَبِيَضِ الْهَنْد تَقْطُرُ مِنْ دَمِي  
فَوَدِدتْ تَقْبِيلَ السَّيُوف لَأَهْمَارَ      لَمَعَتْ كَبَارِقَ شَغْرَكَ الْمُتَبَسِّمِ  
وَلَكِنْ جَمِهْرَةَ فَتِيَانَ الْعَرَبِ يُؤْثِرُونَ السَّيُوفَ عَلَى سَوَاهِهَا ، وَيَعْدُونَهَا  
أَفْضَلَ أَسْلَحَتِهِمْ :

وَلَوْ سُئِلْتُ عَنَا جَنُوبَ الْخَبْرَتِ      عَشِيَّةَ سَالِتَ عَقْرَبَاءَ بِهَا الدَّمِ<sup>(١)</sup>  
عَشِيَّةَ لَا تَغْنِي الرَّمَاحَ مَكَانَهَا      وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرُفُ الْمَصْمُمُ<sup>(٢)</sup>

وفي ذلك يقول عنترة :

(١) عقرباء : منزل من أرض اليمامة قريب من قرقى .

(٢) المشرف : الأصح أنه نسبة إلى مشارف الشام وهي قرية من الريف الشامي واحدها مشرف مثل خير ودومة الجندي .

أَكْرُ على الفوارس يوم حرب ولا أخشى المهنّدة الرّقاقة  
وتطرّبى سيوف الهند حتى أهيم إلى مضاربها اشتياقاً  
ولقد سأله عُمرُ بن الخطاب عمرو بن معد يكرب عن السلاح ، فقال :  
يسأل أمير المؤمنين عما بدا له . قال : ما تقول في الترس ؟ قال : هو المِجن ،  
وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول في الرمح ؟ قال : أخوك ، وربما خانك  
فأنصف ، قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تخطيء وتصيب . قال : فما تقول في  
الدرع ؟ قال : مثلثة للراجل ، مشغلة للفارس ، وإنها لحصن حصين ، قال :  
فما تقول في السيف ؟ قال : هناك لا أم لك . فضر به عمر بالدّرة ، وقال : بل  
لا أم لك<sup>(١)</sup> .

وما يدل على محبتهم للسيف كثرة الأسماء الدالة عليه ، حتى قاربت  
المائة ، وكانت هذه الأسماء صفات ، والصفات تكثّر لشيء حين تزيد  
العنابة به ، والتغنى بمحامده وآثاره ، ولا عجب فكثيراً ما احتكمو للسيف  
في خصوماتهم كما قال الشميدر الحارثي :

ولكن حكم السيف فيكم مسلطٌ ففرضى إذا ما أصبح السيف راضياً  
ولقد بالغوا في امتداح سيوفهم ، فوصفوها بالحدة ، وقوّة المضاء والقطع ،  
قال النابغة :

فهم يتسلّقون المنية بينهم بأيديهم بيض رقاقُ المضارب<sup>(٢)</sup>  
يطيرُ فضاضاً بينها كل قونسٍ ويتبعُها منهم فراشُ الْحَاوِجِ<sup>(٣)</sup>

(١) العقد الفريد ص ٥٠ . (٢) البيض : السيوف .

(٣) فضاضاً : ما انقض وتفرق ، والقونس : أعلى البيضة التي توضع على الرأس من  
الفولاذ ونحوه . وفراش الْحَاوِجِ : العظام الرقيقة التي تكون في أسفل الججمة فوق الحنك  
والحلق . والضمير في يتبعها يعود على (كل قونس) .

فالسيوف لخدتها ، وقوة ضرباتهم بها تُطير كل بيسنة من الفولاذ قطعا ،  
وبعد أن تطيح بالخوذة تطير العظام الرقيقة للجمجمة ، وليس ذلك فحسب ،  
بل إنها :

تَقْدُّمُ السَّلُوقَ الْمَضَاعِفَ نَسْجُهُ وَتَوْقُدُ فِي الصَّفَاحِ نَارَ الْحَبَابِ<sup>(١)</sup>

في هذه السيوف مضائها ، وشدة الضرب بها تقطع الدروع المضاعفة  
النسج ، تنفذ من بدن العدو ، حتى تصل إلى الأرض فتقديح الشرر من  
الحجارة العراض .

على أن مثل هذه القوة التي مكنت الفارس العربي من أن يقد بحد سيفه  
درع خصمه وينفذ إلى بدنـه حتى تصل ضربته إلى الأرض ، وتقدح بها الشرر  
قد ادعى مثلها لشارلمان « فقد قدّ الفارس وفرسه بضربة من حد سيفه ، مع  
أنه كان لا يلبس درعاً يغطي كل جسمـه من قمة رأسـه إلى أخمـص قدمـيه »<sup>(٢)</sup> .

وكان الفتى العربي إذا رأى أن خصمه قد حاد عن طريقـه ، وتجنبـ  
ظلمـة سيفـه ، هجمـ عليه حتى يصلـ إليه ، وهذا منتهـى الشجاعة والباس . استمعـ  
إلى شاعرـهم يقولـ :

إِذَا الْكُمَاءَ تَنْحَوُا أَنْ يُصِيبُهُمْ  
حَدُّ الظِّبَاءِ وَصَلَنَاهَا بِأَيْدِينَا  
وَزَرَكْبُ الْكُرْهَةِ أَحْيَانًا فَيُفْرِجُهُ  
عَنَا الْحَفَاظِ وَأَسِيافُ تَوَاتِنَا

(١) السلوقي : الدرع نسبة إلى سلوقي من ساحل أطلال كية بالشام ، والدرع مؤشـة وقد تذكر كما هنا . والصفاح : الحجارة العراض . والحباب : ذباب له شعاع بالليل .

Chateaubriand, Etudes Historiques, étude Sixième : (٢)  
Moeurs des barbares.

وإلى الأَخْنَسِ بْنِ شَهَابٍ بْنِ شَرِيقِ التَّغْلِبِيِّ :  
وإنْ قَصَرْتَ أَسِيافُنَا كَانَ وَصْلَهَا خَطَانًا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنَضَارَبَ  
وَفِي الْحَقِّ إِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ كَانَ فِي شَجَاعَتِهِ ، وَاسْتَهْتَارَهُ بِالْمَوْتِ مِنْ قَطْعَهُ  
النَّظِيرِ ، لَوْ رَأَيْتَهُ وَقَدْ حَمِيَ الْوَطِيسُ وَهُوَ يَجُولُ وَيَصُولُ ، وَيَقْتَحِمُ غَمَرَاتَ  
الْمَوْتِ ، وَيَتَحَدِّي أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ فِي جَرَأَةٍ وَقُوَّةٍ لَحْسَبَتِهِ مِنَ الْجَنِّ .

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ الْخَيْلَ تَعْدُو عَوَابِسَ يَتَخَذِّنُ النَّقْعَ ذَيْلًا  
رَأَيْتَ عَلَى مَتَوْنِ الْخَيْلِ جِنًا تَفِيدَ مَعَانِمَا وَتَفِيدَ نِيلًا  
أَوْ كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ :

بَكْلٌ بُحَرَّبٌ كَالْلَّيْثِ يَسْمُو عَلَى أَوْصَالِ ذَيَالٍ رِفْنٌ (١)  
وَجُرْدٌ كَالْقَدَاحِ مُسَوَّمَاتٌ عَلَيْهَا مُعْشَرُ أَشْبَاهِ جَنٍّ (٢)  
أَوْ لَحْسَبَتِهِ أَسْدًا يَدْافِعُ عَنْ أَشْبَاهِهِ وَعَرِينِهِ ، أَوْ بَحْرًا مُتَدَفِّقًا ، أَوْ سِيَالًا جَارِفًا

عَلَى حد قول عوف بن عطية بن الخطير :

أَلَمْ تَرَ أَنَا مِرْدَى حَرُوبَ تَسِيلُ كَأَنَا دُفَّاعُ بَحْرٍ (٣)  
وَنَلْبِسَ لِلْعَدُو جَلُودَ أَسْدٍ إِذَا نَلَقَاهُمْ وَجَلُودَ نَمْرٍ

أَوْ قول خداش بن زهير بن ربيعة :

فَعَاقَنَا السَّكُمَاهُ وَعَاقَنَا عِرَالَكَ الْمُزْءُ وَاجْهَتِ الْأَسْوَدَا  
كَانَ الْفَتَى إِذَا قَوَيْتَ مُنْتَهَهُ ، وَكَمْلَتْ عُدَّتَهُ ، وَلَبَّيَ نَدَاءَ الْوَاجِبِ فِي مَيْدَانِ

(١) الأوصال : ج وصل وهي المفاصل. وذيل : كثير شعر الذيل ، ورفن : طويل الذيل .

(٢) الجرد : الخيل القصيرة الشعر في جسدها وهو من علامه العتق . شبه الخيل الضامرة بالسهام ، ومسومات : معلمات ، لها دراية بالحرب .

(٣) مردى حروب : تقدف بأنفسنا في أتونها المشتعل .

فما في تساق الموت في الحرب سُبَّةٌ على شاربيه فاسقني منه واشر با  
وهذه ظاهرة في الشعوب القوية التي تثبت لبلاء الدهر ، وتصهرها  
الحوادث في بوقتها ، وتعدها الأيام للسيادة والشرف . كان العرب يقاتلون  
تدفعهم حمية شديدة وقلوب جريئة ، وتويدهم مهارة فائقة ، ودربة تامة ،  
وسيف إذا هزوه لم تَكُبْ ، وإذا ضربوا بها لم تَنْبُ ، وتعدو بهم جياد  
معلمة ، وخيوط مطهمة . ولا تراهم ي يكون على من قتل فيهم إبان المعركة  
قتلة الشرف ، مع عظم الفجيعة : لأنه أدى ما تفرضه عليه طبيعة الحياة .

ولا تراهم وإن جلت مصيبيتهم مع البكاة على من مات يبكونا  
وكان بعض الفتىـان لفـرط اعتـدادهـم بـأنفسـهـم ، وـوثـوقـهـم من شـبـجـاعـتـهـم ،  
مع كـثـرة عـدـاهـم ، وـطـلـاب الـوـرـمـنـهـم ، يـعـيـزـون أـنـفـسـهـم بـشـارـات وـعـلامـات  
تـدلـ عليهمـ في حـوـمة القـتـال ، يـتـحدـون عـدـاهـم ، وـمـن يـرـيدـون أـخـذـ الثـأـرـهـم ،  
فـكـأـنـهـم يـقـولـون لـهـم : هـاـنـحـنـ أـوـلـاءـ إـذـا اـسـتـطـعـتـمـ مـعـنـا صـبـرـاً ، أـوـ نـلـمـ مـنـا وـرـأـًـا ،  
أـوـ كـانـتـ لـدـيـكـ الشـبـجـاعـةـ لـقـتـلـنـا . اـسـتـمـعـ إـلـى طـرـيفـ بـنـ قـيمـ يـقـولـ :

أو كلاما وردت عكاظ قبيلة  
 بعثوا إلى عريفهم يتوصّم  
 فتوسموني إنني أنا ذاك  
 شاك سلاحي في الحوادث معلم  
 زغف ترد السيف وهو مثلم (١)  
 تحكي الأغرا وفوق جلدي نمرة

(١) النّثرة : الدرع المتينة . زغف : لينة واسعة محكمة .

أو إلى الحصين بن الحمام المُرّى يقول :

فلاست بمبئاع الحياة بسببة ولا مرتفق من خشية الموت سُلماً  
 ولكن خذوني أى يوم قدرتم على فجزوا الرأس أن أتكلما  
 باية أنى قد فجعت بفارس إذا عرَّد الأقوام أقبل معلمـاً<sup>(١)</sup>

وكانت بعض القبائل تميز نفسها في الحرب بزى خاص ، أو إشارة معينة  
 لتعرف من بين حلفائها ؛ اعتماداً منها بقوتها وبلامـها ، وثقتها بالنصر ، يدل  
 على هذا قول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا  
 أخذن على بعولهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلمـينا  
 ليستبـن أفراسـاً ويضاً وأسرى في الحديد مقرـينا  
 ويدل على ذلك ما روى عن يوم النـتـاء<sup>(٢)</sup> الذي هزمـت فيه قبائلـ  
 غطفان بنـي عامـر . ومن حديثـ هذا اليوم أنـ بنـي عامـر خرجـوا يـريدـونـ  
 غطفـانـ ؛ أخذـاً بـترة قـديـمة ، فأصـابـوا من نـعـمـ عـبسـ وـذـيـانـ ما أـرضـاهـمـ ، ثمـ عـادـواـ  
 إلى دـيـارـهـمـ فـضـلـواـ سـبـيلـهـمـ ، فـي وـادـيـ النـتـاءـ ، وأـرـسـلـواـ رـجـلاـ إـلـىـ قـنـةـ الجـبـلـ عـلـهـ  
 يـكـشـفـ لـهـمـ عـنـ مـسـلـكـ يـهـتـدـونـ بـهـ إـلـىـ دـيـارـهـمـ ، فـرأـىـ فـوـارـسـ يـخـثـونـ خـيـولـهـمـ صـوبـ  
 بـنـيـ عـامـرـ ، فـأـخـبـرـ قـوـمـهـ بـذـلـكـ ، فـقـالـواـ صـفـهـمـ ، فـقـالـ : أـرـىـ قـوـمـاـ كـأـنـهـمـ الصـبـيـانـ عـلـىـ  
 مـتـوـنـ الـخـيـلـ ، أـسـنـةـ رـمـاـحـهـمـ عـنـ آـذـانـ خـيـلـهـمـ ، قـالـواـ : تـلـكـ فـرـزـارـةـ . قـالـ : وـأـرـىـ  
 قـوـمـاـ يـيـضاـ جـعـادـاـ<sup>(٣)</sup> ، كـأـنـ عـلـيـهـمـ شـيـاـبـاـ حـمـراـ ، قـالـواـ : تـلـكـ أـشـجـعـ . قـالـ وـأـرـىـ

(١) عـرـدـ الـأـقـوـامـ : خـامـواـ وـجـبـنـواـ عـنـ الـمـعرـكـةـ وـهـرـبـواـ .

(٢) انـظـرـ خـبـرـ هـذـاـ الـيـوـمـ فـيـ الـعـقـدـ الـفـرـيـدـ جـ ٣ـ ، وـفـيـ اـبـنـ الـأـثـيـرـ جـ ١ـ صـ ٣٩٥ـ وـفـيـ الـأـغـانـيـ جـ ١٠ـ صـ ٣١٣ـ .

(٣) الـجـعـدـ : الـحـقـيفـ مـنـ الـرـجـالـ ، وـقـيـلـ الشـدـيدـ .

قوماً نسوراً ، وقد علوٌ خيولهم آخذين بعوامل<sup>(١)</sup> رماحهم يحرونها . قالوا : تلك  
عَبْسٌ<sup>(٢)</sup> أَتَاكُمُ الْمَوْتَ الزَّوَامَ<sup>(٣)</sup> .

وعلى الرغم من تلك الشجاعة الفائقة البالغة حد التهور ، ومن الاستبسال  
في القتال والحرص على الموت ، والقوة العارمة التي كانت تحرك سيفهم ،  
وتدفع رماحهم ، والمهارة والدربة والخبرة في تفويق السهام والرمي عن القوس ،  
فإن هؤلاء الفتى الذين نبتوا على أديم الصحراء ، وتضيّعوا فضائلهم كما تضيّع  
الخزامي كانوا على شمائل في الحرب تتم عن إنسانية متأصلة ، وعن قدرة عقلية  
غلابة ، تمكنهم من كفحة نزواتهم ، والحد من شرّتهم ، وعدم الاسترسال  
في الانتقام أو الأخذ بالثأر تلبية لنذاء العقل ، أو العاطفة النبيلة ، أو عملاً  
بالتقاليد الحربية المتوارثة ، وهي تقاليد شريفة ، تدل على أريحية ورجاحة بصيرة .

وكان العرب لا يقتلون عيون الأعداء وجوايسهم ، بل يطلقون سراحهم  
إذا أسروه لينبئوا عدوهم بمبلغ قوتهم واستعدادهم ، وهم يصدرون في هذا  
عما كن في قلوبهم من جرأة وتحدى ، ولأن طبعهم يأبى الغدر كما يأبى إلا  
المجاورة بالعداوة :

وَدَسُوا فَارسًا مِنْهُمْ عَشَاءً فَلَمْ نَغْدِرْ بِفَارسِهِمْ لَدِينِهِ  
بل منهم من كان يستنكف أن يطعن خصم المدبر عنه ، والنهزم دونه ؛  
شجاعة منه وكرم نفس .

(١) عامل الرمح وعاملته : صدره دون السنان .

(٢) فزارة وأشجم وعبس : قبائل من غطفان ،

(٣) الزوام : الكريمة .

محرّمة أَكفالُ خيلٍ على القنا وَدَامِيَةُ لَبَاتِهَا وَنَحْورُهَا  
 حرامٌ على أَرْمَاحُنَا طعنٌ مَدْبُرٌ وَتَنْدِقُ مِنْهَا فِي الصَّدُورِ صَدُورُهَا  
 بلْ مِنْهُمْ مَنْ بَكَى عَلَى خَصْمِهِ بَعْدَ مَصْرِعِهِ ، كَمَا بَكَى قَيْسُ بْنُ زَهِيرٍ عَلَى  
 حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرٍ فِي حِروْبِ دَاهِسٍ وَالْغَبْرَاءِ فِي قَوْلِهِ :  
 تَعْلَمُ أَنْ خَيْرَ النَّاسِ مَيْتٌ عَلَى جَفَرِ الْمَبَاءَةِ لَا يَرِيمُ  
 وَلَوْلَا ظَلَمَهُ لَظَلَّتُ أَبْكَى عَلَيْهِ الدَّهَرَ مَا طَلَعَ النَّجُومُ  
 وَفِي قَوْلِهِ :

شَفِيتُ النَّفْسَ مِنْ حَمْلِ بْنِ بَدْرٍ وَسَيِّفَيْ منْ حُذِيفَةَ قَدْ شَفَانِي  
 شَفِيتُ بَقْتَلَهُمْ لِغَلِيلِ صَدْرِي وَلَكُنِي قَطَعْتُ بَهْمَ بَنَانِي  
 بَلْ كَانُوا يَنْصُفُونَ أَعْدَاءَهُمْ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِقُوَّتِهِمْ وَجَلَّهُمْ وَصَبْرَهُمْ ، وَإِخْتَانَهُمْ  
 فِيهِمْ ، وَيَعْالَمُونَهُمْ بَعْدَ الْمَعرَكَةِ مُعَالَمَةَ النَّدِ الْكَرِيمِ لِلنَّدِ الْكَرِيمِ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ  
 الْحَرْبَ سِجَالٌ ، يَوْمَ يَنْتَصِرُونَ فِيهِ ، وَآخِرَ يَكْبُو فِيهِ جَدُّهُمْ . اسْتَمْعُ لِقَوْلِ عَبَّاسِ  
 بْنِ مَرْدَاسِ السَّلْمِيِّ يَنْصُفُ أَعْدَاءَهُ :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حِيًّا مُصْبَحًا<sup>(١)</sup>  
 وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسًا<sup>(١)</sup>  
 إِذَا مَا شَدَّدْنَا شَدَّةَ نَصْبُوا لَنَا<sup>(٢)</sup>  
 صَدُورَ الْمَذَاكِيِّ وَالرَّمَاحِ الْمَدَاعِسَا<sup>(٢)</sup>  
 إِذَا الْخَيْلَ جَالَتْ عَنْ صَرِيعِ نَكْرُّهَا<sup>(٣)</sup>  
 عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعُ إِلَّا عَوَابِسَا<sup>(٣)</sup>

(١) مُصْبَحًا : يَغَارُ عَلَيْهِمْ وَقْتُ الصَّبَحِ ، وَهُوَ وَقْتٌ لَا يَكُونُونَ فِيهِ مُسْتَعِدِينَ لِلِّقْتَالِ .

(٢) الْمَذَاكِيُّ : جَمِذُكُ وَهِيَ الْخَيْلُ التَّامَةُ السَّنِّ ، وَالْكَامِلَةُ الْقُوَّةُ : وَالْمَدَاعِسُ : مِنَ الدَّعْسِ وَهُوَ الطَّعْنُ أَيْ ثَبَتوْا فِي وَجْهِنَا وَنَصَبُوا صَدُورَ الْخَيْلِ وَالرَّمَاحِ لِلِّدَعْسِ .

(٣) لَا نَكْتَفِي بِأَنْ نَصْرَعَ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، بَلْ نَكْرُ عَلَيْهِمْ بِخَيْولِنَا ، فَتَرْجِعُ تَلْكَ الْخَيْلَوْنَ عَابِسَةَ الْوَجْهِ لَا لَاقَتْ مِنَ الْعَنْتِ وَالشَّدَّةِ مِنْ خَصْوَمِنَا .

أو قول عبد الشارق الجهمي :

فَلَمَا لَمْ نَدْعُ قَوْسًا وَسَهْمًا  
مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا  
شَدَّدَنَا شَدَّةً فَقَتَلَتُ مِنْهُمْ  
ثَلَاثَةً فَتِيَّةً وَقَتَلَتْ قَيْنَانًا  
وَشَدَّوْا شَدَّةً أَخْرَى فَجَرَوْا  
بِأَرْجُلِ مَثْلِهِمْ ، وَرَمَوْا جُوَيْنَا  
وَكَانَ أَخِي جَوَيْنِ ذَا حَفَاظَ  
وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زِينَا  
فَأَبَوَا بِالرَّمَاحِ مَكْسَرَاتِ  
وَأَبْنَا بِالسَّيْفِ قَدْ أَنْهَيْنَا  
وَكَانَ الْفَتَى إِذَا وَعَدَ عَدُوَّهُ الْمَهْرَمَ وَعْدًا وَفَىْ بِهِ لَهُ ، كَأَنْ يَكْفُ عنْهُ حَتَّى  
يُشَرِّبَ ، أَوْ حَتَّى يَتَنَاهَى أَوْ رَمَحَهُ أَوْ سَيْفَهُ . فَلَا تَغْلِبَهُ شَهْوَةُ النَّصْرِ لِضَرْبِ  
الْمُضْعِيفِ ، أَوْ الْأَعْزَلِ ، بَلْ يَعْدُ ذَلِكَ نَذَالَةً وَخِسَّةً ، وَزَرَاءَةً بِشَجَاعَتِهِ . وَهَالَكَ  
مَثَلًا نَسْكَنْتُ بِهِ يَدِلُّ عَلَى وَفَاهُمْ ، وَتَحْكِيمُهُمْ فِي عَوَاطِفِهِمْ :  
حَنْقُ عُمَرُو بْنُ الْإِطْنَابَةِ مَلِكُ الْحِجَازِ عَلَى الْحَارِثَ بْنَ ظَالِمٍ الْمُرْسَى لِقَتْلِهِ خَالِدًا  
ابْنَ جَعْفَرِ الْكَلَابِيِّ وَهُوَ نَائِمٌ انتِقامًا لِمَقْتَلِ زَهِيرِ بْنِ جَذِيمَةِ سَيِّدِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ  
عُمَرُو بْنُ الْإِطْنَابَةِ يَتَوَعَّدُ الْحَارِثَ بْنَ ظَالِمٍ :

أَبْلَغَ الْحَارِثَ بْنَ ظَالِمٍ الرُّعَءَ— دَيْدَ وَالنَّادِرَ النَّذُورَ عَلَيْهَا  
إِنَّمَا يَقْتُلُ النَّيَامَ وَلَا يَقْتُلُ يَقْظَانَ ذَا سَلاَحَ كَمِيَّا  
وَمَعِي شِكْكَتِي : مَعَابِلَ كَاجِمَ رَوَأَدَدَتْ صَارِمَا مَشْرِفِيَا<sup>(١)</sup>  
لَوْ هَبَطَتْ الْبَلَادُ أُنْسِيَّتِكَ الْقَتَةَ لَلَّا كَمِيَّا النَّسِيَّ الْفَسِيَّا  
فَلَمَّا بَلَغَ الْحَارِثَ شَعْرَهُ ازْدَادَ حَنْقاً وَغَيْظَأً ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى دِيَارَ بَنِي الْخَزْرَجَ ،  
ثُمَّ دَنَا مِنْ قَبْةِ عُمَرُو بْنِ الْإِطْنَابَةِ ، وَنَادَى أَيْهَا الْمَلَكَ أَغْتَنِي فَإِنِّي جَارٌ مَكْثُورٌ<sup>(٢)</sup> ،

(١) المَعَابِلُ : جَمِيعَ الْمَعَابِلِ وَهِيَ فَصْلٌ عَرِيشٌ طَوِيلٌ يَجْعَلُ فِي السَّهْمِ .

(٢) مَكْثُورٌ : مَغْلُوبٌ .

وَحْدَ سَلَاحَكَ، فَأَجَابَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا بَرَزَ لَهُ عَطْفُ عَلَيْهِ الْحَارِثُ  
وَقَالَ أَنَا أَبُو لَيلَى – مَعْرُوفاً بِنَفْسِهِ – فَاعْتَرَكَ مَلِيأً مِنَ اللَّيلِ، وَخَشِيَ عُمَرُو أَنْ  
يَقْتَلَهُ الْحَارِثُ، فَقَالَ لَهُ : يَا حَارِثُ ، إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ ، وَإِنِّي تَعْتَرِينِي سِنَةً ، فَهَلْ  
لَكَ فِي تَأْخِيرِ هَذَا الْأَمْرِ إِلَى الغَدِ ، فَقَالَ : هِيهَا ! وَمَنْ لَيْ بَهْ فِي غَدٍ ؟ فَتَبَجَّأُوا  
سَاعَةً ، ثُمَّ أَلْقَى عُمَرُو الرِّمْحَ مِنْ يَدِهِ ، وَقَالَ : يَا حَارِثُ ! أَلَمْ أَخْبُرْكَ أَنَّ النَّعَاسَ  
يَغْلِبُنِي ، قَدْ سَقَطَ رَمْحِي فَاقْتُفِي . فَكَفَّ ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُو : أَنْظُرْنِي إِلَى غَدٍ ،  
قَالَ : لَا أَفْعُلُ ، قَالَ : فَدَعْنِي آخِذُ رَمْحِي . قَالَ : حَذْهُ . قَالَ : أَخْشِي أَنْ  
تَعْجَلَنِي عَنْهُ ، أَوْ تَفْتَكَ بِي إِذَا أَرَدْتَ أَخْذَهُ . قَالَ : وَذَمَّةٌ ظَالِمٌ لَا أَعْجَلْتُكَ ،  
وَلَا قَاتَلْتُكَ ، وَلَا فَتَكَتْ بِكَ حَتَّى تَأْخُذَهُ . قَالَ : وَذَمَّةٌ الإِلْطَانَةِ لَا آخْذَهُ ،  
وَلَا أَقَاتَلَكَ . فَانْصَرَفَ الْحَارِثُ إِلَى قَوْمِهِ . وَقَالَ يَرْدُ عَلَى شِعْرِهِ :

هذه هي الشجاعة العربية التي تحلى بها فتيانهم ، وكانت من أبرز صفاتهم :  
شجاعة فيها قوة ، وتحدى لمنية ، وفيها دربة وتفوق في استعمال الأسلحة المختلفة ،  
و فيها إنسانية وكرم وإنصاف للأعداء ، ووفاء للوعد .

وقد ظلت هذه الفضيلة السامية ميزة للجنس العربي في شتى الأقطار التي  
نَرَحَ إِلَيْها بعْدَ الفتحِ الإِسْلَامِيِّ . وَلَمْ يَفْقَدُهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَضَافَرَتْ عَوَامِلٌ عَدَّةٌ عَلَى  
إِصْعَافِهِ وَإِفْسَادِ نَفْسِيَّتِهِ ، وَبَعْدَ عَهْدِهِ بِالصَّحْرَاءِ الْبَيْتِيَّةِ لِهِ .

(١) مهذب الأغانى ج ١ ص ١٣٠

## (٢) الكرم

ومن أبرز الصفات التي يتحلى بها الفتى الكرم . بل إن كثيراً من عرّفوا الفتى عند العرب قائلوا : إنه الشاب السخي الكريم ، والفتوة هي الشباب والكرم .

والكرم من السجايا التي نبتت في الصحراء ، ونمث نمواً طبيعياً ، واحتلت منزلة سامية في نفوس العرب . وهو على ثلاثة أنواع : كرم اليد ، وكرم القلب ، وكرم العقل .

### ١ — كرم اليد

وهو من الصفات التي ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة ، وذلك لأن الحياة في الصحراء — كما ذكرنا آنفاً — فيها قسوة عظيمة على قاطنيها ؛ فكثيراً ما تصح السماء ، وتتجدب الأرض ، ويلوح شبح الفاقة والجوع في بعض أنحاء الجزيرة العربية ، فإن لم يتقدم من عنده فضل من غنى أو زاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجدبة هل كانوا جوعاً ومسغبة .

فعظم العرب الكرم ، لأنهم جميعاً معرضون مثل تلك الحن التي تصيبهم بين آونة وأخرى ، والتي لا يجدون لها حيلة إلا بتقدمة ذوى اليسار والجود لإغاثتهم . فكأنهم بتعظيمهم الكرم ، وتقديمهم الأسفار للرئاسة إنما يدافعون عن كيانهم وحياتهم .

ثم إن الكرم دليل الحرية الخلقية ، والحرية الخلقية هي إرادة المرء

الإعطاء أكثر من الأخذ وهي العناية والتفكير في حياة غيرك من الناس<sup>(١)</sup>.  
ولا شك أن الذى يعطى أكثر مما يأخذ ويعنى بشئون سواه ، ويفكر  
في أمرهم وحياتهم ليرأب ما بها من صدع ، ويسمد ما بها من ثلمات ، ويخفف  
ما هى عليه من بؤس وما تعانى من ألم ، هو المرشح الذى تقدمت به صفاتة  
للرئاسة ، فليس الرئيس سيداً يأمر وينهى ويتحكم ويتملك ، ولكن الرئيس  
الحق هو الذى يحسن القيام على شئون مرسوسية ولذلك شاع بين العرب هذا  
المثل المشهور « سيد القوم خادعهم » .

وإن سيادة الأقوام فاعمل لها صدّاء مطلبه طويل  
أترجو أن تسود ولن تَعْنَى وكيف يسود ذو الدّعة البخيل  
فالرئيس إذاً يجب أن يكون فتى حراً كريماً . وقد مر بنا تعريف  
صاحب الأساس للفتوة بأنها : الحرية والسعادة ، ولعله عنى تلك الحرية الخلقية  
التي وضخناها ؟ فالبيئة الصحراوية الجدبة هي التي رشحت الكرماء للسيادة  
والرئاسة . ثم إن الصحراء العربية متaramية الأطراف ، والسفر فيها شاق عسير ،  
ودروبها مضلة ، ومهما تزود المسافر في طريقه ، فهو عرضة لأن ينفرد زاده من  
طعام وماء ، فإذا صدت في وجهه أحياه العرب التي يأوى إليها هلاك في هذه  
الفيافي ، وانقطع به السبيل .

— وإذا لم يعمل الكرماء على نجدة هؤلاء الذين امتحنوا بنفاد زادهم ،  
أو ضلوا طريقهم وتقطعت بهم السبل ، تعطلت الحياة في الصحراء ، وكسرت  
التجارة ، وزاد الناس ضيقاً في معيشتهم ؛ لأن كثيراً من ملبسهم وما كلهم

(1) Anthropology. by R. R. Marett, P. 241.

وزينتهم ، وألات قتالهم يجلبها التجار من خارج الجزيرة ، كما أن فضل ما ينتجهن من وبر وتمر وغيرها يباع في البلدان المجاورة . فمن مصلحتهم العامة تيسير السبيل على هؤلاء الذين يعبرون الصحراء فرادي وجماعات ، حتى لا يهلكوا جوعاً . ولقد عبرت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائفي في ردها على من لامها على كرمها عن هذا المعنى ، وهو أنها ذاقت الجوع مرة فآلت على نفسها ألا ترد بعد اليوم جائعاً بقولها :

لعمرك قدماً عضني الجوع عضة  
فآليت ألا أمنع الدهرَ جاءعا  
فقولاً لهذا اللامي اليوم أعفني  
وإن أنت لم تفعل فعَصَ الأصابعا

هذا وقد كثرت الحروب بين العرب في سبيل العيش ، فاختلقوا على المرعى والماء ، وزادت حرارة الصحراء في حدة انفعالهم ، واستجابت لهم الدواعي القتال ؛ ولذلك تراهم مغرين أو مغاراً عليهم . وفي الغارات تتعرض نعمتهم للنهب ، فيفقدون بذلك المورد الذي يقوم بأودهم ، وينكبون في مقومات حياتهم . فإن لم يسرع الكرماء لإصلاح حالم تعرضوا للهلاك المبين .

ويظهر فضل الأسيحاء من ذوى اليسار عند طول الحرب ، واشتداد الضائقـة بالمحار بين حتى يملأ القتال ، ولا يدفعهم إلى الاستمرار فيها سوى الجاج والعناـد ، هنالك يتقدم أجود الحـى وعقلاؤـهم فيصلحـون ذاتـ الـبـين ، ويتحملـون دياتـ القـتـلـى بالـغـةـ ما بلـغـتـ حتىـ يـرضـىـ الفـريـقـانـ ، وتحـقنـ الدـمـاءـ ، ويصلـحـ حالـ القـبـيلـتـينـ بعدـ أـنـ أـفسـدـتهاـ الحـربـ .

كل هذه الأسباب جعلت العرب يشيدون بالكرماء ، وينخلعون عليهم بروء الحمد والثناء موشاً مفوقة ، وصار مما يعمل له الفتى العربي أن يكتسب

هذا الحمد وهذا الثناء .

لقد كان الكرم أول الأمر قانوناً فرضته طبيعة الصحراء ، ثم صار سجية متأصلة فيهم ، وفضيلة من الفضائل السامية التي تصدر عن تفكير سليم ، وتوضع في موضعها المناسب . قال : أَكْثُمْ بْنُ صَيْفِي فِي حُكْمِهِ :

« خير السخاء ما وافق الحاجة وخير العفو ما كان بعد المقدرة » .

فليس كرمهم سفها وخرقاً ، أو إسرافاً ، وإنما هو البذل في الوقت الملائم للشخص الحاج إليه ، في الظرف الملائم . وهذه هي الفضيلة التامة ، وهي وسط بين تقىصتين كما عرّفها أرسطو ، فالكرم وسط بين البخل والإسراف ، ولا تكون فضيلة إلا إذا صدرت عن تفكير و اختيار ووضعت في موضعها الملائم لها<sup>(١)</sup> .

لقد كان الكرماء يحودون ، وكان المعنفون والضيوف يثنون عليهم ، ويسجلون هذا الكرم في أشعارهم ، وأهون بزاد يقدم للمحتاجين والعانيين ومن اقطع بهم السبيل ، أو نكبهم الدهر بعد ميسرة ، أو أصابتهم محنـة السماء وجدب الأرض إذا كان جزاً مدحًا يخلد الذكر ، ويرفع الاسم ، ويذيع الشهرة ، ويعلق في المنزلة ، ويبيو صاحبه ذرورة الشرف والرئاسة ، على حد قول شاعرهم :

فأوسعني حمداً وأوسعته قريًّا وأرخص بحمدٍ كان كاسبه الأكل  
ومن الطبيعي أن البخيل الذي يرد قاصده ، وهو لن يلجم إلـا مضطراً ،

(١) راجع : History of Ethics. by Sidgwick P. 61 and The Nicomachean Ethics. Aristotle's Ethics P. 34-36.

لن يسلم من لسانه وسيكون بخله أحداثةً تشيع بين العرب ، فيعرفون أنه خرج  
عل القانون الفطري الذي فيه نجاتهم وحياتهم . ولذلك كانوا يتقدون هذا النم  
ما استطاعوا إليه سبيلا حتى وإن باتوا على الطوى ، وقدموا آخر ما عندهم  
لضيقهم ، كما قال أحدهم :

وَعِرَضَى أَبْقَى مَا ادْخَرْتُ ذَخِيرَةً  
وَبَطْنَى أَطْوِيهِ كَطْيَ رَدَائِيَاً  
أَوْ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْأَهْمَمْ

وَكُلَّ كَرِيمٍ يَتَقَى النَّمْ بِالْقِرْيَ  
لِلْحَقِّ بَيْنَ الصَّالِحِينَ طَرِيقُ  
لِعُمرَكَ مَا ضَاقَتْ بَلَادُ بَاهْلَهَا وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقَ

وَلِيُسَ الْمَالُ فِي ذَاتِهِ غَرْضًا يَهْدِفُونَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يُعْنِ صَاحِبَهُ عَلَى الْكَرَمِ ،  
وَإِغَاثَةِ الْمَهْوَفِ ، وَكَسْبِ الْحَمْدِ ، وَاتِّقاءِ الْمَذْمَةِ ، وَحِمَايَةِ الْعَرْضِ مِنْ أَنْ يَلُوكَهُ  
النَّاسُ حِينَ يَصْفُونَهُ بِالْبَخْلِ وَالْكَرْزَازَةِ . كَمَا قَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابَتَ :

أَصْنُونَ عَرَضَى بِمَالِي لَا أَدْنِسَهُ لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرْضِ فِي الْمَالِ  
أَحْتَالَ الْمَالَ إِنْ أَوْدِي فَأَكْسِبَهُ وَلَسْتُ لِلْعَرْضِ إِنْ أَوْدِي بِمَحْتَالِ<sup>(١)</sup>  
أَوْ كَمَا قَالَ الْآخَرُ :

أَجَلَّكَ قَوْمٌ حِيثُ صَرَتْ إِلَى الْغَنِيِّ  
وَكُلَّ غَنِيٍّ فِي الْقُلُوبِ جَلِيلُ  
وَلِيُسَ الْغَنِيُّ إِلَّا غَنِيٌّ زَيْنُ الْفَقِيِّ  
وَكَثِيرًا مَا لَامُهُمْ نَسَاوَهُمْ عَلَى إِسْرَافِهِمْ فِي الْكَرَمِ ، وَبَيْوَهُمْ فِي حَاجَةِ إِلَى  
مَا يَذْلُونَهُ لِلضِّيَوْفِ ، وَلَقَدْ رَدَ هُؤُلَاءِ الْأَسْخِيَاءِ عَلَى نَسَائِهِمْ بِأَنْ هَلَكَ الْمَالُ فِي

(١) أَوْدِي : ذَهَبَ ، أَيْ هُوَ يُسْتَطِيعُ اسْتِرْجَاعَ الْمَالِ بِالْجُدُودِ وَالْكَدِ ، وَلَكِنَّهُ  
لَا يُسْتَرْجِعُ الْعَرْضَ ، إِذَا طَعَنَ فِيهِ وَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ بِخَلَاهِ

سبيل الضيف — وإن هلك العيال — مفخرة تخلد الإنسان . أما البخل والشح  
وكزيارة اليد فعارٌ أى عار . وليس المال بمخلد صاحبه إذا هو شح به .

ألا بَكْرَتْ مِنْ عَلَىٰ تَلْوِينِ  
ذريني فإن البخل لا يُخْلِدُ الفتى  
تقول ألا أهلكتَ مَنْ أَنْتَ عَائِلَهُ

ويقول آخر لأمه ، وقد عاتبته على جوده :

أريني جواداً مات هَزْلَا لعنى أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مَخْلَداً  
ويقول ثالث ، وقد عذله أهله على كرمه :

بَكْرُ الْعَوَادِ بِالسَّوَادِ يَلْمُنِي جَهْلًا يَقْلُنْ : أَلَا تَرَى مَا تَصْنَعْ ؟  
أَفْنَيْتَ مَالِكَ فِي السَّفَاهَةِ ، وَإِنَّمَا أَمْرُ السَّفَاهَةِ مَا أَعْرَنَكَ أَجْمَعِ

إِلَى أَنْ يَقُولْ :

لَتَتَوَبَ نَاءِبَةُ فَتَعْلَمَ أَنِّي رَمَّانَ يُغَرِّ عَلَى الشَّنَاءِ فَيَخْدُعُ  
إِنِّي مُقْسِمٌ مَا مَلَكْتُ بِجَاعِلٍ أَجْرًا لَا خَرَةَ وَدُنْيَا تَنْفَعُ

ومن أحسن ما قيل في هذا الموضوع قول قيس بن الحيطم ، وقد بين  
أن الحرص لا يغنى الإنسان ، بل إن الجود قد يكون سبيلاً للغنى ، فينموا المال  
ويزداد ، وأن الغنى غنى النفس وإن كان صاحبها فقيراً ، وأن فقر النفس شقاء  
لصاحبها ولو كان ثرياً :

وَلَا يُعْطِي الْحَرِيصُ غَنِيًّا لِحَرَصِ  
غَنِيًّا النَّفْسُ مَا عَمِرَتْ غَنِيًّا  
وَقَفِرَ النَّفْسُ مَا عَمِرَتْ غَنِيًّا  
وَلَيْسَ بِنَافِعٍ ذَا الْبَخْلُ مَالٌ وَلَا هُزْرٌ بِصَاحِبِهِ السَّخَاءُ

ولقد كانوا يجودون لأنهم يتذدون بالجود ، وصنع المعروف ، ويرون

في الكرم لذاته ، بغض النظر عن الثناء والحمد والذكر الحسن ، وذلك  
— طبعاً — حين يصير الكرم عادة وجلة لا يستطيع صاحبه إلا أن يكون  
كريماً ، على حد قول حاتم الطائي :

وقائلة أهلكت بالجود مالنا  
ونفسك حتى ضر نفسك جودها  
فقلت دعنى إنما تلك عادتي  
لكل كريم عادة يستعيدها  
أو على حد قول الآخر :

ولم أر كالمعروف أمّا مذاقه فلو ، وأمّا وجهه فجميل  
ولا ريب أن شعور العربي باللذة والسعادة حين يعطي ، أو يقرى ضيفه ،  
ويزيل ما به من وحشة ، ويطرد ما ألم به من مسغبة وجهد ، يدل على أن عادة  
الكرم قد تأصلت في نفسه ، وأنه لا يجود أداءً لواجب ، أو إطاعة لقانون ،  
أو خوفاً من قبح ، أو طمعاً في مجد ، وإنما يجود لأن الجود يسبح في نفسه  
رغبة ، ويدخل عليها مسرة . وهذه هي الغاية القصوى في تربية الفضيلة ،  
وناهيك بالكرم فضيلة اجتماعية ، تتحタル الشرائع والقوانين على حمل الناس  
عليها ، وتعويمهم إليها ، تارة بالزكاة ، وأخرى بالضرائب حرضاً على منفعة  
المجموع ، وإيجاد مجتمع يسوده الرضا والهناء ، حين يشعر الفقير أنه موضع  
عناية البرى ، وأنه يدفع بعض ماله ليواسيه وبيته ، ويداويه ويعله ، وحين  
يشعر الغنى أنه أدى بعض ما يجب عليه نحو أخيه في الإنسانية والوطن .  
وكثيراً ما احتال الأغنياء على التهرب من دفع الزكاة أو الضريبة ؛ لأن  
نفوسهم لم تعم بعد بهذه الأخوة الإنسانية ، ولم ترق فيهم النزعة الدينية  
أو الوطنية .

أَمَا هَذَا الْعَرَبِيُّ رَبِيبُ الصَّحْرَاءِ فَقَدْ وَصَلَ إِلَى مَا تَطْمَحُ إِلَيْهِ الْيَوْمَ أَرْقَ  
الْجَمِيعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَجْهَدُ هَدْفًا عَزِيزَ الْمَنَالِ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ الْمَادِيِّ ، عَلَى الرَّغْمِ  
مِنْ سُطُوهَةِ الْقَانُونِ وَعَزْتِهِ . لَقَدْ كَانَ لِبَعْضِ هُؤُلَاءِ الْأَجْوَادِ مِنَ الْعَرَبِ فَلَسْفَةَ  
خَاصَّةٍ فِي الْكَرْمِ يَرْدَوْنَ بِهَا عَلَى مَنْ يَلُومُهُمْ وَيَصْدِرُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ ،  
فَهُمْ يَجُودُونَ عَنْ فَكْرَةٍ وَعَقِيْدَةٍ ؟ هَذِهِ الْفَكْرَةُ هِيَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَرَّزَتْ يَدُهُ  
فِي حَيَاتِهِ ، وَأَكْتَنَزَ الْمَالَ ، فَلَنْ يَأْخُذْهُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ مِنْهُ شَيْئًا ، بَلْ سَيَذْهَبُ  
إِلَى الْقَبْرِ صَفَرًا الْكَفَ ، وَأَنَّ مَالَهُ سَيَقْتَسِمُهُ وَارْثُوهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَقَدْ يَسْعَى أَحَدُ  
وَرَثَتِهِ لَا كَتْسَابَ الْحَمْدِ بِالْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ ، بَيْنَمَا هُوَ لَمْ يَكْسُبْ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا الْمَذْمَةَ ،  
وَإِهَاْنَةُ الْعَرْضِ ، فَهُوَ يَشْقَى فِي جَمْعِ الْمَالِ ؛ لِيَنْالَ غَيْرُهُ الْشَّرْفُ وَحَسْنُ الْأَحْدَوْثَةِ  
وَذَلِكَ نِهايَةُ الْحَقِّ فِي نَظَرِهِمْ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْفَكْرَةَ غَيْرُ بَعِيدَةِ الغُورِ ، بَلْ هِيَ مَا يَصْلِي إِلَيْهِ  
كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْغَالِبِ مَا بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ ، إِلَّا أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ لَا يَهْتَمُونَ بِهَا ،  
وَتَغْلِبُهُمْ عَلَى تَصْرِيفِ شَيْوُنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ أَمْوَارُ أُخْرَى ، تَنْسِيهِمْ فِي غُمْرَةِ الْمُعْتَكِ  
الْدُّنْيَوِيِّ وَجَهَادُهُمْ فِي هِيَةِ سَاعَةِ الْمَوْتِ ، وَمَصِيرُهُمْ بَعْدَ الْفَنَاءِ وَتَرْكِ الدُّنْيَا ، فَلَا يَرِدُونَ  
إِلَّا كَرْزاً . وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْطَنُ لِهَذِهِ الْفَكْرَةِ وَلَكِنْ يَكُونُ لَهَا فِي نَفْسِهِ أَثْرٌ  
عَكْسِيٌّ ، فَيَكْبُرُ عَلَى الْلَّذَادَاتِ الْمَهْلَكَةِ ، وَيَبْعَثُ مَالَهُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ  
الشَّمَالِ ، كَمَا فَعَلَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ حِيثُ يَقُولُ :

وَمَا زَالَ تَشْرَبِيَ الْمُهُورَ وَلَذِقَ وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِ طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي  
إِلَى أَنْ تَحَامِتِنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرِدَتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمَعَبِّدِ<sup>(١)</sup> .

(١) الْمَعَبِّدُ : الْأَجْرَبُ .

أَلَا إِيَّاهُدَا الْلَّائِمِي أَحْضَرَ الْوَغْيَ  
وَأَنْ أَشْهَدَ الْمَذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي  
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دُفَعَ مُنْيَتِي  
فَدُعْنِي أَبَدِرُهَا بِمَا مَلَكْتُ يَدِي  
أَمَا مِنْطَقَ الْأَجْوَادِ مِنْ فَتِيَانَ الْعَرَبِ فَهُوَ الْمِنْطَقُ السَّلِيمُ ، وَهُوَ خَيْرُ مَا يَدْلِ  
عَلَى رَقِيمِ الْخَلْقِ ، وَنَظَرُهُمُ الصَّابِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ . اسْتَمِعْ إِلَى حَاتِمِ الطَّائِي يَقُولُ  
هَذِهِ الْفَكْرَةُ فِي وَضْوَحِ وَقْوَةٍ :

فَنَفْسَكَ أَكْرَمَهَا فَإِنْكَ إِنْ تَهُنْ  
عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَى مَدِي الدَّهْرِ مُكْرِمًا  
إِنْهُنْ لِلَّذِي تَهُونِي التَّلَادَ إِنَّهُنْ  
إِذَا مَتَّ كَانَ الْمَالُ تَهْبِيَ مُقْسَماً  
وَلَا تَشْقَيْنِ فِيهِ فَيُسْعَدَ وَارَثُ  
يَقْسِمُهُ غُنَّمَا وَيُشَرِّي كَرَامَةً  
وَقَدْ صَرَّتَ فِي خَطِّ مِنَ الْأَرْضِ أَعْظَمَهَا  
إِذَا نَالَ مَمَا كُنْتَ تَجْمَعَ مَعْنَاهَا  
قَلِيلًا بِهِ مَا يَحْمَدَنَكَ وَارَثُ

وَقَدْ كَرَرَ هَذِهِ الْمَعْنَى فِي غَيْرِ هَذِهِ الْقُصِيدَةِ بِقُولِهِ :

أَمَاوَى لَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَقْتِ  
إِذَا حَسْرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ  
أَمَاوَى إِنْ يُصْبِحَ صَدَائِي بِقَفْرَةِ  
مِنَ الْأَرْضِ لَا مَاءُ لَدِيَّ وَلَا حَمَرُ  
تَرَى أَنْ مَا أَنْفَقْتُ لَمْ يَكُنْ ضَرْنِي  
وَأَنْ يَدِي مَا بَخْلَتُ بِهِ صِفْرُ

هَذَا وَقَدْ بَلَغَ الْعَرَبُ فِي الْكَرَمِ غَايَةً لَمْ تَصْلِ إِلَيْهَا أَمَةٌ مِنَ الْأَمَمِ قَدِيمًا  
وَحَدِيثًا ، فَإِذَا أَعْطَوْا أَعْطَوْا عَلَى الْبَدِيرَةِ ، وَأَسْرَعُوا فِي الْبَذْلِ بِدُونِ تَلُومَ ،  
أَوْ تَسوِيفٍ ، أَوْ بَذْلٍ وَعُودٍ ، وَلَوْلَمْ يَعْرُفُوا السَّائِلَ . وَيَحْتَقِرُونَ مَا مَنْحُوا  
وَلَوْ اسْتَكْثَرُهُ طَالِبُ الرِّفْدِ ، وَفِي ذَاكَ يَقُولُ شَاعُورُهُمْ مَادِحًا فَتَىً مِنْ هُؤُلَاءِ  
الْأَسْخِيَاءِ :

قَدْ كُنْتَ تَعْطِينِي الْجَزِيلَ بِدَاهَةً  
وَأَنْتَ لَمَّا اسْتَكْثَرْتُ مِنْ ذَاكَ حَاقِرَ

ويقول زهير بن عروة المازني :

فنعمَ بنـو العـم والأـقـرـبـون  
 لـدى حـطـمةِ الزـمـنِ الـمـحـلـ(١)  
 ونعمَ الـمـواـسـيـونـ فـي النـائـبـاـتـ  
 تـلـلـجـارـ وـالـمـعـنـىـ الـمـرـمـلـ(٢)  
 ونعمَ الـجـاهـةـ الـكـفـاـةـ الـعـظـيمـ  
 إذا غـائـظـ الـأـمـرـ لـمـ يـحـلـ  
 مـيـامـيـنـ صـبـرـ لـدىـ الـمـعـضـلـاتـ  
 علىـ مـوـجـعـ الـحـدـثـ الـمـعـضـلـاتـ  
 إذا فـضـلـةـ الـزـادـ لـمـ تـبـذـلـ  
 هـمـ سـبـقـواـ يـوـمـ جـرـىـ الـكـرـامـ  
 ذـوـ السـبـقـ فـيـ الزـمـنـ الـأـوـلـ

بلـ كـنـتـ تـرـىـ أـحـدـهـ يـبـشـ وـيـسـرـ ، وـيـتـهـلـلـ وـجـهـ إـذـاـ جـاءـهـ مـنـ يـطـلـبـ  
 مـنـهـ حـاجـةـ ، كـأـنـاـ هـوـ الـذـىـ أـصـابـهـ الـمـعـرـوفـ ، لـاـ الـذـىـ أـعـطـاهـ ، عـلـىـ حـدـ قـوـلـ

زـهـيرـ بـنـ أـبـيـ سـأـمـيـ فـيـ هـرـمـ بـنـ سـنـانـ الـمـرـّـيـ :

وـأـيـضـ فـيـاضـ يـدـاهـ غـمـامـةـ  
 عـلـىـ مـعـنـقـيـهـ مـاـ تـغـبـ فـوـاضـلـهـ  
 تـرـاهـ إـذـاـ مـاـ جـتـتـهـ مـتـهـلـلاـ  
 كـأـنـكـ تـعـطـيـهـ الـذـىـ أـنـتـ سـائـلـهـ

أـوـ قـوـلـ الـآـخـرـ :

وـإـنـكـ لـاـ تـدـرـىـ إـذـاـ جـاءـ سـائـلـ  
 أـنـتـ بـماـ تـعـطـيـهـ أـمـ هـوـ أـسـعـدـ  
 ولـلـعـلـ مـبـعـثـ هـذـهـ الـمـسـرـةـ ، أـنـ الـفـتـىـ الـعـرـبـ يـشـعـرـ — حـينـ يـقـضـدـ النـاسـ  
 رـفـدـهـ — أـنـهـ صـارـ رـكـنـاـ مـكـيـنـاـ مـنـ أـرـكـانـ الـمـجـتمـعـ فـيـ الـقـبـيلـةـ ، أـوـ فـيـ أـحـيـاءـ الـعـربـ ،  
 يـلـجـأـ إـلـيـهـ الـمـرـمـلـونـ وـالـضـعـفـاءـ وـطـلـابـ الـحـاجـاتـ ، وـأـنـهـ سـائـرـ فـيـ طـرـيقـ الـجـدـ الـذـىـ  
 يـوـصـلـهـ إـلـىـ سـيـادـةـ قـوـمـهـ وـرـئـاسـتـهـ ، فـإـذـاـ وـصـلـ إـلـىـ تـلـكـ الـمـنـزـلـةـ حـافـظـ عـلـيـهاـ

(١) حـطـمـهـ بـفـتـحـ الـحـاءـ وـضـمـهـ وـسـكـونـ الـطـاءـ : الـسـنـةـ الشـدـيـدةـ .

(٢) الـمـعـنـىـ : طـالـبـ الـعـطـاءـ ، وـالـمـرـمـلـ : مـنـ لـاـ زـادـ عـنـهـ .

ها وسعه جهده وماليه بالبذل وإرضاء الناس ، فيحمل **الكلَّ** ، ويغيب الملهوف  
ويفك العاني ، ويطعم الفقير ، وينتصف للمظلوم . ذلك لأن السيادة لم تسكن  
مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ،  
لما امتاز به الرئيس من صفات دفعته إلى الصدارة في مجتمعه هذا . ومن أقوى  
هذه الصفات **الكرم** ، لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة  
الوالد الذي يحنو عليهم ، ويرعى شؤونهم .

فلهذا كله كانوا يرحبون بالضيف ، ويسعدون للقياه . كانوا يبشرون  
للضيف أحياناً وهم يعلمون جدَّ العلم أنهم في ضيق وعسر ، وأن ليس في  
استطاعتهم تقديم ما يتکافأ مع أريحتهم ، ولكن البشر والإنسان في  
عرفهم يُذهب الوحشة ، بل هو بعض القرى ، لأن الأمر ليس زادًا يؤكل  
حسب ، وإنما هو إشعار الضيف في هذه الباية الواسعة بأنه نزل بين أهله .  
وقد يكون أهله في ميسرة فيقدمون له طعاماً طيباً ، وقد يكونون في مسيرة  
فيقدمون له ما عندهم ، وقد قال حاتم طيء في هذا :

أضاحك ضيف قبل إنزال رحله ويخصِب عندى والمحل جديب  
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه **الكرم** خصيب  
وتراهم في غاية الأسف والهم والألم إذا نزل بهم ضيف ، وليس عندهم  
ما يقدمونه له ؛ ولعل حادث الخطيئة مع ضيفه الذي سجله في قصيدة المشهورة  
التي مطلعها :

وطاوي ثلات عاصب البطن **مُرْمِلٌ** بيداء لم يعرف بها ساكن رسماً  
أبلغ دليل على تأصل **الكرم** فيهم ، فمع أن الخطيئة وأولاده لم يذوقوا

طعاماً منذ ثلاثة ليال ، ولم يعرفوا للبُرْ مذ خلقوا طعما ، وقد عصب بطنه من الجوع ، وهو بيداء موحشة ليس بها أنيس ، فإنه حين رأى شبح الضيف من بعيد كثرة حزنه ، ولم يعد يفكّر في نفسه وأولاده ، وكيف يحتال لهم ، بل أخذ يفكّر في ضيفه هذا ، ويناجي ربّه عَلَّه يرزقه بما يقرى به ضيفه :

رأى شبحاً وسط الظلام فراغه فلما رأى ضيفاً تشرّم واهماً  
وقال : هيا ربّاً ضيف ولا قريء بحقك لا تحرمـهـ تـالـلـيـلـ اللـاحـمـاـ  
بل أعجب من موقف الحطينة موقف ابنه على حداثة سنـهـ ، وما بهـ من سغـبـ وـنـصـبـ حيثـ قالـ :

وقال ابنـهـ لـماـ رـآـهـ بـحـيـرـةـ أـيـاـ أـبـتـ اـذـبـحـنـيـ وـيـسـرـ لـهـ طـعـماـ  
وـلـاـ تـعـتـذـرـ بـالـعـدـمـ عـلـىـ الذـىـ تـرـىـ يـظـنـ لـنـاـ مـلـاـ فـيـوـسـعـنـاـ ذـمـاـ  
ولقد تعجب بعد هذا موقف الحطينة ، فإنه هم بذبح ابنه إكراماً لضيفه  
لو لا أن رأى قطعاً من الأتن الوحشية عن بعد كما أرسلها العناية الآلهية فداء  
للصبي السكريم :

فروـيـ قـلـيلاـ ثـمـ أـحـجـمـ بـرـهـةـ وإنـ هوـ لمـ يـذـبـحـ فـتـاهـ فقدـ هـمـاـ  
وـبـيـنـاـ هـمـاـ عـنـتـ عـلـىـ الـبـعـدـ عـانـةـ قدـ اـنـظـمـتـ مـنـ خـلـفـ مـسـحلـهـ نـظـماـ  
فـانـظـرـ إـلـىـ أـيـ حدـ بـلـغـواـ فـيـ العـنـيـةـ بـالـضـيـفـ ،ـ وـتـقـدـيـمـهـ عـلـىـ الـأـهـلـ وـالـوـلـدـ ؛ـ  
وـذـلـكـ لـأـنـهـ لـاـ يـأـتـيـهـ إـلـاـ وـهـ مـحـتـاجـ قـدـ عـضـهـ جـوـعـ ،ـ وـاشـتـدـ بـهـ السـعـبـ ،ـ  
وـانـقـطـعـتـ بـهـ السـبـيلـ ،ـ وـأـوـلـادـهـ وـأـهـلـوـهـ يـقـدـرـونـ مـاـ هـمـ فـيـهـ مـنـ ضـنـكـ وـضـيقـ

(١) العانة : القطيع من حمر الوحش . والمسحل : حمار الوحش .

يد ، ولكن هذا الغريب لا يعرف أمرهم على حقيقته ، وقد يظن بهم كرازة  
فيوسعهم ذمًا ، لأنهم اتهكوا قانون الصحراء ، وواجب الرّفد والضيافة .  
واقصة<sup>(١)</sup> حاتم الطائى مع أولاده الذين تركهم ينامون ، وهم يتضاغون  
من الجوع ، وحديشه مع امرأته يعلّلها كى تنام ، ثم مجىء جارته تشکوله  
ما وصلت إليه وأولادها من المسبيحة ، وذبحه فرسه ، وإطعامه الحى جميًعاً ،  
مع معزته لفرسه ، واحتياجه إليها ؟ إِكْرَامًاً لهذه الجارة وأولادها ، وتركه بنية  
وزوجته بدون طعام ، بل تركه نفسه ، وعدم مَسْه شيئًا مما قدمه للحى — لدليل  
على هذا الإيثار العجيب الذى لا نرى له ضريباً إلا بين هؤلاء العرب الذين  
عاشوا في الصحراء ، فعلمتهم كيف يمدون غرائز الـأَثْرَة ، وحب التملك ،  
وحب البقاء .

ولا ريب أن مجتمعاً تسوده هذه الروح ، ويوجد فيه أمثال هؤلاء الكرماء  
الذين يقدرون واجب الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، ويمدون المعوزين  
والمحاجين والمعدمين يد المساعدة بداعم نفسياني ، ووازع إنساني ، ويصدرون  
عن طبيعة خيرة ، ونفوسٍ تأصل فيها النُّبل ، هو مجتمع جدير بأن يسود ،  
ولقد قيل : « إن العرب جمِيعاً أعلناوا الحرب على الفاقة والعوز . شكا المحتاجون  
أمرهم لذوى اليسار والسعفة فطارد هؤلاء الفقر ، وأمطروه وابلاً من سهام كرمهم  
حتى رکع أمامهم طالباً الرحمة ، وردوه على عقبيه ، بعد أن كسوه بالذهب  
والحرير ، واستلوا من صدره البغضاء والحسد ، فصار لسانه يلهج بال مدح  
المستطاب ، والثناء والعطر »<sup>(٢)</sup> .

(١) القصة في العقد الفريد ج ١ .

Wacyf Ghali, Tradition Chevaleresque des Arabes. p. 231 (٢)

كان الأجواد الموسرون إذا أعطوا أعزّوا غَدَقاً لا يُعدُون ، ولا ينظرون  
للمستقبل ولا يفكرون في العواقب ، فلا يبقون على ما بآيديهم . استمع إلى  
النابغة الجعدي يمدح فتى كريماً :

فتى كملت خيراته غير أنه جواد فما يبقى من المال باقياً  
 واستمع إلى آخر كلاماً أثري جاد بالله ، ثم هو يشكو من أن ماله يقصر  
 عن نداه .

إني وإن لم ينسل مالي مدى خلقى كفافى من مال  
لا أحبس المال إلا ريثم أتلفه ولا تغييرنى حاله إلى حال  
 واستمع إلى آخر يمدح فتى كريماً كلاماً أثري تخرق ، وأتلف ماله في الجود  
 فتى إن هو استغنى تخرق في الغنى وإن قلل ماله لم يضره الفقر  
 بل إن أحدهم ليطلب المال حتى ينفقه في سبيل الكرم ، ويكتسب به  
 حسن الأحداث :

كريم رأى الإقتار عاراً فلم ينزل أخا طلب للمال حتى تمويلاً  
 فلما أفاد المال عاد بفضله على كل من يرجو جداده مؤملاً  
 وقال الآخر :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم البخيل  
 وليس معنى هذا أن كل الكرماء كانوا من ذوى الغنى واليسار ، ولكن  
 الكريم عندهم هو الذي يجود ، وما عنده قليل ، ويسخون بكل ما يملك وهو  
 في أشد الحاجة إليه . وهذا أكبر دليل على تأصل صفة الكرم في نفسه ؛ إذ  
 تتنازعها غريزتان قويتان ، حب البقاء وحب التملك ، وهو بانتصار كرمه على

هاتين الغريتين العاتيتين اللتين لها أكبر الأثر في حياة الإنسانية ، يبرهن على سمو نفس ، وقوه عزيمه ، وعلى أنه رجل فضيلة من الطراز الأول . ولهذا ضربوا المثل بكرم هؤلاء العرب الجفاة في صحرائهم ، وتضاءلت فَعَال الخلافة والموسرين فيما بعد أمام كرمهم ؛ لأنهم كانوا يجودون والزاد قليل ، والمآل معدوم ، وليسوا بأرباب سلطان وصوْلجان ، ولقد قال أحدهم :

جُهد المقلّ إذا أعطاك نائمه ومكثُر في الغنى سِيَان في الجود  
لا ، بل إن جهد المقل في نظر النصفين خيرٌ من مكثُر الغنى ؛ لأن الأخير إنما يعطي من فضل ماله ، يعطي وهو يعلم أنه لن يموت مَسْغَبَةً وجوعاً ، ولهذا قال المقنع الـِـكندي فأجاد :

ليس العطاء من الفضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليلٌ  
وقال آخر :

سأقبح من قدرى نصيبياً لجارى وإن كان ما فيها كفافاً على أهلى<sup>(١)</sup>  
إذا أنت لم تُشْرِك رفيقك في الذى يكون قليلاً لم تشاركه في الفضل  
ومن سمات كرمهم أنهم لا يمنون به ، ولا يذكرون صنيعهم ، ولا يفخمونه ،  
بل يحقرونه ، وهم يعلمون أن المن يبطل جميل ما فعلوا ، ويشوّه الخير الذي  
قدموا ، ومن أمثالهم : «أحى معروفك بإماتة ذكره ، وعظمه بالتصغير له»<sup>(٢)</sup>  
ولا يلتبس عليك ما تسمع من فخارهم بكرمهم ، وعدم منهم على من أَكرموه ،

(١) سأقبح : سأغرس وأعطي بالقدر . والـِـكاف : ما يكتف الإنسان عن السؤال ويكون على قدر الحاجة لا يزيد ولا ينقص .

(٢) العقد الفريد ص ٦٥ ج ١ .

فِهِمْ يَفْتَخِرُونَ بِالْكَرْمِ مِنْ حِيثُ هُوَ صَفَةٌ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَسْمَعُ مِنْهُمْ أَبْدًا أَنْهُمْ  
أَكْرَمُوا فَلَانًا ، أَوْ قَدَمُوا يَدَ الْمَسَاعِدَةَ لِفَلَانَ ، بَلْ يَدْعُونَ فَعَلَهُمْ يَعْلَمُ عَنْ  
نَفْسِهِ ، وَيَتَغْنُ بِهِ ضَيْوَفَهُمْ ، وَأَسْرَى أَيْادِيهِمْ . يَفْتَخِرُونَ بِالْكَرْمِ عَامَةً لِيَحْثُوا  
غَيْرَهُمْ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ .

وَلَوْلَا خَلَالَ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرِيَ      بَنَاءُ الْعَلَا مِنْ أَينَ تَؤْتَى الْمَكَارِمِ  
وَلَيَرْهُنُوا عَلَى أَنْهُمْ سَادَةٌ ، وَلَكِنْ لَا يَفْسِدُونَ صَالِحَ أَعْمَالَهُمْ بِذَكْرِ  
حَوَادِثَ مَعِينَةٍ :

الْمَنْعُومُونَ وَمَا مَنَّوْا عَلَى أَحَدٍ      يَوْمًا بَنَعْمَى وَلَوْ مَنَّوْا لَمَا مَانُوا<sup>(١)</sup>

وَقَالَ رَبِيعَةُ بْنُ مَقْرُومٍ يَدْمَحُ مُسَعُودَ بْنَ سَالِمَ بْنَ أَبِي سَلَمَى :

أَسْعَمَ بَنْثَلَكَ لَا حَلَمَّاً وَلَا جُودًا      وَقَدْ سَمِعْتُ بِقَوْمٍ يُحَمِّلُونَ فَلَمْ  
وَمَا أَنْبَىٰ عَنْكَ الْبَاطِلَ الْبِيدَا      وَلَا عَفَافًاً وَلَا صَبَرًاً لِنَائِبَةَ  
يُمْلِفُ عَطَاوَكَ فِي الْأَقْوَامِ مُنْكُودًا      لَا حَلَمَكَ الْحَلَمَ مُوجُودٌ عَلَيْهِ وَلَا

وَقَالَ الْحَطِيَّةُ :

أَوْلَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبَنَاءَ  
وَإِنْ كَانَتِ النَّعَاءُ فِيهِمْ جَزْوًا بِهَا

وَقَالَ ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدْوَانِيُّ :

إِنِّي لِعُمْرِكَ مَا بَابِي بَذِي غَلَقٍ  
وَلَا لِسَانِي عَلَى الْأَدْنِي بِنَطْلَقٍ  
لَا تَخْرُجُ النَّفْسُ مِنِّي غَيْرُ مُغْضَبَةٍ

(١) مَانُوا : كَذَبُوا .

ولقد قالوا : «لالمعروف خصال ثلات : تعجيله ، وتسيره ، وتسريحه »  
 فلن أخل بواحدة فقد بخس المعروف حقه ، وسقط عنه شكره »<sup>(١)</sup> :  
 وعلى من يمنون ، وهم في كثير من الأحيان لا يعرفون الطريق الغريب ،  
 الذي يدل إلى أيةاتهم طالباً الرّفد ، لا يعرفون له اسمًا ولا نسباً ؟ وكيف يمنون  
 وهم معرضون في أن يكونوا في مثل موقفه هذا يوماً من الأيام ، حين تجدب  
 الأرض ، أو تطوح بهم الفيافي والقفار إبان الرحلة ؟ :

ومُستَنْبِحٌ باتَ الصَّدَى يَسْتَهِمُهُ      إلى كل صوت، فهو في الرحيل جائع<sup>(٢)</sup>  
 ققلت لأهلي : ما بُغَام مطية      وسار أضافته الكلاب النواح<sup>(٣)</sup> ؟  
 فقالوا : غريب طارق طوّحت به      متون الفيافي والخطوب الطوارح  
 وهو يضيقهم ولا يفهم ، ويدعونه أباهم ، وليس بينه وبينهم نسب ،  
 ولا يحاول أن يفهم ، وإنما هو يؤدي الواجب بشهامة وأريحيّة ؛ لأنّه  
 لا ينتظر شكرًا على كرمه ، أو لا ينتظرون منهم في مستقبل الأيام جزاء . وإن  
 كانوا سيحفظون له هذه اليد ، وسيتعذّرون بسخائه ، وفي ذلك يقول مُرّة  
 ابن محكان التميمي السعدي :

أدعى أباهم ، ولم أقرّفْ بأعهمْ      وقد تعرّتْ ولم أعرف لهم نسباً

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٥ .

(٢) المستنبح : من يطلب بناح الكلب ليستهدى به في طريقه ، ويستهمه : من تاه يتيه  
 إذا ضل . والجائع : المائل .

(٣) البغام : مد الصوت بالحنين ، وأضافته الكلاب : جاوته على بناحه بناح مثل  
 تدعوه لأن يقدم .

ويقول آخر :

(١) حَضَّاتُ لَهُ نَارٌ ، فَأَبْصِرَ ضُوَءَهَا  
وَمَا كَادَ لَوْلَا حَضَّةً النَّارِ يُبَصِّرُ  
(٢) دَعْتُهُ بِغَيْرِ اسْمِ هَلْمٍ إِلَى الْقَرِي  
فَأَسْرَى يَبْوَعُ الْأَرْضَ وَالنَّارَ تُزَهِّرُ

\* \* \*

ومن مظاهر هذا الكرم :

١ - أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَلَطَّفُونَ مَعَ الضَّيْفِ ، وَيَهْشُونَ لَهُ وَيَبْشُونَ ، وَيَنْزُلُونَهُ  
مَنْزَلَةَ عِيَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَنَاهِيَكُمْ بِمَا لَعِيَالٍ وَالْأَوْلَادِ مِنْ مَنْزَلَةِ الْقُلُوبِ ، وَقَدْ  
قَالُوا فِيهِمْ :

إِنَّا أَوْلَادَنَا يَيْتَنَّ — أَكَبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

استمع إلى جابر بن حيان يقول :

وَمَا وَجَدَ الْأَضِيافُ فِيهَا يَنْوِهُمْ لَهُمْ عِنْدَ عِلَّاتِ الزَّمَانِ أَبَا مَثْلِي  
أَوْ اسْتَمِعْ إِلَى الْحَطِيَّةِ ، وَهُوَ مَنْ هُوَ خَشُونَةٌ وَبَدَاوَةٌ ، وَجَفَاءٌ طَبَعْ :  
فَبَاتِ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشِتِهِ أَبَا لَضِيَافِهِمْ وَالْأَمْ مِنْ بَشَرِهَا أَمًا  
بَلْ ذَهَبُوا إِلَى أَبْعَدِ مِنْ هَذَا ، فَأَنْزَلُوا أَنفُسَهُمْ مِنْ الضَّيْفِ مَنْزَلَةَ الْعَبْدِ مِنْ  
السَّيِّدِ يَتَعَبُّ نَفْسَهُ وَيَجْهَدُهَا فِي سَبِيلِ رَاحَتِهِ ، وَالْقِيَامُ بِشَوْئِنَهُ ، كَمَا قَالَ حَاتِمٌ  
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًاً وَمَا شِيمَةٌ لِّي غَيْرُهَا تَشَبَّهُ الْعَبْدَا  
يَنْزِلُ الضَّيْفَ فَلَا يَسْأَلُونَهُ : مَنْ هُوَ ؟ وَمَنْ أَى الْبَلَادُ أَتَى ؟ وَلَكِنْ  
يَسْرَعُونَ لِإِغْاثَتِهِ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَيَشْعُرُونَهُ مِنْ أَوْلَى وَهَلَةٍ أَنَّهُ بَيْنَ أَهْلِهِ ، كَمَا

(١) حَضَّاتُ النَّارِ : رَفِعَتْهَا لِيَهْتَدِي بِهَا .

(٢) يَبْوَعُ الْأَرْضَ : يَقْطَعُهَا فِي خَطْوَاتٍ سَرِيعَةٍ .

بعيداً عنهم فقدم بعد غيبة ، وعلى طول اشتياق ، من كثرة إيناسهم ، ولطف  
ترحابهم ، كما قال المنّرى :

وداع دعا بعد المدوء كأنما يقاتل أهواه السرى وتقاتله  
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه  
فأبرزت ناري ، ثم أثقبت ضوعها  
وقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً رشدت ، ولم أقعد إليه أسائله  
ولعلك تشعر بالسبب الذى حداهم للترحيب بمثل هؤلاء الضيوف ،  
والإسراع في بحثهم من قول الشاعر : « كأنما يقاتل أهواه السرى وتقاتله »  
فقد كان صوت الطارق ضعيفاً خافتًا ينبع عن جهد وكال ، وكأنه خارج من  
معركة عنيفة ، يقاتل فيها الليل ووحشته ، وبرده ، وضلال الطريق ، ووحش  
الفلاة ، ويقاتل فيها تعب الرحلة والإنجاد والاتهام في البيداء . ولذلك كله  
وجب على من سمع نداءه أن ينقذه ، ويقدم له ما يدخل الطمأنينة على قلبه ،  
ويزيل وحشته ؛ ومن عدم المروءة أن يغوه عن الراحة بالجلوس إليه يسائله .

٢ - ومن مظاهر هذا الكرم أن العرب كانوا لا يخلون على الصيف  
بأعز شيء لديهم ، بل يعمدون إلى أسمى ناقة ، وأكثراها  
شحنا ، وينحرونها له :

فأغضضته الطوئى سناماً وخيراًها      بلاء ، وخير الخير ما يتخير  
فقد جعل هذا الفتى البكرى سيفه بعض أطول نوقة سناماً ، وخيراها  
باء ، وأحسنها نعمة ؟ ومن نعمة الناقة أن تكون كريمة الأولاد ، غزيرة  
اللبن ، سريعة السير .

ويقول مُضْرِس الرَّبِيعي :

وإني لادعو الضيف بالضوء بعدهما  
كسي الأرض نضاح الجليد وجامده  
لأكرمه إن الكرامة حقه وتباعده  
ومثلان عندي قربه وتباعده  
أبيت أعشيه السَّـدـيـفـ وإنـىـ بماـ نـالـ حتىـ يـتـركـ الحـيـ حـامـدـ  
إنه يسعى في سبيل الضيف ، ويحتجبه بناره ، التي يوقدها على الربوات ،  
ليهتدى بها الضال ، ويأنس بها السارى ، في وقت أحلت فيه الأرض ،  
وغطتها الجليد ، ما بين نضاح ، ينزل رذاذاً لبرودة الهواء ، وجامد متساكم .  
إنه يدعوه ليكرمه ، لأن الكرامة من حق هذا السارى في البيداء ، والليل  
مظلم ، والريح قر ، تَقِفُ منها الأعضاء وتيس ، فهو أشد ما يكون حاجة إلى  
نار تدفئه ، وطعم يغذية ، وجليس يذهب وحشته ، وهو يقدم له السيديف  
— أى شحم السنام — وهو أطيب شيء في الناقة ، وإن اقترح الضيف شيئاً  
أعده له ؛ حتى يترك الحي ولسانه يلهج بالحمد ، ويتعين بالثناء ، سوء كان هذا  
الضيف من ذوى قرباه ، أو من طوحت به الفــلــوــاتــ لاــ يــدــنــيــهــ منهــ نــسبــ  
أو جوار .

٣ — ولما كان كثير من العرب كرماء ، ولقاوهم حسناً ، سعي الأجواد  
منهم في أن يتميزوا عن سواهم بجلب الضيوف ، لا ينتظرون حتى يطرق بيتهــمــ  
طارق ، أو يناديــهمــ غــرــيــبــ ، ويطلبــ رــفــدــهــمــ ابنــ ســبــيلــ ، بلــ يــعــمــلــونــ علىــ أنــ  
يدعوا هؤلاء الضيوف بشــتــىــ الوسائلــ :

(١) فــنــ رــتــشبــ عــلــىــ الرــبــيــ والــجــبــالــ لــيــلــاــ ؛ــ لــيــعــلــ مــنــ تــقطــعــتــ  
الــســبــيلــ ،ــ أــوــ نــفــدــ زــادــهــ أــنــ ثــمــةــ قــرــيــ وــنــارــاــ ،ــ وــجــلــيــســاــ أــنــيــســاــ ،ــ وــمــبــيــتــاــ طــيــاــ :

له نارٌ تُشبَّه على يفاعٍ إذا النيراتُ أَكْسبت القِناعا  
ولم يكَ أَكْثَر الفتىَان مالاً ولكنَّ كأنَّ أرجحَهم ذِراعاً  
وهذا حاتم طيءٍ يأمر غلامه يساراً أن يوقد النار على يفاعٍ من الأرض  
في الليلة الباردة ، الشديدة الريح ، فإن جلبت النار ضيقاً فيسأر حُرُّ ؛ لفرح  
حاتم بضيوفه :

أُوقدَ فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرَّ والريح يا واقد ريح صَرَّ<sup>(١)</sup>  
عَلَّ يرى ناركَ من يَمِرَّ إن جلبت ضيقاً فأنتَ حُرُّ  
وقد مرَّ بنا غيرٌ مثل على هذه الوسيلة التي يجلبون بها الضيف .

(ب) ومن كلب يعودونه أن ينبع للضيوف ؟ حتى يهتدوا بصوته ، فإذا  
أقبلوا هشَّ الكلبُ لهم وبَشَّ ، وتلقاهم عن بُعدٍ بالترحاب . ولقد كانوا  
يقلدون صوت الكلب ؛ فإذا ردَّ عليهم تبعوا صوته وهم في ظلمة الليل  
الدامس حتى يصلوا إلى بيوت الحى فيجدون القرى :

وَمُسْتَنْبِحٌ تَسْكَشِطُ الريحُ ثُوبَه  
ليسقطَ عنه وهو بالثوب مُعْجِمٌ<sup>(٢)</sup>  
عَوَى في سواد الليل بعد اعتساوه  
لينبع كلب ، أو ليفرز نُومٌ<sup>(٣)</sup>  
فجاوه مستسمِعُ الصوت للقرى  
له عند إتيان المهيَّن مطعمٌ<sup>(٤)</sup>  
يكاد إذا ما أبصرَ الضيفَ مقبلاً  
يكلمه من حبه وهو أعمجُ

كانت هذه الكلاب تألف الضيوف ، فلا تزعجها ، بل تتود لها ، ولم

(١) قر : بارد ، وصر : شديد البرودة .

(٢) مستنبح : يطلب نباح الكلاب بتقليد أصواتها . تستكشط الريح ثوبه : تحاول  
زرع ثوبه لشدتها . (٣) اعتسف الطريق : ضل .

(٤) المهيَّن : الأضياف الذين يهب القوم للاقائهم .

يكن أصحابها بأقل منها حبًّا لهؤلاء الضيوف ، فلا يسئلون من هم ، وإنما يرحبون

بهم أجمل ترحاب :

يغشونَ حتى ما تهرُّ كلابهم لَا يسئلون عن السواد المقابل

وقال آخر :

ومستنبحٌ تهوي مساقطُ رأسه إلى كل شخص فهو للسمع أصواتٌ<sup>(١)</sup>  
 حبيبٌ إلى كلب الكريم مُناخه بغرض إلى الكوماء ، والكلب أبصرُ  
 إن الكلب يحب نزول الضيف ؛ لأنه سينال من فضل طعامه ، وأما  
 الناقة الكوماء ، العظيمة السنام ، فتبغض نزول الضيف ، لأنها ستُنحرُّ له ،  
 والكلب أبصر منها وأهدى سبيلاً .

وقد كانوا يُعزّون هذه الكلاب ؛ لأنها هذه المهمة الشريفة لديهم ،  
 الأثيرية عندهم ، وهي هداية الضيوف . استمع لرجل يوصى بكلبه ، ويطلب  
 أن يكرم بعد وفاته :

أوصيك خيراً به ، فإن له خلائق لا أزال أحْمَدُها  
 يدلُّ ضيف على في غسل الليمل إذا النمار نام مُوقدها  
 (ح) ومن ذلك أنهم إذا صنعوا زاداً أو طعاماً تلمسوا من يشاركون فيه  
 على حد قول حاتم لأمرأته :

إذا ما صنعتِ الزاد فالمتسى له أكيلًا فإنني لست آكله وحدى  
 أخاف مذممات الأحاديث من بعدي أخا طارقاً ، أو جار بيت فإنتي

(١) المساقط : ج مسقط أى السقوط ، يعني يغسل رأسه إلى كل شخص يقدرها إنساناً ليتجلى إليه لأنه ضل الطريق . والأصور . المائل

(٤) وكانوا يتعرضون للضيوف ، بأن ينصبوا خيامهم على قارعة الطريق  
ليراهما الرأح والغادى ، ويطرقها بيسر كل عابر إن شاء ، كما قال طرفة بن العبد :  
ولست بمحلال التـلاع مخافةً ولكن متى يسترقد القوم أرقد  
أو كما قال غيره :

أغشى الطريق بقبتي ورواقها وأحل في نَشْرِ الرَّبِّي فَأَقِيمَ  
إن اصرأً جعل الطريق ليته طُبْنَاً ، وأنكر حَقَّه لِلثَّمِيم<sup>(١)</sup>  
 فهو يضرب قبته على الطريق ليغشاها ذovo الحاجات ، وطلاب الضيافة ،  
وإن كان يقيم في نَشْرٍ من الأرض ، لأنه أطيب هواء وأصح للبدن ، ومن  
يتخذ الطريق موضعًا يضرب فيه خيمته ، ولا يؤدى حقه من قرى الأضيف  
فهو لثيم ، لأن الناس سيقصدونه ، فإذا رَدَّهُم عَرَضُهُم لِلْخَزْرِي ؛ وذلك منتهى  
اللؤم ، إذ تظاهر بالكرم ، وعمل عَمَلَ الْكَرْمَاء ، وهو ليس منهم .

(٥) ومن العرب من كان ينصب الجفان الواسعة في عرض الطريق ،  
ويملؤها طعاماً طيباً ، ليأكل منها الناس . وكان عبد الله بن جُدْعَان التميمي  
يفعل ذلك ، وفي القاموس : « وربما كان يحضر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
طعامه » ، وكانت لعبد الله هذا جفنة يأكل منها القاسم والراكب لعظمها ، بل  
كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها يوماً صبي ففرق  
ومات<sup>(٢)</sup> .

(١) النَّشْرُ : المرتفع من الأرض ، والطَّنْبُ : حبل البيت ، أى جعل الطريق مكان  
حبل البيت .

(٢) بلوغ الأربع ج ١ ص ٨٩ .

وفي غريب الحديث لابن قتيبة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
« كُنْتُ أَسْتَظْلُ بَظْلَ جَفْنَةً عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُدْعَانَ صَكَّةً عُمَىً » <sup>(١)</sup> ، يعني  
في المهاجرة ، وكان ابن جدعان هذا يملأ جفنته ، ويدعو إليها الناس ، ليطعموا  
منها ، وقد ملاه أمية بن أبي الصلت قوله :

لَهْ دَاعٍ بَكَةً مُشَمِّعَلٌ وَآخَرُ فَوْقَ دَارَتِهِ يَنْادِي  
إِلَى رُدُحٍ مِنَ الشَّيْزِيِّ مِلَاءٌ لُبَابَ الْبُرِّ يَلْبَكُ بِالشَّهَادِ <sup>(٢)</sup>  
وقد لا ينتظرون من يأتي ملبياً دعوتهم إلى هذه الجفان العظيمة التي  
يضعونها على قارعة الطريق ، بل علموا أن بعض الناس متuffف ، يطوى بطنه  
على الجوع طى الرداء ، ويعصب عليها حجرا ، ويقع في بيته لا يشارك الناس  
في الولائم العامة ، فيذهب الأجداد إليه ، ويجدونه مرملاً <sup>(٣)</sup> ، معدماً ، فيخفقون  
بحودهم حزناً ، ويفرجون ضيقه .

استمع إلى المذيل بن مشجعة كيف يسعى إلى هذا الذي آثر أن يلزم  
خباءه ، فيقتسم معه زاده ، وفي السنة المجدبة ، التي تهلك الحرش والنسل يختلط  
إبله الصحيحة بإبل غيره الجربي ؛ كرماً منه وأريحية :

وَمَتِ أَجْئَهُ فِي الشَّدَائِدِ مُرْمِلًا أَلْقَ الذِّي فِي مِزْوَدِي بُوعَاءً <sup>(٤)</sup>

(١) سميت المهاجرة صكة عمى كما روى أبو حنيفة في الأنواء نسبة إلى رجل من عدوان  
اسمه « عمى » وكان فقيه العرب في الجاهلية ، قدم مع قومه حاجاً في وقت شديد الحر ، فقال  
لهم من أتيكم غداً في الظهيرة كان له أجر حجتين فصكوا الإبل .

(٢) المشتعل : النشيط ، والرذح الواسعة ، والشيزى : خشب كانت تصنع منه الجفان  
والشهاد : العسل .

(٣) المرمل : الذي قد نفد زاده .

(٤) المزود : وعاء الزاد .

وإذا تبعت الجلائف ما لنا خلطت صحيفتنا إلى جربائه<sup>(١)</sup>

واستمع كذلك إلى زرعة بن عمرو يقول :

وأرمليه تنوء على يديها من الضراء أو قصص المزال<sup>(٢)</sup>

خلطت بعثها سمني فأضحت شريكة من يعبد من العمال<sup>(٣)</sup>

إن الرجولة الحقة ، والمرؤة الكاملة ، وتأصل السخاء في نفوس فتيانهم وأجوادهم كانت تدعوا أحدهم إلى إياض غيره بما يملك ، ولو كان في ذلك ضره ، وما أحسن أبيات عروة بن الورد العبسى التى يقول فيها :

أتهزا مني أن سمنت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاحد<sup>(٤)</sup>

وإني اعرو عافي إنائي شرفة وانت اعرو عافي إنائك واحد<sup>(٥)</sup>

أقسم جسمى في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد<sup>(٦)</sup>

فهو لفتر ط جوده يؤثر غيره على نفسه ، وقد أجهده القيام بحق سواه ، ومراعاة شئون الناس وإطعامهم : حتى إنه ليقسم جسمه في جسوم كثيرة ،

(١) الجلائف : ج حلية وهي السنة المحببة الشديدة . وكانت الإبل تجرب لجموعها وإذا جربت لا تلد ، ولا تدر لينا فيجوع صاحبها .

(٢) تنوء : تنهض بجهد ، وتعتمد على يديها من الضر الذى لحقها أو دنو الموت منها .

(٣) الغث : المهزول .

(٤) شحوب الحق : لأن الحق وتوفيقه فى إقامته وأداء الحقوق هو السبب فى شحوب جسمه وهزالة : إذ يجوع ليطعم سواه .

(٥) العافى : طالب المعروف ، شرفة : خلق كثير : أى أنها اعرو يقصد أنائي خلق كثير الطعام ، أما أنت فلا يقصد إناءك أحد بل تأكل وحدك .

(٦) أقسام جسمى : أى قوت جسمى . والقراب : الماء الذى لا يخالطه غيره . والماء البارد كنایة عن زمان الشتاء الذى تمس فيه الحاجة إلى الطعام .

ويكتفى بحسو الماء القرابح دون الغذاء إبان الشتاء ، مع أن الجسم في حاجة إلى ما يدفعه ؛ لأنه أطعى طعامه لغيره . فـأى نفس كانت نفس عروة !

ولَا يدْعُ إذا قال عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup> : ما كنت أحب أن أحداً من العرب ولدن إلا عروة بن الورد لقوله هذه الآيات .

ومن أعجب ما روى عن جودهم قصة كعب بن مامّة<sup>(٢)</sup> الإيادي ، وقد كان في سفر مع رفقة له ، فضلوا الطريق ، ولم يبق معهم إلا قليل من الماء فصاروا يتقاسمونه بالحصاة ، يضعونها في الإناء ويصبون فوقها من الماء ما يغطيها حتى يعدلوا في قسمتهم ، فلما أراد كعب أن يشرب نصيبيه رأى زفيقاً له في السفر من التمر بن قاسط يحدّد إليه النظر كأنه يشتهي ما بيد كعب من الماء ، وقد عرف فيه الجود المفرط والسخاء لدرجة الإيثار ، فقال كعب لمن يقسم الماء : أعط أخاك التمرى ، ومضى يومه هذا بدون شرب ، يفتثك به الظاء ، ويشوى حشاً ، فلما كان اليوم الثاني ، وأراد أن يشرب نصيبيه ، فعل التمرى معه فعلته من أمسه ، فآخره كعب على نفسه ، وقال لمن يقسم الماء : أعط أخاك التمرى ؛ ولما أراد القوم الرحيل عجز كعب عن القيام معهم ؛ إذ أضر به العطش وأقعده ، فقالوا : « يا كعب : قد قرب الماء ، فرد معنا فإنك ورّاد » ، ولكن لم يستطع الجواب ، فلعلوا أنه يوجد بروحه في سبيل غيره ؛ حتى ضرب به المثل في الإيثار والجود ، فقال الشاعر :

**كَعْبٌ وَحَاتِمٌ اللَّذَانِ تَقْسِمَا خِطْطَطُ الْعُلَى مِنْ طَارِفٍ وَتَلِيدٍ**

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٦٦

(٢) بلوغ الأربع ج ١ ص ٨١ العقد الفريد ج ١ ص ٨٣ .

هذا الذى خلف السحاب ، ومات ذا  
فِي الجهد مِيتة خَضْرِم صنديد<sup>(١)</sup>  
إِنَّ لَا يَكُن فِيهَا الشَّهِيد ، فَقَوْمُه  
لَا يُسْمِحُونَ بِهِ بِأَلْفِ شَهِيد  
وَقَالَ جَرِيرٌ مدحْ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزَ :  
وَمَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنَ سَعْدِيَ بِأَجْوَدَ مِنْكُمْ يَا عَمَّرُ الْجَوَادِ  
وَفِي مِثْلِ كَعْبِ هَذَا يَصْدِقُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادَ بِهَا      الْجَوَادُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجَوَادِ  
(و) — وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ أَثْرِيَاءُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَأَوْا قَوْمَهُمْ قَدْ مَسَّهُمْ  
الضُّرُّ مِنْ شَدَّةِ الْقَحْطِ ، وَبَرْدِ الشَّتَاءِ ، وَنَدْرَةِ الْلَّبَنِ وَاللَّاحِمِ ، عَمَدُوا إِلَى لَمْبِ  
الْمَيْسِرِ بِالْقَدَاجِ عَلَى جَزُورِهِ ، وَمِنْ رَبْحِهِمْ جَعَلُوا أَجْزَاءَ الْجَزُورِ طَعَاماً لِذَوِي  
الْحَاجَةِ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ . وَلَذِلِكَ افْتَخَرُوا بِالْمَشَارِكَةِ فِي الْمَيْسِرِ ، لِأَنَّهُ وَسِيلَةُ مِنْ  
وَسَائِلِ الْكَرْمِ ، وَإِطْعَامِ ذَوِي الْمَسْغِبَةِ ، وَمِنْ عَضْهُمْ الْفَقْرُ ، وَنَكَاهَمُ الزَّمَانِ .  
وَمِنْ لَا يُسْهِمُ فِي هَذَا ذَمَّهُ ، وَكَانُوا يُسْمِونَهُ بَرَّاً مَا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مَتَمْ بْنُ نُوَيْرَةُ  
يَرْثَى أَخَاهُ مَالِكَأَ :

وَلَا بَرَّاً تَهْدِي النِّسَاءَ لِعِرْسِهِ      إِذَا الْقِشْعُ مِنْ بَرْدِ الشَّتَاءِ تَقْعَدُ<sup>(٢)</sup>  
وَيَقُولُ النَّابِغَةُ الْذِيَّانِيُّ مُفْتَخِرًا :

هَلَّا سَأَلْتَ بْنَ ذِيَّانَ مَا حَسْبِي      إِذَا الدَّخَانَ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرَّاً<sup>(٣)</sup>

(١) الحضرم : الكثير من كل شيء ، والجواد : العطاء والسيد المحمول ، والصنديد : الشجاع أو الشريف الكريم .

(٢) القشع : الجلد اليابس ، وتقعع : صوت من شدة البرد في الشتاء .

(٣) خص الأشmet بالذكر لأنَّه أجزع للبرد من الشاب ، ولو جعله شاباً لكان أبلغ في التعبير عن شدة البرد وأجود في المعنى ، يقول : إنه لا يستحسن نفسه فيتنحنى عن الميسر وفيه إطعام الفقراء .

وهبت الريح من تلقاء ذى أرْلٍ      تُزْجِى مع الليل من صُرَّادها صِرَّاماً<sup>(١)</sup>  
 إنى أتمم أيسارى وأمنحهم      مثني الأيدي وأكسو الجفنة الأدماً<sup>(٢)</sup>  
 ويقول العَرَندس فى قوم من العرب :

هَيْنُون لَيْنُون أَيْسَارٌ ذُوو كرم      سُواسٌ مَكْرُمَةٌ أَبْنَاء أَيْسَار<sup>(٣)</sup>  
 ويقول ليـد فى معلقته :

وجزورِ أَيْسَار دعوتُ لحتفها      بِعَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أجسامُهَا<sup>(٤)</sup>  
 أدعـو بـهن لـعـاقـر أو مـطـفـل      بـذـلت لـجـيرـان الجـمـيع لـحـامـهـا<sup>(٥)</sup>  
 فالـضـيـف وـالـجـارُ الـجـنـيـب كـأـنـهـا هـبـطا تـبـالـة مـحـصـبـاً أـهـضـاعـهـا<sup>(٦)</sup>  
 ويـقـول آخـر :

وإذا تعـذرـت السـوـاعد وـالـتوـت جـالـ المـفـدى وـسـطـهـا المـضـبـوح<sup>(٧)</sup>

(١) الصراد : شدة البرد أو السحاب لا ماء فيه ، وأرل : جبل يبلاد غطفان .

(٢) الأيسار : جـيسـر وـهمـ المـقاـصـرون ، والـيـاسـر : الضـارـبـ بالـقـدـاحـ . يـقـولـ : إـنـ نـقـصـ المـتـقاـصـرونـ أـخـذـتـ ماـ بـقـىـ مـنـهـ فـتـمـتـهـ ، وـمـثـنـىـ الـأـيـادـىـ : أـىـ أـعـطـيـهـمـ نـصـيـبـينـ .

(٣) العـرـندـسـ : أحـدـ بـنـيـ بـكـرـ بـنـ كـلـابـ ، وـسـوـاسـ مـكـرـمـةـ : أـىـ يـرـوضـونـ الـسـكـارـمـ وـيـلـونـ أـمـرـهـاـ .

(٤) لـحـفـهـاـ : لـنـحـرـهـاـ ، وـمـغـالـقـ : الـقـدـاحـ . وـمـتـشـابـهـ أجـسـامـهـاـ : كـلـهـاـ عـلـىـ قـدـرـ وـاحـدـ .

(٥) بـهـنـ : أـىـ بـهـنـهـ الـمـغـالـقـ وـالـقـدـاحـ . وـعـاقـرـ : النـاقـةـ الـتـىـ لـاـ تـلـدـ ، وـمـطـفـلـ : ذاتـ الـوـلـدـ وـعـاقـرـ أـسـمـنـ وـمـطـفـلـ أـغـلىـ ، وـالـلـاحـامـ : جـلـ حـمـ .

(٦) الضـيـفـ : الـنـازـلـ غـيرـ الـقـيمـ ، وـالـجـارـ الـجـنـيـبـ : أـىـ الـجـارـ الـذـىـ لـجـأـ إـلـيـهـ وـمـزـلـهـ بـجـوارـهـ ، وـتـبـالـةـ اـسـمـ مـوـضـعـ كـثـيرـ الـحـصـبـ بـالـيـمـينـ : وـالـهـضـمـ : الـمـطـئـنـ مـنـ الـأـرـضـ وـالـجـمـعـ الـأـهـضـامـ وـالـهـضـومـ .

(٧) السـوـاعدـ بـحـارـىـ الـبـنـ فىـ الـضـرـعـ . إـذـاـ تعـذـرـ الـبـنـ لـشـدـةـ الـقـحـطـ جـالـ المـفـدىـ يـعـىـ الـقـدـحـ ، وـالـمـضـبـوحـ : الـذـىـ ضـبـحـ مـنـ أـثـرـ النـارـ ؟ لـأـنـهـ يـقـومـ بـهـاـ .

أَغْلَى بِهِ رَخْوُ الْإِزَارِ مُعَذَّلٌ فَغَدَا يُنَاهِرُ لَهُ دَمٌ مَسْفُوحٌ<sup>(١)</sup>

وَيَقُولُ مَتَمَّ بْنُ نُوَيْرَةَ :

إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ الْقَدَاحَ وَأَوْقَدَتْ لَهُمْ نَارًا أَيْسَارٌ كَفِي مِنْ تَضَبَّجَّا<sup>(٢)</sup>

وَيَقُولُ الْفَنَوِيُّ :

إِذَا شَهَدَ الْأَيْسَارُ أَوْ غَابَ بَعْضُهُمْ كَفِيَ الْحَيَّ وَضَاحُ الْجَبَينِ أَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

هذا بعض ما عساه يقال في كرم اليد لدى عرب الجاهلية ، وَكَرْمُ الْيَدِ أوضح صفات الفتوة ، وَأَكْبَرُ دليل على كفاءة الْكَرِيمِ لسيادة قومه وَتَرَعُّمِهِمْ فَزُوِّيْغُهُمْ إِذَا نَكَأُهُمْ الزَّمَانَ . كَأَنَّهُ سَبِيلُ السَّمَاءِ ، وَيَمْلِئُونَ عَلَيْهِ إِذَا دَارَتْ بِرَءَوَهُمْ حَوَادِثُ الْأَيَامِ ، فَأَفْقَدُهُمْ توازنَهُمْ ، كَأَنَّهُ الْحَصْنُ الرَّكِينِ ؟ وَهُوَ يَحْنُو عَلَيْهِمْ فِي شَفَقَةٍ وَرَقَّةٍ وَحَدْبٍ كَمَا يَحْنُو الْأَبُ الرَّحِيمُ عَلَى فَلَذَاتِ كَبْدِهِ ، وَلَلَّهُ دَرَّ مَنْ قَالَ يَصِفُّ أَخَاهُ الْفَتَى الْكَرِيمَ :

وَكَانَ أَخِي زَعِيمَ بْنِ حَيَّيْ وَكُلَّ قَبْيَلَةٍ لَهُمْ زَعِيمٌ  
وَكَنْتُ إِذَا الشَّدَائِدَ أَرْهَقْتَنِي يَقُومُ بِهَا وَأَقْعَدَ لَا أَقُومُ

(١) أَغْلَى : أَخْذَ بِهِ سَهَاماً كَثِيرَةً لِكَثْرَةِ فَوْزِهِ وَلِنَذْكُورِ سَمَى المَفْدِى لِمَا يَتَكَرَّرُ لَهُ مِنْ الْفَوْزِ ، وَرَخْوُ الْإِزَارِ : كَنْيَاةُ عَنِ الْفَتَى لِأَنَّ لِإِزَارِهِ فَضْلَةً يَجْرِيْهَا ، وَمُعَذَّلٌ أَى يَعْذَلُ كَثِيرًا عَلَى الإِنْفَاقِ . فَغَدَا : أَى الْقَدْحُ يَعْلَمُ لَهُ دَمُ النَّاقَةِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا .

(٢) مِنْ تَضَبَّجَّ مِنَ الْفَتَيَانِ وَلَمْ يَأْخُذْ مَا بَقِيَّ ، أَخْذَ هُوَ مَا بَقِيَ حَتَّى يَتَمَمُهُمْ ، وَالتَّضَبَّجُ : التَّكَاسُلُ وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْعَمَلِ .

(٣) راجِمُ بَلْوَغُ الْأَرْبَعِ ج١ ص٧١ وَج٣ ص٥٥ وَكِتَابُ الْمُيسِرِ وَالْقَدَاحِ لَابْنِ قَتِيْبَةَ ص٥٦ ، وَمِعْجمُ الْبَلْدَانِ لِيَاقُوتَ ج١ ص٢٨٢ .

وهاك ما يقوله الحطيئة في ابن حصن :

فدىً لابن حِصْنٍ ما أرِيحُ فِيَهِ ثِمَالُ الْيَتَامَىِ صَمَّةُ فِي الْمَهَالِكِ  
واستمع إلى عبد المسيح يصف ابن كلال :

نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى أَيْنَا  
نَقْلَبُهُ لِنَخْبُرُ حَالَتِيهِ فَنَخْبُرُ مِنْهُمَا كَرْمًا وَلِيْنَا  
وَإِذَا كَانَ الْكَرْمُ سِمَّةً وَاضْحَةً مِنْ سَمَاتِ الْفَتْوَةِ قَلَمَا يَكُونُ الْكَرِيمُ  
غَيْرَ شَجَاعٍ ، إِذَا الشَّجَاعَةُ وَالْكَرْمُ مُتَلَازِمَانْ ؛ فَالشَّجَاعَ يَقْدِمُ عَلَى الْخَطَرِ مُضْحِيًّا  
بِقُوَّتِهِ بَلْ بِنَفْسِهِ ، وَالْكَرِيمُ يَضْحِي بِمَالِهِ ، وَالنَّفْسُ وَالْمَالُ أَغْلَى مَا يَحْرُصُ  
عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ . وَكَثِيرًا مَا تَعْنَى الشَّعْرَاءُ بِهَا تِينَ الْأَخْلَقَيْنِ مُجَمِعَتِينَ ، كَمَا قَالَ  
عَنْتَرَةَ :

وَلَمَوْتُ خَيْرَ الْفَقِيْهِ مِنْ حَيَاتِهِ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِلأَمْرِ إِلَّا بِقَائِدٍ  
فَعَالِجْ جَسِيَّاتِ الْأَمْرِ وَلَا تَكُنْ هَبَيْتَ الْفَوَادَ تَهَمَّهُ لِلْوَسَائِدِ<sup>(١)</sup>  
كَفِيْ حَاجَةَ الْأَضِيافِ حَتَّى يُرِيحَهَا  
تَرَاهُ بِتَفْرِيجِ الْأَمْرِ وَلَفَّهَا  
وَلِيُسْ أَخْوَنَا عِنْدَ شَرِّ يَخْافِهِ  
إِذَا قِيلَ مَنْ لِلْمَعْضُلَاتِ أَجَابَهُ  
عَظَامُ اللَّهِيْ مِنَا طَوَالُ السَّوَاعِدِ<sup>(٣)</sup>  
لَا نَالَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرَ زَاهِدٍ  
وَلَا عَنْدَ خَيْرٍ إِنْ رَجَاهُ بِوَاحِدٍ

(١) الهبيت الفواد : الضعيف .

(٢) أروع : كريم .

(٣) اللهى : أجزل العطايا ، وطوال السواعد : كناية عن الكرم .

فعنترة يرى أن الفتى يجب أن يهرب إلى الخير مليباً نداءه من تلقاء نفسه  
لا أن يقوده قائد فإذا كان في حاجة إلى قائد يقوده للخير ، أو يدفعه إليه دفعاً  
فأولى له أن يموت .

وينصح عنترة الفتىان بمعالجة الأمور العظيمة ، حتى يتمرسوا بالحياة ، وتعلو  
همتهم ، ويختطوا في سبيل الشرف والسيادة خطوات تقر لهم من الذروة ،  
ويحذرهم من التحول ، والاستكانة إلى اللهو ، والجلوس لدى النساء .

وأخذ يصف كيف يقوم الفتى الحق بشئون قومه ، فهو يتبعه ضيغاف الحى ،  
ويفرج الكرب ، ويُهْرِع للمضلات ، ويساعده في الشر والخير رجال قبيلته ،  
فكالهم سيد شريف حتى إذا قيل : من للأمور الجسيمة والشدائـد ، والسنوات  
المجدية ؟ لبى النداء رجال عظام العطايا تندى أكفهم بالخير .

واستمع إلى آخر يصف الكرم والشجاعة معاً<sup>(١)</sup> :

يلقى السيف بوجهه وبسحره ويقيم هامته مقام المغفر<sup>(٢)</sup>  
ويقول للطرف اصطب لشـبـا القنا فعـرـت رـكـنـ المـجـدـ إنـ لمـ تـعـرـ<sup>(٣)</sup>  
وإذا تـأـمـلـ شخصـ ضـيـفـ مـقـبـلـ مـتـسـرـبـ أـثـوابـ عـيشـ أـغـبرـ  
أـوـماـ إـلـىـ الـكـوـمـاءـ هـذـاـ طـارـقـ نـحـرـتـنـ الـأـعـدـاءـ إـنـ لمـ تـنـحـرـىـ<sup>(٤)</sup>  
وهـاكـ آخـرـ يـصـفـ فـتـيـ كـرـيمـاـ شـبـاعـاـ :

كرـيمـ يـغـضـ الـطـرـفـ فـضـلـ حـيـاـهـ وـيـدـنـوـ وـأـطـرافـ الرـمـاحـ دـوـانـيـ

(١) أمالى ج ١ ص ٤٣ . (٢) المغفر : الخوذة .

(٤) الطرف : الجناد . (٣) الكوماء : الناقة السمينة .

وكالسيف إن لا ينته لان متنه وحداه إن خاشنته خشنان

وقد أبدع سليمي بن ربيعة إذ وصف نفسه بصفات الفتوة مجتمعة في قوله<sup>(١)</sup>

· يخاطب امرأته :

ترِبتْ يدِاكِ وهل رأيتْ لقومه مثلي على يُسرى وحين تَعلَّتِ<sup>(٢)</sup>

رجلًا إذا ما النَّائِبَاتُ غَشَّيْنَهُ أَكْفَى لِمُضْلِعَةٍ وإن هِي جَلتِ<sup>(٣)</sup>

ومناخ نازلة كَفِيتُ ، وفارس نَهَلتُ قَنَاتِي من مَطَاهُ وَعَلَتِ<sup>(٤)</sup>

وإذا العذاري بالدُّخان قَنَنَتْ واستعجلتْ هَزْمَ القدر فَلَتِ<sup>(٥)</sup>

دارت بأَرْزَاقِ الْعُفَاءِ مَغَالِقُ بِيَدَيَّ من قَمَعِ الْعِشَارِ الْجَلَّةِ<sup>(٦)</sup>

ولقد رَأَبْتُ ثَائِي العشيرة يينها وكَفِيتُ جانبها اللَّتَّيَا وَالَّتَّيَا<sup>(٧)</sup>

وَصَفَحْتُ عن ذِي جَهْلِهَا وَرَفَدْتُهَا نُصْحِي وَلَمْ تُصِبِ العشيرة زَلَّةً<sup>(٨)</sup>

وَكَفِيتُ مولاي الأَجَمَ جَرِيرَى وَحَجَبْتُ سَائِمَتِي على ذِي الْخَلَّةِ<sup>(٩)</sup>

(١) أمالى ج ١ ص ٨١ .

(٢) تربت يداك : صارت في التراب أى خسرت ، وحين تعلق : حين فقرى .

(٣) مضلعة : أمر شديد يتصل صاحبها أى عيله لا وقوع . وجلت : عظمت .

(٤) مطاه : ظهره ، والنهل : الشرب للمرة الأولى ، والعلل الشرب للمرة الثانية .

(٥) هزم القدر : صوت غلينها .

(٦) العفاة : طلاب العطاء ، والمغالق . سهام الميسر سميت بها لأن بها يغلق الحظر وهو السبق الذي يراهن عليه ، والقمع : الأستئمة واحدتها قمعة ، والعشار : ج عشراء وهي التي أتت عليها عشرة أشهر من جملها ، والجلة الكثيرة .

(٧) الثائى : الفساد ، ورأبت : أصلحت .

(٨) الأجم : الذي لا رمح معه ، والخلة : الحاجة .

ومثله قول رجل من بنى فزاره :

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ قَوْمًا إِنْ سَأَلْتُهُمْ أَعْطَوْا وَإِنْ قَلْتُ يَا قَوْمَ انْصَرُوا نَصَرُوا  
وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ نَعَاءٌ سَابَقُهُمْ لَمْ يَبْطُرُوهَا وَإِنْ فَاتَهُمْ صَبْرُوا  
الْكَاسِرُونَ عَظِيمًا لَا جُبُورَ لَهَا  
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الشَّمَانِخَ بْنُ ضَرَارٍ :

وَأَشَعَثَ قَدْ قَدَ السَّفَارُ قَيْصَرَهُ يَحْرُ شِوَاءَ بِالْعَصَاصِهِ كَرِيمٌ مُنْضَجٌ  
دَعَوْتُ إِلَى مَا نَابَنِي فَأَجَابَنِي كَرِيمٌ مُزَلْجٌ<sup>(١)</sup>  
فَتَيْ يَلَأُ الشَّيْزِيُّ وَيُرْوِي سَنَانَهُ وَيُضَرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمَدْجَجَ  
فَتَيْ لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنِي مَعِيشَتَهُ وَلَا فِي بَيْوَتِ الْحَىِ الْمَتَوَلْجَ<sup>(٢)</sup>  
وَمَا أَحْسَنَ قَوْلُ الْحَطِيَّةِ فِي الْفَتَيَانِ الْكَرَمَاءِ الشَّجَاعَانِ :

أُولَئِكَ آبَاءُ الْغَرِيبِ وَغَاثَةُ الصَّرِيخِ وَمَأْوَى الْمَرْمَلِينَ الدَّرَادِقَ<sup>(٣)</sup>  
هَذَا وَأَمَامِي فِيضٌ زَاهِرٌ مِنْ أَقْوَالِ الشَّعَرَاءِ الَّذِينَ مَدْحُوا الْفَتَيَانَ الْأَجَادِ  
بِالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ مَعًا ، وَلَسْتُ بِمُسْتَطِيعٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ تَسْجِيلُ كُلِّ مَا قِيلَ ،  
وَحَسْبِي مَا اخْتَرْتُهُ هُنَا لِأَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْفَتَيَ ، وَهُوَ الْكَامِلُ الْجَذِيلُ مِنَ الرِّجَالِ  
كَذَ كَرَنَا آنَفًا يَحْبُّ أَنْ تَتَوَفَّ فِيهِ مِنْ خَلَالِ الْفَتْوَةِ الْكَثِيرَةِ خَلْتَانُ شَرِيفَانِ هَمَا  
الشَّجَاعَةِ وَكَرَمِ الْيَدِ .

(١) المزلج : الناقص المروءة .

(٢) المتولج : الذي يدخل البيوت ويلزمها .

(٣) المرمل : الفقير ، والدرادق : الصغار .

## ٢ — كرم القلب

عرفنا الفتى العربي فيما سلف من هذا الكتاب شجاعاً، سمحاً، كريماً يديه .  
ولكنه لا يتحلى بهذه الخلال الكريمة فحسب ، بل يجب أن يتصرف بالحلم ،  
وكرم القلب ، وسعة الصدر؛ ليكون قتي قومه .

وكرم القلب صفة مميزة لكتبار الرجال ، الذين تصغر في عيونهم الحوادث  
عهـما جل شأنـها ، وعظم خطرـها لدى الـدهـاء ، وهو دليل ناصـع على أنـ كـرـيمـ  
الـقـلـبـ قد بلـغـ في مـدـارـجـ الإـنـسـانـيـةـ مـرـتـبـةـ عـالـيـةـ ؛ لأنـ الغـضـبـ ، وـشـدـةـ الـانـفـعـالـ  
وـحـدـةـ الطـبـعـ ، والـثـورـةـ الجـامـحةـ التـيـ لاـ يـسـيرـهاـ عـقـلـ ، وـلاـ يـضـبـطـهاـ تـفـكـيرـ ، تـنـزـلـ  
بـإـلـاـنـسـانـ إـلـىـ عـرـتـبـةـ الـحـيـوانـ الـذـيـ تـسـيـطـرـ عـلـيـهـ القـوـةـ الغـضـبـيةـ ، وـالـغـرـأـبـ الـدـنـيـاـ .

إن تحكم الإنسان في عاطفته ، وقهـرـ نفسه — وما أصعبـ قـهـرـهاـ —  
يتطلبـ إـرـادـةـ صـارـمـةـ ، وـعـزـيمـةـ قـوـيـةـ صـلـبـةـ ، وـمـرـانـاـ طـوـيـلـاـ مـرـيـراـ علىـ كـبـحـ  
جمـاحـ شـهـوـاتـهـ ، وـهـذـهـ فـتـوـةـ وـبـأـسـ لـاـ يـصـلـ إـلـاـ ذـوـ النـفـوسـ الـعـالـيـةـ التـيـ  
تـنـأـيـ بـمـنـزـلـتـهاـ عنـ دـنـيـاـ الـدـهـاءـ ، وـتـنـتـطـلـعـ إـلـىـ الشـرـفـ وـالـسـوـدـدـ . ولـذـلـكـ جـعـلـ  
الـحـلـمـ مـنـ أـمـمـ الشـرـوـطـ التـيـ يـجـبـ أـنـ يـتـصـفـ بـهـ رـئـيـسـ الـقـبـيلـةـ ، وـصـارـ مـنـ الـأـمـثالـ  
الـعـرـبـيـةـ الـخـالـدـةـ : «آلـةـ الرـيـاسـةـ سـعـةـ الصـدـرـ» . وـذـاكـ لـأـنـ رـئـيـسـ الـقـبـيلـةـ أـبـ  
لـأـفـرـادـهـ ، وـيـجـبـ أـنـ يـنـظـرـ إـلـىـ أـمـثـلـهـمـ وـأـخـطـأـهـمـ نـظـرـةـ الـأـبـ إـلـىـ أـخـطـاءـ أـبـنـائـهـ ؛  
وـلـأـنـهـ قـاضـ يـفـصـلـ فـيـ مـشـكـلـاتـهـ ، وـلـوـ كـانـ سـرـيعـ الـانـفـعـالـ ، ضـيقـ الصـدرـ ،  
حـادـ الطـبـعـ ، جـاءـتـ أـحـكـامـهـ غـيرـ مـتـزـنةـ وـلـاـ عـادـلـةـ .

قال<sup>(١)</sup> معاوية بن أبي سفيان لعرابة بن أوس بن حارثة الأنباري : بأى  
شيء سدت قومك يا عَرَابَةَ .

قال : بأى كنت لهم كا كان حاتم لقومه .

قال : وكيف كان ؟

فأنشدَه :

وأصبحتُ في أمر العشيرة كلها كذى الحلم يرضى ما يقول ويُعرفُ  
وذاك لأنى لا أعادى سرّاً لهم ولا عن أخي ضرّاً لهم أنسِكْفُ  
وإني لاعطى سائلٍ ولربما أكْلَفُ ما لا أستطيع فاكْلَفُ  
وإني مذمومٌ إذا قيل حاتم بنا نبؤة . إنَّ الْكَرِيمَ يُعَنِّفُ  
وعَرَابَةَ الأُوسِيَ هذا هو الذي قيل فيه :

إذا ما رأيْتُ رُفْعَتْ لجَدْ تَلَقَّاهَا عَرَابَةَ باليمين

إنَّ الْحَلِيمَ كَرِيمَ الْقَلْبَ ، لأنَّه يبذل رِقَّتَه ، وعفوه ، ويظهر احتمالاً  
للشدائِد في وقت ينتظر منه الغلظة ، والانتقام ؛ ولأنَّه يضحي بشهوة نفسه ،  
ورغبتها العارمة على مذبح السيادة والشرف .

استمع إلى معن بن أوس كيف يغالب شهوة نفسه ، ويكتظ غيظه ،  
ويحمل حين الشدة ، ويصفح حين الإساءة<sup>(٢)</sup> :

وذى رَحَمٌ قَلَمَتْ أَظْفَارَ ضِغْنِي بِحَلْمٍ عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

(١) أمالى ج ١ ص ٢٧٤ . (٢) الأمالى ج ٢ ص ١٠٢ .

فَإِنْ أَعْفُ عَنْهُ أَغْضِ عَيْنًا عَلَى الْقَدْرِ  
وَلَيْسَ لَهُ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ  
فَمَا زَلتُ فِي لِيفِي لَهُ وَتَعْطُنِي  
وَخَفْضِ لَهُ مِنِي الْجَنَاحَ تَأْلِفًا  
لِتَدْنِيَهُ مِنِي الْقَرَابَةِ وَالرَّحْمُ  
وَكَظْمِي عَلَى غَيْظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ  
وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءِ مِنْهُ تُرِينِي  
وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنِ يَضْيقُ بِهِ الْجَرْمُ  
لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الصَّغْنَ حَتَّى اسْتَلَّتِهِ  
وَمَعْنَ بْنُ أَوْسَ هَذَا هُوَ الْقَائِلُ<sup>(١)</sup> ، مِنْ قَصِيدَةِ لَهُ يَعَاذُ بِهَا صَدِيقًا أَسَاءَ ،  
وَيَحْذِرُهُ عَاقِبَةَ جَهَلِهِ وَسُفْهِهِ :

وَإِنِّي عَلَى أَشْيَاءِ مِنْكَ تُرِينِي  
قَدِيمًا لِذِو صَفْحٍ عَلَى ذَاكَ مُجْمِلَ<sup>(٢)</sup>  
سَتْقَطُعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتُنِي  
يَمِينَكَ فَانْظُرْ أَىَّ كَفْ تَبْدَلُ<sup>(٣)</sup>  
وَفِي النَّاسِ إِنْ رَثَّتْ حِبَالَكَ وَاصِلُّ وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقِلْيِ مُتَحَوِّلُ  
فَأَىْ قَلْبٍ كَرِيمٍ قَلْبُ مَعْنَ بْنِ أَوْسٍ الَّذِي يَصْفُحُ عَنِ السَّيِّئَةِ وَيَغْضِي  
عَنِ الْخَطِيئَةِ ، وَيَلِينُ لِخَشُونَةِ صَاحِبِهِ حَتَّى يَسْتَلِّ مِنْهُ الصَّغْنَ ، وَيَغْسِلُ بِمَاءِ حَلْمِهِ  
وَضَرَّ فَوَادِهِ ، وَيَعِيدُهُ إِلَيْهِ مُخْلَصًا !

استمع إلى شاعر آخر يصف قوماً بالحلم ، وتأمل تلك الأخلاقيات الجيدة التي  
كُسِّاهُمْ بِهَا الْحَلْمُ :

تَخَالَهُمْ لِلْحَلْمِ لَمْ صُمِّاً عَنِ الْخَنَا وَخُرْسًا عَنِ الْفَحْشَاءِ عَنْدَ التَّهَاثُرِ

(٢) أَىْ مَهْدٌ إِلَيْكَ الْجَمِيلُ .

(١) الْحَمَاسَةُ ج ٢ ص ٩ .

(٣) النَّلِي : الْمَجْرَانُ .

وَمِرْضٍ إِذَا لَاقُوا حَيَاً وَعِفَةً      وَعِنْ الْحَرُوبِ كَالْلَّيْوَثِ الْخَوَادِرِ<sup>(١)</sup>  
 لَهُمْ ذُلْ إِنْصَافٍ ، وَلَيْنَ تَوَاضَعَ      بَبِمْ وَلَهُمْ ذُلْ رَقَابِ الْمُعَاشِ  
 كَانُ بَهْمَ وَصَمَّاً يَخْافُونَ عَارِهِ      وَمَا وَصَمَّهُمْ إِلَّا اتِّقاءِ الْمُعَايِرِ  
 يَتَرَفَّعُونَ عَنْ سَمَاعِ الْفَحْشَاءِ وَعَنِ النَّطْقِ بِهَا إِذَا مَا تَهَأَرَ النَّاسُ فِي الْخُصُومَاتِ  
 أَنْفَهَهُمْ مِنْهُمْ ، وَبَعْدًا عَنِ الصَّغَارِ وَالنَّزْولِ إِلَى سَاحَةِ الْبَذَاءَ ، وَإِذَا لَقَيْتُمْ خَلْتُ  
 أَنْهُمْ مَرْضٍ حَيَاً مِنْهُمْ وَعِفَةً ، وَلَيْنَاً ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَرُوبِ أَسْوَدُ آجَامٍ شَبَجَاعَةٍ  
 وَجَرَأَةً . فِيهِمْ ذُلْهُ الْمُنْصَفِينَ الَّذِينَ يَعْطُونَ النَّاسَ حَقَوقَهُمْ وَلَا يَتَكَبَّرُونَ عَلَيْهِمْ ،  
 وَفِيهِمْ لَيْنَ الْمُتَوَاضِعِينَ . وَبِذَلِكَ كَلَهُ سَادُوا وَذُلْتُ لَهُمْ رَقَابِ الْمُعَاشِرِهِمْ . وَلَتَرَفَعُوهُمْ  
 عَنِ السَّفَهِ ، وَعِفَةِ الْأَسْنَهِمْ ، وَعَدْمِ بَذَاعَتِهِمْ تَحْسِبُ أَنْ بَهْمَ عَيْبَأً يَخْافُونَ أَنْ  
 يَعِيرُهُمُ النَّاسُ بِهِ إِذَا اشْتَبَكُوا مَعَهُمْ فِي خُصُومَةٍ وَجَدَالٍ ، وَمَا عِيَبُهُمْ إِلَّا خُوفُ  
 مَا يَشِينُهُمْ ، وَيَخْدُشُ كَرَامَتِهِمْ .

وَفِي هَذَا يَقُولُ شَاعِرٌ آخَرُ :

أَحَلَامُ عَادِ لَا يَخَافُ جَلِيسُهُمْ      إِذَا نَطَقُوا الْعُورَاءَ غَرْبَ لِسَانِ  
 إِذَا حَدَّهُوا لَمْ تَخْشُ سُوءَ اسْتَعْاهِمْ      وَإِنْ حَدَّهُوا أَدَّهُوا بِحَسْنِ بَيَانِ  
 وَلَا تَحْسِبُ الْحَلْمُ عِنْ فَتِيَانِ الْعَربِ ضَعْفًا ، خَافَا لِلْعَرَبِيِّ أَنْ يُوصَفَ بِالضَّعْفِ ،  
 وَلَكِنَّهُ كَانَ فَضِيلَةً نَفْسِيَّةً تَمَلَّكَ الْعُقْلُ فِيهَا أَزِمَّةُ النَّفْسِ ، وَسَيِطَرَ عَلَيْهَا سِيَطْرَةً  
 تَامَّةً وَهِيَ فِي عَنْفَوَانِ غَضِيبَهَا ، فَتَرَاءَتْ هَادِئَةً وَادِعَةً ، وَهِيَ تَفُورُ وَتَحْتَدِمُ .

إِنَّ الْحَلْمَ عِنْ الْعَربِ لَا يَسْمَى حَلَمًا إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبَهُ قَادِرًا عَلَى الإِسَاعَةِ ،

(١) الْخَوَادِرُ : جَخَادِرُ وَهُوَ الْأَسْدُ الَّذِي يَسْكُنُ الْأَجْجَةَ .

فـكظم غـيظه ، ورـدع نـفسه ، وقـابل العـدوان بـسعة الصـدر ، وعـفا عـنـم أـساء إـلـيـه ،  
ولـذـلـك قـيل فـي أـمـثـالـه : « العـفو عـنـ المـقدـرة » .

وـفي هـذـا يـقـول المـهـلـهـل بن رـبـيعـة<sup>(١)</sup> فـي إـحدـى مـرـاثـيـه لـأـخـيه كـلـيـب :  
وـإـنـك سـكـنـت تـحـلـم عن رـجـال وـتـغـفـل عـنـهـم وـلـك اـقـتـدـار  
وـتـمـنـع أـن يـسـهـم لـسانـه مـخـافـة من يـجـيـر وـمـن يـجـار  
إـنـه حـلـم الـمـقـتـدـرـين الـأـقـوـيـاء ، لـا حـلـم الـضـعـفـاء الـجـبـنـاء ، الـذـى عـبـرـ عـنـهـ الـمـتـنـبـى  
فـيـما بـعـد بـقـولـه :

كـلـ حـلـم أـتـى بـغـيـر اـقـتـدار حـجـة لـاجـي إـلـيـها اللـثـام  
إـنـه حـلـم الـصـحـيـحـ ، وـكـرـم الـقـلـبـ ، الـذـى يـمـلـك صـاحـبـه الـبـذـلـ ، وـالـذـى  
يـقـول فـيـهـ الشـاعـرـ :

يـكـفـ أـذـاهـ بـعـد ما بـذـلـ عـرـفـه وـيـحـلـ حـلـمـهـ لـا يـدـمـ ولا يـزـرـى  
وـأـى حـلـمـ أـنـبـلـ وـأـعـظـمـ منـ حـلـمـ ذـلـكـ الـعـربـيـ الـذـى قـتـلـ أـخـوهـ اـبـنـاـلـهـ ، فـقـدـمـ  
إـلـيـهـ أـسـيرـاـ مـقـيـداـ ؛ ليـقـتـصـ مـنـهـ ، فـنـظـرـ إـلـيـهـ ، ثـمـ فـكـرـ فـيـ أـمـرـهـ وـأـصـدـرـ حـكـمـهـ  
الـكـرـيمـ الـذـى أـدـى إـلـيـهـ قـلـبـ سـمـحـ ، وـطـبـيـعـةـ خـيـرـةـ ، وـبـصـيـرـةـ نـافـذـةـ ، وـنـفـسـ  
ذـلـكـ شـهـوـاتـهـ ، وـعـبـدـتـ أـهـوـاـهـ :

أـقـولـ لـلـنـفـسـ تـأـسـاءـ وـتـعـزـيـةـ إـحدـىـ أـصـابـتـنـيـ وـلـمـ تـرـدـ  
كـلـاـهـاـ خـلـفـهـ مـنـ فـقـدـ صـاحـبـهـ هـذـاـ أـخـىـ حـيـنـ أـدـعـوـهـ وـذـاـ وـلـدـىـ

(١) شـعـرـاءـ النـصـرـانـيـةـ جـ ٢ـ صـ ١٦٣ـ .

ليس من اليسير أن يغفو المرء عن قاتل ولده الحبيب . وَفَلَذَةُ كَبْدِهِ ،  
وَمَخْلُّدُ ذَكْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَوَارِثُ مَالِهِ وَأَمْلَهِ الْمَرْجِيُّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، بِالْغَةِ  
مَا بَلَغَتْ قِرَابَتَهُ مِنْهُ ، وَلَكِنَّهَا النُّفُوسُ الْأَيْمَةُ الْكَبِيرَةُ ، الَّتِي تَرَى الْأَشْيَاءَ بَعْنَ  
الْحَكْمَةِ وَالْعُقْلِ ، لَا بَعْنَانِ الْعَاطْفَةِ وَالْهَوَى . إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَوْ قُتِلَ أَخَاهُ قَصَاصًا  
مِنْهُ لَمْ قُتِلَ ولَدُهُ يَكُونُ قَدْ خَسِرَ خَسَارَتِينِ ، وَفَقَدَ رِجْلَيْنِ . وَلَنْ يَسْتَرِدَ ولَدُهُ بَقْتَلِ  
أَخِيهِ ، وَلَكِنَّهُ سَيَقْدُدُ بِهِ عَصْدًا ، وَقُوَّةُ تَعْيِنِهِ عَلَى نَوَابِ الزَّمَانِ . وَصَفْحَهُ عَنْهُ  
سِيَجْلُهُ أَسِيرُ مَعْرُوفَهُ ، وَعَبْدُ إِحْسَانِهِ وَسِيزِيَّدُهُ عَنْيَا بَشْتُونَهُ ، وَإِقْبَالًا عَلَى  
خَدْمَتِهِ . هَذِهِ هِيَ الْبَصِيرَةُ الْنَّافِذَةُ ، لَا الْعَاطْفَةُ الطَّائِشَةُ ، وَهَذَا هُوَ الْحَلْمُ  
الصَّحِيحُ ؛ وَلَقَدْ وَصَفَ هَذَا الْحَلْمُ وَذَاكِ الْعَفْوُ الْعَظِيمُ الْحَارِثُ بْنُ وَعْلَةَ الْجَرْمِيِّ  
حِينَ قَالَ :

قَوْمٍ هُمْ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي فَإِذَا رَمِيتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي  
فَلَئِنْ عَفْوتُ لَا عَفْوَنْ جَلَّا وَلَئِنْ سَطَوْتُ لَا وَهْنَ عَظْمِي

وَمِنْ الْحَكْمِ الْمُشْهُورَةِ لِلَّذِي الْعَرَبُ مِنْ الْجَاهِلِيَّةِ قَوْلُهُمْ : « إِذَا مَلَكْتَ  
فَأَسْرِحْ » وَالْإِسْرَاجُ : حَسْنُ الْعَفْوِ . وَتَرَى هَذَا وَانْجَاحًا جَدًّا الوضُوحُ فِي  
مِيدَانِ الْقَتَالِ ، وَعِنْدِ الْأَخْذِ بِالثَّأْرِ فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْخُذُوا السَّنَنَ  
بِالسَّنِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ ، وَأَنْ يَثَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَنْ وَرَهُمْ ، وَأَنْ  
يَصُولُوا وَيَجْوِلُوا فِي مِيدَانِ الْوَغْيِ ، يَتَغْلِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَيَعْفُونَ عَنْ أَعْدَاءِهِمْ  
فِي سَاعَةِ النَّصْرِ .

كَمْ مِنْ قِرَنِينْ اشْتَدَ بَيْنَهُمَا الْقَتَالُ ، وَحْمَى وَطِيسَهُ ، فَإِذَا انْكَسَرَ رَمَحُ  
أَحْدُهُمَا أَوْ نَبَاسِيفَهُ ، أَوْ كَبَا جَوَادَهُ ، وَظَلَّ الْآخَرُ فِي قُوَّتِهِ وَعِدَتِهِ ، لَا تَرَى

القوى يعمد إلى انتهاز هذه الفرصة التي جاء بها القدر ، أو التي أوجدها هو ، فيقتل غريمه وهو أعزل من السلاح . بل ينتظر حتى يسترد سلاحه ليكون النصر أتم ، ولتكون غلوبته لغريمه ثمرة شجاعته وقوته وخبرته بفنون القتال .

لقد تمكن دريد بن الصمة من ربيعة بن مُكَدَّم ، ووجد رمحه قد انكسر غِبَّ معركة حامية قتل فيها ربيعة ثلاثة من خيرة فرسان دريد ، ومع ذلك قال له دريد حين رأه بدون سلاح : « مِثْكَ لَا يُقْتَل <sup>(١)</sup> ، ولا أرى معك رُحْمًا ، والخيل ثائرة بأصحابها ، فدونك هذا الرمح : فإني منصرف إلى أصحابي فتبطئهم عنك » .

ولقد مرت بنا حادثة الحارث بن ظالم المُرّى مع عمرو بن الإطناية <sup>(٢)</sup> ، وكيف أنهما بعد أن تجاولا ساعة ألقى عمرو رمحه ، وقال يا حارث ألم أخبرك أن النعاس يغلبني ؟ ، قد سقط رمحي فاكفف ، فكف ، ثم قال عمرو : أُنْظِرْنِي إلى غد ، قال : لا أفعل ، قال : فدعني آخذ رمحي ، قال : خذه ، قال : أخشى أن تُعجلني عنه ، أو تفتكت بي إذا أردت آخذه ، قال : وذمة ظالم لا أُعجلتك ، ولا قاتلتكم ولا فتكت بك حتى تأخذه ، قال : وذمة الإطناية لا آخذه ، ولا أقاتلتك ، فانصرف الحارث إلى قومه ، وأنشد شعرًا قال فيه :

قد همنا بقتله إذ بُرزا      ولقيناه ذا سلاح كميما  
غير ما نائم تعلل بالخال      م مُعدًا بكفه مشرفيما  
فمننا عاليه بعد علو      بوفاء و كنت قدمًا وفيما

(١) بلوغ الأربع ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) مهذب الأغانى ج ١ ص ١٣٠ . وراجع ص ٥٧ من هذا الكتاب .

وكم من رجل طلَّ دمه وهام على وجهه في الفيافي خوفاً من عداته ، حتى إذا  
ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وتمكَن أعداؤه منه وظنَّ أنه قد حان حينه ،  
وألا منجاة له من الموت ، وهبوا الحياة كرماً منهم وأريحية قلب . وحادثة  
بشر بن أبي خازم مع أوس بن حارثة بن لأم الطائى مشهورة في كتب الأدب<sup>(١)</sup>  
وذلك أن بشرأً أغراه أناس على هباء أوس — وكان أوس من أجواد العرب  
الذين يضرب بهم المثل ، من ذلك قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز .

وما كعبُ بنُ مامِةَ وابنُ سعْدِيْ بِأَجُودَ مِنْكَ يَا عَمِ الْجَوَادِ  
وابن سعدي هو أوس بن حارثة . فلما هجا بشرُّ أوساً ، أقسم أوس إن  
تمكَن منه ليحرقنه ، وكان بشر قد أخذ على هجائنه أوساً مائة من الإبل ،  
فأغار أوس عليها واكتسحها . وهرب بشر ، وصار لا يستجير أحداً إلا قال له :  
قد أجرتك إلا من أوس بن حارثة . ثم تمكَن من بشر ، ودخل على أمه  
سعدي ، وقال لها : لقد أتينا ببشر الماجي لك ولـى ، قالت : أو تطيعنى ؟  
قال : نعم ؟ قالت أرى أن ترد عليه ماله ، وتعفو عنه ، وتحبود ، وافعل مثل  
ذلك فإنه لا يغسل هباء إلا مدحه ، فخرج فقال : إن أمي سعدي التي كنت  
تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا ، فقال لا جرم ، والله لا مَدَحتْ حتى أموت  
أحداً غيرك وفيه يقول :

إِلَى أَوْسِ نِ حَارَثَةَ بْنِ لَامْ لِيَقْضِيَ حَاجَتِي فِيمَنْ قَضَاهَا  
فَمَا وَطَىءَ الْثَرَى مِثْلُ ابْنِ سَعْدِيْ وَلَا لَبِسَ النَّعَالَ وَلَا احْتَذَاهَا

(١) الكامل للمبرد ، وبلغ الأربع ج ١ ص ٨٣

وهناك عشرات الأمثلة التي تثبت تأصل هذه الصفة الكريمة في نفوس فتيان العرب ، ونبل معاملتهم لأعدائهم ، وأقرانهم في ميدان القتال ، وعند الظفر بهم ، وسرى فيما بعد كيف أن هذه التقاليد الشريفة قد ظهرت في كل مجتمع عربي بعد سيادة الإسلام وانتشاره ، وأتها كانت الدرس السامي الذي تلقنه فرسان أوروبا إبان العصور الوسطى من فتيان الصحراء العربية .

هكذا كان الحلم عند العربي ، وهكذا كان كرم قلبه ، ولكن ليس معنى هذا أنه كان يصبر على الإهانة ، ويغضى على الضيم والمذلة ، ويقبل في خضوع أن يطأطئ رأسه لأعدائه . إن الحليم يتصرف بسعة الصدر ، وينظر إلى الأمور بنظرة حكيمة ، يقدر فيها العواقب . ولكن إذا أهين ثار ، وغضب غضبة شديدة لكرامته وقد اشتهر من أمثال العرب قوله : « اتقوا غضب الحليم » ، وذلك لأنه لا يغضب إلا للأمر الجليل ، وهو قادر على أن يثار لشرفه المهاجر ، وكرامته المخدوشة ، استمع إلى فتى من هؤلاء الذين عرّفوا بكرم القلب ، وسعة الصدر ، كيف يحدّر هؤلاء الذين غرّهم حلمه شديدَ غضبه<sup>(١)</sup> .

ما بالُ مَنْ أَسْعَى لِأَجْبَرَ عَظَمَهُ حَفَاظًاً وَيَنْوِي مِنْ سَفَاهَتَهُ كَسْرِيَّ  
أَعُودُ عَلَى ذَي الدَّنْبِ وَالْجَهْلِ مِنْهُمْ بَحْلِي وَلَوْ عَاقِبْتُ غَرَقَهُمْ بَحْرِي  
أَنَا وَحْلًا وَانتَظَارًا بَهْمَ غَدًا وَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلَا الْفَرَعَ الْفَمْ<sup>(٢)</sup>  
أَظْنَ صِرْوَفَ الدَّهْرِ وَالْجَهْلِ مِنْهُمْ سَتَحْمِلُهُمْ مَنْيٌ عَلَى مَرْكَبٍ وَغَرِّ

(١) هذا الشعر لابن أذينة الثقفي راجع الأمالي ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) الضرع : الصغير من كل شيء أو الصغير السن الضعيف . الغم : من لم يجرب في الأمور .

أَلْمَ تَعْلَمُوا أَنِّي تَخَافُ عَرَامَتِي وَأَنْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ عَلَى السَّكَرِ<sup>(١)</sup>

إِنْ أَشَدُ مَا كَانَ يَخْشَاهُ الْفَتَى الْعَرَبِيُّ هُوَ أَنْ يُوصَفَ بِالْذَّلَّةِ وَالضَّعْفِ، وَلَا شَكٌ  
أَنَّهُ يَثُورُ ثُورَةً حَادَّةً إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ أَهْيَنَ، وَكَيْفَ يَقْبِلُ الإِهَانَةَ، وَهُوَ الشَّجَاعُ،  
الَّذِي لَا يَهْابُ الْمَنَابِيَا؟ وَهُوَ الْجَوَادُ الَّذِي يَضْحَى بِأَئْمَنِ شَيْءٍ لِدِيهِ فِي سَبِيلِ شَرْفِهِ  
وَعِرْضِهِ، إِنَّهُ كَانَ يَضْعُفُ الْحَلْمَ حَيْثُ يَحْبُّ أَنْ يَوْضُعَ كَا قَالَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ :

وَلِلْحَلْمِ أَوْقَاتٌ وَلِلْجَهَلِ مَثَلُهَا وَلَكُنْتُنِي لِلْحَلْمِ أَدْنِي وَأَقْرَبُ

يَحْلُمُ مَعَ قَوْمِهِ، وَلَا سِيَّما سَفَهَاؤُهُمْ، وَيَحْلُمُ مَعَ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ؛ لَأَنَّهُ  
رَئِيسُهُمْ، وَلَأَنَّهُ إِذَا عَاقِبَهُمْ عَلَى جَهَلِهِمْ خَسِرُهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ يَدْعَارِي هُؤُلَاءِ  
وَهُؤُلَاءِ، وَيَدْعَارِي طَيْشُهُمْ بِحَلَمِهِ، وَنَزَقُهُمْ بِسُعَةِ صَدْرِهِ، وَلَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يَقْصُدُونَ  
إِهْمَانَ كَرَامَتِهِ، وَلَا خَدْشَ شَرْفِهِ؛ لَأَنَّ كَرَامَتَهُ مِنْ كَرَامَتِهِمْ، وَشَرْفُهُ مِنْ  
شَرْفِهِمْ، تَقْضِي بِذَلِكَ تَقَالِيدَ الْقَبِيلَةِ وَعِرْفَهَا السَّائِدَ.

وَيَثُورُ حِينَ يَحْبُّ أَنْ يَثُورُ؛ حِينَ يَرَى مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالْعَارِ أَنْ يَغْضِي عَلَى  
الْمَهَانَةِ، وَيَصْبِرُ عَلَى الإِذْلَالِ، وَيَرْضِي بِالضَّيْمِ .

وَلَا يَقْيِمُ عَلَى ضَمِيرٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الأَذْلَانِ عَسِيرُ الْحَيٌّ وَالْوَتَدُ

إِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا فِي تَصْرِفِهِ، وَقَدْ صَدَقَ فِيهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَوُضُعَ النَّدِي فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوْضُعُ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدِي  
وَإِنْ تَصْرِفَهُ مَعَ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْدَرُونَهُ وَيَحْقِرُونَهُ، وَيَرِيدُونَ إِذْلَالَهُ لِهُوَ تَصْرِفُ

(١) عَرَامَتِي : شَدَّتِي وَشَرَاسَتِي .

عادل جمیل ، وفي ذلك يقول أرسسطو : « عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ؛ لأن مقاولة المثل بالمثل عدالة ، وكل ما هو عدل فهو جمیل ، والشجاع لا يرضون الهزيمة<sup>(١)</sup> ».

ولقد ثار عمرو بن كلثوم ، وهو ضيف الملك عمرو بن هند ملك الحيرة حين سمع أمه تصريح قائلة : وادلاه ! يا لتغلب ! فغلى الدم في عروقه وأخذته الحمية ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند ، وقال معلقته المشهورة التي يشير فيها إلى هذه الحادثة بقوله :

بأي مشيئة عمرو بن هند تكون لقيلكم فيها قطينا ؟<sup>(٢)</sup>  
بأي مشيئة عمرو بن هند تُطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟  
تهدّدنا وأ وعدنا رويداً متى كنا لأمرك مقتوينا ؟<sup>(٣)</sup>  
فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا  
إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبیننا أن نقرَّ الذلَّ فيينا  
ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فتجهلَ فوق جهل الجاهلينا<sup>(٤)</sup>  
ويقول عنترة في العزة :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الخنبل

(١) الخطابة لأرسسطو ترجمة الدكتور ابراهيم سلامه ص ١٧٣

(٢) القيل : هنا الخدم والعييد ، والقطين : التجاورون .

(٣) مقتوى : خادم ، وهي كلمة حميرية .

(٤) الجهل : السفاهة والطيش .

ماه الحيَاة بذلةِ كجهم وجهم بالعزِّ أَكْرَمُ منزل  
وأَنَّ له أَن يقبل الذلة والمهانة ، وهو الأبي الشجاع الذى اتخذ شعاره قول  
عمر بن براقة :

مَنْ تَحْمَلَ الْقَلْبَ الْذَّكِيرَ وَصَارَ مَمْـ  
وَأَنَّا حَيَاً تَحْتَبُكَ الْمَظـ  
وَلَا تَظْنَنْ أَنَّ الْعَرَبَ جَمِيعاً يَتَحَلَّونَ بِهَذِهِ الْخَلَةِ الْحَمِيدَةِ ، خَلَةُ الْحَلْمِ وَسَعَةُ  
الْصَّدْرِ ، وَكَرْمُ الْقَلْبِ . كَلَا ! فَإِنَّ الْحَلْمَ كَانَ نَادِراً ، وَالْحَلَامَاءُ قَلِيلُونَ وَإِلَـ  
لَا كَانَ الْحَلَيمَ مَقْدَمًا عَلَى النَّاسِ ، يَرَأُهُمْ ، وَيَتَزَعَّمُهُمْ ، وَيَفْصِلُ فِي شَوْنَهُمْ ،  
وَكَيْفَ يَكُونُ الْحَلْمُ حَلْيَةُ جَمِيعِ الْعَرَبِ ، وَهُمْ فِي بَيْتَهُ صَحْرَاوِيَّةُ مَجْدِبَةٍ يَشْتَدُّ  
فِيهَا أَوَارُ الشَّمْسِ ، وَتَقْلُ فِيهَا الْخَيْرَاتِ ، فَيُزِيدُ ذَلِكَ فِي سُرْعَةِ افْعَالِهِمْ ،  
وَحِدَةِ طَبَاعِهِمْ ، وَضِيقِ صَدُورِهِمْ ؟ زَدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ عُوْدَتْهُمْ كَثِيرًا  
مِنَ الْحَرَيَاةِ الَّتِي أَسَاءَ بَعْضُهُمْ غَايَتِهَا ؛ وَاعْتَقَدَ كُلُّ امْرَىءٍ فِي نَفْسِهِ السُّمُونَ وَالسَّعَادَةَ  
وَالْقُوَّةَ فَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَةً لِطَيْشِهِ وَسُفْهِهِ . وَلَذَا كَانَ مِنْ سَمَاتِ الْشَّرْفِ ،  
وَمَؤَهَّلَاتِ الرِّيَاةِ أَنْ يَتَصَفَّ الْفَتَيَانُ بِالْحَلْمِ ، بَيْنَ قَوْمٍ سَرِيعِيِّ الْغَضَبِ ، حَادِيِّ  
الْطَّبَاعِ ؛ وَبِذَلِكَ تَمِيزُ الْفَتَيَانُ عَنْ سَوَاهِمِ مِنْ عَامَةِ الْعَرَبِ بِتَسَامِحِ الْأَقْوَيَاءِ ،  
وَعَفْوِ الْمُقْتَدِرِينِ ، وَأَنَّاةِ الْمُتَبَصِّرِينِ ، وَكَرْمِ الْأَعْزَةِ ، وَصَفْحِ الْأَبَابَةِ الْنَّبَلَاءِ ،  
لَا يَعْرُفُونَ الصَّفْنَ ، وَلَا يَسْتَقِرُونَ فِي قُلُوبِهِمِ السَّمْحَةُ : « وَلِيُسَرِّ رَئِيسُ الْقَوْمِ مِنْ  
يَحْلُ الصَّفْنَا » ، وَلَا يَفْقَدُونَ اتْزَانَهُمْ ، إِذَا طَاشَتْ أَحْلَامُ سَوَاهِمِ ، وَلَذِكَ  
بُوئُوا مِنْزَلَةً سَامِيَّةً فِي الْجَمْعِ الْعَرَبِيِّ . وَتَغْنَىُ الشَّعْرَاءُ بِصَفَحِهِمِ الْجَمِيلِ ، وَرَدَدَتْهُ  
أَلْسُنَةُ الزَّمْنِ .

### ٣ — كرم العقل

كرم العقل هو سماحته ، وصرونته ، وقبله للحقائق ، وعدم كرازته  
وتعصبه ، ونفوره من الأوهام والخرافات ، وإدراكه لما حوله إدراكاً صحيحاً  
لا يشوبه شك ، أو يخمره غموض .

والفتى العربي قد نشأ على أديم الصحراء ، ذلك البساط الطبيعي الفسيح  
الظاهر المعالم ، الذي يمتد فيه البصر ، مسافات شاسعة ، فلا يقف في سبيله  
عائق ، يلتفه ضوء غامر قوى ، يجعل كل شيء أمامه فيزي الطبيعة قوية بینة  
باهرة . ومثل هذه البيئة الرّحبة تنمو فيها الحرية وتسمق دوحتها ، والرجل  
الحر يأبى أن يتقييد عقله بقيود ، أو أن يحد فكره بمحدود ، وفي ذلك يقول  
دورزي : « سعة العقل ورحابته قديمة عند العرب ؛ لأنهم أمّة تعشق الحرية ،  
ومن العسير عليهم أن يقبلوا التحكم في عقائدهم » <sup>(١)</sup> .

وقد قال مرثد بن عبد القلال ملك اليمن . « إنّ أحكام على الأجساد  
لا آراء ، وأطلب من رعيتي أن تطيع حكمي ، أما عقائدتهم فتروكة  
لله » <sup>(٢)</sup> .

ولهذه الحرية لم يعرف العرب في دياناتهم الجاهلية نظام الكهنوت ،  
والعبودية للهيكل ورجاله ، يتحكمون في عقائدهم ، وسائل شؤونهم الدينية  
والدنيوية ، ويتوسطون بينهم وبين آلهتهم ، ويفرضون عليهم الجزية والطاعة

(1) Wacyf Ghali. Tradition Chervaleresque des Arabes. P. 248.

(2) Caussain de Perceval, T. I. P. 111.

العمياء وينحو نهم الغفران إن أرادوا ، أو يطردونهم من رحمة الله إن سخطوا .  
وأئنَّ للعربي أن يقبل هذا أو مثله وقد ألفت نفسه الفضاء الفسيح ، وامتلا  
فؤاده بهذا الإحساس القوى الطبيعي بأنه حر طليق لا تقيده أرض ، ولا  
تعرقل تفكيره تلك القيود والعوائق التي تحد من حريةته الشخصية ؟ !

وما كان هذا الفتى العربي يعيش في كنف الطبيعة ، وتحتضنه صباح مساء ،  
لا يهرب منها بين جُدر كثيفة ، وفُرش وثير ، وقصور ضخمة ، وإنما تلقاه  
بين ذراعيها إذا أصبح كادحاً في سبيل رزقه ، وإذا أمسى سامراً مع خلاته ،  
وتطل عليه من عَلْب شمسها الوهاجة نهاراً ، ونجومها المتلاة ليلًا ، يراها  
وهو على ظهر ناقته أو في خيائه . ويسمع دوى الرعد وقصفه ، وزمرة الريح ،  
ويصطلي بوقدة المهاجرة ، وزمهرير الشتاء ؛ صار الفتى العربي منذ حداثته  
وهو بعد غض لين العود صديقاً لهذه الطبيعة التي ألفها في حالي خيراً ورضاها ،  
وشرها وسخطها ، ونجم عن ذلك كاذرت في غير هذا الكتاب<sup>(١)</sup> «انكاش  
العقل الباطن عند هذا العربي ربيب الصحراء ، وبسطت الطبيعة في عقله  
الوعي ، ولم تدع له الطبيعة بضمورها الشديد نهاراً ، ونورها الباهر ليلاً أن يختزن  
في نفسه سراً ، أو أن تكون ثمة هاوية في عقله تتسلط فيها الرغبات التي  
لا تتحقق ؛ لأن كل رغبة حيل بينه وبين تحقيقها يعلم جد العلم ، وبكل وضوح  
لماذا لم يتحققها .

وبانكاش العقل الباطن صارت كل أفكار العربي بين يديه ظاهرة جلية ،

(١) كتاب النابغة الذهبياني للمؤلف ص ٤٦ — ٤٧

وصارت وجهة نفسه وجهة يقين لا شك ، وبذلك ألغيت الوساطة في الشعور والتفكير والتعبير .

وهذا هو السر فيما نلمسه في الشعر الجاهلي ، وفي التفكير العربي من صفاء الفكر ووضوحها ، والقصد إلى المدف دون التواء أو غموض ، في أوجز لفظ ، ومن أقصر طريق » .

وهذا هو السر في أن العربي كريم العقل ، سمح النفس ، يتناول حقائق الحياة في أوجز الصور وأقوفها ، ولعل من أسباب ذلك أنه نشأ نشأة طبيعية . بسطت في قوة جسمه ، وصيরته صحيح الحواس ، تام البناء والتركيب . ونعلم أن العقل يستردد معلوماته من الحواس ، فإذا كانت الحواس صحيحة كاملة فهو لم يصل إلى العقل إلا الصحيح التام من المعلومات — بعض النظر عن قيمة هذه المعلومات — وهذا كان عقل الفتى العربي سليماً، وحكمه على الأشياء صحيحاً . ولقد اشتهرت عندهم الحكمة القائلة « العقل السليم في الجسم السليم » .

وتقول بنت الخس معبرة عن رأى العرب في العقل وأخلاق الفتيان ، كـ فهمته إياها الصحراء :

أشدّ وجوه القول عند ذوى الحجا  
مقـالـة ذـى لـبـ يقول فيوجـز  
وأفضلـ غـنمـ يستفاد ويـلـتـغـى  
ذـخـيرـ عـقلـ يـحـتـويـهاـ وـيـحـرـزـ  
وـخـيرـ خـلالـ المـرـءـ صـدـقـ لـسانـهـ  
ولـلـصـدـقـ فـضـلـ يـسـتـبـينـ وـيـبـرـزـ  
فـكـنـ موـفـيـاـ بـالـوـعـدـ تـعـطـيـ وـتـنـجـزـ  
إـذـاـ المـرـءـ لـمـ يـسـطـعـ سـيـاسـةـ نـفـسـهـ  
فـإـنـ بـهـ عـنـ غـيرـهـ هـوـ أـعـجزـ

ويقول شاعر آخر :

وَلَا خَيْرَ فِي حُسْنِ الْجَسْوُمِ وَطُولِهَا      إِذَا لَمْ يَزْنْ حُسْنَ الْجَسْوُمِ عَقْوُلُ  
وَمِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ عَقْلَ الْعَرَبِيَّ سَمِحًا مَنْبَسْطًا ، لَا كَرْزَارَةَ فِيهِ  
وَلَا تَعْقِيدَ ، أَنَّ الْمُجَتَمِعَ الْعَرَبِيَّ خَلَا مِنْ تَلْكَ الْفَرَوْقَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَنَظَامَ الطَّبَقَاتِ  
فَلَيْسَ ثُمَّةَ أَغْنِيَاءَ قَدْ أَبْطَرُهُمُ الْغَنِيُّ ، وَأَعْمَى بِصَائِرَهُمُ ، وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ بِالْمَالِ يَشْتَرُونَ  
مَنْ دَوْنَهُمْ مِنْ عَبَادَ اللَّهِ ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي مَصَانِعِهِمُ أَوْ أَرْضِهِمُ . وَلَيْسَ ثُمَّةَ  
فَقَرَاءَ قَدْ أَذْلَمُهُمُ الْفَقْرُ ، وَضَعْضَعُ نَفْوَهُمُ ، وَأَعْمَاتُ فِيهَا الْعَزَّةَ ، وَجَعَلَهَا تَنْتَطِلِبُ  
الْمَالَ وَلَوْ مِنْ أَخْسَّ الْطَّرْقَ وَأَوْضَعَهَا . بَلْ إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا فِي مَيْدَانِ الْحَيَاةِ  
الْاجْتِمَاعِيَّةِ سَوَاءً ، الْفَقِيرُ وَالْغَنِيُّ ؟ لَأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَسْكُنُونَ الْخِيَامَ لَا الْقُصُورَ  
الْشَّاهِقَةَ ، وَيَتَوَسَّدُونَ الرِّمَالَ لَا الْحَشَائِيَا الْلَّيِّنَةَ ، وَالسِّيَادَةُ فِيهِمْ لَيْسَ مَرْدُهَا إِلَى  
الْغَنِيِّ وَالثَّرَوَةِ ، وَإِنَّمَا تُنَالُ بِالْفَضَائِلِ ، وَحُبُّ أَفْرَادِ الْقَبْيلَةِ وَرَعَايَةِ مَصَالِحِهِمُ ،  
وَمُوَاسَاةِ حَزِينِهِمُ ، وَالْدَّافَعُ عَنْ ضَعِيفِهِمُ ، وَفَكُّ عَانِيهِمُ وَأَسِيرِهِمُ ، وَالْجُودُ عَلَى  
مَعْدِمِهِمُ ، وَالْحَلْمُ عَلَى سَفَهَائِهِمُ ، وَالْمَطَالِبَ بِتَارَاهِمُ ، وَتَحْمِلُ دِيَاهِمُ . وَالسِّيَادَةُ  
لَيْسَتِ السِّيَطَرَةُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ ؟ وَإِنَّمَا امْتَلَكَ الْقُلُوبَ بِالْفَرْقِ وَالْفَضْيَلَةِ . وَشَتَانَ  
بَيْنَ مُجَتَمِعِ هَذَا شَأنَهُ ، وَمُجَتَمِعٌ آخَرٌ لَا يَعْرُفُ إِلَّا السِّيَطَرَةَ : سِيَطَرَةُ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ  
وَالْجَاهِ ، وَعَبُودِيَّةُ الْفَقْرِ وَالسُّخْرَةِ .

إِنَّ الْعَرَبِيَّ الْفَقِيرَ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ ، وَقُتِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، لَا يَبْرُمُ  
وَلَا يَيْأَسُ ، بَلْ يَرْمِي نَفْسَهُ فِي فَجَاجَهَا الْعَرَيْضَةَ وَلِسَانَ حَالَهُ يَقُولُ .

إِذَا مَا ضَاقَ رِزْقُكَ فِي بَلَادٍ      تَرْحَلُ طَالِبًا أَرْضًا سَوَاهَا  
فَرَزَقَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا فَسِيحًا      وَأَرْضُ اللَّهِ مَتْسَعٌ فَضَاهَا

وقد ذكرنا في كرم اليد كيف أن العرب جميعاً تعاونوا على قتل الفقر بينهم ، وكان من أهم صفات السيد الشريف سخاء اليد والجود بما لديه ولو كان آخر زاده ؛ وهذا كله لم تختلف في نفس أي عربي نزعات مكبوبة ، وأعمال ميتة ، تفسد عليه تفكيره في وحدته ، وتذهب صفاء عقله ، بل قبل الحياة على علامتها ، بسرائرها وضرائرها . إذ أنه أدرك من طبيعة بلاده أن هذه الثروة التي نالها سواه قد تزول حين تضن السماء بما فيها ، وتجدب الأرض ويصوّح النبات . وأنه قد يرحل إلى غير موطنه فيصيب أرضاً خصبة ، وثراء عريضاً .

إن العربي في حياته كلها كان ينظر إلى الأمور نظرة واقعية ولم يلحاً إلى ذلك الضرب من الحياة الذي صورته المشاعر الفزعية ، والنفوس القلقة . لأنه لم يشعر بالحرمان ، ومن ثم لم تكن أوهام وأحلام ، وإنما هي الحقيقة يفتون بها ، ويسعون جدهم لإدراها .

وربما قيل : وكيف توفق بين هذه السماحة في العقل ، وعبادة العرب للاوثان والأصنام ، وهي لا تدرك ولا تغنى عنهم شيئاً ؟ .

إن العرب لم تكن لهم ديانة ذات أصول وقواعد ومراسيم معينة ، ولقد وصلوا في قراره نفوسهم إلى معرفة خالق الوجود ، ووحدانيته فآمنوا به ، وإن حاولوا أن يصلوا إليه أحياناً عن طريق الأصنام ، فذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى ذلك النضج العقلي التام ، ولم يكن حظهم من المعرفة كبيراً . وإذا سئلوا عن هذه الأصنام : أهي آلهة ؟ أنكروا في قوة عقيدة ألهويتها ، واعترفوا بالله وقالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفي » . ولقد سخر كثير منهم بهذه

الأصنام كـ سخر امرؤ القيس بصنمه ذي الخلصة حيناً استخاره واستقسم لديه  
بالأزلام ، فخرج البسم ينها عن ذلك فقال :

لو كنتَ يـاذا الخـلص المـوتورا مـشـلى وـكان شـيخـك المـقـبـورـا  
لم تـنهـ عن قـتـل العـدـاء زـورـا  
وحـطـم الصـنم<sup>(١)</sup>.

ولقد أقبل رجل من بني مـلـكـان بـأـبـيل لـه مـؤـبـلة يـقـفـها عـلـى صـنـمـ الـقـبـيـلـةـ  
« سـعـدـ » اـبـتـغـاءـ بـرـكـتـهـ فـيـاـ يـزـعـمـ ، فـلـماـ أـدـنـاهـاـ مـنـهـ وـرـأـتـهـ ، وـكـانـ يـهـرـاقـ عـلـيـهـ الدـمـاءـ  
نـفـوـتـ مـنـهـ ، فـذـهـبـتـ فـيـ كـلـ وـجـهـ ، فـغـضـبـ الرـجـلـ وـتـنـاوـلـ حـجـراـ رـمـيـ بـهـ الصـنمـ  
وـقـالـ : « لـاـ بـارـكـ اللـهـ فـيـكـ إـلـهـاـ نـفـرـتـ إـلـيـ » ثـمـ خـرـجـ فـيـ طـلـبـهاـ حـتـىـ جـمـعـهاـ ،  
وـانـصـرـفـ وـهـوـ يـقـوـلـ :

أـتـيـنا إـلـىـ (ـسـعـدـ) لـيـجـمـعـ شـمـلـنـاـ فـلـاـ نـحـنـ مـنـ سـعـدـ  
وـهـلـ (ـسـعـدـ) إـلـاـ صـخـرـةـ بـتـنـوـفـةـ مـنـ الـأـرـضـ لـاـ يـدـعـوـ لـغـيـ وـلـاـ رـشـدـ<sup>(٢)</sup>  
وـلـمـ رـأـيـ عـمـرـوـ بـنـ الـجـمـوـحـ وـهـوـ أـحـدـ سـادـاتـ بـنـيـ سـلـمـةـ وـأـشـرـافـهـمـ أـنـ صـنـمـهـ  
الـذـىـ يـتـقـرـبـ إـلـيـهـ قـدـ أـلـقـىـ فـيـ مـوـطـنـ الـقـدـارـةـ قـالـ :

وـالـلـهـ لـوـ كـنـتـ إـلـهـاـ لـمـ تـكـنـ أـنـتـ وـكـلـبـ وـسـطـ بـئـرـ فـيـ قـرـنـ  
أـفـ مـلـقـاكـ إـلـهـ مـسـتـدـنـ آـلـآنـ فـتـشـنـاكـ عـنـ سـوـءـ الـعـبـنـ<sup>(٣)</sup>

(١) بـلـوـغـ الـأـرـبـ جـ ٢ صـ ٢٠٧ .

(٢) المـصـدرـ نـفـسـهـ مـنـ ٢٠٨ . وـالـتـنـوـفـ : الـصـحـراءـ .

(٣) مـسـتـدـنـ : مـنـ السـدـانـةـ وـهـيـ خـدـمـةـ الـبـيـتـ وـتـعـظـيمـهـ .

الْحَمْدُ لِلّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمِنْ وَالْوَاهِبِ الرِّزْقَ دَيْنَ الدِّينِ<sup>(١)</sup>  
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَكُونَ فِي ظُلْمَةِ قَبْرِ مُرْتَهِنٍ<sup>(٢)</sup>  
وَلَا رَأَى غَيْرِهِ أَنْ صَنَعَهُ تَبُولُ عَلَيْهِ التَّعَالَبُ قَالَ : « لَقَدْ هَانَ مِنْ بِالْتِ  
عَلَيْهِ التَّعَالَبُ » .

وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَرَبِيَّ لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ نَظَرَةً جَدًّا ،  
وَأَنَّهَا آلَمَةٌ بِحَقِّ ، بَلْ إِذَا رَأَى مِنْهَا مَا لَا يَسْتَجِيبُ لِهِ عَقْلُهُ أَنْكَرَهَا سَرِيعًا ،  
وَرَجَعَ إِلَى فَطْرَتِهِ الصَّحِيحَةِ ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ فِي قَرَارِهِ نَفْسَهُ ، أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ،  
وَلَيْسَ لَهَا مِنْ أَمْرِ الْكَوْنِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ شَيْءٌ : « وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مِنْ خَلْقِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ » ، « قُلْ مَنْ يُرْزِقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،  
أَمْ مِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ  
الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسِيقُولُنَّ اللَّهُ » .

عَلَى أَنَّ الْعَرَبِيَّ لَمْ يَخْتَرْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ ، وَإِنَّمَا جُلِبَتْ لَهُ مِنْ خَارِجِ الْبَلَادِ  
الْعَرِبِيَّةُ جَلْبَهَا لُحْيَ بْنُ حَارِثَةَ بْنُ عَامِرَ الْأَزْدِيِّ مِنَ الْبَلْقَاءِ بِالشَّامِ حِيثُ الْيَهُودُ  
وَالنَّبَطُ وَغَيْرُهُمْ فِي قَصَّةٍ مَعْرُوفَةٍ<sup>(٣)</sup> . فَهِيَ طَارِثَةُ عَلَيْهِ ، لَمْ تَتَأْصِلْ عِبَادَتُهَا  
فِي نَفْسِهِ ، وَيُقَدِّسُهَا ذَلِكُ التَّقْدِيسُ الَّذِي جَرِيَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَمْمَ لِآلهَتِهِمْ مُثْلِهِ  
الْأَشْوَرِيِّينَ وَالْإِغْرِيقِ وَالْمَصْرِيِّينَ الْقَدْمَاءِ ، وَبَنَوْا لَهَا الْمَيَاكَلَ وَالْمَعَابِدَ ، وَوَضَعُوا  
لِعِبَادَتِهَا النُّظُمَ وَالْقَوَاعِنَ ، وَتَعَدَّدَتْ طَبَقَاتُ رِجَالِ الدِّينِ وَالْكَهْنَوَتِ . وَلَكِنَّهُ

(١) الدِّينُ : جَ دِيْنَةٌ وَهِيَ الْعَادَةُ .

(٢) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٠١ وَالْأَصْنَامُ لَابْنِ الْكَلَبِيِّ .

كان يتقرب إليها في بساطة ، ويتركتها في بساطة ، وإذا قلت : ألم يكن العرب يعتقدون في الجن ، وأنها تتراءى لهم ، وتحدث إليهم ، وتلهم شعراً لهم القول البليغ ؟ أو لم يكونوا يعتقدون في الغيلان والأشباح ؟ أو هذه صفة العقول الراجحة الصافية التي لا تؤمن بالخرافات والأوهام ؟

كان العربي في بيته دائم الحركة والسعى في طلب الرزق ، وليس في الصحراء العربية كلها واحنة السبل بينة المحبة ، ولذلك قد يصل في أرجائها بعض من عُمّى عليه طريقه ، وغمّ سبيله ، وهو في تيهه هذا يستحضر معندين ، لا معدى له ولطبيعته البشرية السليمة من أن يستحضرها وهو رابط الجأش ثابت الجنان ؛ وهذا المعنىان هما : الملائكة ، والوحشة . أما الملائكة فيأتي من فناد الزاد وكثرة التعب ، وقسوة الماجرة ، وكان من الملائكة عند العرب اسم « الغول » الذي يغتال النفوس ويهاكها ، وأما الوحشة فنشأ منها بينهم اسم « الجن » وهو « سراب النفس » الذي يتطلع إليه العربي ، وقد « أجننته » الطبيعة بعد ظهورها ووضوحها ، وكادت تستتر عنه وتختفي معاملتها فتهلكه .

فهو يرى هذا السراب رجلاً مثله على مرأى منه ، فيتجه إليه في مثل الشوق الذي يستشعره نحو أهله كما أشرفت نفسه على الملائكة ، فيرى أعراضاً جالساً أمام خباء ، وبجواره قلوص . وهو مهيب السمات ، جليد القلب ، فهو يسلم عليه ، ويسأله شربة ماء أو لبن ، ثم يستزيد من حديثه ، فينشد الشعر ، ويسترويه الأخبار ، ليكون في ذلك ما يبده وحشته . حتى إذا ما قضى هذا الثنائي وطراً من ذهاب الوحشة عنه مع عربي مثله ، عاد فبداه أن ما رأاه على الأفق إنما كان سراب نفسه . كسراب الماء في الصحراء ، يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وهكذا يعرف العربي أن ما لم يجده شيئاً من هذا الرجل الذى استند له  
الشعر فى متأهات الصحراء إنما هو « الجن » الذى يظهر للتأهين ، عند ما تجده  
الطبيعة على أصفيائها . لقد سمى العرب هذا السراب جنا ؟ لأنه لا يلوح لهم  
إلا إذا أجتتهم البيداء فى بعض مجاهلها ، وسترهم عن معالمها المأمونة . وليس  
أدل على ذلك من تخصيص العرب أماكن يظهر فيها الجن ، فلا يظهر الجن  
فى كل مكان بالجزيرة ، وإنما يظهر فى المتأهات والأودية الموحشة مثل وادى  
« عقر » و « أبرق الحنان » و « البقار<sup>(١)</sup> » الذى يقول فيه النابغة الذيبانى  
واصفاً جنداً مدججين بالسلاح ، قد اختلط صداً السلاح بعرق أجسامهم ،  
فانبعت منهم رائحة خاصة :

سَهِّكِينْ مِنْ صَدَأْ الْحَدِيدِ كُلُّهُمْ تَحْتَ السَّنَوَرِ جَنَّةُ الْبَقَارِ<sup>(٢)</sup>

وتميز الجن العربية فى أخبار العرب بأنها نموذج للعربي الكريم ، فهى  
مؤنسة غير مؤذية ، بل هي فى الغالب مصدر نعمة ، إذ كثيراً ما شعر التأهون  
كأن الجن توحى إليهم معرفة الطريق الذى أضلوه . كما أن الجن العربية  
تحفظ الجيد من أشعار العرب بالقدر الذى يحفظه بالطبع من يراها منهم .  
وهذه المزايا الإنسانية النادرة فى الجن العربية علامة من علامات الألفة القوية  
بين العرب ، وعناصر الطبيعة العظيمة المحيطة بهم . وهى آية من آيات التكافؤ  
فى المستوى الحيوى بينهم وبينها ، بحيث انعكست صورهم على آفاقها بهذا

(١) راجع فصلاً ممتعاً فى هذا الموضوع للاستاذ أحمد صبرى شويعان فى كتاب التصوف  
فى نظر الإسلام ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) السهكة : الرائحة الكريهة . السنور : السلاح الشام .

الخير والجلال . ولا عجب بعد ذلك أن يشتقوا « العبرية » عندهم من مرأى  
وادي الجن في « عقر »<sup>(١)</sup> .

ونستطيع أن نتصور هذا العربي في هذه المضلة وقد تقطعت به السبل ،  
وخشى على نفسه الملاك ، وتجسمت له مخاوفه غولاً يريد أن يفتاك به ، وما غوله  
في الحقيقة إلا الظمآن الذي يشوى حشاه ، والجوع الذي يفرى أمعاه ، ووقدة  
الماء الجارة التي تصب على رأسه أتوناً مستعرًا من حرارة الشمس ، والوحدة القاتلة  
التي تزيد في وحسته ، فهو يتلمس الخلاص منها ، ويتراءى له على صفة الأفق  
ذلك الرئيسي من الجن الذي صنعته أمانيه ، ليأنس به ، ويهدى في سبيله ،  
ويتزود من قراه .

وهذا التصور أمر طبيعي ، وإن لم يتخيل العربي التائه في هذه المضلات  
اللوحشة ، والأودية المتقطعة ما تخيله من الجن والغيلان ، لم يكن سليم العقل  
معافى الحواس ، بل معتوهًا لا يدرك كنه الخطر الخدق به .

أما الجن الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم فعلمهم عند رب العالمين ،  
ولا تعرض لهم في بحثنا هذا .

ولعلك أدركت من كل ما تقدم أن الفتى العربي ربيب الصحراء ، له  
عقل واقعى مرن ، لا يعرف الأوهام والترهات والخرافات والأساطير ،  
والفلسفات المعقدة التي ولدتها الفروق الاجتماعية الواسعة بين مختلف الطبقات  
في المجتمعات الأخرى ، فتراءات في هواجس الطبقات الفقيرة آلامًا مبرحة ،  
وأحلاماً مفرغة ، وعقدًا عسيرة الحل ، وأخذ الكتاب وال فلاسفة كل يقدم

(١) أحمد صبرى شويعان ص ٣١٥ .

ما ينظمه حلا هذه المشكلات ، في قصة تارة ، وفي نظرية فلسفية أخرى .

إذا رقت أخلاقَ قومٍ مصيبةٌ تصفيَ لها أخلاقَهم وتطيبُ  
أو على حد قول إبراهيم بن كنفيف النبهاني: <sup>ـ</sup>

وقيّنا بحسن الصَّبْرِ مُنَا نفوسَنَا فصحتْ لَنَا الأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هُزِّلَ  
إِنْ هَذَا الْفَتِي الْعَرَبِيُّ الَّذِي وَصَفَ آنَفًا بِالشَّجَاعَةِ، وَكَرَمِ الْيَدِ وَالْقَلْبِ وَكَرَمِ  
الْعَقْلِ، قَدْ تَجْلَتْ مَوَاهِبُهُ هَذِهِ فِي أَوْجِ عَظَمَتِهَا حِينَ جَاءَ الإِسْلَامُ، وَسْتَرَى  
هَذِهِ الْخَلَالِ مَتَّأْلِقَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَّ بِهِ؛ إِذَاً لَمْ تَفَارَقْهُ مَا حَلَّتْهُ بِهِ الْبَادِيَةُ مِنْ  
حَرَايَا أَيْنَا ارْتَحَلَ، وَلَا سِيَّما تَلَكَ النَّظَرَةُ الْوَاقِعِيَّةُ إِلَى مَشَكَّلَاتِ الْجَمَعِ.

(١) أي رحلنا لها نقوسنا الكريمة وحملناها ما لا يستطيع حمله .

### ٣ - الوفاء بالوعد.

من أجمل ما يتحلى به الفتى العربي الوفاء بالوعد ، بل إن الوفاء بالوعد شرط لا مناص منه للفتيان . وذلك لأن الصراحة لازمة للقوة والشجاعة ، فالشجاع هو الصريح الذي لا يخىئ أحداً أو شيئاً . هو الذي يصارح الناس برأيه ، وهو الذي يتثبت عليه لا يترزع ، ويدافع عنه باليد والسلاح ، ويقول كورنيل<sup>٢</sup> الكاتب الفرنسي الشهير : « الرجل الشجاع هو الذي يحافظ على كلامه » <sup>(١)</sup>.

وكثيراً ما يكون في الوفاء بالوعد ما يناقض مصلحة المرء الخاصة ، فليس من الفضيلة أن تفني بشيء لك فيه منفعة ، وفي إنجازه فائدة تعود عليك . بل إن الوفاء بالوعد يتطلب عادة أن يضحي المرء بوجهة نظره الخاصة ، أو بمصلحته الذاتية في سبيل سواه .

فالوفاء بالوعد مبني على الشجاعة ، وعدم الآثرة والمنفعة ، والتضحية . وهذه الصفات تتفق مع ما سبق أن وضخناه من سمات الفتىان ومزايدهم . الوفاء بالوعد يخرج الإنسان من الوحشية إلى الحضارة ، فلا تعود القوة الغاشمة هي القانون والواجب ، ولا تعود المصلحة الخاصة هي القائد الذي يوجه أعمال الإنسان في حياته . وحينما يسود الوفاء بالوعد في مجتمع ما يسود الحياة الثقة والطمأنينة والإيمان : الثقة في الكلمة تعطى ، وفي التوقيع يكتب ، وفي المعاهدات تمهر .

(1) Corneille, Le Menteur Acte 111.

إذا أعطى المرء وعداً ، وكان رجلاً جزاً كامل الرجولة — كما كان فتيان العرب — فليس له أن يرجع فيه أو يحيد عنه ، أو يناقشه مرة أخرى ، بل قانون الفتوة يحتم عليه أن يمضي في إنجازه ، ولو ناقض فائدته ، وعاد عليه بالضر .

وقد اشتهر فتيان العرب بالصدق ، والرجل الصادق هو الرجل الممتاز حقاً في كل صفاتة ، وليس الرجل الصريح أو المخلص خسب . لا يعرفون الكذب ، لأن الكذب إمارة الجبن ، وفتیان العرب شجعان لا ريب في ذلك .

إن هذه الطبيعة الصريحة الواضحة السمات والمعلم قد عالمهم ألا يقولوا إلا الحق ، لأنها بصفتها ووضوحها قد انعكست على نفوسهم . ثم إنهم قوم رحل ليس لهم حكومة منظمة ، ولا قوانين مرسومة ، ولا قوة منفذة ، ولا محامون ولا شرطة ؛ ولذلك كانت كلمة الشرف ، والوعد الصادق هي القانون الذي يقدسه كل عربي ويحرص على احترامه والخضوع له ، حرصاً على مصلحته الخاصة ، وعلى العدالة العامة في المجتمع . وفي ذلك يقول هيرودوت : « ليس ثمة قوم يحافظون على أيمانهم مثل العرب »<sup>(١)</sup> .

لقد كان العرب في حروب دائمة بعضهم مع بعض في سبيل الرزق وأسباب الحياة ، وهذا أمر طبيعي في بيئه مجده شديدة يخربها . وكانوا إذا اشتبكوا في معركة تقاتلوا في قسوة بالغة ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعقد الصلح ، أمن الناس ، وأخذوا يجوبون أرجاء الصحراء طلباً للرزق ، وسعياً بالتجارة من غير أن ينتظروا هجوماً مفاجئاً ، أو أخذوا على غرة ، وأخذت

(1) Hérodote, 111, 8.

القبيلة في الرحيل ، ورعنَّ نعمَّها من غير رهبة من عدو ، أو خشية من غدر ،  
 لأن السيف قد أغمدت ، والحدق قد توارى ولو إلى أجل ؟ وفي قدرة المرأة أن  
 يقابل أعداءه دون خوف ، بل يقابل من له عنده ترة ، وذلك لأن القبيلتين  
 قد اتفقا على الكف عن العداون ، مع أنهم كانوا غالباً من الأميين الذين  
 لا يعرفون المعاهدات المكتوبة والصكوك والمواثيق المسجلة ، بل كانت تكفي  
 الكلمة تقال ، يبرهنها رئيساً القبيلتين فتصير نافذة على الجميع ، لأنها أقوى من  
 القوانين المكتوبة ، والأنظمة التي يدافع عنها بالحراب في المدينة الغربية اليوم .  
 في هذا المجتمع الطبيعي الذي لم تلوثه مفاسد المدينة الحديثة ، وما فيها من  
 نفاق ، وخداع ، وغدر ، وتنافس ذميم على عرض الدنيا ، كان العربي يخشى  
 أن يعرف بالغدر ، وتشيع عنه هذه الخلطة بين قومه وبين سواهم من القبائل ؟  
 لأن الغدر ونقض العهد ، وإخلال الوعد ، يجعله رجلاً لا يعتمد عليه في التائبات ،  
 فيهم له قومه ، ويتحاشاه طلاب الغوث والنجد ، وينفر منه أعداؤه وأصدقاءه ،  
 وهياكلات لرجل يتصرف بهذه الصفة ، وتكون حاله كما ذكرت أن يتبه اسمه ،  
 أو يكون من ذوى الرأى والجاه في قبيلته وهو ما يحرص عليه كل ذى حروءة .  
 ولقد بلغ من كراهيَّة العرب لهؤلاء الذين يغدرُون ، وينقضون المواثيق ،  
 ولا يوفون بالعهود أن يشهدوا بهم في سوق عكاظ فيرفعون لهم ألوية ليعرفُهم  
 الناس بعذرهم فلا يعاملونهم ، ويكون هذا تأدبياً لهم وعظة لسواهم ، وفي ذلك  
 يقول قطبه بن أوس ينفي عن نفسه وعن قومه الغدر ، ويفخر بأنهم قوم أوفياء :  
 أسمى وبحك هل سمعت بعذرَة رفع اللواء لنا بها في مجمع  
 إنما نَعِفْ فلا نُرِيبُ حليفنا ونَكُفْ شح نفوسنا في المطعم

وفي هذين البيتين نرى سبيلاً يجعلان المرء يغدر أحياناً ولا يفي بوعده ،  
أحدهما دناءة النفس ، وعدم عفتها ، فيحلوها ما خرجت عنه ، فتحاول نقض  
الميثاق ، وثانيةما شحها وطمعها فتعتريها الكرازة بعد الجود ، وتندم على تسرعها  
في الوعد ، وتحاول أن ترجع . والفتى الحق هو الذي يقاوم هذه الخسفة في نفسه  
من دناءة وشح فلا يطيعها ويحملها قسراً عنها على الوفاء بما وعدت .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة عديدة على تمسك العربي بكلمة ينطق بها  
ولا يتثنى عنها سبب مهما عظم ، وهاك الحارث بن عباد يأسر عدى بن ربيعة  
المعروف بالمهلهل قاتل ولده بجير في حرب البسوس ، وهو لا يعرفه ، فيسأله عن  
مكان المهلهل ، فيقول له هذا : أطلق سراحى إن دلتكم عليه ؟ فيعده بهذا ،  
فيخبره أنه المهلهل ، فلا يسعه إلا البر بوعده على الرغم من أنه قاتل ولده ،  
ويكتفى بجز ناصيته ، ويطلق سراحه وهو يقول :

لَهُفَّ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدْ أَشْعَبَ لِلْمَوْتِ وَاحْتِوتَهُ الْيَدَانِ  
وهاك حاجب بن زراراة التميمي يطلب من كسرى أن ينزع قومه إلى سواد  
العراق ، لأنهم في ضيق من العيش ببلادهم ، فيطلب منه ضماناً على عدم إفسادهم  
حال العراق ، وإغاثتهم على مدنها العاشرة ، فيرهن له قوسه ، ويشير هذا ضحك  
حاشية كسرى ، ولكن كسرى يدرك عظم الرهينة فيتقبلها . وقد وفي حاجب  
لـ كسرى بما وعد إلى أن مات<sup>(١)</sup> ، وفي ذلك يقول أبو تمام :

إذا افخترتْ يوْمًا تَمِيمًا فخارًا على ما وطدت من مناقب  
فأتمْ بذى قار أمالت سيفك عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب

(١) راجع العقد الفريد ج ١ ص ٩٨

ويشير في البيت الثاني إلى حادثة أخرى من حوادث الوفاء ، أعني وفاة هانئ بن مسعود الشيباني مع النعسان بن المنذر وحماته لنسائه ودروعه حين جاء إليه بعد أن غضب عليه كسرى ، ولما طلب منه كسرى هذه الودائع أبت نفسه العربية أن تغدر بما تعهدت به ، وهو يعلم عظيم الخالفة ، وما تجره عليه وعلى قومه من مصائب . وقد ناصره قومه وأيدوه ، وحاربوا الفرس وهزموهم في موقعة ذي قار سنة ٦١٤ م ليكونه من الوفاء بوعده . وساقص عليك إن شاء الله قصة حنظلة بن أبي عفرة مع النعسان في القسم الثاني من هذا الكتاب ، وكيف وفي بوعده مع أنه يعلم جدّ العلم أن في هذا الوفاء ميتته ، وأنه مقتول لا محالة .

وسرى فيما بعد أن هذا الخلق الـكـرـيمـ كانـ منـ أـعـظـمـ ماـ اـشـهـرـ بهـ العربـ بعدـ الفـتحـ الإـسـلـامـيـ ، وـلـمـ يـجـدـ مـنـهـ النـصـارـىـ أوـ الـيهـودـ أـىـ مـيلـ للـغـدرـ ، وـفـكـثـ بـالـوـعـدـ ، وـنـقـضـ لـلـعـهـدـ ، بلـ عـاـشـواـ فـيـ ظـلـهـمـ آـمـنـينـ مـطـمـئـنـينـ .

## ٤ - حماية الضعيف

وحماية الضعيف قانون طبيعي للفتيان ، لأنهم يشعرون بقوتهم الجسمية ، وقد تأصلت في نفوسهم صفة البذل والتضحية ، ومن أولى برعايتهم من الضعفاء ؟ إن النطوع لحماية الضعفاء أهم ما يميز الرجل الشهم الكامل والفارس الحق .

« مهمة الفارس هي حماية المرأة والأرملة ، واليتامى ، والضعاف من الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث »<sup>(١)</sup> . هكذا يقول « لا كورن دى سانت بالاي » ، وهذه هي صفة الفتى الأمجاد الذين نعموا بالنشأة الطيبة بين أحضان الصحراء ؛ لأن هذه الصحراء ، والحياة القبلية ، فرضت عليهم أن يخففوا من الأخطار الخدقة بهم فتعاهدوا فيما بينهم على حماية المرأة ، والضييف والجار والضعيف .

إن هذه الفضيلة تتطلب من الفتى أن يتصرف بكل صفات الفتوة الأخرى من شجاعة وكرم ووفاء ، وهي خلة ترقى بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية ؛ لأن من يتعرض لنصفة المظلوم ضد الظالم ، وإغاثة الملهوف المكروب ، والانتقام من القوى للضعيف ، ومد يد المساعدة للحق المهضوم ، ينصب نفسه بطلاً من أبطال الخير ضد الشر المتصر . وفي هذا كرم وسخاء دونه كل كرم وكل سخاء ، ونكران للذات دونه كل نكران .

(1) Mémoirs Sur L'ancienne Chevalerie, t. I, note 36 Sur la partie P. 129 Lacurne de Saint-Palay e.

من اليسير أن يعيش الإنسان في هذه الحياة عيشة وادعة هينَةً لينةً ،  
بأن يغمض عينيه وفمه وأذنيه ، فلا يرى شيئاً ولا يقول شيئاً ، ولا يسمع إلا  
ما يهمه من قرب أو بعد أو يعود عليه بخیر قل أو كثـر . ييد أن روح الفتـوة  
وشعار الفرسـان يأيـان ذلك ؟ لأن كل ما يمس الإنسـانية الضعـيفة يمسـهم . وكان  
الله قد أقامـهم في هذه الأرض لتحقيق العـدالة وهذه رسالة بالـغة في السـمو  
أعلى مـنزلة .

وقد وضع فرسـان الصـحراء كل ما وهـبـهم الله من قـوـة وحـول وـمال  
وشـجـاعة فـائـقة لـحـمـاـية الـبـائـسـين ، وـنـجـدة الـمـلـهـوـفـين ، وـإـغـاثـة الـمـحـرـوبـين بـنـفـسـهم  
الـكـرـمـ والـأـرـيـحـيـة الـتـى يـمـذـلـون بـهـاـ المـال . وـتـبـجلـيـ هذهـ الصـفـةـ فيـ عـدـةـ مـظـاهـرـ :

١ - حـمـاـيةـ الجـار . وـالـجـارـ هوـ ذـلـكـ الشـخـصـ الذـىـ يـنـزـلـ بـجـوارـ آخـرـ  
طـالـبـاـ حـمـاـيـتـهـ ، أوـ يـلـجـأـ إـلـيـهـ لـيمـعـهـ مـنـ أـعـدـائـهـ ، فـإـذـاـ قـبـلـ جـوـارـهـ صـارـ وـاحـداـ مـنـ  
أـفـرـادـ أـسـرـتـهـ وـعـشـيرـتـهـ ، وـسـمـىـ حـلـيفـاـ أوـ مـوـلـىـ أوـ جـارـاـ ، لـهـ كـلـ مـاـ لـأـفـرـادـ  
الـقـبـيـلـةـ مـنـ حـقـ وـرـعـاـيـةـ مـاـ دـامـ فـيـ جـوـارـهـاـ مـتـمـتـعـاـ بـحـمـاـيـتـهـ .

وـإـذـاـ كـانـ قـانـونـ الصـحـراءـ يـأـبـىـ عـلـىـ الـعـرـبـيـ أـنـ يـرـفـضـ ضـيـافـةـ الـغـرـبـ ،  
فـكـذـلـكـ فـرـضـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـحـبـ بـمـنـ يـلـجـأـ إـلـيـهـ طـالـبـاـ حـمـاـيـتـهـ ، وـكـاـنـ إـلـيـنـاسـانـ  
لـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـمـيـزـ بـيـنـ رـبـ الـبـيـتـ وـضـيـفـهـ فـكـذـلـكـ لـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـمـيـزـ الجـارـ  
مـنـ جـارـهـ .

كـانـ الـعـرـبـ يـحـمـيـ جـارـهـ مـاـ دـامـ حـيـاـ ، وـإـذـاـ اـضـطـرـ لـلـرـحـلـةـ أـوـصـىـ بـهـ أـهـلـهـ  
وـأـوـلـادـ وـعـشـيرـتـهـ ، وـأـعـانـتـهـ قـبـيـلـتـهـ فـيـ الـمـحـافظـةـ عـلـىـ هـذـاـ الجـارـ . وـقـدـ يـغـضـبـ كـلـ  
الـغـضـبـ إـذـاـ رـحـلـ عـنـهـ جـارـهـ وـتـنـازـلـ عـنـ حـمـاـيـتـهـ لـهـ ، وـلـجـأـ إـلـىـ سـوـاـهـ ، كـاـرـحـلـ

الخطيئة<sup>(١)</sup> عن الزبرقان بن بدر ، ولجأ إلى بغيض بن شماس بن لأى ، وعد الزبرقان ذلك طعناً في كرامته ، وأبى إلا أن يذهب إلى الخطيئة وبغيض كى يعود إلى جواره ، ولما خير الخطيئة اختار بغيضاً فسألة الزبرقان : « يا أبا ملائكة ! أفارقت جواري عن سخط ودم ؟ قال : لا » فتركه وظل آل شماس ابن لأى يحرضون الخطيئة على هجاء الزبرقان وهو يقول لهم : لا ذنب للرجل عندى . حتى أرسل الزبرقان إلى شاعر آخر هجا بغيضاً فرد الخطيئة عليه وهجا الزبرقان ، ودافع عن بغيض بقوله :

وَاللَّهِ مَا مَعْشَرٌ لَامُوا اصْرَأً جُنْبًا فِي آلِ لَأْيٍ بْنِ شَمَّاسٍ بِأَكِيسٍ  
 مَا كَانَ ذَنْبٌ بِغَيْضٍ لَا أَبَا لَكُمْ فِي بَأْسٍ جَاءَ يَحْدُو آخْرَ النَّاسِ  
 لَمَا بَدَا لَيْ مِنْكُمْ غَيْبٌ أَنفُسَكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجَرَاحِي فِي كُمْ آسَى  
 أَزْمَعْتُ يَأْسًا مُبِينًا مِنْ نَوَالَكُمْ وَلَنْ يُرَى طَارِدًا لِلْحَرْ كَالِيَّاسِ  
 جَارٌ لِقَوْمٍ أَطْلَالُهَا هَوْنَ مَنْزَلَهُ وَغَادِرُوهُ مَقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسِ  
 مَلُوَا قِرَاهُ وَهَرَّتُهُ كَلَابُهُمْ وَجَرَحُوهُ بَأْنِيَابٍ وَأَضْرَاسٍ  
 دَعَ الْمَكَارَمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعَدَ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي  
 مِنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَّهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ  
 وَقَدْ حَسِبَهُ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَجَائِهِ الزَّبْرَقَانَ ، وَأَخْذَ يَسْتَعْظِفُهُ

وَهُوَ فِي سَجْنِهِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخِ بَذِي مَرَّاخِ رُغْبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرَ

(١) انظر القصة كاملة في الأغانى . ومهذب الأغانى ج ٢ ص ٣٥

أُلقيتَ كاسبِهِمْ فِي قَعْرِ مَظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ يَا عَمَّ  
 فِي كِسْكِي عَمَّرْ وَعْفَاعَنْهُ وَاشْتَرَى مِنْهُ أَعْرَاضَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا بِثَلَاثَةِ آلَافِ دَرْهَمٍ .  
 وَكَثِيرًا مَا شَبَتِ الْحَرْبُ مُسْتَعْرَةً إِلَّا وَارِ ، قَوْيَةُ الْلَّظَى لَأَنَّ جَارَ الْقَبِيلَةِ  
 قَدْ أَهَيْنَ أَوْ أَذَلَّ ، أَوْ اعْتَدَى عَلَيْهِ ، وَخَيْرٌ مِثْلُ يَضْرِبُ لِذَلِكَ حَرْبُ الْبَسُوسِ .  
 وَقَدْ كَانَتِ الْبَسُوسُ خَالَةُ جَسَّاسَ بْنِ مَرْسَةَ ، وَكَانَ كَلِيبُ وَائِلَّا قَدْ بَغَى وَطَغَى  
 وَتَجَبَّرَ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ سُطُوتِهِ أَلَا يَجِيرُ أَحَدٌ مِنْ بَكْرٍ وَتَغلَّبُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَحَدَّثَ  
 أَنَّ الْبَسُوسَ نَزَّلَتْ بِجَوَارِ جَسَّاسٍ فَصَارَتِ فِي حَمَاهِيَّتِهِ ، وَرَأَى كَلِيبَ نَاقَّهَا بَيْنَ  
 أَيْنِقَهُ فَأَنْكَرَهَا ، فَلَمَّا سَأَلَ عَنْهَا أَخْبَرُوهُ بِأَنَّهَا لِلْبَسُوسِ جَارَةُ جَسَّاسٍ ، فَقَالَ كَلِيبُ :  
 أَوْ قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِ بْنِ السَّعْدِيَّةِ أَنْ يَجِيرَ عَلَىَّ بَغِيرِ إِذْنِي ؟ أَرْمِ ضَرَعَهَا يَا غَلامَ !  
 فَأَخْذَ الْقَوْسَ فَرَمَى ضَرَعَ النَّاقَّةَ فَاخْتَلَطَ دَمُهَا بِلَبَنِهَا وَرَاحَتِ الرَّعَاةُ فَأَخْبَرُوا  
 جَسَّاسًا بِخَبَرِهَا ، فَشَارَ ، وَغَضَبَ لَأَنَّ جَارَتِهِ وَخَالَتِهِ أَذَلَّتْ ، وَقُتِلَ كَلِيبًا سَيِّدَ  
 مُضْرِرٍ ، وَكَانَ هَذَا سَبِيلًا فِي حَرْبِ ضَرُوسٍ ، ظَلَّتْ مُشْتَعَلَةً أَمْدَأَ طَويَّلًا . وَقُتِلَ  
 فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ بَكْرٍ وَتَغلَّبَ عَلَىَّ السَّوَاءِ<sup>(١)</sup> .

وَقَدْ أَعْزَى الْعَرَبُ حَلْفَاهُمْ وَالْمُتَحَرِّمِينَ بِجَوَارِهِمْ ، وَأَنْزَلُوهُمْ مِنْزَلَةَ أَنْفُسِهِمْ  
 وَأَهْلِهِمْ ، حَتَّىٰ إِنْ قَرِيشًا كَانَتْ تَأْبِي أَنْ تَزُوِّجَ بَنَاتَهَا مِنْ غَيْرِ قَرْشَىٰ إِلَّا أَنْ  
 يَكُونَ حَلِيقًا لَهَا . بَلْ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ مِنْزَلَةِ الْجَارِ الْحَلِيفِ لَدِيِّ بَعْضِ الْقَبَائِلِ أَنَّهُ  
 كَانَ يُعْدُ مِنَ الْأَهْلِ وَيُرِثُهُ الْمُجِيرُ إِذَا مَاتَ وَهُوَ بِجَوَارِهِ<sup>(٢)</sup> وَكَانُوا يَذْهَبُونَ  
 بِالْجَوَارِ إِلَى ما بَعْدِ الْمَوْتِ ، كَمَا فَعَلَ عَامِرُ بْنُ الطَّفَيلِ مَعَ الْأَعْشَىٰ حِينَ اسْتِجَارَ بِهِ .  
 فَقَالَ لَهُ أَتَجِيرُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْجَنْ ? قَالَ : قَدْ أَجْرَتَكَ . قَالَ : وَمِنَ الْمَوْتِ ؟

(١) انتظر مهدب الأغانى ج ١ ص ١٨٤ .

قال : نعم ، قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جواري  
بعثت إلى أهلك الديمة . قال : الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت .

ولقد كانت حياة الجار واعزازه مفخرة يلهج بها شعراً لهم ، ويتمدح بها  
رجالهم ، وفي ذلك يقول أسد بن كور يفتخر برد العداة عن جاره :  
وما جار يتي بالذليل فترتجى ظلامته يوماً ولا بالتهمض  
ويقول السؤول :

وما ضرَّنا أَنَا قليل وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأَكثرين ذليل  
ويقول عدى بن زيد يمدح بنى شيبان :

إني حمِّدت بنى شيبان إذ حمَّدت نيران قوى ، وفيهم شبَّت النار  
ومن تكرِّمهم في محلِّ أَنْهُم لا يعلمُ الجار فيهم أنه الجار  
حتى يكونَ عزيزاً مِنْ نفوسهمُ أو أن يَبْيَنَ جميماً وهو مختار  
كأنه صَدَعُ في رأس شاهقة من دونه لعتاق الطير أو كار  
ويوصى المثقبُ العبدى ابنه بإكرام الجار ومعرفة حقه فيقول :

أَكْرَمُ الْجَارِ ورَاعَ حَقَّهُ إِنْ عَرَفَانَ الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمٌ  
ويقول : زهير :

وجارُ الْبَيْتِ وَالرَّجُلُ الْمَنَادِيُّ أَمَامُ الْحَيِّ عَدْهَا سَوَاءٌ<sup>(١)</sup>  
ويدرك الجار أنه عزيز بين من لجا إليهم ، وأنهم يمنعونه من الضيم ،

(١) الأغانى ج ٦ ص ٨٩ ، المنادى : المجالس فى الندى .

ويسلدون مفاقرمه ومحارمه كما قال شقران مولى سلامان من قضاة :  
لو كنتُ مولى قيس عَيْلَانَ لَمْ تجذِّبْ عَلَى إِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دَرَهَا  
ولكني مولى قضاة كلها فلست أَبْلِي أَنْ أَدِينَ وَتَغْرِيْمَا  
كان الفتى العربي يرحب بكل قادم إليه ، وكل لاجئ يطلب عنده ،  
لا يسألة : من هو ؟ وما أصله ؟ وما سبب خوفه ؟ بل يمنحه حمايته بدون تردد  
أو تلوم . وفي هذا ولا شك بعض المخاطرة ، فقد يكون اللاجيء مجرماً أثيناً .  
وكم من عظاماء أضفوا حمايتهم على بعض الجرميين وهم أعداء الأسرة والعشيرة  
والقبيلة جماء . كان العربي يمنح حمايته لمن يطلبها بريئاً أو مجرماً ، ظالماً  
أو مظلوماً ضد كل إنسان ، ويعد من نقص المرؤة أن يعلم المرء السبب الذي  
دفع اللاجيء إليه قبل أن يمد له يد المساعدة ويقبله ؛ فقد كان هذا سمة  
الضعف والجبن والخور ، وحاشا للفتى العربي أن يرضى الاتصاف بمثل هذه  
الصفات ، وأن يوصم بها ، بل إن في هذه المخاطرة بحماية الضعفاء واللاجئين ،  
ولو كانوا من تنكرت لهم شتى القبائل ، دليلاً على القوة والمكانة الأدبية  
بين القبائل ، ودليلًا على الشجاعة الفائقة ، التي لا تحد بحدود ، ولا تقيد  
بقيود ، ولذة يسعى لها فتيان العرب ، حتى يلهج الناس بذكرهم ، وبيشدوا  
بمفاخرهم ، وهو المجد الذي ينشدونه ، وطيب الأحاديث الذي يرجونه .

وكثيراً ما يرى اللاجيء أن خير مكان يأمن فيه على نفسه هو أن يرتكب  
بين أحضان عدوه ؛ ويعتقد حينئذ أنه في حصن مكين ، لا يصل إليه منه سوء ،  
أو يمسه ضر ، لأن النخوة العربية ، وتقالييد الفتوة تأمين على عدوه أن ينقض  
عهد الجوار ، ويختفر ذمته ، أو ينتقم منه ما دام متزحراً بذمامه ، لاجئاً إليه .

ولهذا كان الفتى العربي الذى يخشى الوقوع فى مثل هذا الإحراج ، ويريد  
الانتقام لشرفه المخدوش ، أو يأخذ بثأره من عدو مبين ، يصن عليه بالصفح  
والغفرة ، يعلن على الملأ أنه يحمى كل لاجىء إلا أن يكون فلاناً ، فإذا تمكّن  
من خصميه فى أى مكان كان فى حلٍ من أن ينتقم لنفسه من غير لوم أو تعذير .  
ويعلم هذا الخصم حينذاك أنه ليس فى مأمن إن دنا منه أو ألقى بنفسه فى طريقه ،  
ولذلك يتتحاشاه إن كان غير قادر على مقارعته .

وقد يبلغ بعض الرجال من الشهرة والعظمة أو الإحسان درجة لا يستطيع  
بعض الناس أن يجبروا من يطلبونه بوتر أو قصاص ، ولذلك يعلن من يطلب  
منه الجوار والحماية أنه يجير اللاجىء إليه إلا إذا كان فلاناً طرید فلان ؛ رعاية  
منه لحرمته وسابق فضله عليه .

وإذا أساء الجار ، ولم يرع حرمة البيت الذى آواه ، لخسنة فيه ، أو نزق  
وطيش ، استنكفوا أن يهينوه وهو متمنع بجوارهم . وقد حدث لفاطمة بنت  
الْخُشْرَب<sup>(١)</sup> أم الريبع بن زياد أحد سادات بنى ذبيان ، أن جارها راودها  
عن نفسها في غيبة أولادها ، فامتنعت عليه ، فلما بلغ به النزق والسفه مبلغاً  
كبيراً ، وخشيته العار ، نادت ابنها الريبع فأخبرته بما فعله ذلك الجار الأحمق ،  
فامتشق سيفه وأراد أن يقتله ، ولكن راجعته نفسه : وقال : لا أريد أن أدنس  
اسم أمي وأريق دم جارى ، وعفا عنه ، وهى حادثة مشهورة في كتب الأدب .  
وهذا لعمرى منتهى الحلم والكرم .

(١) وكانت فاطمة هذه تسمى أم الــكــملــة ، وهى التي قالت فيهم المثل المشهور : إن  
الحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، ومن الأمثال التي ضربتها وصارت ذخيرة للعرب قولهما :  
حسبك من شر سماعه ، في قصة معروفة أيام حرب داحس والعباء .

وقد بلغ من تطوعهم لحماية الضعفاء أنهم كانوا يجرون الوحوش ، ويجررون الطير ؟ رحمة منهم وفرط ثقة بـ مكانتهم وقوتهم ، و موقف عمرو بن العاص من اليمامة التي اتخذت من فسطاطه ملحاً ، وباست فيه وفرحت ، ولم يشاً أن يزعجها بتقويض الفسطاط حين عزم على غزو الإسكندرية حتى يكبر أولادها ، وتأمن على نفسها وعليهم ، مشهورة في كتب التاريخ والأدب .

٢ — ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية دعوة المكرر بين في الحرب ، بدون تردد أو سؤال ، ف كانوا إذا سمعوا الاستغاثة نهضوا للنجدة ل ساعتهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم      في النائبات على ما قال برهانا

ويكونون كما قال ودّاك المازني :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم      لآية حربِ أم بأى مكان  
أو كما قال الحطيئة يصف فتياناً شجاعاً :

وفتيان صدق من عدي عليهم صفائح بصرى علقت بالعواشق

إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق

وطاروا إلى الجرد العتاق فأجلموا وشدوا على أوساطهم بالمناطق

أولئك آباء الغريب وغاية الصـ ريح و Maoi المـ ملين الدرادق

أحلوا حياضَ المجد فوق جاههم مكانَ النواصى من وجوه السوابق

وكان الفتىـ يـ يـ خـرون بـ تـ لـ يـ هـمـ دـ عـاءـ المـ كـ رـ بـ ، وـ نـ دـاءـ الـ حـ رـ بـ ، وـ الشـ عـ رـ

الـ عـ رـ بـ غـ اـ صـ بـ مـ ثـ لـ هـ ذـ اـ فـ خـ ؟ اـ سـ تـ مـ عـ إـ لـىـ دـ رـ يـ دـ بـ نـ الصـ مـ يـ قـ وـ لـ لـ اـ مـ رـ أـ تـ هـ حـ يـنـ

عـ دـ رـ تـ هـ بـ قـ وـ لـ هـ : قـ دـ سـ نـ دـ تـ وـ ضـ عـ فـ جـ سـ مـ كـ ، وـ قـ تـ لـ أـ هـ لـ كـ ، وـ فـ نـ شـ بـ اـ بـ كـ ،

ولا مال لك ، ولا عُدة ، فعلى أى شئ تُعوَّل إن طال بك العمر ؟ وعلى أى  
شيء يخاف أهلك إن قتلت ؟ ! :

أعادل إنساناً أفنى شبابي رُكobi في الصريح إلى المنادي  
مع الفتيان حتى كَلَ جسمى وأفرح عاتقِ حَمْلِ النِّجَاد  
أعادل إنساناً دني بدني ورمحى وكل مُقلصٍ شَكِيس القياد  
ويبقى بعد حلم القوم حلمى ويفنى قبل زاد القوم زادى  
ولقد مرّ بنا عند الكلام عن الشجاعة أكثـر من مثلـل على سرعة  
استجابتهم للصريح ، وإغاثتهم للملهوف ، وهذه سمة الفتـوة الحـقة ؛ لأنـها تطـوع  
وتضـحـية ، ودفعـ عن ضـعـيف .

٣ — ومن حماية الضعـيف فـك العـانـى الذى أسرـ فى حـرب ، وقد يكون  
ذلك عن طـريق المـغـامـرة فى سـبـيل إـقـاـدـه عـنـوة ، أو عن طـريق الفـداء ، ودفعـ  
ما يـطلـبه مـن أـسـرـه مـن مـالـ . وهـذه مـفـخـرة أـخـرى يـتـغـىـ بها الشـعـراء ، ويـمـدـحـ  
الـشـجـعـانـ ؛ استـمعـ إلى الخـنسـاء تـمـدـحـ أـخـاهـا صـخـراً بـقولـها :

إـنـى قد عـلـمـتـ وجـدـكـ بالـجـمـ دـ وـإـطـلاـقـكـ العـنـاءـ الجـنـاحـاـ  
وـبـقولـها :

رـدـادـ عـادـيـةـ فـكـالـكـ عـانـيـةـ كـضـيـغـ باـسـلـ لـلـقـرـنـ هـصـارـ<sup>(١)</sup>

ويـقـولـ زـهـيرـ يـمـدـحـ هـرـمـ بـنـ سنـانـ :

أـغـرـ أـيـضـ فـيـاضـ يـفـكـكـ عنـ أـيـدىـ العـنـاءـ وـعـنـ أـعـنـاقـهاـ الرـبـقاـ

(١) عـانـيـةـ : أـسـيـرـ ، وـالـضـيـغـ : الأـسـدـ ، وـالـقـرـنـ : نـدـ المـرـءـ وـكـفـؤـهـ فـيـ القـتـالـ .

ويقول حاتم الطائي يفتخر :

أراد ثراء المال كان له وفر  
فإن لا آلو بمال صناعة فاوله زاد وآخره ذخر  
وقد علم الأقوام لو أن حاتماً  
يُفكَّ به العانى ويؤكل طيباً  
وما إن تعرّيه القداح ولا الخمر  
ويقول في موضع آخر :

إذا كان بعض المال رباً لأهله فإن بحمد الله مالى معبد  
يُفكَّ به العانى ويُعطى إذا من البخيل المصرد<sup>(١)</sup>

٤ — ومن حماية الضعيف الدفاع عن المرأة ، وهذا هو أول شروط الرجلة  
الحقة ، والدفاع عنها — فضلاً عن أنه دفاع عن مخلوق ضعيف — ، دفاع  
عن العرض والشرف ، وهو أعظم ما يفهم به العربي . وكان من العار البالغ  
عند العربي أن تؤسر نساؤه ، وفي ذلك يقول يزيد بن حنظلة يحرض قومه على  
الاستبسال في القتال :

من فر منكم فر عن حرمه وجاره وفر عن نديمه  
وساقص عليك فيما بعد بسالة ربيعة بن مكدم في الدفاع عن امرأته ،  
ويسمى المدافع عن النساء والأعراض حامي الذمار ، وحماية الذمار ، خير  
ما يفتر به الفتى العربي ليصون عرضه ويحمي عقيلاته وفي ذلك يقول : زهير مدح :  
حامي الذمار على محافظة إل جليل أمين مغيث الصدر  
ويقول عمرو بن كلثوم :

(١) المصرد : اسم فاعل من صرد تصريداً أي قدر وقلل ، وهو في السقى دون الري

على آثارنا بيسْنَ كرامٌ نُخاذِرُ أَن تُفَارِقَ أَو تَبْهُونَا  
 ظعائِنُ مِنْ بَنِي جُحَشَّ بْنِ بَكْرٍ خَلَطَنَ بِمِسْمَ حَسِيباً وَدِينَا  
 إِذَا مَارُحَنَ يَشِينَ الْمُؤْيَنَا كَاضْطَرَّتْ مَتَوْنَ الشَّارِبِينَا  
 يَقْتُنَ جِيادَنَا وَيَقْلُنَ لَسْتَمَ بُولْتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا  
 وَمِنْ حِمَايَةِ الْمَرْأَةِ عَدْمُ التَّعْرُضِ لَهَا بِسُوءِ ، وَالْمَحَافَظَةُ عَلَى عَفَافِهَا وَعَلَى حِرْمَتِهَا  
 عَلَى حِدْقَوْلِ عَنْتَرَةِ الْعَبْسِيِّ :  
 وَأَغْضَ طَرْفِ إِنْ بَدَتْ لَيْ جَارِيٍّ حَتَّى يُوازِي جَارِيٍّ مَأْوَاهَا  
 وَقُولُ حَاتِمَ الطَّائِي يَفْخُرُ بِعَفْتِهِ وَاحْتِرَامِهِ لِحَرَماتِ جَارِهِ :  
 وَمَا ضَرَّ جَاراً يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ فَاعْلَمِي يَحَاوِرِنِي أَلَّا يَكُونَ لَهُ سِرْتَرٌ  
 بَعِينِيَّ غَنِ جَارَاتِ قَوْمِيَّ غَفَلَةٌ وَفِي السَّمْعِ مِنِي عَنْ حَدِيثِهِمْ وَقُرْ  
 وَقُولُ الْخَنْسَاءِ فِي أَخِيهَا :  
 لَمْ تَرَأْ جَارَةٌ يَشِي بِسَاحِتِهَا لَرِبِّيَّ حِينَ يُخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ<sup>(١)</sup>  
 وَرَثَى أَعْشَى بِاهْلَةَ الْمُنْتَشِرِ بْنَ وَهَبَ بِقُولِهِ :  
 لَا يَهْتِكُ السِّرْتَرَ عَنْ أَنْتِي يَطَالِعُهَا وَلَا يَسْدُدُ إِلَى جَارَاتِهِ النَّظَرَا  
 وَيَقُولُ عُمَرُو بْنُ الْإِطْنَابَةِ الْخَزْرَجِيُّ فِي آدَابِ الْفَتُوَّةِ وَسُلُوكِ الْفَتَيَانِ نَحْوِ  
 جِيرَانِهِمْ وَجَارَاتِهِمْ :

إِنِّي مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا اتَّدَوْا بَدَعُوا بِحَقِّ اللَّهِ ثُمَّ النَّاثِلَ<sup>(٢)</sup>

(١) تَرَأْ : تَرَهُ .

(٢) اتَّدَوْا : جَلَسُوا فِي النَّدِيِّ أَوِ النَّادِي ؛ وَالنَّاثِلُ : عَطَاءُ السَّائِلِينَ .

المانعين من الخنا جاراً لهم والحاشدين على طعام السائل<sup>(١)</sup>

والخاطلين فقيرَهم بغيرِهم والبازلين عطاءُهم للسائل

ومنعهم جاراً لهم من الخنا يكون بعفافهم ، وحسن سلوكهم ، ويكون برعاية شئونهن ، وتفقد أحواهن حتى لا تخبرهن حالات العسر والضيق إلى بذل ماء الوجه ، والتعرض للفتنة ، أو يبع العرض .

ولقد بلغ من حفاظ الغرب على نسائهم أن المرأة العربية الحرة لا تزني ، ولا تعرف الخنا ، ولقد قالت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان للنبي عليه السلام حين تلا عليهن قوله تعالى : « ولا يسرقنَ ولا يزنن » : « أو تزني الحرة يا رسول الله؟ » وقالت : « ما أقبحه حلالاً فكيف به حراماً؟ » .

إن العفة أكبر دليل على ما تتمتع به نفوس هؤلاء الفتىيَّان من مناعة طبيعية ، وعلى أنهم قد علوَّا بتلك النفوس إلى مرتبة سامية من منازل الإنسانية ؛ فالمعلوم أن الغريزة الجنسية أقوى غريزة في الإنسان ، لأنها تهدف إلى بقاء النوع ، حتى ذهب بعض علماء النفس إلى أنها هي التي تتحكم في كل حركات الإنسان وسكناته ، وشقي أحواهه ؛ ومع ذلك فهي من الغرائز الدنيا عند الإنسان ؛ تلك الغرائز التي حاول تهذيبها ، وسُنت لها قوانين الزواج والطلاق والمعاملات في الجماعات المتمدنة منذ أن عرف الإنسان خطرها .

والتحكم في هذه الغريزة يفرق بين الإنسان والحيوان . وقهق النفس وإخضاع الغرائز لحكم العقل فتوة ما بعدها فتوة ؛ لأن في ذلك شجاعة ، وصلابة ، وقوه إرادة ، وتصحية بنزوات ورغبات فيهم الذائق عاجلة ، وسموه بهذه الغرائز

(١) أى لا يطعمون الصيف وحده بل يجمعون الناس ليؤنسوه ويشاركوه .

إلى المجد والسؤدد والشرف .

\* \* \*

و بعد فهذه هي الفتوة العربية في صورتها الأولى ، أيام أن كان العرب أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، وليس لهم حكومة منظمة ، أو رئيس واحد يديرون له بالطاعة ، ولا يعرفون قانوناً سماوياً أو وضعياً ، وليس لهم من هادي سوى فطرهم السليمة ، وما توحى به تلك الطبيعة القاسية التي تحيط بهم ، وما تفرض عليهم حراوئهم من عادات وطبعات .

لقد جعلتهم هذه الأخلاق الكريمة التي دأبوا على التطبع بها قروناً قبل الإسلام ، حتى تمكنت من نفوسهم ، وأحلوها محل الشريعة المفروضة ودانوا لها جمِيعاً — أهلاً لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء . وسيد المسلمين ، ليكونوا « خير أمةٍ أُخرجت للناس » ، وليحملوا نور الهدایة وهاجاً إلى العالمين . لقد اختارهم الله من بين شعوب الأرض قاطبة لحمل هذه الرسالة الكريمة ، لأنهم تميزوا عن معاصرهم بخلال وسبحابها وعرف كريم ، ولأنهم خير من يفهمها ويستجيب لها ، ويعمل بها ، وينقلها إلى الناس كافة في جد ودأب ، وتواضع ومرحمة ، ولذلك دان لهم العالم في يسر ، وفي أمد وجيزة؛ لأنه كان يئن من الظلم والبغى ، وأنه كان في شوق إلى من يأسو جراحه ، ويأخذ بيده ، وينتشله من وَهْدَةِ الرذائل ، وحِمَاةِ المظالم ، ويدفعه إلى الطريق المستقيم : طريق النور ، والعدل ، والمساواة والمحبة برفق وحنان .

لقد كانت هذه الفتوة العربية التي نشأت فطرية في الجاهلية نموذجاً حياً للعالم ، وجاء الإسلام فأقرها وهدّها ، وعنهما أخذت أورباً نظمة الفرسية كاسترى إن شاء الله .

## الفتوة في الإسلام

اشتهر الإسلام بأنه « دين الفطرة » ، والفطرة هي الخير ، والخير هو الغاية التي تهدف لها الإنسانية الكاملة . ولما كان العرب في الجاهلية على الفطرة ، فقد جاء الإسلام مهذباً ، ومكملاً ، وموجهاً لهذه الفطرة العربية السليمة ، حتى يُعدّهم لرسالة حليلة ، وهي هداية العالم ، ولذلك قال تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ ». و قال تعالى :

« وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَاجٍ مِّلَةً أَيْسَكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلٍ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ».

لقد اتصف فتيان العرب في الجاهلية بكثير من خلال الخير ، ومكارم الأخلاق ، وكانوا قدوةً لقومهم وزعماء لهم ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّمَا بَعَثْتُ لَأَنْتَمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » فالحديث الشريف يثبت أنَّ عرب الجاهلية ، كان فيهم من يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأنَّ النبي عليه السلام قد جاء رسالته العظيمة ليتمم هذه المكارم الخلقيَّة .

لقد كان النبي عليه السلام من أشرف العرب أرومة ، وأمجادها ييتَّا ، وكان يعلم حَدَّ العلم ما يتحلى به قومه من خلق ، وما يشينهم من صفات ، ويعلم أنَّ العرب قد تعارفوا فيما بينهم على سجايا حميدة يحبونها ، ويتغدون بها ، وهي

تلك الصفات الكريمة التي ذكرناها آنفًا، وأن الفتوة العربية تراها واجبة لازمة،  
ولا أدل على أن رسول الله كان يعجب بمن اتصف بهذه المكارم من عرب  
الجاهلية من موقفه مع سقّافات بنت حاتم الطائفي، وسأذكّر الحديث كاً روى عن  
عليّ بن أبي طالب<sup>(١)</sup>؛ لأن في المقدمة التي صدر بها كلامه مغزى عظيم ؛ قال على  
— كرم الله وجهه — ياسبحان الله! ما أزهدَ كثيراً من الناس في الخير! عجبت  
لرجل يحييئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كنا لا نرجو جنة،  
ولاحف ناراً، ولا ننتظر ثواباً، ولا نخشى عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطلب  
مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاة.

فقام إليه رجل فقال: فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين! أسمعته من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم ؛ وما هو خير منه ؟ لما أتينا بسبايا طيّي  
كانت في النساء جارية حماء<sup>(٢)</sup>، حوراء العينين لعساه<sup>(٣)</sup> ملياء عيظاء، شماء  
الأنف، معتدلة القوم. فلما رأيتها أُعجبت بها، قلت: لأطلبنها إلى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فيءِ، فلما تكلمتُ أنسىتُ جمالها،  
لما سمعتُ من فصاحتها، قالت: يا محمد، هلكَ والد، وغاب الوارد، فإن  
رأيتَ أن تخلي عنِي، فلا تُشمتْ بي أحياء العرب؟ فإني بنتُ سيدِ قومٍ؛  
كان أبي يفك العاني، ويحْمِي الدمار، ويقرى الضيف، ويُشبعُ الجائع،  
ويفرج عن المكروب، ويُطعم الطعام، ويُفْشى السلام، ولم يردد طالب حاجة

(١) الأغانى ص ٩٣ ج ١٦، وسرح العيون لابن نباتة المصرى ص ٧٣، وقصص  
العرب للأستاذة جاد المولى وأبو الفضل ابراهيم وعلى البحاوى ج ٢ ص ٨٣

(٢) حماء: سوداء.

(٣) اللعس: سواد مستحسن في الشفة، لمياء: مثل لعساه، وعيظاء: طولية العنق

قطُّ ، أنا بنتُ حاتِم طيءٍ . فقال لها رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا جاريَة ! هذه صفات المؤمن ، ولو كان أبوك إسلامياً لترجمنا عليه . خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكام الأخلاق !

فعلى رضى الله عنه يرى أن مكارم الأخلاق ، وإن لم يكن مبعثها رغبة في ثواب ، أو خشية من عقاب تكفي للنجاة ، أو تدل على سبيل النجاة ، وموقف النبي عليه السلام مع سفانة ، وثناؤه على والدها أكبر دليل على أنه كان معجبًا بهذا الخلق الـكـرـيم الذي اتصف به أبوها ، مع أنه لم يكن مسلماً تأتيه الموعظة من ربه ، ويرى في رسول الله أسوة حسنة ، ولكنه كان جاهلياً هدته الفطرة إلى الخير وإلى سبيل النجاة .

وهاك مثلاً آخر على إعجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بما كان يتحلى به عرب الجاهلية من مكارم أخلاق : رافق أبو بكر وعلي بن أبي طالب رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سيره ، ثم اتهوا جميعاً إلى مجلس عليه السكينة والوقار ، وإذا مشائخ لهم أقدار وهيئات . فتقدم أبو بكر فسلم وقال : من القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقال : بأبي أنت وقومي ؟ ليس بعد هؤلاء من عزٌّ في قومهم . وهؤلاء غررُ فيهم ؛ وكان فيهم مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصة والمشنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً ، وكانت له غديرتان<sup>(١)</sup> تسقطان على صدره . وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر ، فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له : إنا لزید على

(١) الغدير : النذوة وجمعها غدائر .

الآف ، ولن تغلب ألف من قلة ، فقال له : كيف المفعة فيكم ؟ فقال : علينا الجهد ، ولكل قوم جد<sup>(١)</sup> ، فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟ فقال : إنما أشد ما نكون لقاء حين غضب ، وإنما لؤلؤة الحياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاء ، والنصر من عند الله ، يديلنا مرة ، ويديل علينا مرة ، لعك أخي قريش ؟ فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ، فها هو ذا .

قال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك ، ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام أبو بكر يظله بشوبه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وأنى رسول الله ، وأن تؤمن وتنصرونني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد » .

قال مفروق : وإلام تدعوا أيضاً يا أخي قريش ؟ فتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتَلْ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَاحِبُكُمْ يَهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَمِ إِلَّا بِالْقِسْطِ هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَافِ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَاحِبُكُمْ يَهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ،

(١) الجد : الحظ .

وَلَا تَقْبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَارَ كُمْ بِهِ لَعَذَّكُمْ تَسْقُونَ» .  
 فقال مفروق . وإنما تدعو أيضاً يا أخي قريش : فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَذَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .  
 فقال مفروق : دعوت والله يا أخي قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفلَّكَ قوماً كذبوك وظاهروا عليك ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هاني بن قبيصة . فقال : وهذا هاني بن قبيصة شيخنا .

قال هاني : قد سمعت مقالتك يا أخي قريش ، وصدقت قولك ، وإنى أرى أن تركنا ديننا ، واتبعنا دينك مجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، زلة في الرأي ، وطيشة في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ؟ وإنما تكون الزلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن ترجع وزرجم ، وتنتظر وتنظر — وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة —  
 فقال : وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب حر بنا .

قال المثنى : قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخي قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هاني بن قبيصة ، فإنما نزلنا الصَّرَيْفَينَ <sup>(١)</sup> : اليمامة والسمامة . فقال له رسول الله وما هذان الصَّرَيْفَان ؟ فقال له : أما أحدهما فطفوف <sup>(٢)</sup> البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثاً ،

(١) كل ماء مجتمع صرى ، وتنبيه صريان .

(٢) طفوف : جمع طف وهو ساحل البحر وجانب البر .

وَلَا تُؤْوِي مُحَدِّثاً ، وَلَعِلَّ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَا تَكْرَهُهُ الْمُلُوكُ ،  
فَأَمَّا مَا كَانَ مَا يَلِي بِلَادِ الْعَرَبِ فَذَنْبُ صَاحِبِهِ مَغْفُورٌ ، وَعَذْرُهُ مَقْبُولٌ ،  
وَأَمَّا مَا كَانَ مَا يَلِي بِلَادِ فَارِسِ فَذَنْبُ صَاحِبِهِ غَيْرُ مَغْفُورٍ ، وَعَذْرُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ .  
إِنْ أَرِدْتَ أَنْ تَنْصُرَكَ وَنَمْنَعَكَ مَا يَلِي الْعَرَبَ فَعَلَنَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا أَسَأْتُمُ الرَّدَّ ؟ إِذَا نَصَحْتُمْ بِالصَّدْقِ ؟ إِنَّهُ لَا يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ  
حَاطِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ . ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : « أَرَأَيْتُمْ أَنْ لَمْ تُلْبِسُوا إِلَّا يُسِيرُ  
حَتَّى يَنْحِمَّكُمُ اللَّهُ بِلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، أَتُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتَقْدِسُونَهُ ؟ » قَالَ لَهُ النَّعْمَانُ  
ابْنُ شَرِيكَ : اللَّهُمَّ وَإِنْ ذَلِكَ لَكَ يَا أَخَا قَرِيشَ ؟ ! فَتَلَاقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَهُ تَعَالَى : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمَبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ  
بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » ثُمَّ نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَابِضًا عَلَى يَدِي أَبِي بَكْرٍ  
وَالْتَّفَتَ إِلَى عَلِيٍّ ، وَقَالَ : يَا عَلِيَّ ! أَيْةً أَخْلَاقٍ كَانَتْ لِلْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ !  
مَا أَشْرَفُهَا ! بِهَا يَتَحَاجِزُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا<sup>(١)</sup> !

وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِعْجَابَ كَانَ مُتَبَدِّلاً بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُؤُلَاءِ  
الْأَشْرَافِ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ ، الَّذِينَ لَمْ يَهْتَدُوا بَعْدَ بَهْرَادِيَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ لَقَدْ أَعْجَبُوهُ  
بِكَلَامِ النَّبِيِّ ، وَمَوْعِظَةِ الْقُرْآنِ ، وَاسْتَحْسَنُوا مَا تَضَمَّنَتْ مِنْ حَتٍِّ عَلَى مَكَارِمِ  
الْأَخْلَاقِ ، الَّتِي يَضْعُونَهَا فِي مُعَامَلَتِهِمْ مَقْعَدَ الْقَانُونِ ، وَآمَنُوا بِهِ ، أَوْ أَوْشَكُوا  
أَنْ يُؤْمِنُوا .

وَأَعْجَبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بِصَرَاحَتِهِمْ وَصَدَقَتِهِمْ ، كَمَا أَعْجَبَ بِاتِّزَانِهِمْ

(١) راجع ابن كثير ص ١٤٤ ج ٤ . والروض الأنف ص ٢٤٦ ج ١ ، وقصص  
العرب ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها .

وعدم تسرعهم في الأحكام ، وتقديرهم لمن وراءهم من قومهم ، فلا يبرمون أمرًا جللا مثل هذا من غير أن يرجعوا إليهم ، وأعجب كذلك بوفائهم بعهودهم لكسرى أو شروان ، فلا يحدثون حدثاً أو يؤتون محدثاً ، وأعجب بتواضعهم وتقديرهم بعضهم البعض ، فلا يستأثر أحدهم بكلام ، أو يدعى الرئاسة دون أصحابه ، بل يدعو صاحبه للحديث رافعاً لكتبه بقوله : وهذا شيخنا فلان ، ولذلك لم يسع النبي عليه السلام إلا أن يقول في إعجاب : أية أخلاق كانت للعرب في الجاهلية ما أشرفها ! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا ! أى أن أخلاقهم تقوم مقام القانون ، وهم فيها عصمة ، وهى التي تهديهم إلى سبل النجاة .

لقد جاء الإسلام منظماً لهذه الجماعة ، موجهاً هذه القوى المعنوية إلى وجهات أسمى وأشرف : لقد كانت الشجاعة في الجاهلية تهدف إلى الحمد الفردي أو القبلي ، فإسلام موجهاً لها ، إلى خدمة الأمة العربية جماء ، وإلى الدفاع عن مبدأ شريف ، ودين كريم ، مؤلفاً بين هذه القلوب المتحدة في الوسيلة المختلفة في الغاية ، فكان التأليف بين هذه القلوب الكريمة ، وجعلها قوة واحدة متحدة متوجهة إلى غرض واحد من أهم وسائل الإسلام في نشر دعوته قال الله تعالى لرسوله : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألغتَ بين قلوبهم ، ولكنَّ اللهَ أَلْفََ بَيْنَهُمْ » ، فالتأليف بين العرب يرجح بقيمته ما في الأرض جميعاً من خير ؛ لأن حدوث هذا التأليف هو بشير اليقظة والعدل بين أهل الأرض جميعاً .

فالفرق بين رشد العقل الجاهلي ، ورشد العقل الإسلامي هو فرق بين

نتيجة العزلة بالبداوة ، والاكتفاء بوعى شؤون العرب وحدهم ، وبين التوسع الذى يشمل نظر العرب إلى موقفهم من العالم الخريط بهم ، ونخاصة إذا أُوشك أن يطعى عليهم فيهلك فضائلهم .

وجاء الإسلام كذلك منظماً للكرم العربي ، سواء كان كرم اليد ، أو القلب ، أو العقل ، جاعلاً معاونة الفقراء فرضاً بعد أن كانت أريحيه وجوداً «**وَالَّذِينَ فِي أُمَّةِ الْهَمَّ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمُحْرُومِ**» ، ليكون المجتمع مستندًا على دعامة قوية من التشريع ، فلا يترك أعر الزكاة إلى نخوة الأفراد إن شاءوا أعطوا ، وإن شاءوا منعوا ، ولكن إلى الحق الذى فرضه الله تعالى ؛ وحرض على الإحسان ، وجعل مشوبته عظيمة ؛ وذلك ليشبع الكرام والأجواد رغبات نفوسهم .

وجعل الصفح عن الإساءة ، وكظم الغيظ ، واحتمال الأذى من أكبر الصفات التي يمحارى عليها فقال تعالى : «**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** ، **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ، **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكَاظِمِينَ** الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب الحسينين » . وقال تعالى : «**وَلَا تَسْتُوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** فإذا الذى بيتك وبيته عداوة كأنه ولی حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ووضع أساس الكرم العقلى والتسامح فى قوله تعالى : «**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ** » .

أما الوفاء بالوعد فقد حدث عليه القرآن الكريم في غير موضع : «**وَالْمُوفُونَ**

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا . وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَقْوَنَ » وَلَمْ يُعِدِ الوفاءُ بِالْوَعْدِ قَاسِرًا عَلَى الْأَفْرَادِ فِي مُعَامَلَاتِهِمُ الْخَصِّيَّةِ ، بَلْ صَارَ سَمَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْبَلَادِ الَّتِي فَتَحُوهَا ، وَعَاهَدُوا أَهْلَهَا ، حَتَّى ضُرِبَ بِهِمُ الْمَثَلُ فِي الْوَفَاءِ وَحُسْنِ الْمَعْامِلَةِ ، وَلِذَلِكَ دَانَتْ لَهُمُ الدِّينَا الْعَرِيضَةِ ، وَأَحْبَبُوهُمُ النَّاسُ ، وَأَعْجَبُوهُمْ بِدِينِهِمْ فَدَخَلُوا فِي هَذَا الدِّينِ أَفْوَاجًا . لَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ الْمُسْلِمُونَ قَدوَةً لِغَيْرِهِمْ مِنَ الشَّعُوبِ ، يَتَمَثَّلُ فِيهِمُ الْإِسْلَامُ وَتَعَالَيمُهُ رُوحًا وَعَلَالًا ، وَخَيْرُ الْمَبَادِئِ تَأْثِيرًا فِي النُّفُوسِ مَا كَانَ أَحْسَابُهَا يُؤْمِنُونَ بِهَا عَامِلِينَ عَلَى هَدَاهَا ، لَا يَتَنَكَّرُونَ لَهَا أَوْ يَتَهَاوُنُونَ فِي تَطْبِيقِهَا عَلَى أَنفُسِهِمْ . وَأَمَّا حِمَايَةُ الْمُضْعِيفِ ، وَإِغْاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَالْحَرْصُ عَلَى سَعَادَةِ الْمَرْأَةِ فَكُلُّهَا مِنَ الْأَمْوَارِ الَّتِي حَثَّ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ، وَوُعِظَّ بِهَا الْقُرْآنُ وَجَعَلَ ثَوَابَ الْعَامِلِينَ بِهَا عَظِيمًا ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُوصِّينَا : « بِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » .

وَهَذِبَ النِّجْدَةُ فَلَمْ تَعُدْ نُصْرَةُ الْمُسْتَعْيِثِ ظَالِمًا أَوْ مُظْلَومًا ، وَلَكِنْ تَحُولَتْ إِلَى دِفَاعٍ عَنِ الدِّينِ وَحِرْمَةِ الْمَبْدَأِ وَالْعِقِيدَةِ ، وَنُشَرَّ أُلُوَّيْهِ الْعُدْلُ وَالْحُرْيَّةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَمْ تَعُدْ النُّرَّةُ الْقَبْلِيَّةُ وَالْعَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ هِيَ الْحَافِزُ لِلْجَهَادِ وَامْتِشَاقُ الْحَسَامِ ، وَلَكِنَّ الدِّفَاعَ عَنِ الْحَقِّ ، وَنُصْرَةِ الدِّينِ ، وَسِيَادَةِ الْمَبْدَأِ ، وَإِعْزَازِ الْعَرَبِ بِإِسْلَامِهِمْ وَدِينِهِمْ هِيَ الْغَايَةُ وَهِيَ الْحَافِزُ .

وَلَقَدْ اسْتَغْلَلَ الْإِسْلَامُ هَذِهِ الْأَصْوَلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُتَبَيِّنَةِ لِدِيِ الْعَرَبِ ، وَهَذِبَهَا وَنَعَاهَا وَوَجَهَهَا وَجْهَةً خَيْرَةً ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا فِي نُشَرِّ مَبَادِئِهِ ، وَوَجَدَتِ الدُّعَوَةُ رِجَالًا أَفْذَادًا نَبَتُوا عَلَى أَدِيمِ الصَّحَراءِ فَأَهْمَتُهُمْ قَوْيًا مَعْنَوِيَّةً عَظِيمَةً ، وَمَا أَنْ

تشربت قلوبهم حب الإسلام ، وتفهم معانيه وغاياته ، حتى امتزجت الفتوة العربية بالمثل الأخلاقية الدينية ، وأضيف إلى الجد الفردي ، وإعزاز العشيرة ، الرغبة في الثواب ، والرهبة في العقاب ، والعمل على السعادة في الدارين ، والسعى في خير الجموع ، وتنمية أواصر الحب بين المسلمين أيًّا كانت قبائلهم وأيًّا كان ما بينهم من عداوة وحزمات في الجاهلية ، « واعتصموا بحبل الله جميًعاً ولا تفرقوا ، وادركُوا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قلوبِكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَانْقَذَكُمْ مِّنْهَا ، كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهتَدونَ ».

لقد صار السادة في الجاهلية سادة في الإسلام ، ووجدت أمامهم الفرصة العظيمة لتنجلي مواهبهم الخلقيّة والعلقليّة في ميدان أوسع من ميدان العشيرة والقبيلة ، وفي بيئه أرحب من الصحراء المجدبة ، ولو لا ما كانوا عليه من خلق عظيم زاده الإسلام وتعاليمه رقة ، ووجهه إلى الصالح العام ، ما رأيت منهم القواد الأفذاذ ، والساسة المحنكين ، والقضاة العدول والحكام القادرين ، يقفون في جبين التاريخ وحدهم ، لأنهم يهرون العالم بالأسس التي وضعوها ، والمناذج التي ضربوها على غير مثال سبق ، أو خبرة أو تجربة ، إلا وحى الفطرة ، وهدایة الأخلاق ، وإرشاد الدين .

لقد أنضجتهم الصحراء وهيأتهم لقيادة السيادة والحكم ، فلما جاء الإسلام أتاح لهم الفرصة ليعملا ولتظهر مزاياهم على حقيقتها .

وسترى في الفصول التالية كيف أن أخلاق الفتيان ، وتعاليم الفتوة تحملت في الإسلام ورجاله الأفذاذ ، وأنها تحولت من مزايا فردية إلى مبادىء عامة تطالب بها الأمة كلها ، ولم يزدتها الإسلام إلا جمالاً وكالاً وتهذيباً .

### سيد الفتىان<sup>(١)</sup>

كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً للعالمين ، مثلاً كاملاً للرجولة الحقة ، والخلق العظيم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد لنفسها قبل بعثته بخمسة عشر عاماً وقالت له : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرباتك ، وسطتك في قومك ، وأماتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك »<sup>(٢)</sup> .

ولما جاءها مخبراً بأنه رأى جبريل قال له : « أبشر يا ابن عم ، وابت ، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكوننبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق<sup>(٣)</sup> ». وهذه لعمري صفات الفتىان الأمجاد . ويدركنا بوصف سفاته لأبيها عندما أسرت<sup>(٤)</sup> ، وقوله عليه الصلاة والسلام لها : يا جارية : هذه صفة المؤمن .

وقد تطلب الدعوة إلى الإسلام جهاداً طويلاً بالحجارة تارة ، وبالقوة تارة أخرى مع هؤلاء الذين أرادوا القضاء على دعوته وهي في مهدتها ، فاستعمال القوة لم يكن لنشر الدعوة بالعنف ، ولكن لإخضاع الكفار ، وكف أذائم

(١) هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس في وصفنا له عليه السلام بسيد الفتىان تطاول على مقام النبوة السليم ، فقد قال تعالى في سيدنا إبراهيم « إنا سمعنا في يندكرهم يقال له إبراهيم » .

(٢) ابن سعد ص ١٢٠ ، والسيره النبوية لابن هشام ص ١٩٨ ج ١ .

(٣) ابن هشام ص ٢٥٠ ج ١ (٤) راجع ص ١٣٤ من هذا الكتاب .

عن الدين الجديد ، وفي ذلك يقول جولد تسهير : « ولم يكن الغرض فيما يتعلّق بالجهاد الإسلامي يتوجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس بإدخالهم في الإسلام بقدر ما كان يرمي إلى إخضاع الكفار<sup>(١)</sup> ». .

والجهاد في سبيل الله يتطلّب من المجاهدين قوة وفتوة ، وكان في تعاليم رسول الله ، وفي سنوته الخاص ، نماذج علياً لأتباعه وأصحابه :

١ — فقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم رُكَانَةَ بن عبد يزيد وصرعه ، فقد روى ابن اسحاق : « أن رُكَانَةَ بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب ابن عبد مناف كان من أشد قريش ، فخلا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شبابِ مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يارُكَانَةَ ! ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : إنِّي لو أعلم الذي تقول حق لاتبعتك ، فقال رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أتفهم أن ما أقول حق ! قال : نعم ؟ قال : فقم حتى أصارعك . قال : فقام إليه رُكَانَةَ يصارعه ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجه ، وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عُدْ يا محمد ، فعاد فصرعه<sup>(٢)</sup> .

والمصارعة من أنواع الرياضة التي تتطلّب قوة جسمية ، والقوة الجسمية أول ما يتحلى به الفتى كما مر بك في الفصول الأولى من هذا الكتاب .

٢ — وكان النبي عليه السلام يهتم بهذه الناحية الجسمية وتنميّتها ، ويبحث على الرياضة البدنية ، ويمارسها ، ففي مسند أحمد وسنن أبي داود من حديث

Goldziher · Vorlesungen über den Islam, P. 25 (١)

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

عائشة قالت : سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلبيتنا ، حتى إذا أرهقني  
الحمد سابقني ، فسبقني ، فقال : هذه بتلك .

وفي رواية أخرى : أنهم كانوا في سفر فقال النبي عليه السلام لأصحابه :  
« تقدموا » ، فتقدموا ، ثم قال : سابقيني فسبقته ، ثم سابقني وسبقني ، فقال :  
هذه بتلك .

وفي صحيح مسلم عن سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعَ قال : بينما نحن نسير ، وكان رجلٌ  
من الأنصار لا يُسبِّقُ أبداً ، يجعل يقول : ألا مسابقٌ إلى المدينة ، هل من  
مسابق ؟ فقلت : أما تُكرِّمَ كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون  
رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ،  
ذرْفِي أسبقِ الرجلَ ، فقال : إن شئتَ ، فسبقته إلى المدينة .

وقد ثبت أن الصحابة تسايقوا على الأقدام بين يدي رسول الله بغير  
رهان <sup>(١)</sup> .

٣ — وقد سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ، ففي الصحيح  
من حديث ابن عمر قال : « سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ،  
فأرْسَلَتْ التي ضمَّرَتْ منها ، وأمَدَّها الحفباء إلى ثنية الوداع ، والتي لم تُضْمَرْ  
أمدُّها ثنية الوداع إلى مسجد بنى زريق <sup>(٢)</sup> ». .

وفي المسند من حديث أنس أنه قيل له : أَكُنْتُمْ تراهنون على عهد رسول الله  
قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له

(١) الفروسية لابن القيم ص ٣ .

(٢) الفروسية لابن القيم ص ٣ : في الصحيحين عن موسى بن عقبة أن بين الحفباء إلى  
ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بنى زريق ميل .

يقال له سبحة ، فسبق الناس ، فبَشَّرَ لذلك وأعجبه . وفي مسند أحمد كذلك عن ابن عمر أن النبي سابق بين الخيل وأعطي السابق .

وقد سابق رسول الله بين الإبل كما سابق بين الخيل ، في صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال : كانت العصباء لا تُسبق ، فجاء أعرابي على قعود ، فسابقها فسبقها وكان ذلك شَقًّا على أصحاب رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : إِنَّ حَقًا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَلَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ « .

٤ — وكان الصحابة يتناضلون بالرمي عن القوس في حضرته عليه السلام ، في صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : صَرَّ النبي عليه السلام بنفر من أسلم ينتضلون بالسوق فقال : ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راماً ، ارموا وأنا مع بني فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله : مالكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم كلكم » .

وقد حدَّثَ النبي عليه السلام على الرمادية ، وإجادتها ، وشجع المسلمين عليها فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَيُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفْرَ الْجَنَّةَ : صَانِعَهُ الْخَتَّسِ فِي عَمَلِهِ الْخَيْرِ ، وَرَاجِيَ بِهِ ، وَمَدِيدُ بِهِ ، فَارْمُوا ، وَارْكُبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكُبُوا » .

وقال عليه السلام كذلك : « لَيْسَ مِنَ الَّذِي هُوَ مُحَمَّدٌ إِلَّا ثَلَاثَةُ تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَّهُ ، وَمَلَأَ عَيْنَهُ أَهْلَهُ ، وَرَمَيْهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ ، فَإِنَّهُنْ مِنَ الْحَقِّ ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ يُعَذَّبُ مَاعِلَّمَهُ رُغْبَةً ، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا » .

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ : أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ » : وقال أيضًا : « مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مَنَا » .

وجاء في سنن أبي داود ، والنسائي ، والترمذى عن عمرو بن عبسة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من اعتق رقبةً مؤمنةً ، أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ، ومن رمى بسهم في سبيل الله ، وبلغ العدو ، فأصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة » .

وكان النبي عليه السلام يفضل الرماية على أنواع السلاح الأخرى ، وروى عنه أنه كان يخطب وهو متوكئ على قوس ، وقال أنس : ماذكرت القوس عند النبي عليه السلام إلا قال : « ما سبقها سلاح إلى خير قط » ، والحق أن الرماية أنسى للأعداء وأشد فتكاً بهم ، وكم من كوكبة من الفرسان تحامت رامياً واحداً ، لأنه يضر بهم عن بعد ولا يصلون إليه ، وكان العارفون بفنون الحرب القديمة يُعدُّون كل سهم بمقام رجل ، فإذا كان مع الرجل مائة سهم عد بمائة رجل ، والخصم يخاف من النشاب أضعاف خوفه من السيف والرمح <sup>(١)</sup> .

ولم يكن النبي عليه السلام يشجع أصحابته على الرماية فحسب ، بل كان فارساً شجاعاً يتقدم أصحابه دائماً في المعركة ، فقد روى في الصحيحين من حديث ثابت عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلاً فركب فرساً لأبي طلحة عريماً ، فخرج الناس فإذا هم برسول الله قد سبقهم إلى الصوت قد استبرا الخبر ، وهو يقول : لن تراعوا .

(١) الفروسية لابن القيم ص ١٥ - ١٦ .

وذكر ابن إسحاق في المغازى : أن رسول الله رمى عن قوسه يوم أحد حتى اندقت سيّتها ، فأخذها قتادة بن النعان . وأنه لما كان يوم أحد ، وأُسند ظهره إلى الجبل أدركه أبي بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لأنجوت إنجا ، قال ابن إسحق : وكان أبي بن خلف يلتقي رسول الله بمكة فيقول : يا محمد ! إن عندي العود — فرساله — أعلمه كل يوم فرقا<sup>(١)</sup> من ذرّة أقتلك عليها ، فيقول : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما أدرك أبي رسول الله اعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله خلوا طريقه ، واستقبله مصعب بن عمير أخو بن عبد الدار يقى رسول الله بنفسه ، فقتل مصعب ، وأبصر رسول الله ترقومة أبي بن خلف من فرجة في سابعة الدبر والبيضة فطعنها بحرنته ، فوقع أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فكسر ضلعاً من أضلاعه ، فلما راجع إلى قريش ، وقد خُدش في عنقه خدشاً غير كبير ، فاختنق الدم ، قال : قتلى والله محمد . قالوا له : ذهب والله فوادك ، إنه ما كان بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة أنا أقتلك . فمات عدو الله سرِف<sup>(٢)</sup> وهم قافلون إلى مكة<sup>(٣)</sup> .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا جسم رياضي ، متين التركيب ، قوى البنية ، فقد جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض عن صفة النبي عليه السلام : أنه كان عظيم الصدر عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عَبْلَ العَضْدَيْنِ وَالذَّرَاعَيْنِ وَالْأَسَافِلِ ، رَحْبَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، رَبْعَةَ الْقَدَّ ، لِيْسَ

(١) مكيال يسع ستة عشر رطلًا .

(٢) مكان قرب التنعيم بجوار مكة بين عسفان وقديد .

(٣) الفروسية ص ١٧ .

بالطويل الباف ، ولا القصير المتردد<sup>(١)</sup> . وقال أبو هريرة : « ما رأيت أحداً أسرعَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه كأنما الأرض تُطوى له ، إنا لنُجْهِدْ أنفسنا وهو غير مكترت » . وهذا دليل صحة الجسم وسلامة تركيه ، وقوه بنائه . والجسم السليم القوى أول إمارات الفتوة . وما يدل على أن النبي عليه السلام كان يعني بهذه الناحية الجسمية ما فعل هو وأصحابه حين اعتموها بعد صلح (الحدبية) بعام ، فقد رأهم كفار قريش يطوفون بالكعبة فقالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب . فقال عليه السلام : رحم الله امرءاً آراهم من نفسه قوة ، واضطرب<sup>(٢)</sup> عليه السلام بردائه ، وكشف عضده اليمني ، شأن الفتوة ، وفعل مثله المسلمون ، فطافوا بالبيت آمنين .

أما شجاعته عليه السلام فقد ضرب بها المثل ، وأى شجاعة أعظم من موافقه المشهورة التي فر فيها الكأة والأبطال ، وتركوه في حفنة من خلصائه ، وهو ثابت لا يربح ، ومقبل لا يُدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع إلا أحصيت له فرقة ، وحفظت عنه جولة إلا رسول الله .

قال ابن عمر : ما رأيت أشجع ، ولا أنجد ، ولا أجود ، ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال على بن أبي طالب : إنا كنا إذ اشتد**الباس** ، واحمررت الحدق اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبي عليه السلام ، وهو أقر بنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا .

(١) التناهى في القصر .

(٢) اضطرب الحرم أن يدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن ويرد طرفه على يساره ، ويبدى منكبه الأيمن ويعطى الأيسر ، سمي به لإبداء أحد الضبعين (الغضفين) .

ولقد مرّ بك موقفه يوم أحد وثباته وصبره ، وما موقفه يوم حنين ، وشجاعته الفاصلة فيه بمجهول . كان المسلمون يزيدون على اثنى عشر ألف رجل ، فأعجبتهم كثرةهم ، وكان فيهم كثير من الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم ، ومن مشركي <sup>(١)</sup> مكة الذين خرجنوا يشاهدون ، ويعنون ، فلما خرج كثيرون العدو على مقدمة جيش المسلمين ، وصب عليهم وابلًا من النبال كأنه الجراد المنتشر ، لوطروا <sup>أعنَّةً</sup> خيولهم متفرقين ، فدب الذعر في الجيش ، وفروا جميعاً حتى قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وحتى قال أخ صفوان ابن أمية : الآن بطل السحر .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يربح مكانه ووقف على بغلة في قلة ضئيلة من أصحابه ، وهو يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وأمر عمه العباس أن ينادي الأنصار ، فلما سمعوا نداءه أجابوه ، والتقوا حول رسول الله ، ثم هجموا على أعدائهم هجنة قوية فكان النصر لهم . ولو لا ثبات رسول الله ، وفائق شجاعته في هذا الموقف لفتن خلق كثير ، ولأصاب الوهن نفوس المسلمين . ولقد قال عليه السلام : « إن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجح به من الغم » .

وقد حدث له في غزوة غطفان حادث دل على عظم شجاعته وثباته عليه الصلاة والسلام ، فقد نزل المسلمون على ماء يسمى (ذا إمْر) فعسّروا به ، فنزع عليه السلام ثوبه يجففه من مطر بلله ، وارتاح تحت شجرة ، والمسلمون متفرقون

(١) مثل صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان عدد هؤلاء المشركين ثمانين رجلاً في هذه الغزوة .

فأبصره رجل يسمى دُعْثُور ، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه ، وقال : من يمنعك مني يا محمد ؟ فقال : الله ، فأدرك الرجل هيبة ورعب أسقط السيف من يده ، فتناوله عليه السلام ، وقال لدُعْثُور : من يمنعك مني ؟ قال لا أحد . فعفا عنه ، فأسلم الرجل ، ودعا قومه للإسلام<sup>(١)</sup> .

وأما كرمه عليه السلام فقد كان كذلك مضرب المثل ، قال جابر رضي الله عنه . ما سئل عليه السلام عن شيء وقال : لا ، وقال ابن عباس : كان عليه السلام أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان في شهر رمضان . وقد مرّ بك في أول هذا الفصل وصف خديجة له بقولها : إنك تصيل الرَّحْم ، وتحمل الْكَلَّ ، وتكتسب المعدوم ، وَتَقْرِي الصيفَ . وتعين على نوائب الحق .

وقد أعطى أبا سفيان بعد غزوة حنين أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل ، وكذلك ابنيه معاوية ويزيد ، فقال له أبوسفيان ، وهو الذي كان يعاديه بالأمس : أبي أنت وأمي ، لأنك كريم في السلم كريم في الحرب .

ورأى صفوان بن أمية يتطلع إليه وهو يوزع غنائم حنين ، وينظر إلى شعب ملوء بالنعم والشهاد ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هولك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ، وكان ذلك الكرم والإحسان سبب إسلامه .

وما اجتمع عليه الأعراب وصاروا يقولون له : اقسم علينا ، حتى الجثوء إلى شجرة فتعلق رداوه بها فقال : « ردو على ردائِي أيها الناس ، فوالله إن كان لي شجرٌ تهامة نَعَماً لقصمه عليكم ، ثم ما أفيتمني بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً ». 

---

(١) نور اليقين ص ١٢٤ .

وعلى الرغم من أن النبي عليه السلام قد أوثق خزانة الأرض ، وما أحالت  
له الغنائم ، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن ، وبجميع جزيرة العرب ، وما  
دانى ذلك من الشام والعراق ، وجُلِّب إِلَيْهِ كثير من أخْماسها وجزيئتها ، وصدقاتها ،  
وهاداه جماعة من الملوك ، فما استأثر بشيء منه ، ولا أمسك منه درهما ، بل صرفه  
في مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين ، وقال : ما يسرني أن لي أحداً  
ذهبياً يبيت عندي منه دينار ، إلا ديناراً أرْصُدُه لِدَيْنِي » .

وأنته مرة دنانير ، قسمها ، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه ، فلم يأخذه  
نوم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت . وحمل إِلَيْهِ عليه السلام تسعون ألفاً ،  
فوضعها على حصير وأخذ يقسمها ، فما قام حتى فرغ منها . ومع كل هذه الأموال  
التي تدفقت بين يديه ، وجاد بها على المسلمين ، والمؤلفة قلوبهم ، فقد مات ودرعه  
مرهونة في نفقة عياله . فهل بعد هذا سخاء يد ؟ ! .

وأيّاً كرم قلبه ، فقد كان فيه فذاً ؛ لأن الله أنعم عليه بهذه الخلطة الكريمة  
ليتم رسالته ، ويتألف قلوب الناس . « ولو كنتَ ظِلَّاً غَلِيلَ القلب لا نفضاوا مِنْ  
حَوْلِكَ » وقال تعالى لنبيه الكريم : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ  
الْجَاهِلِينَ » ، وقد سأله عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال : يا محمد إن الله يأمرك  
أن تصلح من قطعك ، وتُعطي من حرمك ، وتعفو عن من ظلمك . وقال الله تعالى :  
« واصِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْوَرِ » .

وقال تعالى : وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا أَلَا تَبْشُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَّحِيمٌ » . وقال : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزْمَ الْأَمْوَرِ » .

وعلى الرغم من عِظم ما أودى به النبي عليه السلام في سبيل دعوته ، ولا ي

من شدائدهن وبحملها أشد الناس قوةً وبأساً، وأعظمهم صبراً، فإنه كان ينظر إلى هؤلاء الذين آذوه، وأخرجوه من دياره، ونكلوه بأصحابه، نظرة المشق الرحيم. ولما جُرِحَ في أحد، وسقطت ثيَّبَاتُه، ودخل طرف المِغْفَرَ في وجنته، وسال دمه، ووقع في الحفرة، وطلب منه المسلمين أن يدعوه على كفار قريش لمزيد على قوله: اللهم اغفر لقومٍ فإنهم لا يعلمون.

ولما فتحَ مكةَ ولأنَّه عصيَّها، وهي التي طردته وأذته، وحضرت العرب عليه، وحاربته غير مرّة. لم يزد على أن عفا وصفح حين تمكن منها، وقال هؤلاء الجفاة الغلاظ: ما تظنُّون أنِّي فاعل بكم؟ قالوا: أخْ كَرِيمٌ وابن أخْ كَرِيمٌ، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ولقد أَحَلَّ دم بضعة نفر من أهل مكة لعظم جرمتهم في حق المسلمين، ولكنَّه عفا عنهم حين جاءوا تائبين طائعين مستجيرين ببعض الصحابة، مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي جآ إلى عثمان بن عفان، وعِكرمة بن أبي جهل الذي هرب وأراد أن يركب البحر فلاحتقت به زوجته وبنت عمّه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت قبل الفتح، وقد أخذت له أماناً من رسول الله فقالت لعِكرمة: جئتك من عند أبٍ الناس وخيرهم.

ومنهم هَبَّارُ بن الأسود. وقد هرب واختفى، حتى إذا كان رسول الله بالجُرَّانَة جاءه مسلماً، وقال: يا رسول الله هر بْتُ منك، وأردت الالتحاق بالأعجم، ثم ذكرت عائذتك وصلتك وصفحك عن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الْهَمَّةَ فاصفح الصفح الجليل، فقال عليه السلام: قد عفوت عنك.

ومنهم صفوان بن أمية ، وكان قد اختفى ، وأراد أن يذهب ، ويلقى نفسه في البحر ، فجاء ابن عمّه عمير بن وهب الجمحي ، وقال : يا نبى الله إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر ، فأمْنَه ، فإنك قد أمنْت الأحرم والأسود ، فقال عليه السلام : أدرك ابن عمك فهو آمن ، فقال : أعطنى علامة ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمير ، حتى إذا لقي صفوان قال له : فداك أبي وأمي ، جئتكم من عند أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، قال صفوان : إنني أخافه على نفسي ، قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامنة علامة الأمان ، فرجع إلى رسول الله . وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتني ؟ قال : صدق ، قال : أمهلني بالخيار شهرين ، قال : أربعة أشهر ، ثم أسلم وحسن إسلامه . ومنهم كعب بن زهير ، ولما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، جاء المدينة بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ، وقال قصيده المشهورة التي يقول فيها :

وقال كل صديق كنت آمله  
لا أهينك إن عنك مشغول  
فكل ما قدر الرحمن مفعول  
قللت خلوا سبيلي لا أبالكم  
كل ابن أثني وإن طالت سلامته  
أنبئت أن رسول الله أ وعدني  
والعفو عند رسول الله مأمول  
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة لا  
فإذا قال :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيف الله مسلول  
خلع عليه الرسول برداته .

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو ، فاستأمن له ابنه عبد الله ، فأمنه عليه السلام ، وقال : إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام ، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال : كان والله بَرَّاً صغيراً ، بَرَّاً كبيراً . ثم أسلم بعد ذلك .

وبمثل هذا الخلق السمح ، والعفو الجميل عند المقدرة ، لانت لدعوه هذه القلوب الجاسية ، وصارت سيفاً مشرعة تدافع عنه وعن دينه . وعن أنس قال : كنت مع النبي عليه السلام ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي برداه جذبة شديدة ، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ؟ احمل لي على بعيري هذين من مال الله عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبي ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي ، قال : لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة ، فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر .

هذا لعمري هو المثل الأعلى في كرم القلب . وقد أثني عليه الله سبحانه وتعالى بقوله :  
« وإنكَ لعلى خُلُقَ عظيمٍ ». .

الأوثان يعظمها قومه وأله كباراً وصغاراً، وهو يراها كل يوم فوق الكعبة،  
ولم يكن يحضر لها احتفالاً ولاعيداً مما يقوم به عبادها؛ بغضاً وشدة كراهيته.  
وقال عليه السلام: «لما نشأت بُغضت إلى الأوثان، وبُغض إلى الشعر،  
ولم أه بشيء، مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني  
 وبين ما أريد من ذلك، ثم ما همت بسوء بعدها، حتى أكرمني الله  
برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معى: لو أبصرت لي غنى حتى أدخل  
مكة فأسمر كما يسم الشياطين، فخرجت لذلك، حتى جئت أول دار من مكة  
أسمع عزفًا بالدفوف والزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله (علي)  
أذني فنمت، فما أيقظني إلا مَس الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة  
آخرى مثل ذلك».

ولقد شهد أللأعداء، وأشدتهم بغضاً لدينه بأنه كان راجح العقل، كامل  
الخلق منذ نشأته، فهذا النضر بن الحارث من بنى عبد الدار، يقول لقومه حين  
اجتمعوا ليتفقوا على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم، ويبشرهم النبي  
بالدين الجديد: لقد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاك فيكم، وأصدقكم  
حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم  
قلتم ساحر ! لا والله ما هو بساحر ».

ولما سأله هرقل ملك الروم أبا سفيان عن النبي عليه السلام حين جاءه  
كتابه يدعوه فيه للإسلام: هل كنتم تهموه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟  
قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.  
وكيف لا يكون أكرم الناس عقلاً، وهو الذي جاء بالدين الحنيف الذي

حرر عقول البشرية من الأوهام والخرافات ، وشرع لهم أكمل تشريع ، وأحسن قانون ، وخطب عقولهم قبل أن يخاطب عواطفهم ، وحثّهم على أن يستخدموا حواسهم في تفهم آيات الله ، وإدراك عظمته ؟ ! .

ولم يكن النبي عليه السلام في تبشيره بالدين الحنيف فطاً ، أو متعصباً ، ولكنه كان يحاول الإقناع ، واجتثاث جذور الشك والريبة من صدور الكافرين ، وتبیان الحق ناصعاً جلياً ، بمنطق سليم ، وقول حکیم . وقد أمره الله بهذا حيث يقول : « أدع إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » .

وقال تعالى : وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أسلتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

وقال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكما ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

وقال تعالى : « ولو شاء ربكم لآمن من في الأرض كلهم جمیعاً ، أفأنت تذكر الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » .

وقال تعالى : « فإن أعرضوا ما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ » .

وقال تعالى : « قل أطعوا الله وأطعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليك ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

ولقد امتنع الرسول الـكـرـيم عليه السلام لأـمـرـ رـبـه ، وجـادـهـمـ بالـتـيـ هـيـ  
أـحـسـنـ ، وـقـابـلـ سـفـهـ عـقـوـهـمـ ، بـرـحـاـةـ عـقـلـهـ ، وـوـاسـعـ حـلـمـهـ ، وـكـلـاـمـعـنـواـ فـيـ جـاجـهـمـ  
وـعـتـوـهـمـ ، اـزـدـادـ شـفـقـةـ عـلـيـهـمـ وـرـحـمـةـ بـهـمـ ، وـلـمـ يـيـأسـ مـنـ إـقـنـاعـمـ ، وـمـنـ اـسـتـجـابـةـ  
عـقـوـهـمـ لـدـعـوـتـهـ ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ قـوـلـهـ : «ـقـلـوـبـنـاـ غـلـفـ» ، «ـوـقـالـوـاـ قـلـوـبـنـاـ فـيـ أـكـنـةـ  
ـحـمـّـاـ تـدـعـونـاـ إـلـيـهـ ، وـفـيـ أـذـاـنـاـ وـقـرـ» ، وـمـنـ يـيـنـنـاـ وـيـنـكـ حـجـابـ» .

وـمـنـ دـلـائـلـ هـذـاـ الـكـرـمـ الـعـقـلـيـ نـهـيـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ عـنـ الـاعـتـقـادـ  
فـيـ كـثـيرـ مـنـ أـوـهـامـ الـعـرـبـ وـخـرـافـاتـهـمـ ، فـلـاـ زـجـرـ وـلـاـ طـيـرـةـ ، وـلـاـ فـأـلـ ، وـلـاـ كـهـانـةـ ،  
وـلـاـ عـرـافـةـ ، وـلـاـ أـنـصـابـ وـلـاـ أـزـلـامـ ، وـلـاـ غـيـرـهـذـاـ مـاـ شـاعـ بـيـنـ الـعـرـبـ مـنـ مـخـلـفـاتـ  
الـإـنـسـانـيـةـ الـبـدـائـيـةـ ، التـيـ لـاـ يـقـرـهـاـ الـعـقـلـ السـلـيـمـ فـيـ تـمـامـ وـعـيـهـ .

وـمـاـ يـدـلـ عـلـىـ كـرـمـ عـقـلـهـ وـتـسـاحـمـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ مـعـاـمـلـتـهـ لـلـنـصـارـىـ الـدـيـنـ وـفـدـوـاـ  
عـلـيـهـ ، وـقـبـولـهـ الـجـزـيـةـ مـنـهـمـ ، وـلـمـ يـجـبـرـهـمـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ ، فـقـدـ وـفـدـ عـلـيـهـ نـصـارـىـ نـجـرانـ  
وـكـانـواـ سـتـيـنـ رـاكـبـاـ ، مـعـهـمـ بـسـطـ فـيـهـ تـمـاثـيـلـ وـمـوـسـوحـ ، جـاءـوـاـ بـهـاـ لـلـنـبـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ ،  
فـلـمـ يـقـبـلـ الـبـسـطـ لـمـ فـيـهـاـ مـنـ تـمـاثـيـلـ ، وـقـبـلـ الـمـسـوحـ ، وـلـمـ جـاءـ وـقـتـ صـلـاتـهـمـ صـلـواـ  
بـالـمـسـجـدـ مـسـتـقـبـلـيـنـ يـيـتـ المـقـدـسـ ، وـلـمـ أـتـمـواـ صـلـاتـهـمـ دـعـاـمـ لـلـإـسـلـامـ فـأـبـوـاـ ، وـقـالـوـاـ :  
كـنـاـ مـسـلـمـيـنـ قـبـلـكـمـ ، فـقـالـ عـلـيـهـ السـلـامـ : يـمـنـعـكـمـ مـنـ الـإـسـلـامـ ثـلـاثـ : عـبـادـتـكـ  
الـصـلـيـبـ ، وـأـكـلـكـمـ لـحـمـ الـخـنـزـيرـ ، وـزـعـمـكـمـ أـنـ اللـهـ وـلـدـاـ ، قـالـوـاـ : فـمـنـ مـثـلـ عـيـسـىـ  
خـلـقـ مـنـ غـيـرـأـبـ . فـأـنـزـلـ اللـهـ قـوـلـهـ عـزـ مـنـ قـائـلـ : «ـإـنـ مـمـلـ عـيـسـىـ عـنـدـ اللـهـ  
كـمـثـلـ آـدـمـ خـلـقـهـ مـنـ تـرـابـ ، ثـمـ قـالـ لـهـ كـنـ فـيـكـونـ» . وـدـعـاـمـ عـلـيـهـ السـلـامـ  
لـلـلـاتـهـالـ فـأـبـوـاـ ، وـرـضـوـاـ بـدـفـعـ الـجـزـيـةـ ، فـقـبـلـهـاـ مـنـهـمـ .

وـقـدـ صـالـحـ صـاحـبـ أـيـلـةـ ، وـأـهـلـ حـرـباءـ وـأـذـرـحـ وـأـهـلـ مـيـنـاءـ ، وـهـمـ نـصـارـىـ ،

بعد أن غزا ديارهم ، وأمنهم على أموالهم ، ولم يُكرههم على الإسلام وكتب لهم  
عهوداً فهن ذلك عهده عليه السلام لأهل أذرح وجرباء ، وصورته :  
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي لأهل أذرح وجرباء إنهم آمنون  
بأمان الله ، وأمان محمد ، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ،  
والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين ». .

وقد كان هذا السكرم العقلى والتسامح العظيم من الأسباب الأولى التي  
عملت على نشر الإسلام بالرفق واللين ، لا بالقوة والعنف ، ويقول السير توماس  
أرنولد : « إن إخفاق بعض البعثات التي أرسلها النبي إلى القبائل تدعوها للإسلام  
دليل على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صفة تبشيرية خالصة ، كما تدل  
على أنها لم تكن تمثل إلى استخدام القوة<sup>(١)</sup> » ويعزو السير توماس أرنولد انتشار  
الإسلام بين العرب إلى « المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة  
من النبي عليه السلام ، واهتمامه بالنظر في شكاياتهم ، والحكمة التي كان  
يصلح بها ذات بيئتهم ». .

ويقول « قيطاني » في كتابه تاريخ الإسلام : وقد أصبحت سرعة  
انتشار الإسلام بنوع خاص شيئاً ملماوساً ؛ بسبب ما أظهره النبي من هيبة ،  
وما أبداه من روح التسامح والحرية ، وتحين المناسبات في علاقاته بالذين تحولوا  
إلى الإسلام<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

أما الوفاء بالعهد فهي خلة مشهورة من خلالة الكريمة عليه السلام قبل

(1) Sir T. W. Arnold : The Preaching of Islam. ch. 1.

(2) Leon Caetani : Annali dell'Islam. Vol. I. P. 663. Milano 1905.

البعثة وبعدها ، روى عن عبد الله بن أبي الخمساء قال : بايعت النبي عليه السلام  
بييع قبل أن يبعث ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةً ، فَوَعْدَهُ أَنْ آتِيهِ مَكَانَهُ ، فَسَيِّسَتْ ، ثُمَّ  
ذَكَرَتْ بَعْدَ ثَلَاثَ فَجَنَّتْ فَإِذَا هُوَ مَكَانُهُ ، فَقَالَ : يَا فَتِي لَقِدْ شَقَقْتَ عَلَىَّ  
أَنَا هُنَا مِنْذَ ثَلَاثَ أَتَظَرُكَ .

ولما سأله هرقل أبا سفيان عما يأمر به النبي عليه السلام قال : « يقول :  
اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد أباً ونا ، ويأمر  
بالصلوة والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة » ، وسألته : هل يغدر  
إذا عاهد ؟ قال : لا . وهذه شهادة خصم أمام ملك عظيم .

ولما عاهد عليه السلام قريشاً في صلح الحديبية على أن من جاء المسلمين من  
قريش يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده ، شق ذلك  
على المسلمين وقالوا : سبحان الله : كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ، ولايردون  
من جاءهم مرتدًا ؟ فقال عليه السلام : إنه من ذهب منا إليهم فأبعد الله ، ومن  
جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومحرجاً . وعلى الرغم من عظم  
هذا العهد وخطره ، وأن فيه مشقةً على المسلمين الذين يهاجرون إلى النبي من  
قريش ، ويتحملون أين السفر والكلال ، وي تعرضون بعد ردهم لإذاء قومهم  
وقتتهم ، فقد وفى به النبي عليه السلام ، ولم ينقض عهده معهم . جاءه أبو جندل  
ابن سهيل يتحمّل في قيوده ، وكان من المسلمين المنوعين من الهجرة ، فهرب  
للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه السلام : « اصبر واحتسب ، فإن الله  
جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومحرجاً ، إنما قد عقدنا بين القوم  
صلحاً ، وأعطونا على ذلك عهداً فلا تغدر بهم » .

وتمكن أبو بصير عتبة بن أُسَيْد الثقفي من الفرار إلى رسول الله ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسلیمه ، فأسره عليه السلام بالرجوع معهما ، فقال : يا رسول الله : أتردنـى إلى الـكـفـار يـفـتـنـونـى فـى دـيـنـى بـعـدـ أـنـ خـلـصـنـى اللهـ مـنـهـمـ ؟ فقال : إـنـ اللهـ جـاعـلـ لـكـ وـلـإـخـواـنـكـ فـرـجـاـ ، فـلـمـ يـجـدـ بـدـأـ مـنـ إـطـاعـةـ أـمـرـ رسولـ اللهـ ، فـرـجـعـ مـعـ الـقـرـشـيـنـ ، وـلـمـ كـانـواـ فـيـ الـطـرـيـقـ عـدـاـ عـلـىـ أـحـدـهـاـ قـتـلـهـ ، وـهـرـبـ مـنـهـ الـآـخـرـ ، فـرـجـعـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ ، وـقـالـ : يا رسولـ اللهـ ! وـفـتـ ذـمـتـكـ ، أـمـاـ أـنـاـ فـنـجـوـتـ ، فـقـالـ لـهـ : اـذـهـبـ حـيـثـ شـئـتـ وـلـاـ تـقـمـ بـالـمـدـيـنـةـ .

ولقد حثَّ القرآن السـكـرـيمـ عـلـىـ الـوـفـاءـ بـالـعـهـدـ ، قـالـ تـعـالـىـ : وـإـذـاـ قـلـتـ فـاعـدـلـوـاـ ، وـلـوـكـانـ ذـاقـرـبـيـ ، وـبـعـهـدـ اللهـ أـوـفـواـ ، ذـلـكـمـ وـصـاـكـمـ بـهـ لـعـلـكـمـ تـذـكـرـونـ » وـقـالـ تـعـالـىـ : « وـأـوـفـواـ بـعـهـدـ اللهـ إـذـاـ عـاهـدـتـمـ ، وـلـاتـنـقـضـوـاـ إـلـيـمـانـ بـعـدـ توـكـيدـهـاـ ، وـقـدـ جـعـلـتـمـ اللهـ عـلـيـكـمـ كـفـيـلـاـ ، إـنـ اللهـ يـعـلـمـ مـاـ تـفـعـلـوـنـ ». »

وـكـانـ النـبـيـ عـلـيـهـ السـلـامـ أـوـلـ مـمـثـلـ لـأـوـامـرـ اللهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ ، وـأـحـسـنـ قدـوةـ لـمـسـلـمـيـنـ « لـقـدـ كـانـ لـكـمـ فـيـ رـسـوـلـ اللهـ أـسـوـةـ حـسـنـةـ ». وـلـمـ بـلـغـ مـلـكـ عـمـانـ أـنـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـدـعـوـهـ إـلـىـ إـلـسـلـامـ قـالـ : « وـالـلـهـ لـقـدـ دـلـلـىـ عـلـىـ هـذـاـ النـبـيـ الـأـمـيـ : أـنـهـ لـاـ يـأـمـرـ بـخـيـرـ إـلـاـ كـانـ أـوـلـ آـخـذـ بـهـ ، وـلـاـ يـنـهـىـ عـنـ شـيـءـ إـلـاـ كـانـ أـوـلـ تـارـكـ لـهـ ، وـأـنـهـ يـغـلـبـ فـلـاـ يـبـطـرـ ، وـيـغـلـبـ فـلـاـ يـضـبـحـ ، وـيـفـيـ بـالـعـهـدـ ، وـيـنـجـزـ المـوـعـدـ ، وـأـشـهـدـ أـنـهـ نـبـيـ (١)ـ ». »

وـأـمـاـ حـمـاـيـتـهـ لـلـضـعـيفـ ، وـمـاـ اـشـهـرـ بـهـ مـنـ الشـفـقـةـ وـالـرـحـمـةـ وـالـرـأـفـةـ فـقـدـ أـيـدـهـ اللهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ فـيـ مـحـكـمـ كـتـابـهـ بـقـوـلـهـ : « عـزـيـزـ عـلـيـهـ مـاـ عـنـتـمـ ، حـرـيـصـ

(١) نور اليقين ٢٨٢ .

عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم » وقوله : « وما أرسلناكَ إِلَّا رحمةً للعالمين » ، روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ؟ قال الأعرابي : لا ولا أَجْمَلْتَ . فغضب المسلمين ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ، وزاده شيئاً ، ثم قال أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ؟ فقال : نعم ، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحبت قل بين أيديهم ما قلت بين يدي ؟ حتى يذهب ما في صدورهم عليك . قال : نعم . فلما كان الغدو والعشى جاء فقال عليه السلام : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي ، أ كذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام : « مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا ، مَثَلُ رَجُلٍ لَهْ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ ، فَلَمْ يَرِدُوهَا إِلَّا نَفُورًا ، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا : خَلُوَا بَيْنِي وَبَيْنِ نَاقَتِي ، فَإِنِّي أَرْفَقُ بَهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنِ يَدِيهَا ، فَأَخْذَذُ لَهَا مِنْ قُمَّامِ الْأَرْضِ فَرَدَهَا حَتَّى جَاءَتْ ، وَاسْتَنَاخَتْ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا ، وَاسْتَنَوْيَ عَلَيْهَا ، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ » .

ولقد أوصى بالضعفاء خيراً ، وأكثر من هذه الوصية ، « اتقوا الله في الضعيفين النساء والعيid » ، وقال في خطبة الوداع : « إِنَّ النِّسَاءَ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكُنْ لَأَنفُسِهِنْ شَيْئًا ، أَخْذُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ ، وَاسْتَنَلُوكُمْ فِرْوَاجُهُنَّ بِكَلْمَةِ اللهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ ، وَاسْتَوْصُوا بِهِنْ خَيْرًا » .

ولقد كان رحيمًا بالضعفاء ، ولو كانوا أعداءً مشركين ، يقاتلونه ، ويصدون عن دينه ؛ فقد أوصى الجيش الذي أرسله بقيادة زيد بن حaritha في غزوة

مؤةٌ<sup>(١)</sup> بقوله عليه السلام : « أوصيكم بتقوى الله ، وبن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله في سبيل الله منْ كفر بالله ، لا تُغدووا ، ولا تُغلو<sup>(٢)</sup> ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كيراً فانياً ، ولا منزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بيتاً ». »

لقد شملت رحمة جمِيع الضعفاء من الإنسانيّ : الوليد الذي لا يملك دفاعاً عن نفسه ، والمرأة ، والكبير القافن ، والمتعبد في صومعته ، كما شملت النبات الذي لا ذنب له ولا حريرة ، بل شملت الجماد ، فأى رحمة كانت ! .

ولقد أمره الله سبحانه أن يجير المشرك إذا جأ إليه ، وطلب حمايته . وهذا منتهي الفتوة والمروة والرحمة بالضعفاء : « وإن أحد من المشركين استجا ره فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مامنه ». وإذا كان حدبه على الضعفاء قد امتد إلى المشركين الذين يلتجئون إليه ، فما بالك بال المسلمين ؟ ! .

وفي أحاديثه الشريفة ، وجواعيم كلها فيض من الرحمة والرأفة ، والتدخل لحماية المظلوم ورفع الظلم عنه ، والبر بالفقراء والمساكين ، والشفقة على الضعفاء والمنكوبين : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ». .

وقال عليه السلام : ما أكرم شاب شيخاً لسنّه إلا قيَضَ الله تعالى له من يكرمه عند سنّه ». .

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧ ، الطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦ ، وكانت غزوة مؤة في السنة الثامنة من الهجرة ، ومؤة موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس .

(٢) لا تغلو : ولا تخونوا .

وقال عليه السلام : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشك أن يعَمِّهم الله تعالى بعقاب » .

وقال عليه السلام : « إنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا ، الْمُوَطَّئُونَ أَكَنَافًا الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُوَلِّفُونَ » .

ونختتم الكلام عن سيد الفتيان عليه الصلاة والسلام الذى تجلت فيه النِّبلَةُ العربية ، والمُهْدِىُ الإِسْلَامِىُ ، والتَّأْدِيبُ الإِلهِيُ بِأَجْلِي ما يَتَهَيَّأُ لِبَشَرٍ ، بِهِذَا الْحَدِيثِ الْمُأْثُورُ عَنْهُ ، وَالَّذِى يَدُلُّ أَتْمَ دَلَالَةً عَلَى مَا يَتَطَلَّبُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَوْمِهِ وَأَتِبَاعِهِ مِنْ صَفَاتِ الرِّجُولَةِ ، وَإِحْقَاقِ الْحَقِّ ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا يَكُنْ أَحَدٌ كَمِإِمَّةٍ<sup>(١)</sup> يَقُولُ : أَنَا مَعَ النَّاسِ ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسَ أَحْسَنَتْ وَإِنْ أَسَاءَوْا أَسَاءَتْ ، وَلَكِنْ وَطَنُوا أَنفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تَحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءَوْا أَنْ تَتَجَنَّبُوا إِسَاعَتِهِمْ » فَهُوَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ يَحْثُلُ عَلَى أَنْ تَكُونَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ شِخْصِيَّةً قَوِيَّةً ، لَا تَفْنِي فِي سُوَاهَا ، وَأَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ عَنْ عَقِيَّةٍ ، لَا عَنْ اتِّبَاعٍ ، وَأَنْ يَتَدَخَّلُ لِرَفْعِ الظُّلْمِ وَإِحْقَاقِ الْحَقِّ ، وَعَمَلِ الإِحْسَانِ وَأَلَا يَجْهَرُ السَّفَهَاءُ وَالظَّالِمِينَ فِي سُفْهِهِمْ وَإِسَاعَتِهِمْ . وَهُوَ بِذَلِكَ يَدْعُو عَلَيْهِ السَّلَامَ إِلَى الْاسْتِقْلَالِ فِي الرَّأْيِ الَّذِي لَا يَجْحَافِي تَعَالَمِ الدِّينِ الْكَرِيمِ . وَإِنَّ أَمَّةً يَوْجَدُ فِيهَا مُثْلُ هُؤُلَاءِ لَأَمَّةً جَدِيرَةً بِالسِّيَادَةِ ؛ لَأَنَّ أَخْلَاقَهَا ذَلَّتْ لَهَا الْطُّرُقُ الْمُؤْدِيَةُ لِسِيَادَةِ الْعَالَمِينَ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْأَمَّةُ الْكَرِيمَةُ « كُنْتُمْ خَيْرَ أَمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وقال عليه السلام : « أَنْصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أوْ مُظْلَومًا . قِيلَ : أَنْصِرْهُ إِذَا

(١) الإِمَّةُ : المُتَرَدِّدُ الَّذِي لَا يَتَبَتَّتْ عَلَى شَيْءٍ ، أَوْ هُوَ الَّذِي لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ .

كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال : تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره .

وهكذا رأينا في سيدنا محمد عليه السلام كيف اتجهت خلال الفتنة العربية إلى وجهة أعم وأكثر إنسانية ، ترمي إلى المداية والحق ، ولم يعد الزَّهُوُ<sup>١</sup> الشخصي ، والمجد القبلي ، والدفاع عن العشيرة ، واكتساب السمعة الحسنة هي كل ما يرجوه الفتى ، بل صار يعمل خدمة الدين ، والمبادأ ، ويريد اكتساب الثواب والجنة ، فزاد ذلك من فتوته وحماسته ، ويقول قيطاني : « ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربرية فحسب ، وإنما كان انقلاباً كاملاً لِمُثُل الحياة التي كانت من قبل » .

## فتیان المسلمين

جعلت حرارة العقيدة السليمة ، وقوة اليقين المكين ، والقدوة الصالحة الطيبة ، من رجال العرب الذين اعتنقوا الإسلام ، وضجعوا الرسول ، واهتدوا بهديه ، واقتبسو من نوره مُثلاً عليا نادرة في تاريخ البشرية ، حتى صار كل واحدٍ منهم يَعْدِلُ أمةً كاملاً ، في رجولته ورجاحة عقله ، ونفاذ بصيرته ، وتمام فتوته ، وكيف لا يَعْدِلُ أمةً وقد وَكَلَ إِلَيْهم بعد وفاة نبيهم الكريم أن يحملوا رسالته إلى العالمين ، فحملوها إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وفتحوا البلدان بأخلاقهم وَهَدِيَّهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وغَلَبَّهم . وكانوا حَكَاماً عادلين ، وقضاء منصفين ، وقادة مُحَمَّكين ، وساسة دُهَّاء قادرين ، وسفراء مُعْتَزِّين موقفين ، مع أنهم ظلوا في جزيرتهم قبل هذا الفتح المبين لم يبرحوها ، ولم يقتبسوا من غيرهم نُظُمه ومدنيته ، ولم يعرفوا شيئاً عن الإمارة والسفارة والقيادة ، ولكنه هَدْيُ الفطرة ، وتعاليم الإسلام الْكَرِيمَة ، تَمَكَّنت من هذه القلوب العظيمة ، ففاضت على البشرية نوراً وعدالة وسماحة ووفاء ، وأنقذوا العالم من البغي والضلال والشّقّوة التي كان يعاينها على أيدي حكامه الفاسدين .

لقد كان صحابة الرسول هم القوة التي تَمُدُّ المسلمين بالنور ، وتدفعهم إلى النصر ، وليس أدلَّ على ذلك مما فعله خالد بن الوليد حين أصرَّه أبو بكر رضي الله عنهما بالتوجه من العراق إلى الشام لمعاونة جيوش المسلمين في حربهم

ضد الروم ، حيث أراد الاستئثار بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذهم معه ، ولكنَّ المثنى بن حارثة الذي خلفه على جيوش المسلمين في العراق غضب لهذا الاستئثار بصحابة الرسول وقال له : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكرٍ كله ، في استصحاب نصف الصحابة ، أو بعض النصف ، ووالله ما أرجو من النصر إلا بهم فكيف تعرِّيني منهم ؟ »<sup>(١)</sup>

والسرُّ في هذا أن الصحابة آمنوا عن عقيدة ، وامتلأت قلوبهم بمحبة دينهم ، وهذى نبيهم ، فهم أحرى الناس بالاستبسال في القتال وطلب الشهادة ؛ لأن حرارة الإيمان تدفعهم ، وصحبة النبي وسيرته ترشدهم ، وليس كذلك سواهم من دخلوا في الإسلام بعد الفتح ، أو ارتدوا ثم أسلموا .

ثم إنهم شهدوا مع الرسول غزواته في سبيل الدفاع عن الدين ، وثبتت براءتهم ، وتأييدهم لدينهم ، وعظمت تجربيتهم ، وسمت أخلاقهم بصحبتهم للرسول الكريم ، فهم في كل جيش القبس الذي يهديه ، واللحجة التي يلجئون إليها ، والقدوة التي يحتذونها ، ثم إنهم حفظة القرآن تدوّي به أصواتهم إذا اشتد سعير المعركة ، فيزداد الجيش قوة ويقيناً .

لقد أدب الله سبحانه نبيه فأحسن تأديبه ، وأدب النبي عليه السلام صاحبته فأحسن تأديبهم ، ولذا قال عليه السلام : « أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » . فكانوا أجزل الرجال وأتمهم عقلاً ورجلة وبطولة ، ونماذج فذة في الأخلاق الكريمة بهرت الفروس في عزة ملوكهم ، وزلزلت عروشهم فدانت لهم ديارُهم ، وفنتت المسيحيين في أرض الروم عن دينهم فدخلوا في دين الله أفواجاً .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ .  
فتح البلدان ص ١٤٠ .

وفي ذلك يقول السير توماس أرنولد : « وإذا نظرنا إلى التساحق الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق <sup>(١)</sup> ». وهذا التساحق هو من أثر التعاليم الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم ، ومن أثر معاملة النبي عليه السلام لأعدائه وقدوته للصحابة ، ولقد أوصى بأهل الذمة خيراً ، وروى عنه عليه السلام قوله : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم الدين <sup>(٢)</sup> » ، وسأعود إلى هذا الموضوع بعد قليل إن شاء الله .

١ — أما الشجاعة فقد كان المسلمون الأولون أبطالاً لا تستثنى منهم أحداً ولا سبيلاً هؤلاء الذين سبقو للإسلام ، وعذّبوا في سبيل عقيدتهم ، وحاول قومهم فنتهم فلم ينالوا منهم شيئاً بل زادهم ثباتاً ، وإيماناً ، وهاجروا بدينهم في سبيل الله ، وهؤلاء الذين استقبلوا المهاجرين في ديارهم وشاطرورهم أموالهم ومساكنهم ونصرورهم وأعزوا دينهم ، وافتدوا رسول الله ورسالته يا رواحهم وأموالهم .

لقد أرادت قريش أن تستأصل هذه الفتنة المسامة التي تعبد الله حق عبادته ، ولا تشرك به شيئاً حتى تستريح من هذا الدين الجديد ، واضطرب محمد عليه السلام ومن معه إلى الدفاع عن دينهم وحمايته ، وكانوا قلة فقيرة ، يحاربون عرباً أقوىاء أثرياء ، لهم شجاعة وبأس ، بيد أن حرارة الإيمان وقوته

Sir T. Arnold : The Preaching of Islam, ch. 3. (١)

(٢) البلاذرى ١٦٢ .

اليقين جعلت من هؤلاء المسلمين أبطالاً معاوِير ، فكان الواحد منهم يعدل في أول الأمر عشرة من المشركين في قوة بأسه ، وشدة شَكيمته ، وصبره على الجهد والبلاء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : « يا أئمها النبي حَرَضَ المؤمنين على القتال ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الظِّنَّ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »<sup>(١)</sup> .

وكان هذا ثقةً عظيمةً بهؤلاء المسلمين الأولين ، ولكنَّ الله خفَّ عنهم بعد ذلك وجعل كلاًًّا منهم عَدِيلًا لرجائين من المشركين : « الآن خفَّ الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفاً ، فإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةً صَابِرَةً يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفًا يَغْلِبُوا أَلْفَيْنَ بِإِذْنِ الله ، وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ »<sup>(٢)</sup> .

ومما زادهم بأساً وصرامةً وحرصاً على الموت ما وعدهم به الله سبحانه من الجنة والثواب العظيم إذا استشهدوا في سبيله : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ »<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : « إِنَّمَا لَقِيْتُمُ الظِّنَّ كَفَرُوا فَضَرَبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أُخْتَنْتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ، حَتَّى تَضَعَّ الْحَرَبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لَا تَنْتَصِرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لَيَلِوَ بَعْضَكُمْ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله فَلَنْ يُضْلَلُ أَعْمَالُهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَّهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّةً عَرَفَهَا لَهُمْ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرُكُمْ وَيَثْبِتُ أَقْدَامَكُمْ »<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٥

(٢) سورة البقرة : الآية ١٥٤

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٦

(٤) سورة محمد : الآيات ٤ ، ٦٠

وقال تعالى : « ولا تحسِّنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ »<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِي كُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذُلْكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمِسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَآخَرِي تَحْبُونَهَا ، نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفُتُوحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ ».

ولقد حَرَضَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ بَدْرٍ بِقَوْلِهِ : « وَالَّذِي نَفَسْتُ مُحَمَّدَ بِيَدِهِ لَا يَقْاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحَمَّامَ — وَفِي يَدِهِ تِمَّرَاتٌ يَا كَلْهَنْ : بَخْ ، بَخْ ! أَفَمَا يَبْيَنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَقْتَلَنِي هُوَ لَاءٌ ؟ ثُمَّ قَذَفَ التِّمَّرَاتِ مِنْ يَدِهِ ، وَأَخْذَ سِيقَهُ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ<sup>(٢)</sup> .

وَخَطَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ الْجَنْدِ يَوْمَ مُؤْتَهَ بِقَوْلِهِ : يَا قَوْمًا ! إِنَّ الَّتِي تَكْرَهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَمَا نَقَاتَلُ النَّاسَ بَعْدَ دِلْلَادِ وَلَا قُوَّةَ وَلَا كُثْرَةَ ، وَلَا نَقَاتَلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ ، فَانْطَلَقُوا إِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسْنَيَّيْنِ : إِمَّا ظَهُورٌ وَإِمَّا شَهَادَةٌ » ، وَمَا قُتِلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَوْمَ مُؤْتَهَ ، وَأَخْذَ الرَايَةَ جَعْفُرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ارْتَجَزَ وَقَالَ :

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةَ وَاقْرَابُهَا طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا

(١) آل عمران آية ١٦٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٩ .

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها  
 على إذا لاقيتها ضراها<sup>(١)</sup>

ولقد ظهرت شجاعتهم الفاقعة وحبيتهم لنبيهم واستماتتهم في الدفاع عنه يوم أحد ، هذا أبو دجانة يقع النبل في ظهره وهو منحني يحمي النبي عليه السلام بحسه ، ويشاركه سعد بن أبي وقاص ، ويدافع عنه طلحة بن عبيد الله حتى تشل يده<sup>(٢)</sup> .

لم يكن الأمر أمر شجاعة فحسب ، ولكنها شجاعة منبعثة عن عقيدة ، يضحي فيها المسلم بكل شيء في سبيل إعزاز دينه ، يضحى فيها بأمه وأبيه ، وولده وكل عزيز لديه . لقد مر النبي عليه السلام وهو عائد من أحد على امرأة من بنى دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد ، فلما نعوا إليها قالت : ما فعل رسول الله ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحببين . قالت أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدهك جلل !

ولما قال عبد الله بن أبي رئيس المناقين بالمدينة في غزوة بنى المصطلق : « أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وغضب رسول الله والصحابة لهذه القالة الرذيلة ، وهم كثير من الصحابة بضرب عنقه لولا سماحة النبي ، تقدم عبد الله بن عبد الله بن أبي هذا ، وكان من صالح المسلمين ، وقال لرسول الله : « إنني قد سمعت أنك تريدين قتل أبي لما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعل ، فمرني أحمل إليك رأسه ، والله ما علم الناس رجلا أبر

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٢٧ ، والطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦ ، والضراب : المحالدة .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣ وما بعدها ، والطبرى ج ٣ ص ٩ وما بعدها .

بِوَالدِّهِ مِنِّي ، وَلَكُنِي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ غَيْرِي بِقُتْلِهِ ، ثُمَّ لَا تُسْتَرِيحُ نَفْسِي حَتَّى أُقْتَلَ  
الَّذِي أَمْرَتْهُ بِقُتْلِهِ ، فَإِنْ كُونَ قَدْ قُتِلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخِلْهُ النَّارَ » ، فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ : « بَلْ تَرْفَقُ بِهِ ، وَنَحْسِنُ صَحْبَتِهِ مَا بَقِيَ مَعَنَا <sup>(١)</sup> ».

لَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مِنْ قَلْوَبِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاجْتَثَثَ مِنْ نُفُوسِهِمْ  
الْأَثْرَةُ وَالْعَصْبَيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ ، وَأَبْدَلَهُمْ مِنْهَا مَحْبَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَدِينِهِ ، وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ  
سَبِّنْجُورُ <sup>(٢)</sup> : « كَانَ دُخُولُهُ مِبْدَأً جَدِيدًا مِنَ الْوَحْدَةِ الْاجْتَمَاعِيَّةِ فِي ظَلِ الْأَخْوَةِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْجَمْعِ الْعَرَبِيِّ قَدْ بَدَأَ مِنْذَ حِينَ فِي إِضْعَافِ الْقُوَّةِ الْرَّابِطَةِ لِلْفَكْرَةِ  
الْقَبْلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، تَلَكَ الْفَكْرَةُ الَّتِي أَقْامَتْ بَنَاءَ الْجَمْعِ الْعَرَبِيِّ عَلَى أَسَاسِ  
قِرَابَةِ الدَّمِ ، وَكَانَ إِسْلَامُ الْفَرْدِ وَدُخُولُهُ فِي الْجَمْعِ الْجَدِيدِ هَدَمَّاً لِأَهْمَّ قَوَاعِنِ  
الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ ، كَمَا كَانَتْ كَثِيرَةُ دُخُولِ الْعَرَبِ فِي إِسْلَامِ مِنَ الْعُوَامِلِ  
الْقَوِيَّةِ الَّتِي أَدَتَ إِلَى تَفَكُّكِ النَّظَامِ الْقَبْلِيِّ <sup>(٣)</sup> ».

لَوْ تَهَاوَنَ الْمُسْلِمُونَ فِي الدِّفاعِ عَنْ دِينِهِمْ أَمَامَ تِيَارِ الْكُفُرِ الْعَنِيفِ ، وَلِجَاجِ  
الْمُشْرِكِينَ الرَّزِيرِيِّ ، وَإِيذَائِهِمُ الْبَالِغُ الَّذِي خَلَّ مِنْ كُلِّ مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ  
لِلْمُسْلِمِينَ الْقَوِيِّ مِنْهُمْ وَالْمُضْعِفِ ، وَالْعَزِيزِ وَالْذَّنِيلِ ، وَالْخَرُ وَالْمَوْلَى لَا سَتْمَعُوا  
وَلَا سَتْمَعُوا مَعَهُمْ هَذَا الدِّينُ الْكَرِيمُ ، وَهَذَا مَا عَبَرَ عَنْهُ سَيِّدُ الْمُرْسِلِينَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ يَوْمَ بَدْرِ حِينَ احْتَدَمَ الْقِتَالُ ، وَرَمَتْ قَرِيشٌ بِفَلَذَاتِ أَكْبَادِهَا ، وَأَعْزَ  
بَنِيهَا بِقُولِهِ : « اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ الْيَوْمَ لَا تُعْبِدْ » وَأَبُو بَكْرٌ يَقُولُ لَهُ :

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٣ ، الطبرى ج ٤ ص ٣٣٣ ، وكانت غزوة بنى المصطلق  
في السنة السادسة من الهجرة وبنو المصطلق جماعة من خزاعة .

(٢) A. sprenger : Das Leben und die Lehre des Mohammed.  
vol. 3, pp. 360 — 361.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧ .

يَا نَبِيَّ اللَّهِ بَعْضَ مَنَاسِدِكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ <sup>(١)</sup> .

وَلَذِكَ حَثَّهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى :  
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتلُوا الَّذِينَ يَأْلُمُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَا يَجِدُوا فِيهِمْ غِلْظَةً  
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ <sup>(٢)</sup> » .

وَنَهَا هُمُ اللَّهُ عَنِ الْفَرَارِ مِنَ الْعُدُوِّ ، وَلَمْ يَفْرُونَ مِنْ عُدُوِّهِمْ ، وَقَدْ وَعَدْهُمُ اللَّهُ  
 إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ أَمْهَا لَهُمْ ، إِمَّا الشَّهَادَةُ وَالجَنَّةُ ، وَإِمَّا نَصْرَةُ الدِّينِ وَإِعْلَاءُ  
 كَلْمَتَهُ؟ . وَحَثَّهُمُ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فَقَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ،  
 إِنْ تَكُونُوا تَائِمُونَ ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ،  
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِكْيَمًا » .

وَأَصْدَرَ إِلَيْهِمْ تَعَالَيمَ تَكْفِلُ لَهُمُ النَّصْرَ ، وَإِعْزَازَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ :  
 « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَلْمَنَمْ بَنِيَانَ مَرْصُوصَ <sup>(٣)</sup> » .  
 وَقَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوْهُمْ  
 الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهُمْ يُوْمَئِذٍ دُبَرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقتالٍ ، أَوْ مُتَحِيَّزًا إِلَى فَتَةٍ فَقَدْ  
 بَاءَ بِغُضْبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَئْسَ الْمَصِيرُ » .

وَأَيْ مُسْلِمٍ يَفْكِرُ فِي الْهَرْبِ مِنَ الْقَتْلِ وَهَذِهِ الْعِقوَبَةُ الصَّارِمَةُ تَدوِّي فِي  
 أَذْنِيهِ : غُضْبُ اللَّهِ ، وَنَاهِيَكَ بِهِ ، ثُمَّ جَهَنَّمُ وَبَئْسَ الْمَصِيرُ؟ ! لَقَدْ بَكَى الْمُسْلِمُونَ  
 وَجَزَعَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ مِنْ هُزُيْتَهُمْ يَوْمَ الْجَسْرِ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ  
 حِينَ عَدَيْشَتْ بِهِمُ الْفِيلَةَ وَلَمْ يَعْرِفُوا كَيْفَ يَقَاتِلُونَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) سورة التوبه ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الصاف ، الآية ٤٠ .

(٣) سورة الأنفال الآية ١٥ .

يواسِيهم ويشجعهم ويعزِّيهم عن هزيمتهم : « لا تجزعوا يا معاشر المسلمين ، إنما فتنكم ، إنما أخذتم إلى اللهِ كلُّ مسلم في حلٍ مني ، أنا فتنة كل مسلم » ، ولما سمع معاذٌ وكان من شهد الموقعة ، وفرَّ من يقرأ : « ومن يومئذ دبره ... الآية » بكى وعلا نحبيه ، فقال له عمر : لا تبك يا معاذٌ ، أنا فتاك وإنما أخذت إلى (١) .

لقد أضيف إلى الشجاعة العربية التي عرفتها في الجاهلية ، وعدم الفرار من العدو حِيَّةً وفُتوةً والتي تمثل في قول الشاعر :

تأخرتُ أستبقي الحياة فلم أجده لنفسِي حيَاً مثلَ أنْ أتقدَّ ما  
فلسنا على الأعقاب تَدْمِي كلومنا ولكنْ على أقدامنا تقطَّر الدَّمَا  
عامل آخر زاد في ثبات العرب المسلمين وهو حبُّ التضحية ، والرغبة في  
الاستشهاد ، وانخوف من الفرار ، لأن عقوبته صارمة عند الله ، ولذلك كان  
جيش المسلمين لا يقاوم مهما كان عدد الأعداء وحماسهم ورغبتهم في النصر ؛  
لأن رغبة المسلمين في النصر أقوى ، ولأنهم يحرضون على الموت كما كان  
عدوهم يحرض على الحياة ، ولذلك كانوا يُلقون الرُّعب في قلوب أعدائهم على  
حد قول الله تعالى : « لأنتم أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم  
قوم لا يفهون (٢) » .

لم يكونوا يدافعون عن غرض دنيوي من أغراض الحياة ، أو طلباً لجاه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٦٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٤ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٩٠  
فتوح البلدان ص ٢٥٢ ، وتسمى هذه الموقعة أيضاً يوم قس ناطف ، وكانت في السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

(٢) سورة الحشر الآية ١٣ .

أو مال أو سلطان ، وإنما كانوا يدافعون عن دينهم وعن رسالتهم السامية إلى البشرية جماء ، وعن أنفسهم حين اضطهدتهم المشركون ويدّتوها لهم المكيدة ، وحاولوا استئصالهم ، ولذلك طلما ذكرهم الله بكل هذا حتى يزيد من حميّتهم ، وحرارة دفاعهم ، فقال تعالى : « وما لَكُمْ لَا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون رَبّنا أَخْرِجْنَا من هذه القرىءِ الظالمِ أهلهما ، واجعلْ لنا مِنْ لَدُنْكَ ولياً ، واجعلْ لنا مِنْ لَدُنْكَ نصيراً » <sup>(١)</sup>.

وقال تعالى : « وادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَأَوْا كُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزْقَكُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشَكَّرُونَ » <sup>(٢)</sup>.

لقد كان المسلمون الأوائل من الأبطال ، ولكن تميز من بين صفوفهم فتيان مُعلمون . كانوا ينتدبون <sup>(٣)</sup> لكل كريهة ويتقدمون الصدوف ، يسيرون أنفسهم رخيصة في سبيل الله ؛ كانوا أقوىاء أشداء ، خبراء بفنون القتال ، تمتلئ جوانحهم شجاعة وإيماناً.

ومن هؤلاء حمزة عم النبي ، ولقد بزّهن من أول يوم دخل فيه الإسلام على شجاعته الفائقة ، وعلى أنه قوة أيد الله بها دينه وأعز رسوله ، روى ابن هشام في إسلام حمزة : أن حمزة كان راجعاً من قنصٍ له متقدلاً سيفاً ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكتبة ، وكان إذا فعل لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدى معهم ، وكان أعز قتى في قريش

(١) سورة النساء : الآية ٧٥.

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٦.

(٣) ينتدبون أنفسهم ويتطوعون.

وأشد شكيمة ، فلما مرض بعراة كانت قد شهدت إيزاده أبي جهل للنبي عليه السلام في ذلك اليوم قالت له : يا أبا عمارة ، لورأيتَ مالقى ابنُ أخيك محمدُ آنفًا من أبي الحكم بن هشام : وجده ها هنا جالسًا فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب ، لما أراد الله به من كرامته ، خرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، معدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضرَّ به فشجَّه شجَّةً مُنكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرُدَّ ذلك على إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصره وأبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سبَّتُ ابنَ أخيه سبًا قبيحًا . وتمَّ حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيمعنها ، فكفوأ عن بعض ما ينالون منه<sup>(١)</sup> .

ولما التقى المسلمين بالمشركين في غزوة بدر ، خرج الأسودُ بن عبد الأسود المخزومي ، وكان رجلاً سيِّئَ الخلق شرسًا من كفار قريش ، وقال : أعادهُ الله لأشربَن من حوضهم (أي المسلمين) أو لأهدمَنَه ، أو لأموَّنَه دونه ، خرج إليه حمزة ، وضرَّ به حمزة قطع قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشَّخْبَرَ رجله دمًا ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتُحِمَ فيه ، يريد أن

(١) لم يكن حمزة حين انتقم لحمد عليه السلام من أبي جهل قد أسلم ، ولكنه صرَّح بإسلامه في ذلك الوقت ، إذ أراد الله به خيراً ، وقد ثبتت على إسلامه رضي الله عنه .  
راجع ابن هشام ط الحلبي ج ١ ص ٣١٢

يُبَرِّئُ مِنْهُ ، وَاتَّبَعَهُ حَمْزَةُ ، فَضَرَّ بَهُ حَتَّى قُتِلَ فِي الْمَوْضِ .

وَلَا بَرَزَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بَيْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ وَابْنِهِ الْوَلِيدِ مِنْ بَيْنِ صَفَوْفِ الْمُشَرَّكِينَ يَطْلَبُونَ الْمَبَارِزَةَ ، وَتَقْدِيمَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، رَفَضُوا مَبَارِزَتَهُمْ وَنَادَوْا : يَا مُحَمَّدَ أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا ، نَدَبَ حَمْزَةُ نَفْسِهِ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : قَمْ يَا عَبِيدَةَ بْنَ الْحَارِثَ ، قَمْ يَا عَلَى ، وَلَمْ يَمْهُلْ حَمْزَةُ شَيْبَةَ أَنْ قُتِلَ ، وَلَمْ يَمْهُلْ عَلَى الْوَلِيدَ أَنْ قُتِلَ ، وَلَمْ يَجِدَا عُتْبَةَ وَعَبِيدَةَ لَا يَرَانِ يَقْتَلَانِ سَاعِدًا عَبِيدَةَ ، وَقُتِلَ عُتْبَةُ .

وَلَا اسْتَأْسَرَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفَ لَعْبُ الدَّرْحَمِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَارَ بَهُ هُوَ وَابْنُهُ سَالِهُ أُمَيَّةُ : مَنْ مِنْكُمْ أَمْلَمُ بِرِيشَةِ نَعَامَةَ فِي صَدْرِهِ ؟ قَالَ : ذَاكُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ . قَالَ : ذَاكُ الَّذِي فَعَلَ بِنَا أَفَاعِيلُ<sup>(١)</sup> !

وَفِي غَزْوَةِ أَحَدٍ كَانَ حَمْزَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَهُدُ النَّاسَ بِسِيفِهِ مَا يَبْقَى عَلَى شَيْءٍ ، فَصَوْبَ إِلَيْهِ وَحْشَى عَلَامُ جَبَيرٍ بْنَ مُطْعَمٍ حَرَبَتْهُ عَنْ بَعْدِ خَرْصِيَّعًا ، وَكَانَ سَيِّدُ وَحْشَى قَدْ مَنَاهَ إِنْ هُوَ قُتْلُ حَمْزَةَ أَنْ يَعْتَقِهِ . وَلَقَدْ حَزَنَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَزَنَ الْمُسْلِمُونَ لِمَقْتَلِ حَمْزَةَ حَزْنًا عَظِيمًا .

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ غَيْظِ قَرِيسٍ وَنَسَائِهِ مِنْ حَمْزَةَ وَشَجَاعَتِهِ وَبِلَائِهِ فِي قَتَالِهِمْ أَنْ هَنَدًا بُنْتَ عُتْبَةَ زَوْجُ أَبِي سَفِيَّانَ مَثَلَتْ بِهِ وَشَقَّتْ عَنْ بَطْنِهِ ، وَلَا كَتَّ بَكَدَهُ ، وَكَافَّتْ وَحْشَيَا بِقَلَائِدِهَا وَقَرَطَهَا لِأَنَّهُ قُتْلُ حَمْزَةُ ، وَهَذَا كَاهٌ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى صَدْقَ بَلَائِهِ وَعَظِيمِ شَجَاعَتِهِ . وَوَقَفَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها ، وراجع الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧ وما بعدها في غزوته بدر .

مقتولٌ وقال : « لن أصابَ بِمثلكَ أبداً ، ما وقفتُ موقفاً قطْ أغَيَّظَ إلَى  
من هذا ». .

ومن هؤلاء الفتىـان الذين ذاعت شجاعتهم ، ولـقي المـشركون في كل  
موطن التـقوـا فيه بالـمسلمـين منـهم كلـ بلـاء ، وـكانـوا عـلـيـهم خطـوـا جـسـاماً ، عـلـى  
ابـنـ أـبـيـ طـالـبـ كـرـمـ اللهـ وجـهـهـ . كانـ عـلـىـ صـاحـبـ لـوـاءـ الـمـسـلـمـينـ يـوـمـ أحـدـ بـعـدـ  
مقـتـلـ مـصـعـبـ بـنـ عـمـيرـ ، وـقـاتـلـ الـمـسـلـمـونـ خـلـفـهـ حـتـىـ أـنـزـلـ اللهـ نـصـرـهـ وـصـدـقـهـمـ  
وـعـدـهـ . وـاتـدـبـهـ النـبـيـ عـلـيـهـ السـلـامـ بـعـدـ المـعرـكـةـ ، قـائـلاـ لـهـ : « اخـرـجـ فـيـ آـثـارـ  
الـقـوـمـ ، فـانـظـرـ مـاـذـاـ يـصـنـعـونـ ! وـمـاـذـاـ يـرـيدـونـ ? فـإـنـ كـانـواـ قدـ جـنـبـواـ الـخـيلـ ،  
وـامـتـطـوـاـ الـإـبـلـ ، فـإـنـهـمـ يـرـيدـونـ مـكـةـ ، وـإـنـ رـكـبـواـ الـخـيلـ وـسـاقـواـ الـإـبـلـ فـإـنـهـمـ  
يـرـيدـونـ الـمـدـيـنـةـ ، وـالـذـىـ نـفـسـىـ يـيـدـهـ لـئـنـ أـرـادـهـاـ لـأـسـيـرـاًـ إـلـيـهـمـ فـيـهـاـ ، ثـمـ  
لـأـنـاجـزـهـمـ » خـرـجـ عـلـىـ فـيـ آـثـارـهـمـ <sup>(١)</sup> .

وـفـيـ غـزـوـةـ الـخـنـدقـ خـرـجـ عـمـروـ بـنـ عـبـدـ وـدـ مـنـ صـفـوفـ الـمـشـرـكـينـ ، وـقـالـ  
مـنـ يـبـارـزـ ؟ فـبـرـزـ لـهـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ ، وـقـالـ : يـاـ عـمـروـ ! إـنـكـ كـنـتـ عـاهـدـتـ اللهـ  
أـلـاـ يـدـعـوكـ رـجـلـ مـنـ قـرـيـشـ إـلـىـ إـحـدـىـ خـلـتـيـنـ إـلـاـ أـخـذـتـهـ مـنـهـ ، قـالـ :  
أـجـلـ ! قـالـ عـلـىـ : فـإـنـيـ أـدـعـوكـ لـلـنـزـالـ ، قـالـ : وـلـمـ يـاـ بـنـ أـخـىـ ؟ فـوـالـلهـ مـاـ أـحـبـ  
أـنـ أـقـتـلـكـ ، فـقـالـ عـلـىـ : وـلـكـنـيـ وـالـلهـ أـحـبـ أـنـ أـقـتـلـكـ . فـخـمـيـ عـمـروـ عـنـدـ ذـلـكـ ،  
وـنـزـلـ عـنـ فـرـسـهـ ، وـعـقـرـهـ وـضـرـبـ وـجـهـهـ ، ثـمـ أـقـبـلـ عـلـىـ فـنـتـازـلـاـ وـتـجـادـلـاـ ،  
فـقـتـلـهـ عـلـىـ .

(١) رـاجـعـ فـيـ غـزـوـةـ أـحـدـ بـنـ هـشـامـ جـ ٣ـ صـ ٣ـ وـمـاـ بـعـدـهـاـ وـتـارـيخـ الطـبـرـىـ جـ ٣ـ  
صـ ٩ـ وـمـاـ بـعـدـهـاـ .

وكان على صاحب الرأية في غزوة بنى قريظة ، ولما حكم سعد بن معاذ على بنى قريظة بحكم الله ، وأبوا صاح على ! يا كتيبة الإيمان ! فتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لافتحن حصنهم ، فقالوا : يا محمد : ننزل على حكم سعد بن معاذ<sup>(١)</sup> .

وفي غزوة حنين حينما تخلى المسلمون عن رسول الله إلا نفر قليل من أصحابه الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله ، ورأى الناس رجلا من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمي ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، أسرع له على ابن أبي طالب ورجل من الأنصار يريداه ، وما زالا به حتى قتلاه<sup>(٢)</sup> .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدى كثير من العرب ، ووفد وفدُهم على أبي بكر يراودونه على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، وأبن أبو بكر ذلك وقال قوله المشهور : « والله لو منعوني عقالا لحاربتم عليه » ، خشى أبو بكر رضي الله عنه من هؤلاء المرتدین يحاصرون المدينة ، وتوجس منهم شرًا ، فأعاد العدة لغدرهم وجعل على أنقاب<sup>(٣)</sup> المدينة نفراً من شجعان المسلمين ، منهم على ابن أبي طالب والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن مسعود ، حتى يمنعوا المرتدین من دخول المدينة ، وذلك لثقة شجاعتهم وبطولتهم .

وهكذا كان على رضي الله عنه في كل موطن أول من يتقدم الصفوف

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٥٢ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٦٥ وما بعدها . السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٢١ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٠ .

(٣) الأنقب : ج نقب وهو الطريق .

وَيَنْتَدِبُ لِلْمَكَارِهِ ، وَمَا هُزِمَ مَرَّةً فِي حَيَاتِهِ . وَلَا عَجَبٌ فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ فِيهِ : « لَا سَيْفٌ إِلَّا ذُو الْفَقَارٍ ، وَلَا فَتَّىً إِلَّا عَلَىٰ »<sup>(١)</sup>  
وَلَقُبْطَةً عَلَىٰ سَيْفِ اللَّهِ الْغَالِبِ .

وَمِنْ هُؤُلَاءِ الْفَتَيَانِ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالْقُوَّةِ وَالْفَتْوَةِ وَرِجَاحَةِ الرَّأْيِ ، وَالبِسْلَةِ الْفَاقِهَةِ ، وَلَمْ يَخْذُلُوا فِي أَيِّ مَعْرِكَةٍ ، وَكَانُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ يَفْتَحُونَ لَهُمُ الْبَلَادَ ، وَيُدِيلُونَ عَدُوَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، سَيْفُ اللَّهِ الْمَسْلُولِ .

وَمَاذَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ؟ وَقَدْ تَمَيَّزَ فِي الْجَاهِنِيَّةِ بِالْفَتْوَةِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُوزُ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَاءَهُ خَالِدٌ وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَعُثْمَانَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدُرِيِّ مُسْلِمِيْنَ بَعْدَ غَزْوَةِ خَيْرٍ ، مُخَاطِبًا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدَ ، مُعْبَرًا عَنْ عَظِيمِ سُرُورِهِ يَمْقُدِّمهِ مُسَلَّمًا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ ، وَقَدْ كُنْتَ أَرَى لِكَ عَقْلًا رَجُوتُ أَنْ يُسْلِمَكَ إِلَى خَيْرٍ » ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَغْفِرَ لِلْمُوَاطِنِ الَّتِي كَنْتَ أَشْهِدُهَا عَلَيْكَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِلِّا إِنْ يَحْبُّ مَا قَبْلَهُ »<sup>(٢)</sup>.

لَقَدْ صَدَقَتِ فِرَاسَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خَالِدٍ ، وَصَدَقَ ظُنُونُ النَّاسِ فِيهِ فَكَانَ سَيْفًا مُشْرِعًا مِنْ سَيَوْفِ اللَّهِ ، كَتَبَ لَهُ النَّصْرُ أَيْمَانًا سُلَّمَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ بَرَهَنَ خَالِدٌ مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ دَخَلَ فِيهِ إِلِّيْسَلَامَ عَلَى أَنَّهُ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ يُؤْيِدُ اللَّهَ بِهَا دِينَهُ ، وَيُشَدُّ أَرْزَاقَ أَنْصَارِهِ . وَلَقَدْ عَاهَدَ إِلَيْهِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونُ

(١) ذُو الْفَقَارٍ : سَيْفُ سَيِّدِنَا عَلَىٰ . راجِعٌ . Encyclopedia of Islam p. 123

(٢) نُورُ الْيَقِينِ ص ١٩٦

على رأس فريق من جيشه يوم فتح مكة ، فدخلها من (اللّٰه طٰ أسفل مكة) ، وقد تصدت له قريش تريد منعه فقتل منهم أربعة وعشرون ، ودخل مكة عنوة .

وفي غزوة مؤتة جعل النبي عليه السلام إمرة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن قُتل بمعاذ بن أبي طالب ، فإن فأصيبي فعبد الله بن رواحة . وقد كان عدد المسلمين قليلاً ، ولكنهم أبلوا بلاً عظيمًا ، واستشهد أمراء الجيش واحداً بعد واحد ، ورأى المسلمون أنهم في حاجة إلى أمير ينقذهم مما هم فيه ، ويُكفل لهم النصر أو الارتداد السَّكريـم بدون تصحيات كثيرة وخسارة في الأرواح ، فأمروا عليهم خالد بن الوليد . ورأى خالد نفسه يرأس ثلاثة آلاف جندي وعدوه يزيد عن مائة ألف ، ولكنه قاتل في أول يوم توَّلَّ فيه إمرة الجيش قتالاً عظيمًا ، وفي غده خالد ترتيب العسكر : بجعل الساقية مقدمة ، والمقعدة ساقية ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين ، فدب في قلوبهم الرعب ، ثم أخذ خالد الجيش ، وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ، ثم مكث يناؤش الأعداء سبعة أيام ثم تهاجم الفريقيان ، لأن الأعداء ظنوا أن الأمداد تتواتي للمسلمين ، وخافوا أن يحررهم إلى الصحراء حيث لا يمكنهم الخلاص ، وبذلك انقطع القتال .

وقد نهى النبي عليه السلام للمسلمين زيداً وجعفر وابن رواحة قبل أن يأتياهم خبرُهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيبي ، ثم أخذها جعفر فأصيبي ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيبي ، وكانت عيناه تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم » .

وقد أثني على خالد في مهاراته بعد أن ظن المسلمون أن تقهقره هزيمة ،

ولكن النبي أفهمهم أنه من مكاييد الحرب<sup>(١)</sup>.

ثم كانت الرّدة ، وانتهاض العرب على الخلافة الإسلامية ، ووجه أبو بكر رضي الله عنه خالداً لقتال المرتدين أتباع مسيمة الكذاب في اليمامة ؟ وهزم المسلمون باديُّ الأمر بعد أن أظهروا من ضروب البطولة ما يعجز القلم عن تصويره ، ولكنهم جمعوا جموعهم ، وثبتوا . بيد أن عدوهم كان يزداد قوة ومدداً ، وهم يزدادون ضعفاً ؛ بعد الشقة بينهم وبين المدينة . ولما رأى خالد أن القتل استحرَّ في جيشه ، وثبتت مسيمة ومن معه ، عرف أن الحرب لا ترکد إلا بقتل مسيمة ، فبرز حتى إذا كان أمام الصفوف دعا إلى البراز وانتسب واتسَى ، وقال : أنا ابن الوليد ، ونادى بشعار المسلمين يومئذ : يا ممداه ! فعل لا يبرُّ له أحدٌ إلا قتله .

وأقبل الحيطون بمسيمة يخرجون إلى لقاء خالد ، فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثير فيهم القتل ، وشعر مسيمة بالخزي يركبه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا ، لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج ، فتردد واضطرب ؛ وإنه لفي اضطرابه وتردداته ، إذ شدَّ خالد برجاته عليه وعلى من حوله يعملون فيهم السلاح ، فهرب مسيمة إلى حديقته ، وكانت فسيحة الأرجاء متينة الجدران كأنها الحصن ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم الحديقة وأبادوهم وقتلوا مسيمة الكذاب<sup>(٢)</sup> . فكان هذا أول نصر أرجع للعرب

(١) نور اليقين ص ٢٠٤ ، وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٧ ، والطبرى ج ٣ ص ١٠٧ . والسيرة الخلبية ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٦٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٤ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٧٥ ، ابن كثير ج ٦ ص ٣٢٣ ، ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٤ وكانت موقعة اليمامة في السنة الحادية عشرة من الهجرة ، وبين اليمامة وبين البحرين عشرة أيام .

المرتدين عقوبهم التي شردت عنهم ، وخيرهم الذي عَزُب عن نفوسهم بموت سيد المرسلين . وعلموا أن المسلمين مؤيَّدون من عند الله ، وأن عقيدتهم وحرارة إيمانهم ، ووعد الله لهم تكفل كلُّها لهم النصر المبين ، وأنهم على الرغم من شجاعتهم وكثرتهم ، وقربهم من ديارهم لم يغفهم كل ذلك شيئاً فرجعوا إلى حمى الإسلام تائبين

وهذا هو خالد العظيم في موقعة ذات السلاسل يرى هرمز ينادي للنزال فلم يطلب أحد شجعان جيشه لمنازلته ، ولكنه يتقدم إليه ، فلما التقى اختلفا ضربتين ، ثم احتضنه خالد يريد قتله بيديه ، ولم يبال بسيف عدوه المصلت ، فشد أهل فارس يريدون قتل خالد ، وإنقاذ هرمز من يديه .. ولكن بطلا آخر من أبطال المسلمين الذين دُوَّي اسمهم في كل معركة شهدوها ، ألا وهو القعقاع بن عمرو لم يمهلهم وحمل عليهم ، فانهزم الفرس هزيمة منكرة<sup>(١)</sup>.

وفي يوم الثُّنُج حين خرج قارن قائد الفرس يدعوه إلى البراز نَهَدَ له خالد وقتلها ، ثم قتل الأنوشجان خليفةه ، وقباد الذي رأسهم بعده . وهزمت الفرس هزيمة شنيعة<sup>(٢)</sup>.

لقد كان خالد يتحدى الموت ، ويعدم إلى أشجع القوم ، وقادهم ، فيُرْدِيه بسيفه ، وأحياناً يحتضنه ليعصره بين يديه عصراً ، وإذا مات رئيس القوم ،

(١) كانت موقعة ذات السلاسل في المحرم من سنة ١٢ من الهجرة ، وسميت ذات السلاسل ؟ لأن الفرس قيدوا أنفسهم في السلاسل حتى لا يفرروا . راجع الطبرى ج ٤ ص ٢ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٨٧ ، وفتح البلدان ص ٢٤٢ ، وابن خلدون ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) كان ذلك في صفر سنة ١٢ ، والثُّنُج بالقرب من المدار وهي بلدة بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط . راجع الطبرى ج ٤ ص ٧ ومعجم البلدان ج ٣ ص ٢٥ وابن خلدون ج ٢ ص ٧٩ .

وأشجعهم دبَّ الرعب في قلوب سائرهم وولُوا مدربين ، وهكذا كان خالد يعمال على أن يكفي المسلمين مؤونة القتال ، ويحقن دماءهم ، مُعرَضاً دمه هو لأن يراق في سبيل الله . وإذا لم يكن قائداً الجيش مثلاً رائعاً في البطولة والقوة والخبرة بفنون القتال عرَض جيشه للتهلكة ؛ وإذا كان قدوة لهم ، يتقدم صفوفهم ، ويصرع أقوى أعدائهم ، ويحتال للنصر كل حيلة ، ويجنبهم الهزيمة ، امتلأت قلوبهم ثقة به ، وزاد ذلك في شجاعتهم وبلاهم ، واستمدوا من شجاعته شجاعةً ، وكانوا على أعدائهم بلاً مبيناً ، لا يثبت أمامهم جيش مهما عظم ؛ ولعلَّ هذا هو بعض السرِّ في أن خالد بن الوليد وجيشه كان مُفلحاً في كل موقعة شهدتها ، وكان اسمه يلقى الرعب في قلوب الأعداء ، ولا يجدون جدوى من قتاله ، فيستقبلونه قبل أن يدمر مدنهم ، ويحصد أرواحهم ، وينزلون على شرطه صاغرين .

كان خالد عالماً بنفسية أعدائه ، وحالتهم ، فهم أوشاب لا يقاتلون بحمية ، قد فسد حكامهم ، وأذاقوهم كؤوس الظلم مُترعة ، ونعموا دونهم بخيرات الحياة ولذائتها ، واليوم يسوقونهم للقتال ! يسوقونهم لحاربة قوم باعوا أنفسهم لله ، وخرجوا في سبيل الله ، تتراءى الجنة أمام أعينهم ، ويتحمّل على النصر ما وعدهم به ربهم في محكم كتابه ، فأيما كان أمرهم فهم الفائزون . إنهم كانوا يقاتلون في سبيل مبدأ وعقيدة ، وقال الله تعالى فيهم : « الذين إِنْ مَكَنَّا هُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »<sup>(١)</sup> .

(١) سورة الحج الآية ٤١ .

وشتان ما بين هؤلاء القوم الذين يقودهم خالد ، وبين أعدائهم ، إن هؤلاء  
قلوبهم تقىض بالثقة والطأينة ، وهؤلاء قلوبهم تدْمِي من اليأس ، وتئن  
من الجور . عرف خالد كل هذا ، وعرف أنه حين يقتل رئيس الأعداء  
وقادتهم وهو من السادة المنعمين ، والحكام المسلمين ، فلن يثبت بقية جيشه ؟  
لأنه مسوق إلى القتال عن كراهة ، وأنه لا يدافع عن مبدأ يحرص على نشره .  
هَبَّ نصارى بكر بن وائل يساعدون الفرس ، ثاراً لقتلى قومهم يوم (الولجة)<sup>(١)</sup> ،  
واجتمعوا خالدي في (الليس)<sup>(٢)</sup> يقودهم جميعاً جابان الفارسي ، ولما التقى الجماعان  
برز خالد أمير جيشه ونادى على سادة بني بكر بن وائل من النصارى ،  
وشجاعتهم : أين أجر ! أين عبد الأسود ! أين مالك بن قيس ! فلم يجبه أحد  
إلا مالكاً ، وبرز له ، فقال له خالد : يا بن الخيبة ! ما جرّاك علىَّ من بينهم ،  
وليس فيك وفاء ، ثم ضربه فقتله .

وكتب عياض بن غنم إلى خالد يستنجد به حين كان يحاصر دومة الجندي  
فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَيْثٌ قَلِيلًا تَأْتِكَ الْحَلَائِبُ يَحْمَلُنَ آسَادًا عَلَيْهَا الْقَاتِبُ<sup>(٣)</sup>

كتائب تتبعها كتائب

(١) الولجة : من كسرى ، وكان يوم الولجة في صفر سنة ١٢ هـ

(٢) ليس : قرية من قرى الأنبار في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة ، وكان  
يوم ليس في صفر سنة ١٢ هـ . راجع الطبرى ج ٤ ص ٩ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٧٩  
ومعجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٨ .

(٣) القاتب : السيف الصقيل المخلو ، والحلائب : النوق وهي أقوى على قطع الصحراء  
من سواها .

ولما بلغ أهل دومة الجندل<sup>(١)</sup> مسيرة خالد إليهم أخذتهم الرّعدة، واختلفوا فيما بينهم وكان عليهم رئيسان: أكيدر بن عبد الملك، وأجودي بن ربيعة. أما أكيدر فقال: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أ稔 طائراً منه، ولا يرى قوم وجه خالد قلوا أو كثروا إلا انهزموا، فأطيعوني، وصالحوا القوم، فأبوا عليه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد، فشأنكم! وخرج لطريقه. وقد صدق ظن أكيدر فقد نكل خالد بهؤلاء الذين آثروا القتال نكلاً عظيمًا، واستولى على دومة الجندل.

أما عبور خالد بادية السماوة حين طلب منه أبو بكر أن يخف بعض جيشه لمساعدة جيوش المسلمين المحتمعين في اليرموك فعمل يتجاوز حدّ البطولة، وهو من المخاطرات النادرة في التاريخ، دونه عبور هانيبال الفينيقي جبال الألب واقتضاه على الرومانيين في الزمن القديم، ويحتاج إلى أن نفرد له صورة خاصة في كتابنا هذا.

لقد كان أبو بكر عظيم الثقة في خالد بن الوليد حين انتدبه لهذه المعركة لما سمع بعظم جيوش العدو، وكل عدتهم، وأن المسلمين أقاموا أمامهم شهرين لا يقدرون على شيء، ولا يقدر الروم منهم على شيء، وقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. ولقد كان خالد القائد الحنك الشجاع، الذي زادته حروبه مع الفرس ثقة و يماناً بنصر الله، عند ظن المسلمين به. ووجد خالد أربعة جيوش للمسلمين على كل جيش أميره، وأنهم يقاتلون متساندين لا تجتمعهم وحدة، فاقترح أن يولوا واحداً منهم أميراً على

(١) دومة الجندل: على تسع مراحل من دمشق، وهي قريبة من الحيرة.

الجميع ، وتكون الإمارة لـ كل منهم يوماً ، وأن يجعلوه أميرهم أول يوم ، حتى يضرب ضربته التي أعدها للأعداء ، فلبي المسلمين دعوته واجتمعوا على رأيه ، فأعدّ جيشه بإعداداً عظيماً .

ولقد حدث في هذه المعركة عدة حوادث تدل على عظمة خالد ، وأنه يتألق في جبين التاريخ الإسلامي والعالمي نجماً ساطعاً وحده ، من ذلك : أنه قد أمر القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وما على محبتي قلب الجيش أن يُنسبا القتال ، وإذا ب يريد المدينة يصل ، وفيه الخبر بوفاة أبي بكر رضي الله عنه ، وفيه تولية عمر مكانه خليفة المسلمين ، وفيه عزل خالد ، وتولية أبي عبيدة أميراً للجيوش الإسلامية ، وخاف خالد إن هو أظهر هذه الأخبار ، وأذاعها في الناس ، أن يهنوها ، ويُفتَّ ذلك في عصدهم ، وهم في المعركة الفاصلة ؛ فأدار المعركة بنفس القوة ، وبنفس العزمية الأولى ، كان لم يُعزل ، وكان لم يمت ذلك الذي وثق به . وكأنه لا يزال أميراً مؤمراً . إن خالداً لم يكن يعمل ما يعمل حبّاً في جاهِ أو دنيا ، وإنما كان يتقدم إلى الموت وبراثنه دائمة ، ويقتحم عليه عزيمته ، بإعزاز الدين الله ، وسيادة الإسلام . لم يكن ي العمل من أجل أبي بكر ، وإنما كان يعمل من أجل دينه ، وفي سبيل الله . فسيان عنده أن كان أميراً أو مأموراً ، قائداً أو جندياً ، وسيان عنده تولى أبو بكر أو تولى عمر ، فالله هو خالد : الجندي الباسل الذي دعا له الرسول عليه السلام بالنصر ولقبه بسيف الله . ولا أدلّ على ذلك من قول خالد حين انتهت المعركة بنصر المسلمين ، وسلم كتاب عمر إلى أبي عبيدة بالإمارة : « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أحب إلىَّ من عمر ، والحمد لله الذي ولّ عمر ، وكان أبغضَ

إِلَى مَنْ أَبَى بَكْرٌ ، ثُمَّ أَلْزَمَنِي مُحَبَّتَهُ » . وَهَذَا شَأْنُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ الَّذِي يطِيعُ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلَى الْأُمُورِ مِنْكُمْ »<sup>(١)</sup> .

وَمِنَ الْمُوَادِثِ الَّتِي تَدْلِي عَلَى عَظَمَةِ خَالِدٍ فِي هَذِهِ الْمُوْقَعَةِ خَرْجُ جَرِحَةِ أَحَدِ قُوَادِ الرُّومِ ، وَنَدَاوَهُ لِيُخْرِجَ إِلَى خَالِدٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ خَالِدٌ ، وَأَقَامَ أَبَا عَبِيدَةَ مَكَانَهُ ، فَوَافَقَهُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، حَتَّى اخْتَلَفَتْ أَعْنَاقُ دَابِّيْهِمَا ، وَقَدْ أَمْنَى أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ . قَالَ جَرِحَةُ : يَا خَالِدٌ ! اصْدِقْنِي وَلَا تَكْذِبْنِي ، فَإِنَّ الْحُرْ لَا يَكْذِبُ ، وَلَا تَخَادِعْنِي إِنَّ السَّكِيرَمَ لَا يُخَادِعُ ، بِاللَّهِ هُلْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّكُمْ سِيفًا مِنَ السَّمَاءِ فَأَعْطَاكَهُ فَلَا تَسْلَهُ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا هَزَمْتَهُمْ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنَّ سَمِّيَتَ سِيفَ اللَّهِ ؟ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ فِينَا نَبِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامَ فَدَعَانَا فَنَفَرْنَا وَنَأْيَنَا عَنْهُ جَمِيعًا ، ثُمَّ إِنَّ بَعْضَنَا صَدَّقَهُ وَتَابَعَهُ ، وَبَعْضَنَا بَاعْدَهُ وَكَذَّبَهُ ، فَكَفَتُ فِيمَنَ كَذَبَهُ وَبَاعْدَهُ وَقَاتَلَهُ ؛ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَخْذَ بَقْلُوْبَنَا وَنُوَاصِينَا ، فَهَدَانَا بِهِ فَتَابَعْنَاهُ ، قَالَ : أَنْتَ سِيفُ مَنْ سِيَوفُ اللَّهِ ، سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمُشَرِّكِيْنِ ، وَدَعَالِي بِالنَّصْرِ ، فَسَمِّيَتُ سِيفَ اللَّهِ بِذَلِكَ ، فَأَنَّا مِنْ أَشَدِ الْمُسْلِمِيْنَ عَلَى الْمُشَرِّكِيْنِ ، قَالَ : صَدَقْتَنِي ؛ ثُمَّ نَاقَشَهُ فِي الإِسْلَامِ حَتَّى اتَّهَى الْأُمُرُ بِإِسْلَامِهِ ، وَتَرَكَ صَفَوْفَ الرُّومِ وَقَاتَلَ مَعَ الْمُسْلِمِيْنَ بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهُ خَالِدُ الْإِسْلَامَ ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، وَمَاتَ جَرِحَةُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَهُوَ يَقَاتِلُ أَشَدَّ قَتَالٍ وَأَصْدِقَهُ دَفَاعًا عَنْ دِيْنِهِ الْجَدِيدِ .

لَقَدْ كَانَ خَالِدٌ فِي نَظَرِ الْأَعْدَاءِ شَيْئًا مُوْعِيْبًا ، حَتَّى ظَنُوا أَنْ أَمْرَهُ لَيْسَ بِالْطَّبِيعِيِّ وَأَنَّهُ فَوْقَ الْبَشَرِ ، وَأَنَّهُ لَابْدَ أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَظَنُوا أَنَّهُ

(١) سُورَةُ النَّسَاءِ : الآيَةُ ٥٧ .

لقب بسيف الله؛ لأن الله أنزل على النبي سيفاً أعطاه خالداً فهو لا يُهزم قط؛  
وذلك لأن أخبار انتصاراته الساحقة، وتنكيله بالفرس قد سبقته؛ وعملت  
ما عملت في قلوب الروم، حتى إن قائدتهم أراد أن يستوثق من هذا الأمر،  
وهل خالد فيه شيء فوق البشر لا يمكن أن يقاوم؟ ولما صدّقه خالد، وبين له  
أنه بشر، وأنه لم ينزل عليه سيف من السماء، وأنه يقاتل بقوّة قلبه، وحرارة  
إيمانه، وأن شجاعته فطرية طبيعية، زادها الإيمان بالإسلام قوّة وصرامة،  
آمن بأنه أمام رجلٍ مؤيد من السماء، لا بمعنى الذي ذهب إليه أولاً، ولكن  
لأنه يدافع عن عقيدة ومبدأ، لا مؤيد بسيف من الله نزل على نبيه الكريم.  
وكان صدق خالد وبساطته في التعبير، وتواضعه، سبباً في إسلام هذا القائد  
الذى أراد الله هدايته <sup>(١)</sup>.

ولم ينته أمر خالد بعزله من إمارة الجيش، بل سار مع أبي عبيدة يعمل تحت  
لوائه، وضنَّ به أبو عبيدة فلم يرسله مع جيش العراق الذي كان قد قدم به  
لعاوتهم، علمًا منه بأن خالداً وحده أقوى من جيش عظيم، لرجاحة عقله،  
وتجربته، وشجاعته، وبصره بفنون القتال. ولقد برهن خالد في فتوح الشام  
على أنه القائد الحقيقي للجيش، وأنه برأيه وشجاعته قد احتل المكانة التي  
يريدها الله ويريدها المسلمون، فقد جعله أبو عبيدة على مقدمته كسنان الحرابة  
التي لا تُنْفَلْ : تدكُّ الحصونَ، وتهدم القلاع، وتفرى الجيوش، وتُكَسِّبُ  
للمسلمين المعركة غِبَّ المعركة، وتنتقل بهم من فصر إلى نصر. كان خالد على

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ٣٢ وما بعدها، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠، وابن خلدون  
ج ٢ ص ٨٣؛ وفتح البلدان ص ١٤٠.

مقدمة جيش أبي عبيدة في موقعة (خل)<sup>(١)</sup> ، وفي حصار دمشق ، وقد كان خالد على فرقة من الجيش في حصار دمشق لا ينام ولا يُنام ، ولا يخفي عليه شيء من أمر العدو ، وعيونه ذاكرة ، وهو معنى بما يليه ، فاتخذ حبلاً كهيئة السلام ، ولما بلغه ذات ليلة أن الناس في دمشق غافلون في فرح لعظيمهم ، انتدَّبَ هو ومن معه من رؤساء جيش العراق قبل أن يرجعوا أمثال القعقاع «بن عمرو» ، وقال للناس : إذا سمعتم تسكيرنا على السور فارقوها إلينا ، وانهدوا طلباب ، وقد تمكَّنَ خالد من فتح الحصن عنوة . وكان أعزَّ مكان في سور دمشق وأمنعه ، تحيط به المياه ، ولم يبق أحد من معه إلا ارتقى السور أو دنا من الباب ، ثم فتح الباب بعد أن قتل حراسه ، ودخل دمشق عنوة ، ففرزع أهل الأحياء التي تليه ، وهرعوا إلى قواد المسلمين الآخرين يطلبون منهم أن يجيروهم من خالد ، وفتحوا لهم الأبواب فالتقت جيوشهم وجيوش خالد في وسط دمشق ، وبذلك جعل الله على يديه فتح دمشق بعد أن استعصت على المسلمين سبعين يوماً .

ولما اجتمع العدو برج الروم ، بعد فتح دمشق ، وسار أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد ملاقتهم ، واجتمعوا وإياهم في صعيد واحد ، أصبحوا ذات صباح فلم يجدوا للعدو أثراً ، وعلموا أنهم خدعوا المسلمين ، وقصدوا دمشق . فأسرع خالد وراءهم ووجد العدو مشتبكا مع يزيد بن أبي سفيان قائداً حامية دمشق ، فأخذ الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، فأبيدوا . ورجع خالد إلى أبي عبيدة .

(١) خل : من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين ، راحم الطبرى ج ٤ ص ٥٩ .

وبعد فتح حمص أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قُنسُرِين ، ولما نزل بالحاضر<sup>(١)</sup> زحف إليهم الروم ، وعليهم (ميناس) وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد وقتل ميناس ، وهزم الروم شر هزيمة ، حتى إنه لم ينج منهم أحد . أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : بأنهم عرب ، وأنهم إنما حُشرروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر بن الخطاب ذلك قال : « أمرَ خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ! ، هو كان أعلم بالرجال مني » وقال في حقه هو والمشنفي بن حارثة : « إنَّ لِمَا عَزَّلَهُمَا عَنْ رِبْبِهِ ، وَلَكِنَ النَّاسُ عَظَمُوهُمَا فَخَشِيتُ أَنْ يُوكِلُوَا إِلَيْهِمَا » . وهكذا صار خالد أمير الجيش في الحقيقة وإن لم يؤذن بالإمارة . ولكن تصرفه وحُسْنَكته ، وحسن قيادته كلها أهلته لأن يكون أمير الجيش عملياً ، وإن ظلَّ يعمل تحت راية أبي عبيدة .

وزحف خالد لقنسرين فتحصن أهلها منه ، فقال لهم قوله المشهور : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فلم يجدوا بدأ من صلحه ، والتزول على أمره .

هذا هو خالد بن الوليد ، لو كان في أمة أخرى من تلك الأمم التي تعظم رجالها لاعتنى بتاريخه ، وصاغته صياغات مختلفة ؛ ليتشرَّبه الأطفال والولدان والغلمان والفتىان والرجال ، وليكون لهم مثلاً رائعاً في البطولة . وما أحوجنا اليوم إلى مثل رائع يقلده شبابنا ونحن نعاني من الغرب وغضارiste ما نعاني .  
رحم الله خالداً وأ أيام خالد ! !

ومن هؤلاء الفتىان الأمجاد الذين خطوا في صفحات التاريخ الإسلامي

(١) راجع الطبرى ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ وكان فتح حمص وقنسرين في السنة الخامسة عشرة .

سطوراً ينبلج منها نور الإيمان والتضحية والإيثار ، ولا يبغون إلا وجه الله ، مع  
 أنَّ كلامَه يصلحُ أن يكون قائدَ جيشَ عظيمٍ : المثنى بن حارثة الشيباني<sup>(١)</sup>  
 جاءَ إلى أبي بكر رضيَ اللهُ عنه ، وقال . أَمْرَنِي على مَنْ قَبْلَيْ منْ قُوَّى ،  
 أَقْاتَلَ مَنْ يَلِينِي مِنْ أَهْلِ فَارسٍ ، وَأَكْفِيكَ نَاحِيَتِي ، فَفَعَلَ أَبُو بَكْرَ ذَلِكَ .  
 وَكَانَ المَثْنَى جَنْدِيَاً عَظِيمَاً ، ذَا شَهَادَةٍ وَمَرْوَةٍ ، وَلَمَّا تَولَّ خَالدَ إِمْرَةَ جَيُوشِ  
 الْعَرَاقِ كَانَ المَثْنَى تَحْتَ لَوَائِهِ ، وَكَانَ مَعَ خَالدَ كَمَا كَانَ خَالدَ مَعَ أَبِيهِ عَبِيدَةَ  
 يَنْتَدِبُهُ لِلشَّدَائِدِ ، وَيَسِيرُ فِي طَلِيعَةِ جَيُوشِهِ ، إِلَى أَنْ أَمْرَ خَالدَ بِالذَّهَابِ إِلَى الشَّامِ  
 خَلْفَهُ المَثْنَى عَلَى جَيُوشِ الْعَرَاقِ . وَقَدْ حَارَبَ الْفَرَسَ حَرَباً عَظِيمَةً فِي يَوْمِ  
 النَّارِقِ<sup>(٢)</sup> وَطَارَدُهُمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَبْوَابِ الْمَدَائِنِ وَأُرْسِلَ إِلَى أَبِيهِ بَكْرٍ يَسْتَبْدِدُهُ ،  
 وَلَكِنْ نَجَدَهُ أَبِيهِ بَكْرٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ ، فَخَرَجَ المَثْنَى بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَاءَهَا  
 وَأَبُو بَكْرٍ يَحْتَضِرُ ، وَلَكِنْهُ أَغْرَاهُ بَغْزُو بِلَادِ فَارسٍ فَاقْتَتَلَ أَبُو بَكْرٍ ، وَاسْتَدْعَى  
 عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَلَا تَشْغُلَهُ وَفَاتَهُ عَنْ نَدْبِ النَّاسِ مَعَ المَثْنَى ،  
 فَلَمَّا فَرَغَ عُمَرُ مِنْ أَبِيهِ بَكْرٍ نَدَبَ النَّاسُ مَعَ المَثْنَى ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَّةٍ ، فَلَمْ يَجِدْهُ أَحَدٌ ،  
 وَكَانُوا يَخَافُونَ فَارسَ كُلَّ الْخُوفِ لِشَدَّةِ سُلْطَانِهِمْ وَشُوكَتِهِمْ وَعَزَّزَهُمْ وَقَهَرُهُمْ  
 الْأَمَمُ ، وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ قَامَ المَثْنَى فِي النَّاسِ وَقَالَ لَهُمْ : « أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَعْظُمُنَّ  
 عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهُ ، إِنَّا قَدْ تَبَحَّبَنَا<sup>(٣)</sup> رِيفَ فَارسٍ ، وَغَلَبْنَاهُمْ عَلَى خَيْرِ شَقَّىِ »

(١) ينتهي نسب المثنى إلى بني شيبان ؟ وكان إسلامه وقدومه على رسول الله سنة تسعة ، وكان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة ، حسن الرأي ، وقد مات سنة ١٤ هـ قبل الفادسية .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٦٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) التبجح : التمازن في المقام والخلو .

السوداد<sup>(١)</sup> ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم واجترأ من قبَلَنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » ، وخطب عمر فيهم يرغبهم في القتال وتحقيق وعد الله ، من أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون ؟ فكان أول من استجاب لهذه الدعوة أبو عبيد بن مسعود<sup>(٢)</sup> ثم تبعه الناس ، وقد طلب إلى عمر أن يولى على هذا البعث الجديد رجلاً من له سابقة في الإسلام ؛ فأبى إلا أن يولى أبو عبيد ؛ لأنَّه كان أول من استجاب لقتال الفرس من أهل المدينة بعد أن نكس الناس أربعة أيام سوياً ، ومن العجيب أنَّ الثني بن حارثة ، وهو من هو في بلائه وخبرته بقتال الفرس وأول من حرض على غزوهم ، قد رضي أن يكون مرعوساً لأبي عبيد ، وأنَّ يعمل تحت أمرته ، وهذا يدلُّ على أنَّ المسلمين لم يكونوا يفكرون في هذه الأشياء الصغيرة كالرئاسة والقيادة ، وإنما كانوا يقصدون بجهادهم وجه الله تعالى في أي مكان من صفوف المسلمين وضِعوا ، ويدلُّ على إنكار الذات ، وجعل المدف الأسمى فوق كل اعتبار ، وهذا من تربية الإسلام العظيمة ، الذي محا الفردية من نفوس هؤلاء العرب ، وقد كانت قوية القبضة على نفوسهم في الجاهلية ، وليس من طبعهم الإذعان بيسير وسهولة ، وقد عادوا إليها بعد أن خفت تلك القبضة ، وكانت سبباً في إخفاقهم وتناحرهم فيما بينهم ، ورجعت عصبيتهم القبلية قوية في زمن بنى أمية الذين كان من غاياتهم تقوية هذه العصبية ، ليلهو الناس بها عن النظر في شأن الخلافة

(١) المسوداد : قرى العراق وضياعها التي فتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار .

(٢) أبو عبيد بن مسعود : من ثقيف ، وهو والد المختار بن أبي عبيد المشهور في خلافه مع عبد الله بن الزبير .

وأخلفاء؛ ويدل أيضًا على أن أي رجل من هؤلاء العرب المسلمين أهل لأن يتولى قيادة الجيوش العظيمة ، وهذا أكبر برهان على غنى هذه الأمة برجالها ، وأن فطرتهم سليمة ، وعقولهم قوية ، وأن الطبيعة قد هيأتهم لأن يحتلوا مكانة سامية بين أمم العالم لو أحسنوا استغلال مواهبهم ، وطرحوا الأثرة ، والخلاف جانباً . وقد كان الإسلام آنذاك في عنفوانه فكانوا في أحسن حالاتهم النفسية والخلقية والعقلية .

وسبق المُثنى أبو عبيد ليهيء له الأمر ، وعمل تحت رئاسته ، قائداً شهماً شجاعاً لا يذكر إلا في نصرة دينه ، وقد برهن أبو عبيد على أنه مثل من أمثلة الشجاعة التي لا تروى إلا في الأساطير؛ فقد خيره الفرس بين أن يعبروا إليه النهر أو يعبر إليهم فأبى أن يكون أحبن الفريقين وعبر الجسر ، وأما عيشت بهم فيلة الفرس ، ترجل أبو عبيد ، وأمر الناس بالترجل وأمرهم أن ينفرروا بهذه الفيلة وأن يقطعوا أحزمتها ، وعمد هو إلى الفيل الأبيض الذي يتقدمها ققطع حزامه ، فوقع الدين عليه ، وضرب خرطومه بالسيف ، ولكنَّ الفيل تقدم لأبي عبيد وصر به برجليه ، فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه وأزهق روحه ، وقد تقدم بعد أبي عبيد سبعة من ثقيف ، قتلوا الواحد بعد الآخر ، فتقدم المُثنى وأخذ اللواء ، ولكنَّ الناس انفضوا عنه . ورأى بعض الشجعان رأياً خاله استبسلاً وتضحية ، فمنع الناس من عبور الجسر وناداهم : أن موتوا كما مات أمراؤكم ، ييد أن بعض من لم يصبر غرق في الفرات ، وخشي المُثنى أن يهلك الناس ، فوقف اللواء بيده يناديهم : أنا دونكم فاعتبروا على هينتكم ولا تذهبوا ، فإنما لن نزايـلـ حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تغرقوـاـ أنفسكم

وأصلح الجسر حتى عبروا جمِيعاً، فترکوه وانصرفوا استحياءً من المهزيمة<sup>(١)</sup>.

وخلصت القيادة للمثنى ، وندب عمر بن الخطاب الناسَ إليه ، وعاجلهم الفرس في موقعة البويب<sup>(٢)</sup> ، ولكنَّ المثنى كان القائد الثابت الجأش ، البصير بالحرب ، فنظم جنده ، وعَبَّأْهم أتم تعبئة ، وَهَمَسُهم ، ولما حمى وطيس القتال حمل على مهران قائد الفرس فأزاله حتى دخل ميمنته ، واختلط الجيشان ، وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين ، وقتل غلامٌ نصراني من تغلب مهران ، واستوى على فرسه ، وما زالوا يكيلون للفرس الضربات حتى فروا من أمامهم . ولقد راع المثنى هذا النصر الذي أحرزته فئة قليلة فقيرة على جيش قويٍّ مُعدٍّ أتم عدة فقال : « قد قاتلتُ العربَ والعجم في الجاهلية والإسلام ، ووالله مائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدَّ علىَّ من ألفٍ من العرب ، ومائتانَ اليوم من العرب أشدُّ علىَّ من ألفٍ من العجم ، إنَّ اللهَ أذهب قوتهم ، وأوهن كيدهم ، فلا يروعنكم زُهاءُ ترونَه ، ولا سوادٌ ، ولا قسيمةٌ فجُّ ، ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أُجلوا عنْها أو فقدوها كانوا كالبهائم أينما وجئتهموا اتجهت ». .

ولقد كان لهذه الموقعة أثراً العظيم في نفوس المسلمين لأنها أزالت عار المهزيمة في موقعة الجسر ، وردت إليهم اعتبارهم ، والثقة بأنفسهم وبالله الذي وعدهم النصر ، وفي هذه الموقعة يقول الأبور الشنَّى مشيداً ببطولة المثنى بن حارثة ، وبلائه في قتال الفرس :

(١) كان هذا في موقعة قس الناطف أو موقعة الجسر في سنة ١٣ هـ . راجع الطبرى ج ٤ ص ٦٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٧١ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢١٥ ، فتوح البلدان ص ٢٥٣ ، ومعجم البلدان ج ٢ ص ٣١٠ . البويب : نهر بالعراق يأخذ من الفرات .

هاجتْ لاعورَ دارُ الحى أحزاناً  
واستبدلتْ بعد عبد القيس همداً  
وقد أرانا بها والشمل مجتمعْ  
إذ بالنخيلة قتلَ جندي مهرانا  
أزمانَ سار المتنى بالخيول لهم  
فقتلَ القوم من فرسٍ وجيلانا  
سما لأجنادِ مهرانٍ وشيشهه  
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى  
إن المتنى الأمير القرم لا كذبٌ<sup>(١)</sup>  
في الحرب أشجع من ليث بخفاناً

ومات المتنى عليه رحمة الله قبل موقعة القادسية متاثراً بجراحه ، بعد أن  
مهد الطريق لغزو فارس ، وأذاقهم النكال المرّ ، وأطمع فيهم المسلمين وجرأهم  
عليهم ، وأصبحوا لا يستطيعون النكوص عن إتمام الفتح بعد أن استشهد  
منهم من استشهد . وهكذا يرجع إلى هذا القائد العظيم تلك المأثره ، وهداية  
أمّ كثيرة للإسلام كانت تابعة للفرس ، لأنّه أول من تجرأ على غزو بلادهم .  
ومن هؤلاء الأبطال العظام الذين ندر وجودهم في أزمنة التاريخ في العالم أجمع  
القعقاع بن عمرو<sup>(٢)</sup> ، الذي منحه الله قلباً جريئاً لا يهاب المنايا وهي فاغرة  
أفواها ، كما يبينه وبينها عهد ، ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه ذا بصيرة ثاقبة  
ومعرفة بالرجال ومعادهم ، ولا سيما رجال الحروب ، فقد حدثَ بعد أن فرغ  
خلاله من اليمامة ، وقد كتب إليه بالتوجّه بين معه إلى العراق أنَّ خالداً طلب  
من أبي بكر المدد بعد وصوله إلى العراق ، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي ،

(١) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة ، والنخيلة : مكان بالعراق قرب البويب

(٢) كان القعقاع من صحابة رسول الله ، وشهد فتوح الشام والعراق ، قال له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت لـالجهاد؟ قال : طاعة الله ورسوله والخيل .

فَقِيلَ لَهُ : أَمْدَرْ جَلَّا قَدْ انْفَضَّ عَنْهُ جَنْدَهُ بَرْجَلُ ؟ ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ قَوْلَهُ الَّذِي يَدْلِلُ عَلَى عَظِيمٍ ثَقْتَهُ بِالْقَعْقَاعِ : « لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِمْ مِثْلُ هَذَا » . فَالْقَعْقَاعُ وَحْدَهُ فِي نَظَرِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ أَقْوَى مِنْ جَيْشٍ ، وَهُوَ مَدَدٌ وَحْدَهُ لِمَنْ يَطْلَبُ الْمَدَدَ ؛ لِأَنَّهُ شَجَاعٌ ، وَلِأَنَّهُ ذُو رَأْيٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَلِأَنَّهُ ذُو عَصِيَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَلِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ وَلَا عَجْبٌ :

فَالنَّاسُ أَلْفُهُ مِنْهُمْ كَوَاحِدٌ وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنِ  
إِنْ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ يَطْلَبُ مِنْهُ خَالِدَ الْمَدَدَ لِغَزْوِ الْعَرَاقَ ، وَلِيَضْعِفَ أَوْلَى لِبَنَةِ  
فِي صَرْحِ الإِمْپَراَطُورِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، وَلِيَحَارِبَ الْفَرَسَ الدُّولَةِ الْقَوِيَّةِ ذَاتِ السُّلْطَانِ  
الْفَخْمِ وَالشُّوكَةِ الْمُتَيْنَةِ ، فَيَمْدُدُهُ الرَّجُلُ الْمَسْؤُلُ عَنْ شَئْوَنِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالَّذِي  
قَاتَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ بِالْجَيْشِ الْكَثِيرِ ، وَالَّذِي يَحْرُصُ كُلَّ الْخَرْصِ عَلَى سَلَامَةِ  
الْعَرَبِ ، وَشَلَامَةِ الَّذِينَ بِرْجَلٍ وَاحِدٍ هُوَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عُمَرٍ ، فَأَى رَجُلٍ كَانَ الْقَعْقَاعُ  
هَذَا ؟ ! لَا بُدَّ أَنَّهُ كَانَ شَيْئًا مَهْوُلًا دُونَهُ كُلُّ وَصْفٍ وَكُلُّ تَقْدِيرٍ .

نَرَاهُ أَوْلَى مَا نَرَاهُ . يُنْجِدُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ حِينَ احْتَضَنَ هُرْمَزَ فِي مَوْقَعِهِ  
ذَاتِ السَّلَاسِلِ . وَهُجُومُ الْفَرَسِ عَلَى خَالِدٍ يَرِيدُونَ اسْتِخْلَاصَهُ ، فَكَانَ الْقَعْقَاعُ  
الشَّهِمُ الْيَقِظُ أَسْرَعُهُمْ ، وَلَمْ يَمْهُلْهُمْ حَتَّى يَنْتَلِعُوا مِنْ قَائِدَهُ ، بَلْ حَمَلَ عَلَيْهِمْ  
حَتَّى تَمَتْ هُزِيْتَهُمْ . وَلَمَّا غَزا خَالِدُ الْحَيْرَةَ ، وَأَرَادَ مُطَارَدَةَ الْفَرَسِ خَلْفَ عَلَيْهِ  
الْبَطْلَ الْقَعْقَاعَ بْنَ عُمَرٍ . وَلَمَّا دُعِيَ إِلَى مُحَارَبَةِ الرُّومَ فِي الْيَرْمُوكَ ضَنَّ بِالْقَعْقَاعِ  
أَنْ يَتَرَكَهُ مَعَ الْمُتَنَّى بْنَ حَارَثَةَ ، وَأَخْذَهُ مَعَهُ ، وَلَقَدْ تَقْدَمَ كَيْفَ تَسْوِرُ كَلَامَهَا  
حَصْنَ دَمْشَقَ ، وَفَتَحَاهَا عَنْهُ . ثُمَّ أَمْرَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَابِ بَعْدَ فَتْحِ دَمْشَقِ أَنْ  
يُرْجِعَ أَبُو عَيْدَةَ جَيْشَ الْعَرَاقِ إِلَى قَتَالِ الْفَرَسِ ، فَضَنَّ بِخَالِدٍ بْنَ الْوَلِيدِ وَاحْتَفَظَ

به لنفسه ، وسُرِّ جيش العراق وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو تحت إمرة هاشم بن عتبة بن أبي وَقَاص ، وتعجل القعقاع حتى قدم على المسلمين بالقادسية يوم أغوات<sup>(١)</sup> وهو ثاني أيام هذه المعركة المشهورة .

أراد القعقاع البطل أن يوقع الرُّعب في قلوب الفرس ، فعهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أُعشاراً ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مدي البصر سرّحوا في آثارهم عشرة ، وكان قدوم القعقاع في العشرة الأولى ، فلما أتى الناس حيّاهم وبشرهم بالجنود ثم قال لهم : أيها الناس ! إنني قد جئتكم في قوم ، والله إنهم لو كانوا بكم كما لكم أحشواكم حسداً لكم حظوظها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع ، ثم تقدم من تَوْه الصفوف ونادى : من يبارز ؟ فبرز إليه رجل من الفرس ، فقال له القعقاع من أنت ؟ قال : أنا بهمن جاذوبيه ، فنادى يا لثارات أبي عبيد وأصحاب الجسر ! واجتلا ، وقتلهم القعقاع . وجعلت خيله ترد قطعاً ، وما زالت ترد إلى الليل ، وتنشط الناس ، وكان لم يصـابوا أمس بمصيبة في أول أيام القادسية . ثم نادى القعقاع : من يبارز ؟ فخرج إليه رجال ، فانضم إليه الحارث بن ظبيان ، فقتل كلّاً منها صاحبه . وجعل القعقاع يحرض المسلمين على القتال ويقول لهم : باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها ، وبدأ الحرب والطعن ، ونشط المسلمون لجرأة القعقاع ، وقدوم رجاله ، فنكلوه بالفرس في يوم أغوات كالاً عظيماً . ولما جَنَ الليل سرّب القعقاع رجاله إلى المكان الذي فرقهم فيه من أمسه ، وقال لهم : إذا طلت عليكم الشمس فأقبلوا مائةً مائةً ، كلما توارى عنكم مائةً فلتتبعها مائةً ، وإن

أدرَكُمْ هاشم بن عتبة برجاله فذاك ، و إلا جددوا للناس رجاءً في المدد ، فإن  
الرجاء يزيدهم إقداماً في الحرب . وإيماناً بالفوز فيها ، ففعلوا ذلك ، من غير  
أن يشعر بهم أحد . وقد أدرَكُمْ هاشم ورجاله فزاد بهم المسلمون قوّة على قوتهم ،  
وكبَّروا مقدّتهم حتى فزع الفرس .

ثم كان يوم عَمَاس<sup>(١)</sup> . وأعدَّ الفرس الفيلة كأول يوم في القادسية ، ولما  
اشتد الأمر على المسلمين من الفيلة ، أشار من دخل الإسلام من أهل فارس  
على سعد بن أبي وقاص بأن مقاتل الفيلة في مشافرها وعيونها ، فأرسل إلى  
القعاع بن عمرو وعاصم أخيه أن أكفياني الفيل الأبيض ، وأرسل إلى حَمَال  
والرَّبِيل الأَسْدِيَّين أن أكفياني الفيل الأَجْرَب ، وكانت الفيلة جميعها تتبعهما .  
فأخذ القعاع وعاصم رحيمين ووضعاهما في عيني الفيل الأبيض ، فقبع ، وخفضَ  
رأسه ، وطرح سائسه ، ودلَّ مشفره ، فضربه القعاع بسيفه ، فرمى به ، ووقع  
لجنبه . وفعل حمال والربيل مثل فعلهما فقرت الفيلة جميعاً ، وألقت بن عليةها  
من الفرسان ، واختلت صفوف الفرس ، ودارت رحى المعركة إلى الليل ، وظنَّ  
سعد أن الأَهْرَس يهدا إلى الغد ، وخشي أن يؤتى المسلمين من خلفهم فأرسل  
من يحميهما ، ووجد هؤلاء أن الفرصة سانحة فكبروا وهجموا على الفرس ،  
وظنَّ الفرس أن العرب قد غدروا بهم ، فاستأنفوا القتال ، فلم ينتظروا القعاع  
أمرَ سعد ، وتلقى هجومهم بهجوم شديد ، ولمَّا رأى سعد القعاع مستبكاً مع  
الفرس يُراحته قال : اللهم اغفر لها ، وانصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يستاذني ،  
واشتد أوار المعركة طول الليل ، ولم تسمع إلا قعقة السلاح ، واحتلَّت الأمْرَ

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٢٤ وتسمى الليلة ليلة المهرير .

على سعد ، فلم يعرف شيئاً عن المعركة حتى الصباح ، فرأى أن الغلبة لل المسلمين .

لم يغمض لل المسلمين جفن في تلك الليلة ، وأنه كفهم القتال ، وسعير المعركة ،  
واشتد بهم التعب ، بيد أن القعقاع الشجاع الصارم سار فيهم يحثهم على الصبر  
ويقول : إن الدائرة بعد ساعة من بدأ القوم ، فاصبروا ساعة ، واحملوا فإن  
النصر مع الصبر . وتعاهد هو وجماعة على الموت ، وحملوا على من يليهم ،  
واقتتلوا أشد قتال إلى أن قام قايم الظهيرة ، فتخاذل الفرس ، وزحف القعقاع  
إلى سرير رستم قائد الفرس هو وحفنة من أصحابه ، فاقتجم النهر هرباً ، فشده  
هلال بن علقة من رجله ، وقطع رأسه ، ونادي : قتلت رستم رب الكعبة ،  
فولى الفرس الأدبار . وتتابعت هزيمتهم ، وتردوا في النهر هرباً ففرق منهم  
خلق كثير .

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر يبشره بالفتح كتاباً يقول فيه : « أما  
بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سننَ من كان قبلهم من أهل  
دينهم ، بعد قتال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراعون مثل زهائها ،  
فلم ينفعهم الله بذلك ، واتبعهم المسلمون على الأنهر وفي الفجاج ، وأصيب  
من المسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين ، لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا  
يذِّرون بالقرآن إذا جنَ الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس ، لا يُشبِّهُم  
إلا الأسود ، ولم يَفْضُلْ مَنْ مضى منهم من يَقْبَلُ إلا بفضل الشهادة ، إذ لم  
تُكْتَبْ لهم » .

وهذا هو القعقاع بن عمرو يسراه سعد بن أبي وقاص على مقدمة جيش

هاشم بن عتبة يوم جلواء<sup>(١)</sup>، وذلك بأمر عمر بن الخطاب ، وتعيينه القعقاع بالاسم على مقدمة جيش هاشم ، ولما دارت المعركة ، وكانت أشبه بليلة الهرير ، انتهى القعقاع في الوجه الذي هجم منه إلى باب خيل العدو ، وهم متخصصون وراء جدر سميك ، فأخذ به ، وأمر منادياً فنادى : يا عشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم ، وأخذه ، فأقبلوا إليه ، ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله . وقد أمر بذلك ليقوى المسلمين ، فحمل المسلمين ، وهم لا يشكون أن هاشم بن عتبة فيه ، فلم يقْعِمْ لحملتهم شيء ، حتى اتهوا إلى باب الخندق ، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو قد أخذ به . وانهزم الفرس يمنةً ويَسْرَةً .

وظل القعقاع ذلك القائد الباسل يشهد كل معركة من معارك المسلمين مع الفرس ، ويتقدم الصفوف ، ويقود طليعة الجيش ، وهذا نحن أولاء نزاهة أخرى في موقعة نهاوند<sup>(٢)</sup> ، وقد تحصن الفرس في خنادقهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقدر المسلمين منهم على شيء ، وطال بهم الأمر ، وعظم الضيق ، واجتمع أهل الرأي من المسلمين كلُّ يشير بحبل هذه المشكلة ، وكيف يمكن أن يخرجوهم من خنادقهم وحصونهم ، وتكلم النuan بن مقرن أمير الجيش ، وتكلم عمرو بن ثبي من قواد الجيش ، وتكلم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ولم يأخذ الناس بأرائهم ، ثم تكلم طليحة الأسدى فقال : « إنى أرى أن تبعث خيلاً مؤدية<sup>(٣)</sup> ، فيحدقوا بهم ، ثم يرمونهم لينشروا القتال ،

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٧٩ ، معجم البلدان ج ٣ ص ١٢٩ ، كانت في صفر سنة ٥٦ هـ ، وجلواء قرية في طريق خراسان على نحو أربعين ميلاً في شمال المدائن .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٣١ ، ومعجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٩ ، ونهاؤند من بلاد الفرس قرب همدان ، وكانت هذه الموقعة في سنة ٢١ هـ .

(٣) مؤدية : كثيرة قوية معدة تمام الإعداد لتخليهم وتخذلهم .

وَيُحْمِشُوهُمْ<sup>(١)</sup> ، فَإِذَا اسْتَحْمَشُوا ، وَاخْتَلَطُوا بِهِمْ وَأَرَادُوا الْخُرُوجَ أَرَزُوا<sup>(٢)</sup>  
إِلَيْنَا اسْتَطْرَادًا ، فَإِنَا لَمْ نَسْتَطِرْدْهُمْ فِي طُولِ مَا قاتَلُنَاهُمْ ، وَإِنَّا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ،  
وَرَأَوْنَا ذَلِكَ مِنْنَا طَمَعًا فِي هَذِهِ مِنَّا ، وَلَمْ يُشْكِوْهُنَا فِيهَا ، فَخَرَجُوا بِخَادُونَا ، وَجَادَدُنَاهُمْ  
حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ فِينَا مَا أَحَبَّ<sup>»</sup> . فَوَافَقَهُ النَّاسُ عَلَىٰ رَأْيِهِ .

وَلَكِنْ مَنْ الْجَنْدِيُ الْبَاسِلُ الَّذِي يُنْتَدِبُ لِمُثْلِ هَذِهِ الْخَاطِرَةِ ، وَيَهْجُمُ  
عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي خَنَادِقِهِمْ ، وَيَدْنُو مِنْ حَصُونِهِمْ حَتَّىٰ يَهْبِجُهُمْ ، وَهُمْ مِنْهُ  
مُتَمَكِّنُونَ يَرْمُونَهُ بِالنَّشَابِ ، وَالنَّبَالِ ، ثُمَّ يَسْتَطِرْدُهُمْ ، وَهُمْ مِنْ خَلْفِهِ يَنْالُونَ  
مِنْهُ ، وَهُوَ يَتَظَاهِرُ بِالْهَرَبِيَّةِ لِيُطْعِمُهُمْ فِيهِ ، وَيَسْعِبُهُمْ مِنْ خَنَادِقِهِمْ ، ثُمَّ يَشْتَبِكُ  
مَعَهُمْ فِي مَعرِكَةٍ ، حَتَّىٰ يَنْجُدَهُ الْمُسْلِمُونَ ؟ ؟ ، وَمَنْ يَفْعُلُ كُلَّ هَذَا إِلَّا الْبَطَلُ .  
الْمَغَارِيُّ الْقَعْقَاعُ بْنُ عُمَرٍو ، إِنَّهُ لِكُلِّ كُرِيَّةٍ ، وَكُلِّ مُعْصِلَةٍ ، لَا يَأْبِي بِالْمَخَاطِرِ ،  
وَكَانُوا لَا تَأْبِي بِهِ ، فَقَدْ حَالَفُهُ وَحَالَفْتُهُ ، فَهُوَ مِنْ أَذَاهَا بِنَجَاحٍ .

كَانَ الْقَعْقَاعُ قَائِدُ الْفَرَسَانِ فَأَمْرَهُ النَّعْمَانُ بْنُ مُقْرَنٍ أَنْ يَنْفَذْ هَذِهِ الْخُطَّةَ ،  
فَسَارَ بِخَيْلِهِ حَتَّىٰ هَاجَ الْأَعْدَاءَ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ مَكَانِهِمْ ، ثُمَّ نَكَصَ ، وَنَكَصَ ،  
ثُمَّ نَكَصَ ، وَاغْتَنَمُهَا الْأَعْاجِمُ وَظَنَّوْا بِهِ وَبِجِيشِهِ الظُّلُونَ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ  
عَنِ الطَّرَادِ ، وَانْقَطَعُوا عَنْ حَصْنِهِمْ بَعْضُ الْاِنْقِطَاعِ ، وَكَانَ النَّعْمَانُ بْنُ مُقْرَنَ  
وَالْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ تَعْبِيَّةٍ ، وَلَكِنَ النَّعْمَانُ حَسِبَهُمْ فَلَمْ يَنْجُدِ الْقَعْقَاعَ ، وَأَمْرَهُمْ  
أَنْ يَلْزِمُوا الْأَرْضَ وَلَا يَقْاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَأْذِنَ لَهُمْ ، فَفَعَلُوا ؛ وَأَقْبَلَ الْمُشَرِّكُونَ عَلَيْهِمْ  
يَرْمُونَهُمْ ، حَتَّىٰ أَفْشُوا فِيهِمُ الْجَرَاحَاتِ ، وَشَكَّا النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ،

(١) يَحْمِشُوهُمْ : يَثِرُوهُمْ وَيَغْضِبُوهُمْ وَيَدْفِعُوهُمْ لِلْقَتَالِ .

(٢) أَرَزُوا إِلَيْنَا : رَجَعُوا إِلَيْنَا لِاجْئِينَ .

ولكن النعمان صبرهم مراراً ، وهو ينتظر بالقتال مجيء ساعات ، كانت أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقي فيها العدو ، وذلك عند الزوال ، ومهب الرياح ، وكان القعقاع وصحابه يعوقون الأعداء ، ويشغلونهم حتى يقوم جيش المسلمين ، وقد تحملوا في سبيل ذلك الشيء الكثير . فلما حان الوقت أمر النعمان سائر الجيش بالهجوم ، فكانت نكبة عظيمة للفرس لم يروا مثلها من قبل ، وكان النعمان حين أمر بالهجوم يدعو الله ويقول : اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك ! . كانت راية النعمان تنقض على الأعداء انقضاض الصواعق ، والنعمان معلم بياض القباء والقلنسوة ، وقد أريق من دم الأعداء ما جعل الأرض تنزلق بالخيول ، وقد زلق جواد النعمان فصريخ الجواد وصرخ النعمان في دماء الأعداء . وأخذ الراية أخيه نعيم بن مقرن ، وكم موت أمير الجيش ، وصاروا يقاتلون حتى أتم الله لهم النصر ، وهرب قواد الفرس وعلى رأسهم الفيرزان نحو همدان ، ورآه نعيم بن مقرن ، فطلب إلى البطل العظيم القعقاع بن عمرو أن يجده خلفه ، فأدركه حين انتهى إلى ثنية همدان ، والثنية مشحونة من بغال وحمير مبورة عسلاً عاقته عن المهرب ، وحبسته ، فقتل على الثنية ، وقال القعقاع والمسلمون : إن الله جنوداً منها العسل . ومضى من معه إلى همدان فتبعهم القعقاع حتى دخل المدينة ، وحوى ما فيها .

لقد صدق أبو بكر رضي الله عنه حين قال عن القعقاع بن عمرو : « لا يهز جيش فيهم مثل هذا » ، وكان من المنتظر بعد أن أبلى القعقاع في المواطن جميعها بلاءه محمود أن يكون من القواد الذين يكل إليهم الخليفة

عمر إمارة الجيوش ، ولكنَّ عمر رضى الله عنه كان ذا نظر ثاقب ؛ إذ خشي  
أنْ يُفْتَنَ المسلمين بالقوع في وأضرابه من الشجعان ، وأنْ يتسللوا عليهم ،  
ويضعف إيمانهم بأنَّ نصرهم من عند الله ، وهذا هو السر في أنه لم يول المتنى  
ابن حارثة إمارة الجيش إلا عند الضرورة ، وفي أنه عزل خالد بن الوليد<sup>(١)</sup> ،  
ولكنَّ هذا كله لم يؤثر شيئاً في نفوس هؤلاء الرجال العظام ؛ لأنَّهم — كا-  
ذَكَرْنَا آنفًا — لم يكونوا يعملون لدنيا يحبونها ، أو جاه يصيرونها ، وإنما كانوا  
يعملون لله وفي سبيل الله . رحم الله القوع في رحمة واسعة ، على شجاعته ،  
وخلص إيمانه ، وبلاه الصادق الحق في المكاره ، وعلى ما قدم للمسلمين  
في أخرج المواقف من أيادٍ يضاء ! !

إن قصة الدعوة الإسلامية ، وانتشارها من أول يوم آتَى فيه محمدٌ نداء  
بِهِ حين قال له : « فاصدِّعْ بما تؤمر وأعرِض عن المشركين » إلى أن  
تقوضت أركان الدولة العباسية ، وغلب المسلمون على أمرهم في مشارق الأرض  
ومغاربها ، لَقِصَّةٌ غاصة بعشرات الآلاف من الأبطال ، منهم من سُجِّلَ التاريخ  
اسميه وأشاد به ، ومنهم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا مُثلاً عالية في التضحية ،  
ونكران الذات ، يعملون في سبيل دينهم ، من غير أن يشعر الناس ، ومنهم  
من هَرَّ التاريخ على أسمائهم دون أن يقف طويلاً ، وإن كانوا لا يقلون  
بأساً وتضحية عن سواهم .

ولا يسعى أن أحصي أسماء الذين تألقوا في صفحة الإسلام الغراء ، فقد  
كان هناك عشرات ، ومئات ، من المسلمين ، الذين كانوا قبل الإسلام

(١) راجع ص ١٩١ من هذا الكتاب .

مغمورين ، لا يعرف الناس عنهم شيئاً ؛ فما أن أتيحت لهم الفرصة لإظهار مواهبهم ، حتى بزروا ، وكأنهم تخرجوا في أعرق الكليّات الهرية اليوم ، كلا ! بل إنهم كانوا أسمى نفساً ، وأنبل غاية ، وأقوم خلقاً وأرأف بالعدو قبل الصديق ، من هؤلاء الذين يتبرجون بمدنیتهم ، وهم كذابون ، منافقون غادرون ، يعطونك ساعة المحن أقوى العهود ، وأخلص المواثيق ، فإذا ساعدتهم وكفّل لهم النصر ، تنكروا لك ، لأن لم يكونوا بالأمس على وشك التردّي في هوة الاندحار ، والخزي ، والإبادة ؟ يتذلّلون لك ، ويختبطون ودك ، ويتمّنون عطفك ، وتراهم بعد النصر متوجهين ، متغطّسين يقلّبون الحق باطلأ ، والباطل حقاً ، أخرزاهم الله !

وهناك هؤلاء الذين عذّبوا في سبيل عقيدتهم ، وأوذوا أشد الإيذاء ، حتى آثروا الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وخشيّة من الفتنة ، وهناك أبطال بدر ، من استشهد منهم ، ومن سلمه الله ، وأبقاء ليستشهد في معركة أخرى . ها هوذا رسول الله قد خرج إلى بدر في عدد قليل ، وعدة يسيرة حتى لقد كان المسلمين يتعاقبون على الإبل لقتلها ، يسير على وفي يده راية المهاجرين ، ويسيّر سعد ابن معاذ وفي يده راية الأنصار . ويعلم النبي بقدوم قريش ، فاستشار أصحابه ، وتكلّم كثيرون ، ومن تكلّم المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! امض بنا لما أراك الله فتحن معك ، والله لا يقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون <sup>(١)</sup> » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برتك

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٣.

الغَمَادِ<sup>(١)</sup> جَالَدَنَا<sup>(٢)</sup> مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلَغَهُ » ، وَتَكَلَّمَ سَعْدُ بْنُ مُعاذَ فَقَالَ : أَمْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرْدَتَ فَنَحْنُ مَعَكَ ، فَوَالَّذِي بَعْثَكَ بِالْحَقِّ لَوْا سَتَرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرُ لِخُصْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكِرْهُ أَنْ تَلْقَى بَنَا عَدُوًّا نَا غَدًا ، إِنَّا لَصَبُرُونَا فِي الْحَرْبِ ، صَدَقَ فِي الْلَّاقَةِ ، وَلَعَلَّ اللَّهُ يَرِيكَ مَا تَقَرَّبُ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسَرَّ بَنَا عَلَى بُرْكَةِ اللَّهِ » .

وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعاذَ يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ الْأَنْصَارِ ، الَّذِينَ آوَوْا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَقَدْ كَانَ سَعْدٌ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ الْخَافِقَةِ ، وَأَبْطَالُهُ الْأَفْذاذُ ، مَرَّ يَوْمُ الْخَنْدَقِ بِحُصْنِ بَنِي حَارِثَةَ ، وَهُوَ مِنْ أَحْرَزِ حَصُونِ الْمَدِينَةِ ، وَعَلَيْهِ دَرِيعٌ قَصِيرَةٌ ، قَدْ خَرَجَتْ ذَرَاعُهُ كَلَّهَا مِنْهَا وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَسْرَعُ بِهَا وَيَقُولُ :

لَبَّثْ قَلِيلًا يَشْهِدُ الْمُهِيجَا حَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ<sup>(٣)</sup>

فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ ، وَكَانَتْ فِي الْحُصْنِ هِيَ وَعَائِشَةُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ : الْحَقُّ يَا بْنَيْنِي فَقَدْ وَاللَّهُ أَخْرَتْ ، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ : يَا أُمَّ سَعْدٍ ، وَاللَّهُ لَوْدِدَتْ أَنْ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبِعَ مَا هِيَ ، ثُمَّ رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعاذَ بِسَهْمٍ فَقُطِعَ مِنْهُ الْأَكْلُ<sup>(٤)</sup> ، وَقَدْ مَاتَ مَتَاثِرًا مِنْ جَرْحِهِ بَعْدَ أَنْ حُكِمَ عَلَى بَنِي قَرِيْظَةَ حُكْمَهُ الْمَشْهُورُ<sup>(٥)</sup> ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَرْثِيهِ :

وَمَا اهْتَزَ عَرْشُ اللَّهِ مِنْ مَوْتِ هَالِكٍ سَعْنَا بِهِ إِلَّا لَسْعَدٍ أَبِي عمرٍ

(١) بُرْكَ الغَمَادِ : مَوْضِعٌ بَعِيدٌ ، أَوْ هُوَ كَنْيَةٌ عَنْ أَقْصَى مَكَانٍ مَعْمُورٍ فِي الْأَرْضِ .

(٢) جَالَدَنَا : جَاهَدَنَا .

(٣) حَمَلٌ : اسْمُ رَجُلٍ وَهُوَ الَّذِي قَالَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي تَمَثَّلُ بِهِ سَعْدٌ .

(٤) الْأَكْلُ : عَرْقٌ فِي الذَّرَاعِ .

(٥) راجِعُ سِيرَةِ ابْنِ هَشَامٍ جَ ٣ صَ ٢٥٢ ، وَتَارِيخِ الطَّبَرِيِّ جَ ٣ صَ ٥٢ .

وقالت أمه ترثيه :

وَيْلُ امْ سَعْدٍ سَعْدًا صَرَامَةً وَحَدَّا  
وَسَوْدَدَا وَمَخْدَا وَفَارِسَا مَعَدَا  
سَدَا بِهِ مَسَدَا<sup>(١)</sup>

وهناك أبطال أحد : مصعب بن عمير أول حامل للواء المسلمين يقاتل حتى يقتل ، وهذه أم عمارة بنت كعب خرجت أول النهار ، ومعها سقاء فيه ماء ، فانتهت إلى رسول الله وهو في أصحابه ، والدولة والريح لل المسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ، وأخذت تقاتل ، وتذرب عن النبي بالسيف ، وترمى عن القوس حتى جرحت في سبيل الله .

وهل أباك حديث خبيب بن عدى ؟ وقد غدر به وأصحابه قوم جاءوا إلى النبي مدعين الإسلام ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين ، فكان خبيب لهذا من أرسله رسول الله ، ولكن القوم غدروا بهم جميعاً ، وباعوا خبيباً لرجل من أهل مكة كي يقتله بأبيه الذي قُتل في بدر ، ثم خرجوه خبيب ليقتلوه فقال : ذروني أصل ركتين ، فصل ، ثم قال لو لا أن يقولوا جزع من الموت لزدت ، وما أبالي على أي شقى كان الله مصرعي . ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه العدا ما يُصْنَع بنا ، اللهم أخصهم عدداً ، واقتلمهم بدد ، ولا تغادر منهم أحداً . . . ثم قتلوا .

وكان من هؤلاء زيد بن الدثنة ، فلما قدم ليقتل ، سأله أبو سفيان :

(١) أيام العرب في الإسلام للأستاذين محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى الباشاوى ص ٧٠

أنشدك الله يازيد ، أتحب أن محمدًا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ! قال : والله ما أحب أن محمدًا تصيبه شوكة تؤديه وأنا جالس في أهلي .

إن القديسين الذين يعظمهم أهل المسيحية هم الذين أصيروا من أجل دينهم ، وعذبوا في سبيله ، وقد قتل بعضهم ، ولكن المسلمين كانوا جميعاً قديسين وما منهم إلا من نجى بأعز شيء لديه في سبيل دينه ، وإذا طلبت منه نفسه قدمها راضياً مطمئناً . هذا رسول الله يبعث أربعين رجلاً من أصحابه لأهل نجد كي يعلموهم الإسلام ويهدوهم إلى الطريق القويم ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فقال بعضهم لبعض : أَيْكُمْ يَبْلُغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَهْلَهَا هَذَا الْمَاءُ ، فقال حرام ابن ملحان . أنا أبلغ رسالة رسول الله ، وخرج حتى أتى حِوَاء<sup>(١)</sup> منهم ، فاحتبي أمام البيوت ؟ ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إن رسول محمد إليكم ، إننيأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه ، فآمنوا بالله ورسوله . خرج إليه عامر بن الطفيلي من كسر<sup>(٢)</sup> البيت بروح فضرب به جنبه ، حتى خرج من الشق الآخر ، فقال حرام : الله أكبر ! فزت رب الكعبة ! الله هذه النفس المؤمنة التي تسعي للشهادة ؛ وأداء الرسالة ، وتسرّ للموت كما يسر غيرها للحياة .

وكيف ننسى أبطال مُؤْتَة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وقد كانوا يقاتلون قوماً يفوقونهم عدداً ، وقد قتل هؤلاء

(١) الحِوَاء : مجموعة من بيوت الحى .

(٢) كسر البيت : جانب . راجع في يوم بئر معونة سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٤ ، والطبرى ج ٣ ص ٣٣ وما بعدها .

جِيْعَـا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخِرِ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ كَانَ يَحْمِلُ رَأْيَ الْمُسْلِمِينَ . اسْتَمِعْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ  
ابْنِ رَوَاحَةَ يَقُولُ وَقَدْ أَخْذَ الرَّأْيَ بَعْدَ مَقْتَلِ جَعْفَرَ :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لِتَنْزِلَنَّهُ أَوْ لِتُكْرَهَنَّهُ  
إِنْ أَجَلَبَ النَّاسُ وَشَدُوا الرَّأْيَ مَالِيْ أَرَاكَ تَكْرِهِنَ الْجَنَّةَ ؟<sup>(١)</sup>  
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلَيْ تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِّيَتِ  
وَمَا تَمَّنَّتِ فَقَدْ أُعْطِيَتِ إِنْ تَفْعَلِ فَعَلَهُمَا<sup>(٢)</sup> هُدْيَتِ  
ثُمَّ ظَلَّ يَقْاتِلُ حَتَّى قُتُلَ .

وَمَاذَا عَسَى أَنْ أَذْكُرَ مِنْ أَسْمَاءِ هُؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ ، وَعَدْهُمْ يَحْلُّ عَنِ  
الْحَصْرِ : هَذَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ يَوْمَ الْيَمَامَةَ — حِينَ انْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ ، نَادَى فِيهِمْ :  
بِسْمِ اللَّهِ أَعُوذُ بِكُمْ أَنْفَسَكُمْ يَا مُعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرُأُ إِلَيْكَ مَا يَعْبُدُ هُؤُلَاءِ  
— يَعْنِي أَهْلَ الْيَمَامَةَ — وَأَبْرُأُ إِلَيْكَ مَا يَصْنَعُ هُؤُلَاءِ — يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ — ، وَحَفِرَ  
لِقَدْمِيهِ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ حَامِلُ الْلَوَاءِ ، بَعْدَ مَا تَحْنَطَ وَتَسْكَفَنَ ، وَلَمْ يَزُلْ فِي  
مَكَانِهِ حَتَّى قُتُلَ .

وَهَذَا زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ أَخُو عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ تَرَاهُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ  
النَّاسَ : أَيُّهَا النَّاسُ عُصُّوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ ، وَاضْرَبُوا عَدُوكُمْ ، وَامْضُوا قَدْمًا ،  
وَاللَّهُ لَا أَتَكَلُّ حَتَّى يَهْزِمَهُمُ اللَّهُ ، أَوْ أَلْقِيَ اللَّهُ ، فَأَكْلَمُهُ بِحِجْبَتِي ، ثُمَّ قَاتِلُ حَتَّى قُتُلَ ،  
وَهَذَا هُوَ أَبُو مُحَجَّنِ الثَّقْفِيِّ يَحْبِسُهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ فِي يَيْتَهِ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ  
لِتَغْنِيهِ بِالنَّمَرِ وَقَدْ حَرَّمَهَا الإِسْلَامُ ، فَيُقْنَعُ امْرَأَةُ سَعْدٍ وَالْمَعْرَكَةُ دَائِرَةٌ بِأَنْ تَفْكُرَ قِيَدَهُ  
وَتَعْطِيهِ فَرْسُ سَعْدٍ لِيَقْاتِلَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ وَيَضْعُ القِيدَ فِي رِجْلِهِ

(١) الرَّأْيُ : الْعَوْيِلُ .

(٢) الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى صَاحِبِيِّ زَيْدٍ بْنِ حَارَثَةَ ، وَجَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

كما كان ؛ وتوافقه بعد تردد طويل ، ويخرج إلى المعركة ، ويقصف الأعداء  
بسيفه قصباً منكراً ، وتعجب الناس من أمره وهم لا يعرفونه . وقد قال في بلائه

يوم القادسية :

لقد علمتْ تقيفَ غَيْرَ فَخْرٍ  
بَأْنَا نَحْنُ أَكْرَمُهَا سِيَوْفًا  
وَأَكْثَرُهُمْ دَرْوِعًا سَابِغَاتٍ  
وَأَصْبَرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوَقْوَافَا  
فَإِنْ أَحْبَسْ فَذَلِكَ بَلَائِيَّ  
وَإِنْ أَتَرَكْ أَذِيقَهُمْ الْحَتْوَافَا  
وَقَدْ عَادَ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ وَقِيدَ نَفْسَهُ بِالْقِيَدِهِ .

وهذا هاشم بن عبدة بن أبي وقاص يقاتل أسد كسرى حتى يقتله بسيفه<sup>(١)</sup>  
وهو لاء هم أبطال الشام : أبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن  
أبي سفيان ، لقد كان كلُّ منهم أمةً وحده ، دهاءً وقوةً وعزيمةً .

لقد كان المسلمون جمِيعاً أبطالاً ، وكيف لا ؟ ، لقد عبروا دجلة بخيولهم  
وراء العدو جمِيعاً في يوم المدائن<sup>(٢)</sup> ، وإن دجلة لترمى بالزبد ، وإنهم ليتحدون  
في عوهم ما يكترون ، كما يتحدون في مسيرهم . وسعد بن أبي وقاص ورائهم  
يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ؟ والله لينصرنَّ الله ولَيَهُ ، ولَيُظْهِرَنَّ الله دينه ،  
ولَيَهُزِّمَنَّ الله عدوه ، إن لم يكن في الجيش بُغْيٌ أو ذُنوبٌ تغلبُ الحسنات ،  
فقال له سلمان الفارسي : « ذللتْ لهم والله البحور كما ذلَّ لهم البر ، أما والدى  
نفس سلمان بيده ليَخْرُجُنَّ منه أَفواجاً كَا دخلوه أَفواجاً » وطبقوا دجلة خيلاً  
ورجالاً حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد ، ثم خرجوا من الماء ، والخيل  
تنفسُ أعراضها صاهلة ، فلما رأى القرآن ذلك ولوا مدبرين لا يلوون على شيء

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٧٠ ، وابن كثير ج ٨ ص ٦٣ .

لأنهم رأوا قوماً لا يقف أمامهم شيء حتى دجلة وهو يرثي بالزبد عبرونه سباحة ،  
وعليهم عذتهم وعذاتهم ومعهم خيولهم وإبلهم .

ولو رُحْتَ أعددَ أسماءَ الأبطالِ الذين ظهروا في تاريخ الفتوح الإسلامية ،  
وأعمال كل منهم ، وعظم بلائه ، لما استطعت إلى ذلك سبيلاً في هذا الكتاب  
المحدود الصفحات ؛ لقد لمع في فتح مصر عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت  
والمسنون بن الأسود ، وأبى ليلى في فتح إفريقيا ، ومقاتلة البربر ، عقبة بن نافع  
مؤسس القيروان ، وناشر الإسلام في تلك الربوع ، والبربر أمة متبدية كالعرب  
ولكن العرب كانوا أقوى منهم بعقيدتهم وعظم إيمانهم بما وعدهم الله . ومن  
الأسماء التي تألقت في سماء التاريخ العربي الإسلامي المهلب بن أبي صفرة ،  
وقد اشتهر بمحروبه مع الخوارج ، وكانوا قوماً أولى بأس شديد ، تمكنت من  
قلوبهم عقيدة راسخة ، وهم عرب في الغالب ، كانوا يسمون الشراة ، لأنهم  
باعوا أنفسهم في سبيل مبدأهم وعقيدتهم ، واشتهر منهم أبطال عظام ، وقد أرسل  
إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً من ألفي رجل فهزمه أربعون من الخوارج يوم  
آسك<sup>(١)</sup> ، وفي ذلك يقول عيسى بن فاتك الخارجى من بنى تم اللات<sup>(٢)</sup> :

ألفاً مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا  
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا  
هم الفتنة القليلة غير شك على الفتنة الكثيرة ينصرونا  
أطعم أمر جبار عنيد وما من طاعة للظالمينا  
ولم يوجد من قواد العرب المسلمين من يستطيع الثبات للخوارج وتأديبهم

(١) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدنوي طبعة ليدن ص ٢٧٩ .

(٢) Noeldeke : Veterum Carminum Arabicorum. P. 90

وتذليلهم إلا المهلب وفي ذلك يقول ابن عرّاوة<sup>(١)</sup> .

وليس لها إلا المهلب إنه مليء بأمر الحرب شيخ له شأن  
إذا قيل من يحمي العراقيين أو مات إليه معد بالاكف وقططان  
فذاك امرؤ إن يلقهم يُطف نارهم وليس لها إلا المهلب إنسان  
ولم يكن قتال هؤلاء الخوارج هيئاً ، إذ كانت عندهم عصبية شديدة  
لمذهبهم ، ومعظمهم من العرب ، وكان فيهم زهد وعزوف عن الدنيا  
وتقشف ، وظهر من بينهم أبطال شجعان ، ضربوا المثل الأعلى في التضحية ،  
والإشارة ، وتمثلت فيهم كل معانى الفتوة ، ومن هؤلاء أبو بلال مردادس  
ابن أدية الذي يرثيه عمران بن حطان البطل الخارجي بقوله :

لقد زادَ الحياة إلىَ بغضاً وحبًا للخروج أبو بلال  
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذرا العوالى  
ولو أنى علمت بأنَّ حتفى كتحف أبي بلال لم أبال  
فمن يك همهُ الدنيا فإنى لها والله ربُّ العرش قالى  
ومنهم قطري بن الفجاءة وهو القائل : -

ألا أيها الباقي البراز تقرَّبنْ أساقيك بالموت الدعاف المقشبا  
فما في تساق الموت في الحرب سبة على شارييه فاسقني منه واشر با  
ولكن المهلب بن أبي صفرة كان من القواد الحنكين ، والشجعان  
الأفذاذ ، وأخذ يتبعهم ، ويلتقي بهم في المعركة تلو المعركة ، ويوقع بهم المرة  
بعد المرة ، وهم يتربصون به الدوائر ، وهو لا ينفك يطلبهم ، ولقد هجموا عليه

عرة<sup>(١)</sup> وهو جالس على المنبر يوم عيد الأضحى يخطب الناس خطبة العيد فلما سمع بقدمهم قال : سبحان الله ! أفي مثل هذا اليوم يأتوننا ؟ ما أبغض إلى الحاربة فيه ، ولكن الله تعالى يقول : « الشهْرُ الحرام بالشهرِ الحرام وأُحرمات قصاصٍ فمن اعتدى عليكم فاعتَدُوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم » ونزل من على المنبر ، وخف لقتالم ، وكان يرأسمهم في ذلك اليوم أحد فرسانهم وهو عمرو القنا وقد ارتجز عمرو هذا حين رأى المهلب بقوله :

نَحْنُ صَبَحْنَا كَمْ غَدَةَ النَّحْرِ  
بِالخَلِيلِ أَمْثَالَ الْوَشِيجِ تَسْرِي  
يَقْدُمُهَا عَمْرُو الْقَنَا فِي الْفَجْرِ  
إِلَى أَنَّاسٍ لَهِجُوا بِالْكُفْرِ  
الْيَوْمَ أُقْضِي فِي الْعُدُوِّ نَذْرِي

واقتتلوا قتالاً شديداً في ذلك اليوم حتى جن عليهم الليل ، ثم انحازَ الخوارج إلى (كازون) ، من بلاد فارس وتبعهم المهلب ، وكلما ذهبوا إلى مكان سار في آثارهم حتى قال أحدهم :

حَتَّى مَتَّ يَتَبَعُنَّا الْمُهَلَّبُ  
لَيْسَ لَنَا فِي الْأَرْضِ مِنْهُ مَهَرَبٌ  
وَلَا السَّمَاءُ أَيْنَ أَيْنَ الْمَذْهَبُ ... ؟

ولما سمع ذلك قطرى بن الفجاعة بكى ، ووطن نفسه على الشهادة والموت ، وقدم الحرب وهو يتجز :

حَتَّى مَتَّ تَخْطُئُنِي الشَّهَادَةُ  
وَالْمَوْتُ فِي أَعْنَاقِنَا قَلَادَةً  
لَيْسَ الْفَرَارُ فِي الْوَغْيِ بَعَادَةً  
يَارَبِّ زَدْنِي فِي التَّقْيَى عَبَادَةً  
وَفِي الْحَيَاةِ بَعْدَهَا زَهَادَةً

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨٥ .

واستمرَّ القتال بينهم وبين المهلب زَمْنًا ، وهو يقفو آثارهم في شعاب الجبال ، وفي الحصون ، وفي كل مدينة ومكان وينكل بهم ، وهم لا يلينون ولا يخضعون إلى أنْ كان يوم صَمَمَ فيه الخوارج على الاستشهاد أو الثبات لعدوهم ، وعليهم عبد ربه ، فناداهم : « يا معاشر المهاجرين روّحوا بنا إلى الجنة فإنَّ القوم رأثخون إلى النار . » فاطعنوا بالرماح حتى تكسَّرت ، واضطربوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم صاروا إلى المعانقة ، فترجل المهلب في مُهْمَاته وحمل عليهم وهو يتلو قول الله تعالى : « قاتلهم حتى لا تكون فتنَةٌ وَبِكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »<sup>(١)</sup> فلم يزدوا يقتلون حتى حال بينهم الليل ثم غدوا على الحرب ، وقد كسرَ الخوارج جُفونَ سيفهم ، وحلقو رءوسهم ، وقتل (عبد ربه) وجميع أبطاله ، ولم يبق إلا ضعافُهم ، فدخلوا في عسكر المهلب ، وانضم كلَّ رجل إلى عشيرته من أصحاب المهلب ، فكتب بالنصر إلى الحجاج ، وأرسل الكتاب مع بشر بن مالك الْحَرَسِيَّ ، فلما وقف أمام الحجاج أنسد يقول : —

قد حَسَّمَا داءَ الأَزارِقَةِ الدَّاهِرَةِ رَفَاضْحَوْا طَرَا كَالْمُود  
بطعَانَ الْكُمَاءِ فِي ثُغْرِ القُوَّمِ وَضَرَبَ يُشَيْبُ رأسَ الوليد  
كُلَا شَتَّتَ راعِنِي قَطَرِيَّ فَوقَ عَبْلِ الشَّوَّى أَقَبَ عَتُودَ  
مُعَلَّمًا يَضْرِبُ الْكَتَبِيَّةَ بِالسِّيِّفِ فَوَعْمَرُو كَالنَّارِ ذَاتِ الْوَقْدِ  
وَمِنَ الْقَوَادِ الْعَظَامِ الَّذِينَ غَيَّرُوا وَجْهَ التَّارِيخِ ، وَدَخَلَ بِعِضِّهِمْ أَمَّ عَدِيدَةَ  
فِي إِلْسَامِ ، رَفَدَتْهُ بِالْعَلَمَاءِ الْأَجْلَاءِ ، وَالْفَقِيهَاءِ الْمُتَبَحِّرِينَ ، قَتِيبةُ بْنُ مُسْلِمِ الْبَاهِلِيِّ ،  
وَكَانَ عَلَى قَدْرِ عَظِيمٍ مِّنَ الشَّجَاعَةِ ، لَا يَرْدُهُ عَنْ غَايَتِهِ شَيْءٌ مَّهْمَا جَلَّ ،

(١) سورة الأنفال الآية ٤ .

وقد فتح كلَّ ما وراء النَّهَرِ ، وأدخل في حوزة الإسلام بُخارى وسمرقند ، وأوغل في فتوحاته حتى أبواب الصين . وقد حارب في فتوحاته أمّاً شتى اشتهرت بياسها وشجاعتها كالترك والديلم وغيرهم ، فلم يتبنوا القتاله .

ومنهم محمد بن القاسم بن محمد التقي الذي اشتهر بحربه أيام بني أمية ، وفتح بلاد السنَد ، وجعل لنا من أبنائنا إخواناً في الإسلام نعزز بهم إلى يومنا هذا ، وكان محمد شجاعاً ، وبطلاً صنديداً لا يثنى عن عزمه شيء . و منهم مسلمة بن عبد الملك بن حروان ، وقد أبلى بلاً عظيماً في حربه مع الروم ، وفتح القسطنطينية للمرة الثانية .

ومنهم موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وحاربا الفِرنجة ، وكانت السبب في تلك الدولة العظيمة التي ازدادت بها أوروبا ثمانية قرون . لقد حارب فتيان المسلمين كلَّ أمم الأرض ، وامتتحنت شجاعتهم في كل صُقُع ، وأمام كلَّ أمة ، فبرهنوا على أنهم أشدُّ بأساً ، وأقوى عزيمة ، وأعظم إيماناً ، وأنهم أبطالٌ من اشتهر منهم ، ومن لم يشهر . لقد كان شعار كلِّ منهم في هذه المعارك الطاحنة التي غيروا بها وجه التاريخ ، وأدالوا كثيراً من الشعوب أولى البأس والقوة ما قاله أبو رواغ اليشكري :

إِنَّ الْفَتَىَ كُلَّ الْفَتَىَ مَنْ لَمْ يُهَلَّ      إِذَا الْجَبَانَ حَادَ عَنْ وَقْعِ الْأَسْلَنْ  
قَدْ عَلِمْتُ أَنِّي إِذَا الْبَأْسَ نَزَلَ      أَرَوَعُ يَوْمَ الْهَمِيجِ مِقْدَامُ بَطَلَّ  
لَقَدْ كَانَتْ جَيُوشُ الْمُسْلِمِينَ أَيَّامَ الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَبَنِي أَمِيَّةَ تَتَّالَفُ مِنْ  
فَتَيَانَ الْعَرَبِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقِيَادَةِ وَالسِّيَادَةِ ، وَهُمْ حَمْلَةُ الإِسْلَامِ وَالْمُبَشِّرُونَ بِهِ ،  
وَقَدْ حَفَظُوا عَلَى تَقَالِيدِهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَوْا بِهِ ، وَلَمْ يَدْعُوا التُّرْفَ يَفْسُدَ عَلَيْهِمْ

أجسامهم القوية ، ونفوسهم العالية ؟ وقد فطن عمر بن الخطاب إلى الأخطار التي ستحدق بهم ، حينما يخالطون سواهم من الأمم ، ويقوضون عروشاً قد أبطراها التراء ، وأفسدتها النعمة ، ويحوزون أموالاً جمة ، ويرون من أسباب الرفاهية ما لم يتعودوه ، وما تشتاقه كل نفس ، ولذلك نصحهم عمر بن الخطاب نصيحته المشهورة على ما رواه على من الجعد عن أبي عثمان الهندي<sup>(١)</sup> قال : أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأذريجان : « أما بعد ، فاتزروا ، وارتدوا ، واتعلوا ، والقوا الخلف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أيكم اسماعيل ، وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمددوا وخشوشوا ، واحلوقوا ، وقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزوا ، وارتموا الأغراض ».

فقد أمرهم بلبس الإزار ، والرداء ، والنعل لتعتاد أرجلهم الحر والبرد فتقوى على دفع الأذى ، ونهام عن لبس الخلف<sup>(٢)</sup> ، والسراويات ، كما نهاهم عن التنعم ، لأنه يختنق النفس ، ويكس بها الأنوثة ، والكسيل ، ويخون صاحبها أحوج ما يكون إلى نفسه وقت الشدائيد ؛ والتشبه بالعجم حتى يحافظوا على مظهرهم العربي ، فلا تزل أقدامهم في مهاوى الترف ، وينسوا عاداتهم وتقاليدهم ، وحتى يكونوا شجآن في قلوب عدوهم وهم في زيهم البدوي ، أمّا إذا رأهم في زيه ومظهره الذي أله ، قلت خشيته لهم ، وتجرأ عليهم . وأمرهم عمر رضي الله عنه بأن يتعرضوا للشمس حتى تصح أجسامهم ، وتذهب عنهم الأمراض والعلل ، وهم في جو لم يألفوه ، وعلى طعام لم يتعودوه . كما

(١) الفروسية لابن القيم الجوزية ص ٩ .

(٢) جمع خف .

أمرهم أن يتمعدوا أى أن يلزموا عادة جدهم مَعَدّ بن عدنان في أخلاقه ، وزيه وفروسيته وأفعاله . وطلب منهم كذلك أن يخشوشوا أى يمارسوا ما يجب الخشونة ، ويجعل الجسم متين البناء صلباً ، قوياً على احتمال الإجهاد ، وشدة الحر والبرد ، والتعب والمشاق ، فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه فيجد عنده من الخشونة والجلد والصبر ملا يجده عند المنعم المترف . كا طلب منهم أن (يخلوقوا<sup>(١)</sup>) أى أن يتمهيوا ويستعدوا لما يراد منهم ، فيكونون خلقاء به جديرين بفعله . لا كمن ضيع فروسيته وقوته عند الحاجة . وأمرهم عمر رضي الله عنه كذلك أن يقطعوا الرُّكْب ، أى أن يتمطوا صهوات الخيل من غير ركاب ، حتى لا يعتادوها ، فقد تلجمهم الضرورات إلى الركوب من غير ركاب فيجدون أنفسهم قادرين على ذلك ، أقوىاء على كبح جماح الخيل ، ولذلك قال بعد هذا ، وانزوا على الخيل نزوا ، أى ثبوا عليها وثباً ، وهذا شأن الفتىان الأقوياء ، وإذا رأهم أعداؤهم وهم يتبعون على ظهور الخيل من غير استعانة بالرُّكْب ، فزعوا من قوتهم ، وفرط نشاطهم . وأخيراً طلب منهم أن يحكموا الرماية بقوله «وارتموا الأغراض» ، بأن يجعلوا قصدهم إصابة الهدف حين يرمون عن القوس ، لأن يكون همهم بعد .

بمثل هذه النصائح العظيمة الفروسية أمرهم عمر بن الخطاب ، حتى لا يدبّ الفساد إلى أجسامهم ونفوسهم ، ويستكينوا للدّعة والترف فيحقق بهم الخذلان في جهادهم ، والنكوص على أعقابهم حين احتدام المعارك ، فلا يؤدون الرسالة التي انتدبوا أنفسهم لها ، ولقد استجابوا لنداء أمير المؤمنين ، وزادتهم معamus

(١) من أخلاق السحاب بعد تفرقه أى اجتمع وتهيأ للمطر وصار خليقاً به .

القتال تجربة وقوة ، وجرأة على أعدائهم ، وصلابة في الجسم ، وشجاعة في النفس ، وانطلقوا كالسهام المفوقَة ينشرون دين الله في كل أرض توجهوا إليها ، لا يحول بينهم وبين غايتها قوة من قوى البشر . فلما جاءت الدولة العباسية ، وناصرها الفرس واتخذت جيوشَها من الأعاجم المختلفة الأجناس من فرس وديم وترك ، وانصرفوا عن العرب ، اشتغل هؤلاء بغير الجنديه وشئون القتال من أغراض الحياة ، تحولت الفتنة عندهم إلى غيات أخرى سندَّرها فيما بعد إن شاء الله .

٢ — أما الحديث عن كرم فتيان المسلمين وسخاء أيديهم ، وكرم قلوبهم ، ورجاحة عقولهم وتسامحهم ، وحمايتهم للضعيف ووفائهم بالموهود ، وهي الصفات المكملة لفتة ذكرنا في الأبواب السابقة ، فسألني الكلام عنها إلى حين الموازنة بين فروسية الغرب وفتة العرب ، حتى لا يكون الكلام مكرراً . وإن كانت هذه الخلال الحميدة قد اشتهرت شهرة واسعة عن فتيان المسلمين في كل مراحل التاريخ ، لأنهم كانوا يصدرون فيها عن طبيعة موروثة ، وعن تقاليد جنسية عرفت عن العرب منذ الأزل ، وعن تعاليم دينهم السمح ، وسيرة نبيهم الزكية الذي ضرب لهم المثل الأعلى في التمسك بالشرف ، والشرف يضم تحته كل هذه السيجايات ، بل الشرف كما يقول شاتوبريان Chateaubriand فضيلة تغنى عن كل الفضائل ، فضيلة لا تثمر إلا الخير ، ولا تعرف الشر ، فضيلة لا تُهزم إذا أحققت ، وهو أبل ما تتحلى به الشخصية الإنسانية ، وهو فضيلة تستمد قوتها من ذاتها ، فيها حتف صاحبها ويدها مصيره <sup>(١)</sup> .

(1) Chateaubriand : Analyse raisonnée de l'Histoire de France, P.82.

وانظر كذلك

Servitude et grandeur militaire : Alfred de Vigay à l'Honneur.

وقد رأيت كيف تجلت هذه الصفة بأسمى مظاهرها في خلق النبي عليه السلام وأعماله وسيرته ، وكيف تأثر المسلمون في شجاعتهم بهذه الأسوة الحسنة ، وسترى فيما بعد كيف كانوا على منزلة عظيمة من الشرف في جميع مراحل تاريخهم ، مقتدين في ذلك بنبيهم **الكريم** .

## الفتوة الصوفية

خللت الفتوة الإسلامية مصطبعة بالصبغة العربية طوال أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، ورَدَحًا طويلاً من الزمن أيام بنى العباس ، وكانت الفتوة حتى ذلك الوقت صفة فردية يتحلى بها بعض الأفراد ، وظهور في أعمالهم وإن كانوا من الكثرة بحيث يخيلي لمتصفح التاريخ الإسلامي أن المسلمين جهِيًّا من الفتية الأُمَّاجاد في شجاعتهم ، وسخائهم ، وضبط نفوسهم عند الغضب ، وسماحة عقولهم ، وجهودهم بالحق ، وحمايتهم للضعفاء ، ووفائهم بعهودهم . ولكن الفتوة حتى ذلك الوقت لم تكن نظاماً ذا تعاليم خاصة ، وفلسفة يُدعى إليها ، وينتظم الناس تحت لوائها . وذلك لأن العرب لم يكونوا في حاجة لمن يلقنهم معانها ؛ إذ وجدت فيهم بالفطرة والوراثة ، وجاء الدين والجهاد في سبيل الله فـكـنـها من قلوبـهـم ، وثبتـهـا في طبـاعـهـم .

ولـكـنـ الأمة العربية حين صـرـفت عن الجندية ، وحـابـيـ خـلـفـاءـ بنـىـ العـبـاسـ الأـعـاجـمـ من فـرـسـ وـتـرـكـ وـدـيـلـ وـمـنـ عـلـىـ شـاـكـتـهـمـ بـالـجـنـدـيـةـ ، تـجـلـتـ فـتـوـةـ العـرـبـ فـيـ صـورـةـ أـخـرىـ فـيـهاـ الـكـرـمـ وـالـسـمـاحـةـ ، وـالـشـجـاعـةـ الـأـدـيـةـ .

يـدـ أـنـ هـنـاكـ نـوـعـاـ آخـرـ مـنـ فـتـوـةـ صـبـغـ بـصـبـغـةـ صـوـفـيـةـ ، تـلـتـقـيـ فـيـهـ الصـفـاتـ العـرـبـيـةـ السـكـرـيـمـةـ الـتـىـ ذـكـرـنـاـهـ آـنـفـاـ ، بـتـعـالـيمـ الصـوـفـيـةـ ، وـكـانـ أـوـلـ ظـهـورـ هـذـاـ النـظـامـ مـنـ فـتـوـةـ فـيـ دـائـرـةـ الـحـسـنـ الـبـصـرـيـ الـذـىـ أـطـلـقـ عـلـيـهـ آـيـوـبـ بـنـ أـبـيـ تـمـيـمـ (١)ـ «ـ سـيـدـ الـفـتـيـانـ »ـ وـكـانـ الـحـسـنـ مـنـ أـوـاـئـلـ الـذـينـ مـهـدـوـاـ لـتـصـوـفـ الـإـسـلـامـيـ

(١) الملامية والصوفية وأهل الفتوى للدكتور أبو العلاء عفيفي ص ٢٥ .

وقد تتعلمذ عليه مالك بن دينار ، وأبو حمزة الصوفى وغيرهم ولكن هذه الحركة لم تكتمل نمواً إلا حين اشتد التصوف ، وكملت تعاليمه وظهر أبطاله ، وهنا نرى مزجاً عجياً بين الفتوة والتصوف ، وأخذ المتصوفة من تعاليم الفتوة العربية أهم ميزاتها وهو الإشار ، وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها ، مثل كف الأذى ، وبذل الندى ، وترك الشكوى ، وإسقاط الجاه ، ومحاربة النفس ، والعفو عن زلات الناس ، فيقول على بن أبي بكر الأهوازى : « إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً واحداً » ، ويقول القشيرى : « أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً في غير أمره <sup>(١)</sup> » ، وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرونهم يقال له إبراهيم » : الفتوة هي كسر الصنم (الوارد في القصة ) ، وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة <sup>(٢)</sup> وأنت ترى أن المتصوفة قد توسعوا في استعمال كلمة ( الفتوة ) ، وحملوها أكثر مما تتحمل .

وقد قال « ثورننج » إن إقبال الفتيان على التصوف لا يتفق وأخلاق الفتوة ، وأنكر عليه ذلك الدكتور أبو العلا عفيفي ، والحق أن التصوف الإسلامي قد أخذ من الفتوة العربية الإسلامية التي من أهم مظاهرها الشجاعة والكرم والإشار وحماية الضعيف ، ونكران الذات شيئاً كثيراً ، وإن كان قد مسخ الفتوة العربية الإسلامية مسخاً ، ولم نعد نرى صفات الفروسيية والكافح والنضال في سبيل الشرف ، وإنما نرى زهداً وبعداً عن الدنيا ، إذ كان من أهم أغراض التصوف إضعاف الجسم لقوية الروح حتى تتصل

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٣ .

(٢) كشف اصطلاحات العلوم للثانوى ج ٢ ص ١١٥٦ ، والملامية والمصوفية ص ٢٦

بِالذاتِ الْعُلِيَّةِ، وَحَتَّى عُرِفَ التَّصوُّفُ بِأَنَّهُ «إِفَاءَ النَّفْسِ لِتَحْيَا فِي اللَّهِ» أَوْ «أَنْ تُطْرَحُ مَا يَحْوِيهِ رَأْسُكَ مَا تَمْلِكُهُ يَدُكَ، وَتُرْضَى بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ لَكَ»<sup>(١)</sup> وَيُعرَفُ الغَزَّالِيُّ «بِأَنَّهُ طَرِيقَةُ أَوَّلِ شَرائطِهَا تَطْهِيرُ الْقَلْبَ بِالْكَلِيلِ عَمَّا سُوِّيَ اللَّهُ وَمَفْتَاحُهَا اسْتِغْرَاقُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَآخِرُهَا الْفَنَاءُ بِالْكَلِيلِ فِي اللَّهِ تَعَالَى»<sup>(٢)</sup>.

وَلَمْ يَكُنْ الغَزَّالِيُّ مِنْ هُؤُلَاءِ الْمَتَصوِّفَةِ الَّذِينَ طَرَحُوا الدُّنْيَا جَانِبًا، وَأَمَّا تَوَراُ فِي نَفْوِهِمُ الْأَثْرَةُ وَالْغَضْبُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسِيرُ فِي الْأَخْلَاقِ عَلَى مَذْهَبِ الْفَلَاسِفَةِ وَإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي بَعْضِ وَجْهَاتِ النَّظَرِ، فَهُوَ يُرِيُّ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِيهَا قَوْتَانٌ: شَهْوَانِيَّةً وَغَضْبِيَّةً، وَلَا بُدْ مِنْ يَنْشُدُ السَّعَادَةَ أَنْ يَخْضُعَ هَاتِينِ الْقَوْتَيْنِ لِلْفَكْرِ الَّذِي يَوْجِهُهُمَا نَحْوَ الْخَيْرِ فَتَنْتَجُ الْأُولَى الْعَفَةُ، وَالثَّانِيَّةُ الشَّجَاعَةُ وَبِذَلِكَ تَوْجِدُ الْعَدْلَةُ، وَهُوَ لَا يُرِيُّ إِمَانَةَ الشَّهْوَةِ، وَلَا الْقُوَّةَ الْغَضْبِيَّةِ، وَإِنَّمَا يُرِيُّ مَا يَرَاهُ أَرْسَطَهُ مِنْ أَنَّ الْفَضْيَّةَ وَسْطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، وَإِزَالَةُ الشَّهْوَةِ وَالْغَضْبِ إِزَالَةً تَامَّةً يَفْقَدُ الْإِنْسَانُ خَاصِيَّتَهُ وَمِيزَتَهُ، فَلَكُلِّ فَضْيَّةٍ طَرْفًا إِفْرَاطٌ وَتَفْرِيطٌ وَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْوَسْطُ، وَالْمَعيَارُ الَّذِي يَعِيَّنُ الْوَسْطَ لِيُسْعَى الْعُقْلُ وَحْدَهُ كَمَا يَقُولُ الْفَلَاسِفَةُ، وَإِنَّمَا الْعُقْلُ وَالشَّرْعُ معاً أَوْ الْعُقْلُ الْمَتَّأْدِبُ بِالشَّرْعِ»<sup>(٣)</sup>.

وَذَلِكَ أَرَانِي أَوْفَقَ ( ثُورِنِجَ<sup>(٤)</sup> ) فِي قَوْلِهِ بِأَنَّ إِقْبَالَ الْفَتَيَانِ عَلَى التَّصوُّفِ لَا يَتَفَقَّ وَأَخْلَاقُ الْفَتَوَّةِ كَمَا عَرَفَهَا الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ قَبْلِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ يَغْضُبُ إِذَا كَانَ ثَمَّةَ مَا يُدْعَوُ إِلَى الْغَضْبِ، يَغْضُبُ لِشَرْفِهِ،

(١) نِيكَلَسُونْ مَتَصوِّفَةُ إِسْلَامٍ — لَندَن١٩١٤ ص٢٧.

(٢) الْمَنْقَذُ مِنَ الصَّلَالِ — مَصْر٢٨ ص.

(٣) الْإِحْيَاءُ لِلْغَزَّالِيِّ ج٣ ص١٦ — ٢٢ وَمَا بَعْدَهَا.

Dr. Her Thorning, Beitrag Zur Kenntnis Islamischen (٤)

ويغضب لعقيدته ، ويغضب إذا امتهن أو أهين ، وهو لا يحب الجبن ،  
ولا يعرفه ، فكيف يتفق مع التصوف الذي يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية  
والغضبية في الإنسان ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن المتصوفة قد استعملوا كلمة الفتوة وأكثروا منها  
في أحاديثهم ، وأخذوا من تعاليمها العربية بعض الصفات ؛ فالفتى الصوفي في نظر  
بعض المتصوفة من كانت له دعوى يدافع عنها ، ويضحى بنفسه في سبيلها كالحلاج  
الذى يقول : « إن رجعت عن دعوائى ( وهي قوله : أنا الحق ) سقطت  
من بساط الفتوة <sup>(١)</sup> ويتخذ من دعوى إبليس أنه أفضل من آدم في قوله « أنا خير  
منه » ، ومن دعوى فرعون الأولية في قوله : « أنا ربكم الأعلى » دليلاً على  
فتواتهما ، فيقول على لسان الأول : « إن سجدت سقطت عن اسم الفتوة » وعلى  
لسان الثاني : « إن آمنت برسوله سقطت من منزلة الفتوة <sup>(٢)</sup> » ، فأى انحراف  
في تفسير الفتوة وأى خلط ! ؟

كان المتصوفة في أول الأمر لا يؤلفون وحدة فيما بينهم ، وكل يعبد حسبما  
يريد ؛ ليصل إلى غايتها ، وكانوا في أول أمرهم — كذلك — يلزمون حدود  
الشرع ، لا يحيدون عنه ولا يتأنون فيه ، لأن تصوفهم كان أشبه بالزهد منه  
بالتصوف الفلسفى الذى ظهر عند ابن عربى ، والحلاج ، وابن الفارض ،  
وأضرابهم ؛ كان رد فعل لحياة المجنون والترف التى انغمست فيها المسلمون أيام  
الدولة العباسية . ولكن دخلت فى تصوفهم هذا عناصر غريبة أفسدته وأبعدته  
عن الدين : فترى فيه من المسيحية ، والأفلاطونية الحديثة ، والبودية شيئاً غير

(١) الطواسين للحلاج ص ٥٠

(٢) نفس المصدر .

قليل . ولست هنا في مقام بسط حقائق التصوف والتعرف على نشأته وتعاليمه وما دخلَه من الفلسفات الأجنبية .

وما أتى القرن الرابع الهجري حتى وُجدت هيئات صوفية منظمة ، ومدارس مختلفة ، لها رؤساً يهدون (المريدين) الذين يودون الانخراط في الطريق ، وهناك رئيس عام يسمى (القطب) ، وهو الوحيد الذي انتقل إليه العلم الحقيقى ، واسم الله الأعظم ، وهو موضع نظر الله من العالم ، ولا يجوز أن يحمل هذه الأسرار رجالان في عصر واحد .

وقد ادعى محيي الدين بن عربي أنه قطب زمانه حين يقول<sup>(١)</sup> :  
لكل زمانٍ واحدٌ هو عينه وإن ذاك الشخص في العصر واحدٍ  
وحين يقول :

قلمٌ ولوحٌ في الوجود يمده قلمُ الآله ولوحة المحفوظ  
ومن هؤلاء الصوفية الذين أكثروا من استعمال كلمة (فتوة) أهل الملامة ، وفسروا الملامة على أنها نوع من الفتوة أو الرجولة ، وأطلقوا على أنفسهم اسم الفتيان أو الرجال ، فيقول أبو حفص النيسابوري : « صریدو أهل الملامة متقلبون في الرجولية لا خطر لأنفسهم »<sup>(٢)</sup> . ومن صفات الفتوة كما قررها السلمي حين شرح تعاليم الملامية ما ورد في الأصل الحادى والأربعين من رسالة الملامية في قول أبي حفص الحداد لعبد الله الحجاج : « إن كنت فتىً فيكون بيتك يوم موتك موعظة للفتيان » يريد بذلك كل شيء ، وعدم الإبقاء

(١) ديوان ترجمان الأسواق لابن عربي .

(٢) رسالة الملامية ، للدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٨

على شيء خدمة للإخوان ، ومن ذلك ما ورد في الأصل الخامس والأربعين في قول أبي عثمان الحيري في الصحابة : « حُسْنَ الصَّحْبَةِ ظَاهِرُهُ أَنْ تَوَسَّعَ عَلَى أَخِيكَ مِنْ مَالِ نَفْسِكَ ، وَلَا تَطْمَعْ فِي مَالِهِ ، وَتَنْصَفْهُ ، وَلَا تَطْلَبْ مِنْهُ إِلَيْنَا نِصْافَ وَتَتَحَمَّلْ مِنْهُ الْجُفْوَةَ وَلَا تَجْفُوهُ<sup>(١)</sup> ». »

ومن أجمع ما ورد في رسالة الملامية من الفقرات التي تشرح صفات الفتوة كما فهمها أهل الملامة قول بعضهم — وقد سئل عمن يستحق اسم الفتوة — فقال : من كان فيه من اعتذار آدم ، وصلابة نوح ، ووفاء إبراهيم ، وصدق إسماعيل ، وإخلاص موسى ، وصبرأيوب ، وبكاء داود ، وسخاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأفة أبي بكر ، وحمى عمر ، وحياة عثمان ، وعلم على ، ثم هو مع كل هذا يزدرى نفسه ، ويحتقر ما هو فيه ، ولا يقع بقلبه خاطر ما هو فيه أنه شيء ، ولا أنه حال مرضى ، يرى عيوب نفسه ، ونقصان أفعاله ، وفضل إخوانه عليه في جميع الأحوال<sup>(٢)</sup> . »

ومن هؤلاء الصوفية الذين استعملوا كلمة الفتوة بكثرة متصرفون (نيسابور) منهم أبو حفص عمرو بن سالم ، وقد جعل هو ورجال التصوف من مدرسة نيسابور الفتوة مثلاً أعلى يهدرون إليه ، واختصوا من معانيها بالتصحية الكاملة وقد ذكر السلمي : « أنه سمع عبد الرحمن بن الحسين الصوفي يقول : بلغنى أن مشايخ بغداد اجتمعوا عند أبي حفص ، فسألوه عن الفتوة فقال : تكلموا أتم فإن لكم العباره واللسان ، فقال الجنيد : « الفتوة عندى إسقاط الرؤيه ، وترك النسبة » ، فقال أبو حفص : ما أحسن ما قلت ، ولكن الفتوة عندى أداء

(٢) رسالة الملامية .

(١) نفس المصدر .

إِنْصَافٍ وَتَرْكٍ مَطَالِبَ الْإِنْصَافِ » فَقَالَ الْجَنِيدُ : « قَوْمُوا يَا أَصْحَابَنَا فَقَدْ زَادَ  
أَبُو حَفْصٍ عَلَى آدَمَ وَذَرِيْتَهُ<sup>(١)</sup> » وَالْفَرْقُ بَيْنَ تَعْرِيفِهِمَا يَدِلُ عَلَى اخْتِلَافٍ بَيْنَ  
فِي تَفْسِيرِ الْفَتْوَةِ ، فَالْجَنِيدُ يَرَى الْفَتْوَةَ إِسْقَاطًا الرَّؤْيَا ، أَيْ عَدْمُ النَّظَرِ إِلَى  
الْأَعْمَالِ نَظَرَةً اعْتِبَارٍ وَتَقْدِيرٍ ، وَتَرْكُ النَّسْبَةِ ، أَيْ إِسْقَاطُ الرَّوَابِطِ الَّتِي تَرْبِطُ  
الْإِنْسَانَ بِأَيِّ شَيْءٍ ، أَوْ مَوْجُودَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَعَلَى ذَلِكَ فَالْفَتْوَةُ عِنْدَهُ الزَّهْدُ الْكَامِلُ .  
أَمَّا أَبُو حَفْصٍ فَيَرَى الْفَتْوَةَ فِي أَدَاءِ مَا يَرَاهُ الصَّوْفِيُّ إِنْصَافًاً وَعَدْلًاً ، أَيْ الْقِيَامُ بِجُمِيعِ  
الْوَاجِبَاتِ الشُّرُعِيَّةِ وَالاجْمَاعِيَّةِ بِدُونِ أَنْ يَطَالِبَ الْقَائِمُ بِهَا بِإِنْصَافٍ مِنْ جَانِبِ  
الشَّرْعِ أَوْ مِنْ جَانِبِ الْمُجَتَمِعِ ، أَيْ أَنَّ الْفَتْوَةَ عِنْدَهُ هِيَ التَّضَمِنِيَّةُ الْكَامِلَةُ .

وَكَانَ بَنِي سَابُورَ فَتِيَانًا مِنْ غَيْرِ الصَّوْفِيَّةِ أَيَّامَ حَمْدُونَ الْقَصَارِ<sup>(٢)</sup> ، وَكَانَتْ  
لَهُمْ هَيَّنَاتٌ أَوْ جَمَاعَاتٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهَا شَيْءٌ ، وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَى الْفَتَى مِنْهُمْ  
اسْمُ (الْعَيَّارِ)<sup>(٣)</sup> أَوْ الشَّاطِرِ أَحْيَانًا ، قَالَ حَمْدُونَ : « كَنْتُ أَسِيرُ يَوْمًا فِي حَيٍّ  
مِنْ بَنِي سَابُورَ فَلَقِيَتْنِي نَوْحًا العَيَّارُ ، أَحَدُ الْمَعْرُوفِينَ بِالْفَتْوَةِ ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ  
الشُّطَّارِ بَنِي سَابُورَ ، قَلَّتْ لَهُ يَانِوْحٌ ! مَا الْفَتْوَةُ ؟ فَقَالَ : فَتَوْتِي أَمْ فَتَوْتُكَ ؟  
فَقَلَّتْ : صَفُّ الْأَثْنَيْنِ . قَالَ : أَخْلُمُ الْقِبَاءَ ، وَأَلْبِسُ الْخِرْقَةَ ، وَأَفْعِلُ الْأَفْعَالَ

(١) طبقات السالمي ، والدكتور أبو العلاء عفيفي ص ٣٦ ، والخلية لأبي نعيم ج ١٠

ص ٢٧٠

(٢) من أشهر رجال الصوفية على الطريقة الملامية ، وهو أبو صالح حمدون بن عمارة  
المعروف بالقصار وتوفي سنة ٢٧١ هـ ، وكان أحد علماء الفقه على مذهب الشورى ، ويعتبر  
 المؤسس الحقيقي لمذهب الملامية ، وإن كان أتباعه يسمون عادة باسم المحمدونية أو القصارية  
(كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٨٣) .

(٣) العيار : من أسماء الأسد ، ويطلق على الشجاع ، والشاطر : من أعياناً أهلها خبشاً .

التي تليق بهذا الثوب لعلى أصبح صوفياً ، وأقلع عن المعاصي لما أشعر به من الحياء من الله ، ولكنك تخلي الخرقة لكيلا يخدمك الناس ، وينخدعوا بك ففنتوني في اتباع ظاهر الشرع ، أما فتوتك في تلبية نداء القلب »<sup>(١)</sup> .

ويقول الدكتور عفيفي : « وإذا كانت الفتنة بمعناها العام : هي المروءة والرجولة والإيثار الحض ، فهذه معانٍ نجدها متحققة في حمدون القصار أكثر منها في زميله أبي حفص ، وليس أدل على ذلك من العبارات المأثورة عنه في رسالة السلمي ، ورسالة القشيري ، وما أورده له مؤلفو الطبقات . فمن الفتنة عنده ألا يُظهر الإنسان العجب والكبُر ، ومنها غَضُّ الطرف عن مواطن التقصير في الغير ، ومنها الإيثار والاعتراف بالقصير ، والتواضع ، والتماس المعاذير عند رؤية القبيح إذا صدر عن الغير ، وهذه كلها شديدة الاتصال بمعنى الفتنة <sup>(٢)</sup> » .

هذا وقد روى القشيري في رسالته في باب (الفتنة) أن إنساناً يدعونه « الفتنة » خرج من نيسابور إلى بلدة (نسا) بخراسان ، واستضافه رجل ومعه جماعة من الفتى ، فلما فرغوا من أكل الطعام ، خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأبى الفتى النيسابوري وقال : « ليس من الفتنة أن تصب النساء الماء على أيدي الرجال » . وهذا لعمري أدب جمـ، واستعمال الفتنة في معنى جديد يقربها من الفروسيّة الغربية ، وهو احترام المرأة ! أو لعل هذا الفتى كان يعتقد أنه تام الرجولة ، وليس في حاجة إلى إمرأة ضعيفة لتعيينه على شيء ، ولو كانت خادماً .

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٨٣ .

(٢) الملامية والصوفية وأهل الفتنة ص ٤٠ .

وروى القشيري كذلك أن بعض الفتىيان قدم له طعام وعليه نمل ، فقال : ليس من الأدب تقديم الأكل وعليه نمل ، وليس من الفتوة طرد النمل عن الطعام ، فلبيث الغلام حتى دب النمل ، فقال المضييف : « لقد دققت يا غلام في الفتوة » ، ولسنا ندرى أكان هذا الفتى والذى سبقه من المتتصوفة أز من العيارين ، فقد اتتحل كل منهم لقب الفتوة ، وتوسع فى استعمالها ، وأخذ من الفتوة العربية بعض معانها ، وجعله شعاراً له .

ويظهر أن الفتوة قد تطورت على مر الأيام ، واتتحلها كثير من الجماعات صوفية وغير صوفية ، فقد سئل ابن تيمية عن جماعة يجتمعون في مجلس ، ويُلبسون الشخص منهم (لباس الفتوة) ، ويديرون بينهم في مجلسهم شربة فيها ملح وماء ، ويشربونها ، ويزعمون أنها من الدين ، ويقولون : إن رسول الله ألبس علىَّ بن أبي طالب لباس الفتوة ، ثم أمر أن يُلبسه من شاء ، ويقولون : إن هذا اللباس أُنزل على النبي في صندوق ، ويستدلون عليه بقوله تعالى : « يا بني آدم قد أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ » فهل هو كما زعموا ، أو هو كذب واحتراق ؟

ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله<sup>(١)</sup> ، عن عبد الجبار ويزعم أن ذلك من الدين ، فهل لذلك أصل أو لا ؟ ، وهل الأسماء التي يسمى بها بعضهم بعضاً ، من اسم الفتوة ، ورؤوس الأحزاب ، والزعماء لها أصل أو لا ؟ ويقوم رئيس القوم إلى الشخص الذى يلبسوه فينزع عنه اللباس الذى يلبسه ، ويلبسه الذى يزعمون أنه لباس الفتوة ، فهل هذا جائز أو لا ، وهل للفتوة أصل

(١) سيأتي الكلام في الفصل الآتى عن فتوة الخليفة الناصر لدين الله .

فِي الشَّرِيعَةِ أَوْ لَا؟ وَهُلْ أَحَلَّ أَحَدٌ مِن الصَّحَابَةِ، أَوِ التَّابِعِينَ، أَوْ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذِهِ الْفِتْوَةُ الْمَذَكُورَةُ؟ .

وَأَجَابَ ابْنُ تِيمِيَّةَ بِقَوْلِهِ : لِبَاسُ الْفِتْوَةِ ، وَإِسْقَاءُ الْمَلْحِ وَالْمَاءِ بِاطْلَلْ لَا أَصْلَ لَهُ ، وَلَمْ يَفْعُلْ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَا أَحَدٌ مِن الصَّحَابَةِ ، وَلَا عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ التَّابِعِينَ . وَالْإِسْنَادُ الَّذِي يَذْكُرُونَهُ عَنْ طَرِيقِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ إِلَى عَبْدِ الْجَبَارِ إِلَى تَمَامِهِ إِسْنَادٌ لَا تَقْوِيمُ بِهِ حِجَّةٌ ، وَفِيهِ مِنْ لَا يُعْرِفُ ، وَتَسَكَّلُ ابْنُ تِيمِيَّةَ عَنِ الْلِبَاسِ الَّذِي نَزَلَ فِي الصَّندُوقِ ، وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا كَذَبٌ لَا أَصْلَ لَهُ .

ثُمَّ قَالَ : « وَأَمَّا الشُّرُوطُ الَّتِي يُشَرِّطُهَا شِيُوخُ الْفِتْوَةِ ، فَمَا كَانَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ : كَصْدَقُ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ، وَأَدَاءُ الْفَرَائِضِ ، وَاجْتِنَابُ الْحَارِمِ ، وَنَصْرُ الْمُظْلُومِ ، وَصَلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ ؛ أَوْ كَانَتْ مُسْتَحْبَةً كَالْعَفْوِ عَنِ الظَّالِمِ ، وَاحْتِمَالُ الْأَذْى ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ ، وَأَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى السُّنْنَةِ ، وَيُفَارِقُ أَحَدُهُمَا إِذَا كَانَ عَلَى بَدْعَةٍ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ فَهَذِهِ أُمُورٌ يُؤْمِنُ بِهَا كُلُّ مُسْلِمٍ ، سَوَاءٌ شُرُوطُهَا شِيُوخُ الْفِتْوَةِ أَوْ لَمْ يُشَرِّطُوهَا . وَمَا كَانَ مِنْهَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، مِثْلُ التَّحَالُفِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَنْ يَصَادِقَ كُلُّ صَدِيقٍ الْآخِرَ فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَيَعَادِي عَدُوَّهُ فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَيَنْصُرُهُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَعَادِيهِ ، سَوَاءٌ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ أَوْ مَعَ خَصْمِهِ ، فَهَذِهِ شُرُوطٌ تَحْمِلُ الْحَرَامَ ، وَتَحْرِمُ الْحَلَالَ ، وَهِيَ شُرُوطٌ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهِيَ باطِلَةٌ .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ تِيمِيَّةَ : وَأَمَّا لِفَظُ الْفِتْوَةِ فَعِنَاهُ فِي الْلُّغَةِ (الْحَدِيثِ) أَئِ الشَّابُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « قَالُوا سَمِعْنَا فَتِيَّ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمَ » ، لَكِنْ لَمْ كَانْ

أُخْلَاقُ الْأَحَدَاتِ الَّتِينَ صَارَ كَثِيرٌ مِنَ الشَّيْوُخِ يَعْبُرُونَ بِلِفْظِ الْفِتْوَةِ عَنْ مَكَارِمِ  
الْأَخْلَاقِ كَقُولِ بَعْضِهِمْ : « الْفِتْوَةُ أَنْ تَقْرَبَ مَنْ يُقْصِيكُ ، وَتُكَرِّمَ مَنْ  
يُؤْذِيكُ ، وَتَحْنَّ إِلَى مَنْ يُسَيِّءُ إِلَيْكُ سَمَاحَةً لَا كَظْلًا ، وَمُودَةً لَا مَسَايِّرَةً » ،  
وَقُولُ بَعْضِهِمْ : « الْفِتْوَةُ تَرْكُ مَا تَهُوَى لَمَا تَخْشِي » وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . فَهَذِهِ أُمُورٌ  
حَسَنَةٌ مَطْلُوبَةٌ سَمِيتُ فِتْوَةً أَمْ لَمْ تُسَمِّ «<sup>(١)</sup> .

وَهَذِهِ نَوْعًا آخَرَ مِنَ الْفِتْوَةِ ذَكَرَهُ ابْنُ جَبِيرٍ فِي رَحْلَتِهِ مِنْ أَنَّهُ « وَجَدَ  
فِي دِمْشِقَ جَمَاعَةً مِنَ السَّنَنِ يَعْرَفُونَ بِأَهْلِ الْفِتْوَةِ ، وَيَعْرَفُونَ كَذَلِكَ بِطَائِفَةِ  
النَّبَوِيَّةِ ، وَكَانُوا حِرَابًا عَلَى الشِّيَعَةِ ، يَدِينُونَ بِالْفِتْوَةِ وَأُمُورِ الرَّجُولَةِ كُلُّهَا ، وَكُلُّ  
مِنْ أَحْقَوْهُ بِهِمْ نَحْصُلَةً يَرَوْنَهَا فِيهِ مِنْهَا ، وَلَا يَرَوْنَ أَنْ يَسْتَعْدِي أَحَدٌ مِنْهُمْ  
فِي نَازِلَةٍ تَنْزِلُ بِهِ ، وَلَمْ فِي ذَلِكَ مَذَاهِبٌ عَجِيْبَةٌ ، وَإِذَا أَقْسَمَ أَحَدُهُمْ بِالْفِتْوَةِ بِرَأْسِ  
بَقْسِمِهِ ، وَهُمْ يَقْتَلُونَ هُؤُلَاءِ الرَّوَافِضَ أَيْنَا وَجْدُوهُمْ ، وَشَأْنُهُمْ عَجِيبٌ فِي الْأَنْفَةِ  
وَالْاِتْتَلَافِ » . وَذَكَرَ ابْنُ جَبِيرٍ كَذَلِكَ هُؤُلَاءِ الشِّيَعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ  
فِرْقَةٌ تُسَمِّيُ الغَرَابِيَّةَ وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ أَشَبَهُ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ مِنَ الْغَرَابِ بِالْغَرَابِ ، وَيُنَسِّبُونَ إِلَى الرُّوحِ الْأَمِينِ قَوْلًا عَالِيَّاً عَنْهُ  
عَلَوًا كَبِيرًا . . . إِلَى فِرَقٍ كَثِيرَةٍ يَضِيقُ عَنْهَا الإِحْصَاءُ ، قَدْ أَضَلُّهُمُ اللَّهُ  
فَأَضَلَّهُمْ كَثِيرًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَسُلْطَنُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الرَّافِضَةِ طَائِفَةٌ أَهْلُ الْفِتْوَةِ الَّذِينَ  
عَرَفُوا بِالنَّبَوِيَّةِ<sup>(٢)</sup> . فَهُؤُلَاءِ جَمَاعَةٌ سَمُوا أَنفُسَهُمْ بِأَهْلِ الْفِتْوَةِ ، وَذَكَرَ ابْنُ جَبِيرٍ  
أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا حِرَابًا عَلَى الشِّيَعَةِ الرَّافِضَةِ ، وَلَمْ نُعْرِفْ هُلْ  
كَانُ هُؤُلَاءِ مِنْ فِرَقِ الصَّوْفِيَّةِ ، أَوْ مِنْ الْعَيَّارِيَّةِ ؟

(١) رسائل ابن تيمية طبعة المنار

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته بالأناضول أنه قابل جماعة من أهل الفتوة كانوا يقيمون فيما يشبه (التكايا) وبعد أن يتعشا يرقصون وهم رئيس يسمى (أخي) يضيغون الغريب ويؤونه ثلاثة أيام وهم متفرغون للعبادة كأنهم الرهبان ، وأغلب الظن أنهم جماعة من أهل الطرق الصوفية ، والدراوיש ، وأنهم سموا أنفسهم بالفتيا ، لأنهم اتخذوا من الفتوة بعض مميزاتها وهو الكرم واللذب على الغريب ، وكانت لهم أمكنته كثيرة تزيد عن العشرين يlad الأناضول رأها ابن بطوطة وزارها<sup>(١)</sup>. وقد كان الكرم منذ أن عرفت الفتوة من أظهر صفاتها ، فقد روى أن رجلاً من أصحاب محمد بن عبد الله ابن طاهر دعاه للطعام عنده دعوة احتفل لها ، فلما حضر محمد طالبه بالطعام فمطله ليتكلّم ويتألّق على ما أحبه من الكثرة والخلفة ، حتى تصرم أكثر النهار ومسّه ممداً الجموع ، فتنغض عليه يومه ، وأراد محمد السفر ، فشيّعه هذا الرجل حتى إذا دنا منه ليودعه قال له : أي أمر الأمير بشيء ؟ قال : نعم ، تجعل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث ، فسألته أن يعلمك الفتوة ، فمضى حتى دخل إلى محمد بن الحارث ، فقال له : بعثني إليك الأمير لتعلمك الفتوة ، فضحك وقال : يا غلام ! هات ما حضر ، فأتي بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة ، من أنظف الخبز وأنقاه ، وفاكهه كثيرة ... الخ<sup>(٢)</sup>. فالفتوة هنا استعملت بمعنى الكرم وهو المعنى الذي لحظه أصحاب ابن بطوطة . واستعمال الفتوة بمعنى

(١) راجع رحلة ابن بطوطة في الأناضول ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ وراجع كذلك

Hammar Purgstall. Journal Asiatique  
Encyclopidia of Islam P. 123 فـ أغسطس سنة ١٨٥٥

(٢) أدب النديم لكتشاجم وراجع كذلك

الكرم والحرية ، يلاحظ فيه المعانى التى تكسب صاحبها القوة المعنوية أكثر مما تلاحظ القوة الجسمية .

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نحصر الطوائف التى استعملت الفتوة فى القرنين الثالث والرابع وما بعدهما في :

١ - بعض فرق الصوفية ، واستعملوا الفتوة بمعانٍ مختلفة من مثل قول القشيري : «أن يكون العبد ساعياً أبداً في غير أمره» ، أو قول الفضيل «الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان» أو قول الآخر : «الفتوة إظهار النعمة وإسرار الحنة» أو كما رأها الجنيد من أنها الزهد الكامل ، أو كما رأها أبو حفص من أنها التضحية التامة . . . الخ هذه التعريفات التي مرت بنا .

٢ - بعض العيارين والشطار الذين أخذوا من الفتوة معنى الشجاعة ، والجرأة ، والتغلب على الصعب ، والاستنكاف من الاستعانة بالضعف ، أو إيدائه .

٣ - بعض أهل السنة الذين سمو أنفسهم بأهل الفتوة لمحاربة الشيعة الرافضة ، الذين زاغوا عن محجة الدين .

٤ - بعض أهل الكرم والأريحية سواء كانوا عباداً زهاداً كصحاب ابن بطوطة بالأناضول ، أو كانوا مثل صاحب محمد بن عبد الله بن طاهر .

ويخيل إلى أن شيوخ استعمال اسم الفتوة في كل هذه المعانى العديدة دليل على أن الأمة قد فقدت حيوتها ، وأنها لم تعد تمثل ذلك الجيل من الناس الذى اشتهر بكل خلل الخير كما كان المسلمون الأوائل ، وكما كان كثير من فتيان العرب في الجاهلية . وأن كل طائفة عزمت على أمر وأرادت تقوية

نفسية ، ورابة تربط بين أعضائها تمسّحوا في « الفتوة » لعلهم يحيون بذلك الفتوة العربية أو الإسلامية ، لأن لقب الفتوة يحتوى على كل معانى الرجلة الكاملة والصفات الحميدة كما عرفناه في الفصول الأولى من هذا الكتاب .

## فتوا المترفين

وئمة جماعة سموا أنفسهم كذلك أهل الفتوة ، ولكنهم لا يمدون إلى من ذكرناهم في الفصل السابق بصلة ؟ لأنهم ليسوا من عامة الشعب ، وسود الناس ، ولكنهم من أصحاب الثراء والجاه والسلطة يتزعمهم في ذلك الخليفة الناصر لدين الله<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٦٢٥ هـ ١٢٢٥ م . وكان مظهر فتواه في الخروج إلى الصيد وإجادة الرمي ، والافتتان فيه ، وتأليف جماعة من المهرة في الصيد تنتسب إليه ، وجعل لها تقاليد خاصة ، وزياً معيناً كاسند ذكر فيما بعد .

ولا شك أن الله تعالى قد أباح الصيد في قوله عز من قائل : « يا أيها الذين آمنوا ليبلوّنَكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّن الصيدِ تناهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ » ، وفي قوله تعالى : « قُلْ أَحِلَّ لَكُمُ الطَّيَّاتُ وَمَا عَلِمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ». وكان الطردُ من أهم ضروب الرياضة عند العرب ، ومن أحبتها لغفوسهم ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، وقد أكثروا شعراء الجاهلية من ذكر مواقف الصيد ، وصوّروا هذه المواقف تصويراً بلغ الغاية في الإتقان والجمال فمن ذلك قصيدة زهير المشهورة التي مطلعها :

صَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلَهُ      وَعُرَىْ أَفْرَاسُ الصَّبَابِ وَرَوَاحِلَهُ  
والتي يقول فيها وأصفاً مطاردته للصيد :

(١) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، ويحصل نسبه بأبي الفضل جعفر المقدير بالله — راجع ابن جبير ص ١٨١ .

هَبَطْتُ بِمَسْوِدِ النَّوَاشِرِ سَابِحٌ  
عَمَرٌ أَثْلَى الْخَدَّ نَهَدٌ مَرَاكِلَهُ<sup>(١)</sup>  
تَمِيمٌ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمَلَ صُنْعَهُ  
فَقَمَ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهْلَهُ<sup>(٢)</sup>  
فِينَا نُبَغِي الصَّيْدَ جَاءَ غَلَامُنَا  
يَدِبُّ وَيَخْفِي شَخْصَهُ وَيَضَائِلُهُ  
بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حُوِّي مَسَائِلَهُ<sup>(٣)</sup>  
قَدْ أَخْضَرَ مِنْ لَسٍ الْعَمِيرِ جَحَافِلَهُ<sup>(٤)</sup>  
فَقَالَ : شِيَاهٌ رَاتِعَاتٌ بَقْفَرَةٌ  
ثَلَاثٌ كَأْقَوَاسِ السَّرَاءِ وَمِسْحَلٌ  
وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ  
فَقَالَ أَمِيرِي : مَا تَرَى رَأْيِي مَا نَرَى  
أَنْخَنْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نَصَاوِلَهُ<sup>(٥)</sup>  
فَبَتَنَا عُرَاءً عَنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يُزَاؤُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلَهُ<sup>(٦)</sup>

(١) مَسْوِدٌ : مَفْتُولٌ ، وَالنَّوَاشِرُ : جَنَاحٌ نَاشِرٌ وَهِيَ عَصْبَ الظَّرَاعَ ، وَالْمَرُّ : الشَّدِيدُ  
الْفَتْلُ الْمُوْتَقِنُ الْخَلْقَ ، وَأَسْيَلٌ : سَهْلٌ ، وَالنَّهْدُ : الْفَخْمُ ، وَالْمَرَاكِلُ : جَمِيلٌ وَهُوَ حِيثُ  
يُرَكَّلُهُ الْفَارَسُ .

(٢) تَمِيمٌ : قَاتِلُ الْخَلْقِ . فَلَوْنَاهُ : فَطَمَنَاهُ إِذَا فَطَمَ فَهُوَ فَلَوْ ، وَعَزَّتْهُ : غَلَبَتْ يَدَاهُ وَكَاهْلَهُ  
سَائِرُ أَعْضَائِهِ ، وَالْكَاهْلُ : مُجَمِّعُ الْكَتْفَيْنِ فِي أَصْلِ الْعَنْقِ .

(٣) شِيَاهٌ : حَمْرَ الْوَحْشِ ، وَالْمُسْتَأْسِدُ : مَا طَالَ مِنَ النَّبَاتِ وَقَوْيٌ ، وَالْقَرْيَانُ  
جَقْرَى وَهُوَ بَحْرُ الْمَاءِ مِنَ الْرِيَاضِ مِنْ قَرِيبِ الْمَاءِ إِذَا جَعَتْهُ ، وَالْمَسَائِلُ : مَكَانٌ سَيْلٌ  
الْمَاءِ وَالْقِيَاسُ أَلَا تَهْمِزَ يَاوِهِ لَأَنَّهَا أَصْلِيَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ هَمَزُوهَا كَأَنَّهَا تَوْهِمَتْهَا زَائِدَةً كَمَا هَمَزَ  
بَعْضُهُمْ مَصَابِبَ ، وَمَسَائِلَ جَمِيلٌ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ سَالٍ فَوْزَنَهُ مَفْعُلٌ ، وَالْقِيَاسُ أَلَا تَهْمِزَ  
وَإِنْ كَانَ مِنْ مَسْلٍ فَوْزَنَهُ مَفْيِلٌ وَالْقِيَاسُ هَمْزَهُ فِي الْجَمْعِ ، وَمُسْتَأْسِدُ الْقَرْيَانُ : أَلِي مُسْتَأْسِدٌ  
نَبَاتٌ قَرْيَانٌ .

(٤) السَّرَاءُ : شَجَرٌ تَتَخَذُ مِنْهُ الْقَسْيُ ، وَشَبَهُ الْأَنْ بِالْأَقْوَاسِ ، لَأَنَّهَا اجْتَرَأَتْ  
بِرْعَى الرَّطْبِ عَنْ شَرْبِ الْمَاءِ فَضَمَرَتْ ، وَالْمِسْحَلُ : حَمَارُ الْوَحْشِ مِنَ السَّجَيلِ وَهُوَ صَوْتُهُ  
وَالْعَمِيرُ : نَبْتَ أَخْضَرٌ قَدْ غَمَرَهُ نَبْتَ آخِرٌ أَطْوَلُ مِنْهُ ، الْجَحَافِلُ : جَحَفَلَةٌ وَهِيَ مِنَ الْحَمَرِ  
كَالْشَّفَاهِ لِلْإِنْسَانِ . (٥) خَرَمٌ : أَبْعَدٌ .

(٦) الْأَمِيرُ : الَّذِي يَؤَمِّرُهُ وَيَسْتَشِيرُهُ .

ونَصْرَهُ حَتَّى اطَّاَنَ قَذَّالَهُ<sup>(١)</sup>  
وَمُلْجِمَنَا مَا إِنْ يَنْدَلُّ قَذَّالَهُ  
فَلَائِيَّا بَلَائِيَّا مَا حَمَلْنَا وَلِيَدَنَا<sup>(٢)</sup>  
وَقَلْتُ لَهُ : سَدَّدْ وَأَبْصَرْ طَرِيقَهُ  
وَقَلْتُ : تَعَلَّمَ أَنَّ لِلصَّيْدِ غَرَّةً  
فَتَبَعَّمَ آثارَ الشَّيَاهِ وَلِيَدَنَا<sup>(٣)</sup>  
فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ نَظَرَهُ فَرَأَيْتَهُ  
يُثْرَنَ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ  
فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ إِلْفَهٍ<sup>(٤)</sup>  
فَرَحَنا بِهِ يَنْضُوا الجَيَادَ عَشَّيَّةً  
وَمَا مِنْ شَاعِرٍ مُشْهُورٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا تَغْنَى بِوقْتِ الصَّيْدِ ، وَمَطَارِدَهُ حُمْرَ  
الْوَحْشِ أوَ الشِّيرَانِ الْوَحْشِيَّةِ ، وَكُلُّ هَذَا يَدِلُّ عَلَى مُحِبَّةِ الْعَرَبِ لَهُذِهِ الرِّيَاضَةِ ،  
وَإِنْ كَانَ حَيْوانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مُحَدُودًا ؛ وَقَدْ عَرَفُوا مِنْهُ الْأَسَدَ ، وَالنَّفَرَ ،  
وَالْذَّئْبَ وَالثَّعلَبَ ، وَالْفَهَدَ ، وَالْغَرَالَ وَالنَّعَامَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ فَتَحُوا  
الْبَلَادَ الْكَثِيرَةَ ، وَرَأَوْا حَيْوانَهَا وَتَنْوِعَهُ وَاهْتَمَّمُ أَهْلُهَا بِالصَّيْدِ ، الْقَدَامِيُّ مِنْهُمْ  
وَالْمَحْدِثِينَ ؟ لَأَنَّ الْآشُورِيِّينَ مُثَلًا قدْ نَقَشُوا عَلَى الْأَحْجَارِ كَثِيرًا مِنْ مَنَاظِرِ

(١) قَذَّالَهُ : مَعْقَدُ عَذَارِهِ فِي رَأْسِهِ .

(٢) يَحْفَسُ الْأَكْمَ : يَخْرُجُ كُلُّ مَا فِيهَا .

(٣) تَوَالِيَهُ : رَجْلِيهِ .

(٤) النَّسَاءُ : عَرَقُ ، وَفَائِلَهُ كَذِلِكَ .

الصيد ، ورأى العرب من هذه الآثار أن الصيد كان رياضة الملوك ، وفيه كانت تتاح لهم الفرصة لإظهار بطولتهم وشجاعتهم سواءً كانوا يمارسونه بالسيف أم بالحراب ، وعلى ظهور الخيل أم بمساعدة الكلاب ، أم بالسهام ، وكان من الطبيعي أن يتطلع سرّاة العرب إلى المكانة الأولى في الصيد حتى يَبْزُوا أهل البلاد التي فتحوها في ذلك الميدان وهم الأمة الغالبة ؛ ليبرهنوا على شجاعتهم ، وسبقهم وطول باعهم ، وقد افتقنوا في الصيد أيّما افتنان. فمن الطرق التي ابتدعواها في صيد الأسد : أن الواحد منهم كان يمتهن حصاناً مدرّباً لمقابلة الأسود ، وعندما يهجم عليه الأسد يجري ، ويسرع الحصان في جريه حتى يُجهَّدَ الأسد ، فإذا ما أحس الفارس من الأسد التعب دار حوله بحصانه ، فإذا اقترب منه الأسد سدد إليه سهمه ، فيصييه ، ولكن ذلك لا يعوقه عن متابعة الحصان ، والفارس يوالي رميه بالسهام حتى تخور قوى الأسد ويُصرّع<sup>(١)</sup> ، وقد دربوا لصيد الغزلان والنعام وما شاكلها الكلاب السلوقة ، وكانت معروفة منذ الجاهلية لديهم ، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني يصف مطاردة ثور وحشى :

مَطَرِّدٌ أَفْرَدَتْ عَنْهُ حَلَائِهِ

مِنْ وَحْشٍ وَجْرَةً أَوْ مِنْ وَحْشٍ ذِي قَارَ<sup>(٢)</sup>

وَبَاتَ ضِيقًا لِأَرْطَاهِ وَأَجَاهَ مَعَ الظَّلَامِ إِلَيْهَا وَابْلُ سَارَ<sup>(٣)</sup>

(١) الرياضة عند العرب محمد علوى ص ٣ .

(٢) وجرة : موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلاً ما فيها منزل فيه مررت الوحش (القاموس)

(٣) الأرطاة : شجرة لها ثمر كالعناب .

وأَسْفَرَ الصِّبْحُ عَنْهُ أَيْ<sup>١</sup> إِسْفَار  
عَارِيَ الْأَشْاجِعَ مِنْ قُنَّاصَ أَمَار  
مَا إِنْ عَلَيْهِ شَيْبٌ غَيْرُ أَطْهَارٍ<sup>(١)</sup>  
طَولُ ارْتِحَالٍ لَهَا مِنْهُ وَتَسْيَار  
يَسْعَى بِغُصْفٍ بِرَاهَا وَهِيَ طَاوِيَةٌ  
وَيَقُولُ أَبُونَوْاسٌ وَاصْفًا هَذِهِ الْكَلَابُ السَّلُوقِيَّةُ :

أَنْتُ كَلْبًا لَيْسَ بِالْمُسْبُوق  
جَاءَتْ بِهِ الْأَمْلَاكُ مِنْ سَلُوق  
إِذَا عَدَا عَدْوَةً لَا مَعْوَق  
يَشْفِي مِنَ الْطَّرْدِ جَوِيَّ الْمُشْوَق  
أَنْزَلَهَا دَامِيَّةً الْخَلْوَقُ  
فَكُلْ صَيَادُ بِهِ مَرْزُوقٌ

وَقَالَ كَذَلِكَ :

أَعَدَّتْ كَلْبًا لِلْطَّرَادِ فَطَّا  
وَجَاذِبَ الْمِقْوَدِ وَاسْتَلَظَّ  
يَكُظُّ أَسْرَابَ الظَّبَاءِ كَظَّا  
يَحُوزُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ حَظَّا  
وَقَدْ عَلِمُوا الْبُزَّةُ وَالصَّقُورُ لِلصَّيْدِ ، وَذَكَرَ أَسْـمَةُ بْنُ مَنْقُذٍ فِي كِتَابِهِ  
(الاعتبار) كثِيرًا مِنْ طُرُقِ الصَّيْدِ وَالْحَيْوَانِ الْمُعْلَمِ لِلصَّيْدِ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَنْ  
وَالدَّهِ<sup>(٢)</sup> : « وَكَانَ يَتَكَلَّفُ فِي تَسْيِيرِ قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْبَلَادِ لِشَرَاءِ الْبُزَّةِ ،

(١) لَحْمٌ : مَحْبُ لِلْحَمْ وَيُشْتَهِيهُ .

(٢) الاعتبار ص ١٩٩ إِخْرَاجُ فِيلِيبِ حَتَّى ؟ طَبْعَةُ جَامِعَةِ بَرْنَسْتُوْنَ سَنَةُ ١٩٣٠ .

حتى إنه أندى إلى القسطنطينية من أحضر له بزاءً منها ، وحمل الغلام معهم من الجمام ما ظنوا أنه يكفي الزيارة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا ، حتى فرغ ما معهم من الجمام ، فصاروا يطعمون الزيارة لحم السمك ، فأثر ذلك في أججتها ، وصار رئيسها ينكسر ويتفصف فلما وصلوا إلى شيزر<sup>(١)</sup> كان فيها بزاء نادرة ، وكان في خدمة الوالد بازيار (مطبع الباري) طويل اليد في إصلاح الزيارة وعلاجها يقال له (غنايم) ، فوصل أججتها واصطاد بها .

وقد ذكر أسماء طرق الصيد في دمشق ، وفي مصر ، وفي غيرها من البلدان كاذكر صيد الأرانب ، والخنازير ، وحمر الوحش ، والوز ، والخيار وغير ذلك<sup>(٢)</sup> ! وليس من همى هنا أن أفيض في هذا الباب ، فحسبى ما ذكرت : حين أترف العرب ، وانصرفوا عن الجنديه ، كان الصيد هو الرياضة الوحيدة التي يظهرون فيها بطولتهم ، وكانوا لا ينفكون عن تعلم الرماية وإجادتها في كل صقع حلوا به ، حتى في المدينة المنورة ، فقد روى أن فتيان المدينة كانوا يتعلمون الرماية أيام بنى أمية ، وقد تعلم محمد الباقر ذلك ، وهو في حداثته ، فلما وفد على عبد الله بن مروان ، والقوم يرمون أراد إحراجه وطلب منه أن يرمي كما يرمي الناس ، فاعتذر ، فلما ألح عليه رمى ، وفاق كل الموجودين ، فقال له الله درشك ! أنت أرمي العرب والعجم ، ثم قال له : يا محمد لا يزال العرب والعجم تسودها قريش ما دام فيهم مثلك<sup>(٣)</sup> .

(١) شيزر بلدة على نهر العاصي على بعد عشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من حماة بسوريا أو على مسافة ساعة منها بالسيارة ، وكانت موطن بني منقذ ، عاشوا في قلعة حصينة بها هي قلعة شيزر .

(٢) راجع الاعتبار لأسماء بن منقذ الكنافى من ص ١٩٩ — ٢٢٦

(٣) صحيفة الأبرار ص ٣٦١ ج ١

وقد أسس هؤلاء الأشراف في أخرىات الدولة العباسية نظاماً سمه نظام الفتوة ، وذلك على يد الناصر لدين الله ، كما ورد في كلام « حاجى خليفة » في كشف الظنون عن سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م من أن الشيخ عبد الجبار ألبس الخليفة الناصر لباس الفتوة ، ولم يكن لهذا اللباس هو ما عرفناه عن فرسان القرون الوسطى ، بل كان حذاً طويلاً من الجلد ، وقد وصف ابن جبير الناصر لدين الله بأنه كان لا يلبس ثوباً أبيض شبيه القباء ، برسوم ذهبية فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك ، مما هو كالفنك وأشرف ، متعمداً بذلك زى الأتراك<sup>(١)</sup>

ويقولون في لباس الفتوة هذا ما ذكرناه آنفًا من أنه موروث عن سيدنا علي ، ويدركون لذلك شجرة طويلة تصل إلى الناصر لدين الله ثبتتها هنا لطراحتها :

علي بن أبي طالب

سلمان الفارسي

صفوان بن أمية

حذيفة بن اليمان

المقداد بن الأسود

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٢

أبو العز التوبي

الحسن البصري

الحافظ الكندي

عوف الكناني

أبو مسلم الخراساني

الشريف أبو العز

هلال النبهاني

بهرام الديلمي

روزبة الفارسي

الأمير حسان بن ربيعة المخزومي

الأمير جوشن المزارى

أبو الحسن النجاشى

أبو الفضل بن الترهان

النعمان سلمان

شبل

الفضل بن زياد الفارسى

الفضل

الملا ميراوي

ناصر الدين بن أبي نعجة

أبو علي الصوفى

مهنى العلوى

نَعَّافٌ

أبوالحسن بن الشاربان

أبو بكر الجحش

عمر الرهاض

علي بن دغيم

عبد الجبار بن صالح

الخليفة الناصر لدين الله<sup>(١)</sup>

وقد أرسل الناصر ل الدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا كأس الفتوة له ، ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق<sup>(٢)</sup> ، وهو كرات صغيرة من طين أو رصاص يرمي بها عن قوس لصيد الطير أو نحوه ، وسموه أيضاً الاسم الفارسي وهو الجلاهق<sup>(٣)</sup> ، وقد اقتبس العرب لعبه رمي البندق عن الفرس في أواخر أيام عثمان<sup>(٤)</sup> وجاء في تاريخ ابن الفرات عن الخليفة الناصر ل الدين الله :

(١) راجم في تاريخ الملك الناصر ل الدين الله : الفخرى ص ٢٣٦ وأبو الفداء ، و حاجى خليفة في كشف الظنون . و 58 Quatremere. P. وكذلك النهج السديد لابن أبي الفضائل

(٢) تاريخ المدن الإسلامي لجورجى زيدان ج ٥ ص ١٥٣

(٣) الفخرى ص ٤٩ ط مصر . (٤) ابن الأثير ج ٣ ص ٩٠

« وكان يميل إلى رمي البندق ، والطيور المناسب ، ولبس سراويل النبوة والفتوة ، وكانت ساير ملوك الأطراف أن سبقوه إليه في رمي البندق وفي الفتوة ، فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من لبس منه السراويل ، ويرمى له ، فلبس سائر ملوك الأفق سراويلات الفتوة له ، وادعوه في رمي البندق . ووصل رسول إلى حماة في أيام المنصور الأيوبي صاحب حماة ، وأمره بأن يلبس للخليفة ، ويجلس الأكابر له ، فأمر الملك المنصور صاحب حماة الشيخ سالم بن نهر الله ابن واصل الشافعى الحموى بعمل خطبة في الفتوة ، فعمل خطبة بدعة في هذا المعنى ، واستشهد بأيات القرآن العزيز منها قوله تعالى « إنا سمعنا فتىً يذكرهم » ومنها قوله تعالى : « إِذْ أُوْيَ الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ » ، وغير ذلك من الأخبار والآثار . فقررت هذه الخطبة بحضور الملك منصور صاحب حماة والأكابر ، وكان قاضي حماة في ذلك الزمان القاضي برهان الدين أبواليسر بن موهوب ، فأمره الملك المنصور بلبس سراويل الفتوة في المجلس ، فلبسها ولبسها جماعة ، وكذلك منع الدعوة بالبندق إلا له ، والطيور المناسب في جميع البلاد إلا له ، وأجاب الناس بالعراق ، وساير الأمصار إلى ذلك ، ما خلا رجلا واحداً راماً بالبندق من أهل بغداد ، فإنه امتنع من إجادته ، وهرب من العراق ، ولحق بالشام ، فأرسل إليه الخليفة يرغبه بالأموال الجزيلة ليرمي عنه ، وينسب في الرمي إليه ، فلم يفعل ، فأنكر ذلك عليه بعض الناس فقال يكفيه خرآً أنه ليس في الأرض أحد لا يرمي عن الخليفة إلا أنا»<sup>(١)</sup> .

(١) راجع تاريخ ابن الفرات وكذلك : M. Le Baron de Hammar Purgstall. Journal Asiatique, Aout — Sept. 1855. P. 282.

وذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون أن الاحتفال بدخول الشاب فى سلك الفتىان على عهد الناصر لدين الله كان مصححاً بشرب كأس الفتوة ، كما أخذ الناصر جنده بالتدريب المتواصل على فنون الرياضة البدنية المختلفة<sup>(١)</sup> ، لتقوى أجسامهم ، ويشتد بنائهم . ولعل رمى البندق هذا كان من الرياضة التى أخذ بها نفسه وجنده ، وكان للفتىان لباس خاص كاذكينا ، وأهم ما يميزهم هو سروال الفتوه ، وهو أليق بالفرسان ، ويساعدهم على سرعة الحركة ، وركوب الخيل يُسرّ وسهولة . وكانت بين الفتىان روابط وثيقة . ولا يدخل فى هذا النظام أحد إلا بعهد من الخليفة أو من يكل إليه هذا<sup>(٢)</sup> .

أما رياضة رمى البندق التي ورد ذكرها كثيراً ، فهي لعبة فارسية أخذها العرب عن الفرس في أواخر أيام عثمان بن عفان ، ومارسوها زمناً ، ولكنهم كانوا يعدون ظهورها منكراً يجب اجتنابه ، وإن ظلمة من يزاوها ، وكان للرشيد فرقه تسير بين يديه ، وترمى بالبندق من يقف في طريق موكيه . ولما جاء الناصر لدين الله اهتم بهذه الرياضة اهتماماً عظيماً . والبندق : كرات دقاد من الطين أو الحجارة أو الرصاص ، وترمى بالقوس ، وكان الفتىان يخرجون جماعات إلى ضواحي المدن ، ويُطيرون الجام ثم يرمونه بالبندق . ثم افتوا في رمى البندق على مر الأيام فرمواها بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخرة الأنابيب ، فلما اخترع البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة (بندقية) نسبة إليه<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو الفداء تاريخ الناصر لدين الله ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون وكذلك J. A. Jan 1849.

(٢) المراجع السابقة نفسها ، وكذلك H. Ritter in Der Islam, vol. x (1920), PP. 244, 50.

(٣) الرياضة عند العرب لـ كامل علوى ص ١٦٤ .

ولست أدرى حقاً هل كان تأليف الناصر لدين الله نظام الفتوة على هذا الوضع للرياضة والترف لا غير ، أو أن هناك دوافع أخرى دعت إليه ؟ ! أعتقد أن الناصر وإن كان من هواة الرياضة إلا أن عصره كان مليئاً بحوادث جسيمة فقد كان معاصرًا لصلاح الدين الأيوبي وال الحرب على أشدتها ضد الصليبيين ، والمسلمون جميعاً مجندون في هذه الحرب المقدسة . وشعار الفتوة دائمًا التضحية والجهاد ، والمحافظة على الشرف ، فهل كان هذا التدريب الرياضي ، ولباس الفتورة الخاص ، وشرب كأس الفتوة — دليل الرابطة والدخول في العهد — والمهارة في رمي الطير بالبندق كلها لتتأليف فرقة خاصة تنتسب إلى الخليفة ، وتستمد قوتها الروحية من الانتساب لعلي بن أبي طالب كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وهو من هو في الجهاد والبلاء في سبيل الله ، حتى تكون هذه الفرقه القوية المعدّة أتم الإعداد جسماً ورمياً وروحًا من خير جند المسلمين الذين يحاربون الصليبيين ، أو أن هذا النوع من التدريب ، والأخذ بنظام الفتوة كان مجرد اللهو وقتل الوقت ؟ ! .

يخبرنا ابن تغري بردي في تاريخه : أن الناصر لدين الله أرسل في السنة التي توفي فيها وهي سنة ٦٢٢ هـ رُسُلًا إلى نور الدين ، وإلى الملك العادل شقيق صلاح الدين ، وإلى ابنه الملك الصالح ، وإلى الملك شهاب الدين حاكم غزة ومعهم كأس الفتوة وسراريلها ؛ لكن ينظموا في سلك فتيانه<sup>(١)</sup> ، وهؤلاء كما نعلم كانوا من كبار القادة في الحروب الصليبية .

ولعل هذا يؤيد ظننا بأن نظام الفتوة الذي أنشأه الناصر لدين الله كان

(١) ابن تغري بردي مخطوطة في مكتبة باريس راجع Aout-Sept 1855.p.J.

الغرض منه إيجاد فرقة قوية لمحاربة الصليبيين ، وأنه لم يكن الغرض منه الترف والصيدُ واللهو فحسب ، فإن المهارة في الصيد ، ومقاتلة الوحوش ، وإحکام الرماية تؤهل كلها للتفوق في الفروسية . ولقد كان ثمة فارس آخر شجاع معاصر الخليفة الناصر ألا وهو أسامة بن منقذ ، وكان من الشجعان الأقوياء حتى سماه الذهبي ( أحد أبطال الإسلام<sup>(١)</sup> ) . وقال عنه ابن الأثير ، « إنه كان من الشجاعة فيغاية التي لا مزيد عليها<sup>(٢)</sup> » ، وقال أسامة عن نفسه في كتاب الاعتبار : « فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وطعنت بالرماح ، وجُرحت بالسهام<sup>(٣)</sup> » . وشهد أسامة قتال الفرنجة ، وخاض المعارك العديدة في شيزر وحماء من مدن سوريا الشمالية ، وعسقلان وبيت جبريل من أعمال فلسطين ، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفي ديار بكر والموصى ، فلا غرو أن أصبح اسمه في التاريخ الإسلامي مرادفاً للبطولة<sup>(٤)</sup> . ومع كل هذا فقد كان مغرماً بالصيد ، وقد خصّه في كتابه بفصل طويلاً استهلته بقوله ممثلاً :

وَلِلَّهِ مِنْ جَانِبٍ لَا أُضِيعُهُ وَلِلَّهِ مِنْ وَالْبَطَالَةِ جَانِبٌ  
وكان مولعاً بصيد الأسد ، والحيوان الضارى كالفهد والنمر ، وقد قال في كتابه الاعتبار : « وقد شهدت قتال الأسد في موافق لا أحصيها ، وقتلت عدّة منها لم يشركني أحد في قتلها<sup>(٥)</sup> » .

ولعل سيرة أسامة بن منقذ وفروسيته ، واهتمامه بالصيد هو ووالده وعمه ،

(١) دول الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٢٠٧ (٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٧١

(٣) الاعتبار ص ١٦٣ (٤) فيليب حتى مقدمة كتاب الاعتبار .

(٥) الاعتبار ص ١٤٤ .

وقد كانوا كذلك من الأبطال تبين لنا ، أن نظام الفتوة الذى أنشأه الناصر لدين الله كان خاصاً بطبقة الأشراف والمرتفين ، وأنهم كانوا يلهون بالصيد ويفيدون قوة ودرة ، وكانوا يقاتلون الأعداء إذا دعاهم داعى القتال ، وإن لم يكن ثمة اتصال — فيما أعلم — بين أسامة وال الخليفة الناصر بعد الشقة بين مقاميهما ، فال الخليفة الناصر كان ببغداد ، وأسامة عاش في مصر حقبة ثم في شيراز ودمشق ، وكان منهمكاً في حروبه مع الصليبيين ..

ولما مات الخليفة الناصر ل الدين الله في سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ مـ ، لم يبطل نظام الفتوة الذى وضع تقاليده من بعده ، فهـا نحن أولاء نرى الخليفة المستنصر (حفيد الناصر ل الدين الله) يسير على سنته ، ويُنعم على من يشاء بلباس الفتوة أو يَكُل إلى أحد خاصته من له سابقة وقدم في الفتوة ليتوب عنه في ذلك ، فقد رُوى في حوادث سنة ٦٢٦ هـ «أن فخر الدين أبو طالب أحمد بن الدامغاني ، والشيخ أبو البركات عبد الرحمن ، والأمير فلك الدين محمد بن سقر الطويل ، ذهبوا إلى جلال الدين منكوبـري بن خوارزمشاه ، وهو يومئذ على مدينة (خلات) محاصراً لها ، ومعهم تشريفات ، وكراع ، ولباس الفتوة ، وقد وَكَل الخليفة المستنصر (فخر الدين الدامغاني) أو الشيخ أبو البركات تَفْتِيـه ، وكان هؤلاء الثلاثة المرسلون صادفوـه خارج مدينة «خلات» للحصار فلـمـعوا عليه ما أرسـلـ به الخليفة إليه ، وألبـسوـه سراويل الفتـوة »<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ٦٣٤ هـ حضر عبد الله الشرمسـاحـي مدرس المـالـكـيـة بالـمـدـرـسـة

(١) راجـعـ : الحـوـادـثـ الـجـامـعـةـ وـالـتـجـارـبـ النـافـعـةـ فـىـ المـائـةـ السـابـعـةـ لـكـمالـ الـدـينـ أـبـىـ الـفـضـلـ عبدـ الرـازـقـ بـنـ الغـوـطـىـ الـبـغـادـىـ صـ — ٨٠ — بـغـادـ ١٩٣٢ وـرـاجـعـ كـذـلـكـ (ـ الفتـوةـ وـالـفـتـيـانـ قـدـيـعـاـ)ـ مجلـةـ لـغـةـ الـعـربـ إـبـرـيلـ ١٩٣٠ـ لـمـصـطـفىـ جـوـادـ .

المستنصرية (بالبدرية) عند شرف الدين إقبال الشرابي ، وأنعم عليه بلباس الفتوة نيابة عن الخليفة<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ٦٤٦ هـ توفي جلال الدين عبد الله بن المختار العلوى الكوفى ، « وكان عريق النسب ، كبير القدر ، أديباً فصيحاً ، حفظ القرآن في نيف وخمسين يوماً ، وكان يحضر عند الخليفة الناصر في رمي البندق ، والفتوة ، ولعب الحمام ، وكان يُفْتَى ويُرْجَعُ إلى قوله ، ولم يزل كذلك إلى أيام الخليفة المستنصر بالله فأشار إليه أن يلبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين على عليه السلام ، وأفتقى بجواز ذلك ، فتوجه الخليفة إلى « المشهد ولبس السراويل عند الصريح الشريف ، وكان هو النقيب في ذلك »<sup>(٢)</sup> .

وهكذا توارث خلفاء الناصر لدين الله نظام الفتوة هذا حتى زمن المستعصم آخر خلفاء بني العباس في الشرق ، حين دمر هولا كو المغولى بغداد وقتل المستعصم وأهل بيته سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م . كانت الخلافة قبل عهد الناصر لدين الله تختضر ، وكان الخلفاء قد فقدوا من قبله كل سلطان وقوة ، ولم تعد لهم إلا سلطة اسمية ، وخضعوا خضوعاً تاماً للسلاجقة ما يقرب من قرن ونصف من الزمان ، وفي معظم هذه الحقبة كانت الحروب الصليبية على أشدّها في سوريا وفلسطين ، ومن العجيب أن هذه الحرب الدينية الاستعمارية التي كانت تهدد الشرق العربي كله ، لم تجد أى اهتمام من السلاجقة أو الخلفاء العباسيين . ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، أقبل وفد من الشام إلى بغداد مستغيثاً بأولى الأمر ، وقد أكثروا الوفد من البكاء والعويل ، وذكر ما أصاب المسلمين

(٢) نفس المصدر .

(١) الحوادث الجامدة ص ٨٠

في القدس من الأذى البالغ ، ولكنَّ ذلك كله لم يؤثر في نفوس السلاجقة أو الخليفة ، وعاد الوفد من غير أن يقضى شيئاً<sup>(١)</sup> . وفي سنة ١١٠٨ م حاصر الفرنجة طرابلس ، فذهب وفد من أهلها إلى بغداد يستغيث بالخليفة ، وبالسلطان السلجوقي ، ولكنه رجع بدون جدوى .

وحين استطاع صلاح الدين الأيوبي — الذي اشتهر بمحاربته للصلبيين — القضاء على الدولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م — دعا للخليفة العباسى المستضيء — لأن صلاح الدين كان سنياً — فاعترفت سوريا ومصر حينذاك بسيادة خلفاء بنى العباس الاسمية . ولما انتصر صلاح الدين على الفرنجة في معركة حطين المشهورة أرسل صلاح الدين إلى الناصر لدين الله العباسى الذى تولى الخلافة بعد المستضيء في سنة ٥٧٥ هـ عدداً من أسرى الفرج ، وجزءاً من الغنائم فيها صليب من البرونز مغشى بالذهب ، قيل إنه كان يحوى قطعة من عود الصليب الحقيقى ، فدفن الخليفة هذا الصليب ببغداد<sup>(٢)</sup> .

وقد حاول الخليفة الناصر لدين الله محاولة ضئيلة لآخر مرة أن يحيى معالم الخلافة ، ويعث فيها شيئاً من النشاط والقوة ، وقد وجد الوقت ملائماً ؛ لأن أمراء السلاجقة قد بدأوا يتخاصمون فيما بينهم ، ويکيد بعضهم لبعض ، ولأن صلاح الدين الأيوبي الذى ملك مصر والشام ، قد اعترف به ، فحاول استرجاع شيء من سلطنته المفقودة ببغداد ، فظهر بمظهر الأبهة والبذخ ، وأقبل على تشييد الأبنية ، وأسس نظام الفتوة على ما ذكرنا آنفاً ، وكان هذا النظام يضم رجالاً

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٣ . وأبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين ج ٢ ص ٧٦ ، ١٣٩ .

من ذوى المناصب والجاه أكثراهم من ينتسبون لعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه<sup>(١)</sup> ، وكان الغرض منه تهيئة طائفة قوية من الفتىـان علـهم يـساعدـون فـي الحـروـب الصـليـبية .

كانت محاولة الناصر هذه آخر مظهر من مظاهر البطولة العربية الإسلامية وإن شابها كثير من الترف واللهو ، والانصراف عن الجد ، والمشاركة الفعلية في القتال ، وقد أراد أن يبعث روح الحماسة في نفوس من حوله من الأشراف ذوى المناصب الكبيرة في الدولة ، ولكن هيهات ! فإن الأمة قد دَبَّ فيها الانحلال والوهن ؛ لأن العرب الفاتحين قد اختلطوا على مر الأجيال بالأعجم المغلوبين ، فقدوا بذلك صولة الغالب ، وصفات السيادة ، وبانحطاط الروح القومية بين العرب ضفت أنفـهم وقوـامـهم المعـنـويـة ، ولم يـطلـ الأمـر بـدولـهمـ حتى غـلـبـهمـ عـلـيـهاـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ خـضـعواـلـهـمـ قـبـلـ .ـ وـكانـ لـلتـسـرىـ ،ـ وـماـرـاقـفـهـ منـ نـظـامـ الـحرـيمـ وـالـخـصـيـانـ ،ـ وـاقـتـنـاءـ الـجـوارـىـ وـالـغـلـمـانـ أـثـرـ فـيـ تـقـوـيـضـ معـنـوـيـاتـ الـأـمـةـ ،ـ وـإـفـسـادـ الرـجـالـ ،ـ وـذـهـابـ المـرـوـءـةـ مـنـهـمـ .ـ وـبـتـكـاثـرـ السـرـارـىـ تـكـاثـرـ الـمـولـدـونـ مـنـ بـنـيـنـ وـبـنـاتـ ،ـ مـنـ أـمـهـاتـ مـخـلـفـاتـ فـيـ بـلـاطـ الـخـلـافـةـ ،ـ وـاتـسـعـ الـمـحـالـ للـتـحـاسـدـ وـالـفـتنـ ،ـ زـيـادـةـ عـنـ اـنـغـاسـمـهـمـ فـيـ ضـرـوبـ الـلـهـوـ وـالـتـرـفـ وـالـتـخـنـتـ ،ـ وـعـكـوفـهـمـ عـلـىـ مـجـالـسـ الشـرـابـ وـالـغـنـاءـ .ـ

قضـتـ هـذـهـ عـوـاـمـلـ الـمـتـعـدـدـةـ عـلـىـ نـشـاطـ الـأـسـرـةـ الـعـبـاسـيـةـ الـحـاكـمـةـ ،ـ وـأـورـثـ أـوليـاءـ الـعـهـدـ ضـعـفـاـ جـسـديـاـ وـعـقـلـيـاـ وـخـلـقـيـاـ .ـ وـإـذـاـ أـضـفـتـ إـلـىـ ذـلـكـ كـلـهـ

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٦٨ ، والفارسي ص ٤٣٤ ، وابن جبير ص ١٨٢ ، و Thorning. Beitrage Zur Kenntnis des islamischen Vereinswesens... (Berlin, 1913).

العوامل الاقتصادية السيئة التي أحاطت بالخلافة العباسية في آخر عهدها ، حين استبد أمراء الولايات بشئون ولاياتهم ، وتعالوا في فرض الضرائب على رعاياهم ، وحرموا الخليفة أي سلطة إلا المظاهر الاسمي ، كما حرموه الأموال ، إلا ما يكفيه وأهل بيته ، وأدى ذلك إلى ضعف الخلفاء مادياً ونفسياً ، وإلى ترك الفلاحين لقراهم وهجرهم أراضيهم هرباً من الضرائب الفاحشة .

ولم يطل أمد الخلافة بعد الناصر لدين الله فقد ولتها بعده ابنه الظاهر مدة عام ، ثم حفيده المستنصر ، ثم المستعصم . مات الناصر سنة ٦٢٢ هـ ، وقضى هولاً كوم على الخلافة العباسية بضربة قوية سنة ٦٥٦ هـ ، وبذلك انتهت فتوة الناصر لدين الله ، التي سميتها فتوة المترفين ؟ لأنه ومن تبعه في نظامه هذا كانوا من المترفين حقاً ، وكانت فتوته هذه وثبة الحاضر الذي يلفظ آخر أنفاسه ، ولم تعمّر إلا أمداً يسيراً ، ولم تشرّم الثمرة المرجوة ، لأن جسم الخلافة ، بل جسم الأمة الإسلامية في المشرق كان ضعيفاً ، وليس من الهين إعادة العافية لمن وهن عظمه ، ودب فيه دبيب الفناء ، وأنهكته أراض الشيشوخة .

ولكنَّ نظام الفتوة والفروسيَّة وتقاليده الذي وضعه الناصر لدين الله قد انتقل إلى طائفة أخرى من المسلمين هُم المالِيك في مصر . وكان المالِيك غالباً من الشراكس والأتراك ، وهم أجانب عن مصر وعن العالم العربي ، وكانوا يحترفون الجنديَّة ، بل يُعدُّون إعداداً خاصاً للتفوق في الجنديَّة وفنون الفروسيَّة وقد تبرز مواهب أحدهم ، ويَبْدُأُ أقرانه ، فيصير صاحب السلطة ؛ إذ لم يكن الملك بينهم وراثياً إلا نادراً ، وإنما الغلبة للقوى ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تُكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظه السعيد يغير من

أخلاقه ، فهو في منصب الوالي تتممه في الغالب روح العبد<sup>(١)</sup> ». وهذا يدلنا على قيمة التفوق في ضروب الفروسية ، وأنه وحده السبيل للتملك والوصول إلى الولاية ، وكان كل ملوك ذي شأن يقتني عدداً كبيراً من المالك ، ويدربهم على فنون الحرب ، وشئون القتال ، والمهارة في الضرب بالسيف ، وركوب الخيل . والحق الذي لا مرأء فيه أن هؤلاء القوم — لتفرغهم لشئون الحرب — قد حسّنوا كثيراً في الفروسية العربية ، ووضعوا لها قواعد وأنظمة دقيقة صارمة وفي ذلك يقول الأستاذ (كاترمير) في تعليقاته على كتاب السلوك للمقريزى قائلاً عن المؤرخ المصرى أبي الحasan : « إن لعبة المناورة بالسهام بين الفرسان هي من ابتكارات ممالئك قلابون (القرن السابع الهجرى) وأن أجدادنا العرب وإن كانوا يلعبون هذه اللعبة إلا أن طريقة كانت مختلفة<sup>(٢)</sup> » .

كانوا يتطعون الجواد عارياً وهو بعد صغير ، ويقفزون على الجواد قفزاً ، ومنه إلى الأرض بدون سرج ، ثم وهو مُسرج ، وبدون سلاح ، ثم بعد تهم كاملة حتى يكتسبوا السيطرة والمرونة على الركوب . أجل ! إن العرب منذ أقدم الأزمنة كانوا يفعلون ذلك ، وقد قال العمرى : كان عمر بن الخطاب يأخذ يده اليمنى أذن فرسه اليسرى ثم يجمع جراميزه<sup>(٣)</sup> ، ويثبت فكائماً خلق على ظهر فرسه . وقال عمر بن الخطاب كذلك : « لن تخور قوىً ما كان صاحبها

(١) راجع The Begining of The Egyptian question and The Rise of Mohamed Ali by Prof Shafik Ghorbal. P. 2

(٢) راجع أبو الحasan بن تفرى بردى في النجوم الزاهرات ج ٨ ص ١٦ وكذلك Quatremér : Hist de Sultans Mamlouks par Makrizi P. 58.

(٣) جراميزه : بدنه .

يَنْزِعُ وَيَنْزُو<sup>(١)</sup> » يعني ينزع في القوس ، وينزو على الخيل من غير استعانة بالوثب . فليس ما قام به المالك جديداً في هذا الشأن ؛ لأن طبيعة العرب في صحرائهم — كما ذكرنا — جعلتهم فرساناً محنكين بالفطرة والبيئة وكأنما عندهم المتنبي بقوله يصف الخيل وفرسانها :

فَكَانُوا خَلَقْتَ قِيَاماً تَحْتَهُمْ وَكَانُوا خَلَقْوَا عَلَى صَهْوَاتِهَا  
وَكَانَ الْمَالِيكُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ التَّرَيْنِ

وإذا كان لهم من ميزة فهي أنهم تدرّبوا على كل أنواع الفروسية من الرمي بالقوس ، والضرب بالسيف ، فضلاً عن الترين البدني الصارم تدرّبوا منتظماً متواصلاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ولا مبالغة بالأخطار ، وقد أفردوا الدراسة الفروسية الكتب والرسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن الخطوطات الأوربية ، ولم تنشر حتى اليوم من ذلك : « نهاية السؤال والأمنية في تعليم الفروسية » تصنيف بكتوت الرماح خازنadar الملك الظاهر<sup>(٢)</sup> . وكتاب الفروسية برسم الجهد تأليف محمد بن أحمد بن لاجين الحسامي الطرابلسى<sup>(٣)</sup> ، والباب الأول منه : « في ركوب الخيل والنزول بالرمي » والباب الثاني : « في المناصب الحرية » والباب الثالث : في الحروب وعلم الفروسية<sup>(٤)</sup> . وقد أنشأ سلاطين المالك كثيراً من الميدانين للألعاب الفروسية ، وكان الميدان من السعة بحيث يغشاه بعض مئات من الفرسان في وقت واحد . وكثيراً ما قامت المبارزة بين الفرسان بعضهم

(١) مسالك الأ بصار لشہاب الدین احمد بن فضل الله العمری ج ٥

(٢) مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٣٦٣١ Orient

(٣) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٨٨٥

A.S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages. P. 545

(٤) راجع وراجه كذلك الدكتور علي ابراهيم حسن : المالك البحري ص ٢٧٢

وبعض في حضرة السلطان وقد وضعت للمبارزة قيود وتعليمات خاصة قيدت  
في قوانين ودفاتر ، وكان على المبارز أن يستخدم كل موهبه لخلع خصميه عن  
سرجه ، دون أن يضر به الضربة القاتلة ؛ ولذلك كانت المبارزة تتطلب الكثير  
من الحِذق والبراعة . وقد مارسوا اللعبة ( البولو ) وكانت تسمى لعبة الصوجان ،  
ويطلق الصوجان على العصا التي تضرب بها الكرة . وذلك قبل أن تعرف  
أور با هذه اللعبة بقرون ؛ لأن إنجلترا لم تعرف هذه اللعبة إلا في أواسط القرن  
الحادي عشر تقلاً عن الهند .

وأنشئت في عهد الملك جماعة كان يرأسها السلطان ، ولها نظمها الخاصة  
تسمى جماعة الفتوة ، وكان السلطان صاحب الحق في قبول الأعضاء وفصلهم ،  
وكانت هذه الجماعة تحدو حذو فتيان الناصر للدين الله ، فتتدرّب على رمي  
السهام ، والنبل ، والبندق ، وتصيد الحمام للتمرين ، وتتزوي بسروال الفتوة<sup>(١)</sup> .

وقد أبل الماليك بلاً حسناً في الحروب التي خاضوها ضد الصليبيين ،  
و ضد المغول ، ولا تنسى أبداً أنهم هم الذي رددوا تيار المغول الجارف بقيادة  
هولاكو الطاغية الذي عاث في بلاد المسلمين فساداً ، وطوح بالخلافة الإسلامية  
ببغداد إلى الهاوية ، واجتاح كل مدن سوريا ، وحاصر دمشق إلى أن نهَّدَ له  
القائد العظيم الظاهر بيبرس قائد السلطان قطز ، وهو يحاصر دمشق حصاناً عنيفاً  
ويلاح عليها بقسوة ؛ حتى تخسر صاغرة تحت سنابك خيله كما خرَّت المدن  
الإسلامية الحصينة من قبل ، فهزمه هزيمة منكرة في موقعة (عين جالوت) <sup>(٢)</sup>

(١) السلوک للمقریزی ج ۱ ص ۷۲۵

(٢) عین جالوت بین بیسان و نابلس بفالسٹین .

سنة ٦٥٨ هـ ، ثم هزمهم في بيسان وقتل منهم نحو النصف<sup>(١)</sup> . فرداً عن مصر وعن بلاد الإسلام شرّاً ماحقاً .

وإلى هؤلاء المالك يرجع الفضل في هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم قضاءً مُبرماً فقد هزمهم بيبرس هزيمة منكرة في موقعة المنصورة المشهورة سنة ٦٤٧ هـ لقد كافح صلاح الدين الأيوبي هؤلاء الصليبيين مكافحة شديدة ، وكسر حدّتهم ، وخضّد شوكتهم ، وقد اشتد ساعدتهم بعد وفاته لكثره النزاع بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين ، ولو لا المالك لساد الصليبيون ، واستولوا على الدول الإسلامية جميعها . ففرى قلاوون سلطان المالك بمصر يخفّ لقتالهم وينزع منهم القلاع والبلدان ، فيفتح المرقب<sup>(٢)</sup> سنة ٦٨٤ هـ ، ويفتح طرابلس التي لم يجرأ أحد من قبله على التعرض لها لحصانتها ، كما كسر جيش التتر على حمص ، وكانوا في ثمانين ألف فارس<sup>(٣)</sup> ، بيد أنهم صمموا على الانتقام من جيوش مصر ، وتواتت هجماتهم على مدن سوريا في عهد غازان المغولي الذي اعتنق الإسلام ، وهزموا جيش السلطان الناصر في موقعة الخرندار<sup>(٤)</sup> سنة ٦٩٨ هـ ثم فتحوا دمشق وعادوا فيها وفي المدن المجاورة لها فساداً وأكثروا السلب والنهب والقتل سنة ٦٩٩ هـ<sup>(٥)</sup> حتى قال بعض شعراء الشام يصف المصائب التي حلّت بهم من جراء غزو المغول وإفسادهم :

(١) السلوك للمقرizi ج ١ ص ٤١٧ ، وأبو الفداء ج ٣ ص ٢٠٩ وترجمة كاترمير

للسلوك ص ٩٦

(٢) قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام يذكر أسماء بن منقد في تاريخ القلاع والخصوص أنها شيدت على أيدي المسلمين سنة ٤٥٤ هـ Encyclopedia of Islam Markab

(٣) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ٦ القسم الثالث ص ٦٥٠

(٤) المقرizi في كتاب السلوك ج ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩

(٥) النهج السديد لابن أبي الفضائل ص ٦٤٤ — ٦٤٤ وكتاب السلوك للمقرizi ج ١ ص ٩٣٣ — ٩٣٤

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة  
فأحد منا من السبع سالم  
غلاء وغازان وغزو وغارة وغدر وأغبان وغم ملازم

ييد أن السلطان الناصر قلاوون قد أعدّ عدته وخرج من مصر في سنة ٧٠٢ هـ  
على رأس جيش كبير ، وخرج معه الخليفة العباسى . ويصف المcriزى هذه  
الحرب بقوله : « مسى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ،  
ويحيثون على الجماد ، ويسوقون إلى الجنة ، وصار السلطان يقف ، ويقول  
الخليفة : يا مجاهدون ! لا تنتظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريكم ، وعن دين نبيكم  
صلى الله عليه وسلم ، والناس في بكاء شديد <sup>(١)</sup> » ، وتقابل الجيشان في مرج  
الصفر على مقربة من حمص فهزم جيش الناصر المغول هزيمة ماحقة ، ومات  
منهم كثيرون من شدة الظماء ، وأسر المصريون عشرة آلاف ، وغنموا  
عشرين ألف رأس من الماشية <sup>(٢)</sup> ، ولم تقم هؤلاء التتر بعد ذلك قائمة إلى عهد  
تيمور لنك . وكارد هؤلاء المالك طوفان التتر عن مصر وعن البلاد العربية ،  
أحرقوا على الصليبيين بالغزو والقتال حتى طردواهم طرداً شنيعاً ، وذلك حين فتح  
السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مدينة عَكَّا آخر معاقلتهم في بلاد الشام  
سنة ٦٩١ هـ <sup>(٣)</sup> .

ولقد شهد لهم نابليون بالبراعة في فنون الفروسية ، ولكن هؤلاء على  
الرغم من براعتهم تلك في فنون القتال ، وشجاعتهم الفائقة ، لم يأخذوا  
من القتوة العربية إلا ناحية واحدة فقط وهي التفوق في الحرب ، والشجاعة

(١) السلوك ج ١ ص ٩٣٣ .

(٢) أبو الفدا المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ٥١ .

(٣) أبو الفداء ج ٤ ص ٢٥ - ٢٦ .

القائمة ، وفيها عدا ذلك ندر من كان منهم سخىًّا اليد ، كرييمَ القلب ، رَحْبَ  
الصدر ، وفيماً بوعده . بل نرى على العكس من ذلك ، شدة التناحر فيما بينهم  
يتب بعضهم على بعض ، ويتولى العرش أقوامٍ ساعداً وأكثرهم أنصاراً ،  
ويقتل السلطانُ السابق من غير رأفة ولا رحمة ، وقد كان من مماليكه الذين  
رباهم ، وعاصمهم ، وقد قتل يبرس السلطان قطز ، وكما قُتِلَ الأشرف  
خليل وهو يصيّد في الصحراء بأيدي مماليكه . لم يكن هؤلاء المماليك يتخلون  
بتلك السجّايا العربية التي وصفناها آنفًا ، ومع هذا كله فقد وضعوا للفروسية  
نظاماً محكماً ، وقد أخذ عنهم الصليبيون كما أخذوا عن صلاح الدين والعرب  
عامةً كثيراً من نظم الفروسية وتقاليدها كما سيأتي في الفصل القادم إن شاء الله .

---

## بين فتوة العرب وفروسيّة الغرب

كم كان بودي بعد أن تتبعـت الفتـوة العـرـبية في نـشـأـتها بين أحـضـان الصـحـراء ، وـفي سـيـاحـتها فـي الدـوـلـ الإـسـلامـيـة ، أـن أـذـكـرـ شـيـئـاً عـن عـرـبـ الـأنـدـلـسـ ، وـبـلـادـ الـمـغـرـبـ ، يـيدـأـنـتـي رـأـيـتـ أـنـ هـؤـلـاءـ لـاـ يـخـتـلـفـونـ فـي تـقـالـيـدـهـمـ العـرـبـيـةـ الشـرـيفـةـ ، فـي أـنـثـاءـ قـاتـلـهـمـ مـعـ أـعـدـائـهـمـ فـي سـبـيلـ اللهـ ، أـوـ فـي صـلـاتـهـمـ مـعـ سـوـاهـمـ مـنـ النـاسـ عـنـ آـبـائـهـمـ الـأـوـلـ ، وـأـنـ تـقـالـيـدـهـمـ فـتـوـةـ ، وـثـارـهـاـ العـطـرـةـ الشـمـيمـيـةـ قـدـ حـمـلـتـ مـعـهـمـ إـلـىـ أـورـبـاـ ، وـظـلـتـ طـابـعـاـ لـهـمـ فـي كـفـاحـهـمـ الـمـرـيـرـ مـدـةـ ثـمـانـيـةـ قـرـونـ سـوـاءـ كـانـ ذـلـكـ فـي ظـلـ دـوـلـ بـنـيـ أـمـيـةـ أـوـ فـي ظـلـ مـلـوـكـ الطـوـافـ ، أـوـ لـدـىـ الـمـرـابـطـينـ أـوـ الـمـوـحـدـينـ . ثـمـ أـنـتـي رـأـيـتـ أـنـ حـدـيـثـيـ عنـ فـرـوـسـيـةـ الـغـرـبـ قـدـ يـفـسـحـ لـىـ بـعـضـ الـمـجـالـ لـذـكـرـ شـيـءـ مـوـجـزـ عـنـ تـأـثـيرـ عـرـبـ الـأـنـدـلـسـ فـيـ فـرـوـسـيـةـ أـورـبـاـ .

وـقـدـ حـفـزـنـيـ إـلـىـ الـكـلـامـ عـنـ فـرـوـسـيـةـ الـغـرـبـ ، وـنـحنـ فـيـ صـدـ الـبـحـثـ عـنـ فـتـوـةـ الـعـرـبـ ، مـاـ رـأـيـتـهـ ، وـرـآـهـ غـيـرـيـ مـنـ قـبـلـ ، مـنـ أـوـجـهـ الشـبـهـ العـدـيدـةـ بـيـنـ الـاثـنـيـنـ ، وـأـنـ فـتـيـانـ الـعـرـبـ وـفـرـسـانـ أـورـبـاـ قـدـ تـلـاقـواـ فـيـ أـكـثـرـ مـنـ مـيـدانـ . وـلـأـرـيـبـ أـنـ أـوـلـ مـاـ يـخـطـرـ بـذـهـنـ الـبـاحـثـ المـدـقـقـ هوـ هـذـاـ السـؤـالـ : هـلـ ثـمـةـ صـلـةـ بـيـنـهـمـ ؟ وـلـلـإـجـابـةـ الـمـرـضـيـةـ عـنـ هـذـاـ السـؤـالـ أـرـىـ لـزـاماـ عـلـىـ أـنـ أـعـطـىـ صـورـةـ سـرـيـعـةـ مـوـجـزـةـ لـلـفـرـوـسـيـةـ الـغـرـبـيـةـ ، وـنـشـأـتهاـ ، وـمـيـزـاتـهـاـ ، ثـمـ أـتـكـلمـ عـنـ الـصـلـةـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ فـتـوـةـ الـعـرـبـ ، ثـمـ أـوـازـنـ بـيـنـهـمـ .

وـالـآنـ ! هـلـ الـفـرـوـسـيـةـ بـتـقـالـيـدـهـاـ الـمـعـرـوـفـةـ مـيـلـ نـفـسـانـيـ يـظـهـرـ طـبـيعـيـاـ لـدـىـ

بعض الأمم ؛ أو أنه شيء طارئ عليها ، استعارة من سواها ، حين رأت  
أهدافه الجميلة ، وطابعه الإنساني ؟ أو بعبارة أوضح : ما أصل الفروسية الغربية ؟  
ومتى نشأت ؟ وأين نشأت ؟ .

تعرف المعاجمُ الفروسيةَ بأنها : « نظام عسكري إقطاعي خاص بالبلاءِ  
وظهر في العهد الإقطاعي » ، وعند نوع آخر ظهر إبان الحروب الصليبية ، ثم نوع  
ثالث ظهر بعد انتهاء الحروب الصليبية يختلف في أهدافه وغاياته عن النظائرتين .  
وإن لم يعمر طويلاً .

الحق أن الفروسية الغربية مرت في أطوار ثلاثة . ففي أول الأمر  
كانت نظاماً عسكرياً لا يضم إلا طائفة البلاء ، ولا يحارب هؤلاء إلا على  
جihad مُطْهَّمة ، ويكونون في سِنِ تؤهّلهم لحمل السلاح ، ولا بد أن يكونوا من  
ذوى اليسار حتى يُعدُّوا أنفسهم إعداداً تاماً بالسلاح . وقد ابتدأ تنظيم  
الفروسية طبقاً للتقالييد ( الإسكندنافية ) ، فكل من يملك جواداً ، ولديه  
أربعون ( ماركا ) ، وعدة كاملة من السلاح ، وله من الثروة ما يمكنه من  
إعداد نفسه باستمرار ، حتى لا يظهر بمظهر زَرِّي يسِيء إلى البلاء يستطيع أن  
يكون فارساً ، ولم تكن في فرنسا طبقة خاصة من الناس متميزة عن سواها  
تدعى طبقة الفرسان ، ولكن الميل الطبيعي لدى البلاء هو الفروسية . وفي  
القرن الثالث عشر صدر قانون يحتم أن يكون الفارس من طبقة البلاء ، بل  
أن يكون كل نبيل فارساً ، ومن بلغ سن الرابعة والعشرين منهم ، ولم يلتتحق  
بالجندية عقب عقاباً شديداً . ومنذ القرن الحادى عشر وضعت الأنظمة  
الإقطاعية الخاصة بالفروسية ، وأهمُّها : حرص الفارس على شرف الفروسية

ويتمثل في الإخلاص والطاعة والشجاعة . l'honneur chevaleresque

لقد كانت أول واجبات الفارس الإقطاعي هو أن يحتمي سيده ، وكان يُعد إعداداً خاصاً كي يكون فارساً ، فمُنْتَزَع وهو في السادسة من عمره من بين أحضان النساء ، ويرسل إلى حاشية أحد الأمراء ، أو حاشية الملك ليتلقي تعاليم الفروسية ، وييتندى من المراتب الدنيا ، فيقوم أول الأمر بأعمال منزلية ، ويراقب النبلاء في حركاتهم ، وآدابهم وشتى مناحي سلوكهم ، ويُعطي في نفس الوقت تعليماً خاصاً يتناسب مع منزلة والديه ، ومع ذكائه ، واستعداده وبعد ذلك يلتحق بخدمة أحد الفرسان ، فيتعهد الخيل ويدرس طباعها ، ويشهد ترويضها ، ويتعود ركوبها ، ويصبح سيده تابعاً له في الصيد وفي ميدان القتال ، وفي المباريات الخاصة ، وقد يشترك معه في كل هذا ويساعده حتى إذا ظهرت مواهبه ، وتم استعداده ، وصار في سن تؤهله لأن يكون فارساً أقيم له احتفال يشهده غيره من الفرسان ، ويقلد فيه السيف ، يقلده إياه أبوه ، أو أميره ، ويضربه أبوه بجُمُع يده على قفاه ، وتلقى خطبة كلها في تقاليد الفروسية والشجاعة ، ثم يعرض الفارس الجديد بعض ألوان من الفروسية<sup>(١)</sup> .

هذا هو النظام الإقطاعي للفروسية ، وهو نظام أوجده الضرورة ؛ إذ كان أمراء الإقطاع في حروب مستمرة بعضهم مع بعض ، وكان لابد للأمير من جند مدر بين يحمونه وأسرته ويحافظون على أملاكه ، ويردون عنه غارات منافسيه ، واضطُرَّ الأمراء أول الأمر إلى استخدام جنود مرتزقة انحدرت الجنديّة على أيديهم إلى وحشية بيئته<sup>٢</sup> ، فعمد هؤلاء إلى قوانين ترفع من مستوىهم الخلقي

(1) La Grande Encyclopédie. tom, X. PP. 1137—1139.

وتصقل من طباعهم الجافة ، وتحول بينهم وبين الصفة والمحارة ، ثم قصرت الفروسيّة على طائفة النبلاء وذوي اليسار<sup>(١)</sup> .

ولما شنَّ الغرب حملاته المعروفة على الشرق باسم الحروب الصليبية ، كان هؤلاء النبلاء هم عماد تلك الحملات ، يخرجون من بلادهم ومعهم جنودهم المدرّبون على دفعات لغزو الشرق الأدنى ، وكان من الطبيعي أن تبارك الكنيسة هذا العمل ؛ لأن فيه دفاعاً عن الدين ، وقتلاً — في زعمهم — ضد الكفرة الملحدين ، وصار القسّيس يحضرُون حفلات الفروسيّة التي تقام لكل فارس جديد ، ثم على توالى الأيام صار القسّيس هو الذي يقلد الفارس سيفه ، ويباركه ، ويغمسه في الماء المقدس ، وكان على الفتى أن يتظاهر ، ويتوّب ويتندّم ، ويلبس الثياب البيضاء سمة الطهور والصلاح ، وبذلك صار هذا التقليد البربرى تقليداً دينياً ، شاركت فيه الكنيسة ورجالها أول الأمر ثم استقلّت به ، ولم يعد الأمير أو الوالد هو الذي يقلد الفتى سيفه ، ولكن صار ذلك من مهمة الكنيسة . وقد أدت الحروب الصليبية ، وما فيها من اختلاط الفرسان من شتى البلاد بعضهم بعض إلى إيجاد مميزات جديدة للفروسيّة ، وصارت أكثر تديناً وأعظم انتشاراً ، وواجباً على كل شريف مسيحي . لقد كان أول واجبات الفارس الإقطاعي حماية سيده ، فصار من أول واجباته حماية الكنيسة ، وقتل الكفرة . وكان يحتفل بدخول الشاب في نظام الفروسيّة عادة في يوم عيد من أعياد المسيحية بالكنيسة ، وأحياناً في ميدان

---

(1) Herder : Idées sur la Philosophie de l'Histoire de l'Humanité . t. III p. 436. Traduction E. Quint.

القتال ، وقبل بدء المعركة <sup>(١)</sup> .

كانت الفروسية الغربية في أوجها في ذلك العهد المسيحي ، ولكنها انتهت عند استرداد المسلمين ( عكا ) سنة ٦٩١ هـ — ١٢٩١ م من يد المسيحيين على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون <sup>(٢)</sup> .

ثم تحولت الفروسية الغربية في القرن الرابع عشر إلى فروسية ضالة ، لا هدف لها ولا نظام ولا رابطة . رجع الفرسان الذين قاتلوا في الشرق ، وقد تطورت أوربا ، وابتدات نهضتها الحديثة ، ولم يجدوا عملاً ، فطريقوا يجوبون البلاد باحثين عن المغامرات ، ونادين أنفسهم لأداء الخدمات ، ومساعدة الضعفاء ، والأخذ بيد المنكوبين ، وباختصار قبل كل شيء عن الحب ، ولا سيما حب النساء الثريات من زوجات الأشراف . وفي هذا العهد ظهرت الفروسية بصفات جديدة فيها كثير من سمات الفتنة العربية وإن اختلفت عنها في الغاية . وأهم خصائص هذه الفتنة الحديثة : الحب ، واحترام المرأة ، والرغبة في المغامرات ، والسخاء ، والمرح وقت الحظر ، وحسن المعاملة والتمسك بال وعد حتى الموت ، والحدب على الضعفاء ، وتمجيد الشجاعة الحربية ولو كانت من الأعداء ، وعظمة النفس وسموها وإخضاع القوة الجسمية للذكاء المذهب <sup>(٣)</sup> ومحاربة الكنيسة والقضاء على سلطانها ونفوذها وتدخلها في كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة <sup>(٤)</sup> ثم تلاشى هذا النوع من الفروسية على

(1) La Grande Encyclopedie, tom. X. PP. 1137 — 1139. et Wacyf Ghali : La Tradition Chevaleresque des Arabe. p. 8. Hammar-Pargstall. J. A. Jan. 1844 , ٢٦ — ٢٥ ص ٤ ج الفدا أبو.

(2) Viollet-le-Duc, Dictionnaire du mobilier, t. V, P. 6.

(4) Wacyf Ghali : P. 13—14.

مر الأ أيام ، وصارت أسطoir تروي ، وقصصاً تكتب .

ولعلك رأيت من هذا العرض السريع كيف تطورت الفروسيّة الغرّيبة على مر الأ أيام من فروسيّة عسكريّة تعتمد على القوّة وحدها ، ليس فيها من سمو الروح ، ودماثة الخلق شيء ، ثم فروسيّة خاضعة لتعاليم الكنسية ، مملوءة بالتعصب الديني ، ليس فيها شيء من سماحة العقل ، واتساع أفقه ، إلى فروسيّة حديثة ، فيها كثير من صفات الإنسانية ومثلها العليا . وقبل أن أخوض في أسباب هذا التحول الأخير ، وكيف تأثر فرسان أوّر بمحضارة العرب حتى تهذبت طباعهم ، ورقت حواشיהם ، واكتسبوا منهم سماتِ النبل الحقيق لا نبل الدم والنسب ، وكيف قلدواهم في طباعهم ، وجعلوهم المثلَ الأعلى لهم ، أعرض بعض الأراء التي سجلها الباحثون عن نشأة الفروسيّة الغرّيبة وأصلها .

نرى بعضَ الباحثين يُذكر وجود الفروسيّة الغرّيبة كـ صورَها رجال الأدب ويقول : « كـلما تعمق الإنسان في دراسة التاريخ تبين له بوضوح أن الفروسيّة الغرّيبة من اختراع الشعراء والقصاصين ، ولن يعثر أى باحث على وثيقة تاريخية تثبت أن الفروسيّة — كما يعرفها الشعراء — سادت بلدًا ما . إنها تلوح من بعيد حائلةَ اللون ، غيرَ واضحَةِ المعلم — بينما يعطينا المؤرخون فكرة مفصلة ، واضحة ، كاملة عن مآثمِ النبلاء ووحشيتهم ومقاصدِ قصورهم ، واستعبادهم للشعب . وإن المرء ليعجب حين يقرأ بعد ذلك بزمن مديد الشعراء وهم يحييون هذه العصور في روایاتهم ، ويخلعون على النبلاء أردية الفضيلة والشجاعة والكرم والطاعة<sup>(١)</sup> .

(1) S. de Simondi : De la Littérature du Midi de la France, / t. 1. PP. 90 et 91.

ويرى بعض الباحثين أن الفروسية الغربية في ثوبها الجميل لم تظهر إلا في الحروب الصليبية وما بعدها ، وأن ما سبقها في العهد الإقطاعي كان شيئاً قريباً من البربرية<sup>(١)</sup> .

ويرى كثير من الباحثين أن أصل الفروسية الغربية يرجع إلى العادة التي كانت متبعة في المانيا بإعطاء الرمح لفتى الذي أظهر الاختيار أنه كفءٌ نجل السلاح<sup>(٢)</sup> ، ويرد لها بعضهم كذلك إلى التقاليد الألمانية ولكن بتعليق آخر فيقول : «كان معظم القبائل الألمانية التي غزت أوروبا وانتشرت في شتى أنحاءها من المغاربيين ، وكان أغلبية هؤلاء المغاربيين فرساناً ، يمتطون الخيول ، وكان من الطبيعي أن يتطلع هؤلاء إلى مكافأة تتناسب مع بلاهم في الحرب . ثم تكونت على مر الأ أيام جماعاتٌ ينتسب بعضها للأمير ، وبعضها للملك أو الإمبراطور ، وألفت فيها بينها نظاماً خاصاً ، أو مدرسة حرية تلقن فيها تعاليم الفروسية ، وأصول القتال والذكر والفر ، يعشها الأحداث فإذا تحملت مواهفهم دخلوا في خدمة نبيل فارس أقدم منهم وأعرق في الفروسية وفنونها مع خصوصياتهم التامة ، ولا يوجد على ما أعتقد أى أصل آخر للفروسية الغربية غير هذا<sup>(٣)</sup> .

وإذا سلمنا جدلاً بأن أصل الفروسية العسكرية مأخوذ من العادات الألمانية وتقاليد رجال الحرب القبليين فيها ، وأنهم على مر الأ أيام وضعوا لها نظاماً خاصاً ميز الفرسان عن سواهم ، فما الذي وضع للفروسية الغربية كل

(1) Gautier : La Chevalerie.

(2) Tacite. Mœure des Germains, XIII.

(3) Herder : Idées sur la Philosophie de l'Histoire. t. III. P. 436.  
Traduction, E. Quint.

تلك التقاليد السامية ؟ وأين الروح البليلة الكامنة في نفس الفارس ، ومن يقول إن الفروسيّة — وهي ثمرة الجمال الخلقي — مأخوذة عن الألمان . إن التاريخ يرفض مثل هذا الادعاء . وكيف تسعى للألمان أن يضعوا المثل العليا للفروسيّة من التمسك بالكلمة تعطى ، والبسخاء والأريحية ، والإخلاص ، والطاعة ، والإنسانية الكاملة ؟<sup>(١)</sup> .

« كان الألمان منذ وجدوا حتى اليوم عبيداً لغرائزهم التي لم تهذب أو تصقلها الفكرة والمثل العليا والخضوع للواجب الإنساني ، فيهم أناانية ، وغلاطة ، وصرامة ، وشهوة عارمة نإفساد ، إنهم يقدسون القوة الوحشية كما تظهر في الطبيعة ، أو كما تظهر على يد محارب سفالك . وتاريخ الديانة الألمانية وتاريخ الألمان أنفسهم ، هو سجل للقتال وسفك الدماء ، وأعظم قربان يتقرب به الألماني ، ويسعد به نفسه هو سفك الدم الإنساني ، والجنة التي يطعم الجندي الألماني في دخوتها هي المكان الذي تسيل فيه الدماء من غير انقطاع ، حيث يشرب المرأة الخمر في جمجمة عدوه . ومثل هذه الديانة لا ترتفع بالنفس الإنسانية ، ولا تُسْهِم في إسعاد البشرية وعلى الرغم من اعتنائهم المسيحيّة فقد ظلت عبادة القوة دينهم ، والقسوة العارمة نزعتهم »<sup>(٢)</sup> .

ويؤكد ( هردر ) على الرغم من ألمانيته أن الفرنسيين كانوا أساندة للألمان في الفروسيّة بعندها الخلقي السامي ، وتقاليدها المعروفة إبان القرون

(1) Wacyf Ghali, P. 9.

(2) Mignet, Mémoires de l'Academie des Science morales et politiques, T. III, année 1841 : Comment l'ancienne Germanie est entrée dans la Société Civilisée de l'Europe occidentale.

الوسطى<sup>(١)</sup> وفي القرون الوسطى كان كل حق يعتمد على القوة ، وكان المثل الأعلى للمحارب هو النشاط والجلد ، فمن أين أتى للفروسية الغربية إذاً هذا الخلق الذي هذب طباع الفرسان ، وجعل هدفهم الظهور بمظهر الإنسان الكامل ؟

يُجْنِحُ كثير من الباحثين إلى أن الفروسية الغربية قد اكتسبت ثروة نفسية ، وخلقية من الفتواه العربية حتى ظهرت في ثوبها القشيب الذي تفخر به ، بل إن منهم من غالى فقال إن كلمة Chevalerie التي نعربها بكلمة فروسية مأخوذة من كلمة Cherval أو السروال العربي الذي كان يميز الفتيان عن سواهم<sup>(٢)</sup> . وأن أول ما لم تعرف الفروسية إلا عن العرب ، ويؤيد ذلك في رأيه هذا فريق كبير من الباحثين<sup>(٣)</sup> ، ويعدل فريق آخر فيرى أنها تألفت من عناصر عربية ، ومسيحية ، وألمانية معاً<sup>(٤)</sup> .

يقول واصف باشا غالى : « لا ترجع الفروسية الفرنسية إلى أصل روماني أو ألماني أو مسيحي أو عربي ، ولكنها فرنسية ، وليس معنى ذلك أنها لم تتأثر بالمدنية العربية ، إنها تأثرت بالتقاليد العربية فعلاً في إسبانيا ، وفي فلسطين ومصر إبان الحروب الصليبية ، ويتبين هذا التأثير بصبح الفروسية الفرنسية بصبغة حسنة ، ومظهر جميل ، وبدماثة ورقَّة ولطف لم تعهد لها من قبل . إن

(1) Herder : op. cit. P. 449.

(2) Mémoire de l'Académies des Science, Belles-Lettres et Art de Marseille. vo : années 1854 à 1868, p. 267, article de H. Guys.

(3) A. de Beaumont, Recherches sur l'origine du blason.

Viardot, Histoire des Arabes et des Maurs d'Espagne.

(4) Chateaubriand, Analyse raisonnée de l'Histoire de France. J. J. Ampère, Mélange d'Histoire Littéraire et de Litterature t. 1, pp. 248.

البذرة فرنسيّة غرست في أرض فرنسيّة ، ولكن إذا كانت قد نمت سريعاً وظهرت قويّة الاحتمال ، وأتت بأزهار عيقة الشّذا نصراً الأولان ، فإن ذلك بفضل شمس الشرق الساطعة ، وبفضل صبّاً نجد التي هي عليها<sup>(١)</sup> .

ونحن لا نماري في أن الفروسيّة الغربيّة قد نبتت في أوربا ، ولا نغالى مع الغلاة فندعى أنها عربّية الأصل لحمة وسدى ، فذلك أمر يخالف الواقع ، هذا إذا قصدنا بالفروسيّة ذلك النّظام العسكري ، الذي يتميّز بالتدريب على فنون القتال ، والجلد ، واحتمال الصّعاب ، ليس غير ، لأن مثل هذا النّظام تتطلبه ظروف كثيرة من الأُمّ التي تلتّحم مع سواها في كثير من ميادين القتال ، إما مُغيرة ، تتطلب الغزو والسيطرة ، وإما مدافعة عن نفسها تتطلب الحرية والعيشة الكريمة ، ولقد كانت أوربا في القرون الوسطى في حرب دائمة بعضها مع بعض ، وكانت دوّيلات صغيرة لم تتوحد بعد ، وكانت كذلك بعيدة كل البعد عن المدنية وحياة الاستقرار ؛ لأن النّهضة الأوروبيّة الحديثة لم تبدأ إلا في القرن الثاني عشر بعد احتكاك أوربا بالشرق ، وكانت أوربا قبل ذلك لا تزال تتخبط في ديجور مطبق من الجهلة والظلم ، والقهر . فلا بدّع إذاً حين ترى فيها هذا النّظام العسكري ، فإذا اجتمع طائفة من الفرسان تحت إمرة رئيس كان لابد من تنظيم العلاقة بينهم فيقسمون يمين الطاعة لرئيسهم ، والإخلاص له ، وعلى الوفاء لأخوانهم ؛ ورئيسهم يحترم كل وعد وعدوه ، ويبرم أي أمر عقدوه ، ويوجههم إلى غاية واحدة<sup>(٢)</sup> .

أما أن أوربا الغربيّة قد أفادت من تقاليد الفتّوة العربيّة فذلك أمر

(1) Wacyf Ghali, op. cit. p. 14.

(2) Lavisss et Rambaua, Histoire Générale. t. II. p. 60.

لأمَّاء فيه ولا شك ، ولقد أجمع على ذلك نفرٌ من خيرة الباحثين الأوَّلَيْنَ الذين لم يُعْمِلُهم التّعصُّبُ النّذِيمُ ، ويَطْمَسُ على أفقُهُمُ الْهُوَى المُضِلُّ ، ومنهم من يرى أن تأثير العرب في أوربا جاء عن طريق الأندلس ، وأن تقاليد الفروسية الغربيَّة مأخوذة من عرب الأندلس<sup>(١)</sup> لطول احتكاكهم بفرسان أوربا مدة ثمانية قرون ، لم تخمد فيها نار الحرب برهة ، وقد تأثَّر على العرب أمَّمٌ شتَّى من أوربا كلها ، وشهدوا صدق بلاهم في الحرب ، وكرم قلوبهم ، وحسن معاملتهم ، ووفائهم بعهودهم ، وصارت هذه الصفات الْكَرِيمَةُ أمثلة عليا يحتذِّها فرسانُ الغرب ، ويتغفَّنُونَ بها .

وفي لغة (البروفنسال)<sup>(٢)</sup> تجد كلمة *galaubia* غالبية المأخوذة من الكلمة (غلب) ، و (غلبة) العربية تعنى تلك الطبيعة ، والحالة النفسيَّة والجميَّة التي تحمل المرأة على البحث عن المجد والشهرة ، ولا سيما في ميدان الشجاعة والفروسية ، وتحدُّى كلَّ من ينافسه في هذا الميدان حتى يغلبه ؛ و *galaubia* مرادفة للشجاع والجريء والفارس ، والمغلب في العربية المغلوب مراراً والمحكوم له بالغلبة (ضد) ، ومن الفعل غالب يأتي اسم الفاعل غالب ، وغالب : لقب سيدنا على بن أبي طالب ، وهو موجود في ديوانه ، وإن كان هذا الديوان كايده شارحة التركي (مستقيم زاده) من شعر الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ١٥٤٤ م وقد ورد في قطعة من الديوان ص ١١٤ طبعة مصر سنة ١٢٢٥ :

هذا لكم من الغلام الغالب من ضرب صدق وقضاء الواجب  
وفالق الهمامات والناكب أحلى به قيام الكتاب

(١) Fauriel, Histoire de la Poésie Provençal, t. III, p. 312.

(٢) البروفنس : إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبيَّة المطلة على البحر المتوسط .

ومن أسماء على الفتى تبعاً لما أثر عن رسول الله أنه قال بعد غزوة أحد «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على» <sup>(١)</sup>. وقد علمت فيما تقدم منزلة سيدنا على في سلسلة فتيان الناصر للدين الله <sup>(٢)</sup> وقد كانت فتوة الناصر كما مرّ بك مصحوبة بشرب كأس الفتوة ، وقد أخذ الغربيون هذا ، وترابهم يشربون كأس القديس graal ويظن بعض الباحثين أن graal محرفة من الكأس بتأخير آل ، أو من (الجرعة) بتأخير آل <sup>(٣)</sup>.

إن أصول الفروسيّة الغربيّة سواء الدينية التي ظهرت في العهد الكنسي أو الحديثة التي ظهرت بعد ذلك مأخوذة عن عرب الأندلس ، فقد كان المرابطين نفس النظام الديني الذي نقله عنهم فرسان أوربا أما الفروسيّة الحديثة فرجعوا كذلك إلى العرب ؛ إذ كان المرابطون يقومون بتدريبات عسكريّة ورياضية عنيفة ، وكانوا يختارون من الجنود الأشداء الذين لهم صبر على احتمال المشاق ، ولم يكن يُسمح لهم بالفرار ويموتون في الميدان من غير أن يولوا الأدبار <sup>(٤)</sup> وكانت الصلات التجاريّة وال العلاقات السياسيّة ، والحروب المتصلة ، والمعاهدات الكثيرة من الوسائل التي احتك فيها الغرب بالشرق منذ وطئت أقدام العرب أسبانيا في القرن السابع الميلادي ، وكانت معاهدات السلام التي

(١) Fauriel في كتابه المتقدم ص ٣٢٦ ونقله عنه هامر برجستال في عدد يناير

Hammar-Purgstall. op. cit. Journal Asiatique ١٨٤٩

وراجع كذلك في هذا الموضوع :

Dictionnaire de la langue des troubadours par Raynauard t.3.p.418

(٢) راجع ص ٢٤٠ من هذا الكتاب وما بعدها .

(3) Hammar-Purgstall. op. cit

(4) Fauriel, op. cit p. 321—326 et dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne (introduction )

تعقد بين الفرنسيين وال المسلمين وسيلة لأن يتعرف كلٌّ ماعند الآخر من مزايا خلقيّة ، وقد أدرك الفرنسيون شيئاً عن الإسلام وعرفوا أن المسلمين أكثر منهم مدنية . فلا عجب إذا أخذوا عنهم كثيراً وأفادوا منهم<sup>(١)</sup> ، ولا سيما التهذيب الخلقي ، وتقالييد الفروسيّة التي شكلوها حسب مزاجهم ، ويزيد هذا تأكيداً أن مقاطعات فرنسيّة عديدة ظلت تحت الحكم العربي ردحاً غير قصير من الزمن<sup>(٢)</sup> ، ولا أدل على هذا التأثير من أنه لا تزال ثمة آثار تلك المدنية العربية في الزراعة والصناعة ، والتقالييد الخلقيّة ، واللغة — وبخاصة الكلمات المتعلقة بالفروسيّة ، بل وبعض التدريبات الرياضيّة — وفي الخيال والتفكير<sup>(٣)</sup> .

ويقول Fauriel إن هذا الخلق العربي ، خلق الفروسيّة وتأثيرهم في أوروبا هو أحسن وأجمل وأظهر شيء في أخلاقهم وفي نظمهم ، ولقد أثر أثراً كبيراً في أخلاق أهل الجنوب والوسط من فرنسا ، حيث أنهم في خلال القرن الحادى عشر لم يروا في العرب الذين كانوا يدعونهم أول الأمر أعداء المسيحية إلا قوماً أكثر منهم مدينة . وكان من الطبيعي جداً أن الناس ، أو على الأقل الطبقة ذات التأثير فيهم ، والتي يدها قيادة المجتمع ، تحاكى العرب في أخلاقهم ، وتأخذ عنهم أنظemetم التي ترى فيها فائدة لهم مع تعديل ضروري يلائم حالمهم .

لقد كان تأثير عرب إسبانيا على المدنية الفروسيّة ولا سيما المدنية التي أسميهما (مدنية الفروسيّة) تأثيراً مباشراً وواضحاً كل الوضوح . ومن المستحيل ألا

(1) Lavisse et Rambaud. op. cit. P 346.

(2) Fauriel, op. cit, p. 420

(3) Fauriel op. cit p 312.

تصل بوسيلة أو أخرى إلى الأدب الفرنسي<sup>(١)</sup>.

« وقد استعار سكان أوروبا من العرب مع قوانين الفروسيّة احترام المرأة ولنست المسيحيّة على الرغم من أن الكل يعتقدها هي التي رفعت شأن المرأة ولكن الإسلام<sup>(٢)</sup>. »

« كانت غزوات العرب الأولى لاسبانيا وفرنسا محاطة بالعظمة والأبهة مما لا يمكن أن يقارأه المرء إلا وتعروه الدهشة والخيرة ، وكان العرب يمتازون عن سواهم من الغزاة ( كالنورمانديين والجرين ) بأنهم أمّة بقيت على رأس المدنية مدة طويلة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسا ظلت ترتعد من احتلال غاراتهم أمداً غير يسير ، ثم إن الحروب العظيمة التي تولوا كثراً ، سواء في الأندلس أو في أفريقيا أو في آسيا في وجه الصليبيين ، قد أضافت إلى اسمهم لمعاناً جديداً فوق اللمعان الذي كان من قبل ، ييد أن كل هذا لم يكن كافياً لتفسيير مكانة العرب العظيمة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسيّة التي كان يتغنى بها أهل فرنسا ومن جاورها خلفاً عن سلف ، فقد كانت هذه القصص الأسمار الوحيدة للأمراء والنبلاء ، بل والشعب . وكان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية ، وحسناً نجيناً . وقد تضاءل كل تاريخ بجانبها ، وهُزِل كل أدب سواها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، ويذهبون من بلدة إلى أخرى فينشدونها للجماهير التي تترنح لها أعطافهم . وكان لا يختلف بعيد ولا موسم إلا اندفع

(1) Fauriel. op cit. t. III. p. 433

(2) Florian, dans son Precis Historique sur le Maures, et G. Le Bon, Civilisation des Arabes. p. 428.

أولئك الرواة في إنشاء تلك القصائد عن سير أبطال الوطن ، وكانت هذه السير تدور حول حروب المسلمين ، وعلى ما جالَه صناديدُ الفرنسيين في دفع غاراتهم ، ولما كان في هذه القصص ، وتلك القصائد من المبالغة ما هو طابع كل القصاص الذين يترنمون بوقائع تلك الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجمس وتنمو وتصبح أضعاف ما هي ؟ تحسينا لفضل أولئك الذين أبلوا في تلك الواقعة ؟ حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة في فرنسا وإيطاليا أمير عربي ، أو بطل عربي يبارزه أمير فرنسي ، وبعد أن يستند البراز ، ويطول العراق ، وتظهر فيه خوارق الأقدار ينتهي الأمر بالبداهة بتغلب البطل الفرنسي على البطل العربي .

« وعلى العموم فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا ، والأقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهمة ، وعزيمة النفس ، ومكارم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة ، وقرى الضيف ، تشهد بذلك وقائع ونواتر كثيرة ، منها ما رواه بعض مؤرخي الأسبان من أنه في سنة ٨٩٠ هـ أراد ملك أشتوريه (أذفونس الكبير) أن ينتدب مؤدياً لابنه وولي عهده فاستدعي اثنين من مسلمي قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد في المسيحيين حينذاك من هو كفاءة لهذه المهمة<sup>(١)</sup> .

وما عليك إلا أن تلقى نظرة عاجلة على الروايات والقصص التي تروي أخبار الفرسان في الغرب لتعلم مدى تأثير التقاليد العربية لا في فرنسا وحدها ولكن في العالم المسيحي كله . إننا نعلم جميعاً أن هذه الروايات هي المصدر الوحيد الذي تدرس فيه عادات النبلاء ، بل وعامة الشعب ، وأنها وضعت قوانين وأنظمة للحروب ، وممثلاً علياً يحتذ بها الفرسان ، وأنها كانت دروساً في

(1) J. Reinaud, Invasion des Sarrazins en Francet en Savoie..etc p.314.

وترجمة الأمير شبيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب) ص ٢٤٢ .

البطولة ، وحسن المعاملة ، وطرق الحياة ، وقد أتى في الفصل العشرين من رواية تربان (Turpin) التي سبقت كل روايات الفروسية أن شرمان قد تلقى الأمر بالفروسية ، وتشرب تعاليمها من الأمير العربي الذي كان يحكم (كولينو) في مقاطعة (بروفانس)<sup>(١)</sup> ؛ وقد تلقى (برنارد دي كاريو) Bernard de Carpio على يد العرب حين التحق بجيوشهم محاربًا في صفوفهم ، ولم يتميز ويشتهر إلاّ بعد أن حذق الفروسية ثمة ، وقد أفصحت رواية Le Cid عن تلك التقاليد العربية النبيلة منذ القرن الثاني عشر<sup>(٢)</sup>

وقد حرص شعراء المسيحية على إذ كاء الحماسة في قلوب مواطنיהם بوصفهم أخلاق أعدائهم العرب ، ومجيد أعمالهم وكرمه ، ووضعهم مثلاً علياً تحت ذي ، حتى يجد هؤلاء في تقليدهم ، ويسيروا على نظمهم . وقد ضرب العرب كلَّ مثل شريف لهؤلاء المسيحيين سواء في الشجاعة أو الكرم ، وحسن المعاملة في أي مكان حلوا به وفي أي زمان كانوا فيه . هاك الوالي عبد الملك (٧٥٥ م) يهدف ابنه وفلذة كبده بالرمح فينفذ من صدره لأنَّه رأه يولي الأدبَرَ أمام قوة أعظم من قوته<sup>(٣)</sup> ، وهاك عبد الرحمن الثالث يكرم عدوه اللدود (سنناس أمير ليون) حين طلب منه أن يأتي إلى قرطبة ليستشير الأطباء العرب في سنة ٩٦٠ م . فيؤمنة ، ويقدم له المدايا ويزيد في إكرامه ، حتى يبراً من

(1) Wacyf Ghali, op. cit. p. 17. ٢٤٣ وتاريخ غزوات العرب ص

(2) Sismordi, De la Lettérature du midi de la France, t. I. pp. 270 et suiv.

(3) Viardot : Histoire des Arabes et de Maures en Espagne, t. II, pp. 118, 196, 278.

حرضه ، فَأَنْ هَذَا مَا فَعَلَهُ مَلِكُ قَشْتَالَةِ بِيَرِ القَاسِي فِي سَنَةِ ١٣٦٠ مَ حِينَ دَعَا  
أَمِيرُ غَرْنَاطَةَ أَبَا سَعِيدَ إِلَى قَصْرِهِ فَلَبِيَ دُعَوَتُهُ ، وَلِمَا رَأَى يَدِهِ خَاتِمًا ثَمِينًا رَاقِهِ ،  
حَسْدَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ لِيَسْتَوِيَ عَلَى الْخَاتَمِ<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا مَثَلًا آخَرٌ يَدُلُّ عَلَى النَّبِيلِ وَالْكَرْمِ ، وَعَدْمِ التَّعْرُضِ لِلْمُضْعَفَاءِ وَالنِّسَاءِ  
بِأَذْى ، فَقَدْ ذَهَبَ أَلْفُونُسُ الثَّانِي مَلِكُ قَشْتَالَةِ الْمَحاَصِرَةِ (أُورِيَغَةُ) الْعَرَبِيَّةِ  
فِرَأَى أَمِيرُ قَرْطَبَةَ أَنْ يُرْسَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمَحاَصِرَةِ مَدَدًا ، يَبْدِئُ أَنْ قَائِدُهُ هَذَا الْمَدَدِ  
لَمْ يَشَأْ أَنْ يَشْتَبِكَ فِي قَتَالِ خَارِجِ الْمَدِينَةِ يَكُونَ جَيْشُهُ فِيهِ الْأَقْلَى عَدْدًا وَعَدْدًا  
أَمَامِ عَدُوِّ كَبِيرٍ قَوِيِّ الْعَدْدِ ، وَرَأَى أَنْ يَحْتَالَ لِإِبْعَادِ جَيْشِ الْعَدُوِّ عَنِ الْمَدِينَةِ  
بِمَهَاجِمَةِ (طَلِيَطَلَة) حِيثُ كَانَتْ تَقْيِيمُ مَلَكَةِ قَشْتَالَةِ ، فَلَعْلَ زَوْجَهَا إِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ  
يَتَرَكُ (أُورِيَغَةُ). وَأَخْذَ الْقَائِدُ الْعَرَبِيُّ فِي مَهَاجِمَةِ طَلِيَطَلَةِ وَحَصَارِهَا ، وَرَأَتِ  
الْمَلَكَةَ — وَقَدْ عَصَرَهَا الْمُمْ وَالْحَزَنُ — أَلَا مُلْجَأًا لَهَا إِلَّا إِلَى الْخُلُقِ الْعَرَبِيِّ  
الْنَّبِيلِ تَسْتَمدُ مِنْهُ النَّصْرُ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى الْقَائِدِ الْعَرَبِيِّ تَقُولُ : إِنِّي امْرَأَةٌ ، وَلَيْسَ  
مِنْ شِيمَ الْفَرَسَانِ قَتَالُ النِّسَاءِ ، إِنِّي أَرْدَتُ قَتْلًا فَعَلَيْكَ بِزَوْجِي فَإِنَّهُ يَنْتَظِرُكَ  
عَلَى أَبْوَابِ (أُورِيَغَةُ) فَهَزَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مُشَاعِرِ الْقَائِدِ الْعَرَبِيِّ . وَطَلَبَ أَنْ  
يُحَيِّهَا قَبْلَ أَنْ يَبْرُحْ مَكَانَهُ ، فَصَعَدَتْ إِلَى أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ — وَكُلُّهَا ثَقَةٌ بِشَرْفِ  
وَعِدَّهُ ، عَالَمَةً أَنَّهُ لَنْ يَمْسِهَا أَذْىً — فِيَاهَا الْجَيْشُ الْعَرَبِيُّ كُلُّهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي  
دَخَلَ فِيهِ زَوْجَهَا مَدِينَةَ (أُورِيَغَةُ) الْعَرَبِيَّةِ وَاسْتَوَى عَلَيْهَا<sup>(٢)</sup>. فَأَيُّ مَثَلٌ  
فِي الْكَرْمِ وَالتَّضْحِيَّةِ ، وَحَسْنِ الْمَعْاملَةِ ، وَالنَّخْوَةِ ضَرَبَهُ هَذَا الْقَائِدُ الْعَرَبِيُّ

(1) Gustave le Bon, la civilisation des Arabes. P. 347.

(2) Louis Viardot, Essais sur l'Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne.

للمسيحيين في عصره ، وبعد عصره ؟ ! .

واستمع إلى مثل آخر من تلك الأمثلة النادرة في التاريخ ، وذلك حين تخلى الشعب عن ألفونس الحكيم في سنة ١٢٨٠ م ، فطلب المساعدة من ملك المغرب العربي يعقوب بن تاشفين ، فلبى صريحة ، وعبر المضيق ، وقابل ألفونس في (زارا) ، وحين رأه هذا أراد أن يتخلى له عن كرسيه احتراماً له وإجلالاً ومحاباة ، يد أن يعقوب أجراه : إبق حيث أنت ، فما جئت إلا لمساعدتك في محنتك ، وحين أقوم بهذا الواجب ، وتصير سعيداً متصرراً » و تستعيد قوتك سأنازفك هذا العرش ، وأصير عدوك <sup>(١)</sup> ، فهل ثمة قلب أنسخ من هذا القلب وأشجع ؟

ولم يكن تأثير عرب الشرق إبان الحروب الصليبية على أخلاق فرسان أوربا أقل من عرب الأندلس والمغرب ، ففي أي مكان تلاقى فيه العرب مع الفربين أظهروا تفوقهم الخلقي ، وأنهم أكثر مدنية ، وأعلى كعباً في الحضارة من أعدائهم ، فبهرتهم بهذه المثل الطيبة ، وحاولوا جدهم أن يقتدوا بهم ، وفي ذلك يقول مؤرخ غربي منصف : « إن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وقدر الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرأً أخذ ينمو على مر الزمن — وهي ظاهرة تميز المتأخرین من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تميزاً واضحأً جليأً — ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأرض المقدسة للشرقيين في عاداتهم ، وأساليب حياتهم ، لم يتحقق ذلك كله في أن يؤثر في أفكار هؤلاء الصليبيين وأخلاقهم ، ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك

(1) Florian, Précis Historique sur les Maures. p. 77.

السمح الذى سلكه كثيرون من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية ، وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة<sup>(١)</sup> . وما يظهر الفرق بين أخلاق الصليبيين قبل أن يختلطوا بالمسلمين ، وياخذلوا عنهم التقاليد النبوية ، والمعاملة الرقيقة ، وأخلاقهم بعد اختلاطهم بهم ما رواه أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ، من أنه كان له أصدقاء من فرسان المعبد بيت المقدس ، فإذا زار بيت المقدس خصصوا له زاوية صغيرة بالمسجد الذى كانوا يحتلونه ، وتتصادف أنه ذهب مرة ، ودخل المسجد للصلوة فهجم عليه أحد الفرنجية يريد أن يحوله عن الصلاة ، فبادر إليه بعض فرسان المعبد The Knights Templar ، وأنزلوه وأخرجوه عنوة ، واستأنف أسامة صلاته ، فاغتفلهم هذا الصليبي المتعصب ، وهجم ثانية على أسامة ورد وجهه إلى الشرق قائلا له : « كذا صلّ » فعاد فرسان المعبد إليه ، واعتذروا لأسامة ، وقالوا له : « هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام »<sup>(٢)</sup> .

ولا أدل على أن هؤلاء الصليبيين قد هذبوا على يد العرب من قول أحد مؤرخيهم : « لقد هذب العرب — سواء في التجارة أو الحروب — من الأخلاق الحسنة التي كان يتصف بها رؤساؤنا كما هذبوا من عاداتهم الفظة . أما الفرسان فقد تعلموا — من غير أن يفقدوا شجاعتهم — المشاعر الرقيقة وأجمل الفضائل الإنسانية ، ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق »<sup>(٣)</sup> .

(1) Guizot : Histoire de la civilisation en Europe p.234. (Paris 1882)

(2) الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٥ ط فيليب حتى (برستون) ١٩٣٠

(3) Barthélemy Saint-Hilaire, Mohomet et le Coran, 1865.

لقد تعلم فرسان الصليبيين من احتكاكهم بالعرب في المعاملات وفي ميادين القتال كيف يهذبون من طباعهم الحربية الجافة ، وكيف يكونون ظرفاء كرماء أوفياء بالوعود ؟ لقد لانت طباعهم ، وصفات خشونتهم لما رأوه من كمال أعدائهم ومعاملتهم الحسنة على الرغم من شجاعتهم . لقد اضطروا إلى ذلك اضطراراً في كثير من الأحيان ؛ لأنهم كانوا مرغمين على مقابلة الإحسان بمثله ، وعلى الوفاء بالوعد كما ي匪 أعداؤهم بوعودهم ، وعلى المحافظة على مواعيدهم ، وعلى السخاء كما يسخو العرب ، وعلى احترام المرأة كما يحترمونها<sup>(١)</sup> .

ويؤكد بعض الباحثين أن الفروسية الغربية جسماً وروحًا قد نقلتها أورباً عن العرب سواءً في الحروب الصليبية أو في المغرب . كان صلاح الدين معاصرًا لل الخليفة الناصر وكان معاصرًا ( ليرتشارد ) قلب الأسد ملك إنجلترا ولملك ( فيليب أو جست ) ، وهذا العصر هو أزهى عصور الفروسية المسيحية ، وقد تأسس في ذلك الوقت نظام ( فرسان المعبد ) بعد أخذ بيت المقدس<sup>(٢)</sup> وهو أحسن ألوان الفروسية الغربية .

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته وما انطوت عليه من بطولة فائقة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سرياً خاصاً ، حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة إعجابهم به ، وانجذابهم إليه أن هجروا دينهم المسيحي ، وهجروا قومهم ، وانضموا إلى المسلمين وقد طرح النصرانية فارس إنجليزي من فرسان المعبد يدعى روبرت أوف سانت ألبانس

(1) Wacyf Ghali, op. cit. P. 22. Paris 1919.

(2) Hammer Purgstall. J. A. Jan. 1849.

Robert of st. Alpans حفيdas صلاح الدين (١) . وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين ، وكان جوي Guy ملك بيت المقدس ضمن الأسرى ، وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه يفرون إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم (٢) .  
وكيف لا يعجب هؤلاء الصليبيون بصلاح الدين ، وقد كان نبيلاً في كل تصرفاته مع أعدائه ؛ فها هو ذا ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا يصاب في المعركة أمام صلاح الدين فيسرع إليه صلاح الدين ويداويه بنفسه ، ولم يزل يعني به حتى يشفى من مرضه ثم يطلق سراحه (٣) .

وحينا فتح صلاح الدين بيت المقدس منح أهلها جميعاً الحرية ومدّ إليهم يد المساعدة بالأموال . ولما رأى نور الدين ريتشارد قلب الأسد في معركة يافا يحارب على قدميه ؛ لأن حصانه قتل في الميدان أرسل إليه جوادين كريمين قائلًا : إنه لا يليق بجندى شجاع باسل مثله أن يحارب راجلاً (٤) .  
وهاك نور الدين يضرب مثلاً آخر في النبل والشجاعة الفائقة في ١١٦٣ م حين مات (بودوا) فلم يشاً أن يستغل وفاته في هاجمة عسقلان ، وقال : إنه عمل غير إنساني أن تزعج قوماً محزونين على أميرهم ، ولن يشرف مجدى الحرب

(1) Roger Hoveden : Chronica Magistri. edited by William Stubbs. vol. II. p. 307, London, 1868.

(2) Benedict of Peterborough. edited by Wiliam Stubbs. vol. II. pp. 11.12. London 1867.

(٣) محمد بن منكلى . الأحكام السلطانية (مخطوط) . ٨٧ — ٩٥ .

(4) Stanley-Lane-Pool. Saladine and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 353.

أن أهجم على قوم غير مستعدين للدفاع<sup>(١)</sup> :

ويتمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثة على جانب عظيم من الأهمية قصها (أودو الدولي) أحد رهبان القديس دينيس Denis ، وكان في صحبة لويس السابع ، في خلال هذه الحرب ، وكتب في وصفها ما نصه : « بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برأس عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، مُنوا بهزيمة منكرة على أيدي الأتراك المسلمين في مرات (فريجيا) الجبلية سنة ١١٤٨ م ، ولم يبلغوا مدينة (أتاليا) الساحلية إلا بشق الأنفس ، وقد نجح الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة التي كان يفرضها عليهم تجارة الإغريق ، في الإبحار إلى أنطاكية ، وتختلف المرضى والجرحى وعامة الحاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإغريق ، الذين أخذوا مبلغ خمسة مارك (مارك) من لويس على شرط أن يمدوا الحاج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يستطيعون اللحاق بزملاهم ، بيد أن الجيش لم يكدر يغادر المكان ، حتى وشى الإغريق بهؤلاء الحاج العزل إلى الأتراك ، وأخذوا يرقبون في صمت ما يعانيه هؤلاء التعسرين من المague و المرض ، والجراح الدامية . ولما حاولت جماعة من الحاج تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة ألف تلوذ بالقرار حين شاهدوا الأتراك قادمين ، هجم عليهم الترك ليتابعوا انتصارتهم ، ولكنهم رأوه في حالة من الشقاء تذيب القلوب و تستدر العطف ، فكفوا عن هجومهم ، وطفقوا يواسون المرضى ، ويغيثون الفقير ، ويطعمون الجائع الذي أشرف على الهالك ، وبدلوا لهم جميعاً العطايا في كرم

(1) Marin, Histoire de Saladin Sultan d'Egypte et de Syrie, t. I.  
pp. 78 et 95.

وسخاء . بل لقد اشتري بعضهم النقود الفرنسية التي كان الأغريق قد ابزروها من الحجاج قسراً أو خداعاً ، ووزعوا بأريحية وجود على المعوزين منهم ، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار (أى المسلمين) وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم في المسيحية من الأغريق الذين فرضوا عليهم السخرة ، وأذاقوهم العذاب ألواناً ، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متع قليل ، حتى إن كثيراً من هؤلاء التعسين دخلوا في دين مقتنيهم بمحض إرادتهم . لقد جَفَّوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساةً عليهم ، ووجدوا الأمان بين أحضان الكفار الذين كانوا رحماء بهم ، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهروا إلى صفوف الأتراك . آه ! إنها لرجمة أقسى من الغدر ! لقد منحوم الخبز ، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، وإن كان من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً منهم على نبذ دينه ، واكتفوا بما قدموه لهم من خدمات<sup>(١)</sup> .

وإذا لم يكن صلاح الدين عريياً ، وإذا لم يكن الأتراك عرباً ، فإنهم جميعاً مسلمون ، قد اهتدوا بهدوى هذا الدين الحنيف الذي أتى صاحبه لي tumult مكارم الأخلاق العربية التي نبتت في الصحراء عِيْقة الشذا ، وفاح أريجها في كل بلد حلّ فيه العرب والمسلمون .

ومما يروع أن يكون هذا مسلك الأتراك المسلمين ، ومسلك صلاح الدين ونور الدين ، وسوادهم من قواد المسلمين مع الأسرى الضعفاء بينما نرى ريتشارد قلب الأسد يذبح أسرى المسلمين الذين وقعوا بين يديه في موقعة عكا سنة ١١٩١ م

(١) T. Arnold. The preaching of Islam. ch. 3.

على الرغم من المعاهدة التي نصّ فيها على منحهم الحرية والحياة<sup>(١)</sup> ، فـأـيـ بـونـ شـاسـعـ بـيـنـ هـذـهـ الـأـخـلـاقـ الـفـظـةـ ،ـ وـالـعـاـمـلـةـ الـوـحـشـيـةـ ،ـ وـالـتـعـصـبـ الـذـمـيـمـ الـذـيـ يـظـهـرـهـ الغـرـيـوـنـ دـائـمـاـ ،ـ وـبـيـنـ تـلـكـ الـأـخـلـاقـ الـنـبـيـلـةـ ،ـ وـالـفـتوـةـ الـكـامـلـةـ الـتـيـ يـظـهـرـهـاـ الـمـسـلـمـوـنـ ؟ـ !ـ لـقـدـ اـتـكـبـ رـيـتـشـارـدـ فـيـ مـعـرـكـةـ عـكـاـ إـمـيـنـ عـظـيمـيـنـ :ـ قـتـلـهـ الـأـسـرـىـ الـضـعـفـاءـ الـذـيـنـ لـاـ يـمـكـنـ حـوـلـاـ وـلـاـ قـوـةـ ،ـ وـنـقـضـهـ الـعـهـدـ ،ـ وـغـدرـهـ وـخـيـانتـهـ .ـ

استمع إلى المقرizi يصف معاملة سلاطين الماليك لأسرى الصليبيين والمغول : وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها أحصيت الغنائم والأسرى ، وكان كل أمير يستولي على غنيمةه ، عدا الأسلحة فإنها كانت كلها تتول إلى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئاً منها إلا بإذنه . أمّا الأسرى فكانوا من نصيب السلطان ، الذي كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ، ويأمر بتوزيع ما بقي من النساء والغلمان على الأمراء ، أمّا الرجال ، فقد كان السلطان لا يتصرف في أمرهم بشيء إلا بعد معرفة أقدارهم ومراتبهم ، ومكانتهم بين ذويهم ، فمن كان منهم ذات مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأخل سبيله ، أمّا من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية ، فكان يرسل إلى أمكنة خاصة بأسرى<sup>(٢)</sup> .

حقاً إن عظمة الفتوة العربية ، والأخلاق الإسلامية تتجلّى في تلك المعارك الدامية التي دارت قدماً بين الغرب المتعصب والإسلام السمح ، وفي ذلك

(1) Marin Histoire de Saladin, Sulthan d'Egypte et de syrie, t. II. p. 306 et 307 — Stanley-Lane-Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 306.

(2) خطط المقرizi ج ٢ ، ص ٣٠١ وما بعدها .

يقول (ستانلى لين بول) : « لقد أجمع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية على أن فضائل المدينة : العظمة ، والسماحة ، والعفو ، والفروسية الحقيقة ، والتهذيب الدّمت ، كانت كلها في جانب العرب والمسلمين إبان هذا القتال المريّر<sup>(١)</sup> ». .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل تاريخ الفروسية الغربية فيما يأتي : —

١ - لم تظهر الفروسية الغربية متحللة بالشرف والمُثل الأخلاقية إلاّ في القرون الوسطى ، وهي قديمة لدى العرب قدم Culte de l'honneur تاريخهم .

٢ - كانت في طبقة خاصة من الناس هم البلاء ، وأمراء الإقطاع وفرسانهم ، وكانت صفة عامة للعرب جميعاً الذين لا يعرفون نظام الطبقات ولا يقرؤنها .

٣ - ابتدأت أول الأمر للحرب من وحشية محترفي الحرب ، ثم تدخلت فيها الكنيسة ، ثم انقلبت على الكنيسة .

٤ - أخذ فرسان الغرب عن العرب كلَّ تقاليد الفروسية الأخلاقية من شجاعة وكرم ، وسماحة ، وعفو عند المقدرة ، واحترام للمرأة ، ووفاء بالعهود ، وحماية للضعفاء . وإن لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب ؛ لأن هذه الصفات كانت طبيعية لدى العرب ، متصلة في نفوسهم ، وجرت عليها تقاليد them ، وورثوها عن آبائهم ، وحث عليها دينهم ، فتضافت عوامل عدّة على تمكينها في قلوبهم وطبعهم ، فلا يتکلفونها أو يستطيعون الانحراف عنها . وعلى العكس من ذلك فرسان الغرب فكثيراً ما غلبتهم طباعهم ، وطغى عليهم

(1) Stanley, op. cit. 307.

تعصبهم ، وإن أفادوا كثيراً من الدمامنة ورقة الجانب وكثيراً من سمات الفتوة العربية بعد أن اختلطوا بهم .

٥ - ظهر نظام الفروسيّة في أوربا أولاً مصبوغاً بصبغة عسكريّة بحث من غير أن يتسم بصفات خلقية شريفة ، ثم تخلّى بالأخلاق الشريفه بعد ذلك ؛ ولدى العرب ظهرت الفتوة الخلقية أولاً ولم يظهر نظام الفتوة إلا متأخراً على عهد الناصر لدين الله ، حين رأى العرب أنفسهم في حاجة إلى قوة ونظام يحفظان عليهم أخلاقهم .

وخير ما أختتم به هذه الفقرة هو قول ( لميتر ) J. Lemaitre : « من العجب أن الشعر العربي في أثناء الحروب الصليبية كان له تأثير خفي لست أدرى كنهه في صوغ المثل الأخلاقية لفرسان فرنسا »<sup>(١)</sup> .

وقول ( شاتوبريان ) : « تميز عهد الفروسيّة في الغرب بوجود النظام الإقطاعي ، وطغيان الإمبراطور وحاشيته ، وظلمهم للناس . أما العرب فلم يكن لديهم نظام إقطاعي ، بل كان العربي الذي يعيش في الصحراء ويقيم في خياله - مهما كان فقيراً معدماً - يتمتع بكامل الحرية ، وله من جميع الناس كل التقدير ، وهو شجاع ، حر ، كله نشاط وحيوية ، لا يعرف له سيداً غير الله »<sup>(٢)</sup> .

ولا يسعني أن أنتقل إلى نقطة أخرى من البحث قبل أن أشير بإشارة يسيرة إلى تأثير العرب على فرسان أوربا من حيث احترام المرأة ، والحب ،

(1) Wacyf Ghali. p. 1.

(2) Chateaubriand. Analyse raisonnée de l'Histoire de France ( Feodalité, Chevalerie etc. ) p. 82.

والشعر : ظهر فرسان أوربا في أواخر عهد الفروسيّة الغربيّة بمعظمه الاحترام للمرأة ، لا لتلك صاحبة المقام الممتاز في المجتمع فحسب ولكن لجنس النساء بعامة مهما كانت منزلتهن الاجتماعيّة ، ورَقَّت طباعهم الحربيّة ، وخشوتهم التي اشتهروا بها في القرون الوسطى ، وصاروا أدمن خلقا ، وألطف معاملة ، وأرق حاشية ، وكان هذا كله من أثر الفتوة العربيّة التي أفادوا منها كثيراً .

اشتهر العرب من قديم بعاطفهم المشبوبة ، وجههم القوى ، واحترامهم للمرأة ، حتى في الجاهلية ، ولما جاء الإسلام رفع من شأنها ، وأعطها حقوقها ، وساوى بينها وبين الرجل في الواجبات والتكاليف ، وكانت المرأة هي الملموسة للشّعراء ، تغنوا بمحاسنها وذكرياتها في أوائل قصائدهم ، بل نظموا في حبها أقوى الشعر العاطفي وأرقه في كل الأداب . واشتهر من بينهم من يهوى هوياً عذر يا شريفاً ، يرق بالإنسانية إلى منزلة التّجرد من المادة ، إلى مرتبة الملائكة . وهذه حقائق موجزة لا تحتاج منا إلى تقرير أو تفصيل ، وخير لنا أن نستمع إلى الباحثين الغربيين يُدلون بشهادتهم في هذا الموضوع : يقول (فلوريان) <sup>(١)</sup> : « هؤلاء المسلمون أرق الناس حباً ، وأكثرهم خشوعاً ، وأشدّهم عاطفة . وإذا أحب أحدهم امرأة — وإن حبّها حتى تصير أسيرة بيته — أصبحت حاكمة مطلق السيادة ، ومعبودة لا تنازع لها هذا الذي ملكت قلبها . من أجل النساء سعى العرب وراء المجد ، ولكن يسعطوا أمام أعينهن سعوا في سبيل النساء حتى يقدموا لهن أغلى ما يمكن من مال ، وحياة » .

ويقول (سيسموندي) في أوائل القرن التاسع عشر : « ترى نساء

(1) Floriant : *Précis Historique sur les Maures*.

المسامين مقدسات في أعينهم ، وليس الحجاب لهن سجنًا كما يزعم الناس ، وإنما هي كلا يعبدُن فيه ، ولا يسمح المسلم أن ينفص زوجته أى شأن من شؤون الحياة ، أو ألم من الآلام ، بل إنه — لرجولته الكاملة — يتحمل كل شيء وحده ، ولا يكلفها عملاً ، والشعر الذي يفصح به عن حبه وعبادته لها هو الذي نجده في شعر الفروسيّة الغربيّة<sup>(١)</sup> ، ويقول هذا وقد بلغت المرأة الغربيّة في الحضارة ، ورفعة المنزلة في المجتمع شأنًا كبيرًا ، فما بالك بكتاب القرون الوسطى .

تميز عهد الفروسيّة الغربيّة دون سواه بالحب الذي يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه الأمر في روما أو بلاد الإغريق ، فقد تحول الحب الساذج الخشن إلى احترام عميق للمرأة ، والبعد عن المادة ، وخللت المشاعر الساذجة مكانها إلى نوع من التقديس الصوفي ، كان المبدأ لدى الفرسان أن يحبوا . وكان الحب في نظرهم فضيلة ، بل منبع كل الفضائل ، ولهذا صار جميع الفرسان فضلاء ؛ لأنهم يحبون ، أو يتظاهرون بأنهم يحبون ، وصار الحب نظاماً تعليمياً وعرف الحب بأنه أصل كل نشاط ، وكل فضيلة خلقية ، وكل مجد .

صارت محسنات الحب في القرون الوسطى عقيدة لا تنازع ، وارتفع شأن الحب حتى أصبح مذهبًا اجتماعياً ، له قانونه ، ومحاكمه ، وكهنته ، والمستشهدون في سبيله .

ولا أدل على تأثير فرسان أوربا — ولا سيما فرسان وسط فرنسا وجنوبها — بالفتوة العربيّة من شيوخ ظاهرة غربية تميزت بها الفروسيّة الغربيّة

(1) Sismondi, op cit, p. 96.

في طورها الأخير، أى بعد عن أن اشتد اختلاط هؤلاء الفرسان بالعرب إبان الحروب الصليبية وفي إسبانيا ، وفي وسط فرنسا وجنوبيها ، تلك الظاهرة هي اقتران الشعر بالفروسيّة . فمنذ صار الحب مذهبًا أصبح قرض الشعر من الأمور الضروريّة التي يجب أن يكمل بها الفارس نفسه ، بل أصبح شرطًا من شروط الفروسيّة ، وصار لزاماً على كل الفرسان صغاراً وكباراً أن يقولوا الشعر ، ومن لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه ، ليتغنى بمحبه ، ويُفصح عن لوعج قلبه ، أنشد شعر سواه<sup>(١)</sup>.

وهذه الظاهرة ولا ريب لم تَشْعِ بینهم إلا لتأثيرهم البالغ بتقاليد الفروسيّة العربيّة ، فقلما تجد فارساً عربياً ، ولا سيما في العصر الجاهلي ، لا يقول الشعر ، ولا يتغنى بمحبه ، ويرتل آيات وجده . كان جُلُّ شعراء العرب الفرسان محبين ، ينشون في قصائدهم لوعج أفنائهم ، ونار حبهم ، الحقيق أو المتخيل على الأقل . فالغزل إما أن يصدر منهم عن عاطفة صادقة تبني عن قلب دلّه الوجد والعشق كما نرى عند عنترة ، وإما أن يكون عن تظاهر بهذا الحب دون أن يكمن وراءه صدق في العاطفة . وكذلك كان كل شعراء (التروبادور) محبين أو تظاهروا بالحب ، وكانوا يغشون قصور الملوك والأمراء كما فعل العرب من قبل : إذ توجهوا بقصائدهم إلى الخلفاء والأمراء . ويقول الأستاذ جب<sup>(٢)</sup> : « في نهاية القرن الحادى عشر ظهر في جنوب فرنسا على حين غرة ضرب

(1) Faurel, op. cit, t. I. p. 529.

(2) H. R. Gibb : The Legacy of Islam.

أنظر ترجمته العربية ج ١ ص ٥٧ وما بعدها .

جديد من الشعر ، صناعته جديدة ، وله موضوع جديد ، ونفسية اجتماعية جديدة .  
وليس في الأدب الفرنسي القديم إلا شيء قليل مما يمكن اعتباره مهدًا لهذا التطور ، على أننا نرى من جهة أخرى أن في هذا الشعر الفرنسي الجديد بعض وجوه شبه قوية بينه وبين نوع خاص من الشعر الذي كان معاصرًا له في إسبانيا العربية ، وهل هناك أقرب إلى العقل والبداهة من أن نظن أن الشعراء الأقدمين في إقليم (پروڤانس) كانوا متأثرين بالمناذج العربية .

« ولنست جدة الشعر البروڤانسي آتية من ناحية موضوعه حسب ، ولكنها آتية من ناحية الطريقة التي اتبعت في صوغ هذا الموضوع ، وذلك العشق الخفاف الذي كان يعبر عنه هذا الشعر تعبيرًا غنياً بالصور الخيالية ، ممتازاً بالصدق والتجميد ، ولم يكن من نوع ذلك العشق الذي كانت تعبير عنه الأغاني الشعبية الساذجة المفعمة بالوله والهيم ، وإنما كان هذا العشق مذهبًا عاطفياً .  
ولم يجد ذلك العشق مثله الأعلى في الفتاة ، وإنما وجده في الزوجة ، وهي التي كان لتقديسها ، وتقدير خدماتها سلطان أخلاقي أثر في حياة الشاعر فجعلها حياة غنية نبيلة معاً ، فـأين نشا إذاً هذا الضرب من الحب ، أو هذا التقديس للسيدة ؟

« لم يكن هذا الضرب من الحب نتيجة لتقاليد ذلك العصر ، كما تظاهر ممثلة في آداب الشعب ، سواء كانت هذه الآداب تيتونية ، أو رومانية . يقول برتيلير : ولم يحدث أن امرأة في أي زمان ومكان كانت تحنى رأسها ، وتختضن بفعل القوة والبطش والجبروت والسلطان أكثر مما كانت تفعله المرأة من نساء الطبقة المتوسطة في العصور الوسطى » .

« ولقد كان للحب منزلة عظيمة في الشعر العربي ، والعرب هم أول من

عن بتحليل الحب ، والعاطفة فهذا ابن داود في كتاب الزهرة تراه يرتب في شعره كل مظاهر الحب ويصنفها ، ويفصلها ، ويشرح طبيعة الحب وقوانينه وتأثيراته ، وطرق التعبير عنه ، وكان في كل هذا متأثراً بذلك المثل الأعلى الذي نصّ عليه الأثر : « من عشق فكتم فutf فمات فهو شهيد ». .

ولقد كان للشعر في الأندلس منزلة سامية ، وكان يجرى على كل الألسنة . ومن بين أولئك الشعراء الذين لا حصر لهم ، والذين عرفت أسماء طائفة منهم ، وأغفلت أسماء طائفة أخرى يصح أن تتخذ اسم الشاعر الفارس سعيد بن جودي ، وقد اقتبس المستشرق دوزي أشعاره مثلاً على موضوعنا هذا<sup>(١)</sup> ، وهنا نرى أن المثل الأعلى للحب العذري الأفلاطونى قد صادف قبولاً عاماً ، وبابن حزم يضرب المثل في الإسلام للتطرف الديني والجدل العنيف ، وشهرته في الغرب هي أنه مؤسس علم الأديان المقارن ، ومع ذلك فقد ألف كتاباً في الحب هو كتاب ( طوق الحمام ) ، وضمنه أشعاراً شرح بها ما كتبه ، جاء كتابه معادلاً لكتاب الزهرة ، بل ربما كان متتفوقاً عليه . وبابن حزم هو الذي يعتقد بالنظرية الأفلاطونية في الحب وهي : (أن الحب وسيلة بها يتحدى في الحياة شقان منفصلان ماهية علوية واحدة ) ، وبهذه الروح الخيالية الحالصة كان يكشف ابن حزم عن تحليل للحب ، هو من وجوه عدة ذلك التحليل الذي تراه عند جماعة (الترو بادور) في القرن التالى ، وإن كان هؤلاء قد قصرروا عن إدراك ما سما إليه ابن حزم في وصفه للحب .

ولئن كان كثير من الشعر العربي بالأندلس يلقى الشعرا على سجيتهم

(1) Histoire de musulmans de L'Espagne.

في غير ما تكلف ، فإن ما وصل إلينا منه كان في الغالب شعرًا مصقولاً متقد  
السبك ، أنتجته قرائح الشعراء ، والشاعرات في البلاط ، وكان هؤلاء هم  
الأristocratie في صناعة الشعر ، ولم يكن الأمراء والوزراء أنفسهم يستشعرون  
ضعة في بحارة أولئك الشعراء ، بل كان من الشعراء أنفسهم من يقلدون  
مراتب الوزارة والإماراة .

ويقول الأستاذ جب كذلك : « في بداية القرن الثاني عشر الميلادي ظهر نوع جديد من الشعر هو الزجل ، على يد (ابن قزمان) ، وهو وإن كان معاصرًا للأوائل من شعراء الترداد - فإنه كما صرح هو بذلك - كان يسلك طريقة ثابتة ومألوفة في الأندلس . أما شعره من حيث هو فن ، فقد كان عربياً في صنعته وقوافيه ، وإنما شمله اقلاب من ناحية العروض ، فأصبحت أوزانه معتمدة على النبرات ، وليس معتمدة على التفاعيل . وقد كانت مقطوعاته الشعرية محكمة البناء لكي تقوم بعثتها جماعة ؛ إذ أن الكثير من أشعاره كان عبارة عن مآسٍ تمثيلية وضفت ليتغنى بها المتكتبون بالشعر في الطرق » .

وإذا وازنا بين هذه المقطوعات الشعرية عند الأقدمين من شعراء (پروقانس) تكشفت لنا مشابهات ذات بال ، فهذه أشعار (وليم دى بواتيه) William de Poitiers كانت تصاغ أحياناً في نفس الأوزان التي صيغت فيها أشعار ابن قزمان ، وأحياناً أخرى تختلف عنها اختلافاً يسيرًا مصدره الرغبة في جعل تلك الأوزان ملائمة للغناء الفردي ، بعد أن كانت معدة لأن يتغنى بها جماعة<sup>(١)</sup> .

(1) Gibb : The Legacy of Islam.

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه «إذا كانت أوربا مدينة بدياتها لليهود فكذلك هي مدينة بقصصها للعرب ، فإننا ندين لهذه الثقافات التقاربية التي استوطنت المضبة السورية العربية — وهي المضبة التي تضم فيما تضم فلسطين — بأكبر قسط من تلك الحيوية التي جعلت أوربا في القرون الوسطى تختلف من الناحيتين الفكرية والروحية عن الإمبراطورية التي كانت تحت الحكم الروماني<sup>(١)</sup> .

كان يصاحب شاعر التروبادور عازف يتغنى بشعره ، ويوقع الأنقام على آلة ذات ثلاثة أوتار ، متشبهاً بالشاعر العربي الذي كان يصحبه الرواى يتغنى كذلك بشعره ، وهذه الآلة الموسيقية التي كانت تصاحب الشاعر البروفانسى شيمهة تمام الشبه بتلك الآلة التي كان يحملها الرواى الأندلسى ، وهى قربة جد القرب من (ربابة) الشاعر المصرى الذى كان يسامس الناس بإنشادهم قصة عنترة أو أبي زيد الهمالى فى أحياه القاهرة الوطنية ، وفي منازل الأثيريات بالريف.

وكلما تباهى الشاعر الفارس من شعراء التروبادور بأنّ محبوبته ذات جاه وحب ونبل أمعن في إخفاء اسمها ، وكفى عنه ، ولمّع به من بعيد ، ولكن لا يفصح به أبداً ، وهو وحده الذى يدرك عظمتها ، وذلك ليذهب فيه ظن الناس كل مذهب<sup>(٢)</sup> . ولعلك تلحظ ما في هذا من شبه بالشاعر العربي الغزل الذى كثيراً ما كفى عن محبوبته ، بل إن من التقاليد العربية التي

(1) Mackail : Lectures on poetry. P. 97 & 125 London. 1911.

(2) Fauriel. op. cit. t. II. P. 23.

فاسى منها المحبون أهوا لا أن أحدهم إذا صرخ باسم محبوبته في غزله حُرم عليه لقاوتها ، والزواج منها ، وطالما استعمل الشعراء صيغة المذكورة في أشعارهم الغزلية إمعانًا في إخفاء المحبوبة ، وعدم افتضاح حبها ، وقد يسمونها أحياناً بأحد الأسماء الشائعة في الشعر كهند ودَعْدُ والر باب .

وإذا فحصنا عن وصف المرأة عند شعراء التراث بادور وجدناه كبير الشبه بما جاء في الشعر العربي فهي : « نِسْرَةُ كُورَدِ الرِّبَعِ بِيَضَاءِ كَالْزَّنْبَقَةِ أوَ الْأَسْ ذَهَبَيَّةُ الشِّعْرِ ، لها عنق كالعاج المصقول ، ووجه حلول القسمات مستدير ، وجبهة عالية ناصعة مصقوله كالمرأة ، وعيونها خضراء دائمة المرح والضحكت ، وفيها صغير كفم الطفل ، وشفتها في لون زهرة الخوخ ، أمّا أسنانها فناصعة البياض ، صغيرة ، منسقة ، متلاصقة . وهي عَبْلَةُ الشَّوَّى ، مُدَمَّلَجَةُ السَّاقِين ، مستديرة الكعبين ، لها خَصْرٌ رقيق ، وقد رشيق ، وصدر مليء ، ويد رَخْصَةٌ بِيَضَاءِ طَوِيلَةٍ »<sup>(١)</sup> .

وهذا ما كان يتطلبه العرب من المرأة استمع لعربي يقول الآخر وقد أراد أن يتزوج : « خذ ملساء القدمين ، لقاء الفَخَذَين ، ضَخْمَةَ النَّرَاعِين ، رَخْصَةَ الْكَتَنَفِين ، ناهدةَ الثَّدِين ، حمراَةَ الْخَدِين ، كحلاَءَ الْعَيْنِين ، زَجَاءَ الْحَاجِين <sup>(٢)</sup> لمياء الشَّفَّتِين ، بِلْجَاءَ الْجَبِين <sup>(٣)</sup> ... الخ <sup>(٤)</sup> ، وهاك ما قالته عصام حين أرسلها الحارث بن عمرو ملك كندة لترى له ابنته عوف بن مُحَمَّد فجاءت تقول له :

(١) Gautier. La Chevalierie, PP. 375 et suiv.

(٢) دقique الحاجين في طول .

(٣) البليج تقاؤة ما بين الحاجين .

(٤) راجع بلوغ الأربع للألوسي ج ٢ ص ١٥

رأيت جبهة كالمراة المصقوله ، يزينها شعر حalk كاذناب الخيل ، إن أرسلته خلته سلاسل ، وإن مشطته قلت عنacid جلاها الوابل<sup>(١)</sup> ، وحاجبين كأنما خطابلم ، أو سودا بحمد<sup>(٢)</sup> ، تقوسا على مثل عين الطيبة العبرة<sup>(٣)</sup> ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع<sup>(٤)</sup> ، حفت به وجنتان كالأرجوان<sup>(٥)</sup> ، في بياض كالجحان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيد المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذات أشر<sup>(٦)</sup> ، تقلب فيه لساناً بفصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي فيه شفتان حمروان ، تخلبان ريقاً كالشهد ، في رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت في صدر كصدر دمية ، وعضدان مُدْجَان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يُسَّ ، ولا عِرق يُجَسَّ ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لِيَنْ عصبهما ، تعقد منهما إن شئت الأنامل ، تتأفي ذلك الصدر ثديان كالرمانتين . . .  
الخ<sup>(٧)</sup>.

فن كل ما تقدم ترى عظيم تأثر شعراء (پروفانس) وفرسانهم بالشعر العربي ، وأساليب الفتوة العربية ، في معانيها الخلقية ، ومثلها العليا ، من شجاعة ووفاء بالوعد ، وكرم ، واحترام للمرأة ، وأنهم ألهموا هذا الشعر الذي يغوص بالعشق والهوى العذري ، حين حاكوا العرب في فنونهم ، وأنهم صاروا يقولون الشعر على النط普 العربي : موضوعاً ، وأسلوباً ، وقافية ، ولواناً وخياراً

(١) الوابل : المطر الشديد .

(٢) عبرة : ممتئنة الجسم ، ناعمة طولية .

(٣) الصنيع : الصقيل ، المجرب .

(٤) الأرجوان : الصبغ الأحمر الشديد الحمرة .

(٥) ذات أشر : فيها تحزيز خلقة لا عن صنعة ، وذلك لدقتها وحداثها .

(٦) راجع بلوغ الأرب للألوسي ج ٢ ص ١٨ .

وطريقة إنشاء . فهل ثمة من يجادل في أن الفتوة العربية قد أثرت أثراً كبيراً  
في فروسيّة الغرب؟ .

ولا أريد أن أتعرض للقصص الغربي الذي تأثر بالفروسيّة العربية بشيء  
من التفصيل ، فخسي تلك الإشارات العابرة التي سبقت إليه ، ولا أريد أن  
أتعرض لذكر مئات الكلمات التي ساقها فوريل ، ورابيرا ، وسيسموندي ،  
وغيرهم للتدليل علىأخذ الفروسيّة الغربية من العرب ، وحسبك أن تعرف  
أن كلة ترو بادور مأخوذة من كلة طرَبْ أى غَنَى ، وإن كان بعضهم يقول :  
إنها مأخوذة من الكلة trouver بمعنى وجد ، ولعلك تعلم أن وَجَدْ من معانيها  
في العربية عَشِقْ من الْوَجْدْ وهو الهيام وشدة العشق .

\* \* \*

ولنعمد الآن إلى شيء من الموازنة بين قوانين الفروسيّة الغربية ، وتقالييد  
الفتوة العربية ، فنرى أن قانون الفروسيّة كايراه جوتية<sup>(1)</sup> يتكون من ثمانى  
أصول ، منها أربعة دينية وأربعة مدنية ، فأما الدينية فهي :

١ - أن تصدق كل تعاليم الكنيسة ، وتمتنع لأوامرها ، فإن فعت  
ذلك ولو أدى هذا إلى استشهادك في سبيل عقيدتك دخلت الجنة . وهذا المبدأ  
الأول مقرر في الإسلام فالله سبحانه وتعالى يقول : «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا،  
إِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مُنْوِعًا، إِلَّا الْمُصْلِينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى  
صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمُحْرُومِ، وَالَّذِينَ  
يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، إِنْ عَذَابَ رَبِّهِمْ

(1) Gautier Chevalerie. P. 31.

غَيْرُ مَأْمُونٍ ، وَالَّذِينَ هُمْ لَفُرُوجُهُمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَكَّتْ  
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ  
هُمْ لَا مَانِتْهُمْ وَعَاهَدُهُمْ رَاوُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى  
صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مَسْكُرَمُونَ<sup>(١)</sup> .

وَقَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَقُولُوا مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ ،  
وَلَكُنْ لَا تَشْعُرُونَ<sup>(٢)</sup> » .

وَقَالَ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ، وَالشَّهِداءُ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ ، لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ وَنُورٌ هُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ  
الجَحْمِ<sup>(٣)</sup> » .

وَقَالَ تَعَالَى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَخَسُنَ أُولَئِكَ رَفيقًا<sup>(٤)</sup> » .

٢ - أَنْ تَحْمِيَ الْكَنِيسَةَ ، وَتَبْذِلَ كُلَّ مَا تُسْتَطِعُ مِنْ مَالٍ ، وَنَفْسٍ ،  
وَنَفِيسٍ فِي سَبِيلِ نَصْرَهَا وَتَقْوِيَتِهَا .

وَقَدْ أَمْرَ اللَّهُ سَبِيحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ كَرِيمَةً بِالْمَدْفَاعَ عَنِ الدِّينِ  
وَحْمَانِيهِ ، وَالْبَذْلَ فِي سَبِيلِ نَصْرَتِهِ : قَالَ تَعَالَى : « الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهَاجَرُوا ،  
وَجَاهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعَظَمُ دَرْجَةً عِنْدَ اللَّهِ ؛ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَائِزُونَ<sup>(٥)</sup> » .

(١) سورة المعارج من الآية ١٩ إلى ٣٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٢ .

(٣) سورة الحديد الآية ١٩ .

(٤) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٥) سورة التوبة الآية ٢٠ .

وقال تعالى : « أَذِنْ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعِظَمَهُمْ بِعَضَ لَهُدُمَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعَ ، وَصَلَواتُ ، وَمَسَاجِدُ يُذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ<sup>(١)</sup> ». »

وقال تعالى : « انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهُدو بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذِلِّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(٢)</sup> ». »

— والأمر الثالث أن تشن على الكافرين حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة . فإذا كان الأمر الثاني قصد به الدفاع عن الكنيسة ، فإن الأمر الثالث قصد به إخضاع الكافرين لأمر الكنيسة ، فالثانى سلبى ، والثالث إيجابى .

لقد نفذ المسيحيون هذا الأمر بالدقّة ، ولم يتمّاونوا فيه يوماً واحداً في حربهم الطويلة مع المسلمين حتى اليوم ، نفذوه بحماسة ، ووحشية ، وتعصب ذميم ، ويقول جوته : « ليس أدبنا القصوى إلا أحاديث هذا الصراع الكبير المريع » ؛ وقد استشهد بهذهين البيتين ، وهما يفصحان عن حال المسيحيين تمام الإفصاح في صراعهم ضد المسلمين :

« إِنَّهُمْ يَحَارِبُونَ جَمْعَ الْأَتْرَاكَ مَتَطْوِعِينَ وَكَثِيرًا مَا تَعَمَّدُوا فِي دِمَائِهِمْ ». »

(١) سورة الحج الآيات من ٣٩ - ٤١ .

(٢) سورة التوبة الآية ٤٠ .

ولم يخفف الموت ، والهزيمة أحياناً من حِدَّة الحقد في قلوب هؤلاء الغزاة الصليبيين القساة ، بل تراهم في معاركهم ضد المارقين يتخيرون أن نعيم السماء عظيم ، ولذلك يُثبّتون في المعركة لأعدائهم وهم يقولون : إذا كنا راقدين في جنات النعيم ، فإننا سننزل منها لحاربة المسلمين<sup>(١)</sup> » .

ويقول واصف غالى باشا<sup>(٢)</sup> : « إننا نعلم أن المسلمين في أوج قوتهم وعظمتهم قد أظهروا كثيراً من رحابة الصدر باطنًا وظاهرًا . أما في الظاهر ، فإنهم لم يقدموا أبداً على هذه الأفعال التي تنم عن تعصب ذميم ، ولم يقهروا أحداً على الإسلام في حربهم الطويلة مع الصليبيين ، وفي حروبهم مع القوط بأسبانيا ، أو مع جنود أوروبا بفرنسا وسوهاها ؛ لأن القرآن في الحقيقة يطالهم بأن يُذروا من يريدون الحرب معه ، ويدعوه أولاً إلى الإسلام : « زادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . وجاد لهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضلل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ، وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولين صبرتكم فهو خير للصابرين<sup>(٣)</sup> » .

ويقول تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ<sup>(٤)</sup> » . ويقول السير توماس أرنولد<sup>(٥)</sup> : ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مُدَبَّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أي اضطهاد منظم

(1) Gautier. op. cit. P. 71.

(2) Wacyf Ghali. op. cit. P. 212.

(3) سورة التحل الآية ١٢٤ .

(4) البقرة الآية ٢٥٥ .

(5) The Preaching of Islam, ch. 3.

قصد منه استئصال الدين المسيحي ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخططتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من إسبانيا ، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهبًا يعقب عليه متبوعه في فرنسا ، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مُبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثين سنة ؛ ول كانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزلاً تماماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين ، وهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل في طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم » .

إننا نقول في غير فخر أو ادعاء أو تعصب لدينا : إن العرب المسلمين في فتوحاتهم العظيمة التي حولوا بها وجه التاريخ كانوا مثلاً أعلى للجنود الشرفاء والفرسان العظام جاءوا للعالم بخير رسالة ، تحرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن سجن القهقري والذل ، إلى روضة العدل والحرية ، ولذلك قابلوهم بكل ترحاب وفتحوا لهم صدورهم ، وتحولوا طائرين غير مقهورين إلى هذا الدين الحنيف ، ومن أبى منهم إلا التمسك بدينه ، فهو في حل من أمره ، غير مضطهد أو مُساعِ إليه ، استمع إلى ميشيل الأكبر اليعقوبي بطريق أناطاكية ، وهو يقرر أن يد الله مع المسلمين في فتوحاتهم ، وأنهم أتوا لخير العالم وبركته ، وذلك بعد أن ظلت كنائس الشرق تحت الحكم الإسلامي خمسة قرون ، لأنه كتب ما كتب في منتصف القرن الثاني عشر ، فذكر فظائع هرقل ضد المسيحيين إخوانه في الدين وقال : « وهذا هو السبب في أن إله الإنتقام الذي

تفرد بالجبروت والقوة ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتىها من يشاء ، ويرفع الوضع — لمارأى شرور الروم الذين جئوا إلى القوة فتهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ، ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائهم للأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم ، ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وُجِدت في حوزتها ، ومع ذلك فلم يكن كسباً هيئاً أن نتخلص من قسوة الروم وأداهم ، وحقفهم ، وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام<sup>(١)</sup> » .

ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في (خل) كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : « يا عشر المسلمين ! أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفي لنا ، وأرأف بنا ؛ وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاة علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »<sup>(٢)</sup> .

لقد كان دَيَّنَ المسلمين منذ خرجوا للجهاد في سبيل الله العمل بتعاليم القرآن الكريم ، وسنة نبيه العظيم ، رائدُهم هداية البشر ، والنظر إليهم نظرتهم إلى المريض العليل المحتاج إلى الدواء ، أو الأسير المُعْنَى الذي أضر به القيد ، وأذلَّ

(1) Michael the Elder: Chronique. vol. II. PP. 412—13 éditée Par chabot, Paris 1899 — 1901.

(2) فتوح الشام محمد بن عبد الله الأزدي البصري ط كلكتا ص ٩٧ .

نفسه الغلُّ فهو في أمس الحاجة للحرية والمواساة . هاكَ أبا بكر يخاطب أولَ  
بعث وجهه للغزو بعد وفاة رسول الله ، ويعطى له التعاليم التي ما حاد عنها  
المسلمونْ قط ، والتي كانت رحمة وبركة على العالم أجمع : « يا أيها الناس قفوا  
أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنِّي : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ،  
ولا تُمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقرُوا  
نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرةً مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ،  
ولا بعيراً إلا لما كَتَه ، وسوف تموتون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع  
فدعوهن ، وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها  
ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً فاذ كروا اسم الله عليها <sup>(٣)</sup> » .

وإنما نقدر على ذلك ، وقد ردنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونخُنَّ لَكُمْ علَى الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إنْ نصَرَنَا اللهُ عَلَيْهِمْ » ، وبذلك ردَّت مبالغ طائلةٌ من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : « ردَّكم اللهُ عَلَيْنَا ، ونَصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ (أى على الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كلَّ شَيْءٍ بقي لنا »<sup>(١)</sup> .

بمثل هذا الخلق الْكَرِيم ، والسماحة الحلوة ، والدين الرحيم انتصر المسلمون ، وغَزَّوا القلوبَ قبل أن يغزوا البلاد ، وشَتَّانَ بين فظائع المسيحيين وحسنات المسلمين ، حتى لقد آثرَ المسيحيون من أهالي الشام وفلسطين حكم المسلمين على حكم الصليبيين بعد أن أجلوهم عنها ، ولما فتحت بيت المقدس رحب أهلها المسيحيون بالسادة الجدد ، واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم<sup>(٢)</sup> لأنهم ذاقوا من فظاعة الصليبيين الأوربيين وعسفهم ما لا يطاق .

لم يلْجأ المسلمون يوماً إلى اضطهاد المسيحيين ، وإكراههم على الإسلام إلا في النادر ، ثقة منهم بأن الإسلام دين العقل ، وأن كلَّ من وَهَّبَ اللهُ شيئاً من العقل سيهتدى للدين من غير قهر ، وسيكون إسلامه صحيحًا خالصاً لا نفاق فيه ، فيفيد الأمة ، ولا يكون دسيسة عليها . وقد حارَ كثير من الباحثين الغربيين في سر عظمة الإسلام ، فنفهم من رأى أن « الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتراكية والتاريخية ، فإن تعريف الأسلوب Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أساس المبادئ المستمددة

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٨١ القاهرة ١٣٠٢ هـ .

(٢) H. Prutz : Kulturgeschichte der Kreuzzüge, PP. 146 - 7 - 150 Berlin 1883.

من العقل والمنطق ينطبق على الإسلام تمام الانطباق . . . قد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعترى به التحول ، ومن العسير أن يجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ، ومن المتوقع لعقيدة خالية كل الخلو من جميع التعقييدات الفلسفية ، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادى أن تمتلك ، وإنها لم تمتلك فعلاً ، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس »<sup>(١)</sup>

ويرى بعضهم أن سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهى عصوره حين الفتح كامنٌ في إدراك هذا الدين وجود الله ، وليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة ، وإن إرادته هي العليا ، وأن قوته لا تُحَدّ ، وهذا معناه الإيمان بأن هناك إرادة؛ لأن كمة إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفزع والرهبة ، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة ، يظهرها ، ويلتزم الطاعة لها . . . وهذا هو الذي أمد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهـر ، تملك الوسائل التي بعثت فيهم روحًا من الانقياد الحربي ، والنظام العسكري ، كما بعثت فيهم ازدراء الموت ، على صورة لم تعرف قط من قبل في أي نظام سابق ، وهذا هو الذي يعطينا في كلـة — حسب ما مجده متمثلـا في أي روح صادقة فعالة بين المسلمين — ذلك العمود الفقري لأخلاقهم ، أعني ذلك الثبات في العزيمة ، والقوة في الإرادة ، وذلك الصبر الذي لا يعرف

(1) Edouard Montet : La Propagande Chrétienne et ses adversaires Musulmans, PP. 17 — 18. (Paris 1890)

سبيلًا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب ، وأصعبها ، كل ذلك قد ميزَ خيرُ أنصار هذه العقيدة وجمَلَهم »<sup>(١)</sup> .

ولا أريد هنا أن أستطرد ، فأورد عدًّا من النصوص الوفيرة لدىَ والتي سجل بها علماء المسيحية إعجابهم بالإسلام ، وعدم جلوئه إلى القسر والإكراه في سبيل دعوته عملاً بقوله تعالى ، مخاطبًا نبيه : « أَفَأَنْتُ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ، وحسبِي أن أقول ما قال فوريل : « ليس في التاريخ أى حادثة تدل على اضطهاد المسلمين أو ظلمِهم للمغلوبين »<sup>(٢)</sup> .

٤ — والمبدأ الرابع من مبادئ الفروسيَة الغريبة الدينية هو الحافظة على أمراء الإقطاع مهما كانت هذه الأوامر ، ولو خالفت العقل ، لأن نظرية التفويض الالهي كانت سائدة في ذلك الوقت ، وكان الحاكم يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ، يفعل ما يشاء دون مراجعة أو نقض ، أما الإسلام فقد أمرنا حقاً بطاعة أولى الأمر حيث يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَنْتُمْ مِنْكُمْ »<sup>(٣)</sup> ، ولكن طاعة أولى الأمر ليست طاعة عمياً ، فإن الإسلام — دين العقل والمنطق — قد حدد هذه الطاعة في قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا طَاعَةَ لِخَلْقٍ فِي مُعْصِيَةِ الْخَالقِ » وجاء في الأحكام السلطانية لاماوردي : « مِنْ الْوَاجِبِ أَنْ تُنْصَتِ إِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرَ ، وَأَنْ تُطِيعُوهُمْ طَلَماً أَنْ أَوْاْمِرُهُمْ لَيْسَ فِيهَا مَا يُغْضِبُ اللَّهَ ، فَإِذَا أَمْرَوكُمْ بِمَا يَغْضِبُ اللَّهَ فَلَا تُنْصَتِ إِلَيْهِمْ وَلَا تُطِيعُوهُمْ »<sup>(٤)</sup> .

(1) Dr. G.A. Lefroy : Mankind and Church. P 283—4 (London 1907)

(2) Fauriel. Histoire de la Gaul Méridional. t. III. P. 59,

(3) سورة النساء الآية ٥٩ .

(4) الأحكام السلطانية لاماوردي - ٣ ص ١٦١ .

إن علاقة الحكم بالحاكم قد حددّها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حيث يقول : « والذين يَحْتَنِبُونَ كُبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، والذين استجابتوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرُهم شُورَى بَيْنَهُمْ ، وما رزقناهُمْ يُنْفِقُونَ ، والذين إذا أصَابَهُمْ الْبُغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مُّثْلِهَا ، فَنَعَفَ وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنْ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلَمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنْ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ<sup>(١)</sup> » .

بل إن العرب في الجاهلية كانوا في مثل هذه الديمقراطية العجيبة ، لا سَيِّدَ ولا مَسُودَ ، وإنما الرئيس منهم شخص أهلته صفات الممتازة لأن يرأس قومه ، فإذا حاد يوماً عن المجادلة ، أو غرَّه ما هو فيه من سلطان خرجوا عليه ، بل قتلوه ، ولقد حرَّرت بذلك أمثلة عدة في هذا الكتاب عن ذلك ، وحسبى هنا أن أذكر ما قال دوزي : « كان يشترط في رئيس القبيلة ست صفات : الجود والشجاعة ، والحلم ، والصبر ، والتواضع ، والفصاحة . ولم يكن يعترف به رئيساً حتى يعطى كلَّ ما يملك ، وحتى يضع تحت قدميه كلَّ ما هو عزيز عليه ، وحتى يخدم قومه كما يخدم العبد سيدَه<sup>(٢)</sup> » .

وهذا مثلاً واحداً أضر به هنا ليدل على المساواة التامة بين المسلمين ، وأن الحاكم ، ولو كان رسول الله لا يستطيع أن يفلتَ من القصاص ، في غزوة

(١) سورة الشورى : الآيات ٣٦ - ٤٣ .

(2) R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne de 711 a 1110  
نقلًا عن المبرد ص ٧١ .

بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدلُ الصنوف ، وفي يده قدحٌ يعدل به القوم فمرَّ سواد بن غزية ، وهو متقدم من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استوي يا سواد ، فقال : يا رسول الله ، أوجعتني ، وقد بعثكَ اللهُ بالحق والعدل ، فأؤديْني ، فكشف رسول الله عن بطنه وقال : « استقِدْ » ، فاعتني سواد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل بطنه ، فقال النبي : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله ! حضرَ ما ترى ، فاردتُ أن يكونَ آخر العهد بك أن يمسَّ جلدك ، فدعى الرسول له بخير<sup>(١)</sup> .

وأظننا لا ننسى حادثة عمرَ بن الخطاب مع عمرو بن العاص حين جاء المصري يشكوا إليه ابنه ، واستدعاه من مصر وقال له : « يا عمرو متى استعبدتم الناسَ وقد ولدتم أمَّهاتُم أحراً » ، وحادثة الأعرابي مع عمر بن الخطاب حين خطب الناس وقال لهم : لو رأيتم في اعوجاجاً قوموني ، فقال له الأعرابي : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا » فain كل هذا من نظرية التفويف الإلهي ، والحكم المطلق التي سادت أوربا في عهد الإقطاع ؟ ؟

أما الأصول الأربع الدنيوية في الفروسيّة كا نصّ عليها ( جوتية ) فهي : الشجاعة ، والوفاء بالوعد ، والسماء ، ونجمة الضعف . ولقد أفضت في تحليل هذه الصفات في الفصول الأولى من هذا الكتاب وأسهبت في الاستشهاد بالشعر ، والحوادث ، كما أنتي في هذا الفصل وازنت بأكثر من مثل بين فروسيّة الغرب ، وفتوة العرب ، وبينت ذلك التفوقُ الخلقي الذي امتاز به العرب ، والذى كان لفرسان أوربا مثلاً يُختذى ، وهدفاً يُدلَّفُ صوبَه

(١) سيرة ابن هشام : ٢ ص ٢٣٨ ، وتاريخ الطبرى ٢ ص ٢٦٧ .

إننا لا نماري في شجاعة فرسان أوربا ، ولكنها كانت شجاعة غير مهذبة ، ينقصها الإيمان بالمثل العليا ، وفيها وحشة وقسوة ، وغدر ، ولقد مرّ بك ذلك المثل السيء الذي ضربه (بيير القاسى) ملك قشتالة مع أبي سعيد أمير غرناطة وهو في ضيافته ، وكيف اغتاله لينهب خاتمة الثمين الذي فتنه ، وأسوأ منه ما فعله ريتشارد قلب الأسد مع أسرى موقعة عكّا ، وكيف ذبحهم ، وخفرَ ذِمَّتَهُ ، ونقض عهده ، وأبِي إِلَّا أن يكون أشد قسوة من وحش الفلاة ، فهل كان هذا هو العفو عند المقدرة ؟ وهل بهذا أمرتهم فروسيتهم ؟

إن تاريخ الحرب المسيحية ملطخ بالدماء ، وينم عن تعصب ذميم وحقد بالغ ، ووحشية فظيعة لا تمت إلى الإنسانية أو الدين بأى صلة . وقلما تجد مثلاً نبيلاً أو معاملة طيبة في حروبهم القديمة والحديثة ، بل ترى الغدر والخيانة ، ونقض العهود دينهم وشيمتهم ، ويظنون أنهم أتوا من رجاحة العقل ، وحصافة الرأى ما يوحى لهم بهذا ، بل والأدهى من كل ذلك أنهم يدعون التفوق الجنسي والعقلى على غيرهم من الأمم . إذا كانت العبرة بالبطش وбин يملك اليوم المدفع والقنابل فهم لا شك أرقى ، ولكن العبرة بالنفس التي تكمن وراء المدفع ، وبالنبل والخلق الكريم . إن غاية الإنسانية هي الحد من الغرائز الدنيا ، والبعد عن العصور الأولى البدائية ، والسمو بالسلوك الخلقي للإنسان ، ولكن ما شاهدناه منهم قد ياماً ، وما نشاهده اليوم ينبغي بأنهم أبعد الناس عن إدراك هذه المعانى الكريمة .

هذا هو (دياز دي بifar) المشهور بالسيد<sup>(١)</sup> القمييطاري يحارب في صفوف المسلمين

(١) وعن قصة حياة حكى (كورنى) الشاعر الفرنسي فصته المشهورة (Le Cid)

بالأندلس اليوم ثم يخونهم غداً ، وأخيراً يحارب يوسف بن تاشفين ، ويحاصر بلنسية حصاراً يدوم تسعة أشهر ، فتسلم في ١٥ من يونيو سنة ١٠٩٤ ، « وكان يرجى من السيد أن يكون في أخلاقه من النبل ما هو جدير بفرسان العصور الوسطى ، وما هو خليق بفارس له شهرته ، ولكنه كان على عكس ذلك ، فما كاد أهل بلنسية يسلمون له حتى نكل بهم تنكيلًا بالغاً ، فأحرق القاضي بن جحاف وهو حي ، وذبح الآلاف من أهل المدينة المسلمين ، وفرق الغنائم في أصحابه . ولم يغفر له الموحدون هذا الصنع الشنيع فما زالوا به حتى أوقعوا به في (سيونكا) فهزمه هزيمة منكرة انتهت بمותו في يوليه ١٠٩٩ م<sup>(١)</sup> » .

فأين هذا المثل الزرى الذى لا يليق إلا بالهمج التوحشين مما فعله المنصور ابن أبي عامر حين أسر ذات يوم عدداً من الجنود الأسبانيين ، وطلب منهم أن يلقو سلاحهم ، ففضلوا الموت على إلقاء السلاح ، فما كان منه إلا أن أفسح لهم الطريق ليلتحقوا بجيش أعدائه ؟ إكباراً منه لشجاعتهم ، وكان في استطاعته قتلهم جميعاً ، ولقد قدّره المؤرخون الغربيون حقاً قدره فيقول عنه Ferrars فيرياس : « إنه لعلى خلق عظيم » ، ويقول عنه Mosden موسدن : « إن المنصور قد هدم بالحديد والنار المدن التي قاومته ، ولكنه أبي أن يصاب أي شخص أقل إصابة إذا سلم طواعية<sup>(٢)</sup> » .

وأين هذا المثل مما رواه مؤرخو الفرنجة أنفسهم عن المنصور بن أبي عامر من إطلاقه سراح ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور وإناث حين جاءه

(١) راجع تراث الإسلام الترجمة العربية ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) L. Viardot. Essai Sur l'Histoire des Arabes et de Mores d'Espagne, t. I. P. 112

الخبر بانتصار جنده في إحدى المواقع الحربية الكبيرة سنة ٩٩٧ م شكرًا لله<sup>(١)</sup>  
ولقد وفَيَّت موضوع الشجاعة عند العرب حَقَّهُ ، سواء كانوا في الجاهلية  
أو الإسلام ، وليس من هم أضراب أمثلة على شجاعة فرسان أوربا ، وحسبى  
ما ذكرت من أمثلة للموازنة في هذا الباب .

أما الكرم فقد ذكرت سببه عند العرب<sup>(٢)</sup> ، وأن الطبيعة قد جعلتهم  
كرماء ، حتى صار لهم جِبَلَةً وطبعاً ، ولقد جاءهم الإسلام فزاد بما وعدهم من  
جزاء عظيم في الآخرة ومن إرضاء الله تعالى ما كان في نفوسهم من أريحية ، فصاروا  
يجودون ؛ لأنهم فُطروا على الجود ، ولأن في ذلك مثواباً ، وخيراً للمجتمع .

قال الله تعالى : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَوْلُوا وجوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »  
ولكنَ الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ ، وَالنَّبِيِّينَ  
وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ  
وَالسَّائِلِينَ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمَوْفُونَ بِعهْدِهِمْ إِذَا  
عاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا  
وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ<sup>(٣)</sup> » .

وقال تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلُ حَبَّةٍ  
أَنْ يُنْتَهِ سَبْعَ سَنَاتٍ بِلَّا فِي كُلِّ سَبْعَ مِائَةٍ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ مِنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ  
وَاسِعٌ عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup> » .

(١) تاريخ غزوات العرب (ترجمة الأمير شيكيب أرسلان) ص ٢١٩ .

(٢) راجع باب الكرم في هذا الكتاب ص ٥٩ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

وقال تعالى : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا إِنَّمَا وَلَا أَذَىً ، لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ » <sup>(١)</sup> .

ففي هذه الآيات الكريمة تبيانٌ لمن تجحب لهم الصدقة ، وتحث عليها ، وذكر للجزاء الحسن الذي ينتظر المتصدقين ، على أن تكون صدقاتهم بلا من ولا أذى على حد قوله تعالى : « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَبَعَّهَا أَذَىً » <sup>(٢)</sup> ، أو على حد قول الشاعر :

لَا خيلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلَيْسَ سَعِيدٌ بِالنُّطُقِ إِنْ لَمْ يُسَعِّدِ الْحَالُ  
قالَ تَعَالَى : « فَلَا أَقْتَحِمُ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُلْ رَقْبَةً  
أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمِ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ  
مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرَحَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » <sup>(٣)</sup> .  
وَلَقَدْ نَفَرَ مِنَ الْبَخْلِ ، وَأَعْدَدَ لِلْبَخْلَاءِ عِذَابًا عَظِيمًا ، وَعَنْفَهُمْ عَلَى بَخْلِهِمْ ،  
فَإِنَّهُمْ لَا يَعْطُونَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَعْطُونَ مِنْ مَالِ اللَّهِ . قالَ تَعَالَى :  
« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ  
شَرٌّ لَهُمْ سِيِطَرُوْقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَهُ مِيراثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ » <sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ  
أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ

(٢) البقرة الآية ٢٦٣ .

(١) البقرة الآية ٢٦٢ .

(٤) آل عمران الآية ١٨٠ .

(٣) سورة البلد .

والفضةَ ولاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُوهُمْ بِعَذَابِ الْيَمِينِ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكُوْى بِهَا جِبَاهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنْزَتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزَتُمْ تَكْنِزُونَ »<sup>(١)</sup> .

ولقد استجواب المسلمين لطبيعتهم ولفطرهم السليمة ، ولنداء الله وترغيبه ، وحدِروا بطشه وعقابه ، وكان لهم في رسول الله أسوة حسنة<sup>(٢)</sup> ، فكان منهم أجواد في الإسلام ، لم يرَ التاريخ مثلهم بين جميع الأمم .

فهذا عُبيد الله بن عباس ابن عم رسول الله لا تخصى مكرماته ، ولا يملك المرء نفسه حين سماعها إلا أن يعجب بهذه الطبيعة السمححة : جاءه رجل من الأنصار فشكى إليه أمره ، وأنه ولده ولد وأن أمه قد ماتت وهي تلد ، فأمر وكيله بأن يشتري له جارية تختضنه ، وأن يدفع له مائتي دينار للنفقة على تربية الطفل . وقال للأنصارى : عُدْ إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش يبس<sup>(٣)</sup> ، وفي المال قلة . قال الأنصارى : لو سبقت حاتماً يوم واحد ما ذكرته العرب أبداً ، ولكنه سبقك فصرت له تالياً وأناأشهد أن عفوك أَكثُرَ مِنْ مجْهودِه ، وطلَّ كرِمُك أَكثُرَ مِنْ وابلِه .

ولقد شاطر الحسين بن علي ماله حين حبس معاوية عنه ما يستحقه ، وقد أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر له ، وهو أول من فطر جيرانه ، ووضع المواند على الطرق في الإسلام وفيه يقول الشاعر :

وَفِي السَّنَةِ الشَّبَهَاءِ أَطْعَمْتَ حَامِضًا وَحُلْوًا وَلَجْمًا تَامِكًا وَمُمْزَعًا

(١) التوبة الآية ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا الكتاب وما بعدها .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٤ .

وأنت ريمٌ لليتامي وعصمةٌ إذا محلُّ من جُود السماء تقطعاً

أبوك أبو الفضل الذي كان رحمةً وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعـاً<sup>(١)</sup>

ومنهم عبد الله بن جعفر ، وقد لامه قومه لأنَّه أعطى امرأة مالاً كثيراً

وقالوا له : إنها لا تعرفك : وكان يرضيها اليسيير فقال ، إنَّ كان يُرضيها اليسيير

فأنا لا أرضى إلا بالكثير ، وإنْ كانت لا تَعْرِفني فأنَا أَعْرِف نفسي<sup>(٢)</sup> .

ومنهم سعيدُ بن العاص ، وقد وَهَبَ معاوية مِرَّةً خَمْسِينَ ألفَ درهم ليصلحَ

بها حاله ويشتري ضيعة تعينه على مكرماته فقال له : بل أشتري بها حمداً وذكراً

باقياً ، أطْعِمُ بها الجائع وأزوج بها الأيمِّ وأفكُّ بها العانِي وأواسِي بها الصديق

وأصلحُ بها حال المجار . فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنه منها درهم<sup>(٣)</sup>

وليس معنى شهرة هؤلاء أن سواهم من العرب المسلمين كانوا بخلاء ، بل

إنَّ كثيراً منهم كانوا على درجة عظيمة من كرم اليد ، ولو كانوا ذوي مُتْربة ،

ولا أريد أن أفيض في ذكر أجود المسلمين جميعاً وتتبعهم في ثنايا التاريخ من

أمثال : معاوية ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمتوكـل ، وسيف الدولة

وغيرهم . وقد كفانا الشعراـء مؤنة تسجيل كرمـهم ، بما خلدوهم به من شعر

باقي على الدهـر .

وحسبي في هذا المقام أن أضرب بعض أمثلة للموازنة بين كرم العرب ،

وما كان عند معاصرـهم من أهل أوربا من أريحية وبخل . لم يكن العربي

كما ذكرنا يصدر في كرمـه عن قانون ، أو يفعله رياـء ، وإنما كان محبوـلاً عليه

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٨٣ (٢) المرجع السابق ص ٨٥

(٣) نفس المرجع .

ولم يكن هذا شأن أهل أوربا ، فقد نصَّ قانون (بورجنديا) على أن «أى امرى لا يقدم للغريب غطاءً وناراً ، يدفع غرامة مقدارها ثلاثة قروش ، وإذا قصد غريب بيت بورجندى ودله هذا على بيت رومانى ، تخلصاً منه يغrom ثلاثة قروش لأنه لم يُضفه ، وثلاثة أخرى لأنه دله على بيت الرومانى»<sup>(١)</sup>.

وروى التاريخ الأوربى : أن شارلمان أسر أحد أمراء العرب ، وأدخل عليه وهو بين فرسانه وحاشيته ، والموائد موضوعة ، والكل يأكلون ، فصاح فيه إماً أن ترث عن دينك وإماً أن تقتل ، فقال الأمير العربي : بل أوثر القتل فقال شارلمان : لماذا ؟ قال سترعرف بعد برهة ؟ من هؤلاء الأشخاص الضخام الذين يلبسون الفراء ؟ ويجلسون على مائدةك ؟ فقال شارلمان : إنهم مطارنة وقساوسة . فسأله الأمير العربي : ومن هؤلاء النحاف الذين يلبسون السواد ؟ فأجاب إنهم رهبان يصلون من أجلنا . فسأله مرة ثالثة : ومن هؤلاء الذين يجلسون على الأرض ، ويلقى لهم فتات المائدة ؟ فأحاب شارلمان : إنهم الفقراء فصاح الأمير العربي : أهكذا تعامل الفقراء ، إن هذا مخالف للشرف والمرودة ، ولا يرضي ربك الذى تعبد ، والآن لا ! لن أنصر أبداً وهذه سمة دينك ، وإنى أفضل الموت<sup>(٢)</sup>.

وتقى كفى هذه الحادثة بأخرى يظهر منها الفرق الشاسع بين كرم العرب وكرم سواهم . وذلك أنه لما استولى أبو عبيد بن مسعود الثقفي أيام عمر بن الخطاب

(١) راجع Augstin Thierry في كتابه Lettres sur L'histoire de France.p.82

(٢) راجع Pierre Damien dans la Chronique du Turpin Gautier, op. cit p.33 وراجع كذلك

على كسرى<sup>(١)</sup> وسرح المثنى بن حارثة وغيره من القواد ، يغزون على النواحي ، صالحه من خاف من بي . وجاءه الدهاقين بآنية فيها أطعمة فارسية ، وقالوا : هذه كرامة أكرمتك بها قرئ لك . قال : أكرمتم الجنود وقررت موهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسّر ، ونحن فاعلون ، قال : لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد ! إنْ صحب قوماً من بلادهم ، أهربوا دماءهم دونه ، أو لم يهربوا ، فاستأثر عليهم بشيء يصييه ، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثيل ما يأكل أوساطهم . ولم يأكل من طعام أتى به الدهاقين ، غداة ذلك اليوم حتى علم أنهم قربوا منه لجنه جهيناً<sup>(٢)</sup> .

وأمّا كرم النفس فقد سقط فيها سبق أمثلةً عديدة على عدم تعصب المسلمين وأنهم وسعوا برحمتهم ، ودينهم ، وكرم نفوسهم أهل الذلة الذين أبووا أن يسلموا وخصعوا لحكمهم ، ولو كان هؤلاء متعصبين حقاً لأبادوهم ، واستأصلوهم ولقد جنى عليهم هذا التسامح في بعض الأحيان ، فقد سمحوا للنصارى الأندلس بأن يظلووا تحت رعايتهم ، وأظلوا بعد لهم ، وأغدقوا عليهم من خيراتهم ، ولكنهم أضمرروا لهم الشر ، وكانوا حرّاً عليهم حينما ضعنوا حتى طردواهم من بلادهم .

وتاريخ أوروبا المسيحية ملطخ بالتعصب الديني ، وقد لاق اليهود على أيديهم في كل الأزمنة ألواناً بشعةً من العذاب والاضطهاد ، وقد ذكر (دوزي) في سياق تعليله لسرعة فتح العرب للأندلس : أن اليهود والأرقاء كانوا لهم عوناً

(١) كسرى : إقليم عاصمته خسرو سابور ، وصارت بعد ذلك (واسط) قصبتها .

(٢) راجع الطبرى ج ٤ ص ٦٤ ، و ابن الأثير ج ٢ ص ٢١٣ ، و ابن خلدون ج ٢ ص ٨٨

لأنَّ رجال الدين الكاثوليكي قد أرْهقوهم وأذلوهم ، واستعبدوهم ، وذكر أنَّ الناس في القرون الوسطى كلاماً سألاوا : لماذا نرى هذا العالم الذي ينبغي أن يكون مثلاً أعلى في الفرداديس انتقاماً جحيماً ؟ أجابتهم الكنيسة : لأنَّ هذا من غضب الله الذي يرى أنَّ قتلة ربنا لا يزالون كُفراً .

وبدأ اضطهاد اليهود سنة ٦٦٢ هـ ، وأعطوا مهلة سنة ليتنصروا ، وإلا طردوها خارج إسبانيا وصودرت أملاكهم ، وجُلد كلُّ منهم مائة جلدة ، وقد تنصرف منهم عدد كبير ، ولكنهم ظلوا يُصررون على اليهودية ، ويختتنون ، فقرر مجمع الأساقفة مصادرة أولادهم لينشئوا في ظل الكنيسة ، وظلوا يعذبون أكثر من ثمانين سنة ثم طردوهم من الأندلس ، ومن آثار البقاء منهم حكم عليه بالرق ، فلما جاء المسلمين فرحوا بمقدهم فرحاً شديداً ، وحرروهم ، فكانوا من أعظم أنصار الإسلام<sup>(١)</sup> وذكر صاحب فتح الطيب أنَّ المسلمين كلاماً فتحوا بلداً من بلاد الأندلس انضم اليهود إليهم ، وأقامهم المسلمون حرساً عليها لحفظها ، وكانوا أدلة للمسلمين على مواطن الضعف في المدن الإسبانية<sup>(٢)</sup> .

ولقد وضح أحد المسلمين ، حين طرد العرب من إسبانيا آخر مرّة في سنة ١٦١٠ م الفرق بين اضطهاد المسيحيين للMuslimين وإرهاب حماكم التفتیش ، وتسامح المسلمين في أثناء تاريخهم الظاهر بـإسبانيا بقوله : « هل حاول أسلافنا

(١) راجع R. Dozy Histoire de Musulmans d'Espagne. t. II. pp. 45-6 Leyden 1865.

وراجع كذلك M. Reinaud في كتابه Invasion Des Sarrazins en France, et en Savoie.

(٢) راجع المقرى في فتح الطيب ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨٢

المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من إسبانيا حين كان في  
مقدورهم أن يفعلوا ذلك ؟ ، ألم يسمحوا الآباءكم بأن يتمتعوا بحرية في دينهم ؟  
ألم يوص نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحد  
السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق ؟ ، وأتم لا تستطعون أن  
تظهروا لنا شيئاً ما عن أي حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم المحاكمة في  
سبيل نشر الدين الإسلامي ، كما تفعل اليوم محكمة التفتيش المقوية في استئصال  
المسلمين <sup>(١)</sup> » .

ولقد اصطنع الخلفاء في كل العصور أشخاصاً مسيحيين ، كأطباء ، وكتاب  
ومترجمين ومنجمين ، وشعراء ، مثل بختشيوغ الطبيب النسطوري مع أبي  
جعفر المنصور ، وابنه جبرائيل مع هارون الرشيد ، والأخطل مع بنى أمية .  
وحنين بن إسحق وإسحق بن حنين ، ومتي بن يونس ، وثبت بن قرة وغيرهم  
مع خلفاء بنى العباس ؛ مما يدل على رحابة الإسلام وكرم نفوس المسلمين .

فأين هذا كله من ذلك التعصب الظاهر الذي أظهره المسيحيون ضد الديانات  
الأخرى من يهودية وإسلام ، وغيرهما ، بل اضطهد أرباب المذهب المسيحية  
بعضهم بعضاً ، وقامت حروب عديدة في أوروبا من أثر هذا التعصب المذهبي  
لحرب الثلاثين عاماً بين البروتستانتية والكاثوليكية ؟ :

وأماماً كرم القلب فيكفي للدلالة عليه أن ريتشارد قلب الأسد قد مرض  
في خلال الحروب الصليبية فحزن عليه صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه ، وكان من  
عادتهما تقدير الأعداء الصراحء الشجعان ، ولما طلب ريتشارد — حين أنهكته

(1) J. Morgan, Mahometism explained, vol. II. pp. 297—8  
London 1723 — 5.

الجمى — فاكهة ، أرسل إليه صلاح الدين الكندي والتفاح ، والثلج الذى كان يأتى به من الجبال كل يوم لأجله<sup>(١)</sup> .

فأين هذه المعاملة السمحنة ، والقلب العظيم ، من تلك الفظائع الدامية التي ارتكبها الصليبيون المسيحيون في بلاد الشرق الإسلامي ؟ وأين هذا من محكم التفتيش التي قامت في إسبانيا ، والتعذيب الأليم الذي احتمله المسلمون بعد أن ضعفوا ، وأكرهوا على الجلاء أو التنصر ؟ ؟ .

وهكذا مثلا آخر على كرم القلب العربي المسلم ، وعلى تلك المعاملة المثالية للأعداء ، فقد وقع (جان دى برين) أسيراً في يد الملك الكامل بدبياط ، فلما حضر أمامه أخذ يبكي وينتحب . فقال له الملك الكامل : مم تبكي أيها الملك ؟ فقال أبكي لأنني تركت القوم الذين أولى أمرهم يموتون جوعاً ، ويموتون غرقاً . فرَقَ الملك الكامل له ، وبكي مثله ثم أرسل ثلاثة ألف رغيف للفقراء والأغنياء من جيش عدوه على السواء ، أربعة أيام متواتلة<sup>(٢)</sup> .

لقد كان المسلمون يعملون بقول الله تعالى ، ويتمثلونه في كل حركاتهم وأقوالهم : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوْا وَاصْفِحُوْا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأُمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٣)</sup> » .

وبقوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأْمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ<sup>(٤)</sup> » .

(1) Stanley Lane Poole. History of Egypt in the Middle Ages p. 355.

(2) Gustave Schlumberger. Récits de Bysance et de Croisade.

(3) سورة البقرة الآية ١٠٩ . (4) سورة يومن الآية ٩٩ .

ويصدق فيهم وحدَّهم قول أحد الباحثين الفرنسيين : إن مهمَّة الفارس الحق هي حماية المرأة ، والأرملة ، واليتامي والرجال الذين في حاجة إلى العون والغوث ، لا الرجال الأقوباء »<sup>(١)</sup> .

وكان من تقاليد العرب في الفروسية ألا يجهزوا على جريح ولو كان من أشد أعدائهم ، وهذا قيس بن عاصم يذكر ويتندم أشد الندم لأنَّه قتل الحطَم في حروب الردة ، ورجله مقطوعة وهو لا يعلم أنَّ برجله شيئاً<sup>(٢)</sup> . ومن تقاليدهم إكرام رسل العدو<sup>(٣)</sup> ، وهذه هي نصيحة على بن أبي طالب ل أصحابه يوم صفين وفيها كثير من سنن القتال عند العرب ، وسمات الفروسية الحقة : « ولا تقاتلواهم حتى يقاتلوكم ، فأنتم على حُجَّةٍ ، وترُکُم حتى يقاتلوكم حِجَّةً أخرى ، فإذا هزموهم فلا تقتلوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمْثِلُوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رجال القوم ، فلا تهتكوا سِترًا ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ، ولا تهيجوا امرأة ، وإن شئتم أعراضكم وسببن أخواتكم ، فإنهن ضعاف الْقُوَى والأنفس<sup>(٤)</sup> ». »

كان هذا شأن العرب في حروبهم : شهامة ، وفتوة ، ونجدة ، وغوث للضعف ولو كان من ألد أعدائهم ؛ ولما أسر كفار قريش في بدر أوصى بهم النبي عليه السلام خيراً ، قال أبو عزيز بن عامر ، كفت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدم غذاؤهم أو عشاوْهُم خصوني

(١) راجع ص ١٤٠ من هذا الكتاب .

(٢) راجع أيام العرب في الإسلام ص ١٥٦ .

(٣) راجع وصية أبي بكر لقادات جيشه في غزوة البرمود في الطبرى ج ٤ ص ٢٨ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) راجع في يوم صفين الطبرى ج ٥ ص ٢٣٥ ، ج ٦ ص ١ .

جانلخيز ؛ عملاً بوصية رسول الله إياهم بنا ، ما تقع في يد أحد منهم كسرة خبز إلا نفحني بها ، فأستحيي فأردها على أحدهم ، فيردها على ما يمسها » ، وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين يوم بدر<sup>(١)</sup> .

وأماماً الوفاء بالوعيد فقد مرّ بك عدة أمثلة في وفاء المسلمين وغدر الصليبيين والأوربيين في حروبهم : غدر ريتشارد قلب الأسد بأهل عكا بعد أن استسلموا له على الرغم من المعاهدة ، وغدر السيد القمييطار بمسامي بلنسية بعد أن استسلموا له ؛ إذ لم يكن هؤلاء الغربيون ، ولا يزالون حتى اليوم يعرفون الرحمة بالضعفاء المغلوبين على أمرهم ، أو يتدخلون لحمايتهم ؟ حتى قال فوريل : « كنت أود أن أتأكّد من تدخل الفرسية الغربية في الأمور الاجتماعية والسياسية إبان القرون الوسطى بحقائق مؤكّدة لا يتطرق إليها الشك ، تحدّد في نفس الوقت طبيعة هذا التدخل ومقداره في فائدة الضعفاء ، ولكنّ حقيقة من هذا النوع لا يوجد لها أثر في التاريخ ، وليس أمامنا إلاّ وثائق شعرية تلمح إلى مثل هذا ، وكلها تدل على أنه تدخل في مصلحة الأقارب أو من سلطة قضائية أو أبوية<sup>(٢)</sup> » .

\* \* \*

لا يزال الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء بالعهود ، والاستمساك بالخديعة ، واتخاذ القسوة والعنف ديدن الغربيين حتى اليوم في حروبهم ، وكأنما جردنهم الطبيعة القاسية التي عاشوا في ظلّها حقباً طويلاً من الزمن من كل معانٍ الإنسانية ، وهم إن أفادوا إبان القرون الوسطى شيئاً من تهذيب الطباع ، ودماثة الخلق ، وعرفوا أنّ مثل العليا نقلًا عن العرب ، فقد تمسكروا بها بعد ما صارت

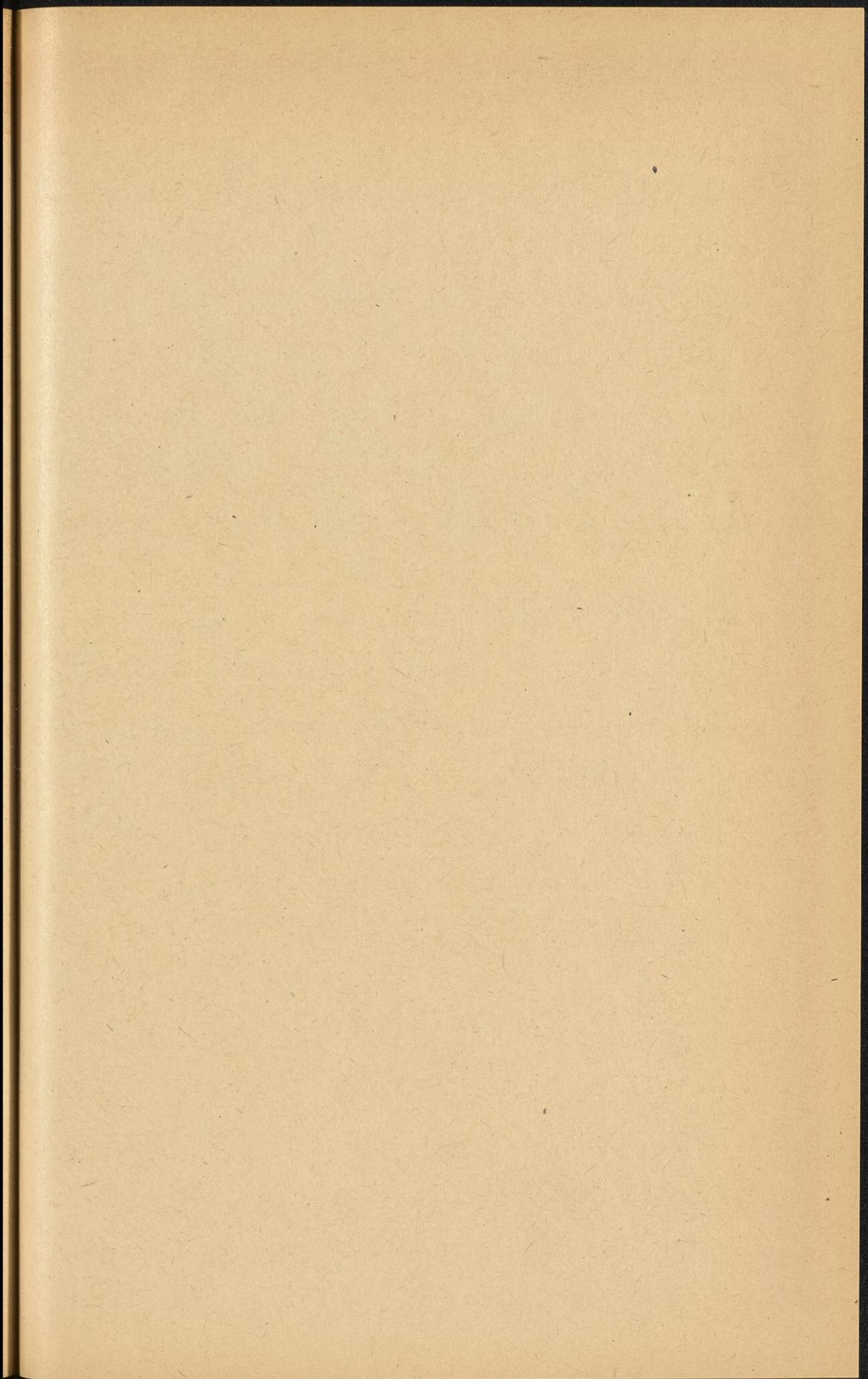
(١) تاريخ الأمم الإسلامية للحضرى بك ص ١٥٨ - ١

(٢) راجع فوريل Poésie Provençal,t. I. P. 487 في كتابه

حضارتهم مادية لا تؤمن بغير الحديد والنار ، والقهر والغلبة ، والجشع والطمع واستعباد الشعوب ، واستنزاف دمائها ؟ وليس ما عمله الإنجليز في فلسطين ، والعراق ، ومصر ، وفي كل بلد نزلوا به ، وما عمله الفرنسيون مع البربر والعرب في مراكش ، والعرب في تونس والجزائر ، وما عمله الظليان مع أهل طرابلس ، وقتلهم عمر المختار وهو في شيخوخته بعد أن أبلى في حروبهم ، وكان من واجب الفروسيّة ، والتعاليم المسيحية أن يكرموه لشجاعته ، ومحبته للحرية ، والشيخوخة وضعف مُنْتَهٍ ، ولكن هيهات لهم جرّدوا من كل معانٍ الإنسانية !

أيها العربي المسلم لقد قدمت بين يديك هذا البحث ، وأجهدت نفسك في أن أعرفك حقيقة نفسك ، وأنك من أمة كانت غرّة في جبين التاريخ لم ير العالم ولن يرى خيراً منها ومن دينها . وأنت اليوم في يقظة عقلية ، ووعي قومي ، ولن يفيدك شيئاً أن تمسّح شخصيّتك ، وتغرك الحضارة الغربية ، والقوة المادية ، فانهض واعمل على أن تسود بالحق والعدل والرحمة ، والقوة والفتوا ، وبشر الإنسانية بمبادئ قومك السامية ، وهدایة دينك الرحيمة لعله يرجع عن غيه ، ويعود إلى رشده . إن التاريخ ينتظر أن تقلب صفحاته ، وتسطر فيها عهداً جديداً كله خير ، ومرحمة لك ولغيرك .

هذه صفحات في فلسفة الخلق العربي والعلقانية العربية ، تكشف عن نواحي العظمة بها ، ولن تقوم لأمة قائمة مالم تدرك حق الإدراك حقيقة نفسها ، ونواحي القوة فيها . فهل بلّغت رسالتي ! أرجو أن يكون ذاك . والآن سأقدم لك صوراً من الفتوا العربية على قدر ما تسمح به الصفحات الباقية من هذا الكتاب حتى تكون نموذجاً يحتذى .



صور من الفتولة العربية

## مروءة ووفاء<sup>(١)</sup>

خرج النعمانُ بن المنذر ملأُ الحيرة يوماً للصيد في كوكبة من فرسانه ،  
وَضُرِبَتْ له قبةٌ من أَدَمٍ على طرف الصحراء ، ومعه حاشية ضخمة ،  
وَجِفَانٌ وَقِيَانٌ ، ثم ركب فرسه اليَحْمُوم<sup>(٢)</sup> ، وكأنما ملأَ الجواد طولَ الجمام ،  
فَهَا أَنْ اعْتَلَى صَهْوَتَهُ ، حتى راح يَمْزَعُ غَرْبًا في أَعْنَتِهِ ، كالطير تنجو من  
الشُّوَبُوب ذِي الْبَرَدِ ، والصحراء تَعْبُقُ بِرِيَّا الْخَزَامِيِّ والْعَرَارِ ، والزَّيْحُ بَلِيلَة  
نَدِيَةٍ ، والشَّمْسُ تُسْفِرُ تَارَةً وَتَحْتَجِبُ أُخْرَى ، والسماء مبرقة بالغمam ، والنِّعَمان  
فُرُحٌ مَرِحٌ يُرْخِي لجواده العِنَانَ ، والجواد يطوى أَدِيمَ الفلاة طِيَا لا تَكَاد  
سَنَابِكَه تَمَسُّ الأَرْضَ مِنْ فَرْطِ عَدْوَهُ ، وَمَا هِيَ إِلَّا بَرْهَةٌ حَتَّى لَاحَ لَه عَيْرُ<sup>(٣)</sup>  
قَدْ اكْتَنَزَ لَهَا ، وَطُبِقَ شَحْمَا ، وَأَحْسَّ بِالْخَطَرِ الدَّاهِمِ فَهُوَ يَعْدُ عَدُوَ الظَّالِمِ<sup>(٤)</sup> ،  
يَرُومُ النِّجَاهَ ، وَأَيْنَ النِّيَاهَ؟ وَخَلْفَهُ قِيدُ الْأَوَابِدِ<sup>(٥)</sup> ، يَعْدُ عَلَى أَثْرِهِ .

وَأَوْغَلَ النِّعَمانَ فِي الطَّرَادِ ، وَأَخْذَتِ الْجَوَادَ حُمِيَّا الصَّيدِ ، فَانْطَلَقَ يَطْوِي  
الْحُزُونَ<sup>(٦)</sup> ، وَيَنْهَبُ الْقِفَارَ ، لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا يُكَفِّكِفُ مِنْ غَرْبَهِ

(١) بِجمِيعِ الْأَمْتَالِ لِلْمِيدَانِيِّ ص ٤٦ ج ١ ، وَالْمُسْتَطْرِفُ فِي كُلِّ فَنٍ مُسْتَطْرِفٍ ج ١ ص ١٩٩  
وَالْأَغَانِي ج ١٩ ص ٨٨ طِ السَّاسِيِّ ، وَمُعْجَمِ الْبَلَدَانِ ج ٦ ص ٢٨٥  
وَالْمَحَاسِنُ وَالْأَضَدَادُ الْمُجَاهِظُ ص ٥٨ ، وَبَلَوغُ الْأَرْبَلِ لِلْأَلوَسِيِّ ج ١ ص ١٢٧ ، وَالْمَحَاسِنُ  
وَالْمَسَاوِيِّ ص ١١٧ ، وَقَصْصَ الْعَرَبِ ج ١ ص ١٦١

(٢) اليَحْمُومُ : الأَسْوَدُ . (٣) العَيْرُ : حَمَارُ الْوَحْشِ .

(٤) الظَّالِمُ : ذَكْرُ النِّعَامِ . (٥) وَحْوَشُ الْفَلَةِ .

(٦) جَمِ حَزَنٌ وَهُوَ الْأَرْضُ الصَّلِبةُ .

رَجُرُ النَّعْمَانَ لَهُ ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهُ فَقَدْ سَيِطَرَتْهُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ افْرَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ  
أَمْعَنَ فِي الْفَلَةِ . وَبَيْنَا هُوَ فِي شُغْلِ جَوَادِهِ ، تَفَتَّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بَمَاءِ مِنْهُرِهِ ،  
وَالْمَسْنُ النَّعْمَانَ مَأْوَىً يَأْوِي إِلَيْهِ وَقَدْ كَفَكَفَ الْجَوَادُ مِنْ غَلَوَاهُ ، وَرَطَّبَ مَاءَ  
السَّمَاءِ حَرَارَةَ رَأْسِهِ ، فَهَدَأَ وَاسْتَكَانَ ، وَسَارَ عَلَى هِينَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ تَوَارَى عَنْ  
نَاظِرِيهِ الْعَيْرُ فِي دَغْلِ كَثِيفٍ .

وَرَأَى النَّعْمَانَ عَنْ بَعْدِ خَيَّاءٍ فَدَلَفَ إِلَيْهِ ، وَوُجِدَ بِهِ رَجُلًا مِنْ طِيعَ يُقالُ لَهُ  
خَنْظَلَةُ ، لَيْسَ مَعَهُ فِي هَذَا الْقَفْرِ الْمَوْحَشِ إِلَّا امْرَأَتُهُ ، وَبِجَانِبِ الْخَيَّاءِ شَاةٌ  
سَمِينَةٌ . فَقَالَ النَّعْمَانُ : هَلْ مِنْ مَأْوَى؟ فَقَالَ خَنْظَلَةُ : عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ،  
وَخَرَجَ إِلَيْهِ ، وَتَلَقَّاهُ يَبْشِرُ وَسَمَاحَةً ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ  
لَهَا : أَرَى رَجُلًا لَهُ هَيْئَةً ، وَمَا أَخْلَقَهُ أَنْ يَكُونَ شَرِيفًا خَطِيرًا ، فَمَا الْحِيلَةُ؟  
فَقَالَتْ : عَنِّي شَيْءٌ مِنْ طَحِينٍ كُنْتَ ادْخُرْتَهُ ، فَاذْبَحْ الشَّاةَ ، وَسَأَصْنَعُ مِنْ  
الْطَحِينِ خَبْزَ مَلَةً<sup>(١)</sup> . وَقَامَ الطَائِيُّ ، فَلَبَّ شَاتِهِ ، ثُمَّ ذَبَحَهَا ، وَأَطْعَمَ النَّعْمَانَ مِنْ  
لَحْمِهَا ، وَسَقَاهُ مِنْ لَبَنِهَا ، وَبَاتٍ يَسْأَمِرُهُ لِيَلْتَهُ ، وَيَرَوِيُ لَهُ خَبْرَهُ وَخَبْرَ الصَّحَراءِ  
الْوَاسِعَةِ الْفَجَاجِ ، وَالنَّعْمَانُ فِي نَشْوَةٍ مَا يَسْمَعُ ، وَفِي غَبْطَةٍ لِهَذَا الْكَرْمِ الَّذِي  
أَظْهَرَهُ نَحْوُهُ ذَلِكَ الْبَدْوِيُّ الْفَقِيرُ ، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِمَكَانِتِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ تَمْتَعَ مَا شَاءَ بِحَدِيثِ مَضِيقِهِ ، وَبِهَوَاءِ الصَّحَراءِ السَّجَسَجِ الرَّقَاقِ ،  
لَعْبِ الْكَرْمِ بِمَعْقَدِ أَجْفَانِهِ ، فَنَامَ لَيْلَةَ هَاثِةَ وَادِعَةً . وَأَيْقَظَتْهُ أَشْعَةُ الشَّمْسِ  
وَخِيوطُهَا الْذَّهَبِيَّةُ تَدَاعِبُ مَقلَتِيهِ ؛ وَلَمَّا لَبَسَ ثِيَابَهُ ، وَامْتَطَى جَوَادِهِ ، وَاسْتَأْذَنَ

(١) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة ما يصنع فيها .

من رب مثواه ، وَهُمْ بِالْمُسِيرِ قَالَ لِلْطَّائِي : يَا أَخَا طَيِّبِي اطْلُبْ ثَوَابَكَ ، أَنَا الْمَلَكُ  
النَّعْمَانُ ! قَالَ : أَفْعُلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ عَادَ النَّعْمَانُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، وَرَأَاهُمْ فِي قَلْقِ زَائِدِ عَلَيْهِ ، بَيْدَ أَنْهُمْ وَجْدُوهُ  
فِي أَمْنٍ وَعَافِيَةٍ . تَتَرَاءَى سِيمَاتُ الْمُسْرَةِ عَلَى أَسَارِيرِ وَجْهِهِ ، وَأَخْذَ يَقْصُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَهُ  
وَأَنَّهُ قَضَى لِيَلَّةَ مُمْتَعَةً كُلَّ الْمُتَعَةِ يَسْاعِدُهُ هَذَا الْبَدْوِي رَبِيبُ الصَّحْرَاءِ ، وَأَنَّهُ  
وَجَدَ فِيهِ صَيْدًا أَنْفُسَ وَأَسْمَنَ مِنْ صَيْدِ الْفَلَةِ . وَأَنَّهُ نَعِمَ بِمُغَامِرَتِهِ أَيْمَانِ نِعْمَةٍ ،  
وَقَدْ رَأَى مِنَ الطَّائِي كَرْمًا لَا يُحَدُّ ؛ لَا إِنَّهُ جَادَ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ،  
وَهُوَ شَاتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَطْفِي خَطَّاهُ بِلِبْنِهَا ، عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ بِمَكَانِهِ وَاسْمِهِ .

وَمُضِيَ زَمَانٌ ، وَالنَّعْمَانُ يَتَرَقَّبُ قَدْوَمَ الطَّائِي عَلَيْهِ ، لَيْرِدَ لَهُ بَعْضُ مَا طَوَقَ  
بِهِ عَنْقَهُ ؛ وَلَكِنَّ الطَّائِي لَا يُسْمَعُ عَنْهُ خَبْرٌ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ سَنَةُ شَهْبَاءَ ،  
أَتَتْ عَلَى الْأَخْضَرِ وَالْيَابِسِ ، بَخَلَّتْ فِيهَا السَّمَاءُ ، وَاقْطَعَ الْحَيَا ، وَأَجْهَدَ أَهْلَ  
الْبَادِيَةِ حَتَّى أَكَلُوا الْيَرَاسِعَ وَخَشَّاشَ الْأَرْضِ ، وَالْطَّائِي يَجَاهِدُ نَفْسَهُ ، وَلَا يُودُ  
وَإِنْ مَاتَ أَنْ يَقْدِمَ عَلَى النَّعْمَانَ لِيَذْكُرَهُ بِيَدِهِ لَدِيهِ ، وَكَيْفَ يَطْلُبُ عَلَى صُنْعِ  
الْمَعْرُوفِ جَزَاءً ؟ وَكَيْفَ يَتَقْاضِي مِنْ الإِرْيَحِيَّةِ ، وَلَوْ كَانَ صَاحِبَهُ مَلِكًا يَقْصِدُهُ  
سَادَةُ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهُمْ يَنَالُونَ مِنْ حِيَاةِ وَجْهٍ عَطَايَاهُ . ؟

وَأَخْدَتْ امْرَأَتَهُ تُلْحِحُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْقُذَ نَفْسَهُ وَيَنْقُذُهَا ، وَأَنْ يُطْمَئِنَّ مِنْ شَمْوَخِ  
أَنْفِهِ ، ثُمَّ إِنَّ النَّعْمَانَ مَلَكٌ لَا سُوقَةَ ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَأْمُه طَالِبًا رُفْدَهُ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ  
ثُمَّةَ لَهُ يَدُ عَنْهُ ، وَبَعْدَ لَأْيٍ وَمُجَاهَدَةٍ عَنِيفَةٍ لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْحِيرَةَ .

وَوَجَدَ النَّعْمَانَ فِي حَاشِيَتِهِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ ، شَاكِيَ السَّلاحَ ، مُمْتَصِّيًّا جَوَادَهُ  
الْيَحْمُومَ ، وَحَوْلَهُ فَرْسَانُهُ وَحَاشِيَتِهِ ، وَلَمَّا رَأَى الطَّائِيَ عَرْفَهُ ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حِينَ

رأه ، وقطبت أساريـه ، وطنـ الطائـ به الظنـون ، وندم علىـ أن قصـده ،  
ولـ كان فيـ لـبـته بـيـادـيـته حـيـنهـ ، إـلـىـ أنـ قالـ لهـ النـعـانـ :  
— أـنتـ الطـائـ المـنـزـولـ بـهـ ؟

— نـعـمـ !

— أـفـلاـ جـئـتـ فـيـ غـيرـ هـذـاـ الـيـوـمـ ؟

— أـبـيـتـ الـلـعـنـ ! ، وـماـ كـانـ عـلـىـ بـهـذـاـ الـيـوـمـ .

— وـالـلـهـ لـوـ سـنـحـ لـىـ فـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ قـابـوسـ اـبـنـيـ لـمـ أـجـدـ بـدـأـ مـنـ قـتـلهـ ، فـاطـلبـ  
حـاجـتكـ مـنـ الدـنـيـاـ ، وـسـلـ مـاـ بـدـاـ لـكـ ، فـإـنـكـ مـقـتـولـ !

— أـبـيـتـ الـلـعـنـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ الـعـظـيمـ ! ، وـماـ أـصـنـعـ بـالـدـنـيـاـ بـعـدـ نـفـسـيـ ؟ وـمـاـذاـ  
جـنـيـتـ حـتـىـ أـسـتـحـقـ القـتـلـ ، وـقـدـ قـدـمـتـ تـوـأـ مـنـ الـبـادـيـةـ ؟

— إـنـهـ يـوـمـ بـؤـسـيـ ، وـلـاـ مـنـاصـ مـنـ قـتـلكـ ، وـذـلـكـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـرـامـتـكـ  
عـنـدـيـ .

— فـإـنـ كـانـ لـابـدـ ، فـأـجـلـنـىـ حـتـىـ الـمـ بـأـهـلـىـ ، فـأـوـصـىـ بـهـمـ ، وـأـهـيـ حـالـمـ ،  
ثـمـ أـنـصـرـفـ إـلـيـكـ .

— أـقـمـ لـىـ كـفـيـلـاًـ بـوـافـاتـكـ .

— إـنـ كـلـتـيـ عـهـدـ ، أـيـهـاـ الـمـلـكـ الـعـظـيمـ ، وـلـوـ كـانـ فـيـ صـدـقـ الـعـهـدـ مـنـيـتـيـ .

— لـابـدـ مـنـ كـفـيـلـ !

فـالـتـفـتـ الإـعـرـابـيـ إـلـىـ حـاشـيـةـ النـعـانـ يـتـفـرـسـ الـوـجـوهـ ، وـيـتوـسـمـ أـهـلـ الـخـيـرـ  
وـوـقـعـ نـظـرهـ عـلـىـ شـرـيكـ بـنـ عـمـرـوـ رـدـيفـ (١)ـ النـعـانـ ، وـصـاحـبـ مـنـادـمـتـهـ فـقـالـ لـهـ :

(١) رـدـيفـ الـمـلـكـ : هـوـ الـذـيـ يـرـكـ خـالـفـهـ ، وـيـشـرـبـ بـعـدـهـ ، وـيـخـالـفـهـ إـذـاـ غـزاـ .

يا شريك يابن عمرو هل من الموت محالة  
يا أخا كل مصاب يا أخا من لا أخاله  
يا أخا النعan فك إل يوم ضيقا قد أتي له  
وامتنع لون شريك ، وصمت برهة تجاذبته فيها عوامل شتى ، وهرته  
الأريحية ، وقال لنفسه : إن هذا الرجل أهل للكرامة بعد أن سمعت من  
الملك عظيم فعله على غير معرفة به ، وستكون مأثرة يتحدث بها العرب ، وقد  
اختارني من بين جميع الحاشية لما توسم في من الأريحية ، وستكون سبة  
لو خيت أمله ، وما أظنه يخالف وعده . ولكن هبه أخلف ، وطالبني الملك  
بتتنفيذ وعيده ، فأئلى لي به بعد أن تضمره الصحراء في جوفها ، وحان يوم  
البؤس في العام القابل ، أليس في ذلك حتى لغير جريرة ارتكتها ، وفي سبيل  
نحوة كاذبة ، وهل أضحي بنفسي ، وأحرم ولدى حياتي من أجل هذا البدوى  
الجلف ؟ .

ورفع شريك رأسه ، وأبى أن يتکفل بالأعرابى ، فوثب رجل من  
كلب يقال له قرداد بن أجدع ، وقال للنعمان : أبیت اللعن أيها الملك الجليل !  
هو على ، فقال النعan : أفعلت ! قال : نعم ، فضمّنه إيه . ولهج لسان الطائى  
بشکره ، وأکد له أنه لن يخالف وعده ، ولن يخيب رجاءه فيه . وأمر النعan  
للطائى بخمسمائة ناقة مغكاء زينها سعدان<sup>(١)</sup> توضح في أوبارها اللبد ، فمضى  
بها الطائى لأهله ، وقد جعل الأجل حولاً من يومه ذلك ، إلى مثل هذا اليوم  
من قابل .

(١) نوع من الشوك تسمى عليه الإبل وفي أمثالهم : حسك ولا كالسعدان ، وتوضح  
مكان مشهور بهذا النوع من الشوك .

ثُمَّ ماضى الحول ، ولم يبق على الأجل المضروب إلَّا يوْمٌ ، وقال النعمان  
لقراد : ما أراك إلَّا هالكًا غدًّا ، فقال قراد :

فإن يكْ صَدْرُ هذا اليوْم ولَيْ فـإن غـدـاً لـنـاظـرـه قـرـيـبـ  
ثـمـ أـصـبـحـ النـعـماـنـ فـيـ يـوـمـ بـأـسـهـ ، وـرـكـبـ فـيـ خـيـلـهـ وـرـجـلـهـ ، وـهـوـ فـيـ كـامـلـ  
شـكـتـهـ كـانـ يـفـعـلـ فـيـ مـشـلـ هـذـاـ يـوـمـ مـنـ كـلـ حـولـ ، حـتـىـ أـتـىـ الغـرـيـيـنـ <sup>(١)</sup> .  
وـأـخـرـجـ مـعـهـ قـرـادـ . وـهـوـ يـبـتـسـمـ لـهـ ، وـيـقـولـ : لـقـدـ حـانـ حـيـنـكـ يـاـ قـرـادـ ، فـوـدـعـ  
الـدـنـيـاـ ، وـتـمـلـ مـنـهـ قـبـلـ أـنـ تـغـادـرـهـ . وـقـرـادـ ثـابـتـ جـائـشـ ، وـاـثـقـ فـيـ اللهـ ،  
وـفـيـ وـعـدـ ذـلـكـ الطـائـيـ ، الذـىـ رـأـيـ فـيـهـ سـمـاتـ النـبـلـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ فـاقـتـهـ وـخـشـونـةـ  
مـظـهـرـهـ . وـأـرـادـ النـعـماـنـ أـنـ يـتـعـجـلـ قـتـلـ قـرـادـ ، قـبـلـ أـنـ يـأـتـىـ الطـائـيـ ؛ إـذـ كـانـ يـعـزـ  
عـلـيـهـ أـنـ يـقـتـلـ رـجـلـ أـسـدـ إـلـيـهـ صـنـيـعـاـ جـمـيـلاـ ، فـأـمـرـ بـالـنـطـعـ أـنـ يـمـدـ ، وـبـالـسـيـافـ  
أـنـ يـطـيـحـ رـأـسـهـ حـينـ وـقـفـ بـيـنـ الغـرـيـيـنـ ، وـتـهـيـأـ قـرـادـ لـمـوـتـ ، بـيـدـ أـنـ وزـرـاءـ  
الـنـعـماـنـ عـزـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـقـتـلـ قـرـادـ جـزـاءـ أـرـيـحـيـتـهـ ، فـقـالـوـاـ لـنـعـماـنـ : لـيـسـ لـلـمـلـكـ  
أـنـ يـقـتـلـهـ حـتـىـ يـمـضـيـ النـهـارـ ، فـلـعـلـ الطـائـيـ أـنـ يـصـدـقـ فـيـ وـعـدـهـ .

وـلـيـ النـهـارـ سـرـيـعـاـ عـلـىـ قـرـادـ ، وـكـادـ الشـمـسـ تـجـبـ <sup>(٢)</sup> ، وـأـخـذـتـ  
تـوـدـعـ الدـنـيـاـ بـابـتـسـامـةـ صـفـرـاءـ مـنـ فـمـهاـ الـذـهـبـيـ ، وـأـرـختـ ذـوـائبـ مـنـ شـعـرـهاـ عـلـىـ  
الـأـفـقـ الغـرـبـيـ فـيـ لـوـنـ النـضـارـ ، فـأـحـمـرـ الـأـفـقـ ، وـسـكـتـتـ الدـنـيـاـ سـكـوتـ المـوـدـعـ  
لـشـمـسـ الـحـبـيـةـ ، وـنـظـرـ النـعـماـنـ إـلـىـ قـرـادـ ، وـقـالـ : الـآنـ يـاـ قـرـادـ لـمـ يـبـقـ لـكـ إـلـّاـ أـنـ

(١) قبران دفن فيهما النعمان صديقين له ، كانوا يناديهما ، وأمر بقتلهم ، وهو في سكره ذات ليلة ، ولما أفاق ندم على قتلهم ، فدفعهما بهذين القبرين ، ونذر أن يطليهما بدم أول من يراه وهو واقف بينهما في مثل اليوم الذي قتلا فيه .

(٢) تجوب : تقليب .

تنجز ما وعدت ، فتهياً للموت ، وإذا اعراطه تشق الصنوف ، مولولة ناحبة ،  
معولة ، باكية ، وهي تقول :

أيا عينُ بَكَّى لِي قرَادَ بنَ أَجْدَعَا رهيناً لقتل ، لا رهيناً موَدِّعاً  
وقد دمعت عيون السامعين لتعيها ، أسفًا وحزنًا على قراد بن أجدع ،  
إلا عين النعمان فإنها كانت جامدة ، ووَدَّ أن يروي نفسه الطمأنى بمنظر الدم  
المراق ، وأن ينقذ الطائى ، بقتل الفداء ، ولم يهتز قلبه لصوت الأسى واللوامة  
ينطلق شجياً كثييرًا منبعثاً من قلبها الدامى .

وقف قراد على النّطع <sup>(١)</sup> وهم السيف بقطع رأسه وشخصت إليه  
الأبصار ، وهو مستسلم للموت في ثبات عجيب ، وجراة من يعرف أنه ما أتى  
منكراً فيندم عليه ساعة حينه ، بل أتى جميلاً يشجع صدره ، ويذكر بعده ،  
وإذا شخص يتراءى من بعيد في نهاية الأفق ، فصاحت بطانة النعمان : كف أيها  
السياف حتى يأتي هذا الشخص ، فيعلم الملك من هو ، فلعله الطائى قد برأ  
بوعده ، ووفى بكلماته .

وانتظر الجميع ، وأبصارهم شاخصة على هذا الذى قد بدا في طرف الأفق  
وقد حبسوا أنفاسهم ، وصمتت ألسنتهم ، وهو يتضح لهم شيئاً فشيئاً ، حتى  
ظهرت معالم وجهه ، فإذا هو الطائى ، فابتسم أصدقاء قراد ، وابتسم قراد نفسه  
ورددت إليه روحه التي غربت عنه أو كادت ، ودبّت الحياة في وجهه ، وسرّ  
الجميع بعقدم الطائى إلا النعمان ، فقد شق عليه مجئه ، وقال له :

— ما حملك على الرجوع بعد أن أفلت من القتل ؟

(١) النطع : بساط من جلد .

— إنه الوفاء أيمها الملك أيدت اللعن .

— وما حملك على الوفاء ؟

— إنه وعد العربي ، وذمته ، وشرفه ، وحاشاي أن آتي بما يخل بالشرف  
فأكون سبباً لأهلي ، ولقبيلتي أبداً الدَّهر . وما أنا من يخاف الموت حتى  
يقع في بيته ويدع غيره يقتل من أجله ، وأنا على ثقة بأنني لم أرتكب جريمة  
فأخشى على نفسي العار ، وأنني أقتل إرضاءً للملك ، وتحقيقاً لعادته اعتادها ،  
وقد أبلى نحسي ، وسوء جدي أن أقدم عليه في يوم بؤسه ، فألقي حتفي .  
وهذا قضاء من الله لا راد له ، وأجل قد انتهى أمهده ، ومنية قد حان حينها ،  
فهيا أيها الملك العظيم فإني رهن أمرك . وأما أنت يا قرداد ، فصيفحاً عما قدمته  
لك من إساءة ، واضطراب ، وما كنت لأنسى لك هذه اليad الكريمة ،  
وقد ضمنتني لدى الملك ، وأكون سبباً في إراقة دم زكي كدمك . وإنني إن  
زمتُ اليوم فإن طيء بأسرها تعلم مقدار صنيعك ، وجميل عارفتك .

وذهل النuman ، ودهشت حاشيته لهذا النبل الذي يمكن في هذه الأسمال ،  
وهذه النفس الرفيعة التي تنقطر في تلك الكلمات ؛ وأطرق النuman برؤه  
وهو يرى أنه أمام مثلين من الأمثلة العليا في الوفاء والمروءة ، وفاء الطائى وقد  
مشى لحينه بنفسه ، وقد كان ينبع عن أن تناهه يد ، محتمياً بأجأ أو سلمي <sup>(١)</sup> .

نزلَ الوعول العصم عن قذفاته وتضحي ذراه بالسماء كوافرا <sup>(٢)</sup>  
ومروءة قرداد وقد ندب نفسه للموت ، وكان منه قاب قوسين أو أدنى .

(١) جبلى طيء .

(٢) كوافراً : مغطاة .

وأخذ يحدث نفسه ، وكيف يكون ألم الرجلين ؟ وما هذه العادة الوحشية ،  
وإراقة الدم البريء لغير ذنب اقترف ؟ إنها نزوة شيطان ، وفي سبيلها أطروح  
بالجميل . إن هذا الطائى خلائق أن يحييا ، وهو على ما يتخلى به من كرم  
وأريحية ، ووفاء ، وفتوة ، ورجلة كاملة<sup>(١)</sup> .

ورفع النعمان رأسه ، وقال يا أخا طيء ، لقد شاء الله أن ينجيك من القتل ،  
ووالله ما أدرى أيكا أوف وأكرم : لهذا الذى نجا من القتل فعاد ، أم هذا  
الذى ضمته ؟ والله لا أكون ألم الثلاثة ، ولقد بهرتمنى بصنيعيكما ، حتى عافت  
نفسى لهذا العمل الذميم ، ثم أمر النعمان أن يهدم الغربين ، وأقلع عن تلك  
العادة الخبيثة ، وأنشأ الطائى حين سمع أمر النعمان بهدم الغربين يقول :

ما كنتُ أخلفَ ظنَّهُ بعدَ الْذِي أَسْدَى إِلَيَّ مِنَ الْفَعَالِ الْحَالِ  
ولقد دعتنى للخلاف . ضلااتي فأبىتُ غير تمجدى وفعالى  
ولقد أجزل النعمان عطاوه ، وعاد إلى قومه معافاً مكرماً ، بعد أن كان  
ودعهم وداع المفارق لهم إلى الأبد ، وداع الذى حانت منيته فهو يمشى إليها  
طوعية واختياراً ، فكان فرحةهم بقدومه حياً لا يقدر ، وقد حمدو الله وفاءه ،  
ولقد مررت به ، وللنعمان عفوه .

(١) روى في تعليل وفاة الطائى أنه قال : ديني ، وقال له النعمان : وما دينك ؟ قال :  
النصرانية ، قال : اعرضها على فعرضها ، فتنصر أهل الحيرة جمعاً ، وعندى أن هذا التعليل  
مفتعل ، لأن النصرانية كانت معروفة بالحيرة قبل النعمان ، وكانت قبيلة العباد كالمها نصارى ومنهم  
عدي بن زيد العبادى الشاعر المعروف راجع Huart : Histoire des Arabes

## فارس الشهباء

كانت الشمس تضرب وجه الأرض بسياط ملتهبة ، وتصب على الأودية  
المقرفة حمماً متقداً ، تحمله أشعتها المتأججة ، ووقف فارس في خوة بين جبلين ،  
يجيل بصره يمنةً ويسرةً ، عليه يجد طلبه في مسافر أعياد الرحيل ، وأجهده  
الحر ، فطلب الراحة والظل في كنف هذا الجبل الأشم ، فأخذه على غرة ،  
ويسلبه متعاه كدأبه في كل مرة يقصد فيها هذا المكان الذي يقع في مفترق  
الطرق ، بهذه الصحراء الواسعة الفجاج ، الموحشة المسالك .

وكاد ييأس ، ويعود أدراجه صفر الكف . وطال به الانتظار وهو  
لا يرى على مدى البصر إلا وهجاً متالقاً تنفسه الأرض من جوفها الملتهب ،  
فيعلو صعداً في طبقات الجو . ثم عدا بفرسه عن يمين ، وتطلع برها إلى الأفق  
المتد ، فلم يجد أحداً ، ثم عاد بفرسه عن يسار ، وكان في هذه المرة أسعد جداً ؛  
إذ لمح نقطة سوداء تتحرك صوبه سريعاً ، ميزتها عينه الحادة ، بأنها فارس  
مثله قد أقبل من طريق اليمامة ، فامتلا قلبه بشراً ، إذ كان واثقاً من شجاعته  
ومهارته ، وأنه لا كف له في ميدان الوغى ، أو عند المبارزة .

وأخذ الفارس يدنو منه سريعاً ، فإذا هو فتى مجدول القد ، حسن الهيئة ،  
بهي الطلعة ، قد نبت عذراد ، فلما حاذاه حياد فرد تحيته في مجله ثم سأله :

— من الفتى ؟

— وما سؤالك في أمر لا يعنيك ؟

— ستندم على قحتك وتجيئك لي ، فعجل وأخبرني من أنت ؟

— إنْ كَانَ ذَلِكَ يُشِيرُ فِضْوَلَكَ ، فَأَنَا الْحَارِثُ بْنُ سَعْدٍ ، فَارِسُ الشَّهِبَاءِ .

— خذْ حِذْرِكَ إِنِّي قاتَلْتُكَ !

— لَقَدْ طَمَعْتَ فِي حَلْمِي ، شَكَلْتَكَ أَمْكَ ، فَنَّ أَنْتَ ؟

— عُمَرُ بْنُ مَعْدِ يَكْرَبُ الزَّيْدِي .

— الدَّلِيلُ الْحَقِيرُ ، وَاللَّهُ مَا يَمْنَعُنِي مِنْ قَتْلِكَ إِلَّا هُوَ أَنْ أُمْرَكَ وَاسْتَصْغَارُ شَأْنِكَ ؛ فَأَخْذُ عُمَرَ يَتَأْمِلُ الْفَتِي وَيَتَعَجَّبُ مِنْ جُرْأَةِ جَنَانِهِ ، وَسَلَاطَةِ لِسَانِهِ ، وَقَدْ كَانَ يَظْنُ أَنْ اسْمَهُ سِيقَدْفُ الرُّعْبَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَحْتَقِرُهُ وَلَا يَأْبِهُ لَهُ ، وَعَزَّاً ذَلِكَ إِلَى جَهَلِهِ بِمَا هُوَ مَقْبِلٌ عَلَيْهِ مِنْ خَطْرٍ ، أَوْ إِلَى غَرُورِهِ بِعَيْنِهِ شَبَابِهِ ، فَقَالَ لَهُ :

— دَعْ عَنْكَ هَذَا ، وَخذْ حِذْرِكَ ، فَمَا مِنْ قَتْلِكَ بَدِ !

— يَا عُمَرُ أَبْقِ عَلَى نَفْسِكَ ، فَإِنِّي مِنْ مُعْشَرِ مَا أَشْكَلَهُمْ فَارِسٌ قَطْ !

— هُوَ الَّذِي تَسْمَعُ ، وَلَنْ يَنْصُرْ إِلَّا أَحْدَنَا ! وَسَتَعْلَمُ بَعْدَ أَيْنَا الْحَقِيرُ

فَتَرَدَّدَ الْفَتِي هَنْيَةً ، كَأَنَّمَا عَنَّهُ أَمْرٌ أَوْ خَشَى التَّلُؤْمَ وَالْمَكْثَ فِي مَبَارِزَةِ هَذَا الصَّعْلَوكَ ، وَأَمَامَهُ مَهْمَةُ أَجْلِ خَطْرًا ، وَلَكِنَّهُ أَفَاقَ مِنْ تَرَدِّدِهِ سَرِيعًا وَقَالَ :

— اخْتَرْ لِنَفْسِكَ ، إِمَا أَنْ تُطْرَدَ لَى ، وَإِمَا أَنْ أُطْرَدَ لَكَ .

فَظْنَ عُمَرُ الْفَرَصَةَ مَوَاتِيَةً ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَعْرُضْ مَهَارَتَهُ لِلَاختِبَارِ ، فَقَالَ :

— اطْرُدْ لِي .

فَطَرَدَ ، وَجَهَ عَلَيْهِ عُمَرُ بِكُلِّ مَا أَوْتَى مِنْ قُوَّةٍ وَأَيْدٍِ ، وَمَهَارَةٍ ، وَظَنَّ

أَنَّهُ قَدْ غَرَّ الرَّمْحَ بَيْنَ كَتْفَيْهِ ، وَلَكِنَّ الْفَتِي فِي لِبَاقَةِ الْعِلْمِ ، وَخَفْفَةِ الظَّلَمِ<sup>(١)</sup>

(١) الظَّلَمُ : ذَكْرُ النَّعَامَ .

وحرّص الحكيم تفادي ضربته ، بأن انطوى تحت الفرس حتى صار لها حزاما ثم نشط كالأجدل<sup>(١)</sup> ، ورفع قناته فقمع بها عمراً وصار تحت رحمته ، ورَهْنَ ضربته ، وقال له :

— يا عمرو ! خذها إليك واحدة ، ولو لا أُكره قتل مثلك لأردتاك  
قتيلًا .

فشعر عمرو بن معد يكرب ، الفارس المعلم ، وصاحب الواقع المشهورة ، ومن له الاسم المدوّي في أرجاء البادية ، بالصغار والموان ، وقد غلبه على أمره فتى حدث لم يكدر ينابت عذرها ، فأجابه في إصرار ويأس .

— والله لا ينصرف إلا أحدهنا .

فعرض عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، عرضه السخي ، كما فعل أول الأمر ، وخياره في الطراد ، فاختار عمرو موقفه الأول وقال له :  
— اطردلى .

فأطرب الفتى ، وملأت الحماسة والغيظ قلب عمرو ، وتحممت نفسه كلها في ضربته فلما ظن أنه تمكّن منه ، وأنه وضع الرمح بين كتفيه ، إذا بالفتى يتلبّب فرسه ، وينجو من ضربته ، وإذا به يطمئن على صهوة جواده ، ويحمل على عمرو في لمح البصر ، ويقمع رأسه بقناته ثانية ، ويقول لعمرو وقد امتنع وجهه وظن أنه من الهالكين :

— اذهب ثانية طليق صغارك وضعة شأنك .

فعز على عمرو موقف الخيبة والعار الذي وقفه ، وتذكر قوله :

(١) الأجدل: الصقر .

وجاشت إلى النفس أول مرّة فرددت على مكروهها فاستقرّت  
فأخذته الحمية ، وأبى أن يستسلم ، وفضل الموت حقاً ، على أن يكون طليق  
هذا الغلام الحدث ، فيلوك الناس فيما بعد اسمه ، وتذهب هيبته ، وتضعف  
حولته فقال لغريمه :

— والله لا ينصرف إلا أحدنا فاطرد لي .

فأطرب الفتى ، وتهيأ عمرو لضربته الأخيرة ، وتدكر هزيمته ، وخزيه ،  
كما تذكر شرفه وفروسيته ، وحمل على خصمه كأنه الصخر يدفعه السيل من  
أعلى الجبل ، وهو يرمي ، وظن أنه قد ناله بعطب فيه هلاكه ، ولكن الفتى  
ترجل عن فرسه في خفة ورشاقة وأخطأته الضربة ، ثم استوى على الفرس  
في سرعة عجيبة ، وقع رأس عمرو بقناته ثالثة ، ولبث برهة يمتنع فيها بانكسار  
الفارس المقدم ، قطاع الطريق ، وذى الصيت المديد ، وقد طأطأ رأسه ينتظر  
القتلة ، ولكن الفتى قال له وهو يبتسم ابتسامة المدلل بنصره وفتوره وسماحة  
نفسه ، ورحابة صدره ، الواثق من أمره .

— يا عمرو ، سأطلقك الثالثة على ألا تعود . ولو لا كراحتي قتل مثلك  
لتركتك لقي طيور الفلاة ، فاذهب شأنك .

فصرخ عمرو صرخة خرجت من أعماق نفسه ، وقال : القتل أحب إلى  
من هذا ، ولا تسمع فرسان العرب بموقف منك .

فأجاب الفتى في صوت جهوري قوى فيه نبرات التصميم ، والإرادة المبرمة

— يا عمرو إنما العفو عن ثلاثة ، وإذا تمكنت منك في الرابعة ، فما

من قتلك بد ، وأنشد :

وَكَيْدُ أَغْلَاظًا مِنَ الْأَيْمَانِ إِنْ عُدْتَ يَا عُمَرُ إِلَى الطَّعَانِ  
لِتَجَدَّنَ لَهُ السَّنَانُ أَوْ لَا فَلَسْتَ مِنْ بَنِي شِيبَانِ  
فَذَهَبَ بِهَذَا مَا تَبْقَى فِي نَفْسِ عُمَرٍ مِنْ مُقاوْمَةٍ، وَجَلَدَ عَلَى الطَّعَانِ، وَامْتَلَأَ  
قَلْبُهُ رَهْبَةً وَهَيْبَةً لِهَذَا الْفَارِسِ، وَأَكَبَرَ مِنْهُ هَذِهِ الْجَرَأَةُ، وَالْمَهَارَةُ، وَاللَّاسِنُ،  
وَالسَّمَاحَةُ فَقَالَ لَهُ :  
— أَنْتَ أَوْلَ فَارِسٍ أَذْعَنَ لَهُ، وَإِنْ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ .

— وَمَا هِيَ؟  
— أَكُونُ لَكَ صَاحِبًا .

— إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَ مَعِي صَبَرًا، وَيَحْكُ ! أَتَدْرِي أَينْ أَرِيدُ؟  
— لَا وَاللهُ !

— أَرِيدُ الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ عَيَانًاً .

فَقَالَ عُمَرُ، وَقَدْ ازْدَادَ إِعْجَابَهُ بِفَارِسِهِ وَتَحْرِكِهِ فِي نَفْسِهِ الْفَضُولِ، لِيَعْلَمْ مَدْى  
شَجَاعَةِ هَذَا الَّذِي هَرَمَهُ، وَوُصُمِّ جَيْبِيهِ بِالْعَارِ :  
— أَرِيدُ الْمَوْتَ مَعَكَ .

— إِذَا فَامْضِ بِنَا .

فَسَارَاهُ يَوْمَهُمَا أَجْمَعُ، حَتَّى جَنَّ عَلَيْهِمَا اللَّيلُ، وَمَضَى شَطَرُهُ، وَهَا يَسْابِقانِ  
الرِّيحَ لَا يَسْتَرِيحَانِ أَوْ يَخْفِفَانِ مِنْ حَدَّةِ عَدُوِّهِمَا، إِلَى أَنْ دَخَلَا فِي حَمِّي حَيٍّ مِنْ  
أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَقَالَ الْفَتَى لِعُمَرَ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ .

— هُنَا فِي هَذَا الْحَيِّ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ إِنَّمَا أَنْ يُمْسِكُ عَلَى " فَرْسِي "، فَأَنْزَلَ وَآتَى  
بِحَاجَتِي، وَإِمَّا أَنْ تَنْزَلَ وَأَمْسِكَ فَرْسِكَ فَتَأْتِينِي بِحَاجَتِي، وَمَا إِخْلَكَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ .

— الرأى أن تنزل أنت ، دع جابنا قدرتى وعجزى ، فأنت أدرى بحاجتك  
منى ، وأعرف بالسبيل إلها فما وطئت قدمائى هذه الأرض من قبل .

فترجل فارس الشهباء ، وألقى بعنان فرسه لعمرو ، ورضى هذا أن يكون  
له سائساً . ثم مضى الفارس لطريقه وغشّاه الليل البهيم بردائه الأسود ، ثم دلف  
إلى قبة من أدم عالية رحبة ، يتحسس طريقاً يعرفه ، ثم همس همسة ، وخرج  
من القبة تتبعه فتاة كعاب ، وضيئه الوجه ، يرف ماء الحسن من مخايلها ، ويتشنى  
عودها الرّخص ، وهي تتغير خلفه في مشيتها ، ثم عرّج على معطن الإبل  
فك ناقة من عقالها ، وقال لصاحبه :

— اركبي ! فبمثل هذه الساعة مَنِيتُ نفسى طويلاً .

— أو ما تخشى أبى وإنخوى أن يتبعوك ؟ إنك تعرف مقدار حى لك ،  
وشعفى بك وأخاف أن يتبدل فرحى سريعاً .

— لا عليك ! فإني ما خشيت إنساناً قط ، فكيف بي وأنت معي أدفع  
عنك بعد أن تجشممت في سبيل الوصول إليك ما تجشممت :

وكانا قد وصلا إلى عمرو بن معد يكرب فقال الفارس لعمرو :

— إما أن تحميني وأقود الناقة ، أو أحريك وتقودها أنت .

— بل أقودها وتحميني أنت .

ورضى عمرو لنفسه مرة أخرى أقل المترلتين فروسية وشرفاً ، لعلمه أن صاحبه  
أقدر منه على الحياة . وسارت هذه القافلة الصغيرة جادةً لا تلوى على شيء ،  
وتحت الخطاحثا ، والليل من حولهم يلفّهم بسوحه ، والجو يتفرق نسيما صافياً  
فيه برودة تغمز الجلد غمراً هينا ، فيقشعر منها قشعريرة خفيفة ، وما زالت تطوى

البيد — هكذا — طيأ حتى بدت غرة الصباح من بين سجوف الليل الدامس .  
فابتسمت له الدنيا ابتسامة الحبيب لحبيبه ، وأخذت الصحراء تنشر مفاتنها بين  
يديه . ثم ما لبثت ذكاء أن طلعت بوجهها الوضاء وشعرها الذهبي المرسل .  
فقال الفارس لصاحبه :

— يا عمرو ! التفت فانظر هل ترى أحداً .

— إنى أرى كوكبة من الفرسان .

— أغذ السير — وهيات أن نفوتهم . أنظر أقليل عددهم أم كثير ؟  
فإن كانوا قليلاً فالجلد والقوة وإن كانوا كثيراً فيلسو بشيء .

— إنهم أربعة أو خمسة إن لم يخن بصرى .

— أغذ السير ، فستكون معهم لا يعلم مصيرها إلا الله .

وأخذت القافلة تجده في سيرها ما استطاعت ، ولكنها كانت مقيدة  
بخطي الناقة ، فسرعان ما سمعوا وقع حوافر الخيل تطرق آذانهم وكأنها نذر  
الموت ، فقال الفارس لعمرو :

— كن عن يمين الطريق ، وقف ، وحول وجه دوابنا إلى الطريق ،  
ولنتهيأ لاستقبالهم . فإن ذلك أكرم بنا .

ودنا القوم منهم ؛ فإذا هم ثلاثة نفر : شابان بدت عليهما دلائل القوة  
والفتوة وكرم التجار ، وشيخ وقور قد امتلأ صحةً وعافية ، على الرغم من  
شيخوخته ، وقد استوى على صهوة جواده استواء الفارس الخبير . كان هذا  
الشيخ أبا الجارية وكان الشابان أخويها ووقفوا تجاه فارس الشهباء وصاحبيه ،  
وقال الشيخ في صوت مليء لين :

— خل عن الجارية يا ابن أخي .

— يا عم ! لقد حُلتَ بيني وبينها ، وهي مُنية النفس ، وسيدة القلب ،  
وما كنت أنتظرك أن تردنـي - إذ خطبتهـا إليك - خائباً ، وعجبتُ لأمرـك ،  
فإنـك لن تجدـ لها أـكـفاً منـ بـعـلا : شـرـفـ مـحـتـدـ ، وشـجـاعـةـ قـلـبـ ، وـكـرمـ يـدـ ،  
وـحـسـبـيـ أـنـيـ أـتـمـىـ إـلـىـ الدـوـحةـ الـتـىـ تـفـرـعـتـ مـنـهـ حـبـيـبـ قـلـبـيـ .

— ليس المقام يا ابن أخي مقام عتاب وجـالـ ، واستعطاف ؟ ولقد  
خـسـرـتـ بـحـرـأـتكـ الـلـيـلـةـ عـلـىـ اـتـهـاـكـ حـرـمـتـ ، وـخـطـفـ اـبـنـتـيـ ، ما بـقـىـ لـكـ فـيـ  
نـفـسـيـ مـنـ اـحـتـرـامـ ، وـفـيـ قـلـبـيـ مـنـ مـوـدـةـ . خـلـ عنـ الجـارـيـةـ ، وـانـصـرـفـ لـشـأنـكـ .  
— ما كـنـتـ لـأـخـلـيـهـ ، وـلـاـ هـذـاـ أـخـذـتـهـ وـلـنـ أـدـعـهـ إـلـاـ وـأـنـاـ أـشـلـاءـ مـمـرـقةـ .  
فـدـونـكـ وـمـاـ تـرـيدـ .

فـقـالـ الشـيـخـ لـأـصـغـرـ اـبـنـيهـ : اـخـرـجـ إـلـيـهـ .

فـخـرـجـ إـلـيـهـ فـتـيـ فيـ عـنـفـوـانـ شـبـابـهـ يـجـرـ رـمـحـهـ ، وـكـانـ النـاظـرـ إـلـىـ الـفـتـاةـ يـرـىـ  
وـجـهـهـاـ قـدـ عـلـتـهـ صـفـرـةـ الـاضـطـرـابـ وـالـخـوفـ ، وـقـدـ وـجـبـ قـلـبـهـاـ وـجـيـبـاـ شـدـيـداـ ،  
وـهـيـ بـيـنـ عـامـلـيـنـ : عـاـمـلـ الـخـوفـ عـلـىـ حـبـيـبـهـ ، وـبـيـنـ عـمـهـاـ ، وـعـاـمـلـ الـحرـصـ عـلـىـ  
حـيـاـةـ أـخـيـهـ .

وـجـالـ الـفـتـيـانـ جـوـلـاتـ صـادـقـاتـ ، وـبـرـهـنـ كـلـ مـنـهـماـ عـلـىـ أـنـهـ كـفـءـ  
لـصـاحـبـهـ وـنـدـلـهـ فـيـ الطـعـانـ ، بـيـدـ أـنـ فـارـسـ الشـهـباءـ كـانـ أـثـبـتـ مـنـهـ ضـرـبةـ وـأـسـرـعـ  
يـدـاـ ، وـفـيـ ضـرـبةـ مـنـ ضـرـبـاتـهـ النـافـذـةـ ، أـصـمـىـ غـرـيـهـ فـسـقـطـ مـضـرـجاـ بـدـمـهـ .  
فـقـالـ الشـيـخـ لـابـنـهـ الـآـخـرـ : أـخـرـجـ إـلـيـهـ فـالـمـوتـ خـيـرـ مـنـ حـيـاـةـ يـلـطـخـهـ الـعـارـ ،  
وـيـسـمـهـاـ الشـنـارـ .

خرج الفتى وكان أعظم من أخيه جثة وأصلب عوداً ، وأقوى طعنة ،  
حمل عليه الحارث بن سعد فارس الشهباء ، وقد فارت نفسه ، وجمى قلبه ،  
وهو يرتجز :

لقد رأيتَ كيف كانت طعنتي والطعن للقرن العنيف همّي  
والموتُ خيرٌ من فراقِ خلتي فقتلتني اليوم ولا مذلةٍ  
ثم شد على خصمته شدة ، وصوّب إليه طعنة ، وَجَأْ بها جوفه خنزيرياً  
يلتشحّط بدمه ، بعد أن جرّحه غريمه جرحًا بليغاً في فخذه ، وأبلى في صراعه  
يلاءَ محيداً .

قال الشيخ لفارس الشهباء : خل عن الظعينة ، فإنني لست كمن رأيت .  
— يعز على يا عماه أنني قتلت أخوي في ميدان الشرف والحب ، وإنني  
لن أتخلى عن عِدْل الروح ، طيبة بذلك نفسي ، حسبك أن قُتل أخواها ،  
فدعني وإياها ، ولا تلجمي لقتالك ، فلماك في قلبي منزلة عالية ، وهيبة عظيمة ،  
فبربك إلا ما أبقيت على ما يلينا من قرني ومودة .

— هيئات يا بنى ! وقد صرّع ابني دفاعاً عن شرف أهين ، وكرامة  
امتهنت . أو لمثلّي يوجه هذا الكلام ؟ وأنت جد علیم بما كسبت يدائي من  
خوار في ميادين البطولة والباس ، إنّي أحذرك خلل عن الفتاة ، وانطلق لشأنك .

— دوَنَكِ القتالِ إِنْ أَرْدَتْ .

— اختر نفسك ؟ فإن شئت نازلتك وإن شئت طارتك .

فنزل الفتى ، ونزل الشيخ ، وكنت ترى فارسين ، كل منهما ملء إهابه

نحْدَهُ ، وَحِيُّيَّةً ، وَقُوَّةً ، تَرْجِحُ الْأَرْضَ تَحْتَ أَقْدَاعِهِمَا ، وَارْتَجَزَ الشَّيْخُ وَهُوَ  
يَمْشِي إِلَى خَصِيمِهِ :

مَا أَرْتَجَى عَنِّي دُفَنَاءُ عُمْرِي سَاجَلَ التَّسْعِينَ مِثْلَ الشَّهْرِ  
يَخْافِنِي الشَّبَّاعَانِ طَولَ دَهْرِي فِي خَدْشٍ عِرْضِي قَاصِمَاتُ الظَّهَرِ  
وَمَشِي الْحَارِثِ مِشِيَّةُ الْأَسْدِ الرَّبِيلِ وَهُوَ يَنْشُدُ .

بَعْدَ ارْتِحَاءٍ ، وَنَوْيلَ صَبَّارِي دَظْفَرَتُ وَشَفَّيْتُ صَدْرِي  
لَمْوَتُ خَيْرٌ مِنْ لِبَاسِ الْغَدَرِ وَالْعَارُ أَهْدَيْهِ لَحْيَ بَكْرِ  
وَتِبَارِيَا سَاعَةً فَمَا وَجَدَ أَحَدُهُمَا فِي صَاحِبِهِ غَفْلَةً أَوْ ثُغْرَةً يَنْفَذُ مِنْهَا إِلَى بَدْنِهِ .

فَقَالَ الشَّيْخُ :

— يَا بْنَ أَخِي إِنْ شُئْتَ ضَرِبَتِكَ ، فَإِنْ أَبْقَيْتَ فِيكَ بَقِيَّةَ فَاضِرِبْنِي وَإِنْ  
شُئْتَ فَابْدَا أَنْتَ ، فَإِنْ أَبْقَيْتَ فِي بَقِيَّةِ ضَرِبَتِكَ .

فَقَالَ الْفَتَى ، وَقَدْ ظَنَّ أَنَّهَا فَرْصَةً :

— أَنَا أَبْدَا .

— هَاتِ !

فَانْتَصَرَ الْفَتَى سِيفَهُ ، وَرَفَعَ يَدَهُ فِي جَبْرُوتٍ وَعَنْفٍ ، فَلَمَّا نَظَرَ الشَّيْخُ أَنَّهُ  
أَهْوَى ، ضَرَبَ بِطَنَهُ بِسِيفِهِ ضَرْبَةً قَدَّ مِنْهَا أَمْعَاهُ وَنَفَدَتْ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَكَانَتْ  
ضَرْبَةُ الْفَتَى قَدْ وَقَعَتْ جَاسِيَّةً شَدِيدَةً عَلَى هَامَةِ الشَّيْخِ فَطَارَتْ فُضُاضًا ، وَسَقَطَتْ  
مِيَتَيْنِ تَبَكِيَّهُمَا الشَّبَّاعَةُ الْفَاقِهَةُ ، وَالْقُوَّةُ الْبَالِغَةُ .

وَتَلَفَّتْ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيَّكَرْبَ ، وَقَدْ رَأَاهُ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الْبَطْوَلَةِ الْفَذَةِ ،  
فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ دَهْشَتِهِ ، وَجَدَ تَحْتَ يَدِهِ غَنِيمَةً بَارِدَةً : أَرْبَعَةُ أَسِيفٍ وَأَرْبَعَةُ

أجياد ، وناقة ، وجارية ملء إهابها حسناً وملاحة وشباباً ، فأخذ بخطام الناقة  
وأزمع إلى داره ، فقالت الفتاة :

— يا عمرو ! إلى أين ولست بصاحبتك ولست لي بصاحب ، ولست  
كم رأيت .  
— اسكنى !

— إن كنت لي صاحباً حقاً ، فأعطني سيفاً ورمحاً ، فإن غلبتني فأنا لك ،  
وإن غلبتك قتلتك .

فتردد عمرو ، وقد ارتاب في شجاعته ، وكفاءته لهذه الفتاة ، بعد ما رأى  
من أهلها كلّ مثلك نادر في القدرة على القتال والشجاعة الخارقة ، وأبى أن  
يعرض شجاعته مرة أخرى للبلاء ، فزجرها ورفض أن ينيلها ما طابت .

فرمت نفسها عن البعير ، وأقبلت نحوه تقول :

أبعد شيخي ثم بعد أخوتي يطيب عيشي أو تطيب الذي  
وأصحاب من لم يكن ذا همة هلا تكون قبل ذا منيتي !  
ثم انزعـت سيفاً من يده ، في قوة وعنف ، خاف عمرو وظن أنها ستقتله .

ولكن لا . إنها غمست السيف في صدرها حتى نفذ إلى فؤادها ، وهوت على  
إثر ذلك يشحـب دمها ، وتفيض روحها . فعلـت كلـ هذا بسرعة زائدة ، فـلما  
تبين عمـرو أنها قـتلت نفسهاـ أـقبل عـلـيـهاـ قـفـالتـ لهـ وـهـيـ تـجـودـ بـنـفـسـهاـ الأـخـيرـ :

إنـيـ جـدـ سـعـيـدةـ ؟ـ إـذـ لـحـقـتـ بـمـنـ أـحـبـ فـالـعـيـشـ بـعـدـ هـوـانـ ،ـ وـدـونـكـ  
هـذـهـ الـفـضـلـاتـ الـتـيـ خـلـفـوـهـاـ مـنـ سـيـوـفـ وـأـفـرـاسـ عـلـمـاـ تـرـضـيـ نـفـسـكـ الـوضـيـعـةـ .  
ثمـ فـارـقـتـ الـحـيـاةـ .

## حامي الطمونة

الشمس ماتعة تُوقَد بالضَّحْى ، ورمال الصحراء تَزَفِر زُفَرَات ملتهبة تعلو  
صُمُداً في طبقات الجو كأنها فَيْح الصَّلَال الرُّقْط ، أو أَنفَاس جَهَنْ ، وتهب  
أَمْواجاًً أمْواجاً كأنها بَحْرٌ من هَبٍ ، وخلت البيداء من الحياة فلا ترى إلَّا رملاً  
متوهجة ، وصخوراً جائمة ، وكثباتاً قائمة . ييد أن فرساناً أربوا على الأربعين  
يقودهم فارس بني جُشم دَرَيد بن الصَّمة قد اقتربوا غمراتِ هذا البحير المتقد ،  
وخيولهم تلهث لغُواياً ، وظماً ، وأجسامهم تنضح عرقاً ، وزعوسمهم تكاد تذوب  
من وَقْدة الشمس ، وأوار ذيَّاك البساط الرملي المديد الذي تمشي عليه جيادهم ،  
وكأنها تنتقل على رمضان زاهية الجمرات .

وَمَا أَنْ رَأَوْا صَخْرَةً عَاتِيَةً أَلْقَتْ ظَلَّهَا عَلَى الْأَخْرَمْ - وَادِي بْنِ كَنَانَةَ -  
حَتَّى أَوْوَ إِلَيْهَا أَشَدَّ مَا يَكُونُونَ تَبِعًا وَنَصِبًا ، وَأَعْظَمَ مَا يَكُونُونَ لَهْفَةً وَتَشْوِقًا  
إِلَى الرَّاحَةِ ، وَالْأَخْتِفَاءِ مِنْ هَذَا السَّعِيرِ .

خرج هؤلاء الفرسان من ديارهم قصدَ غزو بني كنانة والتنكيل بهم ،  
لأنهم قد أقْضَتُوا قِدْمَةً مقوارثةً ، قد تأصلتْ في قلوبهم ، وتراتٍ متبادلة قد أقْضَتُ  
مضاجعهم وملائِتْ نفوسهم ضغينة وإحْنَاءً ؛ خرجوا عليهم ينالون من خصومهم  
ما يغسل عنهم عار هزيمة سابقة ، ولعلهم كذلك يُصيّبون شيئاً من الخير في  
تلك السنة الجدبة التي أتتْ على الأخضر واليابس ، ولا سيما ولبني كنانة وادِّ  
لأتزال فيه بقيةٌ ممرضة ، قد قاومت القحط فأبقيت لنعمتهم اكتناف لحمها ، وكثرة  
شحمة فلم يجهدوا كأجْهَدِ غيرهم من العرب .

وما أن استقر بهم المقام حتى قال لهم قائدُهم دُرِيدُ بن الصّمة : الرأى أن  
نَظَلَّ هنا يومَنا هذا حتى يأتى الليل فتبدأ الغارة ونكون بذلك قد استرخنا  
واستجمت جيادنا ، فنقوى وإياها على حر المعركة ، ثم إن القومَ الآن أيقاظٌ  
وقد أتوا إبْلِهِمْ إلى مرابضها في أكناف الحى ، ولو أغروا علينا واستغاث  
أحدُ عبيدهم هبوا إليه جميعاً بسيوفهم مُشرعة ، وكانت معركةٌ يهزُم فيها  
الآقلون عدداً ، فوافقه صحبه على رأيه وطفقوا يلهون ويضحكون ويستريحون  
وبيناهم كذلك إذ لاح لهم رجل في ناحية الراidi ومهظعينة ، فقال دريد :  
« قد يرانا هذا الرجل ، وينبه علينا قومه إن تركناه ، فهو لاشك ميمم صَوْب  
الحى ، والرأى أن نقتله أو نأسره ويكون هذا أول الغنم . فمن منكم يتصدى له  
وله كل ما معه حتى الظعينة ؟ ققام شاب في عنفوان العمر يكاد يتفجر قوه  
وصحة وحياة وقال : « إني له » ، فقال دريد : « دونك الرجل ». فامتنطى  
جواده ولما اتهى إليه صاح به وألح عليه أن يستأسر وإلا فهو من الماكلين ،  
فوجد منه إعراضًا وإباء ، ثم رأه يلقى زمام الراحلة ويقول للظعينة :  
سيري على رسَلِكِ سيرَ الآمنِ سيرَ رَدَاحِ ذاتِ جأشِ ساكنِ  
إن اثنانِي دون قرنِي شائنيِي أبلي بلائيِي وخبرِي وعainيِي  
وأقبل على الفارس بوجه طلاق ، وسيف مُصلَّتِ وقال له : « يا هذا انجُ  
بنفسك ، واحفظ ميعنة شبابك ، فلستَ لي بِنِدِي ، وإنِي أهبك لوجهك السمح  
وعودك الغَصَّن ، وعمرك النصير ». فقال فارس بنِي جسم : « ليس والله إلى  
النكوص من سبيل ، فخذ حذرك فإنِي قاتلك ». ثم  
ثم جالا جولات ، وحملوا حملات صادقات ، ولكن خَرَّ فارس بنِي جسم

صريعاً يتَشَحَّطُ في دمه إثر ضربة فاتِكة من حامي الظعينة الذي أخذ فرسه وأعطاه لها.

ولما رأى دريد أن رسوله قد طال به المكث بعث بفارس آخر لا يقل عنه أبداً، وشجاعة، وصلابة عود، وعظم هيئة، فلما انتهى إليه ورأى صاحبه مجنداً، والرجل قد أخذ بخطام البعير وهو منطلق كأن لم يحدث حدث ولم يلتق الردى فارس شجاع، صاح به مهدداً إن لم يستأسر، ولكنه تصام عنه وظل منطلقًا لا يلتفت إليه، فعز على فارس بنى جسم أن يهمَل هذا الإهمال فغشيه بجواده، فلما قرب منه ألقى زمام الراحلة إلى الظعينة وكر راجعاً على مهاجمه وهو يقول:

خَل سَبِيلُ الْحَرَةِ الْمَنِيعَ— إِنَّكَ لَاقِ دُونْهَا رَبِيعَه  
فِي كَافَهِ خَطِيَّةِ مَطِيعَ— أَوْ، لَا . فَخَدَهَا طَعْنَةُ سَرِيعَه  
فَالطَّعْنُ مِنْ فِي الْوَغْيِ شَرِيعَه

ووْجده أدرى من سابقه بفنون القتال، وأشد بأساً، بحال معه جولات وحمل عليه حملات دونها حملات الأسد تحمى عرينها، وما هي إلا برهة حتى صرع مهاجمه صرعة شنيعة، وألحقه بصاحبته في وادي الموت. أما حامي الظعينة فقد عاد إليها ونشوة الانتصار ملء بُرديه، والعزة تملأ خياشيمه، وقلبه يفيض تيهًا وأنفة، وأخذ يقود البعير واستأنف سيره، وهي تنظر إليه نظرات تفصح عن حب عميق فياض، وإعجاب ببطل عَرَض نفسه للموت محبة لها، واعتزازاً بها، وحافظاً على عرضه وشرفه، تنظر إليه نظرة المرأة إلى الرجل الذي يعزها

ويكرهها ويحميها فلا تذل ولا تهان ، نظرة المرأة إلى الرجل القوى  
الشجاع الماهر .

وما كاد يخطو خطوات حتى سمع فارساً ثالثاً يصيح به ، قد أرسله دريد  
لينظر ما صنع أصحابه من قبله ، ولكنه لم يتوقف أو يتريث بل ظل منطلقاً  
يقود ظعينة ويجر رمحه ، فزاد هذا الإعراض الفارس التهاباً وقد رأى أصحابه  
مجدلين معفرين ، فعدا صوبه وهو يتميز من الغيط ، ويود أن يمزقه إرباً  
إرباً ، فقال حامي الظعينة لها : « اقصدى قصد البيوت » ثم أقبل على مهاجمة يقول  
ماذا تريد من شتيم عابسِ ألم تر الفارس بعد الفارس ؟  
أردتها عاملاً رمح يابس

فرد عليه فارس بني جشم : « أريد أن أذيقك كأس الموت ، وأريق  
دمك ، وأنكمل بك ، وأمثل بجسمك جراء وفاقاً على ما اقترفتْ يداك من  
قتل هذين البطلين ، والسيدين الشريفين ، فقال حامي الظعينة : « ويلك  
ألم يكن في مثلهما لك عزة ؟ أتأبى إلا أن تلحق بهما ؟ اغرب عنى ، وإلا  
فأنت في عداد الماكسين » فقال قرنـه : هيـات لن يبرح إلا أحدنا فخذ حـدرك  
فإن صحـي يرتبـون عـودـتـي » .

قال : « لن تعود وفي يمناي هذا الرمح » ، وحمل عليه حملة أردته  
قتيلاً وانكسر فيها رمحه ، وتركه يتختبط في دمه ومضى نحو صاحبته ، التي  
أبـتـ إلاـ أنـ تـنـتـظـرـ كـيـفـ تـكـوـنـ نـهـاـيـهـ هـذـاـ الصـرـاعـ ، فـلـمـ رـأـهـ يـعـودـ مـظـفـراً  
وـالـبـتـسـامـةـ مـلـءـ فـهـ ، عـادـتـ إـلـيـهـ طـمـأـنـيـتـهـ ، وـفـاضـ قـلـبـهاـ زـهـوـاـ وـعـجـباـ أـنـ تـكـوـنـ  
فيـ كـنـفـ هـذـاـ الفـارـسـ الـبـطـلـ ، وـمـاـ كـلـ حـرـّةـ قـدـ سـعـدـ جـدـّـهـاـ وـحـابـهـاـ طـالـعـهـاـ

فكان أليها وقريتها مثل صاحبها هذا بأساً ونجد وقوة ، واستأنف سيره حتى  
أشرف على بيوت الحى .

ولكن دريد بن الصمة قد رأبه أن يذهب رسلاً يعودون ، وظن  
أنهم قتلوا الرجل وأخذوا الظعينة أسرية ، وأنهم قد نزت بهم زوات فاعتقدوا  
عليها ، أو أنهم اختلفوا فيما بينهم على الغنية فاقتتلوا ، وهاج أصحابه واضطربوا ،  
واستنكروا غياب أصحابهم ، فهدأ من روعهم وانطلق بنفسه ليقف على جلية الأمر  
فوجد أصحابه قد قتلوا ، فلحق بحامي الظعينة وألغاه بدون رمح ، وعز عليه أن  
ينازل مثل هذا البطل المغوار الذى أردى ثلاثة من أشجع فرسان بني جشم  
وأدراهم بفنون القتال ، وهو أعزل من السلاح ، فقال له دريد : أيها الرجل  
مثلك لا يُقتل ، ولا أرى معك رمحًا ، والخيل ثائرة بأصحابها ، وهم في شك  
من أمرك ، ولو رأوك لقضوا عليك فدونك هذا الرمح ، وإنى منصرف إلى  
أصحابي فمثبطهم عنك إعجاباً بأسك وبلغتك في القتال ، وشجاعتكم  
النادرة المثال .

وانصرف دريد وقال لأصحابه : إن فارس الظعينة قد حماها ، وقتل  
 أصحابكم وانتزع مني رمحى ، وعفا عنى ، ولا مطعم لكم فيه ، فانصرفوا قبل أن  
يحيط بكم بنو كنانة ويجهرون عليكم ، فإنه على وشك أن يصل إلى بيوت  
الحى » فانصرفوا ، وقال دريد في ذلك :

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمشله حامي الظعينة فارسـاً لم يُقتل  
أردى فوارسـ لم يكونوا نـزـةـ ثم استمر كأنه لم يفعـلـ  
متـهـلاً تـبـدوـ أـسـرـةـ وجـهـهـ مثلـ الحـاسـمـ جـلـتـهـ كـفـ الصـيقـلـ

يُرْجِي<sup>(١)</sup> طعْيَتَهُ وَيُسْحَبُ ذِيلَهُ  
 مَوْجَهًا يَمْهَاهُ نَحْوَ الْمَنْزِلِ  
 وَتَرِي الْفَوَارِسَ مِنْ مَخَافَةِ رَمْحِهِ  
 يَا صَاحِبَ مَنْ يَكْ مُثْلِهِ لَا يَجْهَلُ  
 يَا لِيَتَ شَعْرِي مِنْ أَبُوهُ وَأَمِهِ  
 اَنْصَرَفُ فَرْسَانَ بَنِي جَسْمٍ ، وَقَدْ أَخْفَقْتَ غَارِتَهُمْ ، وَاضْطَرَّوْا أَنْ يَعُودُوا  
 أَدْرَاجَهُمْ وَقَدْ رَدَهُمْ فَارِسٌ وَاحِدٌ عَنْ غَايَتِهِمْ ، وَلَا تَزَالُ الشَّمْسُ تَقْدَحُ فَوْقَ  
 رَءُوسِهِمْ وَتَصْبِحُ شَآيِيبُ النَّارِ عَلَى الْأَرْضِ قَتِيزِدَهَا ضَرَاماً ، وَلَا يَزَالُ حَرَقَّ  
 الرَّمْلَ يَشْوِي أَطْرَافَ الْخَلِيلِ وَهِيَ تَعْدُو بَهْمَ فِي ذَلِكَ الْجَحِيمِ .  
 وَرَأَهُمْ حَامِي الظَّعِينَةِ وَهُمْ يَنْتَلِقُونَ فَقَالَ :

أَنْ كَانَ يَنْفَعُكَ الْيَقِينُ فَسَائِلِي  
 إِذْ هِيَ لَأُولَئِكَ مَنْ أَتَاهَا هُبْهَةً  
 إِذْ قَالَ لِي أَدْنَى الْفَوَارِسَ مِيتَةً  
 فَصَرَفْتُ رَاحِلَةَ الظَّعِينَةِ نَحْوَهُ  
 وَهَتَّكْتُ بِالرَّمْحِ الطَّوِيلِ إِهَابَهُ  
 وَمَنْحَتُ آخَرَ بَعْدَهُ جَيَّاشَةً  
 وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخَرَ ثَالِثٍ

عَنِ الظَّعِينَةِ يَوْمَ وَادِي الْأَخْرَمِ  
 لَوْلَا طَعَانُ رَبِيعَةِ بْنِ مَكْدَمَ  
 خَلَّ الظَّعِينَةَ طَائِعاً ، لَا تَنْدَمَ  
 عَمَدًا لِيَعْلَمُ بَعْضَ مَا لَمْ يَعْلَمْ  
 فَهُوَ صَرِيعًا لِلْيَدِينِ وَلِلْفَمِ  
 بِجَلَاءِ فَاغْرَةٍ كَشَدْقِ الْأَضْبَحِ  
 وَأَبِي الْفَرَارِ لِيَالْعَدَّا تَكْرَمِي

دَارَتِ الْأَيَّامُ دُورَتِهَا ، وَانْصَرَمْتُ بَضْعَ سَنَوَاتٍ لَمْ تَهْدِأْ فِيهَا الْحَرْبُ بَيْنَ  
 الْقَبِيلَتَيْنِ ، وَفِي كُلِّ غَارَةٍ تَشْحَنُ الْقُلُوبُ غَمَّا وَحْقَدًا وَمُوجَدَةً ، وَتَتَأْصلُ جَذُورُ  
 الْمَدَاوَةِ فِي النُّفُوسِ . ثُمَّ كَانَ أَنْ أَغَارَتْ بَنْوَ كَنَانَةَ عَلَى بَنِي جَسْمٍ غَارَةٌ شَعْوَاءُ  
 أَخْذُوهُمْ فِيهَا عَلَى غَرَةٍ فَقَتَلُوْهُمْ خَلْقًا كَبِيرًا ، وَأَسْرَوْهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا ، وَكَانَ

(١) يُرْجِي : يَسُوقُ سُوقًا رَفِيقًا .

فيمن أسر بطل بنى جسم وحامي ذمارها وفارسها المعلم دريد بن الصمة ، ولم يعرف بنو كنانة أنَّ في حوزتهم سيدَ قومه ، وأعظمهم همة وجرأة ، ورضي بالأسر موقناً أنَّ الحرب سجال ، وأنَّه سيدينهم في غد كا دانوه اليوم .

وبينا هو في محبسه عندهم مغلول اليدين ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ورجال الحمى قد انصرفوا لشئونهم في الضاحي ولم يتخلل في البيوت إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، عنَّ بعض فتيات الحمى أن يتلهين بمداعبة الأسرى ، والنظر إليهم وهم يرسفون في الأغلال والقيود ، ولعل عند أحدهم حديثاً ممتعأً أو قصة طريفة تذهب ما بهن من ملل ، ودفن يحدوهن الخفر ويحفزهن العبر إلى حيث دريد بن الصمة ، وكان وحده بعيداً عن بقية الأسرى من بنى جسم في بيت رجل اسمه مُخارق وهو الذي أسره ، وما أن رأيه حتى صرخت إحداهن صرخة ارتاعت لها أخواتها وقالت : هل كنا والله ، ماذا جرَّ علينا قومنا ؟ هذا والله الذي أعطى ربعة رمحه يوم الظعينة » : ثم أقتلت عليه رداءها وقالت : « يا لقومي أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي » فسألوه من هو ؟ فلم يجد بدأً وقد رأى أملاً في النجاة أن يذكر اسمه .

فأجاب : دريد بن الصمة .

فقال النسوة في صوت واحد : الفارس المغوار ، يا للعار !! لقد أكربنا والله فعلتك يوم الظعينة ، وقلنا لا يصدر هذا إلا من كريم عظيم ، فسألهن : — منْ صاحبي الذي حمى الظعينة وأردى ثلاثة فرسان من خير شباب بنى جسم ، وأظهر من البطولة والشجاعة والدربة ما دفعني إلى أن أكرمه وأبقيه فلا أقتله وهو أعزل ؟ فأجابت من أجارتة :

— ربيعة بن مكدم .

— وما فعل ؟

— قتله بنو سليم

— فما فعلت الظعينة ؟

— أنا فيه ، وأنا أمرأته

فطاطاً رأسه أسفًا على ذلك الفارس وإنكاراً لأمرأته التي عرفت الجميل « وتقديمت لتجزيه معروفاً بمعروف ، وأجارته من قومها .

ولما عاد رجال الحى تشاوروا في أمره بعد أن أخبروا خبره ، وعرفوا عِظَمَ منزلته ، وجليل قدره ، وأن المروءة عند مثله لا تضيع سدى ، وأن ما قدمه من سابقة خير لبطالهم يوم الظعينة قد طوق جيدهم بالمعروف .

فقال بعضهم : لا ينبغي أن نكفر نعمته على أصحابنا ، هو أهل للخير والكرامة .

وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا إلا برضاء مخالق الذى أسره .  
وكاد الأمر ينتهي إلى هذا ، وتحقق المرأة في مسعها ، ويدب الشقاق بين أحياء بنى كنانة ، لأن عشيرتها — بنى فراس — سيقفون معها ويشدون أزرها .  
ولكنها تقدمت إلى القوم ، في نديهم وهي متقنعة ، وأنشدت بصوت قوى عذب :

سنجزى دريدا عن ربيعة نعمة  
 وكل امرىء يجزى بما كان قدما  
 فإن كان خيراً ، كان خيراً جزاوه  
 وإن كان شراً ، كان شراً مذما  
 بإعطائه الرمح الطويل المقوما  
 سنجزيه نعمنى لم تسكن بصغريرة

وَقَدْ أَدْرَكَتْ كُفَّاهُ فِينَا جَزَاءهُ  
وَأَهْلُهُ بِأَنْ يُجْزِي الَّذِي كَانَ أَنْعَما  
فَلَا تَكْفُرُوهُ حَقَّ نُعْمَاهُ فِيمَكُّ  
ذِرَاعًاً، غَنِيَا كَانَ أَوْ كَانَ مَعْدُمًا  
فَلَوْ كَانَ حَيَا لَمْ يُضْمِقْ بَثْوَابَهُ  
فَلَا تَجْعَلُوا الْبُؤْسَى إِلَى الشَّرِّ سُلْمَانًا

فَكَانَ شِعْرُهَا القَوْلُ الْفَصْلُ، وَأَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى أَنْ يُطْلَقُوهُ مِنْ أَسْرِهِ  
فِي غَدَهُ وَيَقْدِمُوا الْخَارِقُ مَا شَاءَ مِنْ فَدِيهِ إِذَا أَبْنَى أَنْ يَنْزَلَ عَلَى حُكْمِهِمْ وَيَنْصَاعِ  
لِأَمْرِهِمْ . وَلَكِنْ مُخَارِقًا لَمْ يَكُنْ لِيَخْرُجَ عَنْ أَمْرِ أَبْرَمَهُ قَوْمَهُ وَأَجْمَعُوهُ عَلَيْهِ ،  
وَأَنَّى لَهُ أَنْ يَشْذُ عَنْهُمْ وَفِيهِمْ سَادَةُ بَنِي كَنَانَةَ وَأَرْبَابُ الرَّأْيِ وَالْحَكْمَةِ فِيهَا .

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ أَطْلَقُوهُ ، فَأَخْذَتْهُ الْجَارِيَةُ — وَهِيَ رِيَطَةُ بَنْتِ الطَّعَانِ —  
إِلَى دَارِهَا وَكَسْتَهَا وَجْهَهُ بِبَطْرِيةِ وَزَادِ وَسَلَاحٍ ، وَلَحَقَ بِقَوْمِهِ ، وَقَدْ آتَى أَلَا يَغْزُو  
بَنِي كَنَانَةَ بِعَامَةِ ، وَبَنِي فَرَاسَ بِخَاصَّةِ مَا عَاشَ . وَقَدْ بَرَ بِقَسْمِهِ فَاسْتَقْرَرَتْ سَيُوفُ  
الْقَبِيلَتَيْنِ فِي أَعْمَادِهَا ، وَحَفِظَتْ دَمَاءَ بَرِيَّتَهُ مِنْ أَنْ تُرَاقِ عَلَى مَذْبُحِ الْبَغْيِ وَالثَّأْرِ .

وَهَكَذَا كَانَ حَامِيُ الظَّعِينَةِ سَيِّدا شَرِيفَا عَظِيمَا فِي حَيَاتِهِ حِينَ حَمِيَ اُمْرَأَتُهُ ،  
وَوَفِي مَاتَهِ إِذَا كَانَ سَبِيبًا فِي نَسْرِ السَّلَامِ وَحَفْظِ الْأَرْوَاحِ وَالدَّمَاءِ .

فِي سَجْنَةِ اللَّيلِ الدَّامِسِ ، وَهُوَءَ الْبَيْدَ يَتَرَقَّقُ صَفَاءَ وَلِينَا وَحْلَوَةَ ، وَنَجُومَ  
السَّمَاءِ تَتَأْلَقُ بِنُورٍ لَامِعٍ نَفَادَ ، يَشَقُ حُلْكَةَ الْدِيجُورَ ، وَتَزَينُ جَيدَ السَّمَاءِ بِعَقُودَ  
دَرِيَّةِ فَتَانَةَ ، أَقْبَلَ شَبَحٌ يَحْمَسُ الْخَطَا حَثَّاً نَحْوَ أَحْيَاءِ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ هَدَتْ  
نَّافَّمَتْهُمْ حَتَّى طَرَقَ بَابَ زَهِيرَ بْنَ جَذِيمَةَ الْعَبْسِيِّ ، وَنَعَى زَهِيرًا إِلَى أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ ،  
وَنَبَأَهُمْ بِأَنَّ خَالِدَ بْنَ جَعْفَرَ بْنَ كَلَابَ قَدْ قُتِلَهُ غَدَرًا .

رَيَّعَتْ أَحْيَاءَ بَنِي عَبْسٍ لِلرَّزْءِ الْجَسِيمِ ، وَأَقْضَى صَوْتُ النَّعْيِ مَضَاجِعَهُمْ ،  
وَأَخْذَ شَبَابَهُمْ وَذُوو الْحَمِيَّةِ يَتَوَعَّدُونَ الْقَاتِلَ الْغَادِرَ ، وَيَدْبَرُونَ الْأَمْرَ لِلْأَخْذِ  
بِشَارِهِمْ حَتَّى لَا يَفْلَتُ مِنْهُمْ ؛ وَرَاحَ النِّسَاءُ يَبْكِيْنَ فِي زَهِيرَ سِيَادَتِهِ وَكَرْمِهِ وَشَجَاعَتِهِ ،  
وَشَقَّتْ أَصْوَاتُهُنَّ سَكُونَ اللَّيلِ فَبَدَتْ مَفْزِعَةَ رَهِيَّةِ مَقْبِضَةِ الْمُصْدَرِ .

أَمَا خَالِدَ فَقَدْ أَيْقَنَ أَنَّهُ قَدْ اَقْتَرَفَ أَمْرًا إِدَّاً ، وَأَنَّهُ لَا قَبْلَ لَهُ بِغَطْفَانِ بَعَامَةِ وَبَنِي  
عَبْسٍ بِخَاصَّةٍ ، وَصَارَ يَلْجَأُ إِلَى مُخْتَلِفِ الْقَبَائِلِ عَلَيْهِمْ يَجِيرُونَهُ مِنْ طَالِبِيهِ ، فَأَلْفَى  
الْأَبْوَابَ أَمَامَهُ مَوْصِدَةً وَالْأَشْرَافَ مِنْهُ نَافِرَةً لِلشَّرْفِ الْبَالِغِ الَّذِي كَانَ يَتَمَمَّ بِهِ  
زَهِيرٌ ، وَلِعَظِيمِ الْمُصِيَّبَةِ فِي فَقْدِهِ .

ضَاقَتْ عَلَى خَالِدَ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ وَعْلَمَ أَنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ ، وَأَنَّهُ جَرَّ عَلَى  
قَوْمِهِ حَرْبًا ضَرُورِيًّا سَيْفِيَ فِيهَا الْعَدُوُّ الْوَفِيرُ ، فَيَا شَوْئِمَ مَا جَرَتْ يَدَاهُ ، وَاقْتَرَفَ  
مِنْ كَبِيرَةٍ ! . وَحِينَ دَبَّ الْيَأسُ فِي فَوَادِهِ وَكَادَ يَسْتَسِلُّ لِتَقْبِضَتِهِ الْعَاتِيَّةِ ، وَهِيَ  
تَعْتَصِرُهُ ، وَتَسْدِيْدَ فِي وَجْهِهِ الْمَنَافِذَ ، لَاحَ لَهُ بِصِيصَنَ منْ أَمْلَى فِي جَوَارِ النَّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ

ملك الحيرة ، حتى وصلها وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ، واستجبار بالنعيم ، فأجارةه ؟ وهدأ روعه ، وسكن جأسه ، فأيقن بالسلامة .

أنزل النعيم خالداً منزلاً كريماً ، وأمر خدمه برعايته وأخيه ، وطلب إليهما أن يحضرها طعامه ومحالس أنسه ولده وشرابه ، فكان ذلك فوق ما أمل خالد وقدر .

أما بنو عبس فلم تهدأ ثائرتهم ، وحين علموا أن خالداً صار للنعيم جاراً سُمموا على محاربة بنى عامر ، وأخذ قيس بن زهير يعد للحرب العدة ، ويجمع الرجال والعتاد ، حتى صارت أسبابها لديه حاضرة ولم يبق إلا المسير لغزو بنى عامر في ديارهم أخذًا بثاره ، وانتقامًا من عدوه . حينذاك قال له الحارث ابن ظالم :

— يا قيس ! أنت أعلم بمحرككم ، أما أنا فسأرحل إلى خالد حتى أقتله :

— قد أجارة النعيم ، فأنّي لك به ؟

— لأقتلنـه ، ولو كان في حجره .

— دونك وما تريـد ، وما ذلك على شجاعتك وبأسك ببعيد . أما نحن فوجهتنا بنـو عامر ، ليلاًـلـقاـوا وـزـرـ ما جـرـه عليهم سـفـهـاؤـهم ، فلنـسـأـل اللهـ أـنـ يـكـتبـ لكـ السـلامـةـ ، وـيـكـتبـ لـنـاـ الـظـفرـ .

كان الحارث فـي لاـ كالـفـتـيـانـ ، رـيـانـ الشـيـابـ ، فـارـعـ العـودـ ، مـفـتوـلـ السـاعـدـيـنـ ، قـوـيـ العـضـلـ ، مـتـينـ التـركـيبـ ، يـبـئـوكـ جـسـمـهـ بـفـتـوـةـ بـالـغـةـ ، وـأـيـدـ عـظـيمـ . وـكـانـ فـوقـ هـذـاـ وـسـيـاـ ، جـمـيلـ الطـلـعـةـ ، حـلـوـ الـحـدـيـثـ ، وـمـنـ أـعـلـمـ الـعـربـ بـأـيـامـهـ ، وـأـخـبـارـ فـرـسـانـهـ ، وـمـوـاقـفـ النـخـوـةـ وـالـفـتـوـةـ الـتـيـ وـقـفـهـاـ أـبـطـالـهـ ، وـالـمـعـمـعةـ

يستعر لظاها . وكان يَرْوِي كثيراً من أشعار الحماسة والبأس . كما كان فارساً شهماً  
خييراً بالقتال وأساليبه ، ذا فؤاد جَلْ ثبت على الحوادث .

فلا بِدُّع إذا رأيته يخرج وحده ليقتل جار النعمان ملك الحيرة أخذًا بشاره  
وغسلا للعار الذى لطخ به قومه ، فقصد صَوْبَ الحيرة ، يتبعه رجل من بني  
محارب حتى أتى باب النعمان ، فاستأذن ، فأذن له النعمان ، وفرَّج به فرحا ،  
عظيماً ، وأقبل عليه يحدّثه ويؤاكله تمرا ، وسرًّ من حديثه ووجد فيه متعة ولذة  
فأصفعى إليه دون جلسائه جھيماً ، وكان من بينهم خالد بن جعفر — والحارث  
لا يعرفه — فلدغت الغيرة والحسد أفتدةً منهم ، وكان فؤاد خالد أشد تألمًا ،  
وأعظم كمدا فقال للحارث :

— يا أبا ليلي ألا تشكرنى ! .

— من أنت؟ وعلام؟ .

— أنا خالد بن جعفر ، وقد قتلت زهيرًا ، فصرت بعدة سيد غَطَافَان .

لم يقدِّر الحارث أن القِحة تبلغ بخالد ما بلغت ، حتى يتبيَّح أمامه بأنه  
قتل سيد قومه ويطلب منه الشَّكْر عليه ، وعلم أن خالدًا ما تجرأ على هذا إلا  
لاحتمائه بالنعمان وكانت في يد الحارث تمرات ، فاضطررت يده حين سمع ما قال  
خالد وأخذته رعدة ، وجعل التمر يسقط من يده وهو يقول :

— أنت قتلتني ! ! أنت قتلتني ! ! .

فلما رأى النعمان ذلك ، وهو يعلم من الحارث ، وما بلغ من قوته وشجاعته  
وبصره بالقتال — نحس خالدًا بعصاه ، وقال له :

— هذا يقتلك .

— أَبْيَتَ اللَّعْنَ ! فَوَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ نَائِمًا مَا يُقْضِنِي ! .

فَكَطَمَ الْحَارِثَ غَيْظَهُ ، وَهَدَأَ نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَهْدِي أَوْ يَتَوَعَّدْ ، أَوْ يَنْمِ  
عَنْ ذَاتِ فَوَادِهِ ، وَزَالَ مَا بِهِ مِنْ رِعْدَةٍ ، فَاسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ لِيَنْا حَلَوْمَتْهَا كَمَا كَانَ ،  
وَتَقْشَعَ ارْبَدَادُ وَجْهَهُ ، وَعَلَتْهُ ابْتِسَامَتِهِ السَّابِيَّةُ ، كَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْذَ هَنِيهَةٍ قَدْ تَغَيَّرَ  
وَامْتَقَعَ . وَبِرَهْنَ بِضْبَطِهِ خَلْجَاتِ نَفْسِهِ ، وَتَحْكِمَهُ فِي أَحَاسِيسِهِ وَأَعْصَابِهِ عَلَى  
هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَلِيْغَةِ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ نَضَجَتْ رِجْلُتِهِ ، وَلَيْسَ فِتْيَ حَدَثًا تَسْتَفْزِهِ  
الْحَوَادِثُ ، وَيَقْلِلُ مِنْ يَدِيهِ زَمامُ نَفْسِهِ .

وَانْصَرَفَ السَّمَّارُ مِنْ لَدْنِ النَّعْمَانَ ، وَانْصَرَفَ خَالِدٌ وَآخُوهُ مَعْهُمْ ، وَمَا دَنَتْ  
الرِّيَّةُ مِنْ فَوَادِهِ قَطُّ ، فِي أَنَّ الْحَارِثَ يَضْمُرُ لَهُ شَرًّا ، أَوْ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْفِرَ  
ذِمَّامَ النَّعْمَانَ ، وَهُوَ الْمَلِكُ الْقَوِيُّ الطَّوِيلُ الْبَاعُ . وَكَانَ مِنْ عَادَةِ خَالِدٍ إِذَا دَخَلَ  
قَبْتَهُ أَشْرَجَهَا<sup>(١)</sup> زِيَادَةً فِي الْحِيَّةِ ، فَقَعَلَ ذَلِكَ كَعَادَتِهِ وَاسْتَسْلَمَ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ يُزِيدُهُ  
هَدْوَاءً هَوَاءَ الْبَيْدِ الرَّقْرَاقِ ، وَنَسِيمَهَا الْبَلِيلِ .

أَمَا الْحَارِثَ فَقَدْ لَبِثَ عِنْدَ النَّعْمَانَ قَلِيلًا بَعْدَ انْصَرَافِ السَّامِرِينَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ  
وَنَفْسَهُ الْفَتِيَّةَ يَجِيشُ فِيهَا الغَضْبُ الْمَكْبُوتُ كَالْمَرْجُلِ ، وَبُودَهُ لَوْ وَجَدَ خَالِدًا  
أَمَامَهُ حَتَّى يَفْتَكَ بِهِ فَتَكَةً تَكُونُ عَبْرَةً لِسَوَاهِ مَغْرُورِيْنَ الْجَبَنَاءِ ، وَلَكِنْ  
خَالِدًا كَانَ قَدْ أَوَى إِلَى خِيمَتِهِ مَطْمَئِنًا وَادِعًا .

وَحِينَ اتَّصَفَ الْلَّيْلُ أَوْ كَادَ ، وَهَدَأَتِ الْعَيْوَنُ ، وَأَطْبَقَتِ الْحِيَّةُ أَجْفَانَهَا  
تَحْتَضِنُهَا الْبَيْدَاءِ فِي رَفْقِ وَحْنَانَ ، وَتَنْفَحُهَا بِنَسِيمِهَا الْعَطِيرِ النَّاعِمِ ، تَسْلُلُ الْحَارِثُ  
وَحْدَهُ ، وَسِيفَهُ فِي يَمِينِهِ مُصْلَتَّا ، وَأَخْذَ يَتَحَسَّسُ طَرِيقَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَبَةِ

(١) أَشْرَجَ الْحِيَّةَ : أَدْخَلَ بَعْضَ عِرَاهَا فِي بَعْضٍ بَيْنَ أَشْرَاجِهَا .

خالد في فناء قصر النعمان ، وكان الحراس قد غلبهم النعاس وأمال رءوسهم ،  
فلم يستيقظوا لخطواته الخفيفة المطمئنة ؟ ثم هتك عرَى القبة بسيفه ، ودخل  
رابطَ الجأش ، فألفى<sup>١</sup> خالداً نائماً ، وأخوه إلى جنبه . فأيقظ خالدا ، فاستوى  
قائماً فرعاً ، ورأى الموت أمامه عيانا ، فقال له الحارث :

— يا خالد ! أظننت أن دم زهير كان سائغاً ؟ أو حسبت غطافانَ تدع  
ذلك دم ربهَا ، وتتركك وادعا في ظل النعمان تتمتع بجواره ، وطعامه ، ومجالس  
طربه ؟ لقد أقسمت لأقتلنك ولو كنت في حجره ، وهأنذا أبر بقسى .  
ثم علاه بسيفه حتى قتله . وانتبه عتبة فرأى أخيه مضرجاً بدمه . فقال له  
الحارث في صوت ملؤه الجد والصرامة :

— لئن نبست لأحقنك به ! .

انصرف الحارث ، ووجد تابعه ينتظره بفرسه خارج الفناء ، فاعتلى كلامها  
جواده ، ووكرزه فمضى يستبق الريح ، ويطوى بساط الريداء طيا سريعاً ، وقد  
قرَّت عينُه ، وانفثأ غضبه ، وسكنت نفسه .

وخرج عتبة على أثره صارخاً حتى أتى بباب النعمان ، وهو ينادي : ياسوءَ  
جواره ! ياسوءَ جواراه ! .

فأجيب : لا رَوْعَ عليك !

قال عتبة لرئيس الحرس ، وقد أسرع إليه : دخل الحارث على خالد  
مقتله ، وأخفر الملائكة ، فيياسوءَ جواراه ! .

كان رئيس الحرس يعلم مكانة الحارث بن ظالم ، وعزّة قومه ، وشدة  
جأسهم ، فلم يستطع أن يبيت في الأمر من ذات نفسه ، ويرسل خلفه بعض

رجاله ، ولكنـه كانـ يعلمـ كذلكـ أنـ الملكـ قدـ أـجـارـ خـالـدـاً ، وـأـنـ الـحـارـثـ قدـ أـخـفـرـ  
ذـمـامـ الـمـلـكـ ، وـأـنـ هـذـةـ إـهـانـةـ عـظـيمـةـ ، وـإـشـمـ كـبـيرـ . فـلـمـ يـجـدـ بـدـاـ منـ إـخـبـارـ مـوـلاـهـ ،  
فـأـوـحـىـ إـلـىـ بـعـضـ الـجـوـارـىـ بـذـلـكـ ؟ فـبـهـتـ النـعـانـ حـيـنـ أـفـضـتـ إـلـيـهـ بـالـخـبـرـ ،  
وـأـسـتـعـظـمـ مـاـ اـقـتـرـفـ الـحـارـثـ ، وـوـجـهـ الـفـوـارـسـ فـيـ طـلـبـهـ ، وـأـمـرـهـ أـنـ يـأـتـواـ بـهـ حـيـاـ  
أـوـ مـيـتاـ ، وـحـذـرـهـ بـأـسـهـ وـسـطـوـتـهـ ، وـشـدـةـ مـرـاسـهـ .

اختـارـ رـئـيسـ الـحـرـسـ ثـلـثـةـ مـنـ أـشـدـ رـجـالـهـ بـأـسـاـ وـأـيـداـ وـدـرـبـةـ ، فـانـطـلـقـواـ  
عـلـىـ جـيـادـهـ الـفـارـهـةـ الـمـضـمـرـةـ ، وـعـنـدـ السـحـرـ سـمـعـ الـحـارـثـ وـرـفـيقـهـ وـقـعـ حـوـافـرـ الـخـيلـ  
تـجـدـدـ فـيـ أـثـرـهـ ، فـوـكـزـ كـلـاـهـمـ جـوـادـهـ وـاستـحـثـهـ عـلـىـ الإـسـرـاعـ ، وـلـكـنـ أـنـيـ  
لـجـوـادـهـمـ أـنـ يـسـبـقـاـ خـيـولـ النـعـانـ ! ؟ وـلـمـ يـجـدـ الـحـارـثـ مـنـ الـمـعرـكـةـ بـدـاـ ،  
انتـحـىـ وـرـفـيقـهـ نـاحـيـةـ مـنـ الـطـرـيقـ ، وـاـنـتـظـرـ فـيـ ثـبـاتـ وـصـبـرـ فـوـارـسـ النـعـانـ .

فـلـمـ حـادـوـهـ اـنـقـضـ عـلـيـهـمـ وـرـفـيقـهـ فـقـتـلـاـ جـمـاعـةـ مـنـهـمـ ، وـقـتـلـ كـذـلـكـ تـابـعـهـ ،  
وـبـقـيـ الـحـارـثـ وـحـدـهـ ؟ فـتـكـاثـرـواـ عـلـيـهـ ؟ بـيـدـأـنـهـ كـانـ الـفـارـسـ الـخـنـكـ فـلـمـ يـرـوعـهـ  
عـدـهـمـ ، وـكـانـ يـتـقـىـ ضـرـبـاـتـهـ بـجـدـقـ وـخـيـلـةـ وـيـشـدـ بـسـيفـهـ عـلـيـهـمـ ، فـلـاـ يـضـرـبـ  
فـارـسـاـ إـلـاـ قـتـلـهـ ، وـلـاـ يـقـصـدـ جـمـاعـةـ إـلـاـ فـرـقـهـ ، شـمـ إـذـاـ تـكـاثـرـواـ عـلـيـهـ كـرـةـ أـخـرىـ  
رـاغـمـهـمـ ، وـأـنـثـىـ فـيـ عـنـقـوـانـ ، وـبـأـسـ ، وـحـمـاسـةـ ، يـرـويـ سـيفـهـ مـنـ دـمـهـمـ ،  
وـيـغـمـسـهـ فـيـ أـفـنـيـتـهـمـ . وـوـجـدـ الـقـوـمـ أـنـهـمـ أـمـامـ شـيـطـانـ مـرـيدـ ، وـفـارـسـ عـنـيدـ ،  
وـبـطـلـ صـنـدـيـدـ ، فـارـتـدـعـواـ عـنـهـ ؟ وـلـمـ رـأـىـ أـنـهـمـ قـدـ هـابـوـهـ ، وـأـنـ هـجـاجـتـهـ قـدـ أـلـقـتـ  
فـيـ قـلـوبـهـمـ الرـعـبـ ، لـوـيـ عـنـانـ جـوـادـهـ ، وـانـطـلـقـ يـعـدوـ لـطـيـّتـهـ ، وـقـدـ أـنـتـهـتـهـ  
الـجـراحـ ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـأـبـهـ لـهـ ، وـظـلـ جـوـادـهـ يـسـبـحـ فـيـ الـجـوـ كـأـنـهـ طـائـرـ حـيـسـ  
قـدـ فـرـمـ قـفـصـهـ .

أما فوارس النعمان فقد رجعوا إليه يحملهم الخزي ، ويحدوهم العار ،  
ويزففهم الانكسار .

وذهبت قصة الحارث بن ظالم مع خالد بن جعفر في شتى نواحي البيد ،  
يمكّنها الناس بالإكبار والإعجاب ، ويسردها الفتيان في منتدياتهم ، والنساء  
لأولادهن . ولكن حُسَادَ الحارث كانوا كثيرين ، فلم يستسيغوا هذا النصر ،  
وقال عمرو بن الإطناة أحد شانى الحارث وحساده .

عَلَانِي وَعَلَالا صَاحِبِيَا وَاسْقِيَانِي مِنْ الْمَرْوَقِ رِيَا  
إِنَّ فِينَا الْقِيَانَ يَعْرَفُنَ بِالضَّرِّ بِلِفْتِيَانِنَا ، وَعَيْشَانَ رَضِيَانَا  
يَتَنَاهَيْنَ فِي النَّعِيمِ وَيَضْمُرُونَ خِلَالَ الْقَرْوَنِ مِسْكَانَ ذَكِيَا  
أَبْلَغُ الْحَارَثَ بْنَ ظَالِمٍ الرُّعَيْدَ وَالنَّاذِرَ النَّذُورَ عَلَيْيَا  
إِنَّمَا تُقْتَلُ الْيَامُ وَلَا تُقْتَلُ يَقْظَانُ ذَاسْلَاحٍ كَمِيَا<sup>(١)</sup>

لبث الحارث في قومه حيناً ، وفي كل يوم يلقى من إعزازهم له ، وتكريمهم  
لشجاعته وبأسه ، ولغسله العار عنهم ، وللأخذ بثأرهم ، ما جعله يفني في حب  
قبيلته ، والذود عنها ، وينذر النذور ألا يفترط في حقوقها ، أو يدع عدواً يكيد  
لها هادئ البال .

وكانت بعض جراحه عميقه ، ولكن شبابه ، وفتوته وحيويته ، وما أحبط  
به من عنانية ورعاية ، جعل البرء يمشي إليه سريعاً ، فاسترد صحته وعافيته ،  
وعاد إلى امتطاء جواده الذي شاركه المعركة مع فوارس النعمان . ولما سمع بما

(١) السكمى : الشجاع ، أو لا يلبس السلاح .

قاله عمرو بن الإطناية صم على أن يسير إليه ، ويبارزه ، ليريه أى فارس هو وأنه لا يقتل النیام ، ولكن يُردى في حومة القتال أشجع الفوارس ، وأكملهم عدّة سلاحا .

كان عمرو بن الأطناية فارساً معدوداً في قومه ، له صيت وله بأس ، ومواقف محمودة ، وأيام مشهودة ، وكان مشهوراً بتجدداته ، وكرمه ، واعتداده بنفسه ، حتى لقد أقسم ألا يدعوه رجل بليل إلا لبى دعوته ، ولم يسأله عن اسمه ؛ لفَرط ثقته بنفسه ، ولعظم ما كلف به من المروءة والنجدة وإغاثة المضطر . فلا عجب إذا نفِس على الحارث بن ظالم مكانته ، وما يتمتع به من صيت مدید ، وإنما ينفَس على المرء نظراً ولهداً . وكان الحارث يعلم عن عمرو شيئاً كثيراً ، ويعلم قسمه هذا ، وأنه ليس له بند ، إذا جد الجد . أتى الحارث حتى عمرو بن الإطناية ، وأخذ يسأل حتى اهتدى إلى خيامه ، فلما جَنَ الليل هتف به ، فخرج إليه ، لا يسأله عن اسمه ، بل قال له . — ما ترید ؟ .

— أعني على إبل لبني فلان ، وهي منك غير بعيد ، وإنها لغنية باردة ! .

— لقد دعوتَ سميغاً .

ثم دعا عمرو بفرسه وأراد أن يركب حاسراً ، غير شاكِ السلاح ، فقال له الحارث : البس عليك سلاحك ، فإني لا آمنُ امتناعَ القوم ، والحدُر جنة وربما دارت بيننا وبينهم معركة .

فاستلام عمرو وخرج معه بكمال سلاحه ، فلما برأ في الأرض الفضاء - وبعداً من مسافَنَ القوم ، قال الحارث لعمرو :

— يا عمرو أيّاً أشجع أنت أم الحارث بن ظالم؟ .

— لو التقينا وشهدت صراعنا لعلمت أنه لا يثبت لي في معركة ، ولا يقوى

على ضربات حسامي .

— وكيف هذا؟ أو ما سمعت ما فعله بخالد بن جعفر وبفوارس النعمان ،  
وأظنك قد قلت في هذا شيئاً من الشعر ، فبربك إلا أعدته على . . . فأنشد  
عمرو أبياته في هجاء الحارث . فقال هذا :

— أظنك قد ظلمته .

— لا والله ما ظلمته ، وإنه ليعلم أى فتى يلاقى ، حين أثبت له .

— إذاً خذ حذرك يا عمرو ، فأنا أبو ليلى وقد دنت ساعتك .

بُهْت عمرو بهذه المفاجأة ، ورأى أن الحارث غير تاركه إلا قتيلاً مُعَفِّر  
الوجه ، لكن عزّ عليه أن ينهزم أمامه ، ويستسلم له طواعية فقال :

— ليك يا حارث ! فطالما تمنيت هذه الآونة حتى أشفى ما في صدرى بقتلك

— خل عنك هذا وخذ حذرك ، فلا يجدى تشجيعك نفسك شيئاً .

واحتمم القتال بين القادسين برهة ، ثم أطاح الحارث بضربه حاذقة  
شديدة السيف من يد عمرو ، ووضع ظبة حسامه في نحره وقال له :

— كيف ترى نفسك ، وهل ترى الحارث بن ظالم رعديدا ، لا يقتل  
إلا النائم ، ويُخاف من السكاكنة الأبطال؟ ! .

— اقتلني بربك ، فالقتل أحب إلى من العار .

— إنّي لا أحب قتل مثلك ، ففيك من النجدة ، وحب الخير ما يدعوني  
للمن عليك ، والعفو عنك .

ثُمَّ جز ناصيته وأطلق سراحه وقال :

عَلَّانِي بِلَذَّتِي قِينِيَا قَبْلَ أَنْ تَبْكِيَ الْعَيْوَنَ عَلَيْهَا  
قَبْلَ أَنْ تَذَكِّرَ الْعَوَادِلُ أَنِّي كَنْتُ قَدِمًا لِأَمْرِهِنَّ عَصِيَا  
مَا أَبَالِ إِذَا اصْطَبَحْتُ ثَلَاثًا أَرْشِيدًا دَعَوْتَنِي أَمْ غُوْيَا  
غَيْرَ أَلَا أَسْرَ اللَّهِ إِلَيْهَا فِي حَيَاتِي أَوْلَا أَخْوَنَ صَفِيَا  
بِلَغْتَنِي مَقَالَةُ الْمَرْءِ عَمْرِو بَلَغْتَنِي ، وَكَانَ ذَاكَ بَدِيَا  
فَخَرَجْنَا لِمَوْعِدٍ فَالْتَقَيْنَا غَيْرَ مَا نَأْمَمْ يُرُوعَ بِاللَّيْهِ لَلِمُعَدَا بِكَفَهِ مَشْرَفِيَا  
فَرَجَعْنَا بِالصَّفَحِ عَنْهِ وَكَانَ الْمَدْنُ مِنَّا عَلَيْهِ بَعْدُ تَدِيَا

## تاً بط شرًّا

حملت به أمه كَرْهَا<sup>(١)</sup> ، ووضعته كَرْهَا ، فجاء آية في الذِّكاء ، وحِدة  
الخاطر ، وشجاعة الفؤاد ، وعظيم الحيلة ، ثم تيم وهو طفل ، فعرَّكته الشدائِد  
وتحذَّت همَّته الحاجة ، ولم يجد حوله معيناً أو نصيراً ، فقويت ثقته بنفسه ،  
واعتماده على سعاده وضربة سيفه . لم يألف تربية الأَب وتدليله ، وابتسماته  
وتقبيله ، وإنما نشأ في حضن أمه ، تحثه على طلب العيش لنفسه ولها ، وأنى له  
أن يجد اللقمة قريبة المثال ، كما يجدها أبناء السَّراة والأُثرياء من القبيلة ، وقد  
خلفه أبوه صفر الْكَفِ إلا من نفس كبيرة ، فلا إبل يرعاها ، ولا حمى يحمي  
ذماره ، ولا جياد يتنه بر كوبها عجبًا وخيلاً ، وُيغير بها على الأعداء ، فيأسرون  
ويغنم ، ويملا بيته خيراً كما يفعل الميسير الشجعان . وكان ذا نفس أبية ،  
وعزيمة قوية ، فأنيفَ من أن يعيش عالة على غيره ، ينتظر البر يناله من ذي  
ميسرة عطوف ، أو ذي رحم كريم ؛ أو يستند إلى الكف ويريق ماء وجهه  
وكرامته ، ويقطعه مزقاً في سبيل ملء البطن .

أجل ! إن ديارهم كانت مجدهبة ، يجوع فيها الإنسان ويَعْرِي ، إن لم يتحول  
عنها في طلب الكلأ والخصب والماء ، وهكذا كان شأن ذوى اليسار من  
القبيلة يكثرون من النَّجْعَة ، ويرتدون مواطن العشب والرَّى ، ويسوقون  
نعمَّهم آلاً ، ومعهم غيرهم من أفراد القبيلة ؛ حتى لا تنحل عُرى وحدتهم ،  
ويطعم فيهم جار قوى ، أو عدو بطيش ، فيأسرونهم ويدلهم .

(١) العرب يعتقدون أن المرأة إذا حملت وهي مغضبة أنجبت .

في هذه البيئة الخشنة الجاسية ، وفي هذا البيت المعدم الحزين ، وفي حِضْن هذه الأم الغليظة ، نَسَا ثابت أبو زهير بن جابر صرف الحواس : يسمع مشى القطا في سكون الليل ، ويشم رائحة الظباء قبل أن تراءى للعيون ، ويرى في فُسحة الصحراء وصفاء الأفق لمسافات شاسعة . وكان إذا خرج للصيد أو الغارة حسبته شيئاً ، فكأنه حواس يقظة متوبة .

إذا فات شئ سمعه دلّ أ منه وإن فات عينيه رأى بالمسامع  
قليلٌ نُعَاصِ العين إلا غيابة تمرّ بعينيْ جاثم القلب جائع  
إذا جنّ ليل طارد النوم طرفة ونص هـدى ألا حاظه بالمطامع  
يراوح بين الناظرين إذا التقى على النوم أطباق العيون المواجه  
كان يترصد أسراب الظباء عند موارد الماء ، وهو بعد صبي حدث «  
فيتخير تلك التي قد اكتنرت لها وقد طبّقت شحها ، فيعود خلفها وهي تقفز  
فريعة ، وتسابق الريح جرياً ، ولا يلبث أن يقبض عليها بجمع يديه . وكان  
كثيراً ما يرى متابطاً سيفه تاركاً بيته في غزاة أو صيد ، فإذا سئلت عنه أمه  
أجابت : « لا أدرى لقد تأبط شرّاً وخرج » ، فغلب عليه اللقب وعرف به  
ونسى الناس أن اسمه ثابت أبو زهير بن جابر ، وقالت له أمه ذات يوم إبان  
الـكـمـأـةـ : « ألا ترى غلامـ الـحـىـ يـجـتـنـبـ الـكـمـأـةـ فـيـرـوـحـونـ بـهـاـ !ـ »  
فقال لها : « أعطني جرابك حتى اجتنى لك فيه » فأعطته ، فلما هـلـاـ أـفـاعـىـ  
من أـكـبـرـ ماـ قـدـرـ عـلـيـهـ ، وـوـضـعـهـ بـيـنـ يـدـيـهـ ، وـكـانـ بـهـذـاـ يـنـبـئـهـ أـنـ أـعـظـمـ هـمـةـ منـ  
أـنـ يـجـتـنـبـ الـكـمـأـةـ كـمـ يـفـعـلـ الـغـلـامـ الـضـعـافـ ، قـلـيلـ الـحـيـلـةـ الـذـيـنـ تـعـوزـهـ الـجـرـأـةـ  
وـالـقـوـةـ وـالـرـأـىـ .ـ

ولقد زاد من شقاوته ، وشحد من ضر واته ، وهيا له أسباب الترد والجفوة والشدة والفتك ، إن أمّه أبّت أن تظل بغير بَعْل ، وأن ترضي بابنها واليَا يُعِزُّها ويترضاها ، ويضع بين يديها كل ما جنت يداه ، فتزوجت أباً كبيِّر المُذَلِّي الشاعر المُفلِّق ، و « ثابت » لا يزال غلاماً صغيراً ، فاشمأزت نفس الصبي ، ونفر من هذا الدخيل على حَرَمَه ، وكره من أمّه ما أتت ، وكان لا يراه أبو كبيِّر إِلا مُرْبَدَ الوجه مقطَّب الجبين ، كانه ينوى شراً بأحد ، وأزورَ عن أمّه وصف عن ترضيها ، دون أن يحرحها بقول أو فعل ، ولكنَّه كان صموداً حذراً ينظر إِليهما شدراً ، ويطوى في حنایا نفسه أمراً .

فلمَا ترعرع ، ورآه أبو كبيِّر يزداد كل يوم صلابةً عود وجرأة جنان ، وطلاقه لسان ، وإحكام رَمِيَّة ، وسرعة عدو ، خشي على نفسه منه ، فقال لأمه : « ويحك قد والله رابني أمرُ هذا الغلام ولا آمنه ، فماذا ترين ؟ ». قالت : « فاحتل عليه حتى تقتله » ، وهكذا باعته أمّه بيعنة بخس ، ولكن هيهات ! فهو في حصانة من نفسه عن أن يمسه سوء من قبل أمّه أو زوجها . طفق أبو كبيِّر يفكِّر في أمره وأمر الغلام ، وكيف يتأنى له أن يقتله ! ، بات في هذا الشأن في همٍّ مقيم ، حرمه الكري خشية أن يثب به الغلام فيرديه لأنَّه حرمه أمّه وهي - على ما بها من خشونة وجفوة ، وغلوظ كبد - كل ماله في هذه الدنيا ، والتى من أجلها ألف الوحش واستطاب العزلة ، وأمعن في الغارة ، واقتجم على الموت عرينه مراتٍ ومرات ! لا يفكِّر إلا أن خلفه أمّا تـكـاد تـهـلـك مـسـنـغـةً وـعـرـيـا ، فيزداد جرأة وإقداماً على الموت حتى يـرـدـ عليها الحياة أو يـنـيـلـها ما تـشـتـهـى .

ومضت أيام وأبو كَبِير لا يهتدى لخيلة أو يوفق لرأى ، ويبنا هو في نَدِيٌّ  
قُومه ذات مساء ، والقوم يسمرون ويرون أخبار فتيانهم ، وكل يباهى بشجاعة  
ابنه وفتنته ، ويفخر على عشيرته بما أبلى به من الغارات أو النجدة أو السباق .  
ولم يسمع القوم لأبي كَبِير صوتاً مع أنه يأوى في بيته أشجع الفتىـان وأـكـبرـهم  
همة ، وأجرأـهم جـنـانـاً ، وأـشـدـهـمـ فـتـكـةـ ، فـسـأـلـهـ أحـدـهـ :

— ما بال شاعر القوم لا يثنى على ثابتٍ ربيـهـ ، ويطرى بـأـسـهـ وأـيـدـهـ ،  
وقوة مـرـاسـهـ ، وواسع حـيلـتـهـ ، واسمـهـ تتصـاعـلـ أـمـامـهـ هـذـهـ الأـسـمـاءـ ، وـتـطـامـنـ  
خـزـيـاـ ، فـمـاـ صـارـعـهـ مـنـهـمـ غـلامـ إـلـاـ صـرـعـهـ ، وـلـاـ سـابـقـهـ عـدـاءـ إـلـاـ سـبـقـهـ ، وـلـاـ بـارـزـهـ  
فارـسـ إـلـاـ كـادـ يـفـتـكـ بـهـ .

فـقـالـ أـبـوـ كـبـيرـ : « لم يـصـلـ إـلـىـ مـنـ نـبـأـ هـذـاـ شـيـءـ ، وـهـوـ غـلامـ صـمـوتـ ،  
يـنـطـوـيـ عـلـىـ نـفـسـهـ فـلـاـ نـعـرـفـ لـهـ سـرـاـ ؟ » .

— أو لم يـبـلـغـكـ أـنـ عـزـمـ عـلـىـ أـنـ يـتـزـوـجـ الغـولـ (١)ـ ، وـأـنـهـ يـغـشـيـ مـأـواـهاـ  
وـيـتـخـذـهـ خـلـيـلـةـ وـجـارـةـ ؟ـ ، وـهـذـاـ لـعـمـرـيـ مـاـ لـمـ يـجـرـؤـ عـلـيـهـ إـنـسـ مـنـ قـبـلـ ، وـهـوـ  
غـاـيـةـ مـاـ تـصـلـ إـلـيـهـ السـطـوـةـ وـالـبـطـشـ .

فـامـقـعـ وـجـهـ أـبـيـ كـبـيرـ ، وـاضـطـربـ فـؤـادـهـ ، وـتـرـاخـتـ أـعـصـابـهـ ، وـرـأـيـ فيـ  
مـثـلـ لـحـ الـبـصـرـ يـدـ هـذـاـ الغـلامـ تـقـبـضـ عـلـىـ عـنـقـهـ بـصـرـامـةـ وـقـسـوـةـ فـتـسـتـلـ روـحـهـ ،  
وـتـدـعـهـ جـثـةـ هـامـدـةـ !ـ وـلـكـنـهـ تـمـاسـكـ وـتـجـلـدـ وـقـالـ وـهـوـ يـتـصـنـعـ الـدـهـشـةـ :  
— أـوـقـدـ فـعـلـ ؟ـ

(١) الغـولـ : حـيـوانـ خـرـافـيـ مـنـ تـفـيـلـاتـ الـعـرـبـ : وـيـقـولـ الشـاعـرـ .  
أـيـقـنـتـ أـنـ الـمـسـتـحـيـلـ ثـلـاثـةـ الغـولـ وـالـعـنـقـاءـ وـالـخـلـ الـوـفـيـ .

— ألم تسمع شعره الذى يقول فيه :

فأصبحت والغول لى جارة أنت ما أغولا !  
ومن يك يسأل عن جارتي فإن لها باللوى منزلًا !  
كان هذا فوق ما يطيق أبو كبير سماعه ، فلم يلبث إلا هنيدة حتى التفت  
بشملته ، وحيا القوم وانصرف ، وهم في عجب من أمره ، إذ لم يعقب ولدًا ،  
وآخرى به أن يفخر بربيه هذا ، وهو من هو من بلاغة مقول ، ونبدة ،  
وجرأة ، وهمة . ولم يعلموا ما يساوره من القلق ، وما يحزنه من الجزع والخوف  
على نفسه ، لأنه تطاول وتزوج أم هذا الشيطان ، ولم يدروا أن تأبط شرًا  
يُقدّ عليه ، ويترbus به الدوائر ، وأنهم كلما ذكروا بأسه وشجاعته ازداد منه  
أبو كبير رعباً وخسية .

مضى عام أو بعض عام ، وأبو كبير برئ ب حياته وحياة هذا الغلام ، يراه  
عُصّة في حلقة ، وشجع في نفسه ، وقدى في عينه ، وكلما سمع الناس يفاخرون  
بشجاعته وحيلته ازداد همًا ومرض غمًا . وزاد الطين بلة أن تأبط شرًا كان  
فتي حلو اللسان بليغاً ذريباً يأسر من يحدّه بفضاحته وعدب حدشه ، وأنه كان  
كريماً ذا مروءة وشهامة ، يعين الكل ، ويطعم الجائع ، ويفيث الملهوف ،  
يسعده أن يشركه طعامه ضيف ، ويقتسم ماله ذو عيلة ، أو جار معدم ، لا يبقى  
شيئاً مما يغنمها في الغزو بل يفرقه على فقراء العشيرة بنفس سماحة رضية ، فأصبح  
محبباً إلى كل نفس ، عزيزاً على كل قلب ، إلا قلب أبي كبير المذلى ونفسه  
لامرأة . ولا سيما والفتى يقابلها دوماً بتوجههم وغضبرة وازدراء ، يتحاشى مجلسه  
ويشيح بوجهه عنه إذا رأاه ، وأحياناً يتمتم فيحسب أبو كبير تتمته توعداً

وتهديداً ، بينما هو مع غيره من الناس طلاقُ الوجه ، لطيفُ العشرة ، رقيقُ الحاشية ، جذابُ الحديث ، حَسَنُ البَشَرِ ، فِيمِضُهُ ذلِكُ وَيُؤْمِلُهُ ، ويتمى أن تنزل عليه صاعقة من السماء أو تخسف به الأرض ، حتى تهداً نفسه وتزول وساوسه ، وتذهب هواجسه ، وتعود إليه طمأنينته التي فارقته منذ أن مني بأم هذا الشيطان .

وفي ذات مساء ، وال القوم يسمرون كعادتهم في نديهم ، وقد عاودوا ذكر فتيان الحي وما يأتون به من ضروب الفروسيّة والجميّة ، وأبو كبير معهم يخوض فيما يخوضون فيه ، ويروى من نوادر الشجعان مثل ما يروون ، ولكن يتحاشى ذكر ربيبه تأبّط شرا ، حتى لا يسمع من أمره ما يزيد جزعاً ورعباً ، ولكن كيف يذكرون أولى النجدة والفروسيّة من شباب الحي وينسون تأبّط شراً وهو منهم في الطليعة ، فقال أحدهم : أو ما سمعت حادثة تأبّط شراً وابن براق مع بحيلة ، فتساءلوا في لففة عما حدث إذ كان بينهم وبين بحيلة عداوة قديمة وإحن وأحقاد . فقال المتحدث : « في ليلة عارية تقف من بردها الأطراف وتيلبس ، والريح تزفف وتلهب بسياطها الوجوه ، والظلام يتراكم كسفماً كأن الدنيا كهف بعيد الغور شديد العتمة ، أغار تأبّط شراً وابن براق على بحيلة ، وساقوا بعض نعمها ، فأحس بهم القوم ، وخرجوا في آثارها ، فمضيا هاربين في جبال السّراة ، ولزما الأرض الوعرة وأعلى الجبال ، وعارضتهما بحيلة في السهل ، وسبقوها إلى عين ماء بالطائف ، واختبئوا في دغل قريب من العين ينتظرون قدوم المغرين ، وهما لا يدريان من أمر المطاردة شيئاً . ثم جاءا العين وقد بلغ منها العطش مبلغاً عظيماً .

فَلَمَا وَقَعَ عَلَيْهَا قَالْ تَأْبِطْ شَرًّا لَابْنَ بَرَاقَ : « أَقْلَ من الشَّرْبِ فَإِنَّهَا لِيَلَةٌ طَرَادٌ ! » .

— وَمَا يَدْرِيكَ ؟

— وَاللَّهِ رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ لِأَسْمَعْ وَجِيبَ<sup>(١)</sup> قُلُوبَ الرِّجَالِ تَحْتَ قَدْمِي  
— ذَلِكَ وَجِيبُ قَلْبِكَ .

— وَاللَّهِ مَا وَجَبَ قَطْ وَلَا كَانَ وَجَّابًا .

وَضَرَبَ يَدِهِ عَلَيْهِ ، وَأَصَاحَ نَحْوَ الْأَرْضِ يَسْتَمِعُ ، ثُمَّ قَالَ :  
— فَوَرَبَ السَّمَاوَاتِ لِأَسْمَعْ وَجِيبَ قُلُوبَ الرِّجَالِ .  
— فَإِنِّي أَنْزَلَ قَبْلَكَ .

— « إِنَّهُمْ سَيَتَرَكُونَكَ ، فَلَسْتَ الْمَعْنَى » بِالْطَّرَادِ . وَلَكُنْهُمْ يَقْصُدُونِي ،  
إِذَا أَخْذُونِي ، وَطَلَبْتُ إِلَيْكَ أَنْ تَسْتَأْسِرْ مَعِي ، فَاعْدُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ أَظْهَرَ  
الْكَلَالَ وَالْتَّعْبَ حَتَّى إِذَا طَمَعُوا فِيَكَ ، وَقَلْتَ : « خَذُوهُ ، خَذُوهُ » فَأَجَدَّ  
فِي عَدُوكَ إِذَا كُونَ قَدْ انْطَلَقْتَ » .

ثُمَّ نَزَلَ ابْنُ بَرَاقَ ، وَبَرَكَ وَشَرَبَ ، وَكَانَ أَقْلُ الْمُغَيَّرِينَ شَوْكَةً ، وَأَضْعَفَهُمَا  
بِأَسَا ، فَلَمْ يُعْنِ بهِ الْقَوْمُ ، وَتَرَكُوهُ وَهُمْ فِي الظَّلَمَةِ لَا يَرَاهُمْ وَلَا يَحْسَبُهُمْ . ثُمَّ نَزَلَ  
تَأْبِطْ شَرًّا ، وَمَا كَادَ يَتَوَسَّطُ الْمَاءِ حَتَّى وَثَبَوا عَلَيْهِ فَأَخْذُوهُ ، وَأَخْرَجُوهُ مِنِ  
الْعَيْنِ مَكْتُوفَاً ، وَابْنُ بَرَاقَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ لَا يَطْمَعُونَ فِيهِ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ عَدُوهُ ،  
فَقَالَ لَهُمْ ثَابِتٌ ، إِنَّهُ مِنْ أَصْلَفِ النَّاسِ وَأَشَدُهُمْ عَجَباً بَعْدَهُ ، وَسَأَقُولُ لَهُ :  
اسْتَأْسِرْ مَعِي فَسَيَدْعُوهُ عَجَبَهُ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَعْدُو بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَهُوَ وَاثِقٌ مِنِ

(١) خَفْقَانُ الْقَلْبِ ، وَكَانَ مِنْ أَسْمَعِ الْعَرَبِ وَأَكْيَدِهِمْ .

نفسه أنه إذا أطلق لا يلحق ، وله ثلاثة أنواع من العدو : أولها كالريح المهابة ، والثاني كالفرس الجواد ، والثالث يكبون فيه ويعثر ، فإذا رأيت منه ذلك خذوه فإنني أحب أن يصير في أيديكم كما صرت إذ خالفني . قالوا : فافعل .

فصاح به تأبط شرًّا : أنت أخي في الشدة والرخاء ، وقد وعدني القوم أن يمنوا على وعليك ، فاستأسرك وواسني بنفسك في الشدة ، كما كنت أخي في الرخاء فضحك ابن براق ، وعلم أنه قد كادهم ، وقال : مهلا يا ثابت ، أيستأسر من عنده هذا العدو ؟ ثم أخذ يعدو ، فانطلق أول الأمر كالريح كما وصف لهم ، وفي ثاني شوط كالفرس الجواد ، وفي الثالث جعل يكبون ويعثرون يقع على وجهه ، فقال ثابت : « خذوه ، خذوه » فعدوا بأجمعهم فلما أن نفوسوا عنه شيئاً عدا تأبط شرًّا ، وهو مكتوف ، وهمارضه ابن براق ققطع كتافه ، وأفلتا جميعاً وتركتا بحيلة في حسرة وندامة خسرانها نعمها ، وإفلات عدوها من يديها !!

وما أن فرغ من قصته حتى أخذ القوم يتضاحكون ويتندرون على بحيلة وينتون على تأبط شرًّا ، ويغخرون بحسن تأتيه للأمور ، ونُضج رأيه وشدة مراسه ، وقوه حواسه . ولكن شخصاً واحداً من بينهم كان كئيباً واجماً حزيناً ؛ كان هذا الثناء همما تحُزْ قلبه وتُدميه وكأنما هو شيخ بحيلة ، قد آلمته وحزنت في نفسه الخيبة . كان ذاك الشخص أباً كبيراً مهذلي ، وحق له أن يأسى ويضطرب ، وهو يرى رببه يشتد ساعده كل يوم ، ويبلى في الغارة بلاء حسناً ، وقد أبرم أبو كبير أمره في تلك الليلة ، وسمى على أن يقتله قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون أشد مَنْعَةً عليه وأقوى شकيمة ، وقبل أن يغدر به وينصب عليه أو يحتال لاغتياله . فنهض من نَدِيّ قومه وكله عزم وحرز على أن ينفذ ما ارتأى دون تريث أو تلوم .

لم يكن أبو كَبِير هِيَّا بَهْ رَعِيداً ، بل كان شجاعاً فارساً ، وأنما كان يخشي أمر الغلام ، لأنَّه رَبِّيه ، وبيت معه في بيت واحد . أما وقد فوضته أمره في قتله فلن يُثنِيه عن ذلك شيء .

قال له في الغد : هل لك في أن تخرج معى للغزو ؟

فقال : ذاك من أمري . قال : فامض بنا ، فرجا غازيين ، ولا زاد معهما ، فسارا ليلاً ويومنهما من الغد ، حتى ظن أبو كَبِير أن الغلام قد جاء فلما أُمْسِي قصد به أبو كَبِير قوماً كانوا له أعداء ، فلما رأيا نارهم من بعد ، قال له أبو كَبِير : ويحك ! قد جعنا ، فلو ذهبت إلى تلك النار فالتمست لنا منها شيئاً !

فمضى تأْبِط شرا ، فوجد على النار رجلين من أَصْلِّ العرب ، وأشددهم قتلاً ، وقد أرسله أبو كَبِير مُتَّهِّمَةً ليقتلاه ويخلص منه ، ويبرأ من دمه أمام قومه ، فلما رأياه قد غشى نارها وثبا عليه ، وكان أحدهما أدنى إليه من صاحبه فأردى القريب منه فخر صريعاً ، وذكر على الآخر فرماه ، وذاك في سرعة وخفة ، وبطعناتٍ نافذاتٍ شديدةٍ من يد حاذقةٍ صلبة ، ثم جاء إلى نارها فأخذ الخبز منها ، وأتى به أبا كَبِير فقال له : كل ، لا أُشبع الله بطنك ! ولم يأكل هو ، فقال له : ويحك أخبرني عن قصتك ، فأخبره ، فزاده خوفاً ورعباً ، وأُمْسِي منه على حذر شديد .

ثم مضيا في ليتهما فأصابا إبلًا ، وكان يقول له أبو كَبِير ثلاث ليال : اختر أي نصف الليل شئت تحرس فيه وأنام ، وتنام النصف الآخر ، وفي كل ليلة يقول له تأْبِط شراً : « ذلك إليك . اختر أيهما شئت ». فكان أبو كَبِير ينام أو يتظاهر بالنوم حتى ينتصف الليل ويحرسه تأْبِط شراً ، والله يعلم أن الرجل ما كان يغشى عينيه الكرى ، وهذا الشيطان جالس على رأسه ، وكيف

يأتيه النوم وقلبه نَهَبَ للهوا جس والخاوف ، وها وحيدان في فللة مقفرة ؛ فإذا  
نام تأبط شرًا في النصف الآخر من الليل نام أبو كبير كذلك لا يحرس شيئاً ،  
إذ لم ينم أول الليل .

ف لما كان في الليلة الرابعة ظن أن النعاس قد غلب على الغلام ، لأنه نام  
أول الليل إلى نصفه ، وحرسه تأبط شرًا ، فلما نام الغلام قال أبو كبير لنفسه :  
الآن يستقل نوماً ، وتمكنتني الفرصة ، فلما ظن أن السكري قد أخذ بمعاقد  
أجفانه ، أخذ حصاة خذف بها فهب واقفاً على قدميه وقال : ما هذا الذي أسمع ؟  
قال : والله ما أرى لعل بعض الإبل تتحرك ، فقام وطاف بها فلم ير شيئاً ، فعاد  
فنام . فأخذ أبو كبير حصاة أصغر من تلك فرمى بها ، فواثب ، فطاف ورجع  
إليه ، فقال : يا هذا : إنني قد أنكرت أمرك ، والله لئن عدت أسمع شيئاً من  
هذا لأقتلنك ! قال أبو كبير : فبت والله أحرسه خوفاً أن يتحرك شيء من  
الإبل فيقتلني .

أصبح الصباح ، ولم ينل أبو كبير وطره ، وولت منه الفرصة ولن تعود ،  
وتبيّن له أن رببه هذا داهية لا يغلب أو يختل ، فلما رجعوا إلى حيهمما آلى على  
نفسه ألا يدخل على امرأته حتى ترضى نفس تأبط شرًا ويطمئن هو على حياته ،  
وآخر أن يعيش معه في سلام ودعة ، وأنشد في رحلته هذه قصيدة يصف بها  
تأبط شرًا ويشير فيها إلى فتوته وطبعاه :

وإذا نبذتَ له الحصاةَ رأيتهاَ  
ينزو لوقتها طُمُورَ الأَخِيلَ<sup>(١)</sup>  
ما إن يَمْسَسُ الْأَرْضَ إِلَّا مَنْكِبٌ  
منه وحرفُ الساق طَيَّ المِحْمَلَ

(١) الطمور : الوثوب ، والأخيل الصقر ، أي يتب حين تقع الحصاة كما يتبع الصقر .

وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هوى الأجدل<sup>(١)</sup>

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل<sup>(٢)</sup>

يحمى الصحاب إذا تكون كريهة وإذا هم نزلوا فلاؤ العيل<sup>(٣)</sup>

(١) الفجاج : جم فوج وهو الطريق الواسع في الجبل أو غيره ، والهوى : الاندفاع إلى أسفل ، والخارم : جم مخرم وهو القطع في الجبل ، والأجدل : الصقر ، ومعنى هذا البيت أنه صاحب همة لا يعبأ بالصعاب .

(٢) الأسرة : الخطوط التي في الجبهة يقول : إذا نظرت في وجهه رأيت أسريره تشرق إشراق السحاب المتشقق بالبرق ، يصفه بحسن البشر وطلقة الوجه وسماحته .

(٣) العيل : جم عائل وهو الفقير ، يصفه في هذا البيت بأنه شجاع كريم .

## فَقِيْ كَرِيمٌ<sup>(١)</sup>

— أَى حَاتِم ! إِنِّي عَلَى سَفَر ، وَقَد خَلَفْتُك فِي مَالِي ، فَأَحْسَنِ الْقِيَام  
عَلَيْهِ وَالْتَّعْهِدَ لَهِ ، وَلَا تَكُنْ مِبْذِرًا مِتَّلَافًا ، أَوْ كَرِيزًا كَنُودًا ، فَالْتَّبَذِيرِ يُورِثُ  
الْفَقْرَ ، وَالْفَقْرُ ذُلُّ ، وَالسَّكِنَازَةُ تَعْقِبُ الْمَذْمَةَ وَقَالَةَ السَّوْءَ ، وَلَمَوْتُ خَيْرُ الْفَتِيَّةِ  
إِنْ عَاشَ فَقِيرًا يَتَصْعَلُكَ ، أَوْ ذَمِيَّا تَتَحَمَّلُهُ العَشِيرَةَ .

— لَقَدْ نَصَحْتَ وَاعِيًّا يَا أَبْتَاهِ ، وَأَرْجُو أَنْ تَسْعَفَنِي خِلَالِي فَلَا أَخِيبُ  
ظَنِّكَ ، أَوْ أَضِيعُ نُصْحِكَ .

وَمَضِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدَ الطَّائِي ، وَالَّدُّ حَاتِمٌ لَطِيَّتَهُ ، وَخَلَفُ حَاتِمًا يَرْعِي  
مَالَهُ ، وَيَقُومُ بِأَمْرِ الْعَشِيرَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَشِعْرُ حَاتِمٍ أَنَّهُ أَصْبَحَ ذَا تَبِعَاتٍ ، وَأَنَّهُ  
سَيِّدُ نَفْسِهِ ، وَالْمُتَصْرِفُ فِي مَالِ جَمَّ ، وَخَيْرٌ كَثِيرٌ . وَنَازَعَتْهُ نَفْسُهُ مِنْذَ بَرِّحَ  
وَالَّدِهِ إِلَى الْمَكْرَمَاتِ ، وَكَانَ يَتَحْرِقُ شَوْقًا إِلَى أَنْ يَغْنِمَ لَقَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ حُسْنَ  
الْأَحْدُوْثَةَ وَطَيْبَ الدُّكْرِ بِجَمِيلِ الْفَعَالِ ، وَهِيَهَا أَنْ تَذَنِّيْهُ نَصِيحةً سَمِعَهَا  
مِنْ وَالَّدِ بَرِّ حَرِيصَ ، أَوْ نَظَرَةً إِلَى عَوَاقِبِ الْأَيَّامِ ، وَمَا تَتَدَخِّرُهُ مِنْ نَوَابِ .

وَكَانَ حَاتِمٌ يَخْرُجُ فِي غَلَمانَهُ لِرَعَايَةِ الإِبْلِ وَالْفَنَمِ كُلِّ يَوْمٍ ، وَيَظْلِمُ يَرْتَقِبُ  
الْطَّرِيقَ عَلَّا غَرِيبًا قَدْ أَضَرَّ بِهِ الْوَنِي<sup>(٢)</sup> ، أَوْ نَفِدَ مِنْهُ الزَّادَ ، يَقْرِيْهُ التَّحْيَةَ

(١) بلوغ الأرب للألوسي ج ١ ص ٧٢ وما بعدها ، والأغانى ج ٨ ص ٢٤٦ ، وذيل  
الأمالى ص ٢٢ ، و ١٥٣ ، و ١٥٤ و سمعط الألائى ص ١٢ ، والعقد الفريد ج ١ ص ١٠٨  
وأمثال الميدانى ج ١ ص ١٢٣ و de Percerval de ص ٦١٣ ج ٢ ، خزانة الأدب ط السلفية  
ج ٤ ص ١٦٠

(٢) الْوَنِي : التَّعْبُ وَالضَّعْفُ .

فِيْ قَوْمٍ بِحَقِّهِ ، وَيُظْهِرُ لَهُ بِالْغَرَبَةِ كَرْمَهُ . وَفِيْ ذَاتِ يَوْمٍ مَرَّ بِهِ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ لَمْ يَتَعْرَفْ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فَسَأَلُوهُ الْقَرِيْبُ ، فَقَالُوهُمْ : وَيَحْكُمُ ! أَتَسْأَلُونَ الْقَرِيْبَ ، وَهَذَا إِبْلٌ وَغَنْمٌ أَمَامَكُمْ ، وَمَا هُنَّ بِالْقَلِيلِ حَتَّى تَحْجُمُوهُنَّ ، وَمَا أَنَا بِالْبَخِيلِ إِلَّا كَمَرْزٌ حَتَّى تَرْدَدُونَ ؟ ؟ اَنْزَلُوا عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ .

وَنَزَلَ هُؤُلَاءِ ، فَنَحْرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَاقَةً قَدْ أَكْتَنَزَ لَهُمَا ، وَغَلَاظَ سِنَاهُمَا ، وَكَانُوا جِيَاعًا قَدْ نَفَدَ مِنْهُمُ الزَّادُ مِنْذِ يَوْمَيْنِ ، وَلَكِنْ هِيَهَا تُأْتِيَ أَحَدَهُمْ مِمَّا بَلَغَتْ بِهِ الْمَسْعَبَةُ وَالظَّوْى عَلَى نَاقَةٍ سَمِينَةٍ وَحْدَهُ . وَبَعْدَ أَنْ أَكْلُوا أَطَيْبَ مَا قُدِّمَ لَهُمْ ، وَشَرَبُوا لِبَنًا صَرِيفًا<sup>(١)</sup> ، وَاسْتَجْمَتْ مَطَايِّهِمْ ، هَبُّوا يَوْاصِلُونَ الرَّحْلَةَ وَالْسَّتْرَهُمْ تَلَهُجُ بِحَمْدِهِ ، وَتَذَنَّى عَلَى أَرْيَحِيهِ وَجُودِهِ ، فَسَأَلُوهُمْ حَاتِمَ عَنْ أَسْمَاهُمْ ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ عَبْدَيْنَ بْنَ الْأَبْرَصِ ، وَبَشَرَ بْنَ أَبِي حَارِمَ وَالنَّابِغَةَ الْذِيَّانِيَّ ، وَأَنَّهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى دِيَارِ الْمَنَذُرَةِ يَطْلَبُونَ الرِّفْدَ . فَقَالَ حَاتِمٌ :

بَخِ بَخِ ! إِنَّ ضِيَوفَ سَادَةِ الشِّعْرِ فِي الْبَيْدَاءِ ، وَاللَّهُ لَنْ تَبْرُحُوا حَتَّى أَقْسَمَ يَنْكِمْ كُلَّ مَا بَيْنَ يَدَيْ مِنْ إِبْلٍ وَشَاءَ<sup>(٢)</sup> ، وَأَخْذَ يَفْرَقُ بَيْنَهُمْ مَا اسْتَخْلَفَهُ أَبُوهُ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَأَوْصَاهُ بِحُسْنِ رَعَايَتِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَدِيهِ مِنْ شَيْءٍ وَارْتَحَلَ الشُّعُرَاءُ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا النَّبْجَمَ الَّذِي أَخْذَ يَتَأَلَّقُ فِي سَمَاءِ الْجَزِيرَةِ ، فَيَبْهَرُ بِسَنَاءِ جُودِهِ كُلَّ عَيْنٍ ، وَيَقْتَنِي كُلَّ نَفْسٍ ، وَيَخْلُبُ كُلَّ لَبٍ ، اسْمُهُ حَاتِمٌ طَيِّبٌ .

وَقَرَّتْ نَفْسُ حَاتِمٍ بِمَا فَعَلَ ، فَقَدْ حَقَّ أَمْنِيَةً طَلَّا جَاشَتْ فِي صَدْرِهِ ، وَكَانَ عَنْ إِدْرَاكِهَا عَاجِزًا ، وَقَدْ كَانَ سَعِيدٌ بِالْجَدْدِ إِذْ أَصَابَ بِكَرْمِهِ شُعُرَاءُ أَمْحَادًا ،

(١) الْلَّبَنُ الصَّرِيفُ : الَّذِي حَلَبَ لِسَاعَتِهِ :

(٢) وَشَاءَ : جَمْ شَاهٌ .

سيذيعون في الناس كرم طيٌّ ، ويرفعون لها ذكرًا ، ولم يخطر على باله هنية ما نصحه به أبوه ، ولم يفكرا في أنه قد أتى أمراً حميداً .

ومرت الأيام وآب والده من سفرته ، ودُهش حين رأى المرأح خلواً من راغية أو ثاغية<sup>(١)</sup> ، وعجل بسؤال حاتم عما صار إليه ماله ، فقال له حاتم : لقد طوقتك به مجد الدهر طوق الجمامة ، وقصّ عليه نباء ، وأخذ يحسن له ما فعل ، ويدرك له أن هؤلاء الشعراء سيشيدون بذكره ، وسيخلدونه على الأيام . ولكنَّ والده أصمَّ أذنيه فلم يستمع لدفاعه عن نفسه . وقال له : لقد ضيّعت مالي ، وفرطت في نصحي ، ولو بقيت معى جلبتي على الفقر كلَّا أحسست بالغنى ، فلن أسألكنك بعد اليوم أبداً ، ولا آويك أو أعينك ، فأنت وشأنك ، لقد ورثت خلال أمك غنية بنت عفيف ولم ترث حرص أبيك .

قال حاتم : أجل لقد ورثتها ووعيت قوله :

لعمرك قدِمًا عضنِ الجوع عَضَةٌ فَآلَيْتُ أَلَا أَمنِع الدهرَ جائعاً  
فقولاً لهذا اللائيِّ اليوم أَعْفُني وإنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعُلْ فَعَضَ الأَصابِعَا  
يا أباً تاه ! ليس فراقك بالأمر اليسير ، ولكنَّ طاعتك واجبة ، وإنَّ  
مشلي لن يعدم قوتاً ، وأنا بعد في ميعة الصبا وشرخ الشباب وسأفارقك مستجيناً  
لأمرك لا قالياً لك ولا زاهداً في أبوتك ، ولعلك تراجع نفسك بعد ، فإنَّ  
دعوتني ليتُ ، أطوع من بنانك ، وأمضي من حسامك .

كان حاتم على الرغم من حداثة سنِّه ، فارساً مغواراً ، وكأنما خصَّته العناية

(١) الراغية : الناقة ، والثاغية : الشاة .

بحبائِها ، فـكـان إذا قـاتـلـ غـابـ ، وـإـذا غـمـ أـنـهـ<sup>(١)</sup> ، وـإـذا ضـربـ بالـقـدـاحـ  
فـازـ ، وـإـذا سـابـقـ سـبـقـ ، وـإـذا أـسـرـ أـطـلقـ . ولـذـلـكـ كـانـ مـيمـونـ النـقـيـةـ لـاـ يـقـدـمـ  
عـلـى عـمـلـ إـلـاـ كـتـبـ لـهـ فـيـهـ الـفـاجـ وـالـنـجـحـ . وـمـنـ كـانـ مـثـلـهـ فـيـ شـجـاعـةـ جـنـانـهـ ،  
وـطـلـاقـةـ لـسـانـهـ ، وـرـوـعـةـ بـيـانـهـ ، وـسـمـاحـةـ يـدـهـ ، وـصـرـامـةـ سـيفـهـ ، وـأـصـالـةـ عـرـقـهـ  
لـاـ يـعـيـشـ بـالـبـادـيـةـ فـيـ مـتـرـبـةـ وـفـاقـةـ ، وـلـهـ فـيـ غـارـاتـ قـومـهـ عـلـىـ أـعـدـاءـهـمـ أـوـ رـدـهـمـ عـنـ  
دـيـارـهـمـ مـتـسـعـاـ لـكـسـبـ الغـنـىـ ؟ ولـذـلـكـ لـمـ يـلـبـثـ بـعـدـ أـنـ فـارـقـ أـبـاهـ إـلـاـ أـمـدـاـ يـسـيرـاـ  
حـتـىـ صـارـ مـنـ أـثـرـيـاءـ قـومـهـ ، وـأـعـلـامـ فـرـسـانـهـمـ ، وـمـشـاهـيرـ أـجـوـادـهـمـ ، وـرـغـبـ فـيـهـ  
عـذـارـىـ طـيـءـ ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـسـتـجـبـ لـرـغـبـاتـهـمـ ، إـذـ سـمـعـ بـجـمـالـ مـاوـيـةـ بـنـتـ عـبـدـ اللهـ  
مـنـ بـنـىـ تـمـيمـ ، كـمـ سـمـعـ بـجـمـالـهـ سـوـاـهـ مـنـ فـتـيـانـ قـومـهـ . وـخـرـحـ هـوـ وـأـوـسـ بنـ حـارـثـةـ  
الـطـائـيـ فـيـ طـلـبـ مـاوـيـةـ .

وـجـعـهـمـاـ الطـرـيقـ بـزـيـدـ اـنـخـيلـ الـفـارـسـ الـمـغـلـيمـ ، وـدـلـفـ إـلـىـ بـابـ مـاوـيـةـ بـنـتـ  
عـبـدـ اللهـ ثـلـاثـةـ مـنـ خـيـرـ مـنـ أـنـجـيـتـ الصـحـراءـ ، شـجـاعـةـ وـبـاسـاـ وـكـرـمـاـ وـسـيـادـةـ .  
وـخـطـبـهـاـ كـلـ مـنـهـمـ لـنـفـسـهـ ، وـأـخـذـ يـعـدـ مـنـاقـبـهـ ، وـلـكـنـهـ آثـرـتـ حـاتـمـاـ عـلـيـهـمـ  
وـتـزـوجـتـهـ . وـقـدـ لـامـتـهـاـ أـمـهـاـ لـأـنـهـاـ اـخـتـارـتـ الـمـتـلـافـ الذـىـ لـاـ يـبـقـيـ مـنـ المـالـ باـقـيـاـ ،  
فـقـالـتـ لـهـ : يـاـ أـمـاـهـ لـعـلـ أـصـلـحـ مـنـ شـأـنـهـ ، فـإـنـ لـمـ أـسـتـطـعـ فـسـيـقـرـنـ اـسـمـيـ باـسـمـهـ ،  
وـسـيـكـونـاـنـ مـثـلـاـ شـرـوـدـاـ فـيـ النـدـىـ وـالـجـوـدـ .

وـنـزـلتـ مـاوـيـةـ فـيـ دـيـارـ طـيـءـ بـيـنـ جـبـلـيـنـ مـنـيـعـينـ : أـجـأـ وـسـلـمـيـ ، وـفـيـ الـبـيـتـ  
الـرـفـيـعـ الـعـمـادـ ، مـهـرـوـيـ الـضـالـلـيـنـ ، وـمـقـصـدـ الـمـعـتـفـيـنـ ، وـغـيـاثـ الـمـحـاجـيـنـ ، وـأـمـلـ  
الـمـكـرـوـيـنـ ، وـسـعـدـتـ أـمـدـاـ بـمـاـ كـانـ تـرـىـ وـتـسـمـعـ مـنـ كـرـمـ زـوـجـهـاـ وـأـرـيـحـيـتـهـ ،

(١) أـنـهـبـ مـالـهـ : جـعـلـهـ نـهـيـاـ لـلـنـاسـ يـأـخـذـوـهـ مـنـ غـيـرـ مـقـابـلـ .

وتوطيد سيادته ، وفي كلّ يوم يضرب في الجود مثلاً يُزْرِى بما سبقه ، وفي كل غارة يجلب لها من الخير والمال ما تَهشّ له نفسها ، وتُتطرّى به جَدَّها ، ولكن سرّ عان ما تراه يتبدّد بين يدي حاتم فلا يُبْقى منه ولا يذر . ولقد رأته يوماً وقد وفَدَ عليه عبد قيس بن خفافٍ الْبُرْجُمِي يَبْثُثُ حاجته ، وأنه تحَمَّل في قومه دِماءً ، وتطوّع لإصلاح ذات البين بينهم ، وأن يده قصرت عن أن تُنْفِي بما تحمله ، وأبى قومه أن يعفووه ، وأمهلهم حتى يأتي من يحملها منه . وأنشده .

حملت دماءً للبراجم جمةً فجئتك لما أسلمتني البراجم  
وقالوا سِفاهها : لم حملت دماءنا فقلت لهم يكفي الحمالة حاتم  
متى آتِيه فيها يُقْلِن لي مرحباً وأهلاً وسهلاً أخطأتك الأشائم<sup>(١)</sup>  
فيحملها عنى ، وإن شئت زادني زيادة من حلت عليه المكارم  
يعيش الندى ما عاش حاتم طيءٌ  
وقال رجال : أنتَ العام ماله فقلت لهم إنّي بذلك عالم  
ولكنه يعطي من اموال طيءٍ إذا جلَّفَ المال الحقوق اللوازم<sup>(٢)</sup>  
وكان في مرباع حاتم ما يُرْبِي على مائتى بعير سوئي نَيَّبَها وفصَّالَها<sup>(٣)</sup> قد أراحها توًأ غِبَّ غارته على بني تميم ، وقالت ماوية حين رأتها : هذه بضاعتنا ردَّت إلينا ، ولكنها لم تهنا بها إلا بُرْهَة ، وإذا حاتم يهبهها جميعاً لهذا الْبُرْجُمِي وهو يقول له : خذها فإن وفت بالحمالة فذاك ، وإلا أكملتها لك ،

(١) الأشائم : ضد الميامن أي التي يتشارىء منها

(٢) جلف المال : ذهب به واستأصله .

(٣) النَّيْب : التوك المسنة ، والفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

حتى لا ترَوْعَ قومك بِأموالهم ، ولأن مثلك في نجدة وشرفه ، وإصلاحه ذات البين ، وحقنه للدماء البريئة وتحمله للديات أهل لأن يُعَان .

فضحك عبد قيس ملء شدقته ، وقال يا حاتم ! إن كل بغير دفعته إلى ذنبه في يد صاحبه ، ولا يزال ثمة من يطالبون فزاده حاتم مائة بغير ، فأخذها وانصرف ، وحاتم يقول :

فَلَامَنْ عَلَيْكَ بِهَا إِنِّي رَأَيْتُ الْمَنَّ يُزْرِي بِالْجَمِيلِ  
ومضى عام وبعض عام ، وماوية ترى المال يأتي وافراً ، وينصرف عاجلاً  
فَبَرِّمَتْ بِحَيَاةِ حَاتِمَ ، ورَاعَهَا وَقَدْ وَلَدَتْ عَدِيًّا أَنَّهُ لَنْ يَرِثْ مِنْ حَاتِمَ مَالًا ، بَلْ  
سَيِّرَتْ اسْمَا ، وَأَنَّهُ سَيَعِيشُ فَقِيرًا مَعْدُمًا إِذَا ظَلَ حَاتِمَ عَلَى إِسْرَافِهِ ، وَإِتْلَافِهِ لِمَا  
يَغْنِمُهُ ، وَأَخْذَتْ تَلُومَهُ وَتَعْذُلَهُ ، وَتَطَلَّبُ مِنْهُ أَنْ يَفْكُرَ فِي الْعَوْاقِبِ ، وَحَاتِمَ  
يَرِدُ عَلَيْهَا مَرَّةً بِقُولِهِ :

وَعَادَلَةٌ قَامَتْ عَلَى تَلُومَنِي كَأَنِّي إِذَا أُعْطِيْتُ مَالًا أَضِيمُهَا  
أَعْادَلُ إِنَّ الْجُودَ لَيْسَ بِعَهْلِكِي وَلَا مُخْلِدَ النَّفْسِ الشَّحِيقَةَ لَوْمُهَا  
وَمَرَّةً ثَانِيَةً بِقُولِهِ :

أَمَوَى إِنَّ الْمَالَ مَالٌ بِذَلِكِهِ  
وَقَدْ يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنْ حَاتِمًا  
فَإِنِّي وَجَدَّى رَبَّ وَاحِدَ أُمَّهُ  
غَنِيَّنَا زَمَانًا بِالتَّقْصِيدِ وَالْغَنِيَّ  
فَمَا زَادَنَا مَأْوَى عَلَى ذِي قِرَابَةٍ غَنَانَا وَلَا أَزْرِي بِأَحْلَامِنَا الْفَقْرُ  
وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَلُومَهُ يَنْشِدُهَا شَعْرًا يَتَحَدَّثُ فِيهِ عَنْ كَرْمِهِ ، وَيَسْرِحُ فِلْسِفَتَهُ ،

وهي تصير على مرضض ، معاللة النفس بأنه قد يثوب إليه يوماً رشده ، ويدرك أنه أبو صبية ، وأن واجبه إزاءهم أن يخلف لهم مالاً يغنينهم ذلَّ المسألة ، وضراعة الحاجة ، ولكن هيات أن يرعوي مثل حاتم ، وقد جُبِلَ على السكرم ، وله في إتفاق ماله ألف سبيل وسييل .

ولم يزد لومها إلاً تماديًّا في كرمه ، وقد ندر أن ينحر في كل يوم من رجب<sup>(١)</sup> عشرةً من الإبل يطعم منها الناس ، وكان يوقد النار على يقانع من الأرض ليلاً لتجلب الضيوف ، وماوية تشكوا لجارتها تخزّقه في الغنى وإتلافه ماله ، وهن قد يعدلنه معها ، وهو لا ينصلح للعدل ، ولا يكفي عن جوده .

وفي ذات يوم كانت أمام خبائثها ، وأمامها عدى وسفانة يلعبان ، وقد خرج حاتم في سفرة له في خلال الأشهر الحرم ، وهي آمنة مطمئنة عليه لفروط شجاعته ، ولأن هذه الأشهر قد حرم فيها القتال ، وقد جلست إلى جاراتها يتهدثن بأخبار الباذية ، وفي الحروب والغارات ، والحملات والديات ، وإذا ب الرجل يناديهما :

— يا أم عدى !

— لييك ! .

— إن حاتم أسير بأرض عَزَّة ، وهو يطلب الفداء مائة من الإبل .

— حاتم أسير ! صاحت النسوة مجتمعات ، ورُوَّعَ الحى ، وأخذن يسألن هذا الرَّجُل عن أسر حاتم ، وكيف أسر في الأشهر الحرم ؟ ومن أسره ؟ .

— لا تُرْعِنْ . لقد مرَّ حاتم في سفرته بأرض عَزَّة فناداه أسير لهم أن

(١) كان رجب من الأشهر الحرم التي يُكَفَّ فيها العرب عن القتال ، فلا يصيرون من الغارات شيئاً ، وهذا هو السر في نحر حاتم هذه الإبل في كل يوم من هذا الشهر .

أغنى يا أبا سفانة ، فقد أكلني الإسار والقمل ، فقال له حاتم ويحك ! ما أنا  
ببلاد قومي فأجيرك ، وليس معى شيء ، فأفلت أسرك ، وقد أساءت بي إذ  
توهت باسمى ، ومالك بعد أن استنجدت بي إلا أن أفك إسارك ، وساوم به  
العنزيين ، واشتراه منهم على أن يضع نفسه في القيد بدلاً منه إلى أن يأتيه  
الفداء ، وأرسلني كي أحضره .

— فصاحت ماوية ! هذا شأن حاتم يابي إلا أن يكون كريماً ولو في  
ديار غيره . إن هذا الرجل لن يرجع عن غيّه حتى أموت حسرة ولوّعة . دونك  
أيها العنزي مائة من الأبل فداء حاتم ، ولعله يتعظ بعد أن ذاق ذلّ القيد ،  
وألم الأسر .

ولما عاد حاتم من رحلته ، وأنباء امرأته بما حدث له اشتدت في تعنيفه ،  
ولكنه طأنها بأن بيت الكريّم لن يُضام أبداً الدهر ، وأنشدها قوله :

أماوى لا يُغى الثراء عن الفتى	إذا حشرَ جَتْ يوماً وضاق بها الصدر
أماوى إن يُصبح صدای بقرة	من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترَى أن ما أنفقت لم يك ضرنى	وأن يدى مما بخِلت به صِفر

وأنشدها كذلك :

أهن للذى تهوى التلاد فإنه	إذا مِتْ كان المَالْ نَهْبًا مُقسما
ولا تشقين فيه فيسعد وارث	به حين تغشى أغبر الجوف مظلا
يقسمه غُنمًا ويسرى كرامة	وقد صرت في خط من الأرض أعظما
إذا نال ما كَنْتْ تجمع مَغْنَما	قليلًا به ما يَحْمَدَنَك وارث

وعامت ما ويه أن حاتماً لن يبقى على شيء من ماله ، وأنه إن مات فسيتركها

صفرَ الْكَفِ ، وَإِنْ خَلَفَ لَهَا الصَّيْتُ الْمَدِيدُ ، وَالذَّكْرُ الْعَطْرُ ، وَلَكِنَّ مَاذَا  
يَعْنِيهَا الذَّكْرُ وَالصَّيْتُ ، وَالبَادِيَةُ كَثِيرًا مَا تَشَحُّ بِخِيرِهَا ، وَتَجْدُبُ الْأَرْضُ ،  
وَتَعْرِيُّ مِنَ النَّبَاتِ ، وَتَبْخَلُ السَّمَاءُ بِعِمَاءِ رَدَاحًا غَيْرَ قَصِيرٍ ، وَتَشْوِي حَرَارَةُ  
الشَّمْسِ وَأَوَارُهَا وَجْهُ الْغَبْرَاءِ ، وَيَهْزِلُ الْحَيْوَانُ ، وَيَقْلُ الْمَاءُ وَقَدْ تَهْلِكُ الْمَاشِيَةُ ،  
وَيَصِيبُ النَّاسَ جَمْعُهُ وَالصَّرْ . وَإِذَا مَا يَكْنُ لَدِيَ الْمَرْءِ زَادَ مُدَخِّرٌ حَتَّى تَجْوُدَ  
السَّمَاءُ ، وَتَهْتَزِ الْأَرْضُ ، وَيَنْبَتُ الْبَقْلُ ، وَتَرْعَى الْإِبْلُ وَتَحْيَا ؛ هَلْكَ مَسْغِبَةً  
وَجْوَعًا هُوَ وَعَشِيرَتُهُ أَجْمَعِينَ . وَقَدْ أَصَابَتْ سَنَةً مِنْ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الْمُمْحَلَّةِ طَيْئًا ،  
وَأَتَتْ عَلَى كُلِّ مَا ادْخَرَهُ النَّاسُ ، وَاقْشَعَتِ الْأَرْضُ ، وَاغْبَرَّ أَفْقَ السَّمَاءِ ،  
وَرَاحَتِ الْإِبْلُ ضَامِرَةً هَزِيلَةً ، وَضَنَتِ الْمَرَاضُعُ عَلَى أَوْلَادِهَا فَمَا تَبْصُرُ بِقَطْرَةٍ ،  
وَأَيْقَنَ النَّاسُ بِالْهَلَكَ ، وَأَنَّ لَا مَنْجَاةَ لَهُمْ مِنْهُ إِلَّا بِعِجْزَةِ اللَّهِ .

وَقَدْ قَدَّمَ حَاتِمَ كُلِّ مَا لَدِيهِ مِنْ إِبْلٍ وَشَاءَ ، وَأَطْعَمَ بِهِ قَوْمَهُ وَأَهْلَهُ يَوْمًا بَعْدَ  
يَوْمٍ ، وَلَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةً ، حَتَّى أَتَى عَلَيْهَا جَمِيعًا لَمْ يَبْقِ لَهُ إِلَّا فَرَسَهُ ، وَقَدْ عَوَّدَ النَّاسَ  
أَنْ يَسْتَجِيبَ لِطَلَبَاتِهِمْ ، وَيَحْقِقَ رَغْبَاتِهِمْ ، وَلَا يَرِدُ لَهُمْ سُؤَالًا ، كَأَنَّمَا أَوْتَى  
خَزَائِنَ الْأَرْضِ ، أَوْ فُتَّحَتْ لَهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، وَكَأَنَّمَا فِي قَدْرَتِهِ أَنْ يَحْقِقَ  
الْمَعْجزَاتِ ، وَذَلِكَ لِسَاحَةِ نَفْسِهِ ، وَعَدَمِ احْتِجازِهِ أَى شَيْءٍ مَا يَمْلِكُهُ عَنْ  
سُواهِ مِنَ الْمُعْتَفِينَ<sup>(١)</sup> .

وَفِي لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِي الشَّتَاءِ الْبَارِدَةِ وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا رِيحٌ زَفُوفٌ تَعْضُّ الْجَسْمَ  
عَضًا أَلِيَا ، وَتَقْفِيُّ مِنْهَا الْأَطْرَافَ وَتَيَبَسَّ ، وَالنَّاسُ يَصْطَلُونَ وَيَتَعلَّلُونَ بِالنَّارِ  
وَالدَّفَعَةِ عَنِ الطَّعَامِ ، وَالْأَطْفَالُ فِي كُلِّ بَيْتٍ وَكُلِّ خِبَاءٍ يَصْرُخُونَ مِنَ الْجُوعِ

(١) المُعْتَفِينَ : طَلَابُ الْعَطَاءِ وَالْجَمْودِ .

وتشق أصواتهم أجواز الفضاء فتنفطر لهم قلوب ذويهم ، ولا يمكن لهم إلا  
كما هي مسؤولة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، وأولاد حاتم عبد الله ، وعدى  
وسفانة قد فتك السَّعْبَ بأُمِّهِمْ وهم يتلوون أَمَّا و مَسْعَبَةَ ، ويئتون أَيْنِنَا مُفْرِزاً  
موجعاً ، وأخذ حاتم يعلل ولديه بالحديث ، ويتناوم عَلَيْهِمَا ينامان ، وقامت ماوية  
إلى الصبية تعللها كذلك ، وتناوم علىها تنام . وكيف ينام الجائع ؟ وهو إن نام  
ساعة فستصرخ بطنه صرخة مُرْعِبة يهب لها واقفاً بعدها . ولم يكن باليسير  
على حاتم وماوية أن يريا الأطفال يتضورون من الجوع ، ويعولون من الألم  
ولا يمكن لهم حيلة أو وسيلة إلا حديثاً حلواً لا يغنى عنهم شيئاً ، ولو استطاع  
أحدهما أن يقطع مُرْعِبة<sup>(١)</sup> من لمه فيقدمها لأولاده لفعل ، ولكن هل  
أبقيت لهم تلك السنة العجفاء الشحبيحة لِمَا يقطع ؟ .

وبيانا حاتم وماوية يتذكرةن أمر هذه الجماعة وهذا القحط الشنيع الذي  
لم تر البادية مثله ، ويدعون الله أن يفرّج الكربة ، ويزيل الغمة ، إذ رفع  
طرف الخبراء ، فقال حاتم : من الطارق ؟ .

— أنا جارتكم هند ، أتيتكم من عند صبية يتعاونون عُواء الذئاب الجائعة ،  
وما وجدت مَعَوْلاً إلا عليك أبا عدى ، فارحمهم رحمك الله .

وقال حاتم على البديهة وبدون تفكير أو تردد :

— أَعْجَلِيهِمْ فَقَدْ أَشْبَعْتَ اللَّهَ وَإِيَاهُمْ .

وخرجت المرأة مسرعة تتغترب في ثيابها فرحاً ، وهي لا تدرى من أمر  
حاتم وأولاده شيئاً .

(١) المزعنة : القطعة من الملح .

وعجبت ماوية من أمر حاتم ، ونظرت إليه نظرة دهشة واستفسار ،

ثم قالت له :

— يا عجباً ! ماذا عساك تقدم لهذه المرأة وأولادها من طعام ، وبيتك لا يحوي مما يؤكل كثرة ، ولو كان به شيء لاطعمنا أولادنا ، وقد رأيت الساعة ما بهم ؟ إنك أسرفت فيما سلف من الأيام فلم تبق لنا شيئاً ، وهما أنت ذا تستجيب لاستغاثة جارتك ، ولا تستجيب لعويل أولادك . ولست أدرى لعمر الله ماذا ستفعل بها وأولادها إلا أن تذبح لها أحد صبيتك ، وليس هذا على كل حال بمستغرب منك ، فإنك رجل شيء التصرف .

— أقلِّ عليك اللوم يا ابنة عبد الله ، فو الذي نفسى بيده ، لقد لبست دعاءها وأنا لا أدرى من أمر نفسى شيئاً ، ولا أعرف لهذا الأمر مخرجاً ، ولكن ما كنت بمستطيع أن أردها خائبة ، وقد أتت تشكو الفسر ولو ذبحت لها أحد صبيتى كما قلت ، وليس أمامي من شيء ينحر إلا فرسى هذا الذي تختلف من كل ما وهبى الله من نعم ومال .

ولم يكدر حاتم يتم حديثه مع ماوية حتى أقبلت جارتة هند تحمل اثنين ، ويسى بجانبها أربعة ؛ كأنها نعامة حولها أولادها . وقد اصفررت منهم الوجوه وغارت العيون ، وهزلت الأبدان ، وعلت شفاههم بسمة الأمل ، وفي عيونهم بريق الرجاء ، وكأنما كان الموت يطاردهم وهم في فزع منه ورهبة ، فنجوا منه في حصن حاتم .

وتمثنت حاتم كل هذه المعانى فهب إلى فرسه زَمِيعا<sup>(١)</sup> في غير تردد ،

(١) زَمِيعاً : مسرعاً .

ووجاً لبته<sup>(١)</sup> بعديه فخر ، والدمع يتفرق في عينيه أسفًا لفارق هذا الجواد  
الذى طالما صاحبه والوغى مستعر الوطيس ، والمنايا تمد إليه أيديها البشعة الملطخة  
بالدماء ، والأسنة مشرعة ، والسيوف مصلحة ، والمعاجح يعقد فوق الرءوس  
سجايا ، فنجا به من التهلكة . ولكنه أفاق سريعاً من إطرافه لأن عيون  
الصبية جميعاً كانت تمتد إليه وترقب فعله ، وحاشاه أن يظهر أمامهم وأمام  
جارته بأنه متلوّم<sup>(٢)</sup> في إكرامهم وقد صار جواده جنةً هامدةً ، فأخذ يكشط  
جلده ؛ ثم دفع المدية إلى المرأة ، وقال لها : شأنك .

وأيقظت ماوية أولادها ، بل كانوا أيقاظاً من قبل أن تأتي إليهم ، وأنى  
لم كان في مثل حالم أن يستغرق في نوم ؟ وذهب يمشي في الحى ، ويأتיהם  
ييتاً بيتاً ، ويقول : هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، الطعام ! الطعام !

ووفد الناس على النار أفواجاً كأنهم أشباح هجرت رموسها ، يجرون  
أرجلًا أضعفها الونى ، وآدتها<sup>(٣)</sup> المزال ، والتلوا حول النار يقطعون من اللحم  
ويأكلون في نهرم بالغ ، وحاتم ملتفع بردائه ، وقابع في ناحية ينظر إليهم ،  
تعلو وجهه بسمة الرضا عن نفسه ، وعن فعله ، وينشرح صدره لضحكهم  
وتراهم على الطعام ، واحتقارهم له . وأبت عليه نفسه الأية المترفة أن يمد  
إلى الطعام يداً ، أو أن يذوق منه مزعة ، وإنه لأحوج إليه منهم جميعاً  
لفرط ما أضر به الجوع ، وأرهقه الطوى . وظلَّ الناس يأكلون حتى لم يبق

(١) وجأ : طعن ، ولبته : أعلى الصدر إلى الرقة .

(٢) متلوّم : متعدد .

(٣) آدتها : أثقلها .

من الفرس إلَّا عظُم وحافر ، ولو كانت هذه تؤكِّل ماتركوا منها شيئاً . وأنشأ  
حاتم حين رأى هذا يقول :

مَهْلَأ نوار أَقْلَى اللَّوْمِ وَالْعَذَّلَا      وَلَا تَقُولِي لَشَيْءَ فَاتْ : مَا فَعَلَـا  
مَهْلَأ وَإِنْ كُنْتُ مُهْلِكَهـ      وَلَا تَقُولِي لَمَالٍ كَمَالٍ كَمَـا  
يَرِى الْبَخِيلَ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةـ      إِنَّ الْجَوَادَ يَرِى فِي مَالِهِ سُبُلًا  
وَمَرَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ الْمُوْحَشَّةُ ، هَلَّكَ فِيهَا مِنْ هَلَّكَ مِنَ النَّاسِ ، وَحَفَظَ اللَّهُ  
حَاتِمًا وَأَوْلَادَهُ وَأَمْرَأَتَهُ ، وَأَصَابَهُمُ الرَّخَاءُ بَعْدَ الْجُدْبِ ، وَكَثُرَ لِدِيهِمُ الْمَالُ وَالْخَبْزُ ،  
وَلَكِنَّ ذَكْرَى هَذِهِ الْأَيَّامِ السُّودَ ظَلَّتْ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ بِعَامَةٍ ، وَفِي ذَهْنِ مَاوِيَةِ  
بِخَاصَّةٍ ، لَأَنَّهُ كَانَ بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا تُسْتَطِعُ أَنْ تَقِيَّ بِهِ نَفْسَهَا وَأَوْلَادَهَا  
الآَلَامُ وَالضُّرُّ ، وَهَا هِيَ ذِي الْيَوْمِ تَرِى الْخَيْرَ يَنْتَدِقُ ، وَالْمِرْبَاعُ يَعْصُمُ بِالنَّعْمَ ،  
فَهَلْ تَدَّخِرُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لَوقْتَ الْحَاجَةِ؟ وَهَلْ يَعْكِنُهَا حَاتِمٌ أَنْ تَفْعُلَ؟ إِنَّهَا تَرَاهُ  
كَعَادَتِهِ مَثْوَى الصَّيْفَانِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ ، وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ بِبَابِهِ عَشْرَاتٍ يَطْلَبُونَ  
الْقَرِيَ ، لَا يَعْرُفُونَ بَابًا سُوِّيَ بَابَ خَيَائِهِ ، وَلَا يَحَاوِلُونَ أَنْ يَعْرُفُوا غَيْرَهُ مِنَ  
الْعُشِيرَةِ . وَمَاوِيَةُ لَا تَسْكُرُهُ الصَّيْفَانُ ، وَلَكِنَّهَا تَفْزَعُ مِنْ كَثْرَتِهِمْ ، وَمِنْ عَظِيمِ  
مَا يَتَكَلَّفُ حَاتِمٌ فِي سَبِيلِ مَكْرَمَاتِهِ . وَكَانَتْ لَا تَخْفِي فَرْزَعُهَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ  
وَعَشِيرَتِهِ ، تَشْكُوهُ إِلَيْهِمْ كُلَّا حَدَثَتْهُمْ .

وَكَانَتْ مَاوِيَةُ لَا تَزَالُ عَلَى الرَّغْمِ مَا مَرَّ بِهَا مِنْ أَحْدَاثٍ ، وَمِنْ سَنِينٍ  
وَسَيِّمَةٍ جَمِيلَةٍ تَنْطَلِعُ إِلَيْهَا الْعَيْوَنُ إِعْجَابًا ، وَكَانَ حَاتِمٌ بْنُ عَمٍّ يَدْعُى مَالِكًا  
وَكَانَ بَهْرَى الطَّلَعَةَ ، حَلُو الْحَدِيثِ ، كَثِيرُ الْمَالِ ، وَطَالَمَا شَكَتْ إِلَيْهِ مَاوِيَةُ  
أَمْرَ حَاتِمٍ وَتَخَرَّقَهُ فِي مَالِهِ ، وَهُوَ يَنْظَرُ إِلَيْهَا مَعْجِبًا بَرَيقَ شَبَابِهِ ، وَغَضَارَةٍ

صباها ، وجمال وجهها ، وفي ذات يوم وقد أخذت تبته شكوكاها المألفة من حاتم ، قال لها مالك : ما تصنعين بحاتم ؟ وقد صبرت عليه أمداً ، وسيذهب إتلافه المال بشبابك ، إنه إن وجد شيئاً أتلفه ، وإن لم يجد شيئاً تكلّفه ، ولئن مات ليتركن ولده عيالاً على قومه ، وإن لى فيك رغبة فطلقيه وأنا أتزوج بك . إنني خير منه لك ، وأكثر مالاً وأعاهدك أن أمسك عليك وعلى ولدك وتعيشى معى في نعيم ورفاهة عيش . فقالت ماوية : إن ما قلت الحق يا مالك ، ولكن حاتماً رجل لم يجُد الزمان بمثله ، وقد آثرته على سواه من تقدّم إلى ، ومن العار أن أترك رجلاً ملء الأسماع والأبصار ، وأهجر بيته وهو والد صبيتي .

هوّنِي عليك الأمر ، إن حاتماً كِلْفٌ بمكراته ، وهو لا يفكر فيك ، ولا في أولادك ، وإنما يفكر في الطّاوين ، والذين انقطع بهم السبيل ، أو أضلتهم البداء ، يقدم لهم خيراً ما كسبت يداه . ولو كان يفكر فيك حقاً ، ولك في قلبه منزلة ، ويرعى شئون صبيتك لأحسن التدبير ، وعمِلَ لغدّه كما يعمل لليومه . إنك لا زلت في رياً العمر وربع الحياة ، ومن العار أن تضيّع شبابك مع رجل لا يرعاك حق الرعاية ، ولا يقدر جمالك كفاء قدره ، وستمر بك السنون وتذهب طلاوة شبابك ، وتنظرين إلى الوراء فتندمين على أن أفلتت منك هذه الفرصة السانحة ، وقد تحْضُّوك النصح فلا تجعلي للتّردد عليك سلطاناً . وما زال بها مالك ، يخلبها بعذب حديثه ، وهي توازن بينه وبين

حاتم ، وقلبها ظمآن للحب والرعاية ، وفكرها يمتد للمستقبل ، والبادية غدارة تأثر بها سنوات تحصد الخير حصدًا . وأخيراً ذهب ما بها من تردد وطلقت حاتماً .

وكانت مأوية من أولئك النسوة اللاتي اشتربن لأنفسهن حق طلاق أزواجهن ، وكانت المرأة إذا أرادت أن تطلق زوجها ، حولت باب خياءها ، فإن كان الباب من المشرق جعلته إلى المغرب ، وإن كان قبل اليمين جعلته قبل الشام ، فإذا رأى الرجل منها هذا علم أنها عنه راغبة ، وله كارهة ، وأنها طلقته فامتنع عنها ، وحرّم خياءها على نفسه .

وأي حاتم ذات يوم فوجد مأوية قد حولت باب الخباء ، فقال لابنه عدى : ما ترى أملك ؟ ما عدا عليها ؟ قال لا أدري ! غير أنها غيرت باب الخباء ، وكأنه لم يفطن لما قال ؛ فدعاه وهبط به بطن الوادي .

وجاء المساء ، وأخذ ضيوف حاتم يغشون داره ، وينزلون بباب الخباء كما كانوا يفعلون ، حتى صارب عددهم خمسين رجلاً ، فضاقت بهم مأوية ذرعاً ، وبرمت بهم ، فقالت لجاريتها : اذهب إلى مالك قولي له : إن أضيافاً (١) لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً فأرسل إلينا بناب تقرهم ، ولبن تغبقوهم وقالت لجاريتها : انظر إلى جبينه وفيه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه ، وإن طأطأ رأسه ؛ فارجعى ودعيه .

ومشت الجارية إلى مالك ، ووجده متوسداً وطبعاً من لبن ، فأيقظته ، وبلغتها الرسالة ، وقالت في نفسها : إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكانه .

(١) الغبوق : الشرب بالعشى ، وأغبقوه : سقاوه في ذلك الوقت .

فأدخل يده في رأسه ، وطأطأها حتى ضرب بلحىيه على زوره ، وقال لها : أقرئي عليها السلام وقولي لها : هذا الذي أمرتك أن تطلق حاتما من أجله ، وما عندي من ناقة كبيرة قد تركت العمل حتى أقدمها لضيوف حاتم ، وما كنت لأنحر صافيةً غزيرةً بشحم كلاتها ، وما عندي لبن يكفي أضيفه .

فرجعت الجارية ، ووصفت لها حاله ، وكيف رأته متوسداً وطبعاً من لبن وأعانتها بمقالته ، فذهب كل ما راود قلبه من احترام له ، وإعجاب بجماله وعلمت أنها كانت تفترط في سيد أشراف الدنيا في سبيل رجل ساقط الهمة ، عديم المروءة على كثرة ماله ، ولو كان يحبها حقاً وله فيها رغبة لتبغي طلبتها ، وأظهر نفسه بأنه لا يقل عن حاتم جوداً ، ولا سيما وحاتم غير موجود والضيوف يخرجونها ، ويقفون بباب خيامها .

وقالت لجاريتها : ويلك ! ابختي عن حاتم وقولي له : إن أضيفاك قد نزلوا بنا الليلة ، ولم يعamu بمكانك ، فأرسل إلينا بناب نحرها ونغذيهم ، وبلين نسقهم ، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك .

وأدت الجارية حاتماً فصرخت به ، فقال حاتم : ليك ! قريباً دعوت .  
فقالت : إن ماوية تقرأ عليك السلام ، وأنباته نباً أضيفه وما طلبته ماوية  
قال : نعم وأبي !

ثم قام إلى الإبل فأطلق ناقتين من عقالهما ، وظل يصيح بهما حتى أتى الخباء ، فخيا أضيفه ، وعقرهما ، وأخذ يطعمهم ويسقيهم ويقول :

وإنى لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لغيرها تشبه العبدا

ولمحته ماوية فجذبته من ردائه ، وأخذت تصريح به : هذا الذى طلقتك  
فيه ، ترك ولدك وليس لهم شىء !! . ولكن هيهات أن ينسى عن طبع جبل  
عليه ، وأدركت ماوية أنه على الرغم من إتلافه ماله رجل تفخر به ، ويغتر به  
العرب ، وأنها ستحل معه كاً قالت لأمها ، فأقلعت عن لومه وعاشر حاتم ما عاش  
ثم ذهب في فم الزمان أحدوة عطرة ، ومثلاً نادراً ، ورمزًا للمكرمات .

## لآخره بوادي عوف<sup>(١)</sup>

وقفت حماعة بنت عوف بن مُحْلِم أمّام خيالها تشهد فرسان قومها كيف  
يردون غارة بني عبس ، وكيف يدافعون عن أعراضهم ، ويحمون ذمارهم ،  
ويجودون بالأنفس في سخاء وجميأة ، لا ينكصون على أعقابهم ، أو يولون  
الأدبار . لقد أبلى قومها بلا حسناً ودافعوا في جدي وصرامة ، بيد أنهم كانوا  
قلة فلم تغن عنهم شجاعتهم شيئاً ؛ إذ كان معظم الرجال بعيدين عن الحى فلم  
يستجيبوا للاستغاثة ، وتکاثر الأعداء على الحماة يصرعنهم واحداً بعد واحد ،  
وحماعة ترقب المعركة بقلب واجف ، ونفسٍ سريع ، وعين حائرة ، ووجه  
صاحب ، لأن زوجها ليث بن مالك قد لبى نداء النجدة زميغاً<sup>(٢)</sup> ، وهي تخشى  
أن يصرع فتكون هبلاً للغزاة ، وسبية ممتهنة ، وتفقد بعلاً كريماً ، فتأميم من  
بعده وقد عاشرته فأحبته ، وهي ترى الدائرة تدور على قومها ، ونجل الموت  
يتخطف الفرسان ، وهم يتحدونه في إصرار وعناد وجرأة .

كانت نظراتها تتبع في لفة وعجلة حركات جواد أشهب وسط الممعان ،  
يتحول ويصول ، ويكر ويفر ، وفارسه لا ينفك يرفع سيفاً بتاراً أو يهوى به  
في قوة وبطش . ثم رأت الفارس يخر صريغاً ، ويخلى صهوة جواده ، وتدوسه  
الخيل بستابكها ، وفارسين من الأعداء يأخذان سليمه ، ويقودان جواده خارج  
الحومة ، فسحت عينها الدمع سحا ، وشعرت بنكأة دامية تنفذ إلى فؤادها ،

(١) الأمثال للميداني ج ٢ ص ٢٩٩ ، وبلغ الأرب ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) زميغاً : سريعاً .

ولكنها أبت أن تستسلم للحزن ، وطفقت تفكك في أمرها وقد ترملت  
وفقدت رجالها وحاميها ، وشغلها همها وأمرها عن المعركة الدائرة ، وما راعها  
إلا الفرسان يَعْدُون صوبَها ، ويتقدم اثنان فيهبان الخباء ويسوقان من فيه  
أسرى ، ويأخذان خماعة سبية ، وقد راعهما منها جمال فاتن ، وثبات عجيب ،  
وأنف شامخ ينم عن عزة وكرم محظٍ .

انتهت الغارة ، ورُدّت السيوف إلى أغمامها ، ووقف بنو عبس إلى ديارهم ،  
وخماعة وأهل زوجها ، وكثيرات من نساء قومه يسرن وراء الخيل حفاة  
سافرات الوجه مهينات ، يخهنن رجال غلاظ جفاة .

ينظرُن شرزاً إلى من جاء عن عرض بأوجه متكراتِ الرق أحرار  
وكان مروان القرظ بن زنباع<sup>(١)</sup> رئيس بني عبس يومئذ ، وكان يُصرُب  
به المثل في العز والشهمة والمروءة ، فحانت منه التفاتة نحو السبايا ، فرأى ينهن  
امرأة يتقرقق ماء الحسن والملاحة في وجهها ومخايلها ، مشوقة القوام ، مرفوعة  
الرأس ليست كبقية من يسير معها مشية ، وشخصية . فسألها :

— من أنت ؟

— خماعة بنت عوف بن معلم

— بنت سيد بني شيبان ، وأحد أجود العرب ، وأعزهم ، وأشجعهم ؟ ! -

واآسفاه !

ثم سأله :

— أسيرة من هي ؟

(١) سمى مروان القرظ ، لأنَّه يغزو اليمن وهي منابت القرظ .

فأجابه رجل منهم :

— أسيرة عمرو بن قارب ، وذؤاب بن أسماء .

فالتفت إليهم مروان وقال :

— حكاني في خماعة

— حكمناك يا أبا صهبان

— أشتريها منك بمائة من الإبل

— قبلنا حكم سيد بنى عبس

فأصرها مروان أن تغطى وجهها قائلًا : والله لا ينظر إليه عربي حتى أرددك إلى أبيك . وضمهما إلى أهله ، وأوصاهن بها خيراً ، لأنها بنت العزوري بيته ، وسليلة الأرومة الكريمة ، والحسب الرفيع والسؤدد والجاه . فعاشت خماعة بضعة أشهر في بيت مروان ما رآها مرة إلا من وراء حجاب برأ يمينه ، وما رأت وما سمعت من أهله وخدمه ما ذكرها أنها سبية مغلوبة على أمرها ، لأن عين مروان اليقظة كانت تتبعدها في السر والجهر ، لما لأبيها في أعناق العرب من أيداد كريمات ، وفضل سابق ، وذكر حميد .

دخل الشهر الحرام ، وأمن الناس الغارات ، واطمأنت القلوب على المال والولد والأهل ، لأن العرب جمياً تحرم القتال في هذه الشهور المباركة<sup>(١)</sup> ، فتردد السيف إلى أغمادها وتضع الحوامل<sup>(٢)</sup> ويحج الناس إلى بيت الله الحرام ،

(١) الأشهر الحرم أربعة وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وربحب . وكان العرب لا يستحلون فيها قتالاً إلا حيالاً منهم هما خشم وطىء فإنهما كانوا يستحلان كل الشهور وهذا كان العرب يستحلون دماءهما فيقولون : يحرم القتال في هذه الأشهر إلا دماء الملوك .

(٢) المراد هنا الإبل .

يستمطرون شأيب رحمته لتسيل أوضار بقوسهم ، ويجتمعون في الأسواق  
يتاجرون ، ويتفاخرون ، ويعقدون الحالفات .

حين دخل أول هذه الأشهر ، وارتاحت النفوس من الجهد والقتال والسفر  
والحدر الشديد ، جَهَّزَ مروانٌ خماعةً أحسن جهاز وأئمه ، فكساها الديباج  
والحرير ، وأخدتها الجواري والعبيد ، وأَكْرَمَها غاية الإكرام ، ثم حملها إلى  
عكاظ كأنها أميرة من بيت ملك عظيم ، ولم تكن سيبة أسرات بظبي السيف ،  
وأسنة الرماح ، وافتديت من آسرتها بمائة من الإبل على حنقٍ منها وسخط  
صحابها مروان في رحلتها هذه ، فلما دنا من عكاظ تقنع على عادة فرسان  
العرب ، حتى لا يعرفه أعداؤه ، ومن لهم عنده ترات ، فيترصدونه في ساحات  
القتال ، ويبذلون أقصى جهدهم للانتقام منه والقضاء عليه . وعكاظ — عادة —  
تغاص بفرسان العرب من كل القبائل ، فلا يعدم أن يكون هناك قرنٌ موغر  
الصدر موجودةً وحقيقةً يتوصّه فيتر بص به الدواير عند أول لقاء<sup>(١)</sup> .

فلما انتهى مروان بأماته إلى منازل بنى شيبان — قوم خماعة — قال لها :

— هل تعرفين منازل قومك ، ومنزل أبيك ؟

— هذه منازل قومي ، وهذه قبة أبي

— انطلق إلى أبيك ، فإنه أهل لكل مكرمة .

والتفت مروان إلى قومه وأنشد :

رَدَدَتْ عَلَى عَوْفٍ خُمَاءَةٌ بَعْدَمَا خَلَاهَا ذَوَابٌ غَيْرِ خَلْوَةٍ خَاطِبٍ

(١) عكاظ : نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاثة ليال ، وبه كانت تقام سوق للعرب وهي أعظم أسواقهم ، ويأتي إليها فرسان العرب وعظامهم وشعراؤهم وخطباؤهم وتجارهم .

ولو غـيرها كانت سبيئـة رمحـه جاء بهـا مـقرونة بالـدوائب  
ولـكـنه أـلـقـي عـلـيـهـا حـجـابـه رـجـاءـ الشـوـابـ أو حـذـارـ العـوـاقـبـ  
فـدـافـعـتـ عـنـهـا : نـاشـبـاـ ، وـقـبـيلـه وـفـارـسـ يـعـبـوبـ وـعـمـرـوـ بـنـ قـارـبـ<sup>(١)</sup>  
أـمـاـ خـمـاعـةـ فـدـلـفـتـ إـلـىـ قـبـةـ أـبـيـهـاـ ، وـخـلـفـهـاـ جـوـارـيـهـاـ وـعـبـيدـهـاـ وـمـعـهـمـ عـتـادـهـاـ وـمـاـ  
أـكـرـمـهـاـ بـهـ مـرـوانـ ، فـلـمـ رـآـهـاـ أـبـوـهـاـ عـوـفـ بـنـ مـحـلـمـ ، وـلـمـ يـكـنـ يـنـتـظـرـهـاـ ، قـالـ  
لـهـافـدـهـشـةـ :

— ما و اءك ما خماعة؟

فقصت عليه خبرها، وأشادت بما فعل مَرْوَانُ، وكيف نازع قومه وتحداهم في سبيلها وكيف حفظها عزيزة مكرّمةً، وجهزها أحسن جهاز وأئمه، وأخدمها وسهر على راحتها منذ أسرت حتى بلغت قبة والدها.

فقال أبوها : يابنية : إن مَرْوَانَ مَلَّا فِي العَزَّةِ ، أَلَمْ تسمِّي الْعَرَبَ يَقُولُونَ : أَعْزَّ مِنْ مَرْوَانَ الْقَرَاظَ ، وَلَقَدْ طَوَقَ جَيْدِي بِمَنْ جَسَّامَ ، وَهِيَاتَ أَنْ أَفِيهِ حَقَّهُ وَإِنْ كَانَ مَثْلِهِ فِي عَزَّتِهِ وَمَرْوِعَتِهِ وَسُؤَدَّدَهُ لَا يَرْتَقِبُ عَلَى حَسْنِ صَنْيَعٍ أَجْرًا .

三

دارت الأيام دورتها ، وغزا مروان بكر بن وائل على حين غرة ، فسبى ونهب ، فلما عاد الفرسان والرجال إلى أحياهم ، وسمعوا بما حصل لقومهم عزّ عليهم ألا يتذمّرون من ذلك الذي استباح حمامهم ، وأسر نساءهم ؛ ونهب أمواهم ، فهباوا يقصّون آثار جيشه في عدد عديد ، وخيل مشوّمة ؛ وسلاح وعدة كاملة ؛ وثبت لهم مروان ساعات ثم نجا فريق من جيشه بالأسلاب والسبايا ، أما هو وصنايدر قومه فوقفوا يدرعون العدو ويراؤغونه في ثبات وحسن حيلة ،

(١) هذه أسماء الذين اعترضوا عليه في فدائها وحاولوا استرها.

ولَكُنْ أَنِّي لَهُ أَنْ يَثْبِتْ طَوِيلًا وَقَدْ تَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ بَنُو بَكْرٍ بِخِيرَةِ فَرَسَانِهَا ،  
وَجَزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ جَيْشِهِ قَدْ انْفَصَلَ يَبْغِي النَّجَاهَ ، وَبَعْدَ جُولَاتِ صَادِقَاتِ ، وَقَتْلِ  
عَنِيفٍ ، وَقَعَ مَرْوَانٌ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ رَجَالِهِ أَسْرَى ، بَعْدَ أَنْ تَكْسُرَتْ سِيَوفُهُمْ  
وَتَحْطَمَتْ رِمَاحُهُمْ ، وَأَنْخَنَتْ الْجَرَوْحُ خَيْوَلَهُمْ ، وَسَقَطَ كَثِيرٌ مِنْ الْفَرَسَانَ صَرْعَى  
مَضْرِجينَ بِالدَّمَاءِ تَدُوسُهُمْ سَنَابِلُكَ الْخَلِيلِ فِي غَيْرِ شَفَقَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ .

وَمَضِيَ مَرْوَانَ آسِرَهُ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ ، فَأَنِّي بِهِ أَمَّهُ مُخْتَالًا فَخُورًا فَقَالَتْ  
لَهُ أَمَّهُ :

إِنَّكَ لَتَخْتَالُ بِأَسِيرِكَ كَأَنَّكَ جَهَنَّمَ مَرْوَانَ الْقَرْظَ !

فَقَالَ لَهَا مَرْوَانٌ وَهُوَ يَرْسُفُ فِي الْأَغْلَالِ :

— وَمَا تَرْتَجِينَ مِنْ مَرْوَانَ ؟

— عَظِيمُ فَدَائِهِ

— وَكَمْ تَرْتَجِينَ مِنْ فَدَائِهِ ؟

— مِائَةٌ بَعْدِ

— ذَلِكَ لَكَ عَلَيَّ ، عَلَى أَنْ تَؤْدِينِي إِلَى حَمَاعَةِ بَنْتِ عَوْفَ بْنِ مَحْمُومَ .

— وَمَنْ لِي بِمِائَةٍ مِنِ الْإِبْلِ

فَأَخْذَ مَرْوَانَ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَالَ لَهَا : هَذِهِ لَكَ بِهَا<sup>(١)</sup>

فَضَضَتْ بِهِ إِلَى عَوْفَ بْنِ مَحْمُومَ<sup>(٢)</sup> . فَلَمَّا عَرَفَ عَوْفُ أَنَّهُ مَرْوَانُ ، وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ

ابْنَتَهُ حَمَاعَةً قَالَتْ لَهُ : يَا أَبَتِ إِنِّي أَجْرَتْهُ مِنْ بَنِي بَكْرٍ بْنَ وَائِلٍ ، وَإِنِّي

(١) كَانَ هَذَا يَكْفِي عِنْدَهُمْ وَيَعْنِي عَنْ مَغَالِظِ الْأَيْمَانِ وَالْمَوَاثِيقِ وَالْعَهْوَدِ .

(٢) هُوَ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ مَطَاعِمًا فِي قَوْمِهِ ، قَوِيًّا فِي عَصَبَتِهِ ، وَكَانَ تَضَرُّبُهُ لِهِ قَبْةً فِي عَكَاظٍ ، تَوَفَّ فِي سَنَةِ ٤٥ ق.هـ .

أستعين بك على الوفاء بما له في أعناقنا من أياد ومنن ، واذ كر إذ كنت سَلِيْة فداني ، ومهينة فأعزني ، وغريبة فأنزلني مع أهله ثم أسلفني إليك لم أمهن بنظرة عربى إلى وجهى ، وكنت عنده فى نعيم وعيش رغيد ، والحمد لله الذى أمكننا من هذه الفرصة حتى نرد إليه الجميل .

قال لها أبوها : إن مروان قد أعمل السيف فى رقاب قومك ، وقد أخذهم على غرة فكترت ترثُم عنده ، ولكنى سأجيره معك ، ولا سبيل إليه إلا فوق هامتى .

وما أن علمت بنو بكر بخبر مروان حتى سعت جموعها إلى عوف بن مسلم يطلبون منه أن يُسلم مروان إليهم حتى يقتصوا منه على ماجنت يداه فى أرواحهم وأموالهم ، فأبى عليهم عوف - كانوا يجلونه ويطيعونه ، وبنائهم بقصته مع ابنته ، وذكرهم أن كلاً منهم معرض لأن يؤسر فى حومة القتال ، والأسير حقه أن يفدى لأن يقتل . وبعد جدال شديد ، أذعنوا الرأيه ، وتركوا مروان لعوف ابن مسلم ، وكان تنازلم هذا تصحية كبيرة قدموها لرئيسهم وسيدهم .

وظل مروان أيامًا عند عوف فى كنف خماعة ورعايتها ، تحاول أن تكرمه كأكرمها ، وترد إليه الجميل على قدر طاقتها ، وفي ذات يوم دخل عوف خباءه بادى الهم متعرّك الوجه ، فأنكرت خماعة أمره ، ومشت إليه فى لطف ودعة تسؤاله عما أهمه ، وأزال سماحة وجهه وبشاشة ، فكان جوابه أن سأل مروان :

— خبرني يا أبا صهبان عما أحفظ عمرو بن هند ملك الحيرة عليك !

— لم يكن — علم الله — يبني وينه إلا كل خير ، وكنت أفقده عليه

بالمهدايا والأموال ، فينزلني خير منزل ، ويكرمني وقومي . وفي ذات يوم أراد أن يعاملنى كـأـعـامـلـالـمـلـوـكـ رـعـيـتـهـاـ ، أوـ السـيـدـ مـنـ دـونـهـ فـيـ الشـرـفـ وـالـمـنـزـلـةـ ، فأبـتـ علىـ نـفـسـىـ أـنـ أـجـالـسـهـ ، وـبـقـيـتـ أـيـامـاـ عـنـهـ مـغـاضـبـاـ لـهـ ، فأـرـسـلـ إـلـىـ يـسـتـزـيرـنـىـ ، فـلـمـ دـخـلـتـ عـلـيـهـ لـمـ أـصـافـهـ ، فـعـاتـبـنـىـ لـتـخـلـفـ عـنـ مـجـلسـهـ ، فـتـعـلـلـتـ بـعـضـ الـعـاذـيرـ ، وـقـلـتـ لـعـلـهـ كـانـتـ هـفـوةـ فـيـهـ ، وـلـكـنـهـ أـيـقـنـ أـنـ فـيـ نـفـسـىـ شـيـئـاـ لـأـنـ لـمـ أـضـعـ يـدـىـ فـيـ يـدـهـ . وـفـيـ نـفـسـ الـيـوـمـ اـسـتـأـذـنـتـ فـيـ الـعـودـةـ فـأـذـنـ لـىـ بـعـدـ لـأـنـ ، وـقـدـ اـنـقـطـعـتـ عـنـهـ رـدـحـاـ مـنـ الزـمـنـ ، وـعـلـمـتـ أـنـهـ سـاخـطـ عـلـىـ .

فـقـالـ عـوـفـ : لـقـدـ عـلـمـ أـنـكـ مـتـحـرـمـ بـذـمـامـىـ ، فأـرـسـلـ إـلـىـ يـطـلـبـكـ ، وـأـنـتـ تـعـلـمـ مـكـانـةـ عـمـرـوـ بـنـ هـنـدـ لـدـيـنـاـ ، وـأـنـ دـيـارـنـاـ تـتـاخـمـ دـوـلـتـهـ ، وـأـنـ الـصـلـاتـ بـيـنـنـاـ قـوـيـةـ مـتـيـنةـ ؛ وـلـكـنـيـ أـخـبـرـتـ رـسـوـلـهـ : أـنـ اـبـنـيـ أـجـارـتـهـ وـلـيـسـ إـلـيـهـ مـنـ سـبـيلـ : وـإـنـ فـيـ اـنـتـظـارـ رـدـهـ ، وـإـنـ كـنـتـ أـعـلـمـ أـنـهـ سـيـتـمـيـزـ غـيـظـاـ حـينـ يـسـتـمـعـ لـلـجـوابـ ، يـدـأـنـهـ يـدـرـىـ عـزـةـ قـوـمـىـ فـلـعـلـ ذـلـكـ يـخـفـ فـيـ غـلـوـائـهـ .

وـمـضـتـ أـيـامـ قـضـاهـاـ عـوـفـ فـيـ هـمـ مـقـيمـ مـعـقـدـ ، لـأـنـ الـحـربـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ عـمـرـوـ بـنـ هـنـدـ لـيـسـتـ بـالـشـيـءـ الـهـيـنـ الـيـسـيرـ ، وـلـكـنـهاـ حـربـ تـكـلـفـهـمـ شـطـطاـ ، وـتـوـدـيـ بـرـاحـتـهـمـ ، وـنـعـيمـهـمـ ، وـتـرـاقـ فـيـهـ الدـمـاءـ بـسـخـاءـ . وـأـخـذـ يـقـلـبـ وـجـوهـ الرـأـىـ وـحـدـهـ دـوـنـ أـنـ يـسـتـشـيرـ أـحـدـاـ مـنـ قـوـمـهـ ، خـشـيـةـ أـنـ يـسـتـجـثـوـهـ عـلـىـ تـسـلـيمـ مـرـوـانـ لـسـابـقـ أـخـطـائـهـ مـعـهـمـ ، وـلـعـظـمـ جـرـيـتـهـ لـدـيـهـ .

ثـمـ جـاءـ رـسـوـلـ عـمـرـوـ بـنـ هـنـدـ يـنـبـيـ عـوـفـاـ أـنـ الـمـلـكـ لـنـ يـعـفـوـ عـنـ مـرـوـانـ حـتـىـ يـضـعـ يـدـهـ فـيـ يـدـهـ — سـيـمـةـ الـمـبـاـيـعـ وـالـمـعـاهـدـ وـالـحـلـفـ وـالـوـلـاءـ — وـبـذـلـكـ يـشـقـ الـمـلـكـ أـنـهـ لـنـ يـخـوـنـهـ أـوـ يـغـيـرـ عـلـىـ حـوـاشـيـ دـوـلـتـهـ وـيـنـقـصـهـ مـنـ أـطـرـافـهـ . فـقـالـ

عوف : يضع يده في يد الملك على أن تكون يدي بينهما ، وكأنه بذلك يحتاط لغدر عمرو بن هند بمحاره ، أو ليبرهن للملك على أنه صار حليفاً لمروان على كل من ناوأه أو هم بشيء يسوعه .

فلم يسع عمرو بن هند إلا أن يستجيب لطلب عوف . ثم قدم عوف ومروان الحيرة ودخل على الملك فوضع مروان يده في يده ، ووضع عوف يده بينهما ، وعفا عمرو بن هند عن مروان وقال : « لا حرّ بوادي عوف » أى لا سيد به ينazuعه سلطانه ، فصارت مثلًا .

## همة . . . !<sup>(١)</sup>

جلس الحارث بن عوفِ المرئي ذات مسأء مع خلَانه يسمُرون أمام أخبيتهم  
جديار ذبيان ، يتوصدون حشايا من الرمل الناعم الأملس ، والبيداء من حولهم  
ساكنة لا تسمع فيها حسماً ولا جرساً ، قد استسلمت لنوم عميق ، تداعب  
وجهها ريح الصبا الندية الرقراقة ، فتمعن في غفوتها . وصفحة السماء تتحلى  
بالنجوم الذهُر ، ما بين مجتمعة ومتفرقة كحلى الحسنا ، والبدر يسطع بنوره الباهر  
فيزيد في بهاء الصحراء وروعتها وجلالها ، والجمال جائمة من حولهم تبعث الرهبة  
والخشية في النفوس .

وجرى الحديث بين الحارث بن عوف وخلانه حول الحرب الضروس التي  
خاضوا غمارها مع أبناء عمومتهم بنى عبس أربعين سنة ، أتت على الطارف والتليد ،  
وتقطعت فيها وشاحن القربي وفُل بها غرب غطfan وتبدد ثرأوها ، وشرد رجالها ،  
وقتل أبوطالها ، وال القوم لا يزالون في حدتهم وشرّتهم لا يودون رد الصوارم  
إلى أغمادها ، وكل قتيل جديد يبعث ثاراً جديداً ، وحقداً شديداً ،  
وهيئات أن يكفوا من غلوائهم أو يرتدعوا إلى صوابهم حتى يتافقوا ويصيروا  
مثلاً في البالدين .

وأخذ الحارث بن عوف يتلمس للخروج من هذه الحرب سبيلاً ، وكيف

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٩٤ ، المستطرف ج ٢ ص ٢٢٢

de Perceval . Essai sur l'histoire des Arabes , P. 474.

يتاتي السعى لحقن الدماء ، ورتق الفتوق ، ورأب الصدع ، ولمّا الشمل ، ورجوع  
بني عبس إلى ديارهم ، وقد طافوا بأنحاء الجزيرة ، ولفظتهم كل قبيلة وتألب عليهم  
القوى والضعف . وقد كانوا مع أبناء عمومتهم في مَنْعَةٍ ، ومقام رفيع ، يداً قوية  
وبطشاً شديداً على كل من تحدّه نفسه بالنظر إلى ديارهم ، وطالما خاضوا غمرات  
الحروب معاً يردون كيد بني عامر وغير بني عامر ، ولم يكن أعز منهم في العرب  
قيلاً وأقوى منه ، وأرفع صوتاً ، وأطول يدأ .

وَعَرَّجَا فِي حَدِيثِهِمْ عَلَى ذِكْرِ الْعِزَّةِ ، وَالسِّيَادَةِ وَالشَّرْفِ ، فَسَأَلَ الْخَارِثُ

خَلَانِهِ :

— هَلْ ثُمَّةُ فِي الْعَرَبِ مَنْ إِذَا خَطَبَتْ ابْنَتَهُ رَدَّنِي ؟

فَقَالَ خَارِجَةُ بْنِ سِنَانٍ :

— نَعَمْ !

— وَمَنْ ذَلِكَ ؟

— أَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ الطَّائِيِّ

— أَنِّي أَعْلَمُ مَكَانَةَ أَوْسَ فِي قَوْمِهِ ، وَكَيْفَ احْتَلَ الدُّرُوْدَةَ فِي الشَّرْفِ  
وَالْجُودِ ، حَسِيبٌ لَا يَنْكِرُ بَيْتَهُ ، كَرِيمٌ لَا يَنْقْطِعُ عَطَاؤُهُ ، فَيُصَلِّ لَا يَطْعَنُ عَلَى  
رَأْيِهِ ، شَجَاعٌ لَا يَضَامُ نَزِيلَهُ ، عَزِيزٌ لَا يَجَارُ عَلَيْهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَ النَّعْمَانَ بْنَ الْمَنْذَرِ  
حِينَ وَفَدَتْ عَلَيْهِ وَفَوْدُ الْعَرَبِ وَبَيْنَ يَدِيهِ حُلَّةٌ مَرْصُوعَةٌ ، عَزْمٌ عَلَى إِهْدَائِهَا  
لِسَيِّدِ الْعَرَبِ <sup>(١)</sup> ، وَأَنَّهُ قَدْ خَلَعَهَا عَلَى أَوْسَ بْنَ حَارِثَةَ . وَلَكِنَّ أَوْسَ لَا يَجَهُ هَلْ  
مَكَانِي فِي قَوْمِي ، وَمَبْلُغُ ثُرَائِي ، وَشَرْفِي ، وَأَنِّي مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فِي الصَّمِيمِ ،

(١) المختار من نوادر الأخبار ، مخطوط .

وفي السيادة أزاحمه بالمنكب ، وما أظنه يجرؤ على ردّي إن خطبت إليه إحدى بناته ، ولقد عزمت على الرحلة إليه ، فهل تصحبني يا خارجة لتشاهد كيف أنه لا يستطيع ردّي .

— هَوْنَ عليك الأمر يا حارث ، وارباً بنفسك أن تضعها موضع البلاء والاختبار ؛ وإذا كان أوس على ما أعلم فله شأنه بيناته ، ولن يغض من منزلتك أنه لا يستجيب لرغبتك .

— لا بد من الرحلة إليه .

— إذاً فأنا معك .

وفي الصباح تجهز الحارت وخارجته ومعهما غلامُ للحارث ، ويعموا جميعاً صوب أَجَأِ وسَلْمَى حيث منازل طيء ، وقصدوا لتوّهم منزل أوس بن حارثة ووجدوه بفناء المنزل ، فلما رأى الحارت بن عوف هش لقدمه ، وتهلل وجهه ، وبالغ في تحيته والترحيب به لأن الحارت ليس بمجهول المكانة لدى أوس ، وقال له أوس :

— صرحيًّا بك يا حارث ! هيا انزل على الربح والسعنة .

— لقد جئتكم خاطبًا !

هكذا قال الحارت من غير استئناس ، أو تقدمة بين يدي طلبه ، وثوقاً من نفسه ومنزلته ، واعتزاً بهما ، فأجابه الحارت .

— لست هناك !

فاربدَ وجه الحارت بن عوف ، ولوى زمام ناقته ، وولى ظهره للحارث ثم سار لم ينطق بكلمة ، وقلبه يفور بالغضب والشجن ، لأنَّه جُرح في كرامته

جُرْحًا نَفَّارًا هِيَهَا أَنْ يَنْدَمِل ، وَأَخْذَ خَارِجَةٍ يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَيَقُولُ لَهُ :  
لَقَدْ حَذَرْتَكَ غَبَّ عَزْمَتِكَ هَذِه ، فَفِي أَوْسٍ صَلِيفٌ ، وَهُوَ لَا يَعْدُ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ  
لَهُ نِدًا وَكَفَّوْا لِمَصَاهِرِهِ . وَأَبِي الْحَارِثِ أَنْ يَحِيهِ ؟ إِذَا كَانَ فِي شُغْلٍ بِنَفْسِهِ  
وَأَخْذَ يَحِثَّ نَاقَتِهِ حَثًا شَدِيدًا كَأَنَّمَا يَرِيدُ النَّجَاهَ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ الَّتِي دَاقَ فِيهَا  
مَرَادَةَ الْخَزْرِيِّ وَالْعَارِ .

وَوَقَفَ أَوْسٌ هُنْيَهَةً يَفْسُكُرُ فِيمَا قَالَ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ  
يَنْصُرِفُ لِطِيَّتِهِ ، ثُمَّ دَخُلَ عَلَى امْرَأَتِهِ ، وَالْغَضَبُ قَدْ أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ نَقَابًا ،  
وَكَانَتْ امْرَأَتِهِ مِنْ عَبْسٍ ، فَقَالَتْ لَهُ :

— مَنْ رَجُلٌ وَقَفَ عَلَيْكَ ، فَلَمْ يُطْلِلْ ، وَلَمْ يُنْعِنْ رَاحِلَتَهُ ، وَلَمْ تَقْدِمْ لَهُ  
قِرْيًا ، وَلَمْ تَكْلِمْهُ ؟ ؟

— ذَا سَيِّدُ الْعَرَبِ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفِ الْمَرَى .

— فَمَا لَكَ لَمْ تَسْتَرِزِلْهُ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي غَطْفَانِيَةُ ، وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرْتَ  
مِنَ الْمَكَانَةِ ؟

— إِنَّهُ أَسْتَحْمَقُ !

— وَكَيْفُ ؟

— جَاءَنِي خَاطِبًا .

— أَفَتَرِيدُ أَنْ تَزُوْجَ بَنَاتِكَ ؟

— نَعَمْ .

— فَإِذَا لَمْ تَزُوْجَ سَيِّدَ الْعَرَبِ فَمَنْ ؟

— قَدْ كَانَ ذَلِكَ .

— تدارك ما كان منك .

— لماذا ؟

— تلتحقه فترده .

— وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه ؟ وعزيز على نفسي أن أرجع في كلية قلتها .

— هون عليك ! ، تقول له : لقيتني مغضبًا بأعلم تقدم فيه قوله ، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت ؛ عذ ولئن عندي كل ما أحبيت فإنه سيفعل .

وقد رد هذا الكلام ما عزب من صواب أوس : وعلم أنه هو الذي استحمر ، إذ عجل بالرفض ، فلحق بالحارث وصاحبيه .

وحانت من خارجة التفاتة ، فرأى أوساً يعود خلفهما على جواد فاره ، فقال للحارث — وهو لا يكلمه غمًا — هذا أوس بن حارثة جاد في أمرنا فقال :

— وما نصنع به ؟ امض بنا .

فلما رأاهم أوس لا يقفون صاح بهم : يا حارث ؟ قف هنيهة . فوقف وكلمه بما أوحت به امرأته ، فرجع معه مسروراً . ودخل أوس منزله ، وقال لزوجته : هذا هو قد رجع ، ولست أدرى أى بناى أصلاح له ؟ ادعى له فلانة — لأكبر بناته — فأثنى فقال لها :

— أى بنية ! هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، وعلم من أعلامهم ، قد جاءنى خطاباً ، وقد أردت أن أزوجك منه ، فما تقولين ؟

وأطرقت الفتاة قليلاً تفكراً ثم رفعت رأسها وقالت :

— لا تفعل !

— ولمَّا ؟

— إنِّي امرأة في وجهِي أثرٌ من دمامة ، وفي طبعِي بعضُ الغلظة ، ولست  
جابةً لعمه فيرعى رحْمِي ، وليس بمحاركٍ فيستحيي منك ، ولا آمن أن يرى مني  
ما يكره فيطلقني ، فيكون علىَّ في ذلك ما فيه ، وأجلب لك الإساءة ،  
ولبيتك الشَّيْنَ .

— بارك اللهُ عَلَيْكَ يا بُنْيَة ، لقد أَظْهَرْت رجاحةَ عَقْلِكَ ، وثاقبَ رأْيِكَ ،  
فخوضكَ اللهُ خيراً منه .

ثم قال لزوجته : ادعى لي فلانة — ي يريد وسطي بناته — فدعتها ، وقال  
لها ما قال لأختها من قبل فأجابته بمثل إجابتها ، وزادت أنها خرقاء لا تحسن  
صَنْعَةً ، وأنها تخشى أن يجد فيها ما يكره فيطلقها ، فدعا لها بخير ، وقال لأمرأته :  
ادعى بُهْيَسَةً — صغرى بناته — فدعتها أمَّه ، وأتت بُهْيَسَةً ، قد امتلأت  
غضارة ونصارة ، كأن وجهها الدينار يتألق تالقاً ، وكأنها الغصن الأَمْلُود تتشنى  
ويترنح ، يشع من عينيها بريق ينم عن فَرْطِ ذكاء ، وعزيمة صارمة ومضاء ،  
كأنهما سيفان في جفنين ، ولها خدٌ كغريض التفاح ، وشفاه كورق الورد ،  
وجبهة كفلق الصبح . فقال لها أبوها حين رأها : حياك الله يا بُهْيَسَة ،  
تعالى أحذنك !

— هَذَا يَا أَبْتَاه !

— جاءني الحارث بن عوف سيد ذبيان خطيباً ، فما تقولين ؟

— أنت وذاك؟

— قد عرضت ذلك على اختيلك فأبتابه.

ولم يذكر لها ما قالنا، فقالت:

— لكنني والله الجميلة وجهًا ، الرفيعة خلقًا ، الحسيبة أبا ، فإن طلقني  
فلا أخلف الله عليه بخير.

— بارك الله عليك يا بنية ، وجعلك منبجة ودوداً.

وخرج أوس إلى الحارث بن عوف ، ونفسه راضية ، لأنها يعلم من بُهِيَّة  
أنها راجحة العقل ، وأنها كفء للحارث ، وأنها المرأة التي لا يخشى عليها إن  
اغتربت عن أهلها لفترط دهائهما ، ورقة خلقها ، وقال للحارث : يا حارث  
زوجتك بُهِيَّة بنت أوس ، فقال الحارث : قبلت.

وأمر أوس بيته فضرب للحارث ، وأنزله إياه ، ثم دعا وجوه قومه ليرجبوه  
بصهره ، وسيد غطفان ، وبالغ في الحفاوة به وإكرامه.

وأخذت زوجة أوس تهبي من أمر بُهِيَّة ، وتعدها للزفاف ، ونساء  
طبيه يهنتها بزواجهها ، وكل توصيها بوصية حتى يدوم عيشها في كنف زوجها  
وهي عن بلادها نائية ، ليس لها مشير إلا رأيها ، وما وعته من نصائح أحبابها  
وبعد أن فرغن من تجهيزها زففها النساء إلى خباء الحارث بن عوف ، ولكن  
ما لبثت هنيهة معها حتى خرج ، وهو يقول خارجة : هيا بنا إلى ديار ذبيان.

— وما العجلة ، وقد زفت إليك عروسك؟

— لقد أبْتَ أن أبني بها وقالت : مه ! أعندي أبي وإخوتي ؟ هذا والله  
ما لا يكون.

— إذاً فلنرحل ، ما دام هذا أمرك وأمرها .

وودّعت بهيسة أباها وأمها وإخوتها ، ثم سارت في هودجهما مع زوجها وصاحبيه ، وهي رابطة الجأش ، ساكنة النفس ، واثقة من أمرها ، كأنها لم تفارق عُشّها الذي فيه درجت ، وتودّع أهلاً أعزاء عليها ، وكأنها تقدم على أمر قد أبرمته من قبل ، وفكرت فيه مليأً .

و بينما هم في الطريق أخذت نفس الحارث تراوده ليخلو بها ، فأمر خارجة أن يسبقه ، فلما انفرد بها ، جلس وإياها هنيهة على جانب الطريق ، ولكنه لما لبث أن لحق بخارجة ، فقال له :

— ما بالك لم تلبث بجانب زوجك إلاً أمداً يسيراً ، هل ردّتك عنها ؟

— أجل ! لقد قالت هذه المرة ! أكلا يُفعَل بالأمة الجليلة ، أو السبية الأخيرة ؟ ، لا والله ، حتى تنحر الجزْرَ ، وتذبح الغنم ، وتدعوا العرب وتعمل ما يعمل مثلي !

فقال خارجة :

— والله إلى لأرى همةً عالية ، وعقلًا راجحًا ، وأرجو أن تكون المرأة منحبة إن شاء الله .

وواصلت هذه القافلة الصغيرة سيرها صوب ديار ذبيان بنجد ، والحارث ابن عوف يفكر في عروسه الأبية النفس ، وكيف يسوّها في المستقبل ، وهي على ما رأى من آفة ، وترفع عن الصغار ، وإرادة قوية ؛ وابتداً يشعر نحوها باحترام وتقدير ومحبة ، ولم تعد في نظره مجرد امرأة سَيِّبني بها ، ودب في فؤاده الأمل بأنها ستكون منحبة ، وأنها ربما ولدت من يسمى على أوس بن حارثة

فِي عَزْتِهِ وَكُرْمِهِ ، وَعَلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ فِي سِيَادَتِهِ وَشَرْفِهِ .  
وَصَارَ يَحْدُثُ خَارِجَةً بِمَا يَعْتَلِجُ فِي صَدْرِهِ ، وَبِأَنَّهُ سَعِيدَ الْجَدَّ إِذْ وُفِقَ  
لِلزَّوْجِ مِنْ بُهْرَيْسَةَ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا تَحْمِيلِهِ خَارِجَةً وَإِثْارَتِهِ لِهِ مَا عَزَّمَ عَلَى الرَّحْلَةِ إِلَى  
أَوْسَ وَمَا رَجَعَ بِهَذَا الصِّيدِ النَّفِيسِ ؛ وَظَلَّ فِي حَدِيثِ بُهْرَيْسَةَ ، وَأَوْسَ بْنَ حَارِثَةَ  
حَتَّى وَصَلَّى إِلَى دِيَارِ ذِيَّانَ .

وَمَا أَنْ اسْتَرَاحَ الْحَارِثُ مِنْ وَعْنَاءِ السَّفَرِ حَتَّى أَخْذَ يُعِدَّ لِلرِّزْفَافِ عُدَّتَهُ ،  
فَأَحْضَرَ الْإِبْلَ وَالْغَنَمَ ، وَدَعَا سَادَاتِ ذِيَّانَ ، وَذُوِّي الرَّأْيِ فِيهَا ، وَأَقْبَلَ النِّسَاءُ  
عَلَى دَارِهِ لِيُشَاهِدُنَّ هَذِهِ الْعَرْوَسَةِ الَّتِي يَعْدُهَا كُلُّ هَذِهِ الْعُدَّةِ ، وَقَدْ عَلِمَنَ بِمَا كَانَ  
أَيْمَانَهَا ، وَمَنْزِلَتِهِ فِي الْعَرَبِ ، وَرَأَيْنَ جَمَالًا بَاهِرًا أَخَادَّاً ، وَعَقْلًا حَصِيفًا ، وَلِسَانًا  
ذَرِبًا فَصِيحًا ، وَكَرَامَةً ، وَاعْتِدَادًا بِالنَّفْسِ ، وَرَفْعًا ، فَأَحْبَبَهَا بَعْضُهُنَّ ، وَأَقْبَلَنَ  
عَلَيْهَا يَرْجِنَ بَهَا ، وَيُحِينُهَا ، وَيُؤْنِسُهَا فِي غَرْبَتِهَا ، وَيَحَاوِلُنَ خَدْمَتِهَا ؛ وَحَسَدُهَا  
بَعْضُهُنَ عَلَى مَا حَبِبَاهَا بِهِ اللَّهُ مِنْ جَمَالِ جَسْمٍ وَكَمالِ خُلُقٍ ، وَحَصَافَةِ عَقْلٍ ،  
فَأَشْحَنَ بِوْجُوهِهِنَّ عَنْهَا ، وَانْصَرَفَنَ وَالْحَسْبَرَةَ تَلَدَّغُ قَلْوَبَهُنَ ، وَكُلُّهُنَّ تَحَاوَلُ أَنْ  
تَتَلَمَّسَ فِيهَا عَيْنًا ، فَهَذِهِ تَقُولُ : إِنَّهَا مُتَكَبِّرَةٌ ذَاتٌ صَلْفٌ ، وَالْوَيْلُ لِآلِ الْحَارِثِ  
مِنْهَا ، وَهَذِهِ تَقُولُ : إِنَّهَا مُتَفَيِّهَةٌ ، كَثِيرَةُ الْحَدِيثِ كَأَنَّهَا تَفْرُضُ فِيْنَا الْجَهْلَ  
وَالْغَباءَ ، وَهَذِهِ تَقُولُ : أَلَمْ تَلَاحِظْ سَعْةَ عَيْنِيهَا إِنَّهَا لِعْمَرِي مُخِيفَةٌ .. وَهَكُذا  
اَنْقَلَبَتْ آيَاتُهَا الْبَاهِرَةُ فِي نَظَرِهِنَ سَيِّئَاتُ وَمَحَاسِنُهَا عُورَاتٍ .

وَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ لِلطَّعَامِ ، وَقَامَ الْحَارِثُ وَآلُهُ وَخَدَمَهُ عَلَيْهِمْ ، وَالسَّكُلُ يَهْنِئُهُ  
بِمَا وَفَقَ فِيهِ مِنْ مَصَاهِرَةِ أَوْسَ بْنِ حَارِثَةَ الطَّائِيِّ سَيِّدِ الْعَرَبِ ، وَيَرْجُونَ أَنْ  
تَنْجِبَ لَهُ عَرْوَسَهُ خَيْرَ الْبَنِينَ ، وَأَجْمَلِ الْبَنَاتِ ، وَهُوَ فَرِحٌ مَسْرُورٌ بِأَنَّ عَرْوَسَهُ

قد هيأت له فرصة يظهر فيها محبته لقومه ، واعزازه لهم بمشاركتهم إياه في مسرته .  
وبعد أن انقض الجموع دخل الحارث على هُبَيْسَة خباءها ، ولكنها أبْتَ عليه أن يقربها ، فقال لها في دهشة .

— ألسْت راضية يا ابنة أوس عما قمت به ؟ أليس هذا ما اقتربت على ؟

— إِنِّي لِفِي عَجَبٍ مِّنْ أَمْرِكَ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ ، وَعَنْ شَرْفِكَ ، أَكْثَرَ

مَا رَأَيْتَ مِنْكَ

— فَهَبْتُ الْحَارَثَ ، وَارَبَدَّ وَجْهَهُ ، وَابْتَدَأْتُ نَفْسَهُ تَثُورُ بِالْغَضَبِ ، وَقَالَ  
لَهَا : أَيْنِي عَمَّا أَرْدَتْ بِمَا تَفَوَّهْتَ بِهِ الْآنَ ، وَاللَّهُ إِنَّ الْعَرَبَ جَمِيعًا لَتَلْعَمُ حَقُّ الْعِلْمِ أَنِّي  
فِي الدُّرُوْرَةِ حَسْبًا ، وَكَرْمًا نَجَارًا ، وَأَنِّي مِنْ أَطْوَلِهَا يَدًا ، وَأَكْثَرُهَا غَنِيًّا ، وَأَكْرَمُهَا  
فَعْلًا ، فَمَا بَدَأْتُكَ مِنْهُ حَتَّى أَسْمَعْتُكَ مَا يَسِيئُنِي وَقَدْ كُنْتُ مَعْلُوكَ حَلِيَّا ، كَرِيمًا ؟  
لَمْ أَقْصِدْ إِلَيْكَ إِلَيْكَ ، أَوْ الْغَضْبُ مِنْ شَانِكَ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَنْتَظِرُ  
مِنْكَ ، وَقَدْ طَارَ صِيتُكَ فِي الْمَكْرَمَاتِ وَجَمِيلِ الْفَعَالِ أَلَا تَفَرُّغُ لِلنِّسَاءِ ،  
وَتَخَصِّصُنَّ بِوقْتِكَ كُلَّهُ ، وَأَمَامَكَ مِنْ أَسْبَابِ السِّيَادَةِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، مَا يَخْلُدُكَ  
أَبْدَ الدَّهْرِ

— وَمَا هَذَا الَّذِي أَمَمَى ؟

— لَقَدْ افْتَنَتِ الْحَرَبُ بَيْنَ عَبْسٍ وَذِيَّانَ خَيْرِ شَبَابِهِمَا ، وَطَالَ أَمْدُهَا ،  
وَمَلَّهَا النَّاسُ ، وَعَظَمَتْ وَيَلَاتُهَا عَلَيْهِمْ ، فَهُوَ مِنْ رَجُلِ مَسْمُوعِ الْكَلْمَةِ ، طَائِلُ  
الثَّرَاءِ ، سَمِحَ النَّفْسَ ، وَاسْعَ الْحَيْلَةَ ، يَسْعِي بِيَنْهُمْ بِالصَّلْحِ ، وَيَعِيدُ الْأَمْنَ  
وَالطَّائِنَيْنَ إِلَى هَذِهِ الْدِيَارِ الْجَيْلَةِ ، وَيَحْقِنُ الدَّمَاءَ الْبَرِيَّةَ ، وَيَفْدِي الْقَتْلَى  
وَيَتَحَمِلُ الْدِيَاتِ ، فَيَعُودُ إِلَى النُّفُوسِ هَدْوَهَا وَانْشَرَاحَهَا ؟

لقد كنت أظن يا ابن عوف أن هذا الأمر لا يخفى على مثلك ، وإن لم أمتتنع  
عليك زهداً فيك ، أو خوفاً منك ، أو كراهيتك ، ولكن أحببت أن  
يكون مقدمي عليك سبيلاً في رفع ذكرك ، وتخليدك بالأثر الطيب والعمل  
الصالح مدى الدهر ، فاخرج إلى هؤلاء القوم ، وأصلاح بينهم ، ثم ارجع إلى  
أهلك فلن يفوتوك ما تريده .

فسرّ الحارث من حديثها ، وتحركت همته العالية ، ونفسه الطموح لتحقيق  
طليّتها ، وقضى ليته بعيداً عنها في خباء وحده ، وهو يفكّر فيما اقترحته عليه  
وهل يستطيع وحده أن يتحمل ديات القتل؟ وهل ثمة من يرغب في السعي  
معه في هذا الأمر الجلل؟ ، وأخذ يستعرض أشراف قومه وأجوادهم : عينة  
ابن حصن الفزارى ، إنه حقاً رئيس قومه ولكنه أحمق موتور ، .. ابن سيّار  
إن فيه كزانة ، ليس إلا هرم بن سنان المُرّى ، إنه ذو أريحية ، وصاحب  
همة ، وسماحة يد . واطمأن قلبه حين اهتدى رأيه إلى هرم ، وعزم أن يذكر  
في التحدث إليه في شأن الصلح ، وأغفى قليلاً قبل أن ينبلج الصباح ، وقام  
حين أشرقت الشمس وقلبه مفعم بالأمل في تحقيق رجاء بُهيسة بنت أوس .  
وجاءه خارجة بن سنان قبل أن يبرح خباءه ، وسألها : كيف قضى ليته مع  
عروسه؟ ، فقص عليه قصتها معه ، وما طلبته منه ، فقال له خارجة :

— والله إنّي لأرى همةً وعقلاً ، ولقد قالت قولًا

— في الحق يا خارجة ، لقد ازدادت بها شغفاً ، ولها حبّة وإعجاباً ،  
وياليت مثلها في النساء كثير ، فإنّها ملهمة ، وصاحبة رأى ، ودللت على أنها  
حقاً بنت سيد من سادات العرب ، وأخت عَرَابة الذي قال فيه الشاعر :  
إذا ما رأيْتَ رفعتَ لِحْدَه تلقاها عَرَابة باليمين

وَتَرِيدُ أَنْ يَكُونَ زَوْجَهَا أَهْلًا لِمَا فِي السِّيَادَةِ وَالشَّرْفِ ، يَلْهُجُ النَّاسُ بِحَمْدِهِ ،  
كَمَا تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَقْدِعُهَا خَيْرًا وَبَرَكَةً عَلَى مَنْ حَلَّتْ بِهِمْ ، فَتَحَقَّلُ مِنْ  
قُلُوبِهِمْ أَرْفَعُ مَرْزَلَةً ، وَأَسْمَى مَكَانَةً ، وَهَكُذَا يَكُونُ النِّسَاءُ .

وَالآنِ يَا خَارِجَةٌ ! لَقَدْ فَسَرَتْ مَلِيًّا فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي عَرَضَتْهُ بِهِسَةٍ  
وَلَمْ أَجِدْ إِلَّا هَرَمِ بْنَ سَنَانَ مَعْوَانًا لِفِي الصلَحِ بَيْنَ النِّاسِ ، فَهِيَا بِنَا إِلَيْهِ .

— لَقَدْ أَصْبَتَ ، فَهَرَمْ جَدِيرٌ بِأَنْ يَرْتَعِمْ مَعَكَ شَعْوَنَ قَوْمَهُ ، وَقَدْ صَدَقَ

زَهِيرٌ حِينَ قَالَ فِيهِ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جَتَّهُ مَتَهْلَلًا  
كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلَهُ

وَصَدَقَ كَذَلِكَ حِينَ قَالَ فِيهِ :

قَدْ جَعَلَ الْمُبَتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ  
وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طَرِقاً

يُلْقَى السَّماحةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلْقًا  
مِنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عَلَّاتِهِ هَرَمًا

أَفْقَ السَّمَاءَ لَنَالَتْ كَفَهُ الْأَفْقًا  
لَوْ نَالَ حَسْنًا عَلَى الدُّنْيَا بِمَكْرَمَةٍ

فَهِيَا بِنَا نَعْرِضُ أَمْرَ الصلَحِ عَلَى قَوْمَنَا ، وَمَا إِخْلَاهُمْ إِلَّا تَوَاقِينَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ  
أَنْ طَحَنْتُهُمُ الْحَرْبَ طَحْنًا ، وَإِنْ لَمْ تُفْلِّ غَرَبُهُمْ كَمَا صَنَعْتَ بَيْنِ عَمَوْتِهِمْ عَبْسَ .

وَخَرَجَ الْحَارَثُ بْنُ عَوْفٍ مِيمَّا صَوْبَ هَرَمَ بْنَ سَنَانَ ، وَمَا كَادَ يَعْرِضُ  
عَلَيْهِ الْأَمْرَ حَتَّى تَهَلَّلَ وَجْهُهُ ، وَوَضَعَ كُلَّ مَالِهِ بَيْنَ يَدِي الْحَارَثِ إِذَا كَانَ فِي  
الْمَالِ مَا يَزِيلُ الْأَحْقَادَ ، وَيُذْهِبُ الْإِحْنَ ، وَيَعِيدُ لِلنَّفُوسِ هَدْوَهَا ، وَلِلْدِيَارِ أَمْنَهَا ،  
وَيَرْدُ عَبْسًا إِلَى أَوْطَانِهَا ، وَقَدْ شَرَدُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَطَوَّفُوا بِإِنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ .

وَكَانَتْ عَبْسٌ قَدْ مَلَتِ الْحَرْبُ كَمَا مَلَتْهَا ذِيَّانٌ ، بَلْ إِنَّهَا سَمَّتِ التَّطَوَافَ  
بِشَتِّي الْأَمَّاكنِ وَالنَّزُولِ بِمُخْتَلَفِ الْقَبَائِلِ ، يَلْاقَوْنَ مِنْهُمْ عَنْتَّا وَإِرْهَافًا حَتَّى  
قَالَ لَهُمْ قَيسُ بْنُ زَهِيرٍ ، قَائِدُهُمْ وَصَاحِبُ حَرْبِهِمْ : ارْجِعُوهُمْ إِلَى إِخْوَانِكُمْ مِنْ

ذبيان ، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، وقالوا له : سر معنا ، فقال : لا والله ، لا نظرت في وجهي ذبيانية قتلت أباها أو أخيها أو زوجها أو ولدتها .

وسمعت عبس<sup>ب</sup> يسعى الحارث بن عوف بخاءوا ونزلوا عليه ، وذكروا له ما قدموا من أجله ، فكان فرحة بمقدهم لا تسعه الدنيا العريضة ، لأنه وجد في نفوسهم مثل ما في نفسه ، وجدها مهيئة مشوقة للصلح . ودعا هرم بن سنان إليه ، واحتسب كل فريق من القبيلتين قتلاه وتحمل الحارث بن عوف ، وهرم ابن سنان دياتِ مَنْ زاد من القتلى ، فكانت ثلاثة آلاف بعير ، دفعها المоторين في ثلاث سنوات ؟ وَحَمِدَ الناس لهم ذلك الموقف الفذ ، وذاع اسمها في العرب كلها ، ولكنَّ شخصاً واحداً أبى أن يدخل فيما دخل فيه قومه من الصلح ألا وهو حُصين بن ضَمْضم المُرْيَ ، فقد قتل وَرْدُ بن حابس<sup>ب</sup> العبسى أخاه قبل الصلح ، وأقسم لينتقمن له ، فلما علم بالصلح أبى أن ينطع له ، وأخذ يتربَّل الفرصة لمواتيه ليَبِرَّ بيمنيه .

وجاءته الفرصة سريعاً بعد الصلح ، إذ مرَّ به ذات مساء رجل من عبس ، فأخذ يسأله عن نسبة حتى علم أنه من عشيرة ورد بن حابس فقتله ، فثارت بنو عبس ، وكاد الصلح ينتقض ، ونعود الحرب على أشدتها ، ولكنَّ الريبع بن زياد سيد عبس أشار عليهم بأن يركبوا إلى الحارث بن عوف ، فلما علم الحارث بركرتهم إليه ، ورأى في وجوههم الشر وأئمهم عازمون على قتله هو ؛ إذ ظنوا صلحه هذا خُدُعةً منه أرسل إليهم ابنه ومعه مائة من الإبل ، وحيرهم بأن يقبلوا دية قتيلهم مائة من الإبل ، فإن أَبْوَا فه فهو ذا يقدِّم ابنه ليتحقق به الدماء ، ويثبت الصلح . فاستحبى الريبع بن زياد وبنو عبس ، وقبلوا الديمة

وبذلك تم الصلح على يد الحارث وبفضل بُهيسة بنت أوس زوجه .

وقد خَلَدَ الشعراءُ الحارث بن عوف لهذه اليد الكريمة التي طوق بها قومه وذلك حيث يقول زهير بن أبي سامي في معلقته ذاكراً مسعاه هو وهرم ابن سنان في هذا الأمر الجليل :

سَعَى ساعِيَا غَيْظَ بْنَ مُرَّةَ بَعْدَ مَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالدَّمِ<sup>(١)</sup>

فَأَقْسَمَتْ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهِ رَجُلُ بَنْوَهِ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرْهُمْ<sup>(٢)</sup>

يَمِينًا لَنَعْمَ السَّيْدَانَ وَجَدَتْهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمَبْرِمٍ<sup>(٣)</sup>

تَدَارَكَتْهَا عَبْسًا وَذِيَانَ بَعْدَ مَا تَفَانَوا، وَدَقَّوْا بَيْنَهُمْ عَطْرَ مَنْشِمٍ<sup>(٤)</sup>

وَقَدْ قَلَتْهَا إِنْ نَدِرَكَ السَّلْمُ وَاسْعَا

فَأَصْبَحَتْهَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطَنٍ بَعِيدِينَ فِيهَا مِنْ عَقُوقٍ وَمَأْمَامٍ

عَظِيمَيْنَ فِي عُلَيَا مَعَدٍ هُدِيَّهَا وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَبْرًا مِنَ الْجَدِ يُعَظِّمُ<sup>(٥)</sup>

وَاسْتَقْبَلَتْ بُهِيْسَةُ الْحَارِثُ بْنَ عَوْفَ حِينَ تَمَّ لَهُ الْصَّلْحُ، وَخَلَدَ فِي الْعَالَمَيْنِ

بِمَا يَلِيقُ بِمَكَانِهِ وَسُعِيَهِ ، وَوَضَعَهَا الْحَارِثُ مِنْ فَوَادِهِ فِي السُّوَيْدَاءِ ، لَأَنَّهَا كَانَتْ

إِمْرَأَ أَيْنَ مِنْهَا النِّسَاءُ !

(١) تَبَزَّلَ الْجَرْحُ : إِذَا تَشَقَّقَ وَخَرَجَ مَا فِيهِ ، كَانَ الْقَوْمُ فِي وَئَامٍ وَوَحْدَةٍ ، فَتَشَقَّقَ أَمْرُهُمْ ، وَانْصَدَعَتْ وَحْدَتُهُمْ .

(٢) السَّيْدَانُ : الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ ، وَهَرَمُ بْنُ سنانٍ ، وَكَلَاهَا مِنْ ذِيَانٍ ، وَالسَّحِيلُ : الْحَيْطُ الْمُفْتُولُ عَلَى قَوْةٍ وَاحِدَةٍ ، وَالْمَبْرِمُ : الْمُفْتُولُ عَلَى قَوْتَيْنِ ، وَالْمَعْنَى : لَنَعْمَ السَّيْدَانَ وَجَدَتْهَا حِينَ تَفَاجَأَنَّ لِأَمْرٍ قَدْ أَبْرَمَهَا ، وَأَمْرٍ لَمْ تَبْرِمْهَا ، أَىٰ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي شَدَّةِ الْأَمْرِ وَسُهْوَتِهِ .

(٣) مَنْشِمٌ : امْرَأَةٌ كَانَتْ تَبِعُ الْعَطْرَ ، وَقَدْ تَحَالَفَ جَمَاعَةٌ عَلَى الْقَتْلِ وَغَمَسُوا أَيْدِيهِمْ فِي عَطْرَهَا ، وَدَخَلُوا الْحَرْبَ فَقَتَلُوا جَمِيعًا ، فَضَرَبُتْ مَثَلًا فِي التَّشَاؤُمِ ، وَقَلِيلٌ غَيْرُ ذَلِكَ .

(٤) يَعْظِمُ أَىٰ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، أَوْ يَصِيرُ عَظِيمًا .

## السخن العداء<sup>(١)</sup>

كان المهاجر بن عبد الله والى العامة ذات يوم جالساً في حاشيته ، وكل من له قضية يبغى الفصل فيها ، أو طلبة يروم قضاها ، أو ظلم وأراد النصفة والعدل ، دخل على الأمير ناثراً بين يديه خبيثة نفسه ، ودخلية أمره .

والمهاجر بن عبد الله ينصت ويفكر ، ويستشير ذوى الرأى من جلسائه ويصدر أمره . ولما انقضى عليه بعض الوقت وهو يوزع العدل على الرعية ، ويغيث المكروب ، وينصف المظلوم ، ويعين المحتاج ، أحضر بين يديه أعرابى جلف ، خفيف اللحية ، أشعثُ الشعر ، في وجهه ندوبُ جراح قدمة ، قصيرُ الثياب ، نحيفُ البدن ، مفتولُ العود ، يحيط به رجال الشرطة في حرص وعناية كأنهم يخشون إفلاته ، أو كأنه شيء ثمين أحرزوه بعد جهد وعناء وما كان لهم أن يفرطوا فيه .

ولما مثلوا بين يدى الأمير قال أحدهم :

— هذا يا مولاى سُحيم الأزدي ، الذى رَوَّعَ الآمنين ، وقطع الطريق وعاش فى البلاد فساداً ، وقتل وسرق ، والذى طالما طاردناه وتمينا القبض عليه وقد أمكننا الله منه بعد طرداد عنيف ، وقد ألح عليه السُّغْبُ وقلة ما بالبيداء من خير ، لشدة الجدب لهذا العام ؟ فورد هذه المدينة عليه يجد ما يقيم بها أوده ويمسك ذماءه ، يمشى على حذر خائفاً يتربى ، وقد راب أمره أحد رجاله فأرسل إلى من أنبأنى خبره دون أن يضع عنه بصره ، وما أن رأيته حتى

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٨٧ وقصص العرب ج ٢ ص ١٩ .

عرفته ، وقد لخنی فقر كأن به مساً من الشيطان ، أو أنه قد رأى شبح الموت .  
ولكنتنا طاردناه حتى أمعن في الصحراء فلم نقلع عنه إلا وهو مغلول اليدين  
يرُسُف في القيود .

فقال الأمير : أحقاً ما يقول الشرطي يا سحيماً ؟

— هو بعض الحق يا مولاي .

— أو عندك شيء آخر ؟

— إنني لا أرها بالسلب والقتل . ولكن مضى علىَّ حين من الدهر ،  
وأنا اقتحم الصعب ، وأرد المكاره في سبيل الرزق ، وقد أخذت للأمر عدته  
فكان لي بغير لا يُسبق ، وخيل لا تُتحقق . وإذا خرجت في غزاة أو غارة  
لا أرجع خائباً ، وعندي جنان كالجبل الأشم لا تزاله الحوادث وتروّعه  
السكواط ، ويد صناع ماهرة في القتال بشتى فنونه وأدواته .

ولم أكن أتورع عن قتل من يعترض سبيلي ويزنحني في طريقه ؟  
أو من يروم بي سوءاً ، ويبلغني إحباط مسعاه ، وإفساد تدبيري . وكان ذلك  
سفهاً وطيشاً أعترف بهما بين يدي الأمير ، لا عن خوف من عقاب أو طمع  
في عفو ؛ فإني على يقين من عظم الجريمة وكبر الإثم ، ولكنهما الحقيقة ، وعهد  
أخذته على نفسي منذ زمن ألا أقول مَيْناً .

— أو لم يكن لك في قوتك وشجاعتك ما يعنيك عن قتل الوادعين  
الآمنين ، وسلب عباد الله ، وما يجلب لك الرزق الحلال ؟ وإذا كنت عاجزاً  
من الكسب ، فهلا جأت إلينا لتعطيك من بيت المال ونذر لك أمرك ؟  
اللهُم إن ذنبك لعظيم . والآن أخبرني يا سحيماً عن بعض عجائبك قبل أن

نفضل في أمرك وندعك حكم الله .

— أيها الأمير — لازلتَ مؤيداً — إني والله لا أخشى الموتَ وقد اقتحمت عليه عرينَه مراتٍ ومراتٍ ، وتمثلتُ في كل خطوة في غارة ، وكل ثانية في طريق ، وكيف لي أن أهابه اليوم وقد بلغت من العمر ما بلغت : وإنني أقول غير معذر عن نفسي : إن ما دفعني إلى ما فعلت هو غرورُ الشباب ، وجرأة الجنان ، وسوء الصحة ، وتصريف القضاء . ولقد كنتُ موقناً أن هذا اليوم آتٍ لا ريبَ فيه إن عاجلاً وإن آجلاً ، وإن نجوتُ في الدنيا فلن أسلم في الآخرة .

أما عن عجائبي فكثيرة ، ومن أعجبها أنني خرجت في يوم قاءظٍ يتوجه لهما ، وقد التمست شيئاً أطعْمُه فلم أجده ، وخلفتُ ورأي صبيةً يتضاغون من الجوع وألقيتُ لا أرجع حتى أغ内幕هم هذا الحِمَّاً ولبناً ، ومضيتُ في طريق لا أجده إلا رملاً سافياً ، وصخوراً عاتيةً ، ويباباً قفراً خلا من الزرع والضرع . ولما اشتد بي الجوع حتى كدت أهلك وارتدى عن عزمي ، شاهدت ضباباً يُطلُّ برأسه من جحْر ، فأنفتحت راحلتي ، وقلت لنفسي سأتأتي به حتى يأتي الفرج . ثم مددت يدي إلى جحْره ولما صار في يدي عافته نفسى على ما بى من جوع ، فعلقته على قَتَبٍ بعيري ؟ خشيةً ألا أجده سواه وأضطر إلى أكله . وانطلقتُ في طريقي وأنا لا أكاد أتماسك إعياء وسُبْغاً ، ثم مررت على خباءٍ واسع عليه مظهر الثراء والرخاء وليس به إلا عجوز شمطاء . فقلت لنفسي أخلقُ بهذا الخباء أن يكون له رائحةً من غنم أو إبل ، ودنوتُ من الخباء خفيت العجوز ، فردت التحية وقالت :

« إني أراك لغباً نصباً ، فهل لك أن تنزلَ على الرَّحب والسعنة ،

وتساًمِرَ زِيداً الليلة فإنه سياًتى عما قليل بالإبل » .

فقلت : « لقد كدت أطلب ذلك من شدة ما بي من الإعياء والجوع لولا أنك تكرمت فسبقت إلى الفضل ، لا زال رزقك موفوراً ، وخيرك مشكوراً » .

وانتحيت ناحية وأرحت بعيري والشمس على وشك الغيب ، وقد بدا على وجهها الصفرة والشحوب كأنها جزعة من فراق هذه الأرض ، أو كأنها مجدهلة عيبة من عناه يومها ، وطول سفرها ، وأخذ أديم الأرض يبرد ، وهواء الصحراء يرق ويلطف . وما أن توارت الشمس بالحجاب ، ونشرت في الأفق ثوبها الأرجواني تلوّح به لهذه الدنيا مودعة قبل أن تدخل في سجوف العتمة حتى طاعت علينا مائة من الإبل الضخمة وفيها شيخ عظيم البطن كبير الهمامة ضخم الجثة كثير اللحم والشحم ، ومعه عبد أسود عملاف ، عنيف المنظر ، شتيم الوجه ، غليظ الشفتين . مكتنز البدن .

فلما رأى الشيخ رحب بي ترحيب الججاد الذى يهش للضيف ويسر ، يقدمه ، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها ، وناولنى الإناء فشربت ما يشرب الرجل ، وهو ينظر إلى بعين فاحصة فأخذ ما تبقى فضرب به جبهته ، ومن ثم قام إلى تسعه أينق فاحتلبهن جميعاً ثم شرب كل البنهن ، وأنا أصعد فيه بصرى وأتعجب لبطنته وعظم شهيته . ولقد خنته والله سينفجرا أو أن جوفه لا قرار له ولما انتهى بما كانه لم يتناول شيئاً ، ونظر إلى وهو يبتسم ثم قال :  
— والآن سنطهى طعامنا .

فقلت لنفسي : « ليس هذا إلا وحشاً يمشي على رجلين ، أبعد هذا اللبن

كَلَه يَجِد فِي أَمْعَائِه مَتْسِعًا لِطَعَامٍ » ، وَلَكِن رَاعَنِي وَأَيْمَ اللَّهُ أَنَّه عَمِد إِلَى حِوارٍ<sup>(١)</sup>  
حَنِيدٌ فَذَبَحَه وَطَبَخَه وَدَعَاهُ لِلطَّعَامِ مَعَهُ ، فَأَكَلَتْ مَا يَأْكُلُ الرَّجُل ، وَتَرَكَتْهُ  
يَنْهَشُ الْأَلْحَمُ نَهْشًاً وَيَلْقَى الْعَظَامَ بِيَضَّا ، حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ كَلَه لَمْ يَفْكَرْ فِي عَجُوزٍ  
أَوْ عَبْدٍ ، وَأَنَا أَزْدَادُ مِنْهُ عَجَبًاً وَأَقُولُ : أَخْلَقَ بَذِي الْبَطْنَةِ أَنْ يَكُونُ خَوَارًاً  
صَعِيفًاً قَلِيلًاً الْهَمَةَ . وَهَذَا لِعْمَرِي مَا أَبْغِيهِ فِي لَيْلَتِي تِلْكَ . وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ  
طَعَامِه لَمْ يَعْدْ لَدِيهِ مَيْلًا لِلْسَّمْرِ أَوِ الْحَدِيثِ وَلَكِنَّه تَقَلَّ وَتَرَاهُ وَأَخْذَ  
الْكَرْبَى يَدَاعِبُ أَجْفَانَه ، فَخَثَا كُومَةً مِنَ الرَّمْلِ وَتَوَسَّدَهَا ، وَرَاحَ يَغْطِطُ غَطِيطًاً  
الْبَكْرَ شَدَّ عِقالَه .

أَخْدَتْ أَتَأْمَلُ هَذَا الْجَسْمَ الطَّوِيلَ الْمُمْتَدَ ، وَهَذِه الْمَعْدَةُ الَّتِي تَعْلُو وَتَنْخَفِضُ  
مَعَ النَّفَسِ وَقَدْ تَكُورَتْ وَبَرَزَتْ ، وَهَذَا الإِهَابُ الْخَشْنُ ، وَالْيَدُ الْجَاسِيَّةُ ،  
وَالْقَدْمُ الْغَلِيظَةُ ، وَالرَّأْسُ الصَّخْمُ ، وَالْجَهْنَةُ الْمُنْتَفَخَةُ ، وَقَلْتُ بَعْدَ أَنْ تَيقَنْتُ أَنْ  
النَّوْمُ قَدْ جَرَهُ إِلَى بَئْرِهِ الْعُمِيقَةِ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ كُلُّ التَّكَنِ : هَذِه وَاللَّهُ لِغَنِيمَةِ ،  
وَأَنَّهُ لَهُذَا الْبَطْنَ أَنْ يَنْتَهِ مَنْ يَسْطُو عَلَى إِبْلِهِ وَيَطْرُدُهَا . ثُمَّ قَمَتْ إِلَى خَلْ إِبْلِهِ  
فَخَطَمَتْهُ<sup>(٢)</sup> ثُمَّ قَرَنَتْهُ إِلَى بَعِيرِي ، وَالْتَفَتْ فَوْجَدَتِ الْعَبْدُ قَدْ لَحِقَ بِسَيِّدِهِ فِي مَهَامِهِ  
النَّوْمُ ، فَزَادَنِي ذَلِكَ إِقْدَامًا ، وَصَحَّتْ بِالْفَحْلِ فَاتَّبَعْنِي ، وَاتَّبَعَتِهِ الْإِبْلُ فَصَارَتْ  
خَلْفَ كَانِهَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ ، وَأَخْدَتْ أَحْدَوْ وَأَغْنَى وَأَجْدَ السَّيْرَ ، وَبَعِيرِي يَكَادُ  
يَطِيرُ سَرْعَةً ، وَمَعَ هَذَا مَلَأَهُ ضَرَبَا بِالْيَدِ ، وَرَكَلا بِالرَّجُلِ وَكَنْتُ أَقْصَدَ ثَنَيَّةً<sup>(٣)</sup>  
يَنْيِي وَيَنْيِهَا مَسِيرَةً لَيْلَةً لِلْمَسْرَعِ ، فَبَلَقْتُهَا فِي مَطْلَعِ الْفَجْرِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مِنْ الْجَهَدِ  
كُلَّ مُبْلَغٍ .

(١) الحوار : ولد الناقة . (٢) وضع في المطام وهو ما يوضع في أقفه ليقاد به

(٣) الثنية : المحنى في الطريق .

أخذ الليل يلملم أطرافه السجم في عجلة وذعر ، وجحافل التهار والنور  
ترزحف مسرعة وتنشر أوليتها في الخافقين ، فأبصرت الثنية ، فتحقق قلبي فرحاً  
وقلت : نجونا بالإبل . ولكن راغني حين نظرت إليها ثانية أن عليها سواداً  
لم أتبينه بادي الأمر ، ولم أعرف كنهه وأخذت أحدث نفسي وأقول : ترى  
ما هذا ؟ أقطع طريق مثل ي يريد أن يغصبني ما تجشمت في سبيله الصعاب  
وسهر الليل ووعثاء السفر وعناءه ؟ ، فلما دنوت منه إذا أنا بالشيخ قاعداً وقوسه  
في حجره ، فارتعدت ورب الكعبة ، وقلت : ما هذا إلا شيطان مارد ، كيف  
استطاع أن يسبقني إلى هذه الثنية وأنا راكب وهو راجل ، وقد قضيت الليل  
أحدو الإبل وأغدر السير غدا وأحثها على السفر حتى شديداً ، وقد تركته نائماً  
يقط غطياً منكراً ، وبطنه ممتئلة تكاد تنفجر تحنة ، وقد قضى يومه تبعياً  
نصيراً يرعى الإبل في الوادي وإنه بعيد !؟ .

وقفت بالإبل على بعده ، وأخذت أقلب طرف في هذا المخلوق العجيب  
ووجده لم يحرك ساكناً بل ظل في مكانه قاعداً كأنما ينتظر مني أن ألقى  
بنفسي بين يديه ، واستسلم له طوعية ، ولما رأني لم أفعل وقد بدا الاهتمام  
والتفكير على محياى قال وهو بعد في جلسته :  
— أضيقنا ؟ .

قلت : نعم !

وأنا أحس بما في هذه الكلمة ، وما في لمحته من التأنيب والتوبخ .  
ولكن أني مثل أن يهزه التأنيب والتقرير وينال منه ، وقد فعل ما فعل وهو  
( م - ٢٧ )

على يينة من أمره . وحملقت فيه متحدياً كأنى أشعره بثبات الجنان وعظم  
المنة : فقال :

— أتسخو نفسك عن هذه الإبل ؟ .

قلت : لا . ( وقد فهمت مغزى سؤاله وما فيه من تهكم لاذع ، ولكنني  
تماسكت وتجملت ) .

فأخرج من كناته سهماً كأن نصله لسان كلب ، ثم قال :

— ترى هذا الضب الذي علقته على قتيبك ؟ .

قلت : أجل .

قال : أبصر بين أذنيه .

ثم رماه فصفع عظمه عن دماغه . ونظر إلى ثم قال :

— ما تقول ؟ .

قلت : ( وأنا والله أتهييه وأخاف شره ) : أنا على رأي الأول ! .

قال : انظر لهذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى ..

ثم رمى به دون عناء و كانه يلهمو ، جاء في الفقرة الوسطى كأنما قدره  
بيده ثم وضعه بأصبعه ، ثم قال :

— أرأيت ؟ .

قلت : إنني أريد أن أثبتت :

وأنا في هذا أحاول أن استند بأسمه وأعلم مبالغ مهاراته التي لا أرتاد  
فيها ، وقد ازداد إعظامي له ، وخوفي منه ؛ ولو لا الحياء وبقية من رجولة  
وشجاعة لأنقيت نفسى تحت قدميه ، لأنى مهما أوتيت من قوة لن أصل إلى

دربته وتفوقة الجسمى ، وأيده وجلده . فقال :

— انظر هذا السهم الثالث فى أصل ذنبه ، والرابع والله فى بطنك .

ثم رماه ولم يخطئ موضعه ، وكأنما أزال هذا السهم كل ما فى نفسي من ريبة وأدركت أنى قد وقعت من هذا الشيخ على داهية خبيث من شياطين الصحراء ، الذين ترسوا بها وعركوا الحوادث وعركتهم فما ازدادوا إلا جرأة

وصلابة فقلت :

— هل أنزل آمناً ؟ .

قال : نعم .

فتعجبت من سماحته وعفوه عنى ، وقد خنت عهده بعد أن تحررت بذمامه وأكلت من طعامه ولم أرع حق الضيافة . وقد أراني من كفايته وسرعة عدوه وشدة أيده ، ومهارة يده ما أثبت تفوقه على ، وإن في مكتنته أن يرديني قتيلاً واحدة من هذه الأسهم اللعينة قبل أن أدنو منه وأعرف أى شخص هو ، ولكنه أبي إلا أن يكون سمحاً كريماً .

فنزلت ودفت إليه خطام الفحل وقلت :

— هذه إبلك لم يذهب منها وبرة .

وأنا أنتظر متى يرميني سهم يننظم قلبي ، فلما تحيطت قال لي :

— أقبل ! .

فأقبلت والله خوفاً من شره لا طمعاً في خيره .

ودنوت حتى صرت بين يديه ، وهو يبتسم لى ويجرثى على القدوم ، وأنا أتهببه وقد جف ريقى ، وتصبب العرق من جبينى ، وعلى وجهى الخزى

وأنخبيه ، وكنت منه كـ يكون الولد الصغير المذنب أمام والده الوقور ، فقال :  
— أى هذا ! ما تظن أنى فاعل بك ؟ .

فقلت لا أدرى ، ولكنك تقدر أن تفعل الكثير ، لو لأنك أمنـت نزولـي .

قال : ما أحـسبـك جـشـمت اللـيلـة ما جـشـمت إـلاـ من حـاجـةـ .  
قلـتـ : أـجلـ .

قال : — لو انتظرت حتى الصـاحـ ، وأـشرـتـ إـلـىـ بـحـاجـتكـ ، وـلـمـ تـخـفـرـ  
ذـمـتـ وـتـتـسـلـلـ فـيـ سـدـفـةـ اللـيلـ يـاـبـلـيـ كـاـ يـفـعـلـ الـلـصـوصـ الـهـيـابـونـ ، لـأـعـطـيـتـكـ رـزـقـاـ  
وـفـيـراـ وـلـكـ أـبـيـ عـلـيـكـ ضـعـفـ هـمـتـكـ إـلـاـ أـنـ تـفـعـلـ مـاـ فـعـلـتـ ، وـلـيـسـ لـكـ عـنـدـيـ  
بعـدـ كـلـ هـذـاـ إـلـاـ بـعـيرـينـ ، فـاقـرـنـهـماـ وـامـضـ لـطـيـتـكـ ، وـإـيـاكـ أـنـ تـعـودـ لـمـلـهـاـ .

كان هـذـاـ أـعـجـبـ من عـفـوهـ السـابـقـ وـحـقـنـهـ لـدـمـيـ ، وـكـانـ أـبـعـدـ مـاـ كـنـتـ  
أـقـدـرـ ، فـوـجـمـتـ وـأـطـرـقـتـ إـطـرـاقـةـ الـخـرـزـيـ ، وـقـدـ أـكـبـرـتـهـ جـداـ ، وـأـدـرـكـتـ أـنـ لـهـ  
قـلـبـاـ كـبـيـرـاـ رـحـيـماـ ، وـنـفـسـاـ سـمـحةـ طـيـةـ سـخـيـةـ . وـلـمـ أـشـأـ أـنـ أـتـرـكـ دونـ أـنـ أـطـلـعـهـ  
عـلـىـ حـقـيـقـةـ أـمـرـهـ عـنـدـيـ . فـقـلـتـ : أـمـاـ وـالـلـهـ حـتـىـ أـخـبـرـكـ عـنـ نـفـسـكـ قـلـيـلاـ ! .

ثـمـ قـلـتـ : وـالـلـهـ مـاـ رـأـيـتـ أـعـرـاـيـاـ قـطـ أـشـدـ ضـرـساـ ، وـلـاـ أـعـدـ رـجـلاـ ،  
وـلـاـ أـرمـيـ يـدـاـ ، وـلـاـ أـكـرمـ عـفـواـ ، وـلـاـ أـسـخـنـ نـفـسـاـ مـنـكـ .

عـمـدـتـ إـلـىـ نـاقـتـيـنـ مـنـ أـسـمـنـ نـوـقـهـ فـقـرـتـهـماـ ، وـمـضـيـتـ فـيـ طـرـيـقـيـ دونـ أـنـ  
أـلـفـتـ خـلـفـيـ ، وـكـنـتـ بـهـذـاـ أـخـسـ ضـيـفـ وـأـدـنـاهـ ، وـكـانـ أـشـبـعـ مـضـيـفـ وـأـسـخـاـهـ .

## عنترة الفوارس<sup>(١)</sup>

في يوم قائل شديد الحر ، يذوب منه أديم الأرض ، ويتوهج الهواء ،  
وتضطرم الرياح ، وقد سكت الريح ، واربد الجو ، وظللت الشمس تصب  
على الأرض شواطئها الملتهب في غير مارحة ، جلس رجل طويل القامة ،  
عظيم الهمة ، ضخم القسمات ، غليظ الشفتين ، صلب العود ، مقتول العضلات  
أسود الوجه كأنه زيبة ، في عبوس وإطراق ؛ وقد رفع عصاه وألقى عليهما  
رداءه ، وقبع تحت هذا الظل الضئيل يستتر من أبواب جهنم المفتوحة ، وحر  
البيداء يلفح وجهه ، وأمامه إبل عديدة ترعى الحسل ، والسعدان ، بعضها  
قائم وبعضها بارك ، وهو في شغل عنها بنفسه .

وبينا هو يعاني من شدة القيظ ما يعاني ، ولا يستطيع الفساد من هذا  
الجحيم المستعر بأن يريح الإبل إلى معاطنها ؛ لأن سيده ، وامرأة سيده يأيان  
عليه ذلك ، إذ جاءه فتى أسود الوجه ، يشبهه قوة وأيداً وbadre بالخطاب :

(١) هذه الصورة لعنترة الفوارس كما استطاعت أن تستخلصها من الكتب التاريخية  
والأدبية المؤثرة بها ، وهي غير الصورة المبالغ فيها كما وردت في قصة عنترة الشهورة  
راجع de Perceval, *Essai sur l'Histoire des Arabe.* II. p, 519  
النصرانية ص ٧٩٤ ، وراجع بلوغ الأرب للألوسي ج ٢ ص ١٢٦ ، ومهذب الأغاني  
ج ٢ ص ٢٦ ، والأغاني ط بولاف ج ٧ ص ١٥٢ ، والكامل للهبرد ، والعقد المثن  
لوليم آل وزد ص ٥١ ، والتبريزى شرح المعلقات ط السلفية ، وابن قتيبة في الشعر  
والشعراء ، وراجع Brockelmann, *Anter-Encyclopedia of Islam* ، وخزانة  
الأدب للبغدادى ط السلفية ج ١ ص ١٢٥ ، وطبقات الشعراء لابن سلام وراجع  
A, Perron. *Lettre sur Anter J. A. décembre 1840, P, 501 — 503.*

— هَأْنَتْدَا ياعنترة ! أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تُرِيحَ إِبْلَكَ مِنْ هَذَا الْأَوَارِ المُشْتَعِلِ .  
— إِنَّكَ تَعْلَمُ يَا أخِي حَنْبَلَ أَنْ شَدَادًا وَامْرَأَهُ سُمِّيَّةُ ، لَا يَقْصُدُانِ إِلَّا  
تَعْذِيبِي ، وَامْتَهَانِي ، وَلَوْرَحْتُ إِلَيْهِمَا الآنِ بِالْإِبْلِ لِأَوْسَعِنِي شَدَادَ ضَرَبًا بِالْعَصَابِ ،  
وَسَلَقْتُنِي سُمِّيَّةُ شَتَّا وَقَذْفًا ، وَلَحَّرَ الْبَيْدُ هَذَا أَهُونَ عَلَى مَا أَلَاقَ مِنْهُمَا .  
وَمَا بِالَّكَ مُشْغُولًا مُهْمُومًا الْبَالِ ؟ هَلْ ثُمَّةَ مَا يُشِيرُ شَجْنَكَ غَيْرَ مَا تَلَاقَيْتُهُ مِنْ  
شَدَادَ وَسُمِّيَّةَ .

— لِيَسْ هَذَا بِالْأَمْرِ الْهَيْئَنِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي مَتَى يَرْعُو شَدَادَ فَلَا يَعْمَلُنِي  
مُعَامَلَةُ الْعَبْدِ ، وَمَتَى يَلْحُقُنِي بِنَسْبَتِهِ ، فَلَا أَطْأَطِي الرَّأْسَ أَمَامَ بَنِي قَوْمِي ، وَهُمْ  
دُونِي شَجَاعَةً ، وَبَأْسًا ، وَإِصَابَةً رَمِيمَةً .

— صَبِرًا يَا عنترة ، وَسِيَلُمُ قَوْمَكَ عَمَّا قَرِيبُ مَكَانِكَ ، وَيَرَوْنَ أَنفُسَهُمْ  
فِي أَمْسِّ الْحَاجَةِ إِلَيْكَ ، وَإِلَى حُسَامِكَ الْبَتَارِ ، وَسَهْمِكَ الصَّائِبِ ، وَسَاعِدَكَ  
الْمُفْتَوْلُ ، وَضَرِبَتِكَ الشَّدِيدَةُ . وَلَقَدْ أَفْدَتْ لِعْنَرَى مِنْ وَحْدَتِكَ هَذِهِ فَصْرَتْ  
أَصْوَبَ النَّاسَ مِنْهُمَا ، وَأَقْوَاهُمْ سَاعِدًا ، لَمْ تَرْسُكَ بِالرَّمَاهِيَّةِ وَأَعْمَالِ الْفَرْوُسِيَّةِ .

— وَاللَّهِ لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي ، وَإِنْ فِي قَابِي مِنْ رَهِيَّاً أَخْشَى أَنْ أَبُوحَ بِهِ  
لَأَحَدٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَقْضِي مَضْبُعِي ، وَيَطْبِرُ الْكَرِيَّ مِنْ جَفْنِيَّ ، وَيَعْتَصِرُ قَلْبِي  
هَمَّا وَكَمَّا .

— وَيَكَ يَا عنترة ! وَمَا سَرَّكَ هَذَا ؟ بُحْ إِلَيْهِ بِهِ ، وَلَكَ عَهْدِي بِالْأَلاَّ  
أَذْيَعِهِ ، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّكَ أَمْلَأُ إِخْوَتِكَ الْمَرْجُوَّ ، وَأَنَّهُمْ إِنْ اعْتَرَفُوا بِكَ وَالْحَقُوقُ  
بِنَسْبِهِمْ ، سَعَيْتُ لِدِيْهِمْ فِي الْاعْتَرَافِ بِنَا ، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ أَشْقاءَكَ . بُحْ لِي بِسَرَّكَ  
لَعْلَّ لَدَيَّ مِنْ الرَّأْيِ مَا يَخْفَفُ عَنِكَ شَجْنَكَ ، أَوْ يَجْدُ لَكَ فِي أَمْرِكَ هَذَا مُخْرِجًا .

إني عاشق يا حَنْبَل ، ولست أعرف لى حيلة أو وسيلة في الوصول إلى قلب من أحبابها ، وإنى لأراها وأنا على ما فيه من امتحان ومذلة ، لا هَمَّ لِي إِلَّا رعى الإبل لشداد وسمية أعلى من السماكين مَنَالا .

— ويَك يا عنترة ! إن هذا الأمر جلل ، وإنك لتتعرف هوان منزلتك في قومك ، وإنى أعرفك راجح العقل ، حصيف الفكر ، كريم النفس ، وما كنت أظن أنك تجهل أمرك ، وتطمح في أن تعشق . ولكن خبرني من التي تيمت عنترة ، وملكت عليه لَبَّه وأرقت جفنيه ؟ .

— ذاك هو السر يا حَنْبَل ؟ .

— يا ابن أمى ، لقد أخبرتك أنى حريص ع عليك ، مؤمن فيك ، وإذا لم تبح بسرك لى فمن عساك يؤتمن عليه ! .

— سيظل دفيناً في فؤادي حتى أقدم بين يدي محبوبتي من باهر الأعمال وكريم الخصال ما يحجب عنها سواد لونى ، وَضَعَة نشأتى ، وحينئذ تبادرنى حبّاً بحب ، ويعرف الناس من أمرها وأمرى ما أنا حريص على إخفائه اليوم .

— أخبرنى باسمها نعلى أعينك في أمرك ، ولا تخش بأسا .

— إنها عبلة بنت عمى معاوية .

— يا الله ! عبلة ! أو تطمح في أن تحبك عبلة ، وأبوها معاوية على ما تعرف من صَاف وَكُبْرَاء ، وَتَيْه وَخُلَاء ، يعتقد أنه أرفع من النعمان مكاناً ، وأعلى من ابن ذى يَزَن شانا ، وكيف السبيل إلى عبلة ؟ ، وعمرو أخوها يزدرىك أينما رأك ، ولا يناديك إِلَّا يا ابن الأمة السوداء ، ولا تملك لقوله ردّاً ، ولا لهجومه عليك صدّاً ، وشداد يمعن في إيدائك وتحقيقك ، وسمية لا تنفك عن

شتمك وتعييرك . لقد أوقعك فؤادك في مأزق حرج ياعتنة ، و كنت أظن أن الأمر أهون من هذا ، فهل إلى العدول عن هذا الحب الذى لا جدوى منه ، ولا خير فيه من سبيل ؟ .

— والله يا ابن أمى ، لقد غالبته مراراً غلبي ، وطردته فاستعصى علىّ ، ولقد فكرت في أمري هذا طويلاً ، ولا سبيل إلى عبلة إلا أن أرتفع بسوءدى وعظيم فعالى إلى مرتبة السيادة والشرف ، وإن أيام عبسٍ لكثيرة ، وسيعرف القوم من عنترة حين يحزنُهم الشر ، ويغشامه اليأس ، ويتامسون الساعد القوى ، والفتى الأبى ، والعقل الذكي ، واللسان الصارم ، والحسام القاطع فلا يجدونه إلا لدى عنترة ، فصبراً صبراً ، وإياك أن تنم علىّ ، أو تشى بي ، فتفسد من الأمر ما دبرت وتنقض علىّ ما قدرت وأحكمت .

— لك علىّ عهد الله ياعتنة أن أحفظ سرك في مكنون فؤادي ، حتى تنال أمنيتك ، وتحقق طلبتك ، وإن كنت في يأسٍ من أمرك ، ولا أجده له منفرجا ، والآن أتركك للتفكير في عبلة ، وعسى أن يأتي الله بالفرج أو أمر من عنده .

و قضى عنترة يومه هذا في تفكير وتدبر ، وليس له منأمل إلا في ساعده القوى ، وفؤاده الأبى ، وخلاله السكريمة ، وما أن أتى المساء حتى ساق إبله إلى معاطن شداد ، ولما رأته سمية نادته :

— هل حلبت الإبل يا عنترة ؟ .

— لقد أتيت بها تواً ، وسأحلبها الآن فناوليني الأوعية .

— يا عبدَ السوء ! ، إنك لتعلم مكان الأوعية ، فما زدت على أن جعلتني

لَكَ خادِمًا ، يَا ابْنَ زَيْبَةَ ، يَا مُشْقوقَ الْمُشْفَرِينَ ، يَا رَاعِي الْإِبْلِ ، تَالَّهُ لِأَخْرَنْ  
شَدَادًا بِأَمْرِكَ ، وَإِنْ لَمْ يُؤْدِبْكَ فَلَنْ أَقِيمَ مَعَهُ فِي بَيْتِ يَأْوِيلِكَ .

وَجَاءَ شَدَادٌ وَهِيَ تَنْهَى عَنْتَرَةَ سَبَّاً ، وَتَبَرَّقَ وَتَرَعَدَ ، وَتَهَدَّدَ وَتَتوَعَّدَ ،  
وَمَا أَنْ رَأَتْهُ حَتَّى هَوَّلَتْ لَهُ فِي عَصِيَانِ عَنْتَرَةِ لِأَوْامِرِهَا ، وَأَنَّهُ أَبِي أَنْ يَحْلِبَ  
الْإِبْلَ ، فَتَنَاهَ شَدَادُ عَصَّاً غَلِيلَةً ، وَأَخْذَ يَضْرِبُ عَنْتَرَةَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَّ مِنْ قُوَّةٍ ،  
وَهُوَ مُسْتَلِمٌ لِضَرِبِهِ وَمَا أَمْعَنَ فِي إِيذَائِهِ وَهُوَ صَابِرٌ لَا يَتَكَلَّمُ أَوْ يَتَأْوِهُ ، ارْتَمَتْ  
سَمِيَّةٌ عَلَى عَنْتَرَةَ تَحْمِيهِ مِنْ ضَرِباتِ شَدَادَ ، وَتَشَفَّعَتْ لَهُ ، وَأَنْقَذَهُ مِنْ يَدِيهِ وَهِيَ  
تَبْكِي لِمَا أَصَابَهُ فَانْفَلَتْ وَهُوَ يَقُولُ :

أَمْ سُمِيَّةَ دَمُ العَيْنِ مَذْرُوفُ  
لَوْ أَنْ ذَا فِيلَكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ  
تَحْلَلْتَنِي إِذَا هَوَى الْعَصَاصِبِيَّ  
كَانَهَا صَنْمٌ يَعْتَادُ مَعْكُوفٌ  
الْعَبْدُ عَبْدُكَ وَالْمَالُ مَالُكُ  
فَهُمْ عَذَابُكَ عَنِ الْيَوْمِ مَصْرُوفُ؟  
وَمَضَى عَنْتَرَةَ كَسِيفًا حَزِينًا ، يَنْدَبُ كَرَامَتَهُ الْمَهَانَةَ ، وَحَبَّبَ الدَّى لَا أَمْلَ  
فِيهِ ، وَرَأَى فَتَيَانَ الْحَى يَسْمُرُونَ ، وَيَشْرِبُونَ الْخَمْرَ ، وَيَسْمَعُونَ الْغَنَاءَ ، فَلَمَّا  
مَرَّ بِهِمْ لَمْ تَحْدُثْهُ نَفْسَهُ بِالجلوسِ مَعَهُمْ ، وَأَنَّى لَهُ أَنْ يَفْعُلَ مَثْلَ مَا يَفْعَلُونَ ، وَهُوَ  
لَا يَمْلِكُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا نَقِيرًا ، أَوْ قَطْمِيرًا ، وَهُمْ بِهِ يَتَغَامِرُونَ ، وَلَهُ يَحْتَقِرُونَ ،  
وَلَا يُطِيقُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ أَحَدِهِمْ كَلَةً نَازِيَّةً ، فَرَبِّمَا ثَارَتْ نَفْسُهُ ، فَوَكْرَهَ ، فَقَضَى  
عَلَيْهِ ، وَهُوَ إِنْ احْتَمَلَ سَمِيَّةَ وَشَدَادًا فَلَأَنَّهُ أَبُوهُ ؟ وَهِيَ امْرَأَةُ أَيْهِ ، وَلِلْأَبِ  
حُرْمَتُهُ وَمَهَابَتُهُ .

وَبَعْدَ أَيَامٍ قَضَاهَا عَنْتَرَةَ فِي غَمٍّ وَهَمٍّ ؛ يَغْدُو بِالْإِبْلِ نَهَارًا ، وَيَرْوَحُ بِهَا  
لِيَلًا ، لَا يَكْلُمُ أَحَدًا ، وَلَا يَحْيِي سَمِيَّةَ ، وَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا طَعَامًا ، سَمِعَ أَنْ قَوْمَهُ

يُستعدون للغارة على طيء أخذًا بثار قديم ، فأخذ يشحذ سيفه ، ويريش سهامه  
ويعد رمحه ، وقال : قد جاءتك الفرصة يا عترة وسييلو القوم بلاءك ،  
ويعرفون مضاءك .

وما هي إلاّ ساعة حتى تداعى القوم ، وخرجوا وخرج شداد ودعا عترة  
ليكون بجانبه وقت الغارة ، وفرح عترة حين دعاه شداد وركب القوم ،  
وتسبقو نحو العدو ، وصادفوا منه غرة ، وكانت المعركة عظيمة أبلى فيها عترة  
بلاءً عظيمًا ، فلم يقف في سبيله فارس إلا جندله بضربة واحدة ، وإذا فر  
منه فوق إليه سهماً مريضاً محكمًا فأصماه خر صريعاً يتسلل في دمه ، واتهت  
المعركة سريعاً بعد أن غنم بنو عبس مغانم كثيرة .

ولما وصلوا إلى ديارهم أرادوا أن يقتسموا ما غنموا ، وأراد عترة أن يأخذ  
نصيبه كأحدهم ، وهو من خبروا وعاينوا نجدة ، وقوة وفتوة ، ولكن القوم  
ردوا عليه في صلف بالغ ، وعنجهية وغضبه : ليس لك مثل نصيب أحدنا ،  
لأنك عبد ، فارض بالنصف إن شئت . فشار الدم في وجه عترة ، وعلاه الغضب  
واعتز لهم ، ورفض أن يأخذ من الغنيمة فتيلاً ؟ وتصاحلك القوم حين تركهم  
عترة محنقاً مغيظاً ، وقال عمرو ابن عمه وعنترة يسمع قوله : تبا لهذا العبد ! ،  
الذى يعرف ضعة أمره ، وهو ان شأنه ، ولا يرعى عن أنفته الكاذبة ، وتعففه  
المصطنع ، انظروا إليه كيف يمشي خزيانَ كسيفاً ، ومهموماً أسيفاً ، تقطع نفسه  
حسرات على الغنيمة التي صدف عنها ، ونظر القوم إلى عترة وهو منصرف عنهم  
نظرة الشماتة والحسد وهم يتغامزون ويتصاحكون .

وكانت نفس عترة تقطع حقاً ، لا أسفًا على غنيمة زائلة ، ولكن أسى

على كرامة متهنة ، ونكران وقع للجميل ، ونفس أبى طموح لا تجد من يقدرها قدرها ، بيد أن اليأس لم يتملك أزمة فؤاده ، وراح يعنى نفسه ، بأن قومه عما قريب سيسنجدون به وهم في أمس الحاجة إلى سحر بيته ، وجراة جنانه ، وحر سنانه ، وأنه سيرغبهم صاغرين على الاعتراف به قبل أن ينقد لهم من مخالب الموت أو العار أو الهزيمة .

وانصرف عنترة إلى إبله يرعاها في الصحراء ، غير مخالط لقومه ، أو آخذ فيها يأخذون فيه من لهو ومتعة ، عاكفاً على نفسه في وحدة تامه ، وصمت مطبق كأنه متبعيد يتحصن في محراب الطبيعة ، أو أسد جريح يسترد عافيته ، ويتظاهر الشام جراحته ؛ ولم يكن يغشاه ، ويقطع عليه وحدته إلا آخره حنبل ، يأتي له بالطعام كل يوم ، ويحادثه في شئون قومه ويسليه ويعزيه ويُمنيه ، ويتطرق الحديث غالباً إلى عبلة وحبها ، ويبيشه عنترة كامن شجنه ، وبالغ أساه وحسنته على حبه الضائع ، وحالته الزرية لينفس عن لواجمه المكبوة ، ويختفف من آلامه المبرحة .

ولم يطل الزمن بعنترة ، فإن بني طيء ، كانوا يقيمون على وترٍ منذ أغار عليهم العبسيون ، وقد أخذوا للثار أهابته وأعدوا له عدته ، وساروا في جحافل عديدة .

بكل مجـرـب كالليث يسمـوـ على أوصـالـ ذـيـالـ رـفـنـ<sup>(١)</sup>  
وـضـمـرـ ، كالقـدـاحـ مـسـوـمـاتـ علىـهاـ مـعـشـرـ أـشـيـاهـ حـنـ<sup>(٢)</sup>

(١) الأوصال : المفاصل أو مجتمع العظام ، جمع وصل . ذيال : ذو الذيل ، والرفن : طويل الذيل وأصلها رفل .

(٢) شبه الخيل الضامرة بالسهام ، مسومات : معلمات لها دراية بالحرب .

وأغاروا على بني عبسٍ ذات صباح وال القوم بعد نیام ، فأخذوهم على غرّة  
وأمعنوا فيهم قتلا قبل أن يفيقوا من هول المفاجأة ، واستاقوا نعمهم وإبلهم ،  
وأسرعوا عائدين إلى ديارهم ، واجتمع شباب عبسٍ ورجالها ، وفرسانها ، وصرخ  
النساء يصمُّ الآذان : ويستhort القوم على استنقاذ أموالهم ، والأخذ بثأرهم ،  
ودماء أبنائهم ، وتهيأ الفرسان للحاق بالعدو ومطاردته ، وركب عنترة فيمن  
ركب مليياً دعوة شداد والده ، ولكنه أبرم في نفسه أمراً ، وعزّم عزماً لا  
يستحيت في القتال ، ويستنقذ الأموال إلا إذا اعترف به شداد وحطّم عنه  
غلَّ العبودية .

وسْرُ عان مالحق بنو عبسٍ بالغزارة الموقرين بالغنائم ، والسائلين بسرعة  
الإبل ، والتفت لهم بنو طيء يدفعونهم عن أسلابهم ، والتجمُّ الفريقيان ،  
وعنترة لا يقاتل إلا مدافعاً ، وكادت الهزيمة تتحقق بالعبسيين ، ورأى شداد من  
عنترة نكوصاً عن القتال ، وحضرًا في المدافعة ، وأنه لا يصوّل ولا يجحول كعادته  
فضاح به :

— كُرَّ يا عنترة ! .

— العبد لا يحسن الكفر . وإنما يحسن الحِلاب والصَّرْ .

— كرَّ يا عنترة ! ، كرَّ وأنت حر .

وهنا امتلأت نفس عنترة زهواً ، وعاد إليهم نشاطها المفقود ، وأملها  
الضائع ، وومض أمام عينيه بريق المستقبل الباسم ، وتمثلت له عبلة بشبابها  
الريان ، ووجهها الفتان ، وكأنها تناديه أن يغسل عن قومه العار والشنار ،  
وأن يرد عاديةَ المغيرين لتعيش في أمن ودعة . فتجمعت كلُّ هذه الآمال في

نفسه واضطربت في حنايا صدره ، فارغى وأزبد ، ورأى أن كلَّ حياته معقودة في ظُبَّةٍ حُسَامِه وسنانِ رمحِه ، فَكَرَّ نَحْوَ الْعَدُوِّ كَرَّةَ الْأَسْدِ الرَّبَّالِ يَحْمِي عَرِينَه ، وَخَاضَ غَمَارَ الْمَعْمَةِ أَشَدَّ بَنَى قَوْمَه بَأْسًا ، وَأَفْظَعَهُمْ بَطْشًا ، فَتَحَمَّاهُ الْفَرَسَانُ ، وَتَجَاوَفُوا عَنْ طَرِيقِه ، وَهُوَ يَعْنُونَ فِيهِمْ قَتْلًا كَأَنَّهُ الْبَرْكَانُ التَّائِرُ ، أَوَّلَ الْقَضَاءِ النَّازِلُ ، لَا يَصِيبُ إِلَّا أَصْمَى ، وَلَا يَضُربُ إِلَّا صَرَاعٌ ، يَعْدُ إِلَى السَّكَّى الْمَدْجُجِ بِالسَّلاحِ ، الَّذِي كَرِهَ الْأَبْطَالُ نَزَالَهُ فِيرَدِيهُ ، وَإِلَى الْفَتَى الْجَلْدِ الصَّبُورِ عَلَى الْقَتَالِ فِي صَمِيمِه ، وَهُوَ يَقُولُ :

وَمَدْجَجٌ كَرِهَ الْكَاهُ نَزَالَهُ  
لَا مُعْنَىٰ هُرْبًا ، وَلَا مُسْتَسْلِمٌ  
جَادَتْ يَدَىَ لَهُ بِعَاجِلٍ طَعْنَةٌ  
بِمَتْقُفٍ صَدْقٍ الْكَعُوبُ مُقَوْمٌ  
فَشَكَكَتْ بِالرَّمْحِ الْأَصْمَ ثِيَابَهُ  
لِيسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمَحْرَمٍ  
فَتَرَكَتْهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَذْشِنَهُ  
وَرَأَتْ طَيِّءَ أَنَّهَا أَمَامٌ مَارِدٌ مِنَ الْجَانِ ، يَفْتَكُ بَهْمَ فَتَكًا ذَرِيعًا ،  
وَلَا يَنْالُونَ مِنْهُ شَيْئًا ، أَوْ أَنَّهُمْ أَمَامٌ سَيِّلٌ يَهْدُرُ يَحْتَاجُ كُلَّ مَا يَعْتَاقُ سَبِيلَهُ ،  
وَيَهْدُ صَفَوفَهُمْ هَدًّا ، وَأَنَّهُمْ يُفَوَّقُونَ إِلَيْهِ سَهَامَهُمْ حَتَّى إِذَا ظَنَّوا أَنَّهُمْ أَصَابُوهُ  
تَلَبَّبَ فَرْسَهُ ، أَوْ التَّوَى تَحْتَهَا ، أَوْ نَزَلَ عَنْهَا مَتَجْنِبًا تَلَكَ السَّهَامُ ، ثُمَّ اعْتَلَاهَا  
فِي سُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ وَوَثَبَ عَلَى الرَّامِينَ فَانْخَلَعَتْ لَوْثِنَتِهِ قَلْوَبَهُمْ وَوَلَوْا الْأَدْبَارِ .  
وَرَأَوْا أَنَّهُمْ إِنْ اسْتَمْسِكُوا بِالْغَنَائمِ ، وَتَمَادُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْهَا ، فَقَدُوا أَنْفُسَهُمْ ،  
وَقَدُوا الْغَنَائمِ ، فَتَرَكُوهَا لِأَهْلِهَا ، وَتَقْهِرُوهَا نَاجِينَ مِنْ وَجْهِ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ  
الْمَرْجِيَّ الَّذِي تَحْمِسَ قَوْمَهُ حِينَ رَأَوْا بَأْسَهُ فَاشَدَتْ ضَرَّ بَاهِمْ ، وَقَسْتَ هَجَاجَتِهِمْ ،  
وَأَنَّهُ لَا قَبْلَ لَهُمْ الْيَوْمَ بَيْنِ عَسَىٰ ؛ لَأَنَّ فِي الْأَمْرِ سِرًا لَا يَدْرِكُونَهُ .

وقف بنو عبس ينظرون إلى العدو المارب ، بقلوب فرحة راضية ،  
والتلوا حول عنترة يثنون على شجاعته وبأسه ، ويهللون شداداً بيلاء عنترة ،  
فهو حامي الذمار والمدافع عن العشيرة ، وصمت شداد هنيمةً وتمثل له عنترة  
في المعركة ، وكيف دافع عن قومه ، ورأى أن عنترة خير القبيلة ودرؤها ، وسيد  
فتانيها بأساً ونجدةً ، وأنه لا غناء لها عنه ، ولا عزّ لها إلا به ، وهي كثيرة العداة ،  
عرضة في كل آونة للغزاة ، وأن الاعتراف به يزيد كلهم خراً وشرفاً ، فرفع  
رأسه ، وقال : أشهدكم يا بني عبس أن عنترة هو ابني ، وأنه منذ اليوم حرُّ ،  
 وأنه ابن شداد بن عمرو بن قراد ، وأقبل على عنترة يقبله ، وتزاحم الفتيان على  
عنترة يقبلونه ويهللونه إلا ابن عمّه عمراً ، فقد أنف من أن يعترف به أو يثنى  
عليه ، وأكل الحسد شراسيف قلبه ، فأشاح بوجهه عنه ، حتى لا يرى الفخر  
والشرف والسؤدد يتوج بها عنترة جميماً .

وأحرز عنترة بهذا أول انتصار له في الشرف ، وخطا أول خطوة في  
طريق حبه المكتوم ، ولكنّ عمراً ، آه من عمرو أخي عبلة ، لماذا ينفس عليه  
حريته ، وشجاعته ؟ ولماذا لا يصادفه كصافاه شباب عبس ؟ ، إنه كلام رآه  
أعرض عنه ، ولكنه لم يعد يؤذيه كسابق عهده يذىء كلامه ، وجارح سببه ،  
فقد اكتب عنده هيبة في النفوس ، ورفعة في العيون . ما أحوجه إلى  
مصالحة عمرو ، ليعبد له طريق عبلة ، وهي مُنية روحه ، وأمل فؤاده ، وزهرة  
حياته ، ولكن كيف السبيل إليه ، وهو وَعْرُ الخلق ، شديد الصلف ، تيأه  
على الناس ؟

ولم يكن عمرو وحده هو الذي يحسد عنترة على ما أصابه من مكانة ،

بل قبل كثيرون من أشراف عبس مكانة عنترة على مضمض لحاجتهم إليهم ، وكانت نظراتهم إليه مزيج من الحسد ، والازدراء ، لسوداد لونه ، وعدم خلوص نسبة ، ولكنه كان يقابل كل ذلك منهم بسعة صدر ، وحلم وأناة ، ولم يزده انتصاره إلا تواعضاً لهم ، وحنواً عليهم .

وكان في كل مرة يلتجم قومه في معركة يزدادون به إعجاباً ، وله إجلالاً ؛ لأنّه كان دائمًا الفارس المُجلّ ، والبطل الصنديد ، وأنه عماد القوم الذي يلتفون حوله فيحرز لهم النصر ، أو يدفع عنهم الغارة الشعواء ، وإذا انقضت المعركة ترفع عن الغنية ، وتركتها لهم ، كأنما كانت الفروسية والبلاء في القتال مقصداته وهدفه ، وكان قومه يتعجبون من أمره ، وقوسوته على نفسه ، فلا يلهمو كا يلهمo الفتىان ، ولا ينظر إلى النساء نظرة فاحشة ، وإن بدت جارته غضّ طرفه غفة منه ، وكرم خلق .

وفي كل يوم يكسب عنترة قلوبًا جديدة تلتف حوله ، وتعجب به ، وعلى الرغم من سواد لونه ، وعدم خلوص نسبة ، فقد اشتهرت كثيرات من فتيات الأشراف ، وإذا فرّ بهن تهامسْن ، وتغامزن ، ونظرن إليه نظرة إعجاب ، وقد لا تملك إحداهن نفسها فتقول لصويمباتها :

— ألا ترين عنترة ، إنه لقَسْوَرَة ، فما أشد خطره ، وما أجيَّلَ منظره  
فترد إحداهن :

— عجباً له ! أما تهفو نفسه إلى حليلة ، أو تراوده على حلليلة

— خل عنكـن ، فإني سمعت أنه عاشق

— ومن الحلليلة المنتظرة ؟

— إنه يحب عبلة ابنة عمّه

— أو تعرف عبلة أمرَ هذا الحب ؟

— إنها متيمة ، ولكنها تخشى أخاها وأباها ، فعمرها وأخوها لا يطيق منظره

— والله ما علمنا على عنترة من سوء ، وإنه لنعم الفتى ، سماحة خلق ، وترفع عن الدنيا ، ولطف معاشر . أو ما سمعتني بتعففه عن الغنائم والأسلاب غبَّ المارك ، وهو الذي أبلى فيها بلاءه ، وأظهر لهم مضاءه ؟ أو ما ترين كيف يأوي إليه كلَّ ليلة البائس والفقير ، وأنه يطعم الجائع ويغاث الملهوف ، ويحمل الكلَّ ، ويفكُ العانِي ، وينفق ماله ذات اليمين وذات اليسار في المكرمات ؟

و قضى النسوة ساعة في الحديث عن عنترة ، كلَّ تشيد بفضله ، وتعتز به ؛ لأنَّه يحميهن ، وينكل بالعدو المغير ، ويشعرن بأمن وطمأنينة لوجوده ، كأنَّه الحصن الركين ، والجيش المتن .

وسمع عنترة ذات يومٍ منْ غيره بأنه على شجاعته وبأسه ، لا يتحلى بما يتحلى به الفرسان من فصاحة ولَسْنٍ ، وأنه لا يقول الشِّعر إلا بيتين أو ثلاثة ، وأنه لا يعرف الحب ولو عنده ، له مشاعر جامدة ، وقلب صَلْدٌ ، وليس ذلك من شيء الفتيان ، وأطرق عنترة إطارقة طولية قبل أن يرفع رأسه وهو يغمغم ويدمدم ، ثم انطلق كالسيل المادر ينشد معلقته المشهورة ، يفصح فيها عن حبه الذي ظلَّ حبيساً في سويداء قواده ، ويشرح فيها موقفه مع قومه ، وتعنفهم وإرهاقهم له ، وظلمهم المر ، مع سماحة خلقه ، وتعففه ، وكرم يده ، ويشيد

فيها بفروسيته ، ومدافعته عنهم ، في لفظ رشيق ، ومعنىًّا دقيق ، وحسٍّ  
مرهف ، وعفة لسان ، وسحر بيان :

يا دار عبَلَةَ بالجِوَاءِ تَكْلِمِي  
ولَقَدْ ذَكَرْتِكِ الرَّمَاحَ نَوَاهِلُ  
فُودَدَتْ تَقْبِيلِ السَّيُوفِ لَأَنَّهَا  
وَأَخْذَ الْفَتَيَانِ يَرْدُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعْلَقَةً عَنْتَرَةً ، حَتَّى لَهِيجَ بِهَا كُلُّ  
لَسَانٍ ، وَوَعَاهَا كُلُّ إِنْسَانٍ ، وَبِرْهَنَ لَهُمْ عَنْتَرَةً عَلَى أَنَّهُ فِي الْفَصَاحَةِ يَتَسَنَّمُ الدُّرُوهَ ،  
وَأَنَّهُ شَاعِرٌ عَبْسٌ غَيْرُ مَدَافِعٍ ، كَمَا أَنَّهُ فَارِسٌ غَيْرُ مَنَازِعٍ ، وَوَعِيُّ الْفَتَيَانِ قَوْلُهُ :  
أَنْتِي عَلَى بِمَا عَلِمْتِ فَإِنِّي سَهْلٌ مُخَالَقٌ إِذَا لَمْ أُظْلَمْ  
إِذَا ظَلَمْتُ فَإِنَّ ظَلْمِي بَاسِلٌ كَطْعَمِ الْعِلْمِ<sup>(١)</sup>  
وَلَقَدْ شَرَبَتْ مِنْ الْمَدَامَةِ بَعْدَمَا رَكَدَ الْمُوَاجِرُ بِالْمَشْوَفِ الْعِلْمِ<sup>(٢)</sup>  
بِزُجَاجَةِ صَفَرَاءِ ذَاتِ أَسْرَةٍ قَرَنَتْ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُفَدَّمَ<sup>(٣)</sup>  
إِذَا شَرَبَتْ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ وَإِذَا صَحُوتُ فَمَا أَقَصَّرُ عَنْ نَدِيٍّ  
وَعَلِمُوا أَنَّ عَنْتَرَةَ لَنْ يَرْضِي بَعْدَ الْيَوْمِ بِالْإِسَاعَةِ ، وَأَنَّهُ يَمْكُنُ لِنَفْسِهِ وَسِيَادَتِهِ  
بِهَذَا الشِّعْرِ الْعَذْبِ ، وَاللَّسَانِ الدَّرِبِ ، وَغَرَفَوا سَرَّ إِحْجَامِهِ عَنِ النِّسَاءِ ، وَتَعْفُفَهُ  
عَنِ الصَّغَائِيرِ ، فَإِنَّهُ حَبَّ عَبَلَةَ الَّذِي مَلَكَ شِغَافَ قَلْبِهِ ، وَلَكِنْ هُلْ يَرْضِي  
مَعَاوِيَةَ أَبُوها ، أَوْ عَمِرو أَخْوَهَا بِعَنْتَرَةِ صَهْرًا ، وَهَا مِنْ أَشَدِ الْقَوْمِ حَسْدًا عَلَى

(١) باسل : كريه (٢) المشوف : يقصد به الدينار المخلو ، أو القدر المنشئ .

(٣) الأزهر : الإبريق ، والقدم : الصفي ، وفي الشمال : يقصد أنه بارد بريء الشمال .

ما أصحابه من نعمة وشرف ؟ لقد تعلق عنترة في نظرهم بأمرٍ عزيز المنال ، وياليته  
لم يفعل ، فليس بالمهين عليهم أن تجرح عرّته بعد اليوم .

وسمع معاوية وعمرو ما قاله عنترة في عبلة، وغضباً أشد الغضب، وتوعداه  
وتهداه، وعزم على أن يزوجها سريعاً، حتى لا تلوك الألسنة سيرتها،  
وتآمر معهم على ذلك أشراف بني عبس من مثل قيس بن زهير، والربيع  
بن زياد حسداً لعنترة، وضناً بعلة الجميلة الشريفة أن تأوى إلى بيت هذا العبد  
الغليظ المشفرين.

وسرعان ما تقدم لعبدة من خطبها من أشراف قومها ، فزفت إلية وهي تسح الدّم سحًّا ؛ لأنّها كانت تهوى عنترة وتعزه ، ولكنّ زواج عبدة لم يغير من حب عنترة لها والتّنويه بها في كل قصيدة ، ولم يزهد بعد ذلك في النساء زهذه الأول ، ولكنّه لم يكن كسائر الفرسان ، فإذا سبي امرأة دفع إليها مهرها وتزوجها ، وأبي أن يسترقها ، كما يسترق سواه السبيايا الحرائر ؛ لأنّه ذاق طعم العبودية ، وذل الرّق ، ولم تلهه أى امرأة عن عبدة وحبها وفي ذلك يقول :

وكتبية لبستها بكتيبة  
شهباء بسلة يخاف ردها  
ورجعت محموداً برأس عظيمها  
وتركتها جزراً لما ناوتها  
ما استمت أثني نفسها، في موطن  
حتى أوفي مهـرها مولاها  
أغشى فتاة الحـي عند حليلها  
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها  
وأنـص طرفـي إنـ بدـت لـي جـارـقـي  
إنـ اـصـرـؤـ سـمـحـ الخـلـيقـةـ مـاجـدـ  
حتـيـ يـوارـىـ جـارـقـيـ مـأـواـهاـ  
لاـ أـتـبعـ النـفـسـ الـلـاجـوجـ هوـهاـ  
أـنـ لاـ أـرـيدـ منـ النـسـاءـ سـواـهاـ  
ولـئـنـ سـأـلتـ بـذـاكـ عـبـلـةـ خـبـرـتـ

وأجيها إما دَعَتْ لعظيمة وأعينها وأكفَّ عما ساها  
وكان هذا الخلق الرفيع ، والشهم والشجاعة ، يغيط كثيراً من أشراف  
عبس ، ويزيد قلوبهم حنقاً وموجدةً عليه ، ويودون ألا يحتاجوا إليه في ردّ  
عادية ، أو كشف عدو ، ولكن أئمَّا لهم أن يستغنوا عن ساعده القوى ،  
وسيفه البثار ، وهم أحلاس حروب ، وقد طال ما بينهم وبين بنى ذييان من قتال  
أربعين عاماً ، جلو فيها عن ديارهم ، ونزلوا بشتى القبائل ، فضاقاوا بهم ذرعاً ،  
واشتباكوا معهم في معارك حامية ، حتى لم يعد لهم من ملجاً يأوون إليه إلا ظهور  
خيولهم ، وأسنة رماحهم ، وظُبُّ سيوفهم ؟؟

وسرّ عان ما برهن عنترة مرة أخرى على أنه درع القوم السابقة ، وحضرها  
المتين ، والمذائد عنها في الملامات ، حين يشتد بهم السُّكُرُ ، وتذلم الحرب .

فقد كانوا في معركة عنيفة مع بنى تميم ، بعد أن ضعفتهم حروبهم مع  
ذييان من جراء سباق داحس والغبراء ، وثبتوا لبني تميم ساعات ، وجال القوم  
جولات صادقات ، ولكن لم تطق عبسٌ على القتال صبراً ، فولت الأدبار ،  
وابتعتهم بنو تميم يريدون أن يتخطفوهم من خلفهم ، ويملؤن بهم هزيمة  
ماحقة ، فوقف عنترة الفوارس وحده أمام جموع بنى تميم تتكسر على شباء  
رحمه ، وظُبُّ سيفه أمواج هجماتهم ، وهو ثابت كالجبل الأشم ، تطير الرؤوس  
أمام ضرباته فضاضاً ، وتجمع حوله عصبة من فتيان عبسٍ حتى رحل قومه لم  
يُصبِّ منهم مدبرٌ إلى أن تواروا جميعاً عن الأنظار .

وبلغ الغيظ من قيس بن زهير سيد عبس وصاحب حربهم مبلغه ، حين  
رأى أن عنترة وحده هو الذي نجى قومه ، ففأه بها عوراء شائنة ، وقال : والله

ما حمى القوم إلا ابن السوداء ، فلم يصمت عنترة كسابق عهده ، ورد عليه ردًا قويًا ، معيناً إياه بأنه أكول نَهِمْ ، وأنه خير منه بأساً ، ويدانيه نسيًا ، وأنه درنه قومه ومثواهم وذلك حيث يقول :

شَطْرِي، وأحمى سائرى بالمنصبِ<sup>(١)</sup>

أصبحتُ عن عرض الح توف بعزل

لا بدَّ أن أستقي بكأس المتهل

أني امرؤ سآموٌ إن لم أقتل

مثلٍ إذا نزلوا بضنك المنزل

فرقت جمعهم بضربة فيصل

ودعاء عبس ، في الوعى ومحلل

وبكلٍّ أيسِنَ صارِمٌ لم ينْحَل

ashد ، وإن يُلْفُوا بضنك أَنْزَل

حتى أَنْالَ به كريمَ الماكِل<sup>(٢)</sup>

بعد الكريهة لم أَقْل

إني امرؤ من خير عبسٍ مَنْصِبَا

بَكَرَتْ تَخْوِقِي الح توف كأنى

فأجتبها إن المنية مهمل

فاقتني حياءك لا أبالكِ واعلمي

إن المنية لو تمثَّلْ مُثَّلتْ

والخيلٌ تعلمُ والفواراتُ أنتي

لما سمعتْ دعاء مرأة ، إذ دعا

ناديتْ عبسًا فاستجاها بالقنا

إن يُلْحِقو أَكْرُز و إن يُسْتَلِحُوا

ولقد أَبَيْتُ على الطوى وأَظَلَه

وإذا حملت على الكريهة لم أَقْل

فاستخدمي قيس بن زهير ومن كان يحسد عنترة بعد سماعهم هذه القصيدة

(١) أى أن شطره من جهة أبيه من خير عبس ، ويحمى شطره الثاني من جهة أمه بسيفة

(٢) يعرض بهذا البيت والذى بعده بقىس بن زهير لأنه كان أكولا ، وكان يتندم على خوضه المعارك ، ويعتمد في الحرب على دهائه لا على شجاعته حتى لقب بقىس الرأى ، ولا أنسد النبي عليه السلام هذا البيت قال : ما وصف لي أعرابي قط ، فأحببت أن أراه إلا

وأزداد في عيون سائر قومه رفعهً ومكانةً . وجاءه أخوه حنبيل بعد أن وصلَ  
إلى هذه المنزلة السامية ، يلح عليه في أن يعمل على أن يعترف قومه بأخوته  
لأنه ، كما اعترفوا به وقد أصبحَ سيداً من أعز أشرافهم ، وما أن عرض عنترةُ  
على قومه هذا الرأي حتى لبوا مُسْرعين إِكْراماً لعنتره وتحيةً له .

وهكذا حقق عنترة ما كان يصبو إليه إلا أمراً واحداً خلَّف في نفسه  
الحسرة والألم ، ألا وهو عدم نيله عبلة ، ولبث ما بقي من حياته يتغنى بمحبه الذي  
لا أمل فيه ، حتى صار مثلاً في الحب والوفاء ، كما كان مثلاً في الشجاعة والباس  
والمضاء .

## \* هلال \*

— ها قد أقبل هلالٌ يأبه ، تالله إن الأمير سيسِرْ بِقَدْمِه سروراً لا يعدله نزولُ الحيا غِبَّ جدب ، وإن فوسنا المغيبة المخنقة الموتورة لتعطش إلى القصاص من ذلك العبد الجبار الذي صرع كلَّ فتيان المدينة ، وتطامنت تحت قبضة يده الرءوس العزيزة ، وريعت منه القلوب الأية الجريئة . كان خالد المازني يقول هذا لرفيقه ووجهه يتهلل بشراً ، ويفصح عن نفس حَزَبها المم وأمضها الحزن فأصابت فرحاً ومسرة على حين غفلة ، ثم انفلت خالد من رفيقه مهرولاً وهو يصبح خلفه :

إلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى الأمير .

قال هذا وهو يَجِدُ في ركبته فما تمهل حتى دخل على أمير المدينة المنورة وهو في مجلسه وحوله وجوه أهلها وأشراف العرب ، فلما رأه الأمير يلهم بادره سائلاً :

— ما بك يا خالد ؟

— أصلاح الله الأمير ! عندي خيرٌ يسرك ، فقد قدم هلال بن الأسرع بالمدينة يأبل له تحمل عَروضاً لبعض تجارها ، ولعل الأمير قد سمع بيطشه وقوته . إن ذلك العبد قد آذاناً وطعن كرامتنا ، وصرع خيرة شبابنا ، وذوى الأيدٍ منا ،

(\*) الأغاني ج ٣ ص ٥٦ ، وهلال بن الأسرع شاعر فارس اشتهر في العصر الأموي وكان مشهوراً بالشجاعة والبس ، ومات نحو سنة ١٣٠ هـ

فَلَوْ سَمِحَ الْأَمِيرُ - حَفَظَهُ اللَّهُ - هَلَالٌ بِصَارِعَةِ هَذَا الْعَبْدِ حَتَّى يَغْسِلَ عَنِ  
الْعَارِ ، وَيَأْخُذَ الثَّأْرِ ، وَيُنْعَشَ النُّفُوسُ الْمُسْتَخْذِيَّةُ إِنَّا لَا نَنْامُ عَلَى وِئْرٍ وَقَدْ  
أَمْكَنَنَا اللَّهُ مِنْهُ .

— وَمَنْ هَلَالٌ هَذَا ؟ إِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهِ مِنْ قَبْلِ ، وَمَا إِخْالَهُ قَادِرًا عَلَى هَذَا  
الْعَبْدِ الْعَمَلَّاقِ ، وَمَا أَظْنَهُ إِلَّا كُوَّلَاءِ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالْفَتْوَةِ وَالْقُوَّةِ مِنْ شَبَابِ  
الْمَدِينَةِ وَمَا جَاَوَرُهَا ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا الْعَبْدَ الرُّومِيَّ دَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ وَأَخْذَتْهُمْ  
الرَّجْفَةُ ، وَكَانُوا فِي يَدِهِ كُحْذِرُوفٍ<sup>(١)</sup> فِي يَدِ صَبِيٍّ يَطْوَحُهُمْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وَيَلْقَاهُمْ  
تَحْتَ قَدْمَيْهِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِمْ مِنْ شَدَّةِ الإِعْيَاءِ وَالْأَلْمِ .

— أَعْزَّ اللَّهُ الْأَمِيرُ ! إِنْ هَلَالًا فَتَى لَا كَالْفَتَيَانِ ، إِذَا رَأَيْتَهُ هَالَّكَ مِنْظَرَهُ ،  
فَهَا شَتَّتَ مِنْ جَسْمٍ فَارِعٍ كَأَنَّهُ رَجُلٌ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادٍ ، وَمِنْ جَثَّةِ مَكْتَنَزَةِ ،  
وَعَنْقِ ضَخْمٍ ، وَهَامَةَ كَبِيرَةَ ، وَكَنْفِينَ عَرِيَضَيْنَ ، وَسَاعِدِينَ كَذِرَاعِيَ الْبَكَرِ  
أَوْ أَشَدَّ ، وَقَبْضَةِ يَدِ الْحَدِيدِ ، وَقَدْ مَلَأَ جَلْدَهُ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِهَا وَبِنَوَاحِيهَا ، فَهُوَ  
يَمْوِجُ فِي بَدْنِهِ قُوَّةً وَعَافِيَّةً ، إِنِّي أَعْهَدْتُهُ فَارِسًا شَجَاعًا شَدِيدَ الْبَأْسِ وَالْبَطْشِ ، أَكْثَرُ  
النَّاسِ أَكْلًا ، وَأَعْظَمُهُمْ فِي حَرْبِ عَنَاءٍ ، وَإِنَّهُ لَيَرِدُ مَعَ الْإِبْلِ عَلَى أَهْلِهِ فَيَا كُلَّ  
مَا وَجَدْتُمْ يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَلَا يَتَزُودُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى يَرْجِعَ يَوْمَ وَرُودِهَا ، وَلَا  
يَذُوقُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ شَيْئًا .

— وَكَيْفَ هُوَ فِي الْصَّرَاعِ ؟ إِنِّي أَرْبَأْتُهُ وَبِكُمْ أَنْ يَخْلُعَ عَلَيْنَا هَذَا الْعَبْدُ  
مَرَّةً أُخْرَى أَثْوَابَ الْخَزْرَى وَالشَّمَائِتَةِ ، فَسَبَّنَا مَا لَا قِينَاهُ آنَفًا .

(١) الخزروف : النحله التي يلعب بها الصبيان .

-- هل لى أن قص على الأمير -- لا زال مؤيداً -- بعض حوادثه حتى  
يستوثق مما أقول؟ .

— امض في حديثك .

— لقد خرجت وهلالا ذات يوم نشد إبلا لنا ، حتى دفعنا إلى قوم  
من بكر بن وائل ، وقد أخذ منها اللغو والكلال كل مأخذ ، فإذا نحن  
بفتية شباب عند بُرْ لهم ، وقد وردت إبليهم فلما رأوا هلالا استعظموا خلقه ،  
وقام إليه رجلان ودغاه أحدهما للصراع ، فاعتذر هلال بحاجته إلى ما يطفئ  
ظماء من لبن وماء ، فأبى عليه ذلك حتى يستجيب له . فاعتذرا ثانيةً بأنه  
ضيف والضيوف لا يصارع رب منزله ، ولكن يعمد إلى أشد فحْل في إبليهم  
وأهيبه صولةً ، وإلى أشد رجل منهم ذراعاً ، وأنه سيقبض على هام البعير وعلى  
يد الرجل فلا يمتنع الرجل ولا البعير حتى يدخل هذا في فم ذاك ، وإن لم يفعل  
فقد صرعوه .

فعجبوا من مقالته وأومأوا إلى فحْل من إبليهم هاج صحائف ، فأتاه هلال  
وضغط بيده على هامته ضغطة جرجر<sup>(١)</sup> لها الفحل واستخدمي ورغى ، وقال :  
ليعطني من أحبيتم بيده أو لجها في فم هذا الفحل ؟ فامتنعوا وهم يتعجبون .  
حسبك يا خالد ! ولا ريب عندي في صدق حديثك ، ولقد هِجْت  
شوق إلى رؤية هلال ، فإن ما ذكرت ينبغي عن قوة جباره ، وفتوة خارقة .  
فعلى آبه .

وأرسل الأمير بعض رجاله مع خالد ليحضروا هلالا ، فجاءوه وهو يضع

(١) جرجر البعير : بكى .

عن إبله ، وأخذوا بيده قائلين : أجب الأمير .

— ويلكم ؟ إبلي وأحمالى .

لا بأس على إبلك وأحمالك ؟

— ما حاجة الأمير إلى ، وليس لي غرماء ، ولا أحذنت حدثاً ، ولقد

قدمت الساعة من رحلة مضنية ؟

ثم التفت إلى خالد المازني وقال :

— ويحك يا خالد ! ألا تخبرني بحقيقة هذا الأمر ؟ أو من حق الأخوة أن  
تسعي بي مع حرس الأمير دون أن توضّح لي ما أنا مقبل عليه ؟  
— هدى روّاك يا هلال ! فهناك كل خير إن شاء الله .

ثم انطلقوا به حتى دخلوا على الأمير فسلم عليه هلال وقال :

— جعلت فداك ! إبلي وأماتني .

— نحن ضامنون لإبلك وأمانتك حتى تؤديها إليك .

— فما حاجة الأمير إلى ، جعلني الله فداء ؟

حينئذ أخذ الأمير يتأمل هلالا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فرأى رجلا  
عملاقاً ، متين البناء ينطق كل عضو من جسده بحياة متدفقة ، وصلابة عارمة  
ونمو كامل . كان في العقد الرابع من عمره ؛ ترسم على وجهه سمات السذاجة  
والرحمة على الرغم مما أُتي من قوة وبأس ، عند ذلك أشار الأمير إلى رجل  
أصفر بجانبه وقال :

إن هـذا العبد الذي ترى ، لا والله ما ترك بالمدينة عريياً يصارع

إلا صرעה ، وبلغنى عنك قوة ، فأردت أن يحرى الله صرع هذا العبد على يدك  
فتدرك ما عندك من أوتار العرب .

طبق هلال يتأمل هذا العبد الجبار فرأى خلقة هائلة ، وسخنة غريبة ،  
وبحما ضخما ، لم يدر أطوله أكثُر أم عرضه ، وعضلات مقتولة بارزة ، وعنقًا  
غليظاً ويداً جاسية خشنة ثم أطرق برها وقال :

— جعافى الله فداء الأمير ، إنى لغِبْ نَصِبْ جائِم ، فإنْ رأى الأمير ، أن  
يدعنى حتى أضع عن إبلى وأؤدى أمانى وأريح يومى هذا وأجيئه غداً فليفعل .

- رأي الأمير في قول هلال ما يبني عن نفس هادئة مطمئنة ، وما يدل

على عقل ناضج وقلب جرىء فأجابه إلى طلبه ، وقال لـكبير أعونه :  
انطلقا معه فأعينوه على الوضع عن إبله وأداء أمانته ، وانطلقا به إلى  
المطبخ فأشبعوه ، ثم التفت إلى جلسائه وحاشيته وقال : لم أمر بـلـيين قد تـكـافـاـ  
في الخلقة والجسم ، ولعل هـلاـ يتحقق ظـنـناـ فـيـهـ ، وإنـ غـداـ النـاظـرـهـ قـرـيبـ .

ذهب هلالٌ مع أعون الأمير فراح إبله وأدى أمانته ، وانصرف معهم إلى المطبخ فقدموا إليه طعاماً شهياً كثيراً ، فاتى على كل ما قدم إليه ، وبدا عليه كأنه لم يأكل ، فجهزوا له طعاماً جديداً يكفى خمسة رجال جياع فأكل حتى شبع ، ثم ظل بقية يومه على أحسن حال ، وبات ليلته شيئاً هادئاً مرتاحاً معنياً به .

وأخذ خالد المازني منذ سمع هلالاً يقبل مصارعة العبد الرومي يشيع الخبر في المدينة ، وبات الناس ليتهم تلك يفيضون في حديث هلال والمصارعة ، ومنهم من يروي عن هلال أخباراً عجيبة ونواتر في القوة والفتواة ، وأخذ

هؤلاء الذين صرعوا على يد العبد يهولون في شأنه ، ويعظمون من قوته ، ويبالغون في صلابته ودربته بالصراع ، ويشككون الناس في أمر هلال ، اعتذاراً لأنفسهم من المهزيمة المنكرة ، وكان كلامهم هذا يزيد الناس تشوقاً إلى رؤية الصراع وباتت نفوس أهل المدينة يساورها القلق ، وكأن كرامة العرب وضعت في كفة ميزان ، وتوعّد سراة المدينة وأثرياؤها فيما بينهم إن صرع هلال العبد ، وغسل بقوته العار الذي لحقهم ، وبرهن على أن في العرب رجالاً قد كملت رجولتهم واستندت شكيمتهم ، وعظم باسمهم ، أن يجزوا الله الصلات ويكرموه ، بقدر ما كرّهم وأخذ بثارهم .

كل هذا وهلال لا يدرى من أمر الناس ولخطفهم واهتمامهم شيئاً ، إذ كان يُغطّى في نومه بعد ما حلّ به من الأين والكلال طوال يومه ، وبعد ما امتلأت معدته طعاماً شهيّاً ، غبّ جوع طويل وظماً قتال ، وبعد ما أخذت هذه المعدة الضخمة تهضم ما استوّعت وتمثّله ، وتوزّعه على هذا الجسم الهائل .  
ونهض في غده قبل أن تنفض الدنيا الكرى عن أجفانها ، والطيور لا تزال بعدّي وكناثها ، وضوء الفجر يشق أستار الظلام ، ونسيم الصحراء يتفرق صفاءً علينا ، فأدّى فريضة ربه ، وتفقد إبله ، وسار بعيداً في الوادي كأنه يستقبل موكب الشمس ، وقد طفت طلائعه تطل على الدنيا الغافية ، فتهب من سباتها ، وتدب فيها الحياة والحركة ، ثم عاد من رياضته موفور النشاط رخيّاً إلى البال ، متهملاً الوجه تدب العافية والصحة في أعضائه بقوّة وعنوان .  
ويَمِّ مجلس الأمير في الضاحي وعليه جبة صوفٍ وبَتْ<sup>(١)</sup> وليس عليه إزار ،

(١) البَتْ : الطليسان ونحوه ، وهو ثوب يشبه العباءة له أكمام ، وهو من ثياب الأعاجم .

وقد شدَّ بعامتها وسطه ، فـكان بصورته تلك يمثل الصحراء بخشوتها وامتدادها  
ووعرة مسالكها . ولما طالع بيت الإمارة رأى جموعاً زاخرة تحيط به ، فتقدم  
في سذاجة دون أن يعيها التفاتا ، وما أن أشرف عليهم حتى امتدت إليه  
العيون وأشرأبت الأعناق وفتحت الأفواه عجباً ورعباً ، ثم ارتفعت الأصوات  
بخليط من الإعجاب والتحية والتهليل والتكبير والدعاء . وأخذ هلالٌ يتصرف  
تلك الوجوه بدهشة واضطراب وحياء جم وتواضع كثير ، فلما دلف إلى مجلس  
الأمير ، وأقبل يسعى بين يديه — وقد فرش له في ناحية من فناء رحب يتصل  
بيته ، يحيط به أشراف المدينة وندماؤه وأعوانه ازداد ما به لال من حياء ،  
وحياً في أدب مفرط ، فردواعليه تحيته وملاؤاً أعينهم منه ، فدخلت في أفئدتهم  
الروعة والإعجاب ، ووجه إليه الأمير الخطاب قائلاً : —

— لا أريد أن أزوِّدك بنصح ، فمخاليك وأسارير وجهك تتم عن فرط  
قوه وثقة ، إن كرامه العرب رهنُ يمينك فاحرص عليها وآخر جها من الصراع  
موفورة مصونة .

ثم قال للأصغر :

قم إليه ، فقد أرى الله أتاك بما يخزيك .

فنهض العبد كالبناء المتطاول ، وكان يلبس تباناً<sup>(١)</sup> ودرعاً<sup>(٢)</sup> غليظاً من  
الصوف ، ونظر إلى هلال وقال : إئزر يا أعرابي .

فأخذ هلال بـتَه فائزبه على جبته فقال العبد : هيئات ! هذا لا يثبت ،  
إذا قبضت عليه جاء في يدي .

(٢) الدرع : القميص .

(١) التبان : السراويل القصيرة (شورت) .

فقال هلال : والله مالى من إزار ! فدعا الأمير بملحفة ما رأى هلال ولا علا جلدَه مثلها ، فشد بها على حقوه<sup>(١)</sup> وخلع جبّته . ثم تقابل الخصمان ، وأخذت الجموعُ الحاشدة تتطلع في لففة وشوق إلى صراع عجيب بين جبارين عاتيين كأنهما شيطاناً قد تركا الجحيم ل ساعتهم .

جعل العبد يدور حول هلال ، ويدب إليه في عنف وبطء كأنه الذئب يريد ختلته ، وبدا على هلال كأنه منه وجل ، وارتسمت على وجهه الحيرة . كأنه لا يدرى ماذا يصنع به ، وهو يتقدّر أمامه خطوة خطوة ، ثم دنا العبد منه دنوة ، ففقد جبهته بظفره نقدة شخب منها وجهه دما ، وتراجع العبد على إثرها وهو يسخر من هلال ، ويضحك ملء شدقته ، وكأن ذلك غاظ هلالا فتجهم وجهه واربد ، وتطاير الشرر من عينيه ، فجعل يتأمل العبد في حنق وسخط كأنه يبحث عن جزء من جسمه يقبضه منه ويعصره بين يديه ، ولكن هيئات ! فإن الرومي كان فطناً خيراً بالصراع ، فرده بضربية خاطفة على فكه الأسفل ترني لها هلال وقد توأزنه واغرورقت عيناه ، وسال الدم من قمه ، وعلت الضجة من الجميع ، وطرقت أصوات التحmisيْن أذنِ هلال ، وكانت الضربة قد آلمته وأوجعته فاشتاط غضباً ، ولكنه ضبط أعصابه ، وأخذ يدور حول العبد في سرعة وحدر ، ثم انقض على رأسه فجذبها بين يديه الغليظتين ، ووضع إبراميه في صدغيه وأصابعه الأخرى في أصل أذنيه ، ثم غمزه غمزه شديدة ، وهو يصر على أسنانه فصالح العبد : قتلني ! قتلني ! فقال الأمير هلال : اغمس رأس العبد في التراب .

(١) الحقو : آخر العمود الفقرى من أسفل .

— ذلك لك على .

وغمس رأسه في التراب وما تركه حتى خرمغشياً عليه .

فتتجاوز الفضاء العريض بصيحات الفرح والإعجاب والانتصار والتهنئة  
وتدفقت الجموع تحيط بهلال وهو يتأمل غريميه الملقي على الأرض ، وكأنه يقول  
لنفسه : كيف صرعت كل هذه القوة والدربة والعضلات ؟ وهو في ذهول عمن  
حوله ثم أفاق من إطراقته فرأى الدم قد لوث ثيابه ، وجيء له بباء نضح به على  
وجهه ومسحه في جبهته . فتقدم إلية الأمير ضاحكا ملء شدقته وأخذ يربت  
على ظهره ، وأمر له بجائزه وصلة وكسوة .

وأخذ سراة المدينة وأعيانها يتسابقون في دعوة هلال لبيوتهم كي يكرموه ،  
فاعذر في أدب جم بأنه مزمع الرحالة في أصيل يومه ، فقدموا إليه جوازهم  
وهداياهم وترك مجلس الأمير بين الهاتف والإعجاب والتكرمة ، وقد شفي  
غليل النفوس الموتورة وثار للفتوة العرية .

---

## جحدُر<sup>(\*)</sup>

نشأ جحدُر بن ربيعة باليمامَة ، واحتضنَتِه الصحراء منْذ حبا ، فشاركَ  
الغزلان سرعة عدوها ، والذئاب شراسة خلقها ، وضراوة طبعها ، والنسرور  
والعقبان هوِيَّها واقضاياها ، والصخورَ وعورتها وصرامتها وصلابتها ، والأسودَ  
شدة فتكها وجرأتها .

كان نحيفاً مديداً القامة قد لوحَ حِرَّ البَيْدِ وجهه فتفَعَّل عارضاً ، واسمرتْ  
بشرته ، له عينان كالمجمدة الملتئبة إذا غضب ، وكالنجم المتألق إذا رضى عنْ  
نفسه ، يداه معروقان وساعداه مفتولان ، وأبرز سجاياه الحذر فما يخدع  
أو يختل ، له لسان عَصْبٌ ، وجنان ثَبَّتْ ، وبصيرة نافذة ، وبديهة خاطفة ،  
وحيلة واسعة ، وذكاءً عجيباً .

تمرسَ جحدُر باليمامَة منْذ حداثته يبحثُ عنِ المكارِه ، فيرددُها بنفسِ  
رَضِيَّة ، وشهرة قوية ، فاشتدَ أيدُه وقويتْ مفته ، ونمَتْ تجاربه ، فاتَّفَ  
حوله الصعاليك والفتاك ، قد اتخذوه لهم إماماً وقائداً ، يدبر أمورهم ويحييك  
شباً كهم ، وينفذ كيدَهم ، وهم له أطوع من بنائه وأقرب من ظله ، يجلونه  
ويرهبونه ، كما تخشى الشياطين إبليس أو أشد خشية .

وعظمت وطأة جحدُر على عرب اليمامَة : يغير على أحياهم جهراً ، فينهب  
ويقتل من تعرض له ويبطش برعاتهم ، ويسوق نعمتهم إلى مكمنه ، والويل

(\*) المستطرف ص ٢٤٤ ج ١ ، والمحسن والمساوي ص ٧٧ ، وقصص العرب

لمن تحدثه نفسه في قصّ أثره أو مطاردته ؛ لأنّه كان أصوب الناس سهّماً ، وأعداهم جواداً ، وأقطعهم سيفاً ، وأجرأهم فواداً ، تحيط به شِرْذمة فاتكة من لصوص العرب وشُطّارهم ، لا يبالون في النضال أى ميّةٍ تهيّأت لهم . قد نعموا في سخطه بالعيش الرغد ، والمال الوفير فأحبوه وقدموا نفوسهم فدىًّا له .

كان ذلك في أيام الوليد بن عبد الملك ، والحجاج والييه على العراق والبادية ، فبلغ الحجاج أمرٌ جحدره وأنه عاث في الأرض فساداً ، وملأ الصحراء شراً ، واستبد بمسالكها ودروبها ، وأباد خلقاً عديداً ، فأهـم ذلك الحجاج وحزّ في نفسه التي تعودت تذليل الصعاب وتيسير العـسـير أن يكون في حواشـي ولايته مثل ذلك العاهر الفاتـكـ ، فأرسـلـ إلى عاملـهـ بالـيـامـةـ يـوـسـعـهـ ذـمـاًـ وـتـأـنـيـاًـ ؟ـ لـعـجـزـهـ عـنـ الضـربـ عـلـىـ يـدـيـ ذـكـ السـفـاحـ وـأـمـرـهـ أـنـ يـوـقـعـ بـهـ أـوـ يـحـمـلـ إـلـيـهـ أـسـيـراًـ ،ـ وـإـلـاـ فـلـهـ الـوـيلـ وـالـثـبـورـ .

لم يكن العامل على جهل بأمر جحدره ، فطالما جأـرـ إـلـيـهـ الناسـ بالـشكـوىـ وـطـالـماـ استـمعـ لـقصـصـ كـيـدـهـ ،ـ وـعـنـفـ غـارـاتـهـ ،ـ وـعـظـيمـ فـتـكـهـ وـنـادـرـ جـرـأـتـهـ ،ـ فـأـسـفـ وـهـمـ ،ـ وـقـدـ أـرـسـلـ فـيـ أـثـرـهـ الثـلـلـةـ مـنـ الفـرـسـانـ تـلـوـ الثـلـلـةـ لـأـشـهـرـ عـدـيدـةـ ،ـ وـفـيـ كـلـ مـرـةـ يـمـنـيـ بـهـزـيـمـةـ نـكـرـاءـ فـيـقـتـلـونـ وـيـشـرـدـونـ ،ـ وـلـاـ يـنـجـوـ مـنـهـمـ إـلـاـ مـنـ تـعـلـقـ بـأـذـيـالـ الـهـرـبـ وـنـجـاـ بـنـفـسـهـ .ـ وـفـيـ كـلـ مـرـةـ يـرـوـيـ الـفـارـونـ كـيـفـ أـوـقـعـ بـهـمـ جـحدـرـ ،ـ وـنـكـلـ بـشـجـعـانـهـمـ ،ـ وـأـضـلـهـمـ فـيـ فـجـاجـ الصـحـراءـ وـدـرـوبـهاـ ،ـ فـكـمـ صـعـدـ بـهـمـ فـيـ الـجـبـالـ وـأـهـبـطـهـمـ الـوـدـيـانـ ،ـ وـكـلـاـ أـحـكـمـواـ أـمـرـهـمـ وـظـنـواـ أـنـهـ قدـ أـحـيـطـ بـهـ ،ـ وـأـنـ لـأـمـنـجـاهـ لـهـ وـلـاـ مـهـرـبـ ،ـ إـذـاـ هـوـ يـفـرـ مـنـ بـيـنـ أـيـدـيـهـمـ كـالـسـهـمـ ،ـ يـضـحـكـ فـيـ وـجـوهـهـمـ وـيـسـهـرـيـ بـهـمـ ،ـ حـتـىـ إـذـاـ أـخـذـ مـنـهـمـ الـلـغـوـبـ وـالـأـعـيـاءـ كـلـ مـاـخـذـ ،ـ

ودارت رءوسهم من الأين والكلال حمل عليهم ورجاله ، فاذاقوهم مر العذاب ،  
وأوردوهم حياض الموت إلا من لاذ بالفرار .

ولما أيس العامل من أخذ جحدر بالعنف لجأ إلى الحيلة ، فأوطأ جماعة  
من فتية بنى حنظلة كلهم فارس شجاع ، اشتهر بالفتى والصعكة ، ووعدهم  
الجسائل العظيمة ، إن هم أتوا بجحدر مغلولاً أو مقتولاً .

وعلم هؤلاء أن لا قبل لهم بجحدر وقبيله إن هم صارحوه العداء ، وأنه  
لا سبيل لهم إلا الخديعة والمسكر ، فأرسلوا إليه يقولون : إنهم يتوقعون إلى  
السير تحت لوائه والانقطاع إليه والخضوع لأمره ، لما بلغتهم عنه من عظيم الهمة ،  
وطول الباء في الغارة وال الحرب . فأخلد جحدر إلى قوتهم وأدخلهم في صحبته ،  
ليزيد من قوته ، ولأنه كان يستقل خطرهم ، فلم يظن بهم سوءاً فأخذوا ينهبون  
معه ، وهم يتربصون به الدوائر طعمًا في جسائل الأمير ، وحسداً لجحدر علىبالغ  
سيطرته ، وعظيم نفوذه ، وسعة رزقه وقد حمى الصحراء فلا ينها ولا يفتك  
إلا من يمشي في ركابه .

ظل فتیان بنی حنظلة في صحبة جحدر ردحاً من الزمان ، وعيشه الحذرة  
ترقبهم عن كثب ، فلا يظهر منهم إلا طاعة عمياء وإخلاص في القتال وحسن  
تصريف في المآرق ، فوشق بهم وأمن لهم ، ييد أنهم لم يغفلوا عن هدفهم ، وهو  
أسر جحدر أو قتله . فلما رأوا أنه قد اطمأن إليهم أبرموا أمرهم بينهم ، إلى أن  
صادفوا منه غرّة فشدو وثاقه وهو ينأى عن خلصائه وأعوانه ؛ وعلم جحدر  
أنه غالب على أمره ، فلم يتسلل ، أو يحاول النجاة ، بل كظم غيظه وتقبل  
المحنة بما عهد فيه من قوة احتمال ، وراحـت جيادُهم تطوى البيـد طـيـا ، حتى

قدموا به إلى عامل اليمامة ، فكان فرجه بأسر جدر عظيمًا وخشى أن يحتال على الخلاص أو ينصره رجاله ، فوجده مع آسرية إلى الحجاج قبل أن يطمئن بهم المقام ..

تسامع الناس في البصرة بأسر جدر ، فاحتشدوا في طرقاتها يرقبون مقدمه ، حتى يمتعوا أنظارهم بمرأى ذلك الرجل الذي جعل من بادية اليمامة جحيمًا والذى فتك بعشرات من الخلق ، وأعياء شأنه أولى الأمر سنين ، فلما أقبل الوكب لم يروا إلا رجلاً نحيفاً مشدود الوثاق مُنكَس الرأس ؛ وقد توهموا أن جدر عملاق ضخم الجثة ، كبير اليمامة ، غليظ العنق ، عريض المنكبين فزاد إعجابهم به وإكبارهم له وخوفهم منه فعلاً صراخهم وتهديدهم .

فلما مثلوا بين يدي الحجاج ألقوه على الأرض تحت قدميه فأخذ الحجاج يتأنمه ويصوب فيه بصره . ثم سأله :

— أنت جدر ؟

— نعم ؟

— ما جرأت على ما يلغني عنك ؟

— جور الزمان وجرأة الجنان !

— ما مبلغ جرأتك ؟

— لو أطلقتني الأمير ، وجعلني مع الفرسان لرأي مني ما يعجبه .

— إنني قاذف بك إلى حظيرة بها سبع شرس فإن قتالك كفانا مؤونةك وإن قتلتة عفونا عنك لشجاعتك .

— أصلح الله الأمير ، لقد قرب الفرج !!

— أمر الحجاج به فحمل إلى السجن ، وأوصى أن تُحكم أغلاله ويزيد

حراسه؛ حتى لا يفلت أو يبطش بهم ، بعد ما سمع من استهتاره بالأسد ، وأن الفرج سيواتيه عما قريب بعد أن يصرعه . ثم كتب الحجاج إلى عامله باليمامة أن يرتد له سبعاً عتياً ، ويحمله إليه ، وكان صيد السبع أخف على نفس العامل من أسر جحدر ، فارتاد لهأسداً خبيشاً ، كريه المنظر قد أفقى جميع ما باليمامة من حيوان ، ووضعه في قفص حديد وأنفذه إلى الحجاج ، رأى الحجاج الأسد فراغه منظره ، وأيقن أن جحدر هالك لا محالة ، وأنه لا قبل لآدمي بمصارعة هذا الوحش البشع ومع ذلك فقد أمر الحجاج بأن يلقى السبع في حفيرة ، ولا يطعم شيئاً ثلاثة أيام ليزداد ضراوة وشراسة .

فلما انقضى الأجل المضروب أقبل الناس زرافات ووحدانا على مكان الحفيرة وهم يتحرقون شوقاً لرؤية هذا الصراع الموعود ، وأخذوا يتباون بالعاقبة ويتجادلون في مصير جحدر بحدة وعنف ، فهذا يدعى بأن جحدر سينخلع فؤاده حين يرى الأسد الجائع ، وأنه سيقطعه بمخالبه ويمزقه بانيايه ويطحنه بأضراسه ثم يلتهمه التهاماً ، وأن جحدر المسكين الذي طالما روّع الآمنين . واتهك الحرمات وأراق الدماء البريئة وادعى السطوة والبطش وجُرد من الرحمة والعطف ، سيلقى حتفه بين يدي وحش عتي ، وقد استبد كذلك طويلاً بملك البيداء ، ومن الناس من تحمس لجحدر وآمن بالقوة الإنسانية ، والخيالة والشجاعة وأن الأسد مهما كان ضارياً جائعاً كثيف الطلة ، فسيجد في جحدر نداً يفوقه أبداً وصبراً ، وبأساً وجرأة وأن الصراع سيكون عنيفاً رهيباً ، ولكن جحدر سابق حنكته وتمرسه بالشدائد وصلابة عوده سيفلنج ويردى الأسد هالكا .

وينما الناس في هذا الجدال إذ طلع عليهم الحجاج فشعت الأصوات  
إلا همسا ، ثم استوى على مقعد مشرف على الحفيرة ، وأمر الحراس بإخراج  
جحدر ، فأتى به يتعرّى في قيوده ، وعليه أمارات الواشق بمحنته وقوته ، المطمئن  
لمصيره وعاقبته ، المدل بمهارته وشجاعته ، ثم حطم الحراس أغلاله ، وأعطوه  
سيفاصارما ، أخذ يفحصه ويهزه ، والتفت إلى الأمير قائلا :

— هل الأمير أصلحه الله عند وعده ؟

— أجل ؟! فامض إلى الحفيرة فإن الأسد ينتظرك .

فمضى جحدر لطريقه صوب الحفيرة فما أن رأى الأسد مقبلًا عليه حتى نهض  
وزار زئيرًا رجّ الجبال ، وروع الحاضرين فأنسد جحدر : -

لَيْثُ وَلِيْثُ فِي مَجَالِ ضَنْكٍ كَلَاهَا ذُو قَوْةٍ وَسَفَكٍ  
وَصَوْلَةٍ وَبَطْشَةٍ وَفَتْكٍ إِنْ يَكْشِفَ اللَّهُ قِنَاعَ الشَّكٍ  
فَأَنْتَ لَى فِي قَبْضَتِي وَمِنْكِ

\* \* \*

ثم وقف على الحفيرة وأخذ ينظر إلى الوجوه المتطلعة هنيهة ، ويتأمل  
ما حوله كأنه يتملى من الدنيا قبل أن يودعها هالكا ولكن وقوته لم تطل ،  
فسرعان ما أدى به في الحفيرة فصرخ الأسد عند روشه صرخة عظيمة ، فأجا به  
هو بأعظم منها . وأقبل عليه الأسد منقضا كالصاعقة وعيناه تقدحان بالشر ،  
وأنيابه تتلمس على الفريسة ، ومخالبه مشحوذة كأنها رُسُل الموت ، ووقف  
جحدر وسيفه مُصلت في يده وقفه الأشوش البطل ، الذي يوقن أن حياته  
رهن يمينه ، وحبس الناس أنفاسهم ، وكادت حَدَقاتُ أعينهم تثب من

محاجرها ، وقد ساد الفزع وتملكتكم الرعشة لهذا المنظر الرهيب .

ولما أصبحَ الأسد في متناول سيف جحدر ضربه ضربةً فلقت هامته وزأر لها زأرة المنكسر الهلوع ، وترنح يمنةً ويسرةً ثم خرَّ كأنه بناءً مشمخ قد زُلزل من قواعده وَكَبَّ الناس وعلا ضجيجهم .

وخرج جحدر تهادى في مشيته مقبلًا على الحجاج فقال له : « الله درك ما أتجدك ! إنك أهل للكرامة والعفو » وأقبل وجوه القوم يهنتونه ويبدون إعجابهم به . ثم خيرَه الحجاج بين أن يقيم عنده مكرماً ، في عز ورعد من العيش ، أو يلحق بيلاده على ألا يؤذى أحداً ، ولا يحدث حدثاً ، وكان جحدر سُم حياة الصعلكة والخاطرة ، فروي قليلاً كأنه يعقد موازنة بين ذلك الملك الشاسع في البداء ، وتلك السطوة الغلابة والحرية الطليقة مع ما يصبحها من حنق الأمير وسخط الناس ، والتعرض لغضب الله جل وعز لإيذائه الأبراء ، وبين مقامه عند الأمير في أمن ودعة وطمأنينة وأخيراً قال : بل أقيم معك أيها الأمير — لا زلت مرفوع اللواء ميمون النقيبة .

تغيرت بجحدر سُبل العيش ولكن ذكاءه الفطري ، وذهنه الثاقب ، مكناه من التأدب سريراً بأدب جلساء الأمير وحاشيته ، فزاد إعجاب الحجاج به ، وحظى عنده ، وأصبح من خواصه ، وبعد ذلك بزمن غير طويل ولاه اليمامة مرتع طفولته ومدرج شبابه ، فرجع إليها أميراً مطاع الكلمة بالحق بعد أن خلفها أميراً مطاع الكلمة بالرهة والباطل .

## ١ - المراجع العربية

- |  |                               |
|--|-------------------------------|
| الخطابة لأرسسطو                          | ١ - الدكتور ابراهيم سلامة     |
| النهج السديد ، والدر الفريد              | ٢ - ابن أبي الفضائل           |
| الكامل في التاريخ                        | ٣ - ابن الأثير                |
| تحفة الأنوار ( رحلة ابن بطوطة )          | ٤ - ابن بطوطة                 |
| النجوم الزاهرة                           | ٥ - ابن تغري بردى (أبو الحسن) |
| رسائل ابن تيمية                          | ٦ - ابن تيمية                 |
| رحلة ابن جبير                            | ٧ - ابن جبير                  |
| العبر وديوان المبتدأ والخبر              | ٨ - ابن خلدون                 |
| الطبقات                                  | ٩ - ابن سعد                   |
| طبقات الشعراء                            | ١٠ - ابن سلام                 |
| الفخرى                                   | ١١ - ابن طباطبا               |
| العقد الفريد                             | ١٢ - ابن عبد ربہ              |
| ١ - ديوان ترجمان الأشواق (ترجمة نيكلسون) | ١٣ - ابن عربي                 |
| ٢ - الفتوحات المكية                      |                               |
| الحوادث الجامعية                         | ١٥ - ابن الغوطى البغدادى      |
| تاريخ ابن الفرات                         | ١٦ - ابن الفرات               |
| مسالك الأبصرى                            | ١٧ - ابن فضل الله العمرى      |
| ١ - الميسر والقداح                       | ١٨ - ابن قتيبة                |

- ٢ - عيون الأخبار

٣ - الشعر والشعراء

الفروسيّة

البداية والنهاية

الأصنام

لسان العرب

سرح العيون

السيرة النبوية

المحاسنة

الأخبار الطوال

الجماهر في تعریف الجوادر

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

الأمالى ، وذيل الأمالى

الملامتية والصوفية وأهل الفتوى

الختصر في أخبار البشر

١ - أيام العرب في الإسلام

٢ - أيام العرب في الجاهلية

٣ - قصص العرب أربعة أجزاء

الخرج

المستطرف في كل فن مستطرف

٤١ - ابن القيم

٤٢ - ابن كثير

٤٣ - ابن الكلبي

٤٤ - ابن منظور

٤٥ - ابن نباتة

٤٦ - ابن هشام

٤٧ - أبو تمام

٤٨ - أبو حنيفة الدينوري

٤٩ - أبو الريحان البيروني

٥٠ - أبو شامة

٥١ - أبو على القالي

٥٢ - الدكتور أبو العلاء عفيف

٥٣ - أبو الفداء

٥٤ - أبو الفضل إبراهيم

٥٧ - أبو يوسف

٥٨ - الإ بشيهي

- التصوف في نظر الإسلام ٣٩  
فتوح الشام ٤٠  
الاعتبار ٤١  
الأغاني ٤٢  
بلغ الأرب ٤٣  
بحث عن المروءة ٤٤  
خزانة الأدب ٤٥  
فتوح البلدان ٤٦  
المحاسن والمساوي ٤٧  
شرح القصائد العشر ٤٨  
كشف اصطلاحات العلوم ٤٩  
المحاسن والأضداد ٥٠  
تاريخ المدن الإسلامي ٥١  
كشف الظنون ٥٢  
الأغذية ٥٣  
الطاويسين ٥٤  
دول الإسلام (مخطوط) ٥٥  
الروض الأنف ٥٦  
تاريخ غزوات العرب ٥٧  
المفضليات ٥٨  
أحمد صبرى شويمان  
الأزدى  
أسامة بن منقذ  
الأصفهانى  
الألوسى  
الدكتور بشر فارس  
البغدادى  
البلادرى  
البيهقى  
التبريزى  
التهانوى  
المجاوط  
جورجى زيدان  
 حاجى خليفه  
حسن عبد السلام  
الحالج  
الذهبى  
السمهيلى  
شكيب أرسلان  
الضبى

- ٥٩ - الطبرى تاریخ الأُمّة والملوک
- ٦٠ - الدَّکتور علی إِبراہیم حسن المَالِک الْبَحْرِی
- ٦١ - علی الْبَجَاوِی ١ - أیام العرب فی الإسلام  
٢ - أیام العرب فی الجاهلیة
- ٦٤ - عمر الدسوقي النابغة الذیانی
- ٦٥ - الغزالی ١ - إِحیاء علوم الدین  
٢ - المُنْقَذ مِنَ الضلال
- ٦٧ - فیلیب حتی ١ - مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ  
٢ - تاریخ العرب (ترجمة فیلیب حتی)
- ٦٩ - القشیری الرسالة القشیرية
- ٧٠ - کشاجم أدب الندیم
- ٧١ - لویس شیخحو شعراء النصرانية
- ٧٢ - الماوردي الأحكام السلطانية
- ٧٣ - المبرد الكامل
- ٧٤ - محمد بن منکلی الأحكام السلطانية (مخطوط)
- ٧٥ - محمد الحضری بک ١ - تاریخ الأُمّة الإسلامية  
٢ - مهذب الأغانی
- ٧٨ - محمد كامل علوی ٣ - نور اليقین
- الرياضة عند العرب

الفتوة والفتیان قدیماً — مجلہ لغۃ العرب

٧٩ — مصطفی جواد

ابریل سنۃ ١٩٣٠

نفح الطیب

٨٠ — المقری

١ — الخطط

٨١ — المقریزی

٢ — السلوك

٨٣ — المیدانی

مجمع الأمثال

٨٤ — نور الدين الحلبي

العقد الثمين

٨٥ — ولیم آل ورد

معجم البلدان

٨٦ — یاقوت الحموی

## ٢ - المراجع الأنجذبية

- 1 — Aristotle, Nicomachean Ethics.
  - 2 — Arnold - Sir, T. W. The Preaching of Islam.
  - 3 — Alfred de Vigay, Servitude et Grandeur militaire.
  - 4 — Ampère. J. J. Mélange d'Histoire Littéraire et de Littérature.
  - 5 — Atiya. A. S. The Crusade in the Latter Middle Ages.
  - 6 — Barthélemy. Saint - Hilaire, Mohamet et le Coran.
  - 7 — Beaumont - de, A. Reacherches sur L'origine de blason.
  - 8 — Chateaubriand, 1. Etude Historiques, étude Sixiéme : Mœurs de Barbare
2. Analyse Raisonnée de L'Histoire de France.
- 9 — Corneille, le Menteur.
  - 10 — Daumas. (Génral), Les Chevaux du Sahara.
  - 11 — Délard. l'Art équestre.
  - 12 — Dozy, Histoire de Musulman d'Espagne.
  - 13 — Edourd Monetet, la Propagande Chrétienne et ses adver-saires Musulmans.
  - 14 — Fauriel, Histoire de la poesie Provençal.
  - 15 — Florian, Précis Historique sur Maures.
  - 16 — Gautier, La Chevalerie.
  - 17 — Gibb. The Lagacy of Islam.
  - 18 — Goldziher, 1. Muruwa und Din.
2. Vorlesungen über der Islam.
- 19 — Guizot, Histoire de La Civilisation en Europe.
  - 20 — Guys, Mémoire de l'Academie des Science, Belle - Lettres, Art de Marseille.
  - 21 — Hammer - Purgstall. J. Asiatique.
  - 22 — Herder. Idées sur la Philosophie de l'Histoire de l'Humanitie
  - 23 — Hérodote, Histoire.
  - 24 — Huart, Histoire es Arabes.
  - 25 — Lacurn de Saint-Palaye, Mémoires sur L'ancienne Chevalerie
  - 26 — Le Bon, (G), Civilisation des Arabes.

- 27— Laviss et Rambaud, Histoire Générale.
- 28— Lefray (Dr. G. A.) Mankind and Church.
- 29— Leon Caetani. Annali dell Islam.
- 30— Mækail. Lecture on Poetry.
- 31— Mairn, Histoire de Saladin Sulthan d'Egypte.
- 32— Marett, Anthropology.
- 33— Mignet, Mémoire de l'Academie de Science morales et politiques.
- 34— Michæl. (The Elder), Chrò que.
- 35— Morgan, Mahometism explained.
- 36— Noeldeke. Veterum Carmimum Arabicorum.
- 37— de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes.
- 38— Pierre Damien, Chronique du Turpin.
- 39— Prutz, Kulturgeschte der Kreuzzuge.
- 40— Qutremér Hist, de Sultans Mamloukes, par Makrizi.
- 41— Raymaund, Dictionnaire de Langue de Traubadours.
- 42— Reinaud. Invasion des Sarrazins en France, en Savoie. . etc.
- 43— Ritter, Der Islam.
- 44— Roger Hoveden, Chronica Magistri.
- 45— Schlumberger (Gustave), Récits de Bysance et de Croisade.
- 46— Shafik Ghorbal, The Begining of The Egyptian Question and Rise of Moh-. Ali.
- 47— Sismondi, de la Littérature de Midi de la France.
- 48— Sidgwick, History of Ethics.
- 49— Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammed.
- 50— Stanley Lane-Pool. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.
- 51— Tacite, Mœure dc Germains.
- 52— Thierry ( Augsttin ) Lettre sur l'Histoire de France.
- 53— Thorning, Beitrag Zur Kenntnis Islamischen . . . . .
- 54— Taylor ( E. B. ) Anthropology.
- 55— Viardot, Histoire des Arabes.
- 56— Viollet-le-Duc, Dictionnaire de Mobilier.
- 57— Wacyf Ghali, Tradition Chevaleresque des Arabes.

# كشاف الأعلام

- ( ١ )
- |                       |                      |                          |                   |
|-----------------------|----------------------|--------------------------|-------------------|
| أبو جعفر المنصور      | ٣١٥                  | إبراهيم بن كنيف النبهانى | ١١٤               |
| أبو الحسن بن الشاربان | ٢٤٣                  | ابن الأثير               | ١٦٧ ، ١٧٤         |
| أبو الحسن النجاشي     | ٢٤٢                  | ابن أذينه الشقى          | ١٠٠               |
| أبو حفص الحداد        | ٢٢٤                  | ابن أهبان الفقعنى        | ١٣                |
| أبو حفص التيسابورى    | ٢٢٤                  | ابن بطوطه                | ٢٣١               |
| أبو حنيفة             | ٢٨                   | ابن تيمية                | ٢٢٩               |
| أبو رواغ اليشكري      | ٢١٥                  | ابن جبیر                 | ٢٤٠ ، ٢٣٠         |
| أبو سفيان بن حرب      | ٩٥١ ، ١٥٠ ، ٣٨       | ابن خلدون                | ١٧٤ ، ١٦٧         |
|                       | ٢٠٧ ، ١٦٠ ، ١٥٦      | ابن عربى                 | ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ١٩    |
| أبو عبيد بن مسعود     | ١٩٣                  | ابن عرادة                | ٢١٢               |
| أبو عبيدة بن الجراح   | ٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢١٠      | ابن عمر                  | ١٤٩ ، ١٤٦ ، ١٤٥   |
| أبو عثمان الهندى      | ٢١٦                  | ابن الفارض               | ٢٢٣               |
| أبو العز التوبى       | ٢٤١                  | ابن قتيبة                | ٨٧                |
| أبو عزيز بن عمير      | ٣١٧                  | ابن القيم                | ١٤٧ ، ١٤٥         |
| أبو على الصوفى        | ٢٤٥                  | ابن كلال                 | ٨٨                |
| أبو العلا عفيفي       | ٢٢٧ ، ٢٢١            | ابن السکلى               | ١١٠               |
| أبو الفضل بن الترهان  | ٢٤٢                  | ابن ناشرة                | ١٤                |
| أبو قيس بن الأسلات    | ٣٤                   | ابن هرمه                 | ١٥                |
| أبو كثیر المدى        | ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٢٤ | أبي بن خلف               | ١٤٨               |
|                       | ٣٧٠ ، ٣٦٩            | أبو بكر الجحش            | ٢٤٣               |
| أبو محجن الشقى        | ٢٠٩                  | أبو بكر الصديق           | ١٦٦ ، ١٣٦ ، ١٣٥   |
| أبو مسلم الخراسانى    | ٢٤١                  |                          | ، ١٨٢ ، ١٧٩ ، ١٦٧ |
| أبو نواس              | ٢٣٨                  |                          | ، ١٩٢ ، ١٨٨ ، ١٨٦ |
| أبو هريرة             | ١٤٩                  |                          | ، ٢٠٣ ، ١٩٧ ، ١٩٦ |
| الأخطل                | ٣١٥                  |                          | ٣٠٠ ، ٢٢٥         |
| الأخذس بن شهاب        | ٥٢                   |                          |                   |
| أرسسطو                | ٢٢٢ ، ١٠٢ ، ٦٢       | أبو البلياء              | ١٨                |
| أسامة بن منقذ         | ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٣٨      | أبو تمام                 | ١١٨               |

- |   |   |
|---|---|
| <p>تيلر ٤٠ ، ٢٤<br/>تيمورلنك ٢٥٧</p> <p>(ث)</p> <p>ثابت بن قره ١٣٥<br/>ثابت بن قيس ٢٠٩<br/>ثورفنج ٢٢٢ ، ٢٢١</p> <p>(ج)</p> <p>جابر بن حيان ٧٦<br/>جان دی بربن ٣١٦<br/>جبرائيل بن بختيشوع ٣١٥<br/>جبير بن مطعم ١٧٧<br/>جب ٢٩٠ ، ٢٨٧</p> <p>جحدر بن ربيعة ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥١</p> <p>الجرجاني ١٨</p> <p>جريير ٨٥</p> <p>جزء بن ضرار ١١٤<br/>حساس بن مرة ١٢٣<br/>جعفر بن أبي طالب ٢٠٨ ، ١٨١ ، ١٧٠ ، ٢٠٩</p> <p>جوشن الفزارى ٢٤٢<br/>جولد تسهير ١٤٤ ، ١٨٠ ، ١٧<br/>الجندى ٢٢٦ ، ٢٢٥</p> <p>(ح)</p> <p>حاتم الطائى ٦١ ، ٦٧ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٦ ، ١٣٥ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١</p> <p>حاجي خليفة ٢٤٥ ، ٢٤٠<br/>الحارث بن سعد ٣٣٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٢</p> | <p>إسحق بن حنين ٣١٥<br/>أسد بن كرر ١٢٤<br/>الأعشى ١٢٣<br/>الأعور الشنى ١٩٥</p> <p>أكشم بن صيفي ٦٢<br/>الألوسي ٤٣<br/>أم حكيم بنت الحارث ١٥٣</p> <p>امروء القيس ١٠٩<br/>أم عمارة بنت كعب ٢٠٧<br/>أم الفضل بنت الحارث ٣٨<br/>أممية بن أبي الصلت ٨٢</p> <p>أوس بن حارثة ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠١</p> <p>أوس بن حجر ١٨</p> <p>(ب)</p> <p>بختيشوع ٣١٥<br/>برسفال ١٠٤<br/> بشامة بن حزن المهىلى ١٥<br/>بشر بن أبي حازم ٣٧٣ ، ٩٩<br/>بشر فارس ١٧</p> <p>البلاذرى ١٦٨<br/>بهرام الديلمى ٢٤١<br/> بهمن جاذویه ١٩٨<br/> بهيسة بنت أوس ٤٠٦ ، ٤٠٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١</p> <p>بودوا ٢٧٩<br/>البيروني ١٧ ، ١٦ ، ١٥<br/>بير القاسى ٣٠٦</p> <p>(ت)</p> <p>تعابط شرا ٣٦٦ ، ٣٦١ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٣٧١ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧</p> |
|---|---|

- |  |  |
|--|--|
| <p>خبيب بن عدی ٢٠٧<br/>خداش بن زهیر ٥٢<br/>خدیجۃ بنت خویلد ١٤٣<br/>خلیل بن قلاوون ٢٦٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧<br/>الحنساء ١٨ ، ١٢٨ ، ٣٣ ، ١٣٠</p> <p>(د)</p> <p>درید بن الصمة ١٨ ، ٩٨ ، ٣٩ ، ٣٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢</p> <p>دلارد ٤٢<br/>دوماس (الجزال) ٤١<br/>(ذ)</p> <p>ذو الإصبع العدواني ٧٤ ، ٢٠</p> <p>(ر)</p> <p>الریبع بن زیاد ١٢٦<br/>ریعہ بن مکدم ٩٨ ، ١٢٩ ، ٣٤٩ ، ١٢٩<br/>ركانة بن عبد یزید ١٤٤<br/>روزبة الفارسی ٢٤١<br/>روبرت أوف سانت آلانس ٢٧٨<br/>ریتشارد قلب الأسد ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣١٨ ، ٣١٥</p> <p>(ز)</p> <p>الزبرقان بن بدر ١٢٢<br/>الزبیر بن العوام ١٧٩<br/>زرعة بن عمرو ٨٣<br/>زهیر بن ابن سلمی ٦٨ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩<br/>زهیر بن خدیجۃ ٥٧ ، ٣٥١<br/>زهیر بن عروة المازنی ٦٨<br/>زید الحیل ٤٤ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٣٧٥</p> | <p>الحارث بن ظالم المرى ٥٧ ، ٣٥٢ ، ٩٨ ، ٣٥٣<br/>الحارث بن طبيان ١٩٨<br/>الحارث بن عباد ١١٨<br/>الحارث بن عوف ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥<br/>الحارث بن وعلة ٩٧<br/>الحارث المخاسی ١٢<br/>الحافظ الکندی ٢٤١<br/>الحجاج ٤٥٠ ، ٤٤٧<br/>حذیفة بن بدر ٥٦<br/>حذیفة بن الیمان ٢٤٠<br/>حسان بن ثابت ٦٣<br/>حسان بن ریعہ ٢٤١<br/>الحسن البصری ٢٤١ ، ٢٢٠<br/>حسیل بن سجیح الصبی ٤٧<br/>الحسین بن علی ٣١٠<br/>الحسین بن الحمام ٥٤<br/>الحطیعہ ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٩١<br/>الحلاج ٢٢٣<br/>حمدون القصار ٢٢٦<br/>هزة بن عبد المطلب ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٥<br/>حمل بن بدر ٥٦<br/>حنظلة بن أبي عفرة ١١٩ ، ٣٢٣<br/>(خ)</p> <p>خارجه بن سنان ٤٠١<br/>خالد بن جعفر السکلابی ٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٥٧<br/>خالد بن الولید ١٦٦ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ٢٤٠ ، ١٩٧</p> |
|--|--|

صفوان بن أمية ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ٢٤٠

(ض)

ضبعة العبسى ٤٣ ، ٤١

(ط)

طارق بن زياد ٢١٥

الطبرى ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٦٧

طرفة بن العبد ٨١ ، ٦٦ ، ١٥ ، ١٤

طلاحة بن عبيد الله ١٧٩

طريف بن عيم ٥٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ٢٠٦

عاصر بن الطفيلي ٢٠٨ ، ١٢٣

العباس بن مرسداس ٥٦

عبد الجبار بن صالح ٢٤٣

عبد الرحمن بن حسان ١٣

عبد الرحمن بن الحسين الصوفى ٢٥٥

عبد الرحمن الثالث ٢٧٤

عبد الشارق الجهمي ٥٧

عبد القيس بن خفاف البرجمى ٣٧٦ ، ٤٦

٣٧٧

عبد الله بن أبي ١٧١

عبد الله بن أبي الحمساء ١٦٠

عبد الله بن جدعان ٨٢ ، ٨١

عبد الله بن جعفر ٣١١

عبد الله بن رواحة ٢٠٩ ، ١٨١ ، ١٧٠

عبد الله بن سعد بن أبي السرح ١٥٣

عبد الله بن سعد الطائى ٣٧٢

عبد الله الشرمساوى ٢٤٨

عبد الله بن العباس ١٥١ ، ٣٨

عبد الله بن مروان ٣٣٩

زيد بن حارثة ١٧ ، ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

زيد بن الخطاب ٢٠٩

زيد بن الدمنة ٢٠٧

(س)

سالم بن نصر الله الحموى ٢٤٤

سحيم الأزدى ٤١٢

سعد بن أبي وقاص ٢٠٩ ، ٢٠٠ ، ١٧١

٢١٠

سعد بن معاذ ١٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢٠٥

سعید بن جودى ٢٨٩

سعید بن العاص ٣١١

سلمان الفارسى ٢٤٠

سلمى بن ربيعة ٩٠

سلمة بن الأكواب ١٤٦

سهيل بن عمرو ١٥٥ ، ١٥٠

سويد بن أبي كاهل اليشكري ٤٧ ، ٢٧

السيد القبيطار ٣١٨ ، ٣٠٦

سيديجوك ٦٢

(ش)

شاتو بريان ٥١ ، ٢٨٤

شارمان ٣١٢

شداد بن عمرو ٤٢٢ ، ٤٢٣

شرف الدين الشرابي ٢٤٩

الشماخ بن ضرار ٩١

الشميزن الحارثي ٥٠

الشفري ٤٩

الشريف أبو العز ٢٤١

الشريف المرتضى ٢٦٩

شريك بن عمرو ٣٢٦

(ص)

صلاح الدين الأيوبى ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨

٣١٥ ، ٢٨١ ، ٢٧٩

٣٢٨

- |  |   |
|--|---|
| عمر بن الأهم ٦٣<br>عمرو بن براة ٣٥ ، ١٠٣<br>عمرو بن الجوح ١٠٩<br>عمرو بن العاص ١٢٧ ، ١٨٠ ، ٢١٠<br>٣٠٥ ، ٢١١<br>عمرو بن عبد ود ١٧٨<br>عمرو بن عتبة ١٤٧<br>عمرو بن كلثوم ١٢٩ ، ١٠٢ ، ٥٤<br>عمرو بن معد يكرب ٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٥٠ ، ٤٨<br>عمرو بن هند ١٠٢<br>عمير بن الجمام ١٧٠<br>عمير بن وهب الجحبي ١٥٤<br>عنترة ٣٤ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٤٩ ، ٤٤<br>٤٢٢ ، ٤٢١ ، ١٣٠ ، ١٠٢<br>٤٤٣٠ ، ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣<br>٤٣١<br>عوف بن عطية بن الحرع ٥٢<br>عيسى بن فاتك ٢١١<br><br><b>(غ)</b><br>الغنوى ٨٧<br>غنية بنت عفيف ٦١ ، ٣٧٤<br><br><b>(ف)</b><br>فاطمة بنت الخشرب ١٢٦<br>نصر الدين أبو طالب الدامغاني ٢٤٨<br>فضالة بن كلدة ١٨<br>الفضل ٢٤٢<br>الفضل بن زياد الفارسي ٢٤٢<br>الفضيل ١٢<br>فلك الدين بن سقر ٢٤٨<br><br><b>(م)</b><br>عبد الله بن مسعود ١٧٩<br>عبد الملك بن مروان ٨٤<br>عبد الله الجمام ٢٢٤<br>عبيد بن الأبرص ٣٧٣<br>عبيدة بن ربيعة التيمى ٤٢<br>عتبة بن أسيد الثقفى ١٦١<br>عثمان بن أبي طلحة ١٨٠<br>عثمان بن عفان ١٥٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٢٥<br>عدى بن ربيعة ١١٨<br>عدى بن زيد ١٢٤<br>عربة بن أوس ٩٣ ، ٤١١<br>العرنديس ٨٦<br>عروة بن الوراء ٨٤ ، ٨٣<br>عقبة بن نافع ٢١١<br>عكرمة بن أبي جهل ١٥٣<br>علي بن أبي بكر الأهوazi ٢٢١<br>علي بن أبي طالب ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٣٥ ، ١٤٩<br>١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٨<br>٢٦٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٥<br><br>علي بن الجعد ٢١٦<br>علي بن دغيم ٢٤٣<br>عمر بن الخطاب ١٨٧ ، ١٢٠ ، ٥٠<br>١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٩١<br>٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٧<br>٢١٦ ، ٢٠٩ ، ٢٠٤<br>٢٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢١٧<br>٣٠٥ ، ٣٠٠<br><br>عمر بن عبد العزيز ٩٩ ، ٨٥<br>عمر الرهاض ٢٤٣<br>عمران بن حطان ٢١٢<br>عمرو بن الإطنابة ٣٧٥ ، ١٣٠ ، ٩٨ ، ٥٧ | عبد الله بن مسعود ١٧٩<br>عبد الملك بن مروان ٨٤<br>عبد الله الجمام ٢٢٤<br>عبيد بن الأبرص ٣٧٣<br>عبيدة بن ربيعة التيمى ٤٢<br>عتبة بن أسيد الثقفى ١٦١<br>عثمان بن أبي طلحة ١٨٠<br>عثمان بن عفان ١٥٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٢٥<br>عدى بن ربيعة ١١٨<br>عدى بن زيد ١٢٤<br>عربة بن أوس ٩٣ ، ٤١١<br>العرنديس ٨٦<br>عروة بن الوراء ٨٤ ، ٨٣<br>عقبة بن نافع ٢١١<br>عكرمة بن أبي جهل ١٥٣<br>علي بن أبي بكر الأهوazi ٢٢١<br>علي بن أبي طالب ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٣٥ ، ١٤٩<br>١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٨<br>٢٦٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٥<br><br>علي بن الجعد ٢١٦<br>علي بن دغيم ٢٤٣<br>عمر بن الخطاب ١٨٧ ، ١٢٠ ، ٥٠<br>١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٩١<br>٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٧<br>٢١٦ ، ٢٠٩ ، ٢٠٤<br>٢٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢١٧<br>٣٠٥ ، ٣٠٠<br><br>عمر بن عبد العزيز ٩٩ ، ٨٥<br>عمر الرهاض ٢٤٣<br>عمران بن حطان ٢١٢<br>عمرو بن الإطنابة ٣٧٥ ، ١٣٠ ، ٩٨ ، ٥٧ |
|--|---|

(م)

- ماريت ٦٠ ، ٤٠  
مالك بن دينار ٢٢١  
مالك بن قيس ١٨٥  
مالك بن كعب ٤٨  
ماوية بنت عبد الله ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٧  
٣٧٩ ، ٣٧٨  
الملمس ٣١  
متمم بن نويرة ٨٧ ، ٨٥  
متى بن يونس ٣١٥  
المتنبى ٢٥٤  
المشتب العبدى ١٢٤  
المثنى بن حارثة ١٩١ ، ١٣٧ ، ١٣٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٢  
، ٢٠٤ ، ١٩٦ ، ١٩٥  
٣١٣  
محمد الباقر ٢٣٩  
محمد بن أحمد الحسامى ٢٥٤  
محمد عليه السلام ٣٨ ، ١٣٤ ، ١٤٣  
١٥٦ ، ١٥١ ، ١٤٨  
١٦٩ ، ١٦٥ ، ١٥٩  
١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٠  
٢٢٥ ، ٢٠٨ ، ١٧٩  
محمد بن عبد الله بن طاهر ٢٣١ ، ٢٣٢  
محمد بن القاسم ٢١٥  
مرة بن محكان السعدي ٧٥  
مرداس بن أدية ٢١٢  
المستعصم ٢٥٢  
مستقيم زاده ٢٦٩  
المستنصر ٢٥٢  
مسعود بن أبي سالم ٧٤  
مسلمة بن عبد الملوك ٢١٥

الفند الزمانى ١١  
فيليب أو جست ٢٧٨

(ق)

- قتادة بن النعمان ١٤٨  
قييبة بن مسلم ٢١٤  
قراد بن أجدع ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦  
الخشري ٢٢٧ ، ٢٢١ ، ١٢  
القعقاع بن عمرو ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦  
، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩  
٢٠٣ ، ٢٠٢  
قطبة بن أوس ١١٧  
قطري بن الفجاءة ٢١٣ ، ٢١٢  
قطز ٢٥٥  
قلاؤون ٢٧٦  
قيس بن الخطيم ٦٤  
قيس بن زهير ٤٣٥ ، ٥٦  
قيس بن عاصم ٣١٧

(ك)

- كاتمير ٣٥٣  
كعب بن زهير ١٥٤  
كعب بن مامدة ٨٥ ، ٨٤ ، ١٦  
كليب وائل ١٤٣  
كنزة المنقرية ٣٩  
كورنى ١١٥

(ل)

- لا كورن دى سانت بالاي ١٢٠  
لبيد بن ربيعة ٨٦  
لحى بن حارثة بن عامر ١١٠  
لقيط بن يعمر الإيادى ٣٠

- |   |   |
|---|---|
| <p>الضر بن الحارث ١٥٦<br/>         النعس سلمان ٢٤٢<br/>         نعیان ٢٤٣<br/>         النعمان بن شریک ١٣٥<br/>         النعمان بن مقرن ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٢<br/>         نعیم بن مقرن ٢٠٣<br/>         الغری ٧٧<br/>         نور الدین ٢٧٩</p> <p>(ه)</p> <p>هاشم بن عتبة ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢٠١ ، ١٣٧ ، ١٣٥<br/>         هانیء بن قبیصة ١٣٧ ، ١٣٥<br/>         هبار بن الأسود ١٥٣<br/>         هذیل بن مشبحة ٨٢<br/>         هردر ٢٦٦<br/>         هرقل ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٣٠٠<br/>         هرم بن سنان ٦٨ ، ٤٠٩<br/>         هرمز ١٨٣<br/>         هلال النبهانی ٢٤١<br/>         هلال بن الأسرع ٤٣٨<br/>         هند بنت أبي سفیان ١٧٧ ، ١٣١ ، ٣٨</p> <p>(و)</p> <p>وداک المازنی ١٢٧<br/>         واصف غالی ٢٩٧ ، ١٠٤ ، ٧١</p> <p>(ی)</p> <p>یزید بن أبي سفیان ١٥١ ، ٢١٠<br/>         یزید بن حنظلة ١٢٩<br/>         یزید بن عبد المدان ١٨<br/>         یزید بن مزید الشیبانی ١٨</p> | <p>مصعب بن عمیر ١٤٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ١٧٨ ، ٧٨<br/>         مضرس الربعی ١٥١ ، ٩٣ ، ٣٨ ، ٩٤ ، ٩٣<br/>         معاویة بن أبي سفیان ٣١٠<br/>         معن بن اوس ٩٤ ، ٩٣<br/>         مفروق بن عمرو ١٣٧ ، ١٣٥<br/>         المقداد بن الأسود ٢١١<br/>         المقداد بن عمرو ٢٤٠ ، ٢٠٥<br/>         المقنع الکندي ٧٣<br/>         الملامیراوی ٢٤٢<br/>         المهاجر بن عبد الله ٤١٢ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٣<br/>         المهلل ٤٦ ، ٩٦ ، ١١٨ ، ٩٦<br/>         مهنى العلوی ٢٤٢<br/>         المنتشر بن وھب ١٣٠<br/>         المنصور بن أبي عامر ٣٠٧<br/>         موسى بن عقبة ١٤٥<br/>         موسى بن نصیر ٢١٥<br/>         میشیل الیعقوبی ٢٩٨</p> <p>(ن)</p> <p>النابغة الجعدي ٧٢<br/>         النابغة الذیانی ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١١٢ ، ١٠٥ ، ٨٥ ، ٣٧٣ ، ٢٣٧<br/>         نابليون ٢٥٧<br/>         الناصر لدین الله ٢٤٠ ، ٢٣٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٧٨<br/>         ناصر الدين بن أبي نعجة ٢٤٢<br/>         الناصر (السلطان) ٢٥٧ ، ٢٥٦</p> |
|---|---|

# الفهرس

ص

## المقدمة

٢٠ - ١١

## معنى الفتوة

الفتوة في اللغة ١١ - الفتوة في الأدب ١٣ - الفرق بين  
الفتوة والمرؤة ١٥ - معنى الفتوة ٢٠

١٣٢ - ٢١

## الفتوة عند العرب

نشأة الفتوة ٢١ - أثر الطبيعة في الحواس ٢٢ - الشجاعة ٢٦  
٢٩ - أثر الصحراء في الجسم ٢٧ - معنى الشجاعة ٣٧  
الثار ٣٥ - فضل الأمهات في الشجاعة ٣٧ - الرأي العام  
والشجاعة ٤٠ - الخيل ٤١ - السلاح ٤٦ - الرمح ٤٧ -  
الدرع ٤٨ - السهام ٤٩ - السيف ٥٠ - ملابسهم في  
الحرب ٥٤ - معاملتهم للأعداء ٥٥ - الكرم ٥٩ -  
معانيه ٥٩ - كرم اليد ٥٩ - بواعته ٦٠ - عنائهم  
بالضعف ٧٠ - أفضل الكرم ٧٢ - مظاهر الكرم ٧٦ -  
البشاشة ٧٦ - السخاء ٧٧ - جلب الضيوف ٧٨ - نار  
الكريم ٧٨ - الكلب ٧٩ - التعرض للضيوف في  
الطرقات ٨١ - جفان الكرماء ٨١ - الإيثار ٨٣ -

ص

- اليسير ٨٥ - الكرم والشجاعة متلازمان ٨٧ - كرم  
القلب ٩٢ - معناه ٩٢ - مواطن الحلم ٩٥ - كرم العقل  
١٠٤ - أثر الصحراء في كرم عقولهم ١٠٥ - أثر المجتمع  
العربي في كرم عقولهم ١٠٧ - أثر ديانة العرب في كرم  
عقولهم ١٠٨ - الجن والغول ١١١ - الوفاء بالوعد ١١٥ -  
أثر الصحراء في الوفاء ١١٦ - الحرب والوفاء ١١٦ - المجتمع  
والوفاء ١١٧ - حماية الضعيف ١٢٠ - حماية الجار ١٢١ -  
النجددة ١٢٩ - فك العانى ١٢٨ - الدفاع عن المرأة

الفتوة في الإسلام ... ١٢٣ - ١٤٢

- ١٣٤ - الإسلام دين الفطرة ١٣٣ - الإسلام وأخلاق الجاهلية

١٣٩ - توجيه الإسلام للعرب - الفرق بين رشد العقل الجاهلي

١٤٠ - ورشد العقل الإسلامي - الإسلام وصفات الفتوة

١٧٥ - ١٤٣ ... ... ... ... ... ... سيد الفتىآن

- استعمال القوة في الإسلام وأسبابها ١٤٣ - مصارعة النبي  
 ١٤٤ - مسابقته لسواده ١٤٥ - مسابقته بين الخييل  
 النضال بالرّمي ١٤٦ - شجاعته عليه السلام ١٤٩ - كرمه  
 ١٥١ - كرم قلبه ١٥٢ - كرم عقله ١٥٥ - وفاؤه

ص

فتیان المسلمين ..... ١٦٦ - ٢١٩

- قوة الصحابة في الحروب ١٦٦ - أدبهم ١٦٧ - الشجاعة  
١٦٨ - بواعثها الإسلامية ١٦٩ - يوم مؤتة ١٧٠  
حمراء بن عبد المطلب ١٧٥ - علي بن أبي طالب ١٧٨  
خالد بن الوليد ١٨٠ - المثنى بن حارثة ١٩٢ - القعقاع  
ابن عمرو ١٩٦ - سعد بن معاذ ٢٠٦ - مصعب بن عمير  
٢٠٧ - خبيب بن عدى ٢٠٧ - زيد بن الدُّنْهَنَة ٢٠٧  
أبو محجن الثقفي ٢٠٩ - هاشم بن عتبة ٢١٠ - الخوارج  
٢١١ - المهلب بن أبي صفرة ٢١٢ - قطرى بن الفجاعة  
٢١٣ - قتيبة بن مسلم ٢١٤ - محمد بن القاسم ٢١٥  
موسى بن نصير ٢١٥ - تعاليم عمر بن الخطاب في الفروسية  
٢١٦ - كرم فتيان المسلمين ٢١٨

الفتوة الصوفية

- التصوف يأخذ من الفتوة ٢٢١ - معانى الفتوة عند المتتصوفة  
 ٢٢٣ - أهل الملامة ٢٢٤ - متتصوفة نيسابور ٢٢٥ -  
 العيارون والشطار ٢٢٦ - رأى ابن تيمية في الفتوة الصوفية  
 ٢٢٨ - ابن جبير يتكلم عن الفتوة والفتیان ٢٣٠ -  
 ابن بطوطة والفتیان ٢٣١

ص

فتواة المترفين .. ٢٣٤—٢٥٨

- الصيد ٢٣٤ - الطرد في الجاهلية ٢٣٤ - أسامة بن منقذ  
والصيد ٢٣٩ - الناصر لدين الله ٢٤٠ - سلسلة الفتيان  
٢٤٠ - أنظمة الفتوة ٢٤٣ - رمي البندق ٢٤٥ - كأس  
الفتوة ٢٤٦ - شجاعة أسامة بن منقذ ٢٤٧ - الفتوة بعد  
ال الخليفة الناصر ل الدين الله ٢٤٨ - صلاح الدين الأيوبي وفتواه  
الناصر ٢٥٠ - الملك الماليك ٢٥٢ - نظم الفتواه لهم ٢٥٣ -  
الماليك والحروب الصليبية ٢٥٥ - السلطان الناصر ٢٥٧ -

بين فتوة العرب وفروسية الغرب .. ٢٣٥—٣١٩

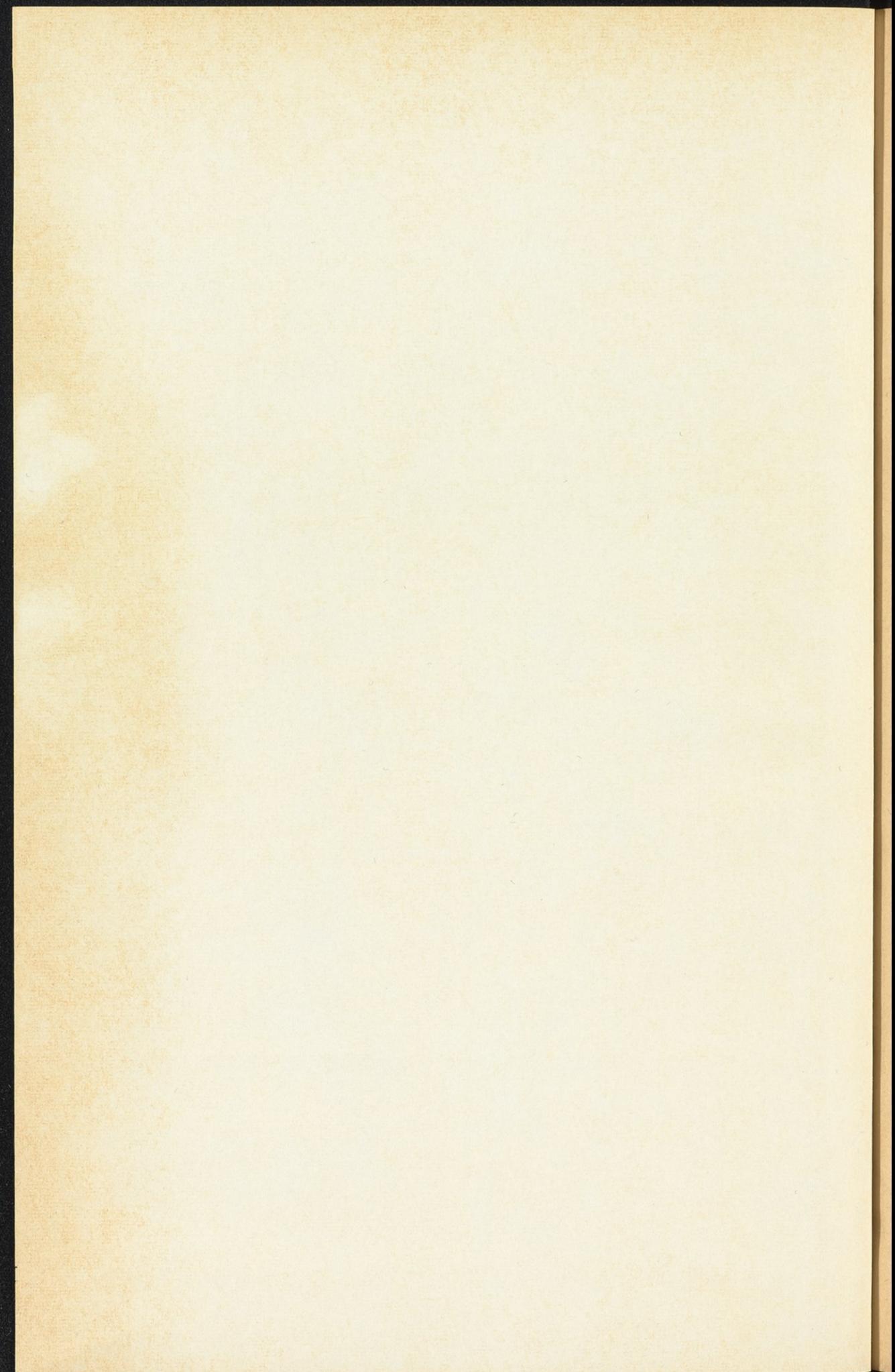
- تعريف الفروسية الغربية ٢٦٠ - أطوارها ٢٦٠ - الطور  
الإقليمي ٢٦١ - الطور المسيحي ٢٦٢ - طور الحب  
٢٦٣ - روافد الفروسية الغربية ٢٦٤ - الأمان ٢٦٥ -  
أثر العرب في الفروسية الغربية ٢٦٧ - أثر الأندلس  
٢٦٩ - لغة البروقنسال ٢٧١ - الروايات والقصص ٢٧٣ -  
الشعر ٢٧٤ - نماذج من أخلاق العرب بألمانيا ٢٧٥ -  
الحروب الصليبية وأثرها في فروسية الغرب ٢٧٦ - صلاح الدين  
الأيوبي ٢٧٨ - أثر الملك الماليك ٢٨٢ - أثر العرب في احترام المرأة  
٢٨٤ - التزو بادور ٢٨٧ - موازنة بين فروسية الغرب  
وفتوة العرب ٢٩٤ - تعاليم الدين ٢٩٤ - التسامح ٣٠٠ -

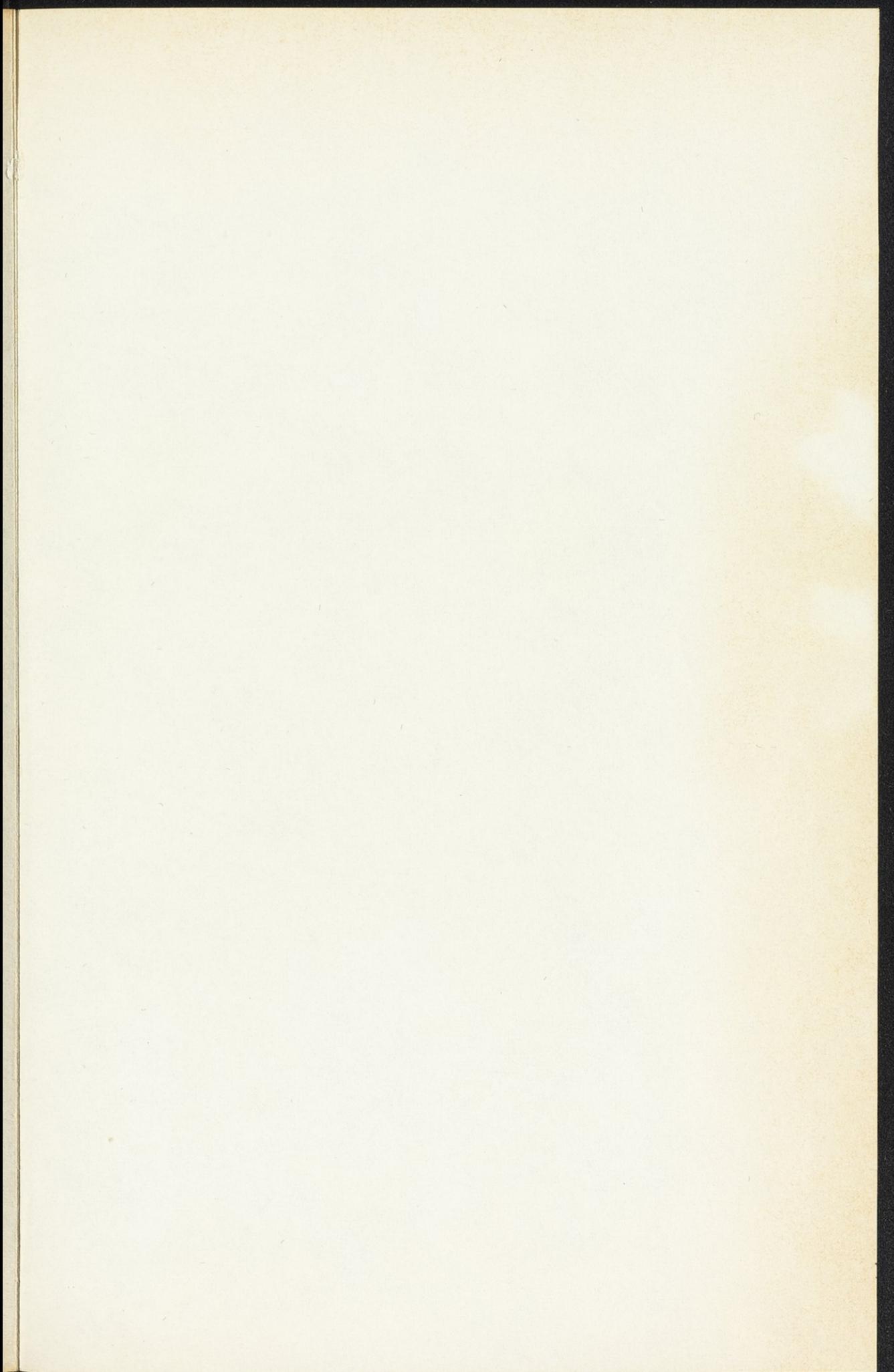
ص

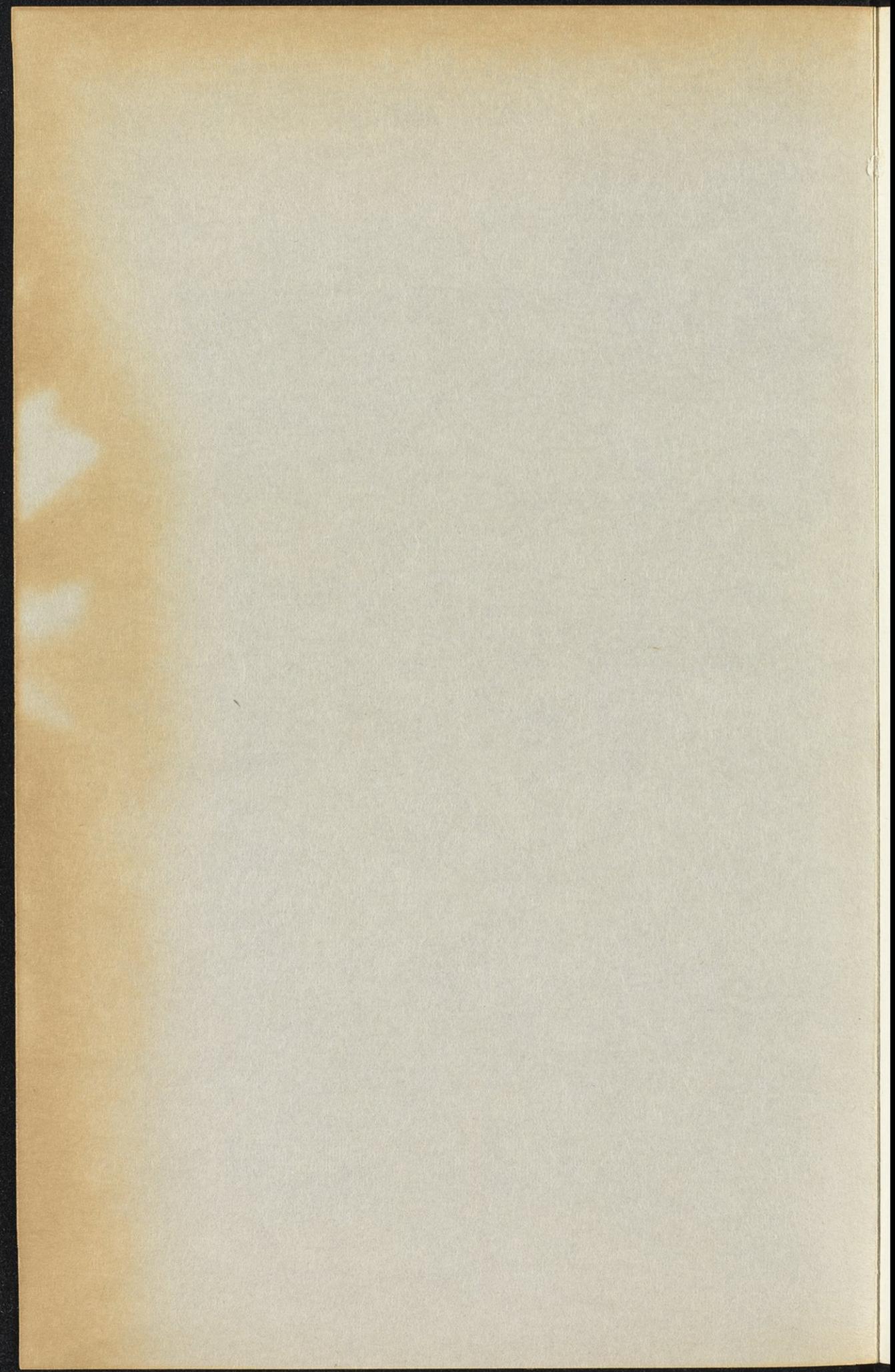
الديمقراطية العربية ٣٠٣ - الأصول الدينية للفروسي  
 الغربية والموازنة بينها وبين الأصول العربية ٣٠٥ - القتال  
 ٣٠٦ - الكرم ٣٠٨ - التعصب الديني ٣١٣ - كرم  
 القلب ٣١٥ - تعاليم العرب في القتال ٣١٨ - الوفاء بالوعد

### صور من الفتورة العربية ... ٣٢٠ - ٣٥٣

٤١٢	السخى العداء	٣٢١	مرؤوة ووفاء
٤٢١	عنترة الفوارس	٣٣١	فارس الشهباء
٤٣٨	هلال	٣٤٢	حامي الطعينة
٤٤٧	جحدر	٣٥١	ثار
٤٥٤	المراجع العربية	٣٦١	تأبط شرا
٤٥٩	المراجع الأجنبية	٣٨٢	فتى كريم
٤٦١	كشاف الأعلام	٣٨٩	لا حر بوا د عوف
٤٦٨	الفهرس	٣٩٨	همة







Cornell University Library

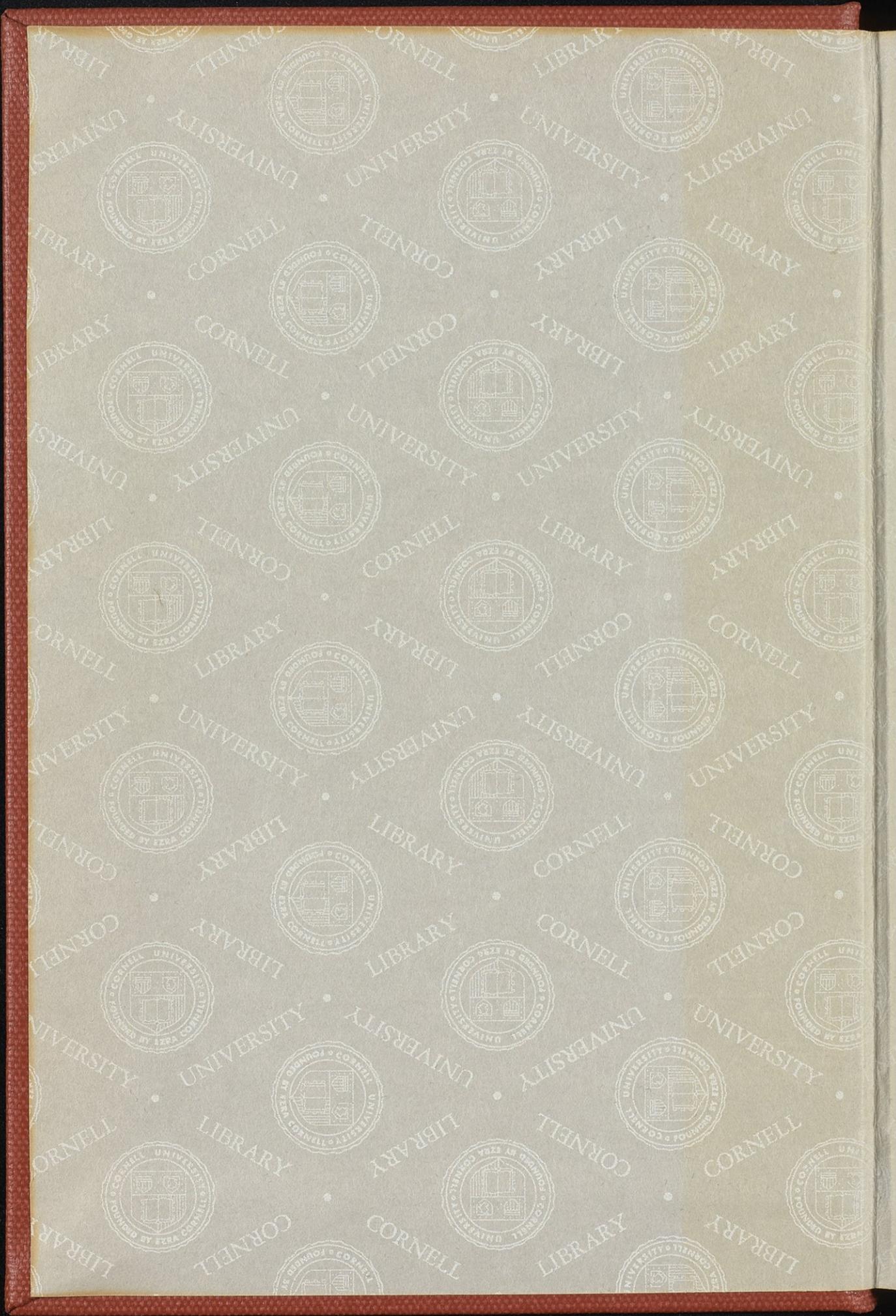
CR6010 .D61

Fatwah ind al-Arab aw ahadith al-fu



3 1924 032 436 473

olin



CR  
6010  
D61